

الكشاف

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الخامس

مكتبة العبيكان

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

الكشاف



سورة لقمان

مكية [إلا الآيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٣ [نزلت بعد الصافات]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة. أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي. ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال عن الآيات. والعامل فيها: ما في تلك من معنى الإشارة. وبالرفع على أنه خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس: [المنسرح]

أَلأَلْمَعِيَّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّـ ... ـظَنَّ أَجْمِلِي كَأَنْ قَدْ رَأَىٰ وَقَدْ سَمِعَا[1]

---

(١) أيتها النفس أجملي جزعا ... إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنـ ... ـنجدة والبر والتقى جمعا
الألمعي الذي يظن بك الظـ ... ـظنَّ كأن قد رأى وقد سمعا
أودى فلا تنفع الإشاحة من ... أمر لمن قَدْ يحاول البدعا

لأوس بن حجر، يرثي فضالة بن كلدة. يقول: يا نفس احتملي جزعاً عظيماً، إن الذي تخافين منه قد حصل، وبينه بقوله: إن الذي جمع المكارم كلها أودى، أي: هلك. وجمع ـ بالضم ـ: توكيد للصفات قبله. والألمعي: نصب على الصفة للذي، وفسره بأنه الذي يظن بك، يعني كل مخاطب، أي: يظن الظن الحق، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب، كأنه قد رآه إن كان فعلاً، أو سمعه إن كان قولاً. وفيه نوع من البديع يسمى التفسير، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره، ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان. والإشاحة: الشجاعة والجد في القتال. وضمن «تنفع» معنى «تحفظ» فعداه بمن، أي: فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحداً. وعداه «باللام» نظراً للفظه. والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام، أي: فلا تنفع الإشاحة شيئاً من النفع أحداً من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها، يعني: أن فضالة كان كذلك فمات. =

حكي عن الأصمعي: أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد. أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال، ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني و﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان، ونحو الغناء وتعلم الموسيقار[1]، وما أشبه ذلك. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يتجر إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل: كان يشتري المغنيات. فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهن» (١١٤٦). وعنه ﷺ «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما

١١٤٦ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم أبو أمامة، وعمر، وعلي، وعائشة.
ـ حديث أبي أمامة:
أخرجه الترمذي (٣/ ٥٧٠) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية بيع المغنيات حديث (١٢٨٢)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٩)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٤١ ـ بتحقيقنا)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٣٣) رقم (٧٨٠٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٤ ـ ١٥) كتاب البيوع: باب ما جاء في بيع المغنيات كلهم من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث أبي أمامة إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن يزيد وضعفه وهو شامي.
والحديث ذكره عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) من جهة الترمذي، وقال: علي بن يزيد ضعيف ضعفه البخاري وأبو حاتم، وأبو زرعة، وأحمد بن حنبل.
وقال النسائي: علي بن يزيد أبو عبد الله متروك وأحسن ما سمعت فيه قول الجرجاني: علي بن يزيد في نفسه صالح، إلا أن يروى عنه ضعيف، وهذا الحديث رواه عن علي بن يزيد عبيد الله بن =

= وفيه نوع تسل.

(١) قوله «وتعلم الموسيقار» يونانية. ومعناه: علم الغناء، وبغير راء: ذات الغناء، كذا قيل. (ع)

على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو

= زحر صاحب كل معضلة والقاسم ضعفه أحمد بن حنبل ووثقه البخاري وقال أبو أحمد الجرجاني: وذكر القاسم هذا كان خيراً فاضلاً. اهـ.

والحديث أخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه والثعلبي والبغوي كما في تخريج الكشاف (٣/ ٦٧) وللحديث طريق آخر.
أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٣٣) كتاب التجارات باب ما لا يحل بيعه حديث (٢١٦٨) من طريق أبي المهلب عن عبيد الله الإفريقي عن أبي أمامة به مرفوعاً.
وله طريق ثالث أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٢) رقم (٧٧٤٩) من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً.
ـ حديث عمر:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٧٣) رقم (٨٧) من طريق يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ثمن القينة سحت وغناؤها حرام والنظر إليها حرام وثمنها مثل ثمن الكلب وثمن الكلب سحت ومن نبت لحمه على السحت فالنار أولى به».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٩٤): وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي وهو متروك ضعفه جمهور الأئمة ونقل عن ابن معين في رواية لا بأس به وضعفه في أخرى.
ـ حديث علي:
أخرجه أبو يعلى (١/ ٤٠٢) رقم (٥٢٧) من طريق الحارث بن نبهان عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي مرفوعاً بلفظ: «نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن المغنيات والنواحات وعن شرائهن وعن بيعهن وتجارة فيهن وقال: كسبهن حرام».
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٩٤) وقال: رواه أبو يعلى وفيه ابن نبهان وهو متروك.
ـ حديث عائشة:
أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٧٨٤ ـ ٧٨٥) رقم (١٣٠٩) من طريق ليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة.
وقال ابن الجوزي: لا يصح، ليث بن أبي سليم متروك قال ابن حبان اختلط في آخر عمره فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل ويأتي عن الثقات ما ليس من حديثهم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة بهذا. وهو عند أحمد وابن أبي شيبة والترمذي وأبي يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف، ورواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم نحوه. وله طريق آخر عند ابن ماجه من رواية عبيد الله الأفريقي عن أبي أمامة، قال: «نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن بيع المغنيات وعن شرائهن، وعن كسبهن وعن أكل أثمانهن وفي الباب عن عمر. أخرجه الطبراني وابن عدي من رواية يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن خصيف عن السائب بن يزيد عن عمر نحوه. ويزيد بن عبد المطلب ضعيف وعن علي أخرجه أبو يعلى وابن عدي وفيه الحارث بن نبهان وهو ضعيف، وعن عائشة أخرجه البيهقي وفيه ليث بن سليم وهو ضعيف. انتهى.

الذي يسكت» (١١٤٧). وقيل: الغناء منفذة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب. فإن قلت: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث؟ قلت: معناها التبيين، وهي الإضافة بمعنى من، وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه، كقولك: صفة خز، وباب ساج[1]. والمعنى: من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فبين بالحديث. والمراد بالحديث. الحديث المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» (١١٤٨)، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى «من» التبعيضية، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه. وقوله: ﴿يَشْتَرِي﴾ إما من الشراء، على ما روي عن النضر: من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان. وإما من قوله: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي استبدلوه منه واختاروه عليه. وعن قتادة: اشتراؤه: استحبابه، يختار حديث الباطل على حديث الحق. وقرئ: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء وفتحها. و﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الإسلام أو القرآن. فإن قلت: القراءة بالضم بينة، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو: أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه، فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان، أحدهما: ليثبت على ضلاله الذي كان عليه، ولا يصدف عنه، ويزيد فيه ويمدّه، فإن المخذول كان شديد

١١٤٧ ـ أخرجه الطبراني في معجمة الكبير (٨/ ٢٤١) رقم (٧٨٢٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما وثقوا وضعفوا.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٦٩) إلى أبي يعلى في مسنده كلاهما من حديث رشدين بن سعد عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زهر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة به.
وأخرجه الطبراني أيضاً في معجمه: (٨/ ٢١٢) رقم (٧٧٤٩)، والترمذي (٥/ ٣٤٥): كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة لقمان، حديث (٣١٩٥)، وقال: هذا حديث غريب من طريق القاسم عن أبي أمامة به.
وأخرجه الواحدي في تفسيره: (٣/ ٤٤١) والثعلبي وابن مردويه في تفسيرهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٧٠) من طريق مطرح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة به.
وبهذا السند والمسند أخرجه إسحاق بن راهويه، والحارث بن أبي أسامة، والواحدي في أسباب النزول كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٧٠).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحارث من طريق أبي أمامة وهو عند الطبراني من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم في الحديث الذي قبله. انتهى.
١١٤٨ ـ تقدّم في سورة التوبة.

---

(١) قوله «كقولك صفة خز وباب ساج» لعله محرف. وأصله جبة خز، ثم رأيت في الصحاح: صفة الدار والسرج: واحدة الصفف اهـ. فلعل صفة السرج تكون من خز. (ع)

الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه. والثاني: أن يوضع ليضل موضع ليضل، من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة، فدل بالرديف على المردوف. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؟ قلت: لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها: وقرئ ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب والرفع عطفاً على يشتري. أو ليضل، والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة، كقوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ/ ٣/ ٩٣أ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ زاماً[1] لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأساً: تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي ثقلا ولا وقر فيهما، وقرئ: بسكون الذال. فإن قلت: ما محل الجملتين المصدرتين بكأن؟ قلت: الأولى حال من (مستكبراً) والثانية من لم يسمعها: ويجوز أن تكونا استئنافين، والأصل في كأن المخففة: كأنه، والضمير: ضمير الشأن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأوّل: مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره؛ لأن قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى: وعدهم الله جنات النعيم، فأكد معنى الوعد بالوعد. وأما ﴿حَقًّا﴾ فدال على معنى الثبات: أكد به معنى الوعد، ومؤكدهما جميعاً قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه، يقدر على الشيء وضده، فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء، وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير فيه للسموات، وهو استشهاد برؤيتهم لها، غير معمودة على قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني فإن قلت: ما محلها من الإعراب؟ قلت: لا محل لها لأنها مستأنفة. أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي: بغير عمد مرئية، يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى، وهي إمساكها بقدرته ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته. والخلق بمعنى المخلوق. و﴿الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ آلهتهم، بكتهم بأن

---

(١) قوله «زاما لا يعبأ بها» في الصحاح: زم بأنفه، أي: تكبر، فهو زام. (ع)

هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه. فأروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

هو لقمان بن باعورا: ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً. ولكن كان راعياً أسود، فرزقه الله العتق، ورضي قوله ووصيته، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً. وقيل: خير بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة[1]. وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياطاً، وعن مجاهد: كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشفق[2]: القدمين. وقيل: كان نجاراً. وقيل: كان راعيا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألست الذي ترعى معي في مكان كذا؟ قال: بلى. قال: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني. وروي أنه دخل على داود عيه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، فقال له داود: بحق ما سميت حكيماً. وروي أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين. فأخرج اللسان والقلب، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب، فسأله عن ذلك؟ فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا. وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس

---

(١) ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة. قال أحمد: وفي هذا بعد بين، وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة، وقطرة من بحرها، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره. وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة.

(٢) قوله «متشفق» في الصحاح: «الشفق»: الرديء من الأشياء. يقال: غطاء مشفق، أي: مقلل اهـ. والظاهر أنه متشقق بقافين. (ع)

ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر، ولقمان. ﴿أَن﴾ هي المفسرة، لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبه الله سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غَنِيٌّ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قيل: كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبي: «أشكم» وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال بهما حتى أسلما ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه ـ: ظلم لا يكتنه عظمه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي ﴿حَمَلَتْهُ﴾ تهن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ كقولك رجع عودا/ ٢/ ٩٣ب على بدء، بمعنى؛ يعود عوداً على بدء، وهو في موضع الحال. والمعنى: أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت ثقلاً وضعفاً. وقرئ: وهنا على وهن، بالتحريك عن أبي عمرو. يقال: وهن يوهن. ووهن يهن. وقرئ: وفصله ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ تفسير لوصينا ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء[1]، يريد الأصنام، كقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]. ﴿مَعْرُوفًا﴾ صحاباً. أو مصاحباً معروفاً حسناً بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة، وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ يريد: واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه ـ وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا ـ ثم إليّ مرجعك ومرجعهما، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما: من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه، وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في

---

(١) قال محمود: «معناه: ما ليس بشيء، وعبر بنفي العلم عن نفي المعلوم» قال أحمد: هو من باب قوله: «على لاحب لا يهتدي بمناره» أي: ما ليس باله فيكون لك علم بالإلهية. وليس كما ذكره في قول فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وقد مر معناه فيما تقدم.

الآخرة. وروي: أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمّه. وفي القصة: أنها مكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها[(1)] بعود. وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت، لما ارتددت إلى الكفر. فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد، تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك. فإن قلت: فقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين: ذكر ما تكابده الأمّ وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدّة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً[(2)]. وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً، ومن ثمّ قال رسول الله ـ ﷺ ـ لمن قال له: من أبر؟ «أمّك ثم أمّك ثم أمّك» ثم قال بعد ذلك: «ثم أباك» (١١٤٩). وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه [من الرجز]:

أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَهْ ... تُرْضِعُنِي الدُّرَّةَ وَالْعُلاَلَهْ

وَلاَ يُجَازَىٰ وَالِدٌ فَعَالَهْ[(3)]

١١٤٩ ـ أخرجه أبو داود (٤/٣٣٦): كتاب الأدب: باب في بر الوالدين، حديث (٥١٣٩)، والترمذي (٤/٣٠٩): كتاب البر والصلة عن رسول الله ـ ﷺ ـ باب ما جاء في بر الوالدين، حديث (١٨٩٧)، كلاهما من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده به. وقال الترمذي: وبهز بن حكيم هو أبو معاوية بن حيوة القشيري وهذا حديث حسن. وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث، وروى عنه معمر والثوري وحماد بن سلمة وغير واحد من الأئمة.
وللحديث شاهد من طريق أبي هريرة.
أخرجه البخاري (١٢/٤): كتاب الأدب: باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟، حديث (٥٩٧١)، ومسلم (٨/٣٤٣ ـ النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (١/٢٥٤٨)، وابن ماجه (٢/١٢٠٧): كتاب الأدب: باب بر الوالدين، حديث (٣٦٥٨). كلهم من طريق جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة به.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: «قلت: يا رسول الله، من أبر؟ الحديث» وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: من أحق بصحابتي؟ ـ الحديث». انتهى.

---

(١) قوله «حتى شجروا فاها بعود» في الصحاح: شجره بالرمح، أي: طعنه. (ع)
(٢) قال محمود: «فيه تخصيص حق الأم، وهو مطابق لبدايته، فذكرها في وجوب البر في الحديث المأثور» قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: إن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جله، وهو مما يفيد تأكيد حقها، والله أعلم.
(٣) لعربي يحمل أمه إلى الحج، وهي الحمالة: جملة حالية، أي: كثيرة الحمل بحسب ما كان. أو من عادتها ذلك، وترضع: حال متداخلة، والدرة ـ بالضم: كثرة اللبن وسيلانه، والمراد بها: اللبن =

فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم: إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تفطمه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وبه استشهد الشافعي ـ رضي الله عنه ـ على أن مدة الرضاع سنتان، لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد. وأما عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ. فمدة الرضاع ثلاثون شهراً. وعن أبي حنيفة: إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته، لم يكن رضاعاً. وإن أكل أكلاً ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته، فهو رضاع محرم.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

قرئ ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة[1] من الإساءة أو الإحسان، أي: إن كانت مثلا في الصغر والقماءة كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة[2] أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلى ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه. وعن قتادة: لطيف باستخراجها، خبير بمستقرّها. ومن قرأ بالرفع: كان ضمير القصة، وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة؛ كما قال [من الطويل]:

. . . . كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ[3]

وروي أنّ ابن لقمان قال له: أرأيت الحبة تكون في مقل البحر ـ أي: في مغاصه ـ يعلمها الله؟ فقال: إنّ الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة؛ لأنّ الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء. وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض، وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار. وقرئ: فتكن، بكسر الكاف. من وكن الطائر يكن: إذا استقر في وكنته، وهي مقره ليلاً.

= الكثير. والعلالة ـ بالضم ـ: بقية اللبن، والحلبة بين الحلبتين، وتطلق على بقية جري الفرس. والعلل: الشرب الثاني، والشرب الأول النهل: وروي ترضعني الدرة. والفعال ـ بالفتح ـ: فعل الخير وأراد بالوالد: الأم، أو ما يشمل الأب والأم.

(١) قوله «للهنة من الإساءة» في الصحاح «هن»: على وزن أخ: كلمة كناية. ومعناه: شيء، ومؤنثه: هنة. والقماءة: الصغر والحقارة. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا من البديع الذي يسمى التتميم» قال أحمد: يعني أنه تمم خلفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من وادي قولها كأنه علم في رأسه نار.

(٣) تقدم

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يجوز أن يكون عاماً في كل ما يصيبه من المحن، وأن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ مما عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب والزام. ومنه الحديث «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» (١١٥٠)، أي: لم يقطعه بالنية: ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام» (١١٥١)، ومنه: «إنّ الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» (١١٥٢). وقولهم: عزمة من عزمات

١١٥٠ ـ تقدّم في سورة البقرة.

١١٥١ ـ تقدّم أيضا.

١١٥٢ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٧١): روي من حديث ابن عمر، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث عائشة .اهـ.
أما حديث ابن عمر:
فأخرجه أحمد ٢/ ١٠٨، وابن حبان في صحيحه ٦/ ٤٥١ (٢٧٤٢)، ٨/ ٣٣٣ (٣٥٦٨) لكن في الموضع الثاني بلفظ: «كما يجب أن تؤتى عزائمه».
والبزار ١/ ٤٦٩ (٩٨٨ ـ ٩٨٩ ـ كشف الأستار)، والبيهقي ٣/ ١٤٠ كتاب الصلاة / باب كراهية ترك التقصير والمسح على الخفين وما يكون رخصة رغبة عن السنة. والخطيب في تاريخه ١٠/ ٣٤٧، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٧٨) كما في فتح الوهاب بتخريج الشهاب للغماري (٢/ ٢٠٥) رقم (٦٧٧) قال الهيثمي في المجمع ٣/ ١٦٥: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار، والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن» اهـ.
وله شاهد من حديث ابن عباس: رواه الطبراني في الكبير (١١٨٨٠ ـ ١١٨٨١)، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٦٩ (٣٥٤) والبزار (٩٩٠ ـ كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٧٦، قال الهيثمي في المجمع ٣/ ١٦٥: «رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجال البزار ثقات وكذلك رجال الطبراني» .اهـ.
وأما حديث ابن مسعود:
فأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٣) رقم (١٠٠٣٠)، وفي الأوسط (٣/ ٢٧٦) رقم (٢٦٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٣/ ١٦٥): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه معمر بن عبد الله الأنصاري؛ قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه .اهـ.
كما أخرجه أبو نعيم (٢/ ١٠١) كلهم مرفوعاً من طريق شعبة عن الحكم بن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله عز وجل يحب أن تقبل رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه».
وقال أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠١): لم يروه مرفوعاً عن شعبة إلا معمر ورواه غندر وبكر بن بكار وغيرهما مرفوعاً.
وأما حديث أبي هريرة:
=

ربنا (١١٥٣)، ومنه: عزمات الملوك. وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده:

= فأخرجه ابن أبي شيبة وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٧٣).
وأما حديث عائشة:
فقد قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٧٣): رواه ابن عدي في الكامل من طريقين:
أحدهما: عن الحكم بن عبد الله بن سعد الأيلي، أنه سمع القاسم عن عائشة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يحب أن يعمل برخصه، كما يحب أن يعمل بفرائضه» وضعف الحكم هذا عن جماعة جداً ووافقهم.
والآخر: عن عمر بن عبيد البصري: ثنا هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة مرفوعا: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»، قلت: وما عزائمه؟ قال: «فرائضه»، وضعف عمر بن عبيد هذا، وقال: لم يروه بهذا الإسناد غيره.
وبهذا السند والمتن أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه، والطبراني في معجمه الأوسط كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٤).
حديث آخر: أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٥/ ٤٨٨) رقم (٤٩٢٤) من طريق الفضل بن العباس القرطبي، عن إسماعيل بن عيسى العطار عن عمر بن عبد الجبار عن عبد الله بن يزيد بن آدم، عن أبي الدرداء وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب مغفرة ربه» اهـ.
وقال الطبراني: لا يُروى هذا الحديث عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس إلا بهذا الإسناد، تفرد به إسماعيل بن عيسى .اهـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة وابن عدي من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أقصر الصلاة في سفري؟ قال: نعم، إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبد الله بن أبي خشعم اليمامي وهو منكر الحديث؛ قاله ابن عدي، وأخرجه أيضاً من طريق سعد بن سعيد بن أبي سعيد، حدثني أخي عبد الله عن أبيه. عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، ورواه ابن حبان وأحمد والبزار، وأبو يعلى من رواية حرب بن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه ابن حبان والطبراني، وأبو نعيم في الحلية من رواية هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر وعن ابن مسعود أخرجه الطبراني، والعقيلي، وأبو نعيم من رواية معمر بن عبد الله الأنصاري عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد برفعه معمر، ووقفه غندر وروح بن عبادة وغيرهما عن شعبة. أخرجه ابن أبي شيبة وغيره. وعن عائشة: أخرجه ابن عدي من رواية الحكم بن عبد الله الأيلي عن القاسم عن عائشة ومن رواية عمر بن عبيد البصري عن هشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان. وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا عمر بن عبد الجبار، حدثنا عبد الله بن زيد بن آدم عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس به وقال: لا يروى إلا بهذا الإسناد تفرد به إسماعيل.
قلت: والإسناد مجهول. قوله: «وقولهم عزمة من عزمات ربنا» هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود، والنسائي، وأحمد، والحاكم والبيهقي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، في أثناء حديثه قال فيه: «ومن منعها يعني الزكاة، فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شيء» وإسناده حسن. انتهى.
١١٥٣ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ١٠١): كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث (١٥٧٥)، والنسائي =

عزمت عليك إلا فعلت كذا، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بدّ من فعله ولا مندوحة في تركه. وحقيقته/ ٢/ ١٩٤: أنه من تسمية المفعول بالمصدر، وأصله من معزومات الأمور، أي: مقطوعاتها ومفروضاتها. ويجوز أن يكون مصدر في معنى الفاعل، أصله: من عازمات الأمور، من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] كقولك: جد الأمر، وصدق القتال. وناهيك بهذه الآية مؤذنة يقدم هذه الطاعات، وأنها كانت مأموراً بها في سائر الأمم وأنّ الصلاة لم تزل عظيمة الشأن، سابقة القدم على ما سواها، موصى بها في الأديان كلها.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

تصاعر، وتصعر: بالتشديد والتخفيف. يقال: أصعر خدّه. وصعره، وصاعره: كقولك أعلاه وعلاه وعالاه: بمعنى. والصعر والصيد: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون. أراد: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ تمرح ﴿مَرَحًا﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا. ويجوز أن يريد: ولا تمش لأجل المرح والأشر، أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك، لا لكفاية مهم ديني أو دنيوي. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ﴾. والمختال: مقابل للماشي مرحاً، وكذلك الفخور للمصعر خدّه كبراً ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ واعدل فيه حتى يكون مشيًا بين مشيين: لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطار. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» (١١٥٤). وأما قول عائشة في عمر ـ رضي الله

= (٥/ ١٥): كتاب الزكاة: باب عقوبة مانع الزكاة، وباب سقوط الزكاة عن الإبل إذا كانت رسلاً لأهلها ولحمولتهم، وأحمد في مسنده (٥/ ٢ و٤)، والحاكم في مستدركه (١/ ٣٩٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .اهـ.

وقال ابن حجر: وإسناده حسن.

١١٥٤ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧٥): روي من حديث أبي هريرة، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث الخدري .اهـ.
أما حديث أبي هريرة:
فأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٩٠)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١/ ٤١٧)، وابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/ ٧٠٧ ـ ٧٠٨) رقم (١١٧٨).
كلهم من طريق محمد بن عبد الملك بن قريب الأحمر عن أبي معشر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة به. قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١/ ٤١٧): قال الشيخ أبو بكر: لم أسمع =

عنهما ـ: «كان إذا مشى أسرع» (١١٥٥)، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب

= لمحمد بن الأصمعي ذكر إلا في هذا الحديث .اهـ.
وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٧٠٨): وفيه أبو معشر، وقد ضعفه يحيى والنسائي والدارقطني .اهـ. وله طريق آخر:
أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٧٠٨)، وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف (٣/ ٧٥) من طريق عمار بن مطر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة به. وقال ابن الجوزي: فيه عمار بن مطر قال الدارقطني: تفرد به عن ابن أبي ذئب قال أبو حاتم الرازي: كان يكذب. قال ابن عدي: متروك الحديث أحاديثه بواطل .اهـ.
وأما حديث ابن عمر:
فأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٧٠٧) رقم (١١٧٧)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (ج ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥) رقم (٩٢٢) وابن حبان في «الضعفاء» (ج ٢/ ٨٢).
كلهم من طريق الوليد بن سلمة القاضي عن عمر بن صهبان عن نافع عن ابن عمر به.
قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٧٠٧): هذا حديث لا يصح عن رسول الله ـ ﷺ ـ فحديث ابن عمر فيه عمر بن صهبان، قال أحمد: لم يكن بشيء وقال يحيى: لا يساوي شيئاً، وقال النسائي والدارقطني: متروك .اهـ.
وقال ابن حبان في الضعاء (٢/ ٨١ ـ ٨٢): عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي روى عنه العراقيون وأهل الشام، كان ممن يروي عن الثقات المعضلات التي إذا سمعها من الحديث صناعته لم يشك أنها معمولة .اهـ.
وأما حديث أبي سعيد الخدري:
فقد أخرجه ابن عدي في الكامل؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٧٦) من طريق الوليد بن سلمة عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري به. وقال ابن حبان في «الضعفاء» (٣/ ٨٠): الوليد بن سلمة الطبراني أبو العباس من أهل الطبرية، كان على قضاء الأردن، يروي عن عبيد الله بن عمر، روى عنه أهل الشام وابنه إبراهيم بن الوليد بن سلمة. كان ممن يضع الحديث على الثقات، لا يجوز الاحتجاج به بحال وابنه نفسه .اهـ.
وللحديث شاهد أيضاً من حديث أنس: أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع» (١/ ١٥٢) رقم (١٩٦) من طريق عبد السلام بن سليمان الأزدي عن أبان عن أنس بن مالك به.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: جاء من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر، وأخرجه ابن عدي من رواية عمار بن مطرد وهو متروك، وقد تابعه الوليد بن سلمة وهو أوهىٰ منه، لكنه قال: عن ابن أبي ذئب عن المغيرة عن أبي سعيد والوليد بن سلمة. وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدي من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة وإسناده ضعيف أيضاً. انتهى.

١١٥٥ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٧٦): غريب، وفي النهاية لابن الأثير عن عائشة قالت: كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع .اهـ.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٢٠) من طريق محمد بن عمر الأسلمي عن عمر بن سليمان بن أبي خيثمة عن أبيه قال: قالت الشفاء بنت عبد الله: كان عمر إذا مشى. . . إلى آخره سواء. =

المتماوت. وقرئ: وأقصد، بقطع الهمزة، أي: سدّد في مشيتك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ وانقص منه واقصر؛ من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أوحشها، من قولك: شيء نكر، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عدّ في مساوي الآداب: أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرجلة[1]، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة ـ وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقا ـ ومبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان. فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قلت: ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾

﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ وقرئ بالسين والصاد، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف، تقول في سلخ، صلخ، وفي سقر: صقر، وفي سالغ: صالغ[2] وقرئ: نعمه، ونعمة، ونعمته. فإن قلت: ما النعمة؟ قلت: كل نفع قصد به الإحسان، والله تعالى خلق العالم كله نعمة؛ لأنه إما حيوان، وإما غير حيوان. فما ليس

= قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره ابن الأثير في النهاية، قلت: لعله أخذه عن الفائق، وفي الطبقات لابن سعد من رواية سليمان بن أبي حثمة. قال: قالت الشفاء بنت عبد الله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى... فذكره. انتهى.

---

(١) قوله «منه الرجلة» أي: المشي برجله، يعني: وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي الصحاح «الرجل» بالتحريك: مصدر قولك: رجل ـ بالكسر ـ أي: بقي راجلاً. (ع)

(٢) قوله «وفي سالغ صالغ» في الصحاح: سلغت البقرة والشاة، إذا أسقطت السن التي خلفت السديس والسلوغ في ذوات الأظلاف: بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف. (ع)

بحيوان نعمة على الحيوان، والحيوان نعمة من حيث أنّ إيجاده حياً نعمة عليه. لأنه لولا إيجاده حياً لما صح منه الانتفاع، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان؟ قلت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض، وإلا كان عبثاً، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة؟ قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وقد أكثروا في ذلك: فعن مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء، والباطنة: الأمداد من الملائكة. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: الظاهرة: الإسلام. والباطنة الستر. وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام: إلٰهي، دلني على أخفى نعمتك على عبادك؛ فقال: أخفى/ ٢/ ٩٤ب نعمتي عليهم النفس. ويروى: أن أيسر ما يعذب به أهل النار: الأخذ بالأنفاس (١١٥٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

معناه: يتبعونهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ومن يسلم بالتشديد، يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله. فإن قلت: ماله عدّى بإلى، وقد عدّى باللام في قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؟ قلت: معناه مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله، أي خالصاً له. ومعناه ـ مع إلى ـ: أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ من باب التمثيل: مثلت

١١٥٦ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٧٧): غريب جدا .اهـ.
وقال ابن حجر: لم أجده.

حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي هي صائرة إليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قرئ: يحزنك، ويحزنك: من حزن، وأحزن. والذي عليه الاستعمال المستفيض: أحزنه ويحزنه. والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام، فإن الله عزّ وجلّ دافع كيده في نحره، ومنتقم منه، ومعاقبه على عمله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ بدنياهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطرّ إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك[1] منه. والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد: الشدّة والثقل على المعذب.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر. وأن لا يعبد معه غيره، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ذلك يلزمهم، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد، وإن لم يحمدوه.

قرئ: والبحر، بالنصب عطفاً على اسم إنّ، وبالرفع عطفاً على محل إن، ومعمولها على ولو ثبت[2] كون الأشجار أقلاما، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو على الابتداء

---

(١) قال محمود: «شبه إلزامهم التعذيب باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه» قال أحمد: وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير. فيكون عليهم كشدة اللهب. فيتمنون عود اللهب اضطراراً. فهو إخبار عن اضطرار.
وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول:
يرون الموت قداما وخلفا ... فيختارون والموت اضطرار

(٢) قوله «ومعمولها على: ولو ثبت» لعله: على معنى ولو... إلخ. (ع)

والواو للحال، على معنى، ولو أنّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً، وفي قراءة ابن مسعود: وبحر يمدّه على التنكير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأوّل. وقرئ: يمدّه، ويمدّه. وبالتاء والياء. فإن قلت: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنّ الشجر أقلام، والبحر مداد. قلت: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمدّه، لأنه من قولك: مدّ الدواة وأمدّها، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً، فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع. والمعنى: ولو أنّ أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر. وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، لما نفدت كلماته ونفذت الأقلام والمداد، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]. فإن قلت: زعمت أنّ قوله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال. قلت: هو كقوله [من الطويل]:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا ....[1]

و: جئت والجيش مصطف، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف، ويجوز أن يكون المعنى: وبحرها، والضمير للأرض. فإن قلت: لم قيل ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاماً[2]. فإن قلت:

---

(١) وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

لامرىء القيس من معلقته، وقد: للتكثير. والوكنات: جمع وكنة بضمتين. وبتثليث أوله وسكون ثانيه: موضع الطير الذي يبيت فيه، والباء للملابسة، والمنجرد: دقيق الشعر قصيره، أو سريع الجري. وشبه الفرس بالقيد تشبيهاً بليغاً: أي: لا تنفك منه الأوابد: وهي الوحوش، ولا تفوته هيكل: عظيم الجسم.

ينظر: ديوانه ص ١٩، وإصلاح المنطق ص ٣٧٧، وخزانة الأدب ٣/١٥٦، ٢٤٣، وشرح المفصل ٢/٦٦، ٦٨، ٣/٥١، ولسان العرب (قيد)، ١١/ ٧٠٠ (هكل)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/ ٤١٠، ٣/٤١، وخزانة الأدب ٤/ ٢٥٠، والخصائص ٢/ ٢٢٠، ورصف المباني ص ٣٩٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٦٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٨٧، والمحتسب ١/ ١٦٨، ٢/ ٢٤٣، ومغني اللبيب ٢/ ٤٦٦.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله «ما نَنْسَخْ مِنْ آية» قُلْتُ: وهذا يذهب بالمعنى الذي أبداه الزمخشري. ورده الشيخ: بأن جمع السلامة متى عُرِّفَ بأَلْ غير العهدية أو أُضِيفَ عَمَّ قُلْتُ: للناس خلاف في أَلْ هل تَعُمُّ أَوْ لا؟ وقد يكون الزمخشري مِمَّن لا يرى العموم ولم يزل الناسُ يسألون في بيت حسان رضي الله عنه:
لَنَا الْجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُحَى. . .
ويقولون كيف أتى بجمع القلة في مقام المدح ولِمَ لَمْ يَقُلْ الجفانُ وهو تقريرٌ لما قاله الزمخشري واعترافٌ بأنَّ أَلْ لا تؤثر في جمع القلة تكثيراً. انتهى الدر المصون.

الكلمات جمع قلة، والموضع موضع التكثير لا التقليل. فهلا قيل: كلم الله؟ قلت: معناه أنّ كلماته لا تفي بكتبتها البحار، فكيف بكلمة؟ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت جواباً لليهود لما قالوا: «قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة» وقيل: إن المشركين قالوا: إنّ هذا يعنون الوحي ـ كلام سينفذ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ. وهذه الآية عند بعضهم مدنية، وأنها نزلت بعد الهجرة، وقيل هي مكية، وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله ـ ﷺ ـ: ألست تتلو فيما أنزل عليك: أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء، ومثله لا تنفد كلماته وحكمه.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، والواحد والجمع، لا يتفاوت، وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد: أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل. وقد تعالى عن ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل صوت ويبصر كل مبصر في حالة واحدة، لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض، فكذلك/ ٢/ ١٩٥أ الخلق والبعث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه، ويقطعه إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر. وعن الحسن: الأجل المسمى: يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ. دلّ أيضاً بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق: على عظم قدرته وحكمته. فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى: أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن[1]. ولكن المعنيين. أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض: لأنّ قولك يجري إلى أجل مسمى: معناه يبلغه وينتهي إليه. وقولك: يجري لأجل مسمى: تريد

(١) قوله «إلا بليد الطبع ضيق العطن» في الصحاح: «أنه مبرك الإبل عند الماء، لتشرب عللا بعد نهل. (ع)

يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون. فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته. وأنّ من دونه باطل الإلهية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ الشأن ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ السلطان. أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أنّ الله هو الحق، وأنّ إلهاً غيره باطل، وأنّ الله هو العليّ الكبير عن أن يشرك به.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قرئ: الفلك، بضم اللام. وكل فعل: يجوز فيه فعل، كما يجوز في كل فعل فعل، على مذهب التعويض. وبنعمات الله: بسكون العين. وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه ورحمته ﴿صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن، فكأنه قال: إنّ في ذلك لآيات لكل مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

يرتفع الموج ويتراكب، فيعود مثل الظلل، والظلمة: كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ: كالظلال. جمع ظلة. كقلة وقلال ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط في الكفر والظلم، خفض من غلوائه، وانزجر بعض الانزجار. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف، لا يبقى لأحد قط، والمقتصد قليل نادر. وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر: أشدّ الغدر. ومنه قولهم: إنك لا تمدّ لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من ختر؛ قال [من الوافر]:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ ... مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ[1]

---

(١) الغدر: أشد الختر. وروي: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً عد بأصابع يده اليمنى: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبأصابع اليسرى: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني، فقال رسول الله ﷺ: «ملأت يديك خيراً». شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية. وملء اليدين: تخييل، وذكرهما لأن الرجل عد بهما، فضربه الشاعر مثلاً لحال أبي عمير ومن يراه على سبيل الاستعارة التمثيلية التهكمية، فإن من رآه =

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿لَّا يَجْزِى﴾ لا يقضي عنه شيئاً. ومنه قيل للمتقاضي: المتجازي. وفي الحديث في جذعة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك (١١٥٧). وقرئ: لا يجزىء: لا يغني[١]. يقال: أجزأت عنك مجزأ فلان. والمعنى: لا يجزي فيه، فحذف ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان. وقيل: الدنيا وقيل: تمنيكم في المعصية المغفرة. وعن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: الغرّة بالله: أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على الله المغفرة. وقيل: ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرّة. وقرئ بضم الغين وهو مصدر غرة غروراً. وجعل الغرور غارّاً، كما قيل: جدّ جِدّه. أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور. فإن قلت: قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف[٢] عليه. قلت: الأمر كذلك؛ لأنّ الجملة الإسمية آكد من الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله: ﴿هُوَ﴾ وقوله: ﴿مَوْلُودٌ﴾ والسبب في مجيئه على هذا السنن: أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم[٣]: قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم: أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً؛ فلذلك جيء به على الطريق الآكد. ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه، لم تقبل شفاعته، فضلاً أن يشفع لمن

- - - - - - - - - - - - - - - -

١١٥٧ ـ تقدم في أوائل البقرة.

= وعد معايبه، كأنه ملأ يديه شراً لا خيراً وحذف العد إشارة إلى أنه بمجرد الرؤية يحصل ذلك.
ينظر: ديوانه (١٠٩)، البحر المحيط (٧/ ١٨٢)، الدر المصون (٥/ ٣٩٢).

(١) قوله «وقرىء لا يجزىء لا يغني» لعله: أي لا يغني. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: لم أكد الجملة الثانية دون الأولى؟ قلت: لأن أكثر المسلمين كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج تأكيداً. ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع في الأوهام أكد نفيه» قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذٍ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر ـ والله أعلم ـ أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع ـ لأن الله حضه عليه في الدنيا ـ كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس، فهذا جواب كاف شاف للعليل، إن شاء الله تعالى. (ع)

(٣) قوله «وعليتهم» أي أشرافهم وعظماؤهم. (ع)

فوقه من أجداده؛ لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد؛ بخلاف المولود فإنه من ولد منك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

روي أنّ رجلاً من محارب وهو الوارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ/ ٢/ ٩٥ب فقال: يا رسول الله، أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد ألقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء، فمتى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها، أذكر أم أنثى؟ وإني علمت ما عملت أمس، فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته، فأين أموت (١١٥٨). فنزلت وعن النبي ﷺ: «مفاتح الغيب خمس» (١١٥٩). وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار. وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره، فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس، فاستفتى

١١٥٨ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢٦) رقم (٢٨١٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٧٧) من حديث ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره.
وذكره الواحدي في تفسيره: (٣/ ٤٤٧) وفي كتابه «أسباب النزول» ص (٣٥٩)، والثعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشاف (٣/ ٧٧) من غير سند ولا راوٍ.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ٣٢٥) وزاد نسبته إلى الفريابي.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الواحدي والثعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال: «جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره». انتهى.

١١٥٩ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) كتاب الاستسقاء: باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، حديث (١٠٣٩)، و(٩/ ١٧٧): كتاب التفسير: باب (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله)، حديث (٤٦٢٧)، و(٩/ ٢٨٤): باب سورة الرعد، و(٩/ ٤٦٦): باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ و(١٥/ ٣١١): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ حديث (٧٣٧٩).
والطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢٧) رقم (٢٨١٧٨ ـ ٢٨١٧٩)، والواحدي في «تفسيره (٣/ ٤٤٨) وفي «أسباب النزول» ص (٣٥٩ ـ ٣٦٠) رقم (٦٨٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر به.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٢٥) وزاد نسبته إلى الفريابي ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر به.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من حديث ابن عمر. انتهى.

العلماء في ذلك، فتأوّلوها بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبغير ذلك، حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: تأويلها أنّ مفاتح الغيب خمس لا يعلمهاإلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أيان مرساها ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير، وفي بلد لا يتجاوزه به ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ برّة أو فاجرة ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً، وعازمة على شر فعملت خيراً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها وأقبر فيها. فترمى بها مرامى القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها، ولا حدّثتها به ظنونها. وروي أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدني. وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك (١١٦٠). وجعل العلم لله والدراية للعبد. لما في الدراية من معنى الختل والحيلة. والمعنى: أنها لا تعرف ـ وإن أعملت حيلها ـ ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما، كان من معرفة ما عداهما أبعد. وقرئ: بأية أرض. وشبه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث، كل في قولهم: كلتهنّ.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطي من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر (١١٦١).

١١٦٠ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٠) رقم (٣٤٢٦٨) من طريق عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان فجعل ينظر إليه... إلى آخره.
وأخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الزهد من طريق عبد الله بن نمير به، ومن طريق أحمد بن حنبل رواه الثعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٧٨).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف. رواه أحمد في الزهد وابن أبي شيبة قالا: حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب قال: «دخل ملك الموت، فذكره». انتهى.

١١٦١ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن الموضوع على النبي ـ ﷺ ـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. انتهى.

سورة السجدة

مكية [إلا من آية ١٦ إلى غاية آية ٢٠ فمدنية]
وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ ۝١﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف: أو هو مبتدأ خبره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء، وخبره ﴿مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: اعتراض لا محل له. والضمير في (فيه) راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ لأنّ قولهم: هذا مفترى، إنكار لأن يكون من رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وما فيه من تقدير أنه من الله، وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أوّلاً أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره: في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك. ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة، قد احترز فيها أنواع الاحتراز، كقول المتكلمين: النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعري عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته. فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله، وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم: ﴿افْتَرَىٰهُ﴾؟ قلت: معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله، لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزاً للبشر، ومثله أبعد شيء من الريب. وأما قولهم: ﴿افْتَرَىٰهُ﴾ فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كقوله: ما أنذر آباؤهم، وذلك أن قريشاً لم يبعث الله

إليهم رسولاً[1] قبل محمد ﷺ. فإن قلت: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة. قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة/ ٢/ ٩٦أ العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيها وجهان: أن يكون على الترجي من رسول الله - ﷺ - كما كان (لعله يتذكر) على الترجي من موسى وهارون عليهما السلام، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؟ قلت: هو على معنيين، أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم. والثاني: أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم، وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز؛ لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فإذا خذلكم لم يبق لكم وليّ ولا نصير.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

﴿ٱلْأَمْرَ﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة؛ لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض: لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة. كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصير إليه، ويثبت عنده.

---

(١) قال محمود: «يعني قريشاً لأنها لم يبعث لها نبي قط. فإن قلت: إن لم يتقدم بعث نبي إليهم فيما قامت عليهم الحجة. قلت: قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل لا سبيل إليه. وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد: مذهب أهل السنة: أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره. وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ يعني ذرية للعرب في زمانه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة: ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر أيضاً ليوم آخر، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة؛ لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبي عبلة: يعرج، على البناء للمفعول. وقرئ: يعدون، بالتاء والياء.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ حسنه، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة: فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقيل: علم كيف يخلقه من قوله: قيمة المرء ما يحسن. وحقيقته، يحسن معرفته أي يعرفه معرفة حسنه بتحقيق وإتقان. وقرئ: خلقه: على البدل، أي: أحسن. فقد خلق كل شيء[1]. وخلقه: على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلاً؛ لأنها تنسل منه، أي: تنفصل منه وتخرج من صلبه[2] ونحوه قولهم للولد: سليل ونجل. و﴿سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...﴾ الآية كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ

---

(١) قوله «أي أحسن فقد خلق كل شيء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ. وعبارة النسفي: على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ويمكن أنه ليس مزيداً، بل هذا حاصل المعنى على البدل، كما أن عكسه الآتي هو حاصل المعنى على الوصف. (ع)

(٢) قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطا تقديره: كما سميت النطفة سلالة، لأنها تسل منه. وفي الصحاح «النجل»: النسل. ونجله أبوه. أي: ولده. (ع)

﴿يَتَوَفَّنٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ قيل القائل أبي بن خلف، ولرضاهم بقولهم أسند إليهم جميعاً. وقرئ: أئنا وأنا، على الاستفهام وتركه ﴿ضَلَلْنَا﴾ صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض. لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالدفن فيها، من قوله [من الطويل]:

وَآبَ مُـضِـلُّـوهُ بِـعَـيْـنٍ جَـلِـيَّـةٍ ....(١)

وقرأ علي وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضللنا، بكسر اللام. يقال: ضل يضل وضل يضل. وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ: صللنا، من صلّ اللحم وأصلّ: إذا أنتن. وقيل: صرنا من جنس الصلة وهي الأرض. فإن قلت: بم انتصب الظرف في (أئذا ضللنا)؟ قلت: بما يدل عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم: هو الوصول إلى العاقبة، من تلقي ملك الموت وما وراءه، فلما ذكر كفرهم بالإنشاء، أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالإنشاء وحده. ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا والتوفي: استيفاء النفس وهي الروح. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]وقال: أخرجوا أنفسكم، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء. من قولك: توفيت حقي/ ٢/ ٩٦ب من فلان، واستوفيته إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان. والتفعل والاستفعال: يلتقيان في مواضع: منها: تقصيته واستقصيته، وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: حويت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة: يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة. وقيل: ملك الموت: يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا

---

(١) وآب مـضـلـوه بـعـيـن جـلـيـة ... وغـودر بـالـجـولان حـزم ونـائـل

يرثي ميتاً. والإياب: الرجوع. والإضلال: الدفق والتغيب. وجولان: جبل بالشام. والنائل: العطاء يعني: بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم، فقد ترك الوصفات هناك.

وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٢١، ولسان العرب (ضلل)، (جلا)، وتاج العروس (ضلل)، (جلا)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٨٧، ٤٦٥، وجمهرة اللغة ص ١٠٤٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٧٧، ومقاييس اللغة ١/ ٤٩٦، ٣/ ٣٥٦، ومجمل اللغة ٣/ ٢٧٧.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ـ ﷺ ـ، وفيه وجهان: أن يراد به التمني، كأنه قال: وليتك ترى، كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها» (١١٦٢). والتمني لرسول الله ـ ﷺ ـ، كما كان الترجي له في ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها، وهو: لرأيت أمراً فظيعاً. أو: لرأيت أسوأ حال ترى. ويجوز: أن يخاطب به كل أحد، كما تقول: فلان لئيم، إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، فلا تريد به مخاطباً بعينه، فكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه، ولو وإذا كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك؛ لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه، ولا يقدر لنرى ما يتناوله، كأنه قيل: ولو تكون منك الرؤية، وإذ ظرف له. يستغيثون بقولهم ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فلا يغاثون، يعني: أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك. أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا ﴿لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار[1] دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على

١١٦٢ ـ أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، والدارمي (٢/ ١٣٤) كتاب النكاح ـ باب الرخصة في النظر للمرأة عند الخطبة، والترمذي (٣/ ٣٩٧) كتاب النكاح ـ باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة ـ حديث (١٠٨٧)، والنسائي (٦/ ٦٩) كتاب النكاح باب إباحة النظر قبل التزويج، وابن ماجه (١/ ٦٠٠) كتاب النكاح ـ باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها حديث (١٨٦٦)، وعبد الرزاق (١٣٣٥) وسعيد بن منصور رقم (٥٥١ ـ ٥١٨)، وابن الجارود ص (٢٢٦) كتاب النكاح حديث (٦٧٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٤)، كتاب النكاح ـ باب الرجل يريد تزوج المرأة هل يحل له النظر إليها أم لا؟ والدارقطني (٣/ ٢٥٢): كتاب النكاح ـ باب المهر ـ حديث (٣١)، والبيهقي (٧/ ٨٤) كتاب النكاح باب نظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها. والخطيب في التاريخ (٧/ ٣٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٤ ـ بتحقيقنا) من طريق عاصم الأحول عن بكر بن عبد الله المزني عن المغيرة قال: «خطبت امرأة فذكرتها لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لي: هل نظرت إليها؟ فقلت: لا. قال: فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

قال الحافظ في تخريج الكشاف: هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، وابن حبان، والحاكم، وأحمد والبزار، وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لي النبي ـ ﷺ ـ انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد في الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة: «لو نظرت إليها» الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا: إنه قد شاء الهدى للكل، ولكن مشيئة تخيير، لا مشيئة إجبار، فلذا لم يهتد الكل بل البعض، ولو شاء مشيئة قسر =

الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء. ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة، وقلة الفكر فيها، وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة. وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم والمعنى فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم[1] من المعاصي والكبائر الموبقة[2].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي وعظوا: سجدوا تواضعاً لله وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ [الإسراء: ١٠٧]: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتع وتتنحى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم، داعين ربهم عابدين له؛ لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون، وعن رسول الله ـ ﷺ ـ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل» (١١٦٣)، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنه التهجد.

١١٦٣ ـ أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٢ ـ ٢٤٢). وابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في مسنديهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي ـ ﷺ ـ قال في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ =

= لاهتدى الكل. وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، وقالوا: كل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، خيراً كان أو شراً. واستلزام الإرادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد؛ لما لهم من الكسب في أفعالهم، وإن كانت في الحقيقة مخلوقة لله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

(١) قال محمود: «معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد: قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقتضي لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة. وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً والمسألة سمعية. وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية، خلافاً للقدرية.

(٢) قوله «والكبائر الموبقة» أي: المهلكة. (ع)

وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ فيقومون وهم قليل. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء، فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» (١١٦٤). وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان أناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فنزلت فيهم (١١٦٥). وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾

= قال: «قيام العبد من الليل» .اهـ.

ومن طريق أحمد رواه الثعلبي، وبهذا الإسناد رواه ابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٤).

وله طريق آخر بمعناه عن معاذ أيضاً.

أخرجه الترمذي (٥/ ١٣ ـ ١٤): كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤ ـ ١٣١٥): كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣) عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ قال: «كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه. . . إلى أن قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ .اهـ.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وله طريق آخر:

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال: «وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. انتهى.

١١٦٤ ـ اختصره الحاكم في المستدرك في تفسير سورة النور (٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر الجهني به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى في مسنديهما والثعلبي في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٨٥).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً، وهو عند الحاكم باختصار. انتهى.

١١٦٥ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٣٥): كتاب الصلاة: باب وقت قيام النبي ـ ﷺ ـ من الليل، حديث (١٣٢١) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك به.

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث الحارث بن رحبة عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك به كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٦).

وله سند آخر: عند البزار في مسنده: عن عبد الحميد بن سليمان عن مصعب عن زيد بن أسلم عن =

على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وما أخفى لهم. وما نخفي لهم. وما أخفيت لهم: الثلاثة للمتكلم، وهو الله سبحانه. وما: بمعنى الذي، أو بمعنى أي[1]. وقرئ: من قرّة أعين. وقرات أعين. والمعنى: لا تعلم النفوس ـ كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ـ أيّ نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فحسم أطماع المتمنين[2]: وعن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا/ ٢/ ١٩٧أ أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله[3] ما أطلعتهم عليه. اقرؤا إن شئتم: فلا تعلم نفس

= أبيه قال بلال: «كنا نجلس. . . إلى آخره بنحوه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٨٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن مردويه من رواية الحارث بن رحبة عن مالك بن دينار: «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ الآية فقال: كان ناس ـ فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه، قال: وكان الحسن يقول: «هو قيام الليل» والبزار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه، قال قال بلال: كنا نجلس وناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال: ولا نعلم له طريقاً إلا هذه. ولا روى أسلم عن بلال غيره. انتهى.

---

(١) قوله «أو بمعنى أي» لعله: أي شيء. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء. ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فإنه على حسب الأعمال، وليس بذاك فإن المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها. وإما أن تحمل ـ وهو الظاهر، والله أعلم ـ على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته ـ ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً، تعالى وتقدس ـ صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات، فعوملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك: تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل، كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه، والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾» وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفي، ورده إلى المتكلم، وهي من القراءات المستفيضة. والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى، مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً، والله الموفق.

(٣) قوله «بله ما أطلعتهم عليه» في الصحاح «بله»: كلمة مبنية على الفتح مثل كيف؛ ومعناها: دع، كما =

ما أخفي لهم من قرة أعين (١١٦٦). وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿كَانَ مُؤْمِنًا﴾ و﴿كَانَ فَاسِقًا﴾ محمولا على لفظ من و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ محمول على المعنى بدليل قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.... ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: ١٦]. و﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ نوع من الجنان:

١١٦٦ ـ ورد من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي، وحديث أبي الدرداء.
فأما حديث أبي هريرة:
أخرجه البخاري ٦/٣٦٦ في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم ٤/٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ في الجنة، في أوله (٢ ـ ٣ ـ ٤/٢٨٢٤)، والترمذي ٥/٣٢٣ في التفسير باب من سورة السجدة (٢١٩٧)، وابن ماجه ٢/١٤٤٧ في الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٢٨)، وأحمد ٢/٣١٣، والحميدي في مسنده ٢/٤٨٠ برقم (١١٣٣)، وابن أبي شيبة ١٣/١٠٩، والطبراني في الصغير ١/٢٦، والطبري في تفسيره ٢١/٦٦ ـ ٦٧، وهناد في الزهد (١ ـ ٢)، وأبو نعيم في الحلية ٩/٢٦ من طرق عن أبي هريرة بنحوه.
وأما حديث سهل بن سعد الساعدي: فأخرجه مسلم في المصدر السابق (٥/٢٨٢٥).
وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/٢٦٢، والطبراني في الأوسط والبزار كما في المجمع ١٠/٤١٥ وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح.
وأما حديث أنس: فرواه الطبراني في الأوسط كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه محمد بن مصعب القرمساني. وهو ضعيف بغير كذب.
وأما حديث أبي الدرداء: فأخرجه البزار كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه زيادة بن محمد وهو ضعيف.
وروي من قول ابن مسعود موقوفاً أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه كما في الدر المنثور ٥/١٧٦.
قال الحافظ: متفق عليه، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

= أجازه الأخفش في قول كعب بن مالك [من الكامل]:

تذر الجماجم ضاحيًا هاماتها ... بله الأكف كأنها لم تخلق

ويقال: معناها سوى. وفي الحديث: «أعددت لعبادي... إلخ». (ع)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ⑮﴾ سميت بذلك لما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش. وقرئ: جنة المأوى، على التوحيد ﴿نُزُلًا﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي ملجؤهم ومنزلهم. ويجوز أن يراد: فجنة مأواهم النار، أي النار لهم، مكان جنة المأوى للمؤمنين: كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ㉔﴾. ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر، وما محنوا به من السنة[1] سبع سنين. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: عذاب القبر. ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يتوبون[2] عن الكفر، أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وسميت إرادة الرجوع رجوعاً، كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويدل عليه قراءة من قرأ: يرجعون، على البناء للمفعول. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة؟ و«لعل» من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمتنع، وتوبتهم مما لا يكون، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر؟ قلت: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده: فإما أن يريدها وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره[3]، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها، لأنّ اختياره لا يتعلق

---

(١) قوله «وما محنوا به من السنة» أي المجدبة. أو المراد بها الجدب. كما يؤخذ من الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه لعلهم يتوبون. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان، وتوبتهم مما لا يكون؛ لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر. قلت: إرادة الله تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده فإما أن يريدها وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختارها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره. كما لا يقدح في اقتدارك: إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها. لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقده عجزاً منك» قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا على الإشراك الخفي، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله، والله المستعان. وإنما جره في تفسير لعل إلى الإرادة، والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى، كذا فسرها سيبويه فيما تقدم، والله أعلم.

(٣) قوله «لم يقدح ذلك في اقتداره» أي عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها. فهذا على مذهب المعتزلة: من أنه قد يريد الشيء ولا يكون، ومذهب أهل السنة: أن كل ما أراده الله كان. (ع)

بقدرتك، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك. وروي في نزولها: أنه شجر بين علي بن أبي طاللب ـ رضي الله عنه ـ والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبيّ: أنا أشبّ منك شباباً، وأجلد منك جلداً، وأذرب منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ: اسكت، فإنك فاسق، فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين (١١٦٧). فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما[1]. وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال للوليد: كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات، وسماك فاسقاً؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ للاستبعاد. والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز؛ ومنه ثم في بيت الحماسة [من الطويل]:

وَلاَ يَكْشِفُ الْغُمَّاءَ إِلاَّ ٱبْنُ حُرَّةٍ يَرَىٰ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[2]

١١٦٧ ـ أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٣٦٣) رقم (٦٨٧) من طريق عبيد الله بن موسى ثنا ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٧) وعزاه للأصبهاني في «الأغاني» والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر .اهـ. وينظر: تخريج الكشاف (٣/ ٨٨) للزيلعي.
قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: «أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتيبة». فقال له علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق، فنزلت. وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
تنبيه: قوله: إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذٍ رجلاً.

---

(١) قال محمود: «سبب نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد جلدًا وأذرب لساناً وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ حشوا في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق. قال الزمخشري: فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تتناولهما معاً» قال أحمد: ذكر للسبب المحقق: لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا: الذين كفروا، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذٍ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد، ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(٢) ولا يكشف الغمّاء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها =

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها. فإن قلت: هلا قيل: إنا منه منتقمون؟ قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ الكتاب للجنس والضمير في ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ له. ومعناه: إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] ونحو قوله: ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ / ٢/ ٩٧ب كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ لقومه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، لصبرهم وإيقانهم بالآيات. وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً، ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين. وقيل: من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب، أي: من

= نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لجعفر بن علبة الحارثي، شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية، والكشف تخييل وقال «ابن حرة» أي كريم؛ ليكون تهييجاً للسامع وبعثاً له على الهيجاء. والغمرة: الشدة. وغمرات الموت: شدائده وأهواله، كأحوال المعركة الشديدة. وقوله «ثم يزورها» أي يلاقيها برغبة، كلقاء المحبوب، وعطفه بثم؛ لأن بين رؤية الأهوال المفزعة، وبين الانحدار إليها برغبة بوناً بعيداً في العادة والتعقل. وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجري فيه المقاسمة، ونقاسمهم تخييل لذلك، ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها، أي ما يغشاهم منها وهي مقابضها. أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أي أطرافها المتقدمة منها. وصدر كل شيء: مقدمه. وعبر بفي دون اللام، لأن «في» تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم اللام تفيد الملك وليس مراداً. وإن كان مقتضى القسمة. فلعله دفع توهمه بالعدول إلى «في» وذكرها أولاً تمهيداً للثانية.

ينظر: الدر المصون (٥/ ٣٩٩).

تلقيه له بالرضا والقبول. وقرئ: لما صبروا، ولما صبروا، أي لصبرهم. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: صبروا عن الدنيا. وقيل: إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة، ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي، فيميز المحق في دينه من المبطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾

الواو في ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة. وقرئ بالنون والياء، والفاعل ما دلّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ لأنّ كم لا تقع فاعلة، لا يقال: جاءني كم رجل، تقديره: أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون. أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه، كقولك: يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون. و﴿الْقُرُونِ﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم. وقرئ: يمشون: بالتشديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾

﴿الْجُرُزِ﴾ الأرض التي جرز نباتها أي قطع، إمّا لعدم الماء، وإمّا لأنه رعي وأزيل، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز. ويدل عليه قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنها أرض اليمن. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: هي أبين[1]. ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿تَأْكُلُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ من عصفه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبه. وقرئ: يأكل، بالياء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

الفتح: النصر، أو الفصل بالحكومة، من قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وكان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع

---

(١) قوله «هي أبين» في الصحاح «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن، فيقال: عدن أبين. اهـ. فتدبر. (ع)

المشركون قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي في أيّ وقت يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كائن. و﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن ـ رضي الله عنهما ـ: يوم فتح مكة. فإن قلت: قد سألوا عن وقت الفتح، فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم. قلت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح، استعجالاً منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. فإن قلت: فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر؟ قلت: المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقرأ ابن السميفع رحمه الله: منتظَرون، بفتح الظاء. ومعناه: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم، يعني أنهم هالكون لا محالة. أو وانتظر ذلك؛ فإن الملائكة في السماء ينتظرونه.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك، أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» (١١٦٨). وقال: «من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» (١١٦٩).

١١٦٨ ـ تقدم تخريجه ويراجع حديث (٣٤٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي. وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر، وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط.

١١٦٩ ـ قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٨٩) غريب جداً.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

سورة الأحزاب

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية
[نزلت بعد آل عمران]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾

عن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعون آية. قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب، إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم (١١٧٠). أراد أبيّ ـ رضي الله عنه ـ أنّ ذلك من جملة ما نسخ/ ٢/ ٩٨أ

١١٧٠ ـ أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٣٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) (٧١٥٠) والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٥٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٧٤) (٤٤٢٩) وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠) (١٣٣٦٣)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٨ ـ ٩) (١٩١٤)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢١١) كلهم من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدها... فذكر الحديث.

قلت: وعاصم بن أبي النجود واسمه عاصم بن بهدلة أبو بكر المقرىء ـ صدوق له أوهام كما في التقريب وقال الحاكم، صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قلت: ووقع خطأ في مسند أحمد في الآية قال: «ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عليم حكيم» والصحيح في الروايات الأخرى «والله عزيز حكيم». وأخرجه الحاكم (٢/ ٤١٥) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٧٣) (٤٤٢٨) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن زر عن أبي بن كعب، قال: كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة. فكان فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما ألبتة.

وقال الحاكم: وصحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

والحديث عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩٣) وابن حجر للطبراني في الأوسط وابن مردويه في تفسيره.

=

من القرآن. وأمّا ما يحكى: أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (١١٧١). جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم. يا موسى، يا عيسى. يا داود: كرامة له وتشريفاً، وربئا بمحله وتنويهاً بفضله. فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

= قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط وابن مردويه كلهم من هذا الوجه. انتهى.

١١٧١ ـ أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦) ـ كتاب النكاح (٩) ـ باب رضاع الكبير حديث رقم (١٩٤٤). والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٩) ـ كتاب الرضاع، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٦/ ٩١) (٤٧٢٩)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٩٥) (٧٨٠١). كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت: «لقد أنزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشراً...».

ووقع تصحيف في المطبوع من المعرفة للبيهقي «يحيى بن إسحاق» بدلاً من «محمد بن إسحاق» والصحيح ما أثبتناه.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عبد الرحمن بن القاسم إلا محمد بن إسحاق.

قلت: ومحمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر إمام في المغازي ولكنه صدوق ويدلس وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث هنا، ولكن للحديث شاهد عن ابن أبي بريد أن الرجم أنزل في سورة الأحزاب، وكان مكتوباً في خوصة في بيت عائشة فأكلتها شاتها أخرجه إبراهيم الحربي في غريبه والحديث عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩٤) لأبي يعلى في مسنده والبزار.

وقال ابن حجر: قال إبراهيم الحربي في الغريب...

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: قلت: بل راويها ثقة غير متهم. قال إبراهيم الحربي في الغريب: حدثنا هارون بن عبد الله أن الرجم أنزل في سورة الأحزاب مكتوباً في خوصة في بيت عائشة. فأكلتها شاتها، وروى أبو يعلى والدارقطني والبزار والطبراني في الأوسط، والبيهقي في المعرفة؛ كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة. انتهى. وكأن المصنف فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدعيه الروافض: أن القرآن ذهب منه أشياء. وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ. انتهى.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾ [المائدة: ٨١]. اتق الله: واظب على ما أنت عليه من التقوى، واثبت عليه، وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾ لا تساعدهم على شيء. ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة. وروي أنّ النبيّ ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم. وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم (١١٧٢). فنزلت. وروي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في الموادعة التي كانت بينه وبينهم. وقام معهم عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا للنبيّ ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله - ﷺ - وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم (١١٧٣)، فنزلت: أي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة، ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروي أنّ أهل مكة دعوا رسول الله - ﷺ - إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل شيئاً ولا يأمر به إلا بداعي الحكمة ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ في ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يوحي إليك خبير ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فموح إليك ما يصلح به أعمالكم، فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة. وقرئ: يعملون، بالياء، أي: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وَكِيلًا﴾ حافظا موكولا إليه كل أمر.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾

ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجية وأمومة في امرأة، ولا بنوّة ودعوة في رجل.

١١٧٢ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩٥)، غريب.
وقال الحافظ: لم أجده.

١١٧٣ - ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٦٤ حديث رقم (٦٨٨) بغير إسناد وعزاه الزيلعي وابن حجر للثعلبي.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ـ لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وأما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً. عالماً ظاناً، موقناً شاكاً في حالة واحدة ـ ولم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أُمّاً لرجل زوجاً له؛ لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان، وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له؛ لأنّ البنوّة. أصالة في النسب وعراقة فيه، والدعوة: إلصاق عارض بالتسمية[1] لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل، وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً، وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ وهبته له. وطلبه أبوه وعمه، فخير فاختار رسول الله ـ ﷺ ـ، فأعتقه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد (١١٧٤)، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾

١١٧٤ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩٦) لابن أبي خيثمة في أول تاريخه بسنده إلى ابن إسحاق قال: وكان من أمر زيد بن حارثة: أنه أصابته منة من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو من سبايا العرب من كلب في بيت منهم، كان حكيم بن حزام اشتراه من سوق صبانة بمكة... وحفظ عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ قلت: وهذه اللفظة الأخيرة.

أخرجها البخاري في صحيحه (٩/ ٤٧١) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ سورة الأحزاب (٤٧٨٢) ومسلم (٨/ ٢٠٩) ـ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) ـ باب فضل زيد بن حارثة وأسامة ـ (٢٤٢٥) والترمذي (٥/ ٣٥٣) ـ كتاب تفسير القرآن ـ سورة الأحزاب ـ (٣٢٠٩).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره ابن إسحاق وابن أبي خيثمة من طريقه، وزاد في آخره: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ أكبر منه بعشر سنين فتبناه»، وعن سالم عن أبيه قال: «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾. انتهى. وهذه الزيادة في الصحيحن عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة مولى رسول الله ـ ﷺ ـ إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ الآية. انتهى.

---

(١) قال محمود: «أسد ما ذكر فيه من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين. فنفى الله صحة ذلك وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل المتناقضة، كجعل الأدعياء أبناء والزوجات أمهات. قال: وهذه الأمور الثلاثة متنافية: أما الأول فلأنه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر، وذلك كالعلم والجهل والأمن والخوف وغير ذلك. وأما الثاني فلأن الزوجة في مقام الامتهان والأم في محل الإكرام، فنافى أن تكون الزوجة أماً. وأما الثالث فلأن البنوة أصالة وعراقة. والدعوة لاصقة عارضة، فهما متنافيان. وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالإنكار.

[الأحزاب: ٤٠] وقيل: كان أبو معمر رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم، فقيل له: ذو القلبين. وقيل: هو جميل بن أسد الفهري، وكان يقول: إن لي قلبين، أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد (١١٧٥)، فروي أنه انهزم يوم بدر، فمرّ بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله، فقال له: ما فعل الناس؟ فقال: هم/ ٢/ ٩٨ب ما بين مقتول وهارب، فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجليّ، فأكذب الله قوله وقولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبني. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان فأكذبهم الله (١١٧٦). وقيل: سها في صلاته، فقالت اليهود: له قلبان: قلب مع أصحابه، وقلب معكم. وعن الحسن: نزلت في أن الواحد يقول: نفس تأمرني ونفس تنهاني (١١٧٧). والتنكير في رجل، وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى، كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه. فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصوّر والتجلي المدلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار. وقرئ: اللايىء[1]، بياء وهمزة مكسورتين. واللائي، بياء ساكنة بعد الهمزة: وتظاهرون: من ظاهر. وتظاهرون. من اظاهر، بمعنى تظاهر. وتظهرون: من أظهر، بمعنى تظهر. وتظهرون: من ظهر، بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد. وتظهرون: من ظهر، بلفظ فعل من الظهور. ومعنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت عليّ كظهر أمي. ونحوه في العبارة عن اللفظ: لبى المحرم، إذا قال لبيك. وأفف الرجل: إذا قال: أف وأخوات لهنّ. فإن قلت: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قلت: كان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية، فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما

١١٧٥ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٥٥) (٢٨٣١٩ ـ ٢٨٣٢١).
١١٧٦ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٥٥) (٢٨٣١٨).
١١٧٧ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٥٥) (٢٨٣٢٢) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٤٧) لابن أبي حاتم.

---

(١) قوله «وقرىء اللايىء بياء وهمزة مكسورتين» لعل مراده قراءتان إحداهما بياء مكسورة والأخرى بهمزة مكسورة، لكن الياء ليست ياء صرفة، بل هي همزة مسهلة ينطق بها بين الهمزة والياء والحاصل: أنه قرىء اللائي بياء ساكنة بعد الهمز. وقرىء اللاء بهمزة مكسورة من غير ياء. وقرىء: اللايى بشبه الياء مكسورة وهي الهمزة التي ينطق بها بين بين، وقرىء: اللاي بياء ساكنة بعد الألف من غير همز، فهذه أربع قراءات في لفظ اللائي أينما كان في القرآن، كما في شرح الشاطبية. (ع)

يتجنبون المطلقة، فكان قولهم: تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها: تحرز منها. وظاهر منها: حاذر منها، وظهر منها: وحش منها[1]. وظهر منها: خلص منها. ونظيره: آل من امرأته، لما ضمن معنى التباعد منها عدّى بمن، وإلا فآلى في أصله الذي هو بمعنى: حلف وأقسم، ليس هذا بحكمه. فإن قلت: ما معنى قولهم: أنت عليّ كظهر أمي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أنت عليّ حرام كبطن أمي، فكنوا عن البطن بالظهر؛ لئلا يذكروا البطن الذي ذكره يقارب ذكر الفرج، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن. ومنه حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: يجيء به أحدهم على عمود بطنه: أراد على ظهره. ووجه آخر: وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرّماً عندهم محظوراً، وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول، فلقصد المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه، شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمّه فلم يترك. فإن قلت: الدعيّ فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يُدعى ولداً فما له جمع على افعلاء، وبابه: ما كان منه بمعنى فاعل، كتقى وأتقياء، وشقيّ وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو رمي وسمي. قلت: إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء، والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النسب هو ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً. والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه، ولا يهدي إلا سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل، وفي فصل هذه الجمل ووصلها[2]: من الحسن والفصاحة ما لا يغبى على عالم بطرق النظم. وقرأ قتادة: وهو الذي يهدي السبيل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه: ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان ابن فلان ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فـ﴾ـهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي: يريد الأخوّة في الدين والولاية فيه ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ في محل الجرّ عطفاً على ما أخطأتم. ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي. أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بنيّ على سبيل الخطأ وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين. ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم، كقوله عليه الصلاة

---

(١) قوله «وحش منها» أي خلا منها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وفي فصل هذه الجمل ووصلها» أي: فصل ما فصل منها ووصل ما وصل. (ع)

والسلام: «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد» (١١٧٨)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» (١١٧٩). ثم تناول

١١٧٨ ـ ورد من حديث أبي هريرة وعائشة.
أما حديث أبي هريرة: فأخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٨ ـ ٥٣٩) ـ والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٤) وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) (١٠٣١٤)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٦ ـ ١٧) (٣٢٢٢) كلهم من طريق جعفر بن برقان عن يزيد الأصم عن أبي هريرة قال: قال النبي ـ ﷺ ـ «ما أخشى عليكم بعدي الفقر. . . وما أخشى عليكم الخطأ ولكني أخشى عليكم العمد».
وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
وأما حديث عائشة فعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٩٦ ـ ٩٧) للطبراني في الأوسط ومسند الشاميين.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان، والحاكم، والبيهقي في الشعب من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة مرفوعاً أتم منه. وأخرجه الطبراني في الأوسط، وفي مسند الشاميين من رواية ثابت بن عجلان حدثني عطاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.

١١٧٩ ـ أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره والناس حديث (٢٠٤٥) والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٤٥) والبيهقي (٧/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧) كتاب الطلاق: باب ما جاء في طلاق المكره، كلهم من طريق محمد بن المصفى ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما استكرهوا عليه وعن الخطأ والنسيان» ومن طريق محمد بن المصفى.
أخرجه أبو القاسم الفضل بن جعفر التميمي المعروف بأخي عاصم في «فوائده» والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» كما في «المقاصد الحسنة» (ص ٢٢٩).
قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٣٠): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع والظاهر أنه منقطع، قال المزي في «الأطراف» رواه بشر بن بكر التنيسي عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس. انتهى. وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم .اهـ.
وهذا كلام جيد من الحافظ البوصيري رحمه الله والطريق الذي أشار إليه الحافظ المزي.
أخرجه ابن حبان (١٤٩٨ ـ موارد) والدارقطني (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) كتاب النذور رقم (٢٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٩٥) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره، والحاكم (٢/ ١٩٨) كتاب الطلاق والبيهقي (٧/ ٣٥٦) كتاب الخلع والطلاق: باب طلاق المكره، الطبراني في «الأوسط» كما في «التلخيص» (١/ ٢٨٢) كلهم من طريق بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء بن رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال البيهقي: جوده بشر بن بكر.
وقال الطبراني: لم يروه عن الأوزاعي مجوداً إلا بشر .اهـ.
ومن هذا الطريق صححه ابن حبان. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس:
الطريق الأول: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤) رقم (١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي حدثني سعيد هو العلاف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله عز =

لعمومه خطأ التبني وعمده. فإن قلت: فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قلت: إذا كان المتبنى

- - - - - - - - - - - - - - - - -

= وجل تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».
قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٢٦): أخرجه الجوزجاني وسعيد العلاف هو سعيد بن أبي صالح قال أحمد: وهو مكي قيل له كيف حاله؟ قال: لا أدري وما علمت أحداً روى عنه غير مسلم بن خالد قال أحمد: وليس هذا مرفوعاً إنما هو عن ابن عباس قوله نقل ذلك عنه مهنا، ومسلم بن خالد ضعفوه .اهـ.
الطريق الثاني:
أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٨٢) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمي حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عفى لي عن أمتي الخطأ والنسيان والاستكراه» وعبد الرحيم بن زيد. قال يحيى: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال السعدي: غير ثقة أسند ذلك عنهم ابن عدي في «الكامل».
وقال النسائي: متروك وضعفه أبو داود وأبو زرعة التهذيب (٦/ ٢٧٣) وزيد العمي قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٢٧٤) ضعيف.
وللحديث شواهد من حديث أبي بكرة وأبي الدرداء وأم الدرداء وثوبان وعقبة بن عامر وابن عمر وأبي ذر.
ـ حديث أبي بكرة:
أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٩٠ ـ ٩١) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٥) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه».
قال الحسن قول باللسان فأما اليد فلا.
ومن هذا الوجه أخرجه الحافظ في «تخريج أحاديث المختصر» (١/ ٥٠٦) وقال هذا حديث غريب أخرجه ابن عدي في «الكامل» عن حذيفة بن الحسن عن أبي أمية محمد بن إبراهيم عن جعفر وعده في منكرات جعفر وقال: لم أر للمتقدمين فيه كلاماً ولعل ذلك من قبل أبيه فإني لم أر له رواية عن غيره.
قلت: ـ أي الحافظ ـ أبوه ضعفه يحيى بن معين والبخاري وغيرهما .اهـ.
ـ حديث أبي الدرداء:
أخرجه الطبراني كما في «نصب الراية» (٢/ ٦٥) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله تجاوز لأمتي عن النسيان وما أكرهوا عليه».
قال الحافظ في «التلخيص» (١/ ٢٨٢): وفي إسناده ضعف.
ـ حديث أم الدرداء:
أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تخريج المختصر» (١/ ٥٠٩) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه» قال أبو بكر ـ الهذلي ـ فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل أما تقرأ بذلك قرآنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.
قال الحافظ: وأبو بكر الهذلي ضعيف وفي الإسناد مع ذلك انقطاع أو إرسال بالنسبة لأم الدرداء لأنها إن كانت الكبرى فمنقطع وإن كانت الصغرى فمرسل وفي شهر مقال أيضاً .اهـ. =

مجهول النسب وأصغر سناً من المتبني ثبت نسبه منه، وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت

= والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦٥) وعزاه لابن أبي حاتم.
ـ حديث ثوبان:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٧) رقم (١٤٣٠) من طريق يزيد بن ربيعة الرحبي ثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه».
قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف.
والحديث ضعف سنده الحافظ في «التلخيص» (١/ ٢٨٢).
ـ حديث عقبة بن عامر:
ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٣) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف.
حديث ابن عمر:
أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٣) كلهم من طريق محمد بن المصفى عن الوليد ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».
قال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به ابن مصفى عن الوليد وضعفه العقيلي وأعله بابن مصفى ونقل تضعيفه عن الوليد وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح.
ـ حديث أبي ذر:
أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥٩) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره والناسي حديث (٢٠٤٣) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أبي ذر مرفوعاً.
قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٣٠) هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي.
قلت: وللحديث علتان أخرتان ضعف شهر بن حوشب والانقطاع بينه وبين أبي ذر.
قال العلائي في «جامع التحصيل» (ص ١٩٧): شهر بن حوشب عن تميم الداري وأبي ذر وسلمان ـ رضي الله عنهم ـ وذلك مرسل. اهـ.
وحديث الباب: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» صححه الحاكم وابن حبان والضياء والذهبي والنووي في الأربعين (ص ٨٥) فقال: إنه حسن.
وحسنه الحافظ في تخريج المختصر (١/ ٥١٠) وقال: وبمجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلاً.
وتبعه تلميذه السخاوي في «المقاصد» (ص ٢٣٠).
ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» (١٧٠٥).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن عدي من رواية حسن بن برقة حدثني أبي عن الحسن عن أبي بكرة رفعه: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً: «الخطأ والنسيان والأمر المكرهون عليه» هذه من منكرات جعفر. وأخرجه ابن ماجه، وابن حبان من حديث ابن عباس. فأما ابن حبان فقال: عن عطاء عن عبيد بن عمير عنه، بلفظ: «إن الله تجاوز»، وأما ابن ماجه فقال عن الأوزاعي: «إن الله وضع». انتهى.

النسب، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم يثبت النسب، ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه/ ٢/ ١٩٩أ بالتبني وإن كان عبداً عتق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد[1].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبدلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وصرفهم عنه، لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم[2] لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعن النبي ﷺ: «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ» (١١٨٠). وفي قراءة ابن مسعود: النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وهو أب لهم. وقال مجاهد: كل نبيّ فهو أبو أمّته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأنّ النبي ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ تشبيه لهنّ بالأمهات في بعض الأحكام، وهو وجوب تعظيمهنّ واحترامهن، وتحريم نكاحهن. قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات، ولذلك

١١٨٠ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٣٤١) ـ كتاب الاستقراض (٤٣) ـ باب الصلاة على من ترك ديناً ـ (٢٣٩٩). وهو عند مسلم في صحيحه (٦/ ٦٧ ـ نووي) ـ كتاب الفرائض (٢٣) ـ باب من ترك مالاً فلورثته (٤) (١٦١٩) بلفظ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. . .» دون ذكر الآية.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بمعناه.

---

(١) قوله «وعن العمد إذا تاب العامد» هذا عند المعتزلة، وقد يغفر بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)
(٢) قوله «فأخذ بحجزهم» في الصحاح «حجزة الإزار»: معقده. وحجزة السراويل: التي فيها التكة. (ع)

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لسنا أمهات النساء (١١٨١). تعني: أنهنّ إنما كنّ أمّهات الرجال، لكونهنّ محرّمات عليهم كتحريم أمّهاتهم. والدليل على ذلك: أنّ هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهنّ، وكذلك لم يثبت لهنّ سائر أحكام الأمهات. كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة، كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات، ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام[١] وعزّ أهله، وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح. أو فيما أوحى الله إلى نبيه وهو هذه الآية. أو في آية المواريث. أو فيما فرض الله كقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾. ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، أي: أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة. فإن قلت: مم استثنى ﴿أَن تَفۡعَلُوٓاْ﴾؟ قلت: من أعم العام في معنى النفع والإحسان، كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية، تريد: أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك، إلا في الوصية. والمراد بفعل المعروف: التوصية لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى، لأنه في معنى: تسدوا وتزلوا[٢] والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعاً. وتفسير الكتاب: ما مر آنفاً، والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأرحام.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾

﴿وَ﴾ اذكر حين ﴿أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعاً ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين

١١٨١ ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٥٣) ـ ترجمة عائشة ـ من طريق الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن فراس عن الشعبي عن مسروق «قالت: امرأة لعائشة: يا أمه قالت: إني لست بأمك إنما أنا أم رجالكم».
وعزاه الزيلعي للدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الدارقطني من رواية مضر الأعتق حدثتني حرفاء قالت: قلت لعائشة: «يا أم. فقالت: لست أم النساء، إنما أم الرجال» وفي الطبقات من طريق مسروق قال: «قالت امرأة لعائشة: يا أم. فقالت عائشة: إني لست بأمك إنما أنا أم الرجال». انتهى.

---

(١) قوله «دجا الإسلام» في الصحاح: دجا الإسلام، أي: قوي وألبس كل شيء. (ع)
(٢) قوله «لأنه في معنى تسدوا وتزلوا» في الصحاح: أزلت إليه نعمة. أي: أسديتها. وفي الحديث: «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» اهـ. (ع)

القيم ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصاً ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ وإنما فعلنا ذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به، من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ عهدهم وشهادتهم، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين. أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم. لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم. وتأويل مسألة الرسل: تبكيت الكافرين بهم، كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. فإن قلت: لم قدم رسول الله ـ ﷺ ـ على نوح فمن بعده[1] قلت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم[2]، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية، وهي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم قدم على غيره. قلت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير. فإن قلت/ ٢/ ٩٩ب: فماذا أراد بالميثاق الغليظ؟ قلت: أراد به ذلك الميثاق بعينه. معناه: وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً. والغلظ: استعارة من وصف الأجرام، والمراد: عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه. وقيل الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؟ قلت: على أخذنا من النبيين، لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين. وأعد للكافرين عذاباً أليماً. أو على ما دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعدّ للكافرين.

---

(١) قال محمود: «قدم النبي ﷺ على نوح لأنهم ذكروا تخصيصاً بعد التعميم تفضيلاً لهم فقدم أفضل المخصوصين» قال أحمد: وليس التقديم في الذكر بمقتضى ذلك. ألا ترى إلى قوله:

بهاليل منهم جعفر وابن أمه ... علي ومنهم أحمد المتخير

فأخر ذكر النبي ﷺ ليختم به تشريفاً له. وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم، فيظهر والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر: أنه هو المخاطب من بينهم، والمنزل عليه هذا المتلو، فكان تقديمه لذلك. ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام: جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم. والله أعلم.

(٢) قوله «هم مشاهيرهم وذراريهم» ولعله «دراريهم» بالدال المهملة. والدراري: الكواكب العظام، كما أفاده الصحاح. (ع)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾

﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ ما أنعم الله عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ وهم الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريح الصبا. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نصرت بالصباء وأهلكت عاد بالدبور» (١١٨٢). ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفاً: بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم[1] وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاء النجاء، فانهزموا من غير قتال، وحين سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، أشار عليه بذلك سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام[2] واشتدّ الخوف، وظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر (١١٨٣). ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق: بنو غطفان ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ من أسفل

١١٨٢ ـ تقدم تخريجه في سورة البقرة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.
١١٨٣ ـ أخرجه ابن إسحاق في «سيرته» (١٣٤٨ ـ سيرة ابن هشام) وذكره ابن هشام في سيرته (٣/ ١٩٧) من قول ابن إسحاق.
=

---

(١) قوله «فأخصرتهم» في الصحاح «الخصر» بالتحريك: البرد. وقد خصر الرجل: إذا آلمه البرد في أطرافه اهـ. فأخصرتهم: أوقعتهم في الخصر أي البرد. (ع)
(٢) قوله «فرفعوا في الآطام» أي الحصون، وهو جمع أطم كعنق. (ع)

الوادي من قبل المغرب: قريش تحزبوا وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوّها لشدة الروع. الحنجرة: رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغمّ الشديد: ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل للجبان: انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب: الذين هم على حرف، والمنافقون: الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأمّا الآخرون فظنوا بالله ما حكي عنهم. وعن الحسن: ظنوا ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أنّ المسلمين يستأصلون، وظنّ المؤمنون أنهم يبتلون. وقرئ: الظنون، بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة؛ كما زادها في القافية من قال [من الوافر]:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا ....(1)

= وأخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٥٦٥) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا فذكره.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه الطبري عن يزيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا فذكر القصة بطولها وأتم مما ههنا وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق. انتهى.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي. ومن طريقه الطبري عن زيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا، فذكر القصة بطولها وأتم مما ههنا. وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق. انتهى.

---

(١) أقلي اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت: لقد أصابا
إذا غضبت علي بنو تميم ... وجدت الناس كلهم غضابا

لجرير، وزاد الألف في القافية للإطلاق، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتنوين الترنم بدل حرف الإطلاق. قال الزمخشري: إذا وصل المنشد ولم يقف، وظاهر كلام النحويين: أنه إنما يجيء في الوقف. وعاذل: منادي، مرخم عاذله. يقول: اتركي ملامي وعتابي، وإن فعلت صوابا فاعترفي به، ويروى بكسر التاء، فالمعنى: أن لومك خطأ فإذا أردت الصواب فقولي: لقد أصاب، وجعل غضب بني تميم غضب كل الناس؛ لأن ما عداهم تبع، أو كالمعدوم. ويروى: إذا غضبت عليك، والخطاب لكل سامع.

ينظر: ديوانه ص ٨١٣، وخزانة الأدب ١/ ٦٩، ٣٣٨، ٣/ ١٥١، والخصائص ٢/ ٦، والدرر ٥/ ١٧٦، ٦/ ٢٣٣، ٣٠٩، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٤٩، وسر صناعة الإعراب ص ٤٧١، ٤٧٩، =

وكذلك الرسولا والسبيلا. وقرئ: بزيادتها في الوصل أيضاً، إجراء له مجرى الوقف. قال أبو عبيد: وهنّ كلهنّ في الإمام بألف. وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا. وقرئ زلزالا بالفتح. والمعنى: أنّ الخوف أزعجهم أشد الإزعاج.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ قيل قائله معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً[1]، ما هذا إلا وعد غرور ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه. وعن السدي: عبد الله بن أبيّ وأصحابه. ويثرب: اسم المدينة. وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرئ بضم الميم وفتحها، أي لا قرار لكم ههنا، ولا مكان تقيمون فيه أو تقومون ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى المدينة: أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله ـ ﷺ ـ، وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفاراً وأسلموا محمداً، وإلا فليست يثرب لكم بمكان. قرئ: عورة، بسكون الواو وكسرها، فالعورة: الخلل، والعورة: ذات العورة، يقال: عور المكان عوراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق. ويجوز أن تكون (عورة) تخفيف: عورة، اعتذروا /٢/ ١٠٠أ أنّ بيوتهم معرّضة للعدو ممكنة للسراق، لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا ليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة. وقيل: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها. وانثالت[2] على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾

= ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠١، ٥٠٣، ٥١٣، ٦٧٧، ٧٢٦، وشرح الأشموني ١/ ١٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٦٢، وشرح المفصل ٩/ ٢٩، والكتاب ٤/ ٢٠٥، ٢٠٨، والمقاصد النحوية ١/ ٩١، وهمع الهوامع ٢/ ٨٠، ٢١٢، وبلا نسبة في الإنصاف ص ٦٥٥، وجواهر الأدب ص ١٣٩، ١٤١، وأوضح المسالك ١/ ١٦، وخزانة الأدب ٧/ ٤٣٢، ١١/ ٣٧٤، ورصف المباني ص ٢٩، ٣٥٣، وشرح ابن عقيل ص ١٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٩٨، وشرح المفصل ٤/ ١٥، ١٤٥، ٧/ ٩، ولسان العرب (خنا)، والمنصف ١/ ٢٢٤، ٢/ ٧٠، ونوادر أبي زيد ص ١٢٧.

(١) قوله «فرقا» أي خوفا. (ع)

(٢) قوله «وانثالت» في الصحاح: انثال عليه الناس من كل وجه، أي: انصبوا. (ع)

أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لأتوها: لجاؤها وفعلوها. وقرئ: لآتوها: لأعطوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ وما ألبثوا إعطاءها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً، فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم، ويتمحلون ليفروا عن نصرة رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولاً ورعباً؛ وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا[1] عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين، لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء، وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام. وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم. وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ. وعن محمد بن إسحاق عاهدوا يوم أحد أن لا يفرّوا بعدما نزل فيهم ما نزل ﴿مَسْـُٔولًا﴾ مطلوباً مقتضى حتى يوفي به ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ مما لا بدّ لكم من نزوله بكم من حتف أنف أو قتل. وإن نفعكم الفرار مثلاً فمنعتم بالتأخير: لم يكن ذلك التمتيع إلا زماناً قليلاً. وعن بعض المروانية: أنه مرّ بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل نطلب.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

فإن قلت: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قلت: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله [من مجزوء الكامل]:

. . . . مُـتَـقَـلِّـداً سَـيْـفـاً وَرُمْـحـاً[2]

---

(١) قوله «لو كبسوا» في الصحاح: كبسوا دار فلان: أغاروا عليها فجأة. (ع)

(٢) ورأيـت زوجـك فـي الـوغـى مـتـقـلـداً سـيـفـاً ورمـحـا
الوغى: الحرب. ورمحا: نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحا. وروي بدل الشطر الأول: «يا ليت زوجك قد غدا» أي: ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.
وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/١٠٨، ٦/٢٣٨، وأمالي المرتضى ١/٥٤، والإنصاف ٢/ =

أو حمل الثاني على الأوّل لما في العصمة من معنى المنع.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهم المنافقون: كانوا يقولون ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ـ ﷺ ـ: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس[1]، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلوهم و﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي قربوا أنفسكم إلينا. وهي لغة أهل الحجاز: يسوّون فيه بين الواحد والجماعة. وأمّا تميم فيقولون: هلمّ يا رجل، وهلموا يا رجال، وهو صوت سمي به فعل متعدّ مثل احضر وقرب (قل هلمّ شهداءكم) ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً قليلاً يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا نراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطرّوا إليه، كقوله: ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ في وقت الحرب أضناء بكم، يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك، فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشحّ وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير ـ وهو المال والغنيمة ـ ونسوا تلك الحالة الأولى، واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوّكم وبنا نصرتم عليه. ونصب ﴿أَشِحَّةً﴾ على الحال أو على الذمّ. وقرئ: أشحة، بالرفع. وصلقوكم بالصاد. فإن قلت: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟ قلت: لا ولكنه تعلم لمن عسى يظن أنّ الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي

= ٦١٢، وخزانة الأدب ٢/٢٣١، ٣/١٤٢، ٩/١٤٢، والخصائص ٢/٤٣١، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٨٢، وشرح المفصل ٢/٥٠، ولسان العرب (رغب)، (زجج)، (مسح)، (قلد)، (جدع)، (جمع)، (هدى)، والمقتضب ٢/٥١.

(١) قوله «ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس» أي قليلون يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل، والالتهام: الابتلاع، كذا في الصحاح. (ع)

عليه، فبين أنّ إيمانه ليس بإيمان، وأنّ كل عمل يوجد منه باطل. وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثوراً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وكل شيء عليه يسير؟ قلت: معناه: أن أعمالهم حقيقة بالإحباط، تدعو إليه الدواعي، ولا يصرف عنه/ ٢/ ١٠٠ب صارف ﴿يَحْسَبُونَ﴾ أنّ الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانية، تمنوا لخوفهم مما منوا[١] به هذه الكرّة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ـ ولم يقاتلوا إلا تعلة[٢] رياء وسمعة. وقرئ: بدّي، على فعّل جمع باد كغاز وغزّي. وفي رواية صاحب الإقليد: بديّ، بوزن عديّ. ويساءلون، أي: يتساءلون. ومعناه: يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعت؟ ماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول: رأيت الهلال وتراءيناه: كان عليكم أن تواسوا رسول الله ـ ﷺ ـ بأنفسكم فتوازروه وتثبتوا معه، كما آساكم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مرحى الحرب[٣]، حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ وجهه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

فإن قلت: فما حقيقة قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقرئ: أسوة[٤]، بالضم؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة، أي: قدوة، وهو الموتسى، أي: المقتدى به، كما تقول: في البيضة عشرون منا حديد، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد. والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع. وهي المواساة بنفسه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من لكم، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] يرجو الله واليوم الآخر: من قولك رجوت زيدا وفضله، أي: فضل زيد. أو يرجو أيام الله. واليوم الآخر خصوصاً. والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ

---

(١) قوله «مما منوا به» أي ابتلوا به. (ع)

(٢) قوله «إلا تعلة» في الصحاح: علله بالشيء، أي: لهاه به، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن. يقال: فلان يعلل نفسه بتعلة. (ع)

(٣) قوله «في مرحى الحرب» أي مكان إدارة رحاها. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله «وقرىء أسوة بالضم» يفيد أن قراءة الكسر هي المشهورة. (ع)

﴿كَثِيرًا﴾ وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة، والمؤتسى برسول الله ـ ﷺ ـ: من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤] فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال قال النبي ﷺ لأصحابه: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً، أي: في أخر تسع ليال أو عشر، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك (١١٨٤). وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿إِيمَٰنًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ـ ﷺ ـ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وحمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم، ـ رضي الله عنهم ـ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يعني حمزة ومصعباً ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يعني عثمان وطلحة. وفي الحديث: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة» (١١٨٥)، فإن قلت: ما قضاء

١١٨٤ ـ بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٠).

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أجده. انتهى.

١١٨٥ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٦٤٤) ـ كتاب المناقب (٥٠) ـ باب مناقب طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ (٣٧٣٩) من طريق صالح بن موسى الطُّلْحِيُّ من ولد طلحة بن عبيد الله عن الصلت بن دينار عن أبي نضرة قال: قال جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سره أن ينظر إلى =

النحب؟ قلت: وقع عبارة عن الموت؛ لأنّ كل حيّ لا بدّ له من أن يموت. فكأنه نذرٌ لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه، أي: نذره. وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يحتمل موته شهيداً، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله - ﷺ -. فإن قلت: فما حقيقة قوله: ﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؟ قلت: يقال: صدقني أخوك وكذبني، إذا قال لك الصدق والكذب. وأمّا المثل: صدقني سنّ بكره. فمعناه: صدقني في سن بكره، بطرح الجار وإيصال الفعل، فلا يخلو ﴿مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إما أن يكون بمنزلة السنّ في طرح الجار، وإمّا أن يجعل المعاهد عليه مصدوقاً على المجاز، كأنهم قالوا للمعاهد عليه: سنفي بك، وهم وافون به فقد صدقوه، ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوباً ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ العهد ولا غيروه، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة، ولقد ثبت طلحة مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد حتى أصيبت يده، فقال رسول الله - ﷺ -: «أوجب طلحة» (١١٨٦) وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب: جعل المنافقون، كأنهم

= شهيد...» فذكره.

وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما.

قلت: وتابع صالح بن موسى مسلم بن إبراهيم عند البغوي في تفسيره (٣/ ٥٢٠)، ووكيع عند ابن ماجه في سننه (١/ ٤٦) - المقدمة - فضل طلحة بن عبيد الله (١٢٥) بلفظ: «شهيد يمشي على وجه الأرض».

وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ١٤٦) (٢٥٤٧) حدثنا الصلت بن دينار به لكن: الصلت بن دينار الأزدي أبو شعيب المجنون متروك كما في التقريب (١/ ٣٦٩) وله طريق آخر عند الطبراني في معجمه الكبير (١/ ١١٧) (٢١٥) من طريق سليمان بن أيوب حدثني أبي عن جدي عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: كان النبي - ﷺ - إذا رآني قال: «من أحب أن ينظر...».

وهذا سند ضعيف فإن سليمان بن أيوب صاحب مناكير ولا يتابع على أحاديثه كما قال ابن مهدي.

وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٤٩) «رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أيوب الطلحي وقد وثق وضعفه جماعة، وفيه جماعة لم أعرفهم.

قلت: وللحديث شواهد يرتقي بها إلى الصحة.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من طريق الصلت بن دينار عن أبي نصرة عن جابر. والصلت ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق أولاد طلحة عن طلحة. انتهى.

١١٨٦ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠١) لم يرو هكذا بهذا اللفظ إلا الثعلبي: أخبرنا عبد الله بن حامد ثنا أحمد بن محمد بن شاذان ثنا جيعونة بن محمد الترمذي ثنا صالح بن محمد بن سليمان بن حرب عن جرير عن عروة عن عائشة في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قالت: منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله - ﷺ -... إلى آخره. اهـ.

وقد روي هذا الحديث مفرقاً. فقوله - ﷺ -: أوجب طلحة.

أخرجه الترمذي (٤/ ٢٠١) كتاب الجهاد باب ما جاء في الدرع حديث (١٦٩٢) وفي (٥/ ٦٤٣) =

قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأنّ كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما. ويعذبهم ﴿إِن شَآءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ مغيظين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ غير ظافرين، وهما حالان بتداخل أو تعاقب/٢/١٠١أ. ويجوز أن تكون الثانية بياناً للأولى أو استئنافاً ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ﴾ ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم، والصيصية ما تحصن به، يقال لقرن الثور والظبي: صيصية، ولشوكة الديك، وهي مخلبه التي في ساقه، لأنه يتحصن بها. روي أنّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ـ ﷺ ـ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم ـ على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: من متابعة قريش: فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج، فقال: يا رسول الله، إن

= ـ ٦٤٤) كتاب المناقب: باب مناقب طلحة حديث (٣٧٣٨) وأحمد (١/ ١٦٥) وابن حبان (٢٢١٢ ـ موارد) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ٩١) رقم (١٢٢٠٩) والحاكم (٣/ ٢٥) كلهم من طريق محمد بن إسحاق ثنا يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه به.

وقال الترمذي في الموضع الأول: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.
وقال في الموضع الآخر: حديث حسن غريب صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان. وابن إسحاق مدلس وقد صرح بالتحديث فزالت شبهة تدليسه.
وينظر سيرة ابن هشام (٢/ ٨٦) أما كونه أصيبت يده.
فأخرجه البخاري (٨/ ١٠٥) كتاب المغازي باب إذ همت طائفتان حديث (٤٠٦٣) عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ـ ﷺ ـ يوم أحد.
وللحديث طريق آخر:
أخرجه النسائي (٦/ ٢٩ ـ ٣٠) كتاب الجهاد باب ما يقول من يطعنه العدو حديث (٣١٤٩) من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر فذكر حديثاً وفيه فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه. . .
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ـ الآية. منهم طلحة بن عبيد الله وقد روي مفرقاً من غير هذا الوجه فقضيته أن يده أصيبت أخرجها البخاري من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال: لما كان يوم أحد كان رسول الله ـ ﷺ ـ في ناحية في اثني عشر رجلاً من الأنصار فذكر القصة مطولة.

الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم، فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة، لقول رسول الله ـ ﷺ ـ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: تنزلون على حكمي؟ فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم، فكبر النبي ﷺ وقال: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[1] ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير[2] (١١٨٧). وقرئ: الرعب، بسكون العين وضمها، وتأسرون، بضم السين. وروي أن النبيّ ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال: إنكم في منازلكم، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال: لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس، قال: رضينا بما صنع الله ورسوله (١١٨٨). ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ:

١١٨٧ ـ ذكره ابن هشام في «سيرته» (٣/ ٢٢٧) عن ابن إسحاق من قوله.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: هو في سيرة ابن هشام في غزوة بني قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فاسنده ابن إسحاق من عاصم بن عمر عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاعة عن أبي الزبير عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: لما رابطهم رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه جبريل وهو يغسل رأسه. انتهى.

١١٨٨ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٤) رواه الواقدي في المغازي حدثني معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت: لما غنم رسول الله ـ ﷺ ـ بني النضير قسم ما أفاء الله عليه فأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئا إلا رجلين كانا محتاجين سهل بن حنيف وأبا دجانة.
قال الحافظ: أخرجه الواقدي من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء قالت: «لما غنم رسول الله ـ ﷺ ـ بني النضير ـ الحديث ـ ومن طريق المسور بن رفاعة قال: قال عمن يا رسول الله ألا تخمس ما أصبت من بني النضير؟». انتهى.

---

(١) قوله «من فوق سبعة أرقعة» في الصحاح «الرقيع» سماء الدنيا. وكذلك سائر السموات. وفي الحديث «من فوق سبعة أرقع» على لفظ التذكير، كأنه ذهب إلى السقف. (ع)

(٢) هو في سيرة ابن هشام في غزوة بني قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن عبد الرحمن أن عمر بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاعة عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال «لما رابطهم رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يغسل رأسه».

فارس والروم. وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: كنا نحدث أنها مكة. وعن مقاتل ـ رضي الله عنه ـ: هي خيبر. وعن عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ومن بدع التفاسير: أنه أراد نساءهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن، فغم ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فنزلت، فبدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت أحبهنّ إليه ـ فخيرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجه رسول الله ـ ﷺ ـ، ثم اختارت جميعهنّ اختيارها، فشكر لهنّ الله ذلك، فأنزل ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] (١١٨٩). روي أنه قال لعائشة: إني ذاكر لك أمراً. ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت: أفي هذا أستأمر أبويّ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١١٩٠). وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً (١١٩١). فإت قلت: ما حكم

١١٨٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٨٩) (٢٨٤٦١) حدثنا ابن بشار قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا سعيد عن قتادة عن الحسن. . .
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة عن الحسن نحو هذا. انتهى.

١١٩٠ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٧٣) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ سورة الأحزاب حديث رقم (٤٧٨٥)، ومسلم (٥/ ٣٣٥) ـ كتاب الطلاق (١٨) ـ باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (١٤٧٥).
والترمذي (٥/ ٣٥٠) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ سورة الأحزاب (٣٢٠٤) والنسائي (٦/ ٥٥) ـ كتاب النكاح (٢٦) ـ حديث رقم (٣٢٠١). كلهم من طريق الزهري عن أبي سلمة عن عائشة قالت: لما أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بتخيير أزواجه بدأ بي. . .
قال الحافظ: متفق عليه من رواية الزهري عن أبي سلمة عن عائشة وزاد ثم فعل أزواج النبي ـ ﷺ ـ مثل ما فعلت. انتهى.

١١٩١ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨) كتاب الطلاق (١٨) ـ باب بيان أن تخيير امرأته لا يعد طلاقاً (٤) ـ (١٤٧٨) من حديث أبي الزبير عن جابر قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ـ ﷺ ـ. . . وأخرجه أيضاً من حديث عائشة (٥/ ٣٤٦) (١٤٧٥).
قال الحافظ: أخرجه سالم من رواية أبي الزبير عن جابر في قصة التخيير. وفي آخره «وأسألك أن تخير امرأة من نسائك فإنه لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً. . . وفي الصحيحين من رواية معمر عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله =

التخيير في الطلاق؟ قلت: إذا قال لها اختاري، فقالت: اخترت نفسي. أو قال: اختاري نفسك، فقالت: اخترت، لا بد من ذكر النفس في قول المخير أو المخيرة ـ وقعت طلقة بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه، واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض، واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلقة رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود. وعن الحسن وقتادة والزهري ـ رضي الله عنهم ـ: أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: خيرنا رسول الله ـ ﷺ ـ فاخترناه ولم يعده طلاقاً (١١٩٢). وروي: أفكان طلاقاً. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة. وروي عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء. أصل تعال: أن يقوله من في المكان المرتفع، لمن في المكان المستوطىء، ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة. ومعنى تعالين: أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين، ولم يرد نهوضهنّ إليه بأنفسهنّ، كما تقول: أقبل يخاصمني، وذهب يكلمني، وقام يهددني. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق. فإن قلت: المتعة في الطلاق واجبة أم لا؟ قلت: المطلقة/ ٢/ ١٠١ب التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد، متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه، وأما سائر المطلقات فمتعتهن مستحبة وعن الزهري ـ رضي الله عنه ـ: متعتان، إحداهما: يقضي بها السلطان: من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها. والثانية: حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض ويدخل، وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره. وعن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: المتعة حق مفروض. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة،

= عن ابن عباس فذكر القصة مطولاً. وفي آخره عند مسلم قال معمر فأخبرنا أيوب أن عائشة قالت: لا تخبر نساءك أني اخترتك. قال: إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنتاً. انتهى.

١١٩٢ ـ أخرجه البخاري (١٠/ ٤٦١) كتاب الطلاق باب من خير أزواجه حديث (٥٢٦٢)، (٥٢٦٣) ومسلم (٢/١١٠٣ ـ ١١٠٤) كتاب الطلاق: باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً حديث (٢٤ ـ ٢٨/١٤٧٧) وأبو داود (٢/ ٢٦٢) كتاب الطلاق: باب في الخيار حديث (٢٢٠٣) والنسائي (٦/ ١٦١) كتاب الطلاق: باب في المخيرة تختار زوجها، والترمذي (٣/ ٤٧٤) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخيار حديث (١١٧٩) وابن ماجه (١/ ٦٦١) كتاب الطلاق: باب الرجل يخير امرأته حديث (٢٠٥٢) وأحمد (٦/ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ١٧٣ ـ ٢٣٩) والطيالسي (١/ ٣١٤ ـ منحة) رقم (١٦١١) والدارمي (٢/ ١٦٢) وأبو يعلى (٤٣٧١) وابن حبان (٤٢٧٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٨٢) والبيهقي (٧/ ٣٤٥) كتاب الخلع والطلاق باب ما جاء في التخيير، كلهم من حديث عائشة. وقال الترمذي: حسن صحيح.
قال الحافظ: متفق عليه باللفظين. انتهى.

والمتعة: درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار، إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك، فيجب لها الأقل منهما، ولا تنقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: أمتعكنّ وأسرحكنّ بالرفع؟ قلت: وجهه الاستئناف ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار طلاقاً بالسنة ﴿مِنكُنَّ﴾ للبيان لا للتبعيض.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

الفاحشة: السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة. والمبينة: الظاهرة فحشها، والمراد كل ما اقترفن من الكبائر. وقيل: هي عصيانهن رسول الله ـ ﷺ ـ ونشوزهنّ، وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله. وقيل: الزنا، والله عاصم رسوله من ذلك، كما مرّ في حديث الإفك، وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل، وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً، فمتى ازداد قبحا. ازداد عقابه شدّة، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم: أشدّ منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح، ولذلك فضل حدّ الأحرار على حد العبيد، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ إيذان بأن كونهن نساء النبي ﷺ ليس بمغن عنهن شيئاً، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب، فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهنّ غير صارف عنه. قرئ: يأت، بالتاء والياء. مبينة: بفتح الياء وكسرها، من بين معنى تبين. يضاعف، ويضعف: على البناء للمفعول. ويضاعف، ونضعف: بالياء والنون. وقرئ: تقنت، وتعمل: بالتاء والياء. ونؤتها: بالياء والنون. والقنوت: الطاعة، وإنما ضوعف أجرهنّ لطلبهنّ رضا رسول الله ـ ﷺ ـ بحسن الخلق، وطيب المعاشرة والقناعة، وتوفرهنّ على عبادة الله والتقوى.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

أحد في الأصل بمعنى وحد، وهو الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه

المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه. ومعنى قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[1] [النساء: ١٥٢] يريد بين جماعة واحدة منهم، تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ إن أردتن التقوى، وإن كنتن[2] متقيات ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ فلا تجبن بقولكن خاضعاً، أي: ليناً خنثا مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي ريبة وفجور. وقرئ بالجزم، عطفاً على محل فعل النهي، على أنهن نهين عن الخضوع بالقول. ونهى المريض القلب عن الطمع، كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع. وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم، وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول، أي: فيطمع القول المريب ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ بعيداً من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث، أو قولاً حسناً مع كونه خشناً.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَرْنَ﴾ بكسر القاف، ومن قر يقر وقاراً. أو من قرّ يقرّ، حذفت الأولى من رائي: أقررن، ونقلت كسرتها إلى القاف، كما تقول: ظلن، وقرن: بفتحها، وأصله: أقررن، فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها، كقولك: ظلن، وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: وجهاً آخر، قال: قار يقار: إذا اجتمع. ومنه: القارة، لاجتماعها، ألا ترى إلى قول عضل والديش[3]: اجتمعوا فكونوا قارة. و﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي القديمة التي

---

(١) قال محمود: «معناه لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، ومثله: ولم يفرقوا بين أحد منهم» قال أحمد: إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام وبين جماعات النساء لا آحادهن: أن يطابق بين المتفاضلين؛ لأن الأول جماعة، وقد كان مستغنيا عن ذلك بحمل الكلام على واحدة. ويكون المعنى أبلغ، والتقدير: ليست واحدة منكن كأحد من النساء، أي: كواحدة من النساء، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة، ولا يلزم ذلك في العكس، فتأمله والله أعلم وجاء التفضيل ههنا كمجيئه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في تقديم الأفضل عن التفضيل، وقد مضت في ذلك نكتة حسنة، والله الموفق.

(٢) قوله «وإن كنتن متقيات» لعله «أو إن» كعبارة النسفي. (ع)

(٣) قوله «إلى قول عضل والديش» في الصحاح «عضل»: قبيلة، وهو عضل بن الهون بن خزيمة أخو =

يقال لها الجاهلية الجهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل/ ٢/ ١٠٢أ: ما بين آدم ونوح. وقيل: بين إدريس ونوح. وقيل: زمن داود وسليمان، والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر. ويعضده ما روي: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «إن فيك جاهلية» قال: جاهلية كفر أم إسلام؟ فقال: «بل جاهلية كفر» (١١٩٣) أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة، ثم جاء به عامًّا في جميع الطاعات؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات: من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ما وراءهما، ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن، لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ـ ﷺ ـ المآثم، وليتَصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات، فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به. و﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أنّ نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

ثم ذكرهن أنّ بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوّة؛ لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة

١١٩٣ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٧) غريب.
وقال الحافظ: لم أجده عن أبي الدرداء.
قلت: الثابت أنه ـ ﷺ ـ قال ذلك لأبي ذر.
أخرجه البخاري (٥/ ٢٠٦) كتاب العتق باب قول النبي ـ ﷺ ـ «العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون» حديث (٢٥٤٥).
قال ابن حجر: لم أجده عن أبي الدرداء وإنما هو في الصحيحين عن أبي ذر ولم يقل جاهلية كفر. . . إلى آخره. انتهى.

= الديش، وهما القارة. وفيه أيضاً «الديش بن الهون بن خزيمة» وربما قالوه بفتح الدال، وهو أحد القارة، والآخر عضل بن الهون، يقال لهما جميعاً: القارة. (ع)

وعلوم وشرائع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزله عليكم. أو علم من يصلح لبنوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته. أو حيث جعل الكلام الواحد جامعاً بين الغرضين.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾

يروى أنّ أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله، ذكر الله الرجال في القرآن بخير، أفما فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة (١١٩٤). وقيل: السائلة أم سلمة (١١٩٥).

١١٩٤ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٣٠) كتاب التفسير: باب سورة الأحزاب حديث (٣٢١١) من طريق حصين عن عكرمة عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ـ ﷺ ـ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء. فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٩) وزاد نسبته إلى الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبراني وابن مردويه.
وللحديث شاهد من حديث ابن عباس.
أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٠) والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٠٨) رقم (١٢٦١٤) من طريق قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: قالت النساء يا رسول الله ما بال يذكر المؤمنون ولم يذكر المؤمنات فنزل ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وقال الهيثمي (٧/ ٩١) وفيه قابوس وهو ضعيف وقد وثق. وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٩) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.
قال الحافظ: أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية ابن ظبيان عن ابن عباس: قال النساء يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن... الحديث. انتهى.

١١٩٥ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٠) والثوري في «تفسيره» (ص ٢٤١ ـ ٢٤٢) كلاهما من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة به.
وأخرجه أحمد (٦/ ٣٠١) والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٩٨) رقم (٦٦٥) من طريق عبد الله بن رافع عن أم سلمة وأخرجه أحمد (٦/ ٣٠٥) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٣١) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ حديث (١١٤٠٥) والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٩٤) رقم (٦٥٠) من طريق عثمان بن حكيم ثنا عبد الرحمن بن شيبة عن أم سلمة به والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٩) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه والفريابي وابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه النسائي من رواية شريك عن محمد بن عمر عن أبي =

وروي أنه لما نزل في نساء النبيّ ﷺ ما نزل، قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء (١١٩٦)؟ فنزلت. والمسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو المفوّض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله. والمؤمن: المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به. والقانت: القائم بالطاعة الدائم عليها. والصادق: الذي يصدق في نيته وقوله وعمله. والصابر: الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي. والخاشع: المتواضع لله بقلبه وجوارحه. وقيل: الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله. والمتصدق: الذي يزكي ماله ولا يخل بالنوافل. وقيل: من تصدّق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين. ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين. والذاكر الله كثيراً: من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما. وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» (١١٩٧). والمعنى: والحافظاتها والذاكراته، فحذف؛ لأنّ الظاهر يدل عليه. فإن قلت: أي فرق بين العطفين، أعني عطف الإناث على الذكور، وعطف الزوجين على الزوجين؟ قلت: العطف الأوّل نحو قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾

= سلمة عن أم سلمة قالت: يا رسول الله مالي أسمع الرجال يذكرون فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ الآية وأخرجه الطبراني والطبري من وجه آخر عن محمد بن عمر ورواه أحمد وابن راهويه والنسائي من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن شيبة عن أم سلمة وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة وروى الترمذي عن أم عمارة نحوه. انتهى.

١١٩٦ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٠) من طريق سعيد عن قتادة فذكره. ورواه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة نحوه كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/ ١٠٨). وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: دخل نساء من المؤمنات على نساء النبي ـ ﷺ ـ فقلن: قد ذكرنا الله في القرآن. . . الحديث» وأخرجه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة. انتهى.

١١٩٧ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٣٣) كتاب الصلاة: باب قيام الليل حديث (١٣٠٩) وفي (٢/ ٧٠) كتاب الصلاة: باب الحث على قيام الليل (١٤٥١) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٣٢) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ حديث (١١٤٠٦) وابن ماجه (١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤) كتاب الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل حديث (١٣٣٥) وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٨٨) وابن حبان (٦٤٥ ـ موارد) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٥٠١) كتاب الصلاة: باب الترغيب في قيام الليل كلهم من طريق علي بن الأقمر عن الأغر عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا فذكراه مرفوعاً إلى النبي ـ ﷺ ـ والحديث صححه ابن حبان والحاكم (٢/ ٤١٦) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٩).
قال النووي في الخلاصة إسناده صحيح
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذي من رواية الأغر عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً. انتهى.

[التحريم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان، إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما. وأما العاطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع، فكأن معناه: إنّ الجامعين والجامعت لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

خطب رسول الله ـ ﷺ ـ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة، فأبت وأبى أخوها عبد الله، فنزلت، فقال: رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر (١١٩٨). وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أوّل من هاجر من النساء، وهبت نفسها للنبيّ ﷺ فقال: قد قبلت، وزوّجها زيداً. فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله ـ ﷺ ـ /٢/١٠٢ب، فزوّجنا عبده (١١٩٩).

١١٩٨ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٩) غريب بهذا اللفظ.
وأخرج الدارقطني (٣/ ٣٠١) والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٩) رقم (١٠٩) من طريق الحسن بن أبي السري العسقلاني ثنى الحسن بن أعين الحراني ثنا حفص بن سليمان عن الكميت بن زيد الأسدي حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من قريش فأرسلت أختي حمنة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أستشيره، فقال لها: «أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها؟ قالت: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «زيد بن حارثة» وقال: فغضبت حمنة غضباً شديداً، وقالت: يا رسول الله، أتزوج بنت عمتك مولاك؟! قالت: وجاءتني فأعلمتني، فغضبت غضباً أشد من غضبها، وقلت أشد من قولها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قالت: فأرسلت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقلت: إني أستغفر الله وأطيع الله ورسوله، أفعل ما رأيت، فزوجني زيد».
قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١١٠): والحسين بن أبي السري ضعفه أبو داود وغيره، وحفص بن سليمان الأسدي قال البخاري تركوه.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٠) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه حفص بن سليمان وهو متروك.
قال الحافظ ابن حجر: لم أجده موصولاً. وأوله في الدارقطني من رواية الكميت بن زيد الأسدي الشاعر عن مذكور بن زيد الأسدي مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من قريش. فأرسلت أختي حمنة تستشير رسول الله ـ ﷺ ـ فقال لها: أين هي من يعلمها كتاب الله؟ ـ الحديث، وإسناده ضعيف، وليس فيه ذكر مقدار المهر. نعم أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان مقطوعاً. انتهى.
١١٩٩ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠١) رقم (٢٨٥١٧) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قوله وذكره الثعلبي من غير سند ولا راو كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ ١١٠).
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي بهذا بغير سند وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن =

والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي رسول الله أو لأنّ قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور: أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوا لاختياره. فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النفي، فعما كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ، وقرئ: يكون، بالتاء والياء. و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ ما يتخير.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجل النعم، وبتوفيقك لعتقه ومحبته واختصاصه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفقك الله فيه، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ أبصرها بعدما أنكحها إياه، فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لرسول الله ـ ﷺ ـ: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: مالك: أرابك منها شيء؟ قال: لا والله؛ ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم عليّ لشرفها وتؤذيني، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم طلقها بعد، فلما اعتدت قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليّ زينب. قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجينتها، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، حين علمت أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ ذكرها، فوليتها ظهري وقلت: يا زينب، أبشري إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ يخطبك، ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن (١٢٠٠) .﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ فتزوجها

= زيد بن أسلم من قوله ذلك. انتهى.

١٢٠٠ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١١١) غريب بهذا اللفظ... وذكر الثعلبي في تفسيره الحديث بلفظ المصنف من غير سند .اهـ.

قال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير سند وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله، وفي الصحيحين عن أنس قصة زيد وزينب مختصرة، وليس فيه ما في أوله. انتهى.

رسول الله ـ ﷺ ـ ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار. فإن قلت: ما أراد بقوله: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؟ قلت: أراد: واتق الله فلا تطلقها، وقصد نهي تنزيه لا تحريم، لأن الأولى أن لا يطلق. وقيل: أراد: واتق الله فلاتذمّها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيداً سيطلقها وسينكحها، لأن الله قد أعلمه بذلك. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لو كتم رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً مما أوحي إليه لكتم هذه الآية (١٢٠١). فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها، وكان من الهجنة أن يقول له: افعل، فإني أريد نكاحها؟ قلت: كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك، أو يقول له: أنت أعلم بشأنك. حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته؛ لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن، والتصلب في الأمور، والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبة، كما جاء في حديث إرادة رسول الله ـ ﷺ ـ قتل عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له: أن عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك، هل تشير إليّ فأقتله، فقال: إن الأنبياء لا تومض[1]، ظاهرهم وباطنهم واحد (١٢٠٢). فإن قلت: كيف عاتبه الله في

١٢٠١ ـ تقدم تخريجه عند حديث ثلاث من تكلم بواحدة منهن. . . الحديث.
قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.

١٢٠٢ ـ وأخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٦٠) من طريق الحسن بن بشر الكوفي قال: حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس بن مالك قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه قوله ـ ﷺ ـ إنه ليس لنبي أن يومىء.
وللحديث شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين.
أخرجه أبو داود (٢٦٨٣ ـ ٤٣٥٩) والنسائي (٢/ ٧٠) والحاكم (٣/ ٤٥) وأبو يعلى (٧٥٧) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه به وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وله شواهد أخرى ينظر لها «تخريج الكشاف» (٣/ ١١٣ ـ ١١٤) للإمام الزيلعي.
قال الحافظ: لم أجده، وفي الدلائل للبيهقي من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «أمن رسول الله ـ ﷺ ـ الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس» ـ فذكر الحديث قال: «ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له، فجعل الأنصاري يتردد ويكره أن يقدم عليه. فبايعه النبي ـ ﷺ ـ ثم قال للأنصاري: قد انتظرتك. قال: يا رسول الله أفلا أومضت إلي؟ قال: إنه ليس للنبي أن يومض»، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة مرسلاً. وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال: «لما كانت المدة بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين قريش ـ فذكر الحديث بطوله وفيه: «وأمن الناس إلا أربعة. وفيه فجاء عثمان بابن أبي سرح. فقال: بايعه يا رسول الله فأعرض عنه، ثم جاء =

---

(١) قوله «لا تومض» في الصحاح: أومضت المرأة، إذا سارقت النظر. (ع)

ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبيّ ﷺ التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن، وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات؟ وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها؟ ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قلت: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها، ولو لم يتحفظ منه. لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتي فضلاً وعلماً وديناً ونظراً في حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها. ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله - ﷺ - بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث، وكان رسول الله - ﷺ - يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم، والحياء يصده أن يأمرهم بالانتشار، حتى نزلت: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولو أبرز رسول الله - ﷺ - مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا، لشق عليهم، ولكان بعض المقالة[1]، فهذا من ذاك القبيل، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة/ ٢/ ١٠٣أ أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زرّ قيمصه أن يواسيه بمفارقها، مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء، بل كانت تجفو عنها، ونفس رسول الله - ﷺ - متعلقة بها، ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه، ولا مستهجناً إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر؛ فإنّ المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر، وإذا كان الأمر مباحا من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرّة بزيد ولا بأحد، بل كان مستجراً مصالح، ناهيك بواحدة منها أن بنت عمة رسول الله - ﷺ -

---

= فبايعه فقال: لقد أعرضت عنه ليقتله بعضكم، فقال رجل من الأنصار: هلا أومضت إلينا يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يومض»، وهذا مرسل أيضاً، وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص نحو الأول، ولكن في آخره: «ثم أقبل على أصحابه فقال: أفما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عنه فيقتله؟ قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك؟ قال: لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين. انتهى.

(١) قوله «ولكان بعض المقالة» لعله: القالة. (ع)

أمنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أُما من أمّهات المسلمين. إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامّة في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فبالحري أن يعاتب الله رسوله حين كتمه وبالغ في كتمه بقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر، والثبات في مواطن الحق، حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مراً. فإن قلت: الواو في ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾ ما هي؟ قلت: واو الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها[1]، وتخفي خاشياً قالة الناس وتخشى الناس، حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف، كأنه قيل: وإذ تجمع بين قولك. أمسك، وإخفاء خلافه، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه، حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره. والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته، وطابت عنها نفسه، وطلقها، وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقراءة أهل البيت: زوّجتكها. وقيل لجعفر بن محمد ـ رضي الله عنهما ـ: أليس تقرأ عليّ غير ذلك، فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما قرأتها على أبي إلا كذلك، ولا قرأها الحسن بن عليّ على أبيه إلا كذلك، ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبيّ ﷺ إلا كذلك ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ جملة اعتراضية، يعني: وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه، مفعولاً مكوناً لا محالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ـ ﷺ ـ زينب، ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء[2] أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن. ويجوز أن يراد بأمر الله: المكون، لأنه مفعول بكن، وهو أمر الله.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ قسم له وأوجب، من قولهم: فرض لفلان في الديوان كذا. ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسم موضوع موضع المصدر ـ كقولهم: تربا،

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر من حيث أنه مضارع مثبت فكيف تباشره الواو وتخريجه كتخريج: قمت وأصك عينه. أعني على إضمار مبتدأ. الدر المصون (٥/٤١٨).

(٢) قوله «ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء» لعله في عدم إجراء، ويمكن أن المراد: الحرج الذي يكون في الإجراء والتسوية لو حصل ذلك الإجراء. (ع)

وجندلا ـ: مؤكد لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين، وهو أن لا يحرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة وسبعمائة ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ في الأنبياء الذين مضوا ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ يحتمل وجوه الإعراب: الجرّ، على الوصف للأنبياء. والرفع والنصب، على المدح على هم الذين يبلغون. أو على: أعني الذين يبلغون. وقرئ: رسالة الله، قدراً مقدوراً: قضاء مقضياً، وحكماً، ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله: تعريض بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. ﴿حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حقّ الخشية من مثله.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكل رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم. ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ولم يكن هو خاتم الأنبياء، كما يروى أنه قال في إبراهيم حين توفي. لو عاش لكان نبياً (١٢٠٣). فإن قلت: أما كان أبا للطاهر والطيب/ ٢/ ١٠٣ب والقاسم

١٢٠٣ ـ أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٨٤) كتاب الجنائز باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ـ ﷺ ـ حديث (١٥١١) من طريق إبراهيم بن عثمان ثنا الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ صلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: إن له مرضعاً في الجنة ولو عاش لكان صديقاً نبياً ولو عاش لعتقت أخواله القبط وما إسترق قبطي. وفي الزوائد: في إسناده إبراهيم بن عثمان أبو شيبة قاضي واسط قال فيه البخاري: سكتوا عنه وقال ابن المبارك: ارم به، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال أحمد منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث .اهـ.
وللحديث شاهد من حديث ابن أبي أوفى أخرجه البخاري (٦١٩٤) عنه بلفظ: مات إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ ولو قضى أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه ولكن لا نبي بعده قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن ماجه من طريق مقسم عن ابن عباس في أثناء حديث وللبخاري من حديث ابن أبي أوفى «ولو قضي أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه ولكن لا نبي بعده». انتهى.

وإبراهيم؟ قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ من وجهين، أحدهما: أنّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال. والثاني: أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم. فإن قلت: أما كان أباً للحسن والحسين؟ قلت: بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذٍ، وهما أيضاً من رجاله لا من رجالهم، وشيء آخر: وهو أنه إنما قصد ولده خاصة، لا ولد ولده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما[(1)] على الأربعين والآخر على الخمسين. قرئ: ولكن رسول الله بالنصب، عطفاً على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾ وبالرفع على: ولكن هو رسول الله. ولكنّ، بالتشديد على حذف الخبر، تقديره: ولكنّ رسول الله من عرفتموه، أي: لم يعش له ولد ذكر. وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقوّيه قراءة ابن مسعود: ولكنّ نبياً ختم النبيين. فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان؟ قلت: معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبيء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد، مصلياً إلى قبلته، كأنه بعض أمّته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله. وأكثروا ذلك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في كافة الأوقات قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ذكر الله على فم كل مسلم (١٢٠٤). وروي في قلب كل مسلم، وعن قتادة: قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، وعن

١٢٠٤ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١١٥) غريب بهذا اللفظ.
وأخرجه الدارقطني (٤/ ٢٩٥) والبيهقي (٩/ ٢٤٠) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٨١) من طريق مروان بن سالم الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي قال... فذكره.
قال الدارقطني: مروان بن سالم ضعيف. قال الزيلعي في «نصب الراية» (٤/ ١٨٣)، وأعله ابن القطان أيضاً به، وقال: هو مروان بن سالم الغفاري وهو ضعيف، وليس بمروان بن سالم المكي. انتهى. ورواه ابن عدي في «الكامل» وأسند تضعيفه عن أحمد والنسائي ووافقهما، وقال: عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه. انتهى.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده بهذا اللفظ وروى الدارقطني والبيهقي وابن عدي من حديث أبي هريرة قال: «سأل رجل رسول الله ـ ﷺ ـ: الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ قال: اسم الله على فم كل مسلم» وفيه مروان بن سالم وهو ضعيف جداً. انتهى.

---

(١) قوله «نيف أحدهما» أي: زاد. والنيف ـ بالتشديد والتخفيف ـ: الزيادة، كذا في الصحاح. (ع)

مجاهد: هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب. والفعلان، أعني اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم وصلّ يوم الجمعة، والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، ليبين فضله على سائر الأذكار، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال، وتبرئته من القبائح. ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي، والطهر من أرجاس المآثم، على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام، والتوفر على الطاعات كلها، والاشتمال على العلوم، والاشتهار بالفضائل، ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات، والإقبال على العبادات؛ فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر، ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا وهي الصلاة في جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها، أو صلاة الفجر والعشاءين؛ لأنّ أداءها أشق ومراعاتها أشدّ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)﴾

لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه وترؤفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوّها على ولدها، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم: صلى الله عليك، أي ترحم عليك وترأف. فإن قلت: قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ إن فسرته بيترحم عليكم ويترأف[1]، فما تصنع بقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وما معنى صلاتهم؟ قلت: هي قولهم: اللهم صل على المؤمنين، جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة. ونظيره قوله: حياك الله، أي أحياك وأبقاك، وحييتك، أي: دعوت لك بأن يحييك الله؛ لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة، وكذلك: عمرك الله، وعمرتك، وسقاك الله، وسقيتك، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي ادعوا الله بأن يصلي عليه. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأف: حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ من

---

(١) قال محمود: «إن جعلت يصلي بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه؛ فأجاب بأنهم لما كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاءهم بذلك، جعلوا كأنهم فاعلون الرحمة، كما تقول: حياك الله، بمعنى أحبك، ثم تقول حييته، بمعنى دعوت الله له بالحياة، والمقصد بذلك جعل الحياة محققة له، كأنك قلت: دعوت له بالحياء فاستجيبت الدعوة» قال أحمد: كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إفادة الحقيقة والمجاز معاً بلفظ واحد، وقد التزمه ههنا، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة، ومن الملائكة مجازاً؛ لأنه حملها على الرحمة. وأما غيره فحملها على الدعاء، وجعلها من الملائكة حقيقة، ومن الله مجازاً، والله أعلم.

ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ دليل على أنّ المراد بالصلاة الرحمة. ويروى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ما خصك يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه، فأنزلت ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: يحيون يوم لقائه بسلام، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم، كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم، وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا. وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة. وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور. وقيل: عند دخول الجنة، كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]والأجر الكريم: الجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿شَٰهِدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم وتصديقهم، أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم، فإن قلت: وكيف كان شاهداً وقت الإرسال، وإنما يكون/ ٢/ ١٠٤أ شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها؟ قلت: هي حال مقدرة، كمسألة الكتاب: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً، فإن قلت: قد فهم من قوله: إنا أرسلناك داعياً: أنه مأذون له في الدعاء، فما فائدة قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؟ قلت: لم يرد به حقيقة الإذن. وإنما جعل الإذن مستعار للتسهيل والتيسير؛ لأن الدخول في حق المالك متعذر، إذا صودف الإذن تسهل وتيسر، فلما كان الإذن تسهيلاً لما تعذر من ذلك، وضع موضعه، وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر، فقيل: بإذنه، للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره، ومنه قولهم في الشحيح: أنه غير مأذون له في الإنفاق، أي: غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخلاً في حكم التعذر. جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به. أو أمدّ الله بنور نبوّته نور البصائر، كما يمدّ بنور السراج نور الأبصار. وصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تضني: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء. وسئل بعضهم عن الموحشين؟ فقال: ظلام ساتر، وسراج فاتر. وقيل: وذا سراج منير. أو وتاليا سراجاً منيراً. ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾[1].

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نَظَرٌ لأن السراج هو القرآن ولا يوصف بالإرسال بل بالإنزال إلا أن يقال =

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

الفضل: ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب. ويجوز أن يريد بالفضل: الثواب، من قولهم للعطايا: فضول وفواضل، وأن يريد أنّ لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وذلك الفضل من جهة الله، وأنه آتاهم ما فضلوهم به.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه. أو التهييج ﴿أَذَىٰهُمْ﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول، يعني: ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل، وخذ بظاهرهم، وحسابهم على الله في باطنهم. أو: ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي منسوخة بآية السيف ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ فإنه يكفيكهم، وكفى به مفوّضا إليه، ولقائل أن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف، وقابل كلا منها بخطاب مناسب له، قابل الشاهد بقوله: وبشر المؤمنين، لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم، لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر ـ والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل أو آجل ـ كانوا منذرين به في المستقبل، والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ لأنّ من توكل على الله يسر عليه كل عسير، والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه، كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

النكاح: الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له، من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثما؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ونحوه في علم البيان قول الراجز [من الرجز]:

أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي سَحَابِه[1]

= إنه حمل على المعنى كقوله [من الكامل]:

فعلفتها تبنا وماء باردا ....

وأيضاً «فَيُغْتَفَرُ في الثواني ما لا يُغْتَفَرُ في الأوائل». انتهى. الدر المصون.

(١) أقبل كالمستن من ربابه ... كأنما الوابل في مصابه
أسنمة الآبال في سحابه

=

سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان. فإن قلت: لم خصّ المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت: في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به: أن يتخير لنطفته، وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة، ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة الله ووليه، فالتي في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرّم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؟ قلت: فائدته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حبالة الزواج ثم يطلقها(1): فإن قلت: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟ قلت: نعم عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددها، من قولك: عددت الدراهم فاعتدها، كقولك، كلته فاكتاله/ ٢/ ١٠٤ب، ووزنته فاتزنه. وقرئ: تعتدونها، مخففاً؛ أي: تعتدون فيها؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَـوْمٍ شَـهِـدْنَـاهُ .... (2)
....

والمراد بالاعتداد ما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]. فإن قلت: ما هذا التمتيع أواجب أم مندوب إليه؟ قلت: إن كانت غير مفروض لها كانت

= يصف مطراً بالكثرة والثروة. ويقال: استن الفرس، إذا قمص ولعب، وهو أن يرفع يديه ويطرحهما تارة ورجليه أخرى على التعاقب. وقمص البحر بالسفينة: إذا حركها، فرفع مقدمها تارة ومؤخرها أخرى، فالمستن: اسم فاعل منه، واستعير للسحاب: إذ أقبل يتحرك وفيه المطر. والرباب: السحاب الأبيض المتلاصق. وضمير «أقل» و«ربابه» للمطر. والوابل: إظهار في مقام الإضمار، للدلالة على الكثرة وفي مصابه: حال له. وأسنمة الآبال: مبتدأ. وفي سحابه: خبر، والجملة خبر الوابل، وأعلى الأسنمة على الماء لأنه سبب سمنها، والمصاب: مصدر على زنة المفعول. الوابل: المطر الشديد الوقع. والأسنمة: جمع سنام. والآبال ـ بمد الهمزة ـ: جمع الإبل.

(1) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: واستعمل عسى صلة لِمَن وهو لا يجوز قُلْتُ: يُخَرَّجُ قوله على ما خُرِّجَ عليه قول الآخر [من الطويل]:

وَإِنِّـي كَـرَامٍ نَـظْـرَةً قَـبْـلَ الَّـتِـي ... لَـعَـلِّـي وإِنْ شَـطَّـتْ نَـوَاهَـا أَزُورُهَـا

وهو إضمار القولِ. انتهى. الدر المصون.

(2) تقدم.

المتعة واجبة، ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضاً لها؛ فالمتعة مختلف فيها: فبعض على الندب والاستحباب، ومنهم أبو حنيفة. وبعض على الوجوب ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهنّ؛ لأنّ المهر أجر على البضع. . وإيتاؤها: إما إعطاؤها عاجلاً. وإما فرضها وتسميتها في العقد. فإن قلت: لم قال: ﴿ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ و﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ و﴿ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وما فائدة هذه التخصيصات؟ قلت: قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى، واستحبه بالأطيب الأزكى، كما اختصه بغيرها من الخصائص، وآثره بما سواها من الأثر، وذلك أن تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية، وإن وقع العقد جائزاً؛ وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها، والمتعة إن لم يدخل بها. وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم، وما لا يعرف بينهم غيره، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكها، وخطبة سيفه ورمحه، ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشترى من شق الجلب. والسبي على ضربين: سبي طيبة، وسبي خبثة؛ فسبي الطيبة: ما سبي من أهل الحرب. وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبثة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ لأنّ فيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث، كما أنّ رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام[1]، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله ـ ﷺ ـ من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه. وعن أم هانىء بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية، فلم أحلّ له؛ لأني لم أهاجر معه، كنت

(١) قوله «كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيطلقونه على القسمين. (ع)

من الطلقاء (١٢٠٥). وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك، ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن عند رسول الله ـ ﷺ ـ أحد منهنّ بالهبة. وقيل الموهوبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أمّ المساكين الأنصارية، وأمّ شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم ـ رضي الله عنهن ـ قرئ ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ على الشرط. وقرأ الحسن ـ رضي الله عنه ـ ﴿أن﴾ بالفتح، على التعليل بتقدير حذف اللام. ويجوز أن يكون مصدراً محذوفاً معه الزمان، كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً، بمعنى وقت دوامه جالسا، ووقت هبتها نفسها. وقرأ ابن مسعود بغير أن. فإن قلت: ما معنى الشرط الثاني مع الأوّل؟ قلت: هو تقييد الشرط في الإحلال هبتها نفسها، وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله ـ ﷺ ـ، كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها؛ لأنّ إرادته هي قبول الهبة وما به تتم. فإن قلت: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم رجع إلى الخطاب؟ قلت: للإيذان بأنه مما خص به وأوثر، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوّة، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته. واستنكاحها: طلب نكاحها والرغبة فيه، وقد استشهد به أبو حنيفة على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأنّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأمّته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل، وقال الشافعي: لا يصح، وقد خص رسول الله ـ ﷺ ـ بمعنى الهبة ولفظها جميعاً؛ لأنّ اللفظ تابع للمعنى، والمدعي للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز، لقوله تعالى: ﴿واللاتي أتيت أجورهن﴾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح؛ لأنّ الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان ﴿خَالِصَةً﴾ مصدر مؤكد، كوعد الله، وصبغة الله، أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة، بمعنى خلوصاً، والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد، والعافية والكاذبة. والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله ـ ﷺ ـ على سبيل/٢/١٠٥أ

١٢٠٥ ـ رواه الترمذي (٥/ ٣٥٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة الأحزاب الحديث (٣٢١٤). ورواه الحاكم (٢/ ١٨٥) في النكاح، ورواه (٤/ ٥٣)، في معرفة الصحابة، وابن جرير في التفسير (١٠/ ٣٠٩) (٢٨٥٤٦) وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٣٩٣).

وعزاه لابن سعد في الطبقات، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١١٦) للثعلبي أيضاً.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي والحاكم، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والطبري، والطبراني، وابن أبي حاتم، كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عنها. انتهى.

التوكيد لها قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي جملة اعتراضية، وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين، ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أنّ الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء، وعلى أيّ حدّ وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه. وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله ـ ﷺ ـ بما اختصه به ففعل: ومعنى ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ لئلا يكون عليك ضيق في دينك: حيث اختصصناك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل، وفي دنياك: حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها. وقرئ: خالصة، بالرفع، أي: ذاك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة، فعلى مذهبه: هذه المرأة خالصة لك من دونهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده. روي أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله ـ ﷺ ـ، هجرهنّ شهراً، ونزل التخيير، فأشفقن أنّ يطلقهنّ، فقلن يا رسول الله، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت (١٢٠٦). وروي أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله إني أرى ربك

١٢٠٦ ـ قال الزيلعي (٣/ ١١٧): غريب بهذا اللفظ. وقال الحافظ: هذا ملفق من أحاديث.
قلت: روى مسلم في صحيحه (٥/ ٣٣٨ ـ نووي) كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً الحديث (١٤٧٨) حدثنا زهير بن حرب حدثنا روح بن عبادة حدثنا زكريا بن إسحاق حدثنا أبو الزبير عن جابر عن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ـ ﷺ ـ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد مبهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي ـ ﷺ ـ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة! سألتني النفقة فقمت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها. كلاهما يقول: تسألن رسول الله ـ ﷺ ـ ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ فقال: حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً».
والحديث رواه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٣) كتاب عشرة النساء، باب إذا لم يجد الرجل ما ينفق على امرأته هل يخير امرأته الحديث (٩٢٠٨).
ونقل الزيلعي (٣/ ١١٧) عن مجاهد قال: كان للنبي ـ ﷺ ـ تسع نسوة فخشين أن يطلقهن فقلن: يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت فنزلت: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ﴾... الآية. =

يسارع في هواك (١٢٠٧)، ﴿تُرْجِي﴾ بهمز وغير همز: تؤخر ﴿وَتُئْوِيٓ﴾ تضمّ، يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهن، وتضاجع من تشاء. أو تطلق من تشاء، وتمسك من تشاء. أولا تقسم لأيتهن شئت، وتقسم لمن شئت. أو تترك تزوّج من شئت من نساء أمّتك. وتتزوّج من شئت. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها (١٢٠٨). وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه إما أن يطلق، وإما أن يمسك؛ فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أولم يقسم. وإذا طلق وعزل، فإما أنّ يخلي المعزولة لا يبتغيها، أو يتبغيها. روي أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة، فكان يقسم لهنّ ما شاء كما شاء، وكانت ممن آوى إليه: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ـ رضي الله عنهن ـ أرجى خمساً وآوى أربعاً (١٢٠٩). وروي أنه كان يسوّي مع ما

= قال الحافظ: هذا ملفق من أحاديث. فأوله عند مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر قال: «دخل أبو بكر على النبي ـ ﷺ ـ والناس على الباب جلوس... الحديث»، وفيه قول أبي بكر وعمر قال: «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ـ فذكر الحديث ـ وفيه: فأنزل الله آية التخيير»، وقوله: «واهجروهن شهراً»، هذا هو من حديث عائشة في الصحيحين. وقوله: «فأشفقن أن يطلقهن ـ إلى آخره» أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين أن النبي ـ ﷺ ـ أراد أن يفارق نساءه، فقلن له: اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت، ودعنا على حالنا» وهذا مرسل. وروى ابن مردويه من طريق سالم الأفطس عن مجاهد قال: كان للنبي ـ ﷺ ـ تسع نسوة وخشين أن يطلقهن، فقلن: يا رسول الله، اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا فنزلت: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية. انتهى.

١٢٠٧ ـ أخرجه البخاري (١٠/ ٢٠٥) كتاب النكاح باب حل المرأة أن تهب نفسها لأحد؛ حديث (٥١١٣) ومسلم (٢/ ١٠٨٥) حديث (٤٩/ ١٤٦٤) ووهم الحاكم فاستدرك هذا الحديث. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة في أثناء حديث ووهم فاستدركه. انتهى.

١٢٠٨ ـ ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٣٩٧) وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١١٨).

١٢٠٩ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢) الحديث (١٦٤٧٧) حدثنا جرير عن منصور عن ابن أبي رزين في قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾... الآية وكان ممن آوى عائشة وأم سلمة وزينب وحفصة فكان يقسم من نفسه وماله منهن سواء وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية فكان يقسم لهن ما شاء وكان أراد أن يفارقهن فقلن له: اقسم لنا من نفسك ما شئت ودعنا نكون على حالنا».

ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٢٠) ورواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣١٣) الحديث (٢٨٥٦٧) والحديث (٢٨٥٦٩).

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير وعبد الرزاق عن معمر كلاهما عن منصور عن أبي رزين وهذا مرسل. انتهى.

أطلق له وخير فيه إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك (١٢١٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا سوّى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء. وارتفع التفاضل ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى. وعلمن أنّ هذا التفويض من عند الله بوحيه ـ اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير، وحصل الرضا وقرّت العيون، وسلت القلوب ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ فيه وعيدٌ لمن لمّ ترض منهنّ بما دبر الله من ذلك وفوّض إلى مشيئة رسول الله ـ ﷺ ـ، وبعثٌ على تواطىء قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله ـ ﷺ ـ وما فيه طيب نفسه. وقرئ: تقرّ أعينهنّ، بضم التاء ونصب الأعين، وتقرّ أعينهن، على البناء للمفعول ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمٗا﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر، ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ تأكيد لنون يرضين، وقرأ ابن مسعود: ويرضين كلهن. بما آتيتهنّ. على التقديم. وقرأ: كلهن، تأكيداً لـ(هنّ) في (آتيتهنّ).

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾﴾

١٢١٠ ـ عزاه الزيلعي للطبراني في الكبير في مسند سودة من حديث عائشة. وروى البيهقي في سننه (٧/ ٢٩٧) كتاب القسم والنشوز، باب ما جاء في قول الله عز وجل من حديث أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أنزل في سودة ـ رضي الله عنها ـ وأشباهها ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾، وذلك أن سودة ـ رضي الله عنها ـ كانت امرأة قد أسنت ففرقت أن يفارقها رسول الله ـ ﷺ ـ وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ـ ﷺ ـ عائشة ومنزلتها منه، فوهبت يومها من رسول الله ـ ﷺ ـ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ فقبل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ.

وروى الترمذي (٥/ ٢٤٩) كتاب التفسير الحديث (٣٠٤٠)، حدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي ـ ﷺ ـ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾.

قال الحافظ: أما كونه يسوي فمن حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ «كان يقسم فيعدل» وأما قصة سودة فروى الترمذي عن ابن عباس: «أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة، ففعل» وفي الطبراني من رواية ابن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «ما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يفضل بعضنا على بعض في القسم، وكان قل يوم إلا وهو يطيف بنا، ويدنو من كل واحدة منا من غير مسيس حتى ينتهي إلى التي هي يومها فيبيت عندها، ولقد قالت له سودة بنت زمعة، وقد أراد أن يفارقها: يومي منك ونصيبي لعائشة، فقبل ذلك منها، وفيها نزلت: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ الآية. انتهى.

﴿لَا يَحِلُّ﴾ وقرئ بالتذكير، لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي. وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ كان مع الفصل أجوز ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التسع، لأنّ التسع نصاب رسول الله ـ ﷺ ـ من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمّته منهنّ، فلا يحل له أن يتجاوز النصاب ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهنّ أو بعضهن، أراد الله لهنّ كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر النبيّ ﷺ عليهنّ، وهي التسع[1] اللاتي مات عنهن: عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر، أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، سودة بنت زمعة، أمّ سلمة بنت أبي أمية، صفية بنت حيي الخيبرية، ميمونة بنت الحارث الهلالية، زينب بنت جحش الأسدية، جويرية بنت الحارث المصطلقية، ـ رضي الله عنهن ـ (١٢١١). من في ﴿مِنۢ أَزۡوَٰجٍ﴾ لتأكيد النفي، وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم. وقيل معناه: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهنّ لك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب، أو من الكتابيات، أو من الإماء بالنكاح. وقيل في تحريم التبدل: هو من البدل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك، وأبادلك بامرأتي، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه. ويحكى أنّ

١١٢١ ـ روى الحاكم في المستدرك (٣/٤) كتاب معرفة الصحابة، باب تسمية أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ بسنده إلى أبي عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ قال: وقد ثبت وصح عندنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ تزوج ثماني عشرة امرأة سبع منهن من قبائل قريش، وواحدة من خلفاء قريش، وتسعة من سائر قبائل العرب، وواحدة من بني إسرائيل من بني هارون بن عمران أخي موسى بن عمران قال أبو عبيدة: فأول من تزوج ـ ﷺ ـ من نسائه في الجاهلية خديجة ثم تزوج بعد خديجة سودة بنت زمعة بمكة في الإسلام، ثم تزوج عائشة قبل الهجرة لسنتين، ثم تزوج بالمدينة بعد وقعة بدر سنة اثنتين من التاريخ أم سلمة، ثم تزوج حفصة بنت عمر أيضاً سنة اثنتين من التاريخ، فهؤلاء الخمسة من قريش، ثم تزوج في سنة ثلاث من التاريخ زينب بنت جحش، ثم تزوج في سنة خمس من التاريخ جويرية بنت الحارث.

قال الحافظ: هذا مجمع عليه؛ كما قال الواقدي وغيره، لكن اختلف في ريحانة، وروى ابن أبي خيثمة عن الزهري وعن قتادة، وقال أبو عبيد: صح عندنا وثبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ تزوج خديجة، فلم يتزوج عليها حتى ماتت. ثم تزوج سودة، ثم عائشة، ثم أم سلمة، ثم حفصة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية، ثم أم حبيبة، ثم صفية، ثم ميمونة. ثم فاطمة بنت سريح، ثم زينب بنت خزيمة، ثم هند بنت يزيد. ثم أسماء بنت النعمان، ثم هيلة بنت قيس أخت الأشعث، ثم أسماء بنت سبأ، وقال الواحدي: والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة: التسع التي مات عنهن وتزوج أيضاً خديجة وزينب بنت خزيمة وريحانة ومتن عنده، تزوج أيضاً فاطمة بنت الضحاك، وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما. انتهى.

---

(١) قوله «وهي التسع» لعله «وهن». (ع)

عيينة بن حصن دخل على النبيّ ﷺ وعنده عائشة من غير استئذان، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا عيينة، أين/ ٢/ ١٠٥ب الاستئذان؟ قال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت. ثم قال: من هذه الجميلة إلى جنبك؟ فقال ﷺ: هذه عائشة أمّ المؤمنين. قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ فقال ﷺ: إنّ الله قد حرّم ذلك. فلما خرج قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من هذا يا رسول الله؟ قال: أحمق مطاع، وإنه ـ على ما ترين ـ لسيد قومه (١٢١٢). وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما مات رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أحل له النساء، يعني: أنّ الآية قد نسخت (١٢١٣). ولا يخلو

١٢١٢ ـ ورد هذا الحديث عن أبي هريرة وجرير وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ.
ـ حديث أبي هريرة:
أخرجه الدارقطني في سننه (٣/ ٢١٨): كتاب النكاح، رقم (٣)، والبزار في مسنده كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ١٢١).
ـ وأما حديث جرير.
فأخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٥) رقم (٢٢٦٩) من طريق إسماعيل عن قيس عن جرير به.
وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٨)، وقال: رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد بن بشير، وهو حافظ رحال قيل فيه: ليس بذاك، وبقية رجاله رجال الصحيح غير يحيى بن محمد بن مطيع وهو ثقة .اهـ.
ـ وأما حديث عائشة:
فأخرجه ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» في ترجمة عيينة بن حصن، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ١٢٢).
قال الحافظ: أخرجه البزار من حديث أبي هريرة بهذا وأتم منه، وفيه إسحاق بن عبد الله القروي، وهو متروك، وله شاهد من حديث جرير، وأخرجه الطبراني، وآخر عن عائشة أخرجه ابن سعد.

١٢١٣ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥) كتاب التفسير باب ومن سورة الأحزاب حديث (٣٢١٤) والنسائي (٦/ ٥٦) كتاب النكاح: باب ما افترض الله عز وجل على رسوله عليه السلام، وأحمد (٦/ ٢٠٦) والحميدي (١/ ١١٥) رقم (٢٣٥) والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٤) كتاب النكاح: باب كان لا يجوز له أن يبدل من أزواجه أحدا ثم نسخ كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو عن عطاء قال: قالت عائشة فذكره.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وللحديث طريق آخر عن عائشة.
أخرجه النسائي (٦/ ٥٦) كتاب النكاح باب ما افترض الله عز وجل وابن حبان (٢١٢٦ ـ موارد) والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٢) والحاكم (٢/ ٤٣٧) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٤) كتاب النكاح: باب كان لا يجوز له أن يبدل من أزواجه أحداً ثم نسخ، كلهم من طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.
ولحديث عائشة شاهد من حديث أم سلمة أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ ١٢٤) وعزاه أيضاً لابن سعد في الطبقات.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي، وأحمد وإسحاق، والنسائي، وأبو يعلى، والطبري، والبزار، وابن =

نسخها إماأن يكون بالسنة، وإما بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ﴾ في موضع الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تَبَدَّلَ﴾ لا من المفعول الذي هو ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ لأنه موغل في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهنّ. وقيل: هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، والمراد أنها ممن أعجبه حسنهنّ، واستثنى ممن حرم عليه: الإماء ﴿رَّقِيبٗا﴾ حافظاً مهيمناً، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم. و﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ حال من ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين[1] وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ـ ﷺ ـ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصاً، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبيّ ﷺ إلا أن يؤذن له إذناً خاصاً، وهو الإذن إلى الطعام فحسب. وعن ابن أبي عبلة أنه قرأ: غير ناظرين، مجروراً صفة لطعام، وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ، فيقال: غير ناظرين إناه أنتم، كقولك: هند زيد ضاربته هي. وإني الطعام: إدراكه. يقال: أني الطعانم إنيّ، كقولك: قلاه قلىً. ومنه قوله: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤] بالغ إناه.

= حبان، والحاكم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالحديث دون التفسير، وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن سعد من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: رد الشيخُ الأول بأنَّ النحاة نَصُّوا على أنَّ «أنْ» المصدرية لا تقع موقع الظرف لا يجوز لآتيك أَنْ يصيحَ الديك وإنْ جازَ ذلك في المصدر الصريح نحو آتيك صياحَ الديكِ. وردَّ الثاني بأنه لا يقع بعد إلاَّ في الاستثناء إلاَّ المستثنى أو المستثنى منه أو صفته ولا يجوز في ما عدا هذا عند الجمهور وأجاز ذلك الكسائي والأخفش وأجازا ما قام القومُ إلاَّ يَوْمَ الجمعةِ ضاحكين. و«إلى طَعَامٍ» متعلق بيُؤْذَنَ لأنه بمعنى إلاَّ أَنْ تُدْعَوْا إلى طعام. انتهى. الدر المصون.

وقيل (إناه): وقته، أي: غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله. وروي أن رسول الله ـ ﷺ ـ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنسا أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجاً يأكل فوج فيخرج، ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله، دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا: فقام رسول الله ـ ﷺ ـ ليخرجوا، فانطلق إلى حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال: السلام عليكم أهل البيت فقالوا: عليك السلام يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له؛ ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متولياً خرجوا، فرجع ونزلت: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ (١٢١٤)، نهو عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت. واستئناسه: تسمعه وتوجسه، وهو مجرور معطوف على ناظرين. وقيل: هو منصوب على: ولا تدخوها مستأنسين. لا بد في قوله: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ من تقدير المضاف، أي: من إخراجكم، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني أن إخراجكم حتى ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال، قيل: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحي منكم، وهذا أدبٌ أدّب الله به الثقلاء. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: حسبك في الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم وقال: فإذا طعمتم فانتشروا (١٢١٥). وقرئ: لا يستحي، بياء واحدة، والضمير في ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ لنساء النبي ﷺ، ولم يذكرن لأنّ الحال ناطقة بذكرهن ﴿مَتَـٰعًا﴾ حاجة ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاع. قيل: إن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة. وكان يذكره كثيراً، ويود أن ينزل فيه، وكان يقول: لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين، وقال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب (١٢١٦). فنزلت. وروي أنه مر عليهن

١٢١٤ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤)، كتاب التفسير باب: قوله: ﴿ترجيء من تشاء . . .﴾ الآية، حديث (٤٧٩٣). ومسلم (٥/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، كتاب النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، حديث (٨٩) ـ (١٤٢٨). كلاهما من طريق ثابت عن أنس.
قال ابن حجر: متفق عليه من حديث أنس وله طرق عندهما وألفاظ. انتهى.

١٢١٥ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٢٥) للثعلبي في تفسيره من طريق جويرية بن أسماء.
قال ابن حجر: كذا بخط المخرج، وهو غلط واضح جدًا، فإن العلاء إنما يروي عن ابن عائشة صاحب النوادر، ولم يدرك أصحاب عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فضلاً عنها، ولعله كان في الأصل ابن عائشة، فسقط ابن. انتهى.

١٢١٦ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٤٨٣): كتاب التفسير: باب سورة الأحزاب، حديث (٤٧٩٠)، والنسائي =

وهن مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتن، فإن لكن على النساء فضلاً، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل، فقالت زينب ـ رضي الله عنها ـ: يا ابن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى نزلت (١٢١٧). وقيل: إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة/ ٢/ ١٠٦أ، فكره النبيّ ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب. وذكر أنّ بعضهم قال: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب، لئن مات محمد لأتزوجن عائشة. فأعلم الله أن ذلك محرم (١٢١٨). ﴿وَمَا كَانَ

= في تفسيره: (٢/ ١٨٧) رقم (٤٣٨)، والطبري في تفسيره: (١٠/ ٣٢٤) رقم (٢٨٦٠٩)، (١٠/ ٣٢٦) رقم (٢٨٦١٧)، والواحدي في تفسيره (٣/ ٤٨٠) وفي «أسباب نزول القرآن» ص (٣٧٤) رقم (٧٠٨) كلهم من طريق حميد عن أنس عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٠١) وزاد نسبته إلى ابن مردوية في تفسيره. وأخرجه النسائي أيضاً في تفسيره (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩) عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ـ ﷺ ـ حيساً في قعب، فمر عمر ـ رضي الله عنه ـ فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حَسِّ (أو أوْه) لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهر ثقة».

وقد أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٢٥) رقم (٢٨٦١٦) من حديث هشيم عن ليث عن مجاهد مرسلا ـ بمعناه وليس فيه تسمية عمر بن الخطاب ـ وبمثل ذلك أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص (٣٧٤) رقم (٧٠٩) مرسلاً عن مجاهد.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٠٢)، وزاد نسبته لابن مردويه عن عائشة، وقال: بسند صحيح.

وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٤٠) من طرق عن ابن عباس بنحوه.

قال الحافظ: متفق عليه من حديثين هذا أحدهما. أخرجه النسائي والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت: «كنت آكل مع النبي ـ ﷺ ـ حيساً في قصعة، فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي، فقال عمر: أواه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل الحجاب»، ورواه ابن أبي شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسلاً، وصوبه الدارقطني في العلل، والثاني أخرجه النسائي أيضاً من طريق أنس عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: «قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله آية الحجاب، وأصله في الصحيح. انتهى.

١٢١٧ ـ قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي قال: «مر عمر على نساء النبي ـ ﷺ ـ فذكره. انتهى.

١٢١٨ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٢٢) من طريق معمر عن قتادة.

وأخرج ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٦٢)، من حديث أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا﴾ الآية، قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله، لأنه قال: إذا توفى رسول الله تزوجت عائشة. =

﴿لَكُمْ﴾ وما صح لكم إيذاء رسول الله ـ ﷺ ـ ولا نكاح أزواجه من بعده، وسمي نكاحهن بعده عظيماً عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حياً وميتاً، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلي منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً[1] فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب، فلم يزل به ذلك حتى قتلها، تصوراً لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجري مجرى العقوبة؛ فصين رسول الله ـ ﷺ ـ عما يلاحظ ذلك.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ من نكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عاماً لكل باد وخاف، ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب، فنزلت ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا إثم عليهن في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أباً. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وإسماعيل عم

= قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون عن ابن بكر بن حزام في هذه الآية نزلت في طلحة قال: إذا توفى رسول الله ـ ﷺ ـ تزوجت عائشة، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن رجلاً قال: لو قد مات محمد لأتزوجن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾... الآية. وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه من رواية داود عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: «نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ـ ﷺ ـ الحديث» من طريق السدي أن الذي عزم على ذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.

---

(١) قوله «لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً» في الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به. لا يبالي ما قيل فيه. (ع)

يعقوب. وقيل: كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما. وأبناؤهما غير محارم، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد، فقيل: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار، واحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن. واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما؛ وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان وأنتن غير محجبات، ليفضل سركن علنكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شَهِيدًا﴾ لا يتفاوت في علمه الأحوال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

قرئ: وملائكته بالرفع، عطفاً على محل إن واسمها، وهو ظاهر على مذهب الكوفيين، ووجهه عند البصريين. أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ﴾ أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام. ومعناه: الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم. فإن قلت: الصلاة على رسول الله ـ ﷺ ـ واجبة أم مندوب إليها؟ قلت: بل واجبة، وقد اختلفوا في حال وجوبها. فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث: «من ذكرت عنده فلم يصل عليّ فدخل النار فأبعده الله» (١٢١٩). ويروى أنه قيل:

١٢١٩ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم أبو هريرة، وجابر بن سمرة، ومالك بن الحويرث وكعب بن عجرة وابن عباس وآخرون.

ـ حديث أبي هريرة:

أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/١٨٨) (٩٠٧) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي ـ ﷺ ـ صعد المنبر فقال: «آمين آمين آمين...»... وفيه «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله...».

قلت: وهذا إسناد حسن، فإن محمد بن عمرو وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي صدوق له أوهام كما في التقريب (٢/١٩٦) (٥٨٣).

ـ وحديث جابر بن سمرة:

أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٢٤٣ ـ ٢٤٤) (٢٠٢٢) من طريق محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل ثنا إسماعيل بن أبان ثنا قيس بن الربيع عن سماك عن جابر قال: صعد النبي ـ ﷺ ـ المنبر فقال... وفيه: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله...».

قلت: وهذا إسناد حسن بشواهده كما يأتي وإن كان رجال الإسناد من محمد بن عبد الله إلى سماك قد تكلم فيهم ولكن لا ينزل حديثهم عن الحسن والله أعلم لا سيما وأن للحديث شواهد كثيرة.

ـ وحديث كعب بن عجرة:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/١٤٤) (٣١٥) والحاكم في مستدركه (٤/١٥٣ ـ ١٥٤) =

يا رسول الله؛ أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فقال ﷺ: «هذا

= وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ (١٩) كلهم من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «احضروا المنبر فحضر...» وفيه «بعد لمن ذكرت عنده فلم يصل عليك...».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦٩) رواه الطبراني ورجاله ثقات.
قلت: وفي كلامهم نظر «فإن إسحاق بن كعب بن عجرة، لم يرو عنه غير ابنه سعد». وذكره ابن حبان في الثقات على عادته في توثيق المجاهيل، وقال أبو الحسن القطان: لا يعرف، ما روى عنه غير ابنه سعد وهو مجهول الحال وقال الذهبي في الميزان «تابعي مستور».
وقال الحافظ في التقريب «مجهول».
ـ حديث عبد الله بن عباس:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٨٢) (٥/ ١١١) من طريق يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عباس قال بينما النبي ـ ﷺ ـ على المنبر إذ قال: «آمين» ثلاث مرات... وفيه «من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله...».
وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٤٢) رواه الطبراني بأسانيد وأحدها حسن.
ـ وحديث مالك بن الحويرث:
أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٩/ ٢٩١ ـ ٢٩٢) (٦٤٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٤٠) (٤٠٩) كلاهما من طريق الحسن بن علي الحلواني حدثنا عمران بن أبان ثنا مالك بن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده قال: صعد رسول الله ـ ﷺ ـ... المنبر... وفيه فقال: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله...».
وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦٩) رواه الطبراني وفيه عمران بن أبان وثقه ابن حبان وضعفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات.
قلت: وعمران بن أبان هذا هو أبو موسى الطحان الواسطي ضعيف كما في التقريب (٢/ ٨٢) (٧١٣) لكن الحديث لا يضعف إسناده به وحده، فإن فيه أيضاً مالك بن الحسن، قال العقيلي: فيه نظر وقال الذهبي منكر الحديث، وقال ابن عدي في «الضعفاء» (٦/ ٢٣٧٨) بعد أن أورد حديثه هذا وأربعة أحاديث أخرى من طريق عمران الواسطي عنه «هذه الأحاديث بهذا الإسناد عن مالك بن الحسن هذا لا يرويها عن مالك إلا عمران بن أبان الواسطي، وعمران بن أبان لا بأس به، وأظن أن البلاء فيه من مالك بن الحسن هذا، فإن هذا الإسناد بهذا الحديث لا يتابعه عليه أحد».
ولكن للحديث شواهد يصح بها منها ما ذكرناه ومنها أيضاً وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦٨) وفيه يزيد بن أبي زياد وهو مختلف فيه، وبقية رجاله ثقات.
قلت: وهو إلى التضعيف أقرب: فقال أحمد بن حنبل «ليس بذاك وقال يحيى بن معين: لا يحتج بحديثه، وقال أبو زرعة، لين يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: وهو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه ـ راجع تهذيب الكمال (٣٢/ ١٣٨ ـ ١٤٠) ت (٦٩٩١).
وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٦٥) ضعيف كبر، فتغير، صار يتلقن وكان شيعياً.
وله طريق آخر عند الطبراني عن ابن عباس (١٢/ ٨٣ ـ ٨٤) (١٢٥٥٢) من طريق إسحاق بن =

من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به، إنّ الله وكل بي ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك. وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته لذينك الملكين: آمين» (١٢٢٠). ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة، وكذا قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط. الصلاة عليه عند كل ذكر، لما ورد من الأخبار (١٢٢١). فإن قلت: فالصلاة عليه في الصلاة، أهي شرط في جوازها أم

= عبد الله بن كيسان عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وإسحاق بن عبد الله بن كيسان هذا قال الذهبي في الميزان (١/ ٣٤٦) (١١٤٩) ليّنه أبو أحمد الحاكم، ولينه أيضاً أبو حاتم وأبوه ووثقه ابن حبان وراجع ترجمته في اللسان.

وفي الباب عن غير هؤلاء انظر المجمع (١٠/ ١٦٧ ـ ١٧٠).

قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٣٠): وهذه الأحاديث كلها كما نراها متطابقة، أن هذا الحديث من كلام جبريل يخاطب النبي ـ ﷺ ـ وليس من كلام النبي ـ ﷺ ـ والمصنف أورده من كلام النبي ـ ﷺ ـ فاعلم ذلك. اهـ.

قال الحافظ: أخرجه ابن حبان من طريق محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة، أن النبي ـ ﷺ ـ صعد المنبر فقال: آمين آمين آمين قال: إن جبريل أتاني فذكر الحديث، وفيه: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك مات فدخل النار فأبعده الله»، وفي الباب عن مالك بن الحويرث عند ابن حبان والطبراني. وعن ابن عباس في الطبراني وكذلك عن جابر بن سمرة، وعبد الله بن الحارث بن جزة الزبيدي، وعن بريدة عند إسحاق بن راهويه، وعن عمار بن ياسر عند البزار، وعن جابر بن عبد الله عند البيهقي في الشعب. انتهى.

١٢٢٠ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٩١ ـ ٩٢)، حديث (٢٧٥٣) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٣١) للثعلبي ولابن مردويه في تفسيريهما.

قال ابن حجر: أخرجه الطبراني، وابن مردويه، والثعلبي من حديث الحسن بن علي وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو متروك.

١٢٢١ ـ فيه أحاديث كثيرة، فأخرج مسلم (٢/ ٢٩١ ـ الأبي) كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ بعد التشهد حديث (٧٠/ ٤٠٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم (٦٤٥)، وأبو داود (٢/ ٨٨) كتاب الصلاة: باب في الاستغفار حديث (١٥٣٠)، والترمذي (٢/ ٣٥٥) كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ حديث (٤٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٠) كتاب السهو: باب الفضل في الصلاة على النبي، والدارمي (٢/ ٣١٧) كتاب الرقاق باب فضل الصلاة على النبي، وأحمد (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٥) وأبو عوانة (٢/ ٢٣٤) وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» رقم (٩ ـ ١١)، وأبو يعلى (١١/ ٣٨٠) رقم (٦٤٩٥)، وابن حبان (٨٩٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٠٩) رقم (١٥٥٣) والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٢٨٤ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشراً». وقال الترمذي: حسن صحيح. =

لا؟ قلت: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطاً وعن إبراهيم النخعي: كانوا يكتفون عن

= حديث آخر: أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥١) كتاب الدعوات باب قول رسول الله ـ ﷺ ـ «رغم أنف رجل» حديث (٣٥٤٦) من طريق سليمان بن بلال عن عمارة بن غزيه عن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن حسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل علي» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وأخرجه ابن حبان (٢٣٨٨ ـ موارد)، وأبو يعلى (١٢/ ١٤٧) رقم (٦٧٧٦)، والحاكم (١/ ٥٤٩)، وأحمد (١/ ٢٠١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٥) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٨٢) وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» رقم (٣٢) كلهم من طريق سليمان بن بلال به.
وصححه ابن حبان وكذا الحاكم ووافقه الذهبي وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ١٦٨): أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وإسماعيل القاضي وأطنب في تخريج طرقه وبيان الاختلاف فيه من حديث علي ومن حديث ابنه الحسين ولا يقصر عن درجة الحسن .اهـ.
حديث آخر:
أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦١)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٢٥٩ ـ منحة) رقم (١٢٨٩) كلاهما من طريق المغيرة بن مسلم الخراساني، عن أبي إسحاق عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من ذكرت عنده فليصل علي فمن صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً».
وأخرجه أبو يعلى (٤٠٠٢) من طريق إبراهيم بن طهمان عن أبي إسحاق عن أنس به. وأبو إسحاق لم يسمع من أنس بن مالك ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٤٦.
حديث آخر:
أخرجه الترمذي (٢/ ٣٥٤) كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ حديث (٤٨٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٧٧) كلاهما من طريق عبد الله بن كيسان عن عبد الله بن شداد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».
وقال الترمذي: حديث حسن غريب .اهـ. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن كيسان عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن أبيه عن ابن مسعود أخرجه أبو يعلى (٨/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨) رقم (٥٠١١)، وابن حبان (٢٣٨٩ ـ موارد)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٧٧).
قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٣٢): وكذلك رواه البزار في مسنده، والطبراني في معجمه وهذا غير قادح؛ فإنه روى عن أبيه، وعن ابن مسعود فلعله سمعه منهما ولكن أعله ابن القطان في كتابه بعبد الله بن كيسان وقال: إنه لا يعرف حاله ولا نعرف روى عنه إلا موسى بن يعقوب هذا.
قال الزيلعي: روى عنه أيضاً ابنه إسحاق بن عبد الله بن كيسان .اهـ.
وفي الباب أحاديث أخر:
ينظر لها «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٦).
قال الحافظ: ومنها حديث أبي هريرة رفعه: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي» أخرجه الترمذي وابن حبان وفي الباب عن كعب بن عجرة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب. وعن جابر في الأدب المفرد للبخاري، وفي الطبراني الأوسط، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء في كتاب فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ لابن أبي عاصم ومنها حديث علي ـ رضي الله عنه ـ: =

ذلك ـ يعني الصحابة ـ بالتشهد، وهو السلام عليك أيها النبي، وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً. فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره؟ قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» (١٢٢٢). ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك: وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرد غيره من أهل/ ٢/ ١٠٦ب البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه، لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله ـ ﷺ ـ، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم (١٢٢٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه: من الكفر والمعاصي، وإنكار النبوّة، ومخالفة الشريعة، وما كانوا يصيبون به رسول الله ـ ﷺ ـ من أنواع المكروه، على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً، وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ـ ﷺ ـ لئلا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة. والثاني: أن يراد يؤذون رسول الله ـ ﷺ ـ، وقيل في أذى الله: هو

= «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» أخرجه الترمذي من طريق عمارة بن غزية، عن عبد الله بن علي بن حسين عن أبيه عن حسين بن علي عن علي ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه النسائي وابن حبان من هذا الوجه بغير ذكر علي. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه فقال عن عبد الله بن علي بن الحسين عن أبي هريرة ومنها حديث أنس رفعه، «من ذكرت عنده فليصل علي فمن صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً» أخرجه النسائي، ومنها حديث ابن عباس ـ رفعه ـ: «من نسي الصلاة عليّ خطىء طريق الجنة» أخرجه ابن ماجه. وله طريق أخرى عن الحسين بن علي عند الطبراني. وأخرى عند البيهقي في القضايا من المعرفة عن أبي هريرة وأخرى عند ابن إسحاق وأبي يعلى عن أبي ذر بلفظ: «إن أضل الناس من ذكرت عنده فلم يصل علي»، ومنها حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلى على النبي ـ ﷺ ـ» أخرجه الترمذي والبيهقي في الشعب عن علي نحوه ومنها حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه ـ رفعه «من صلى علي صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقل من ذلك أو ليكثر» أخرجه ابن ماجه، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ كثيرة جداً. انتهى.

١٢٢٢ ـ تقدم.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه وقد تقدم في براءة. انتهى.

١٢٢٣ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٣٦): غريب وتقدم في سورة يوسف.

وقال الحافظ ابن حجر: تقدم في يوسف. انتهى.

قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل: قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته. وعن رسول الله ـ ﷺ ـ فيما حكى عن ربه «شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني، وآذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني، فأمّا شتمه إياي فقوله: إني اتخذت ولداً. وأما أذاه فقوله: إن الله لا يعيدني بعد أن بدأني (١١٢٤). وعن عكرمة: فعل أصحاب التصاوير الذين يرومون تكوين خلق مثل خلق الله (١١٢٥). وقيل في أذى رسول الله ـ ﷺ ـ قولهم: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي، وأطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً. وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه ومنه. ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية واستحقاق للأذى. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً ـ رضي الله عنه ـ ويسمعونه. وقيل: في الذين أفكوا على عائشة ـ رضي الله عنها ـ. وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف[1] وكان ابن عون لا يكري الحوانيت إلا من أهل الذمّة، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

الجلباب: ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل. وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره؛ قال أبو زيد [من البسيط]:

. . . . مُجَلْبَبٌ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جِلْبَابَا[2]

١١٢٤ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧)، كتاب: التفسير باب: قوله «الله الصمد» والعربُ تسمي أشرافها الصمد، حديث (٤٩٧٥).

قال الزيلعي: وهو من مفردات البخاري، وليس فيه: وآذاني.

١١٢٥ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٣٠)، رقم (٢٨٦٣٩) من طريق سلمة بن الحجاج عن عكرمة.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ومن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نحوه. انتهى.

---

(١) «فكيف» عبارة النسفي: فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات. (ع)

(٢) أهلاً بضيف أتى ما استفتح البابا ... مجلبب من سواد الليل جلبابا =

ومعنى ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يرخينها عليهنّ، ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ. يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة: أدني ثوبك على وجهك، وذلك أن النساء كنّ في أول الإسلام على هجيراهنّ في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرّة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهنّ في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرّضوا للحرّة بعلة الأمة، يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه، ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن. فإن قلت: ما معنى (من) في (من جلابيبهن)؟ قلت: هو للتبعيض، إلا أن معنى التبعيض يحتمل وجهين، أحدهما: أن يتجلببن ببعض ما لهنّ من الجلابيب، والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار، كالأمة والماهنة ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. والثاني: أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة. وعن ابن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تدبره حتى تضعه على أنفها. وعن السدي: أن تغطي إحدى عينيها وجبهتها، والشق الآخر إلا العين. وعن الكسائي: يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهنّ، أراد بالانضمام معنى الإدناء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط مع التوبة[1]؛ لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل: هم

= لأبي زبيد. وأهلاً: مفعول لمحذوف وجوبا، أي: أتيت أهلا. وبضيف: متعلق بمحذوف، أي: أرحب بضيف: ويجوز تعلقه بأهلاً؛ لأن فيه معنى الترحيب. وما: مصدرية، أي: مدة استقامة الباب. والمراد منه التعميم، أي: في أي وقت يطلب فتح الباب: وصفه بالآتي في سواد الليل، مبالغة في التمدح بالكرم. ويجوز أن الضيف محبوبته، فيكون الليل أستر لها، وشبه استتار ضيفه بظلام الليل بلبس اللباس، والتجوز في الجلببة أو في الجلباب على طريق التصريحيه، ويجوز لأن ما نافية، وعلى هذا فيصح أن يكون خطاباً لملك الموت، حيث دخل ولم يطلب فتح الباب، وإن كان الضيف والحبيب قد يفعلان ذلك أيضاً.

(١) قوله «لما سلف لعنهن من التفريط مع التوبة» هذا عند المعتزلة. أو بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)

الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾/ ٢/ ١٠٧أ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ـ ﷺ ـ، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، من الرجفة وهي الزلزلة. والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء؟ لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم[1]، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها ﴿إِلَّا﴾ زمناً ﴿قَلِيلًا﴾ ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم[2]، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أو الحال، أي: لا يجاورونك إلا ملعونين، دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً، كما مرّ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ولا يصح أن ينتصب عن (أخذوا) لأنّ ما بعد كلمة الشرّط لا يعمل فيما قبلها. وقيل في (قليلاً) وهو منصوب على الحال أيضاً. ومعناه. لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين. فإن قلت ما موقع لا يجاورونك؟ قلت: لا يجاورونك عطف على لنغرينك، لأنه يجوز أن يجاب به القسم. ألا ترى إلى صحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. فإن قلت: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء، وأن يقال: لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثاني مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت، ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأوّل، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكد، أي: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل: يعني كما قتل أهل بدر وأسروا.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾

كان المشركون يسألون رسول الله ـ ﷺ ـ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً؛ لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر

---

(١) قوله «الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم» في الصحاح، يقال: له عندي ما ساءه وناءه، أي أثقله، وما يسوؤه وينوؤه، وقال بعضهم أراد ساءه وناءه وإنما قال ناءه وهو لا يتعدى لأجل ساءه ليزدوج الكلام. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ريثما يلتقطون عيالاتهم وأنفسهم لا غير» قال أحمد: وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي، يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

رسول الله ـ ﷺ ـ بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين ﴿قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً. أو لأن الساعة في معنى اليوم، أو في زمان قريب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

السعير: النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾

وقرئ: تقلب، على البناء للمفعول. وتقلب، بمعنى تتقلب. ونقلب، أي: نقلب نحن. وتقلب: على أن الفعل للسعير[1]. ومعنى تقليبها: تصريفها في الجهات، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة، وناصب الظرف ﴿يَقُولُونَ﴾ أو محذوف. وهو «اذكر» وإذا نصب بالمحذوف كان (يقولون) حالاً.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

وقرئ: سادتنا وساداتنا: وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم. يقال: ضلّ السبيل وأضله إياه، وزيادة الألف لإطلاق الصوت: جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف. وقرئ: كثيراً، تكثيراً لإعداد اللعائن. وكبيراً، ليدل على أشد اللعن وأعظمه ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله: يعترفون، ويستغيثون، ويتمنون، ولا ينفعهم شيء من ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ قيل: نزلت في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة

---

(١) قوله «على أن الفعل للسعير» يعني: وجوههم، بالنصب. (ع)

بعض الناس. وقيل: في أذى موسى عليه السلام: هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، وقيل: اتهامهم إياه بقتل هارون، وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك، فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول. وقيل: أحياه الله أخبرهم ببراءة موسى عليه السلام. وقيل: قرفوه بعيب[1] في جسده من برص أو أدرة، فأطلعهم الله على أنه بريء منه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه ومنزلة عنده، فلذلك كان يميط عنه التهم/ ٢/ ١٠٧ب، ويدفع الأذى، ويحافظ عليه، لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصه، كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة. وكان عبد الله وجيهاً. قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان، فسمعته يقرؤها. وقراءة العامة أوجه؛ لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله، كقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وهذه ليست كذلك، فإن قلت: قوله: ﴿مِمَّا قَالُوا۟﴾ معناه: من قولهم، أو من مقولهم؛ لأنّ (ما) إما مصدرية أو موصولة، وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه؟ قلت: المراد بالقول أو المقول: مؤداه ومضمونه. وهو الأمر المعيب. ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة[2]، والقالة بمعنى القول؟

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحق والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. يقال: سدّد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن سمتها، كما قالوا: سهم قاصد، والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسد قولهم[3] في كل باب؛ لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية

(١) قوله «وقيل قرفوه بعيب» في الصحاح: قرفت الرجل، أي: عبته. ويقال: هو يقرف بكذا، أي: ترمي برؤيتهم. (ع)

(٢) قوله «ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة» في الصحاح: صار هذا الأمر سبة عليه ـ بالضم، أي: عاراً. (ع)

(٣) قوله «على أن يسد قولهم» في الصحاح: سد قوله يسدّ ـ بالكسر ـ: أي صار سديداً. (ع)

الطلبة: من تقبل حسناتكم والإثابة عليها، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وقيل إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقرّرة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان؛ ليترادف عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه. لما قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم، أتبعه قوله ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها وفخم شأنها، وفيه وجهان، أحدهما: أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها ـ وهو ما يتأتى من الجمادات ـ وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ وأما الإنسان فلم تكن حاله ـ فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل صالح للتكليف ـ مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة: الطاعة؛ لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء. وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها: مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد: أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمّته ويخرج عن عهدتها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها. ألا تراهم يقولون: ركبته الديون، ولي عليه حق، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها. ونحوه قولهم، لا يملك مولى لمولى نصراً. يريدون: أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها، ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل؛ ومنه قول القائل [من الطويل]:

أَخُوكَ الَّذِي لاَ تَمْلِكُ الْحِسَّ نَفْسُهُ ... وَتَرْفَضُّ عِنْدَ الْمُحْفِظَاتِ الْكَتَائِفُ[1]

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده، بل يبذل ذلك ويسمح

---

(١) للقطامي: وقيل: لذي الرمة. وحس له حساً: رق له وعطف. والحس أيضاً: العقل والتدبير والنظر في العواقب، والارفضاض من الترشرش والتناثر، وأحفظه إحفاظاً: أغضبه، فالمحفظات: المغضبات. والكتائف: جمع كتيفة، وهي الضغينة والحقد، يقول: أخوك هو الذي لا تملك نفسه الرحمة، بل يبذلها لك. أو لا تقدر نفسه على التدبر بالتأني، بل يسرع إليك بغتة وترتعد وتذهب ضغائنه من جهتك عند الأمور المغضبة لك، لأنها تغضبه أيضاً.
وهو للقطامي في ديوانه ص ٥٥، ولسان العرب (حسس)، (رفض)، (حفظ)، (كتف)، وأساس البلاغة (حفظ)، ومقاييس اللغة ٥/ ١٦٠، وتهذيب اللغة ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٤٦٠، وتاج العروس (رفض)، (حفظ)، (كتف).

به. ومنه قولهم ابغض حق أخيك؟ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده، وإذا أبغضه أخرجه وأدّاه. فمعنى: فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة. وبالجهل لأخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أدؤاها. والثاني: أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله: أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه: أن يتحمله ويستقل به، فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوّته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس[1] بضمانة فيها، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب. وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصوّر مقاولة الشحم محال، ولكن الغرض/ ٢/ ١٠٨أ أنّ السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها. فإن قلت: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى؛ لأنه مثلت حاله ـ في تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضي على أحدهما ـ بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه. وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما في هذه الآية؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال في نفسه، غير مستقيم، فكيف صح بناء التمثيل على المحال، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول. قلت: الممثل به في الآية وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب. وفي نظائره مفروض، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات: مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها. واللام في ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ لام التعليل على طريق المجاز؛ لأنّ التعذيب نتيجة حمل الأمانة، كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش. ويتوب؛ ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدىء: ويتوب الله[2]. ومعنى قراءة العامة: ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها، لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر، والله أعلم.

---

(١) قوله «ثم خاس بضمانه فيها» في الصحاح: خاس به يخيس ويخوس، أي: غدر به يقال: خاس بالعهد، إذ نكث. (ع)

(٢) قوله «ويتوب» أي بالرفع، كما في النسفي. (ع)

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه، أعطي الأمان من عذاب القبر» (١٢٢٦).

١٢٢٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.
انتهى.

سورة سبأ

مكية، [إلا آية ٦ فمدنية]

وآياتها ٥٤ [نزلت بعد لقمان]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ (١) يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ (٢)﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله، ولما قال ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية، كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، كما تقول: احمد أخاك الذي كساك وحملك، تريد: احمده على كسوته وحملانه. ولما قال: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت: ما الفرق بين الحمدين؟ قلت: أمّا الحمد في الدنيا فواجب، لأنه على نعمة متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأمّا الحمد في الآخرة فليس بواجب[1]، لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها[2]، إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم: يتلذذون به كما يتلذذ من به العطاش[3] بالماء البارد

---

(١) قال محمود: «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها، والثاني: ليس بواجب، لأنه على نعمة واجبة على المنعم» قال أحمد: والحق في الفرق بين الحمدين: أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية كالجبليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق والله الموفق.

(٢) قوله «نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها، مبني على مذهب المعتزلة، أما أهل السنة فلا يوجبون على الله شيئاً، ولا يجب الحمد في الآخرة، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(٣) قوله «كما يلتذ من به العطاش» في الصحاح: «العطاش»: داء يصيب الإنسان: يشرب الماء فلا يروى. (ع)

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الغيث كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] ومن الكنوز والدفائن والأموات. وجميع ما هي له كفات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الشجر والنبات. وماء العيون، والغلة، والدواب، وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَآ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ننزِّل، بالنون والتشديد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قولهم ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾. أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أتبع المقسم به الوصف بما وصف به، إلى قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته واستقامته، لأنه/٢/١٠٨ب بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ. فإن قلت: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، وأوّلها مسارعة إلى القلب: إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة، وأنه كائن لا محالة، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئاً واضحاً. فإن قلت: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم، فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة وهي قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في

الغرائز وجوب الجزاء[1]، وأن المحسن لا بدّ له من ثواب، والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلاً له. قرئ: لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء: أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم[2]. أو يسند إلى عالم الغيب، أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. وقرئ: عالم الغيب، وعلام الغيب: بالجر، صفة لربي. وعالم الغيب، وعالم الغيوب: بالرفع، على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر في الزاي، من العروب وهو البعد. يقال: روض عزيب: بعيد من الناس ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مثقال ذرّة. وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نفي الجنس، كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله، بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة وأصغر وأكبر وزيادة، لا لتأكيد النفي. وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟ قلت: يأبى ذلك حرف الاستثناء، إلا إذا جعلت الضمير في (عنه) للغيب، وجعلت (الغيب) اسماً للخفيات. قبل أن تكتب في اللوح لأنّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب، على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء، ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح[3].

---

(١) قوله «وركب في الغرائز وجوب الجزاء» هذا مقتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة، فتدبر. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ بأنه ضرورة كقوله: ولا أرض أبقل إبقالها. وليس مثله وقيل أي الله بمعنى أمره ويجوز على قياس هذا الوجه أن يكون «عالم» فاعلاً ليأتينكم في قراءة من رفعه. انتهى الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُحْتَاج إلى التأويل إذا جعلنا الكتابَ ليس اللوح المحفوظ وقرأ زيد بنُ عليّ بخفض راء «أصْغَرِ» «وأكْبَرِ» وهي مشكلة جداً وخُرِّجَتْ على أنهما في نية الإضافة إذ الأصلُ ولا أَصْغَرِهِ ولا أَكْبره وما لا ينصرف إذا أُضيفَ انجَر في موضع الجر ثم حذف المضاف إليه ونوى معناه فترك المضاف بحاله وله نظائر كقولهم [من المنسرح]:

.... بَيْنَ ذِرَاعَي وَجَبْهَةِ الأَسَدِ

ويا تَيْمَ عَدِيّ على خلاف. وقد يُفَرِّقُ بأَنَّ هناك ما يدل على المحذوف لفظاً بخلاف هنا وقد ردَّ بعضُهم هذا التخريج لوجود «مِنْ» لأن أَفْعَلَ متى أُضِيفَ لم يجامع مِنْ وأجيب عن ذلك بوجهين.

أحدهما: أنَّ مِنْ ليست متعلقة بأفعل بل بمحذوف على سبيل البيان لأنه لما حُذِفَ المضافُ إليه انْبَهَمَ المضافُ فَبُيِّنَ بمن ومجرورها أي أعني مِنْ ذلك.

والثاني: أنه مع تقديره للمضاف إليه نوى طرحه فلذلك أتى بمن ويدل على ذلك أنه قد ورد التصريح بالإضافة مع وجود مِنْ قال الشاعر [من المنسرح]:

نَحْنُ بِغَرْسِ الوَدِى أَعْلَمُنَا مِنَّا بِرَكْضِ الجِيَادِ فِي السُّدَفِ =

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

وقرئ معجزين. وأليم، بالرفع والجر. وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ويرى في موضع الرفع. أي: ويعلم أولو العلم، يعني أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ومن يطأ أعقابهم من أمّته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنهما ـ، ﴿الَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . الْحَقَّ﴾ هما مفعولان ليرى، وهو فصل من قرأ (الحق) بالرفع: جعله مبتدأ و(الحق) خبراً، والجملة في موضع المفعول الثاني. وقيل: (يرى) في موضع النصب معطوف على (ليجزي) أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق. علماً لا يزاد عليه في الإيقان، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوزأن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَٰلِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قريش. قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه؟ ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما؛ بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث: واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك. وذلك أجنّ الجنون وأشدّه إطباقاً على عقولهم: جعل وقوعهم في

= وخُرِّجَ على هذين الوجهين إما التعلق بمحذوف وإمّا نيّةُ اطّراح المضاف إليه قُلْتُ: وهذا كما احتاجوا إلى تأويل الجمع بين أَلْ ومِنْ أَفْعَلَ كقوله:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى

وهذه توجيهاتُ شذوذٍ لا يُطْلَبُ فيها أكثر من ذلك فليُقْنَع بمثله. انتهى. الدر المصون.

العذاب رسيلا لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد؛ لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته: جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان. وقرأ زيد بن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ينبيكم. فإن قلت: فقد جعلت الممزق مصدراً، كبيت الكتاب [من الوافر]:

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ الْقَوَافِي فَلاَ عِيًّا بِهِنَّ وَلاَ اجْتِلاَبَا؟[1]

فهل يجوز أن يكون مكاناً؟ قلت: نعم. معناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع، وما مرّت به/ ٢/ ١٠٩أ السيول فذهبت به كل مذهب، وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح. فإن قلت: ما العامل في إذا؟ قلت: ما دلّ عليه ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد سبق نظيره. فإن قلت: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قلت: هو عند البصريين بمعنى فاعل، تقول: جد فهو جديد، كحد فهو حديد، وقلّ فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى: مفعول، من جده إذا قطعه. وقالوا: هو الذي جده الناسج الساعة في الثوب؛ ثم شاع. ويقولون؛ ولهذا قالوا[2] ملحفة جديد، وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] ونحو ذلك. فإن قلت: لم أسقطت الهمزة في قوله: ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ دون قوله: (السحر)، وكلتاهما همزة وصل؟ قلت: القياس الطرح، ولكن أمراً اضطرّهم إلى ترك إسقاطها في نحو (آلسحر) وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت هو من الإسناد المجازي؛ لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة، وكلما ازداد عنها بعداً كان أضل. فإن قلت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

---

(١) لجرير، وهو من أبيات الكتاب. والمسرح: مصدر على زنة المفعول، فهو بمعنى التسريح، أي: الإرسال أو التسوية. وسرحت الجارية شعرها: مشطته، فاسترسل وحسن، وهو مضاف لياء الفاعل. والقوافي: مفعول، ونصب العي لشبهه بالمضاف، أو نونه للضرورة، أي: لا أعي بها، ولا أعجز عنها، ولا أجتلبها، ولا أسرقها، ويجوز أن العي ركاكة المعنى. والاجتلاب: الاستتار، من جلبة الجرح، وهي قشرته الساترة له، فيهن: بمعنى فيهن.
ينظر: ديوانه ص ٦٥١، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٩٧، والكتاب ١/ ٢٣٣، ٣٣٦، ولسان العرب (جلب)، (سحج)، وبلا نسبة في لسان العرب (يسر)، والمقتضب ١/ ٧٥، ٢/ ١٢١.

(٢) قوله «ولهذا قالوا» أي العرب. (ع)

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجلّ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لَءَايَةً﴾ ودلالة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له؛ لأنّ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. قرئ يشأ ويخسف ويسقط: بالياء؛ لقوله تعالى: : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وبالنون لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وكسفاً: بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائي: يخسف بهم، بالإدغام وليست بقوية.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَٰجِبَالُ﴾ إمّا أن يكون بدلاً من ﴿فَضْلًا﴾، وإمّا من ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بتقدير: قولنا يا جبال. أو: قلنا يا جبال. وقرئ: أوّبي، وأوبي: من التأويب. والأوب: أي رجعي معه التسبيح. أو ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه؛ لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه: ومعنى تسبيح الجبال: أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح: معجزة لداود. وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين، وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها[1] والطير بأصواتها. وقرئ: والطير، رفعاً ونصباً، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها. وجوّزوا أن ينتصب مفعولاً معه، وأن يعطف على فضلاً، بمعنى وسخرنا له الطير. فإن قلت: أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي

---

(١) قوله «بأصدائها» جمع صدى، وهو الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها، كذا في الصحاح. (ع)

لا تخفى من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا: إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين والشمع، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة. وقرئ صابغات، وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح. وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدّق على الفقراء. وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكراً، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته، فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود، فسأله؟ فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدِّرْ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فتغلق، ولا غلاظاً فتفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ فيمن نصب: ولسليمان الريح مسخرة، فيمن رفع، وكذلك فيمن قرأ: الرياح، بالرفع ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك. وقرئ: غدوتها وروحتها. وعن/ ٢/ ١٠٩ب الحسن ـ رضي الله عنه ـ: كان يغدو فيقيل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل. ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان: نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر: النحاس المذاب من القطران. فإن قلت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله[1] كما ألان الحديد لداود، فنبع كما ينبع الماء من العين؛ فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه، كما قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقيل: كان يسبل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه من طاعة سليمان وقرئ. يزغ من أزاغه. وعذاب السعير: عذاب الآخرة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجني. المحاريب: المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال: سميت محاريب لأنه يحامي عليها ويذب عنها. وقيل: هي المساجد. والتماثيل: صور الملائكة والنبيين والصالحين، كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير؟

---

(١) قوله «ولكنه أساله كما ألان الحديد» لعله: أساله له. (ع)

قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع؛ لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب، وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّماً. ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها؛ لأنّ التمثال كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان. أو تصوّر محذوفة الرءوس. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. والجوابي: الحياض الكبار، قال [من الطويل]:

تَـرُوحُ عَـلَـىٰ آلِ الْـمُـحَـلَّـقِ جَـفْـنَـةٌ كَـجَـابِـيَـةِ الـسَّـيْـحِ الْـعِـرَاقِـيِّ تَـفْـهَـقُ[1]

لأنّ الماء يجبى فيها، أي: يجمع. جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة. قيل: كان يعقد على الجفنة ألف رجل. وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]. ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب ﴿شُكْرًا﴾ على أنه مفعول له، أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر. أو على الحال، أي: شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكراً، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث أنّ العمل للمنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به. ومعناه: إنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه: قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً، وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من يشكر على أحواله كلها. وعن السدي: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: إني سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل

---

(١) للأعشى في مدح المحلق. وروي «تلوح» بدل تروح؛ لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النهار مستعلية عليهم. والجفنة: قصعة الثريد. والجابية: الحوض يجبي الماء، أي: يجمعه إلى الحوض. والسيح: الماء الكثير الجاري. وفهق يفهق، كفرح يفرح: اتسع وامتلأ وتدفق. ومنه الحديث: أنه قام إلى باب الجنة فانفهقت له، أي: انفتحت واتسعت. والمتفيهق: المكثر من الكلام، فقوله «تفهق» أي تمتلىء مع اتساعها حتى تكاد تتدفق.
ينظر: ديوانه ص ٢٧٥، ولسان العرب (حلق)، (فهق)، (جبى)، وتهذيب اللغة ٥/ ٤٠٤، ومقاييس اللغة ١/ ٥٠٣، ٤٥٦، ومجمل اللغة ٤/ ٦٧، وتاج العروس (فهق)، (جبى)، وبلا نسبة في المخصّص ١٠/ ٥٠.

الناس أعلم من عمر (١٢٢٧).

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قرئ: فلما قضي عليه الموت. ودابة الأرض: الأرضة، وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضت الخشبة أرضاً. إذا أكلتها الأرضة. وقرئ بفتح الراء، من أرضت الخشبة أرضاً، وهو من باب فعلته ففعل، كقولك: أكلت القوادح الأسنان أكلاً، فأكلت أكلاً. والمنسأة: العصا؛ لأنه ينسأ بها، أي: يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسي. ومنساءته على مفعالة، كما يقال في الميضأة ميضاءة. ومن سأته، أي: من طرف عصاه، سميت بسأة[1] القوس على الاستعارة. وفيها لغتان، كقولهم: قحة وقحة[2]. وقرئ: أكلت منسأته ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى/ ٢/ ١١٠أ. و﴿إِنَّ﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال، كقولك: تبين زيد جهله: والظهور له في المعنى، أي: ظهر أنّ الجن ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ أو علم الجن كلهم علماً بيناً ـ بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم ـ أنّ كبارهم يصدّقون في ادعائهم علم الغيب. أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدّعي الباطل إذا دحضت حجته[3] وظهر إبطاله بقولك: هل تبينت أنك مبطل. وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً. وقرئ: تبينت الجن، على البناء للمفعول، على أن المتبين في المعنى هو (أن) مع ما في صلتها، لأنه بدل، وفي قراءة أبيّ: تبينت

١٢٢٧ ـ أخرجه أبو بكر بن شيبة في مصنفه (٦/ ٦٥) كتاب الدعاء: باب ما ذكر عن أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ من الدعاء، حديث (٤/ ٢٩٥).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٣١)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٤١). وزاد نسبته إلى أحمد بن حنبل في الزهد.
قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد من رواية التيمي عن عمر فذكر نحوه. انتهى.

---

(١) قوله «سميت بسأة القوس» في الصحاح «سية القوس»: ما عطف من طرفيها، وكان رؤبة يهمز: سية القوس، وسائر العرب لا يهمزونها. (ع)
(٢) قوله «كقولهم قحة وقحة» كسعة وكمدة، بمعنى الوقاحة: وهي الصلابة. (ع)
(٣) قوله «إذا دحضت حجته» في الصحاح: بطلت. (ع)

الإنس. وعن الضحاك: تباينت الإنس بمعنى تعارفت وتعاملت. والضمير في (كانوا) للجن في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب؛ ما لبثوا. وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: تبينت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب. روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله، فيسألها: لأي شيء أنت؟ فتقول لكذا، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة، فسألها، فقالت: نبت لخراب هذا المسجد؛ فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حيّ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال: اللهم عم عن الجن موتي، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب. لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكىء عليها؛ وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة. وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة، وروي أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب. روي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها؛ فلم يجسر أحد بعدُ أن يدنو منه، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة: ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قرئ ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالصرف ومنعه، وقلب الهمزة ألفاً. ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرها،

وهو موضع سكناهم؛ وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها، أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: مساكنهم. و﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية جنتان. وفي الرفع معنى المدح، تدل عليه قراءة من قرأ: جنتين، بالنصب على المدح. فإن قلت: ما معنى كونهما آية؟ قلت: لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخربهما، وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية، وعبرة لهم، يعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية، أي: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية، ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت: لم يرد بساتين اثنين فحسب، وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها، كأنها جنة واحدة، كما تكون بلاد الريف العامة وبساتينها. أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولما قال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَاشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أتبعه قوله ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم/ ٢/ ١١٠ب رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت أخصب البلاد وأطيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر (طيبة) لم تكن سبخة. وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة ورباً غفوراً، بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد ﴿الْعَرِمِ﴾ الجرذ[1] الذي نقب عليهم السكر. ضربت لهم بلقيس الملكة بسدّ ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروقاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم، فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدّهم الخلد[2]، فنقبه من أسفله فغرقهم. وقيل: العرم جمع عرمة. وهي الحجارة المركومة.

---

(١) قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفأر. وفيه: سكرت النهر سكراً، إذا شددته. (ع)

(٢) قوله «سلط الله على سدهم الخلد فنقبه» في الصحاح «الخلد»: ضرب من الجرذان أعمى. وفيه «المكدس» بالضم.: واحد أكداس الطعام. (ع)

ويقال للكدس من الطعام: عرمة، والمراد: المسناة[1] التي عقدوها سكراً: وقيل: العرم اسم الوادي: وقيل: العرم المطر الشديد. وقرئ: العرم؛ بسكون الراء. وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقرئ: أكل، بالضم والسكون، وبالتنوين والإضافة. والأكل: الثمر. والخمط: شجر الأراك، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك. وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً من مرارة، حتى لا يمكن أكله. والأثل: شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً. ووجه من نون: أن أصله ذواتي أكل أكل خمط. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده، فلأن أكل الخمط في معنى البرير[2]، كأنه قيل: ذواتي برير. والأثل والسدر: معطوفان على أكل، لا على خمط لأن الأثل لا أكل له. وقرئ: وأثلا. وشيئاً: بالنصب، عطفاً على جنتين. وتسمية البدل جنتين، لأجل المشاكلة وفيه: ضرب من التهكم. وعن الحسن رحمه الله: قال السدر، لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ: وهل يجازي. وهل نجازي، بالنون. وهل يجازي والفاعل الله وحده. وهل يجزي؛ والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء، ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإنابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم. قيل: ﴿وهل يجازي إلا الكفور﴾ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح؛ وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء. والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن: لم يصح ولم يسد كلاماً؟ فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) قوله «والمراد المسناة التي عقدوها» في الصحاح: المسناة: العرم وفيه: العرم المسناة. وفي ذلك دور. (ع)

(٢) قوله «فلأن أكل الخمط في معنى البرير» في الصحاح «البرير»: ثمر الأراك. (ع)

﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة؛ يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو راكبة متن الطريق: ظاهرة للسابلة؛ لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية. والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ وقلنا لهم: سيروا؛ ولا قول ثم، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه؛ كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾؟ قلت: معناه سيروا فيها، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان، لا تلقون فيها إلا الأمن. قرئ: ربنا باعد بين أسفارنا. وبعد. ويا ربنا، على الدعاء. بطروا النعمة، وبشموا من طيب العيش[1]، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه. وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة. وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا، وبعد بين أسفارنا/ ٢/١١١أ على النداء، وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به، كما تقول: سير فرسخان، وبوعد بين أسفارنا. وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا، وبين سفرنا، وبعد، برفع ربنا على الابتداء، والمعنى خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوّها لفرط تنعمهم وترفههم، كأنهم كانوا يتشاجون[2] على ربهم ويتحازنون عليه ﴿أَحَادِيثَ﴾ يتحدّث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم، وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ. قال كثير [من الطويل]:

أَيَادِي سَبَا يَا عَزَّ مَا كُنْتُ بَعْدَكُمْ   فَلَمْ يَحْلُ بِالْعَيْنَيْنِ بَعْدَكِ مَنْظَرُ[3]

---

(١) قوله «وبشموا من طيب العيش» بشموا، أي: سئموا. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «كأنهم كانوا يتشاجون» في الصحاح «الشجو»: الهم والحزن. (ع)

(٣) لكثير صاحب عزة. وسبأ: بلدة كانت كثيرة الخصب طيبة البساتين، فكفر أهلها نعمة الله فأرسل عليهم السيل، وبدلهم بالخصب جدباً، وبالرغد ضيقا، وبالسمن غثا، فصاروا لا ينالون الأقوات إلا من جهات بعيدة، والمراد بالأيادي: النعم، وأيادي سبأ: استعارة لأحوال نفسه التي تشبه أحوال سبأ في التشتت والتنغص. أو تشبيه بليغ على الخلاف. وفيه مجاز بالحذف، أي: أيادي أهل سبأ ما كنته بعدكم. أي: ما كنت متصفاً به من الأحوال كأحوال سبأ. ويجوز أن ما مصدرية، أي: أكواني وأحوالي بعدكم كأحوال سبأ. أو المراد بأيادي سبأ: أصحابها الذين كانوا يعمرونها، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فشبه نفسه بهم لعدم استقراره. وتطلق سبأ على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان: كان =

لحق غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان ﴿صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي للنعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قرئ: صدّق، بالتشديد والتخفيف، ورفع إبليس ونصب الظن، فمن شدّد فعلى: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقاً؛ ومن خفف فعلى: صدق في ظنه أو صدّق يظن ظناً، نحو: فعلته جهدك، وبنصب إبليس ورفع الظن؛ فمن شدّد فعلى: وجده ظنه صادقاً؛ ومن خفف فعلى: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، يقولون: صدقك ظنك. وبالتخفيف ورفعهما على: صدق عليهم ظن إبليس؛ ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني، ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال إنّ ذرّيته أضعف عزماً منه، فظنّ بهم اتباعه وقال: لأضلنهم، لأغوينهم. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ إمّا لأهل سبأ، أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار، كما قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[الإسراء: ٦٢]**، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ **[الأعراف: ١٧]**. ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول ﴿حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه، وفعيل ومفاعل: متآخيان.

= ذا مال وبنين، فتفرق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك، فأطلق الأيادي عليهم؛ لأن بهم قوته كالأيادي. ثم شبه نفسه بهم في الشتات. وعز: مرخم، وفي ندائها معنى التوجع والاستعطاف، وخاطبها بضمير جمع المذكر تعظيما، ولذلك لا تجده في مواضع ذمهن. وجملة النداء معترضة بين الخبر والمبتدأ؛ ويحتمل أن التقدير: أنا كأيادي سبأ مدة كوني بعدكم، فهي معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل، شبه الحسن بالحلاوة بجامع اللذة. وقيل: حلى يحلي، كرضي يرضى في المنظر. وحلا يحلو في الطعم، وماهنا من الأول فلا مجاز، والمنظر مصدر بمعنى النظر، ويجوز أن الحلاوة الحسن والمنظر - بالفتح -: مكان النظر، ويجوز أنه النظر. أي: فلم يحسن لعيني غيرك، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك. فالخطاب لها ولحبها! ولكن موارد الاستعمال يعضدها ما تقدم، وروي: فلن يحل، فزعم بعضهم أن «لن» قد تجزم كما هنا، وعلى المنع فحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك ﴿ادْعُوا الَّذِينَ﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله. والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر، أو نفع أو ضر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك، كقوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما له منهم من معين يعينه على تدبير خلقه، يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، فكيف يصح أن يُدعوْا كما يدعى ويُرجوْا كما يرجى، فإن قلت: أين مفعولا زعم؟ (قلت): أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأما الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أو محذوفاً فلا يصح الأول، لأنّ قولك: هم من دون الله، لا يلتئم كلاماً، ولا الثاني، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم؛ وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد؟ فبقي أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً، لطول الموصول لصلته. وحذف آلهة لأنه موصوف صفته ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً، فإذاً مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

تقول: الشفاعة لزيد، على معنى أنه الشافع، كما تقول: الكرم لزيد: وعلى معنى أنه المشفوع له، كما تقول: القيام لزيد، فاحتمل قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين، أي: لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له. أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له، أي: لشفعيه، أو هي اللام الثانية في قولك: أذن لزيد لعمرو، أي لأجله، وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه، وهذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولأي شيء وقعت حتى غاية/ ٢/ ١١١ب؟ قلت: بما فهم من هذا الكلام، من أنّ ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين

للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان. وطول من التربص، ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجلّ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾﴾ كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون كلياً فزعين وهلين، حتى إذا فزع عن قلوبهم، أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ﴾ قال: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ «فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة» (١١٢٨). وقرئ أذن له، أي: أذن له الله، وأذن له على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: فزع، مخففاً، بمعنى فزع. وقرئ فزع، على البناء للفاعل، وهو الله وحده، وفرّغ، أي: نفى الوجل عنها وأفنى، من قولهم: فرغ الزاد، إذا لم يبق منه شيء. ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور، كما تقول: دفع إليّ زيد، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف، وأصله: فرغ الوجل عنها، أي: انتفى عنها، وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور، وقرأ: افرنقع عن قلوبهم، بمعنى: انكشف عنها. وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار[1] فالتف عليه الناس، فلما أفاق قال: ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكأكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركب «اقمطر» من حروف القمط، مع زيادة الراء. وقرئ الحق بالرفع، أي: مقوله الحق ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾

أمره بأن يقررهم بقوله: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق

١٢٢٨ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله «أنه هاج به المرار» في الصحاح «المرار»: بضم الميم: شجر مر، إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. ومنه: بنو آكل المرار: وهم قوم من العرب. (ع)

مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة، ومرّة كانوا يتلعثمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة، ونحوه قوله عزّ وجلّ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦] وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يتوحدو الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[١] بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته[٢] بالهوينا ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب[٣]؛ ومنه بيت حسان [من الوافر]:

---

(١) قوله «ولكن التعريض والتورية أنضل» في الصحاح «ناضله»: راماه، يقال: ناضلت فلاناً فنضلته إذا غلبته اهـ. فالأفضل الأشد رمياً، فلذا عدى بإلى. (ع)

(٢) قوله «وفل شوكته» أي كسرها. (ع)

(٣) قال محمود: «لما ألزمهم الحجة في قوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ وهلم جرا إلى الآية المذكورة ـ وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ـ أمره أن يقول ﴿وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السموات والأرض بالعبادة، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة: لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به: قد أنصفك صاحبك، والتعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: الله يعلم الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب ومنه قول حسان [من الوافر]:

أتهجوه ولست له بكفء؟ فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد: وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاذه الخاطر كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد، فتأمله والله الموفق.

أَتَــهْــجُــوهُ وَلَــسْــتَ لَــهُ بِــكُــفْءٍ؟ فَــشَــرُّكُــمَــا لِــخَــيْــرِكُــمَــا الْــفِــدَاءُ[1]

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه. وفي قراءة أبيّ: وإنا وإياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين، وإن أراد بالإجرام: الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن، وبالعمل: الكفر والمعاصي العظام[2]/ ٢/ ١١٢أ. وفتح الله بينهم: وهو حكمه وفصله: أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾ وكان يراهم ويعرفهم؟ قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به. و﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعدما كسده بإبطال المقايسة، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [**الأنبياء**: ٦٧] بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده. أو ضمير الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [**الإخلاص**: ١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «وهذا القول أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم. وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات، التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك. والله أعلم.

﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة، ومن جعله حالاً من المجرور متقدّماً عليه فقد أخطأ؛ لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأوّل إلا بالخطأ الثاني، فلا بد له من ارتكاب الخطأين[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قرئ ميعادُ يوم، وميعادٌ يومٌ، وميعادٌ يومًا، والميعاد: ظرف الوعد من مكان أو زمان، وهو ههنا الزمان. والدليل عليه قراءة من قرأ: ميعاد يوم فأبدل منه اليوم. إن قلت: فما تأويل من أضافه إلى يوم، أو نصب يوماً؟ قلت: أما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: سحق ثوب، وبعير سانية. وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد،

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وأما قوله كذا فهو مختلف فيه ذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه قال: وهو الصحيح. قال: ومِنْ أَمْثِلَةِ أبي عليّ: زيدٌ خيرُ ما تكونُ خيرٌ منك التقدير زيد خيرٌ منك خير ما تكون فجعل خير ما تكون حالا من الكاف في منك وقدمها عليها وأنشد [من الطويل]:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيْهِ شَدِيدُ

أي فمطلبها عليه كَهْلاً. وأنشد أيضاً [من الطويل]:

تَسَلَّيْتُ طُرّاً عَنْكُمُ بَعْدَ بَيْنِكُم ... بِذِكْرَاكُمُ حَتَّى كَأَنَّكُمُ عِنْدِي

أي عنكم طُرّاً. وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به قال الشاعر:

مَشْغُوفَةً بِكَ قَدْ شُغِفْتُ وإنَّمَا ... حُمَّ الفِرَاقُ فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلُ

أي قد شُغِفْتُ بِكَ مشغُوفَة. وقال الآخر [من الخفيف]:

غَافِلاً تَعْرِضُ الْمَنِيَّةُ لِلْمَرْ ... ءِ فَيُدْعَى وَلاَتَ حِينَ إِبَاءِ

أي تعرض المنيةُ للمرءِ غافلاً. قال: وإذا جاز تقديمها على صاحبها وعلى العامل فيه فَتَقْدِيمُهَا على صاحبها وحده أَجْوَز. قال: ومِمَّنْ حمله على الحال ابن عطية فإنه قال: قُدِّمَتْ للاهتمام والمنقول عن ابن عباس قوله إلى العرب وسائر الأمم وتقديره إلى الناس كافة. قال وقول الزمخشري لا يستوي له الخطأ الأول إلى آخره تشنيعٌ لأنّ القائل بذلك لا يحتاج إلى جعل اللام بمعنى إلى لأن أَرْسَلَ يتعدى باللام قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وأَرْسَلَ مما يتعدى باللام وبإلى أيضاً فقد جاءت اللام بمعنى إلى وإلى بمعناها. قُلْتُ: أمّا «أرسلناك للناس» فلا دلالة فيه لاحتمال أن تكون اللام لام العلة المجازية وأما كونها بمعنى إلى والعكس فالبصريون لا يتجوّزُونَ في الحروف و«بَشيراً ونَذِيراً» حالان أيضاً. انتهى. الدر المصون.

أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم. فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً، لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدّماً عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)﴾

الذي بين يديه: ما نزل قبل القرآن من كتب الله: يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله - ﷺ - في كتبهم، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدّمه من كتب الله عزّ وجلّ في الكفر، فكفروا بها جميعاً. وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة. والمعنى: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجيب[1]، فحذف الجواب. والمستضعفون: هم الأتباع، والمستكبرون: هم الرءوس والمقدّمون.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

أولى الاسم أعني ﴿أَنَحْنُ﴾ حرف الإنكار؛ لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم، كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهي، فكنتم

(١) قوله «لرأيت العجيب» لعله: العجب، كعبارة النفسي. (ع)

مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا. فإن قلت: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافا إليها؟ قلت: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان، كما أضيف إلى الجمل في قولك: جئتك بعد إذ جاء زيد، وحينئذٍ، ويومئذٍ، وكان ذلك أوان الحجاج أمير، وحين خرج زيد. لما أنكر المستكبرون بقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾/ ٢/ ١١٢ب أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعين وأثبتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم. كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي. وقرئ: بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب، أي تكرّون الإغواء مكرّاً دائباً لا تفترون عنه. فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب؟ قلت: هو مبتدأ أو خبر، على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك. والنصب على: بل تكرّون الإغواء مكرّ الليل والنهار؛ فإن قلت: لم قيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾، بغير عاطف؛ وقيل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾؟ قلت: لأن الذين استضعفوا مرّ أولاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأوّل فإن قلت: من صاحب الضمير في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين، وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي في أعناقهم، فجاء بالصريح للتنويه بذمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

هذه تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ مما مني[1] به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة[2] وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين،

---

(١) قوله «مما مني به من قومه» أي ابتلي به. (ع)

(٢) قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

والاستهانة بهم من أجله، وقولهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ـ ﷺ ـ أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم؛ فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] وقرئ يقدّر، بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم، وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها، أي: ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن: باللاتي تقرّبكم؛ لأنها جماعات. وقرئ: بالذي يقرّبكم، أي: بالشيء الذي يقرّبكم. والزلفى والزلفة: كالكربى والكربة، ومحلها النصب، أي: تقرّبكم قربة، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء من (كم) في (تقرّبكم)، والمعنى: أنّ الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاة والطاعة، جزاء ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً. وقرئ: جزاء الضعف. على: فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على: أن يجازوا الضعف، وجزاء الضعف مرفوعان: الضعف بدل من جزاء. قرئ: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي/ ٢/ ١١٣أ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ فهو يعوّضه لا معوّض سواه: إما عاجلاً بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفذ. وإما آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه. وعن مجاهد: من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإنّ الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر، ولا يتأولن: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، فإن هذا في الآخرة. ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأعلاهم رب العزة، بأن كل ما رزق غيره: من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق عبده، أو رجل يرزق عياله: فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء. وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني[(١)] وجعلني ممن يشتهي؛ فكم من مشته لا يجد، وواجد لا يشتهي.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار؛ وارد على المثل السائر [من الرجز]:

إِيَّاكِ أَعْنِي وَٱسْمَعِي يَا جَارَهْ[(٢)]

---

(١) قوله «الحمد لله الذي أوجدني» في الصحاح: وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه، أي أظفره به وأوجده أي: أغناه. (ع)

(٢)
يا أخت خير البدو والحضاره ... كيف ترين في فتى فزاره؟
أصبح يهوى حرة معطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره

لسهل بن مالك الفزاري، يخاطب أخت حارثة بن لأم، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته، فرآها في غاية الجمال والكمال، فأنشد ذلك، فأجابته بقولها:

إني أقول: يا فتى فزاره ... لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذى الحاره ... فارحل إلى أهلك باستحاره

فارتحل، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى، وكان حسن الطلعة، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها، ففعل، وتزوجها وارتحل بها. والبدو: هو البادية. والحضارة: هي الحاضرة. والمراد أهلهما، وكيف: اسم استفهام نصب على المفعولية بترين. والمعنى: أي حال ترين في فتى هذه القبيلة؟ يعني نفسه. وفيه تعريض بخطبتها. والمعطارة: كثيرة التعطر. ولحاق تاء التأنيث لمفعال شاذ ـ إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا ـ ويمكن أنها لزيادة المبالغة، لا للتأنيث. والدعارة: الفسق والخبث والفساد. وهذي: اسم إشارة. وقولها: باستحارة: أي بكمال وعدم نقص. أو بتحير وعدم اهتداء. يقال: استحار الإناء، إذا امتلأ وتكامل. واستحار الرجل: إذا نحر في رأيه. =

ونحوه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا؛ فيكون تقريعهم أشدّ. وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم: وهو أنه ألزم، ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه، وزاجراً لمن اقتص عليه. والموالاة: خلاف المعاداة. ومنها: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وهي مفاعلة من الولي وهو القرب، كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد، والولي: يقع على الموالي والموالي جميعاً. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالاة بيننا وبينهم، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يريدون الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت، فيعبدون بعبادتها. وقرئ: نحشرهم. ونقول، بالنون والياء.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد؛ لأنّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم، يتضارّون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذٍ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معطوفاً على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

الإشارة الأولى: إلى النبي ﷺ. والثانية إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق، والحق أمر

= ينظر: مجمع الأمثال ١/ ٤٩، وبلا نسبة في لسان العرب (عطر)، (عنا)، وتاج العروس (عطر)، والبيت الثاني من أمثال العرب، وهو في تمثال الأمثال ١/ ٣٦٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٩، والحيوان ٣/ ١٢٢، وزهر الأكم ١/ ١٤٠، ٣٣٣، والعقد الفريد ٣/ ٨٦، ٦/ ٣٣٥، والفاخر ص ١٥٨، وفصل المقال ص ٧٦، ٧٧، وكتاب الأمثال ص ٦٥، والمستقصي ١/ ٤٥٠، والوسيط في الأمثال ص ٥٢، وتهذيب اللغة ٣/ ٢١٢.

النبوّة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحراً.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

وما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك، ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٥] أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف: ٢١] فليس لتكذيبهم وجه متشبث، ولا شبهة متعلق، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتب وشرائع، ومستندون إلى رسل من رسل الله. ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار/ ٢/ ١١٣ب وقوّة الأجرام وكثرة الأموال، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وقرئ: يدرّسونها، من التدريس وهو تكرير الدرس. أو من درّس الكتاب، ودرّس الكتب: ويدّرسونها، بتشديد الدال: يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع، وهما: العشر، والربع. فإن قلت: ما معنى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ قلت: لما كان معنى قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه: جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ، ويجوز أن ينعطف على قوله: وما بلغوا، كقولك: ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[١] أي للمكذبين الأوّلين، فليحذروا من مثله.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) قوله «فكيف كان نكير» وفي النسفي: أن يعقوب قرأ «نكيري» بالياء في الوصل والوقف. (ع)

﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ بخصلة واحدة، وقد فسرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ على أنه عطف بيان لها[1]، وأراد بقيامهم: إما القيام عن مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين، ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم: وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً. متفرّقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أمّا الاثنان: فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول: ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يسمع إلا نصرة المذهب، وأراهم بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً، لا يتصدّى لادعاء مثله إلا رجلان: إمّا مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز، بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب. وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة، مختار من أهل الدنيا، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه، وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه، وقد علمتم أنّ محمداً ﷺ ما به من جنة، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً، وأرزنهم حلماً وأثقبهم ذهناً وآصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب؛ وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية؛ فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين. فإن قلت: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ـ ﷺ ـ. ويجوز أن يكون المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة، وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة» (١٢٢٩)[2].

١٢٢٩ ـ تقدم في سورة الأنبياء. =

---

(١) قال السمين الحلبي: وهو مردود لتخالفهما تعريفاً وتنكيراً. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح»: أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه =

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط الذي هو قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ تقديره: أيّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ وفيه معنيان، أحدهما: نفي مسألة الأجر رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخذه، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت؛ لتعليقه الأخذ بما لم يكن. والثاني: أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧] وفي قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم، وكذلك المودّة في القرابة، لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حفيظ مهيمن، يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه، ولا أطمع منكم في شيء.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

القذف والرمي: تزجية[1] السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ ومعنى ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه. أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ رفع محمول على محل إن واسمها، أو على المستكن/ ٢/ ١١٤أ في يقذف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب صفة لربي، أو على المدح. وقرئ: الغيوب بالحركات الثلاث، فالغيوب كالبيوت. والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

والحيّ إمّا أن يبدىء فعلاً أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة، فجعلوا قولهم: لا يبدىء ولا يعيد مثلاً في الهلاك؛ ومنه قول عبيد [من مخلع البسيط]:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ ... فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِي وَلاَ يُعِيدُ[2]

= وقال ابن حجر: تقدم في الأنبياء. انتهى.

= الحديث «بعثت في نسم الساعة» أي: حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسم أيضاً: جمع نسمة وهي النفس. (ع)

(١) قوله «القذف والرمي تزجية السهم» في الصحاح: زجيت الشيء تزجية إذا دفعته برفق. (ع)

(٢) لعبيد بن الأبرص. وأقفر: خلا أو هلك عبيد من أهله. والإبداء والإعادة من لوازمهما الحياة، فنفيهما كناية عن نفيها بالموت. كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل =

والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود نبعة[1] ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)، ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ (١٢٣٠). والحق: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: السيف. وقيل الباطل: إبليس لعنه الله، أي: ما ينشىء خلقاً ولا يعيده، المنشىء والباعث: هو الله تعالى. وعن الحسن: لا يبدىء لأهله خيراً ولا يعيده، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: أيّ شيء ينشىء إبليس ويعيده، فجعله للاستفهام. وقيل للشيطان: الباطل؛ لأنه صاحب الباطل؛ أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان، من شاط إذا هلك.

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾

قرئ: ضلَلت أضِلّ، بفتح العين مع كسرها. وضلِلت أضَلّ، بكسرها مع فتحها، وهما لغتان، نحو: ظللت أظلّ، وظللت أظلّ. وقرئ إِضلّ: بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت: أين التقابل بين قوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فإنما أهتدي لها، كقوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال: فإنما أضل بنفسي. قلت: هما متقابلان من جهة المعنى؛ لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعني: أنّ كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها: لأن الأمّارة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته

١٢٣٠ ـ قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه وقد تقدم في سورة الإسراء. انتهى.

= من يلقاه، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه، فصادفه فيه عبيد، فقيل له: امدحه بشعر لعله يعفو عنك، فقال: حال الجريض دون القريض، أي منعت الغصة الشعر، فضرب ذلك مثلاً وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا، وفي مجاني الأدب: أن المنذر قال له: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب، فقال: أقفر من أهله عبيد. وملحوب: اسم موضع، استنشسده بيتاً قديماً فعلم أنه يريد هلاكه، فقال: لا قدرة لي على إبداء شعر جديد، ولا على إعادة شعر قديم، ودخل في حشو البيت الزحاف الطي، ومن العلل القطع. فصار مستفعلن على وزن مستعل بسكون اللام، وذلك في قوله «أهله».
ينظر ديوانه (ص ٤٥)، لسان العرب (قفر)، تهذيب اللغة (٩/ ١٢٠)، تاج العروس (قفر)، أساس البلاغة (عود)، الدر المصون (٥/ ٤٥٣).

(١) قوله «فجعل يطعنه بعود نبعة» لعله «معه» كعبارة النسفي. (ع)

كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالّ ومهتد، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، يعني: لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة. و«لو» و«إذ» والأفعال التي هي «فزعوا» و«أخذوا» وحيل بينهم: كلها للمضي. والمراد بها الاستقبال؛ لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه، ووقت الفزع: وقت البعث وقيام الساعة. وقيل: وقت الموت. وقيل: يوم بدر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في خسف البيداء، وذلك أنّ ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. وقرئ: فلا فون. والأخذ من مكان قريب: من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأُخِذُوا۟﴾؟ قلت: فيه وجهان: العطف على فزعوا، أي: فزعوا وأخذوا فلافوت لهم. أو على لافوت، على معنى: إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ: وأخذ، وهو معطوف على محل لافوت. ومعناه: فلا فوت هناك. وهناك أخذ.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾: والتناوش والتناول: أخوان؛ إلا أنّ التناوش تناول سهل لشيء قريب، يقال ناشه ينوشه، وتناوشه القوم. ويقال: تناوشوا في الحرب: ناش بعضهم بعضاً. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة[1] كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه وقرئ التناؤش: همزت الواو المضمومة كما همزت في أجؤه وأدؤر وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم: نأشت إذا أبطأت وتأخرت، ومنه البيت [من الطويل]:

---

(١) قوله «أن يتناول الشيء من غلوة» في الصحاح: غلوت بالسهم غلواً. إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه. والغلوة: الغاية مقدار رمية. وفيه: يقال بينهما قبس رمح وقاس رمح، أي: قدر رمح. (ع)

أي أخيراً ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ معطوف على قد كفروا، على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ويأتون به ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو قولهم في رسول الله ـ ﷺ ـ شاعر، ساحر، كذاب، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي، لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً/ ٢/ ١١٤ب ولا كذباً، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله، لأن أبعد شيء مما جاء به: الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت: الكذب والزور: وقرئ: ويقذفون بالغيب، على البناء للمفعول، أي: يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه، وإن شئت فعلقه بقوله ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً، والغيب: الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين، إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا: فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز

---

(١) ومولى عصاني واستبد برأيه ... كما لم يطع فيما أشار قصير
فلما رأى ما غب أمري وأمره ... وناءت بأعجاز الأمور صدور
تمنى نئيشاً أن يكون أطاعني ... وقد حدثت بعد الأمور أمور

لنهشل بن حرى، واستبد: انفرد واستغنى بأمره. وقصير: علم رجل كان حسن الرأي، وهو فاعل أشار. ومفعول «يطع» محذوف لدلالة المذكور عليه. أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم، والأوجه رواية لم يطع مبنياً للمجهول. وقصير: نائب الفاعل، وضميره فاعل أشار، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع. وغب الأمر: بلغ غبه بالكسر عاقبته. وناء ـ بالمد ـ: أصله نأى، فقلب: أي بعد، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على طريق المكنية وإثباتهما له تخييل، كأن أوائل الأمور مضت بأواخرها، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها. ويقال: نأش بالهمز إذا تأخر. ونئيشاً: نصب على الظرف، أي أخيراً، أي: تمنى في آخر الأمر أن يكون أطاعني في نصيحتي لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة، والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه، فهي حال مبينة للمراد من الظرف. أو حدثت بعد الأمور السهلة التي كان يمكنه معها مطاوعتي أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته، كما نصحته بذلك أولاً فلم يسمع ومضى على رأيه.

ينظر: ديوانه ص ٩٥، ولسان العرب (نأش)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٣٢٥، وتاج العروس (نأش)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٣٧٧، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، ومجمل اللغة ٤/ ٣٦٧، وأساس اللغة (نأش).

بالجنة. أو من الردّ إلى الدنيا، كما حكى عنهم ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾. ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مُرِيبٍ﴾ إما من أرابه، إذا أوقعه في الريبة والتهمة. أو من أراب الرجل، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها، وكلاهما مجاز؛ إلا أنّ بينهما فريقاً: وهو أنّ المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك، كما تقول: شعر شاعر.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبيّ إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً» (١٢٣١).

١٢٣١ ـ تقدم حديث أبي بن كعب في فضائل القرآن برقم (٣٤٦).

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. انتهى.

سورة الملائكة

مكية، وهي خمس وأربعون آية
[نزلت بعد الفرقان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ مبتدئها ومبتدعها. وعن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها (١٢٣٢)، أي ابتدأتها، وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة. وقرئ: جاعل الملائكة، بالرفع على المدح ﴿رُسُلًا﴾ بضم السين وسكونها ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أصحاب أجنحة، وأولو: اسم جمع لذو، كما أن أولاء اسم جمع لذا، ونظيرهما في المتمكنة: المخاض والخلفة﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ صفات الأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها. ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صبغ إلى صبغ آخر، كما عدل عمر عن عامر. وحذام عن حاذمة، وعن تكرير إلى غير تكرير. وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها. ألا تراك تقول: مررت بنسوة أربع، وبرجال ثلاثة، فلا يعرج عليها، والمعنى: أن الملائكة[1] خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان، أي: لكل واحد منهم جناحان، وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته. والأصل الجناحان؛ لأنهما بمنزلة اليدين، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه. فإن قلت: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه، فما صورة الثلاثة؟ قلت: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة. أو لعله لغير الطيران؛ فقد مرّ بي في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة

١٢٣٢ ـ قال الحافظ تقدم في سورة الأنعام. انتهى.

---

(١) قوله «أن الملائكة خلقاً» لعله: متنوعه خلقاً... إلخ. (ع)

فجناحان يلفون بها أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله. وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح» (١٢٣٣)، وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك. قال: «إني أحب أن تفعل فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال: سبحان الله! ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل: له اثنا عشر جناحاً: جناح منها بالمشرق، وجناح بالمغرب، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع»[1] (١٢٣٤) وهو العصفور الصغير. وروي/ ٢/ ١١٥أ عن رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: «هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن» (١٢٣٥). وقيل: «الخط الحسن»، وعن قتادة: الملاحة في العينين (١٢٣٦). والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء؛ وقوة في البطش؛ وحصافة في العقل[2]، وجزالة في الرأي، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة[3] في اللسان ولباقة في التكلم[4]؛ وحسن تأنّ في مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

١٢٣٣ ـ تقدم برقم (٥٧٧).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود: «أن النبي ـ ﷺ ـ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» ولفظ ابن حبان: رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت». انتهى.

١٢٣٤ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٦/٣) لابن المبارك في كتاب الزهد من طريق ابن شهاب، وللثعلبي في تفسيره من جهة ابن المبارك.
قال الحافظ: أخرجه ابن المبارك في الزهد والثعلبي من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهري بهذا وزاد «والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضا. انتهى.

١٢٣٥ ـ عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٥٩/٥) لابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال: حسن الصوت ولعبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق الزهري.

١٢٣٦ ـ عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٥٩/٥) للبيهقي في السنن عن قتادة.

---

(١) قوله مثل الوصع وهو العصفور» في الصحاح: الوصع»: طائر أصغر من العصفور. (ع)
(٢) قوله «وحصافة» أي: إحكام. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «وذلاقة» أي: حدة وطلاقة، أفاده الصحاح. (ع)
(٤) قوله «ولباقة في التكلم» أي حذق، أفاده الصحاح. (ع)

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

استعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مكان: لا فاتح له، يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها. وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية[(١)]، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها، وأيّ شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه. فإن قلت: لم أنث الضمير أوّلاً، ثم ذكر آخراً؟ وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط؟ قلت: هما لغتان: الحمل على المعنى وعلى اللفظ، والمتكلم على الخيرة فيهما، فأنث على معنى الرحمة، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه، ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ فلا مرسل لها. فإن قلت: لا بد للثاني من تفسير، فما تفسيره؟ قلت: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل. ولكنه ترك لدلالته عليه، وأن يكون مطلقاً في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته، وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه. فإن قلت: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؟ قلت: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها ـ وهو الذي أراده ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن قاله ـ فمقبول؛ وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب؛ فمردود؛ لأنّ الله تعالى يشاء التوبة أبداً[(٢)]، ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [**الجاثية**: ٢٣]، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [**الجاثية**: ٦] أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والعموم مفهوم من اسم الشرط و«من رحمة» بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزىء فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمات ومن في موضع الحال. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «يشاء التوبة أبداً» هذا وما بعده على مذهب المعتزلة، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للعبد. وعند أهل السنة: لا يجب عليه شيء. فالكلام على ظاهره، ورده مردود. (ع)

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن به وبالقلب، وحفظها من الكفران والغمط[1] وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها. ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أياديّ عندك. يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها. والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم، حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم، والناس يتخطفون من حولكم. وعنه: نعمة الله العافية. وقرئ: غير الله، بالحركات الثلاث؛ فالجرّ والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً، والنصب على الاستثناء. فإن قلت: ما محل ﴿يَرْزُقُكُم﴾؟ قلت: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق[2] وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق، بإضمار يرزقكم، وأوقعت يرزقكم تفسيراً له، أو جعلته كلاماً مبتدأ بعد قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾. فإن قلت: هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير الله تعالى[3]؟ قلت: نعم إن جعلت (يرزقكم) كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير. فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض، وخرج من الإطلاق، فكيف يستشهد به على اختصاصه، بالإطلاق؛ والرزق من السماء المطر، ومن الأرض النبات ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة لا محل لها، مثل: يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلتها كما وصلت

---

(١) قوله «وحفظها من الكفران والغمط» أي: الاحتقار. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: ما محل يرزقكم؟ قلت: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيراً وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا، كأنه قيل: هل يرزقكم خالق غير الله، أو جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ» قال أحمد: والوجه المؤخر أوجهها.

(٣) عاد كلامه. قال: فإن قلت: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى؟ قلت: نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السموات والأرض، وخرج من الإطلاق، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقاً» قال أحمد: القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجرأة على الله تعالى: نعم ثم خالق غير الله؛ لأن كل واحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة، وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله. ووجهها هو الحق والظاهر، وأخره في الذكر تناسياً له، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد: أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون، إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض، قالوا: الله، فقرروا بذلك وقرعوا به، إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد، لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤا عن ذلك، فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية. وأما من حيث النظم اللفظي، فلأن الجملتين اللتين هما قوله ﴿يَرْزُقُكُم﴾ وقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ سيقتا سياقاً واحداً. والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدم فكذلك ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾.

يرزقكم لم يساعد عليه المعنى؛ لأنّ قولك: هل من خالق آخر سوى الله لا إلٰه إلا ذلك الخالق: غير مستقيم؛ لأن قولك: هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك: كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلى رسوله ﷺ بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد: من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه. وقرئ: ترجع، بضم التاء وفتحها. فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط، ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له؟ قلت: معناه: وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ موضع: فتأس، استغناء/ ٢/ ١١٥ب بالسبب عن المسبب: أعني بالتكذيب عن التأسي. فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل؟ قلت: معناه فقد كذبت رسل، أي رسل ذوو عدد كثير. وألو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم، وما أشبه ذلك. وهذا أسلى له، وأحث على المصابرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ فلا تخدعنكم ﴿الدُّنْيَا﴾ ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة[1] والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غارّ كقاعد وقعود أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته وما فعل

---

(١) قال محمود: «معناه: ولا يقولن لكم الشيطان: اعملوا ما شئتم فإن الله غفور، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد، وإن لم يكن توبة. وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى؛ لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة في مثل قوله لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فهم إذا مصدقون بوعد الله تعالى، موقنون به على حسب ما ورد.

بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوّكم الذي لا عدوّ أعرق في العداوة منه، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء[1]، ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا، قال لنبيه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين، كمن لم يزين له، فكأن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا» فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال: واحد، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح، حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي، ويعتنق طاعة الهوى، حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه؛ ويقعد تحت قول أبي نواس [من مجزوء الرمل]:

إِسْقِنِي حَتَّىٰ تَرَانِي   حَسَناً عِنْدِي الْقَبِيحُ[2]

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم، فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقي بالاً إلى ذكرهم، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم: اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم. وذكر الزجاج أنّ المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه: أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عليه. حسرات: مفعول له

---

(١) قوله «وقشر اللحاء» في الصحاح: اللحاء ـ ممدود ـ: قشر الشجر. (ع)

(٢) نحن نخفيها فتأتي   طيب ريح فتفوح
اسقني حتى تراني   حسناً عندي القبيح

لأبي نواس. ونخفيها، أي: الخمر: فتفوح: أي رائحتها، ثم قال لساقي الخمر: اسقني حتى أسكر، فيحسن عندي القبيح، وحسناً: المفعول الثاني، والقبيح مرفوع به، واستحسانه: كناية عن اشتداد السكر.

يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات. وعليهم صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبا، ومات عليه حزناً. أو هو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات؛ لأنّ المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالاً، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر؛ كما قال جرير [من الكامل]:

مَشَقَ الْهَوَاجِرُ لَحْمَهُنَّ مَعَ السُّرَىٰ ... حَتَّىٰ ذَهَبْنَ كَلاَكِلاً وَصُدُورا[1]

يريد: رجعن كلاكلا وصدوراً، أي: لم يبق إلا كلاكلها وصدورها؛ ومنه قوله [من الخفيف]:

فَعَلَىٰ إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي ... حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامُ[2]

وقرئ: فلا تذهب نفسك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾

وقرئ أرسل الريح. فإن قلت: لم جاء ﴿فَتُثِيرُ﴾ على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أوتهمّ المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شراً [من الوافر]:

بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ[3] / ٢/١١٦أ

---

(١) لجرير يصف نوقاً بالهزال. يقال: فرس ممشوق، أي: طويل مهزول. وجارية ممشوقة: رقيقة القوام. والهاجرة: شدة الحر. والسرى ـ بالضم ـ: سير الليل. والكلكل والكلكال: الصدر، وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير، أي: صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لحم عليهن.
ينظر: ديوانه ص (٢٢٧)، خزانة الأدب (٤/٩٨/٩٩) شرح أبيات سيبويه (١/ ٢٢٠)، الكتاب (١/ ١٦٢)، المقاصد النحوية (٣/ ١٤٤)، بلا نسبة في لسان العرب (كلل)، البحر المحيط (٧/ ٣٠١)، الدر المصون (٥/ ٤٦٠).

(٢) لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة، وجعل النفس حسرات لامتزاجها بها، فكأنها هي، أو تتساقط بعدهم لأجل الحسرات والأحزان وهو أوجه. وذكرهم: أي تذكرهم سقام لي، وهو بالفتح مصدر كالسقم.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٣٠١)، الدر المصون (٥/ ٤٦٠).

(٣) فمن ينكر وجود الغول إني ... أخبر عن يقين بل عيان =

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا، وأحيينا؛ معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه. والكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلّ الرفع، أي: مثل إحياء الموات نشور الأموات وروي أنه قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهزّ[1] خضراً» قال: نعم. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه» (١٢٣٧). وقيل

١٢٣٧ ـ أخرجه أحمد (٤/ ١١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠)، كتاب الأهوال، باب: أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء؛ والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٨)، رقم (٤٧٠)، وأبو داود الطيالسي (٢/ ٢٢٥)، كتاب: قيام الساعة والنفخ في الصور والبعث والنشور، باب: ما جاء في قيام الساعة وحشر الناس إلى الموقف حديث (٢٧٩٥)، والواحدي في تفسيره (٣/ ٥٠٢) جميعهم من طريق وكيع بن حوس عن عمه أبي رزين العقيلي، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٤٧) لإسحاق بن راهويه في مسنده، وللثعلبي في تفسيره، وللدارقطني، في المؤتلف والمختلف.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قال الحافظ: أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شيبة، والحاكم، والبيهقي في البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدي عن عمه أبي رزين العقيلي أنه قال: «يا رسول الله، أكلنا يرى ربه يوم القيامة. وما آية ذلك في خلقه؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مختلياً به؟ قالوا: بلى. قال: فالله أعظم. قال: قلت: يا رسول الله، كيف =

= بأني قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

لتأبط شراً. والغول: أنثى الشياطين. والعيان: المشاهدة بالعين. والهوى: الهبوط. والمراد: سرعة العدو. والسهب ـ بالفتح ـ: الفضاء المستوي البعيد الأطراف. والصحيفة: الكتاب. والصحصحان والصعصعان ـ بالفتح ـ: المستوي من الأرض. والجران ـ ككتاب ـ: مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة، وجمعه جرنة ككتبة، وأجرنة كأفئدة. يقول: فمن ينكر وجود الغول فقد كذب، فإني أخبر عن يقين، ويجوز أن المعنى: فيا من تنكر وجود الغول، إني أخبر إخباراً ناشئاً عن يقين، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين، بأني قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو، وكرر الوصف بذلك توكيداً، وأظهر موضع الإضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع والتهويل، وكان الظاهر أن يقول: فضربتها، لكن عدل إلى المضارع ليحكي الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها، وتعلم شجاعته، أي: فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها. وفعيل: يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا.
ينظر: لسان العرب (جرن)، البحر المحيط (٧/ ٣٠٢)، الدر المصون (٥/ ٤٦٠).

(١) قوله «ثم مررت به يهز خضراً» في الخازن: «يهتز». (ع)

يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال، تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

كان الكافرون يتعززون بالأصنام، كما قال عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم: كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩] فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه. وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] والمعنى فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ موضعه، استغناء به عنه لدلالته عليه؛ لأنّ الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار، تريد: فليطلبها عندهم؛ إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. ومعنى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أنّ العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة. ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والكلم الطيب: لا إلٰه إلا الله. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني أنّ هذه الكلم لا يقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل: الرافع الكلم، والمرفوع العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع هو الله تعالى، والمرفوع العمل. وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبي ﷺ: «هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه (١٢٣٨). وفي الحديث: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل،

= يحيي الله الموتى. وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مررت بوادي أهلك ممحلا؟ قال: بلى. قال: ثم مررت به يهتز خضراً؟ قال: قلت: بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى. وذلك آية في خلقه» وأوله في سنن أبي داود وابن ماجه دون مقصود الكتاب. انتهى.

١٢٣٨ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/١٤٨): لم أجده هكذا مرفوعاً عن النبي ـ ﷺ ـ إلا عند الثعلبي ورواه الحاكم موقوفاً على ابن مسعود (٢/٤٢٥)، كتاب التفسير، باب: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»، والطبري في تفسيره (١٠/٣٩٨ ـ ٣٩٩)، رقم (٢٨٩٣٧) كلهم من حديث المخارق بن سليم عن عبد الله بن مسعود.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه الحاكم والبيهقي في الأسماء =

ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة (١٢٣٩)، وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر. وقرئ: ﴿إِلَيْهِ يُصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ على البناء للمفعول. و﴿إِلَيْهِ يُصْعِدُ ٱلْكَلِمَ ٱلطَّيِّبَ﴾ على تسمية الفاعل، من أصعد. والمصعد: هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب، وإليه يصعد الكلام الطيب. وقرئ: ﴿وَٱلْعَمَلَ ٱلصَّٰلِحَ يَرْفَعُهُۥ﴾، بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل. فإن قلت: مكر: فعل غير متعدّ. لا يقال: مكر فلان عمله فبم نصب ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؟ قلت: هذه صفة للمصدر، أو لما في حكمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ **[فاطر: ٤٣]** أصله والذين مكروا المكرات السيئات. أو أصناف المكر السيئات، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ـ ﷺ ـ: إما إثباته، أو قتله، أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ **[الأنفال: ٣٠]**. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يعني: ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور، أي: يكسد ويفسد، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ **[الأنفال: ٣٠]** وقوله: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

= والطبري مرفوعاً عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

١٢٣٩ ـ روي من حديث أنس، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث ابن مسعود فأما حديث أنس: فرواه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع لآداب الراوي والسامع (١/ ٣١٥)، باب: ذكر أخلاق الراوي حديث (٦٨٥).

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٤٩) لابن الجوزي في كتاب التحقيق في مسألة نية الوضوء.

وأما حديث أبي هريرة: فأخرجه ابن حبان في الضعفاء (١/ ٢٧٦).

قال ابن حبان: وزكريا بن يحيى الوقاد قال فيه ابن عدي: كان يضع الحديث، وخالد بن عبد الدائم قال ابن حبان: يروي المناكير ويلزق المتون الواهية بالأسانيد المشهورة. انتهى.

وأما حديث ابن مسعود: فأخرجه ابن حبان في الضعفاء (١/ ١٥٠)، وأعله بأحمد بن الحسين بن أبان المصري.

قال الحافظ: أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعاً، وأبان متروك، وله طريق أخرى عن أبي هريرة مرفوعاً أخرجه ابن عدي وابن حبان، كلاهما في الضعفاء عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه. بلفظ: «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة» ـ الحديث. وفيه: «ولا قول إلا بعمل إلى آخره». ورواه ابن حبان أيضاً من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود. وفيه أحمد بن الحسن المصري. وهو كذاب. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، أو ذكراناً وإناثاً، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠] وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: زوج بعضهم بعضاً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ في موضع الحال، أي: إلا معلومة له. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾؟ قلت: معناه (وما يعمر من أحد). وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أي طويل العمر: أو منقوص العمر، أي قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صح قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه، ثقة في تأويله بأفهام السامعين، واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم/٢/١١٦ب، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس المستفيض. يقولون: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي[١].
وفيه تأويل آخر: هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب، وصورته: أن يكتب في اللوح: إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر. وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون. وإليه أشار رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار» (١٢٤٠). وعن كعب أنه قال حين طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله، فقيل لكعب: أليس قد قال الله ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] قال: فقد قال الله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ (١٢٤١). وقد استفاض على الألسنة: أطال الله بقاءك، وفسح في مدتك وما

١٢٤٠ ـ أخرجه أحمد (٦/١٥٩) من طريق القاسم عن عائشة، والبيهقي في الشعب (٦/٢٦٦)، الباب: السادس والخمسون وهو باب: في صلة الأرحام، رقم (٧٩٦٩)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/١٥١) لأبي القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب، من طريق أبي سعيد الخدري.
قال الحافظ: أخرجه أحمد من طريق القاسم عن عائشة، لكن قال: «وحسن الخلق» بدل: «الصدقة» ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك، وزاد: «وحسن الجوار» وله طريق أخرى عند الأصبهاني عن أبي سعيد بلفظ: «صلة الرحم وحسن الخلق وبر الوالدين» وزاد: «وإن كان القوم فجاراً». انتهى.

١٢٤١ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/١٥١ ـ ١٥٢) لإسحاق بن راهويه في مسنده من =

---

(١) قوله «ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي» أي: كرهت المقام به، كذا في الصحاح. (ع)

أشبهه. وعن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره (١٢٤٢). وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة (١٢٤٣). والكتاب: اللوح. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ويجوز أن يراد بكتاب الله: علم الله، أو صحيفة الإنسان. وقرئ: ولا ينقص، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ضرب البحرين: العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواق للماء يجريها، يقال: مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب: بنات مخر، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضل الله، ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر لم يشكل، لدلالة المعنى عليه. وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل، كأنما قيل: لتبتغوا، ولتشكروا. والفرات: الذي يكسر العطش. والسائغ: المريء السهل الانحدار لعذوبته. وقرئ: سيغ، بورن سيد: وسيغ بالتخفيف. وملح: على فعل. والأجاج: الذي يحرق بملوحته. ويحتمل غير طريقة الاستطراد: وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر؛ بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ: وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ

= طريق الزهري عن سعيد بن المسيب.
قال الحافظ: أخرجه إسحاق في آخر مسند ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد. انتهى.

١٢٤٢ ـ أخرجه أبي الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة (٣/ ٩١٨ ـ ٩١٩) رقم (٤٥٢) ـ ٢٣.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٦٤) لعبد بن حميد ولابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفاسيرهم.

١٢٤٣ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ. و﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو (الله ربكم) خبران. وله الملك: جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة. أو عطف بيان. وربكم خبراً. لولا أن المعنى يأباه[(١)]. والقطمير: لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

إن تدعوا الأوثان ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل لـ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها. وقيل: ما نفعوكم ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[(٢)] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به. ويريد: أن الخبير بالأمر وحده، هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به. وقرئ: يدعون، بالياء والتاء[(٣)].

﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾

فإن قلت: لم عرف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم

---

(١) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ: بأن الله علم لا جنس فلا يوصف به ورد قوله: بأن المعنى يأباه قال: لأنه يكون قد أخبر عن المشار إليه، بتلك الصفات والأفعال إنه مالككم ومصلحكم. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «يكفرون بشرككم» كأن تفسيره قد سقط، وفي النسفي: يكفرون بشرككم: بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، ولا ينبئك... إلخ. (ع)

(٣) أي في الآية (١٣) ﴿... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ...﴾.

جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم، لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء. فإن قلت: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ـ وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني/ ٢/ ١١٧أ جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ـ ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه. الحميد على ألسنة مؤمنيهم ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع، وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أنداداً، وكفرهم بآياته ومعاصيهم، كما قال: ﴿تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ﴾ [محمد: ٣٨] وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

الوزر والوقر: أخوان؛ ووزر الشيء إذا حمله. والوازرة: صفة للنفس، والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته: لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبابرة الدنيا: الولي بالولي، والجار بالجار. فإن قلت: هلا قيل: ولا تزر نفس وزر أخرى؟ ولم قيل وازرة؟ قلت: لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها، لا وزر غيرها. فإن قلت: كيف توفق بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟ قلت: تلك الآية في الضالين المضلين، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]. فإن قلت: ما الفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وبين معنى ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني في أن لا غياث يومئذٍ لمن استغاث، حتى أن نفساً قد أثقلها الأوزار وبهظتها، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾؟ قلت: إلى المدعو المفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾. فإن قلت: فلم

ترك ذكر المدعو؟ قلت: ليعمّ، ويشمل كل مدعوّ. فإن قلت: كيف استقام إضمار العام؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة؟ قلت: هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت: ما تقول فيمن قرأ (ولو كان ذو قربى) على كان التامّة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]؟ قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة؛ لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء، وإن كان مدعوّها ذا قربى، وهو معنى صحيح ملتئم، ولو قلت: ولو وجد ذو قربى، لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه[1]، على أنّ ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول، أي: يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: بالغيب في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ من أصحابه، فكانت عادتهم المستمرّة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها مناراً منصوبًا وعلماً مرفوعاً، يعني: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرّديهم وأهل عنادهم ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي. وقرئ: ومن ازكى فإنما يزكي، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة، لأنهما من جملة التزكي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وعد للمتزكين بالثواب. فإن قلت: كيف اتصل قوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ بما قبله؟ قلت: لما غضب عليهم في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها، ثم قال: (إنما تنذر) كأن رسول الله ـ ﷺ ـ أسمعهم ذلك، فلم ينفع، فنزل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾

﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ، والظلمات والنور والظلّ والحرور: مثلان للحق والباطل، وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب. والأحياء والأموات: مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه، وأصروا على الكفر والحرور: السموم؛ إلا أنّ السموم يكون بالنهار. والحرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل خاصة. فإن قلت: لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قلت: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي. فإن قلت: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قلت: بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن

---

(١) قوله «وخرج من اتساقه والتئامه» أي: انتظامه. (ع)

﴿يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٢٢] يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي الذي قد علم أنّ الهداية/ ٢/ ١١٧ب تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه. وأمّا أنت فخفي عليك أمرهم. فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين. ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر، وذلك ما لا سبيل إليه، ثم قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من المصرين فلا عليك. ويحتمل أنّ الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محقاً أو محقين، أو صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً بالحق. أو صلة لبشير ونذير على: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعيد الحق. والأمّة الجماعة الكثيرة. قال الله تعالى: وجد عليه أمّة من الناس، ويقال لأهل كل عصر: أمّة، وفي حدود المتكلمين: الأمّة هم المصدقون بالرسول ـ ﷺ ـ دون المبعوث إليهم، وهم الذين يعتبر إجماعهم، والمراد ههنا: أهل العصر. فإن قلت: كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ﷺ. فإن قلت: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ قلت: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة، دلّ ذكرها على ذكرها، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالشواهد على صحة النبوّة وهي المعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً. وإن كان بعضها في جميعهم: وهي البينات، وبعضها في بعضهم: وهي الزبر والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله ـ ﷺ ـ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ

﴿أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها من الرّمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد: الخطط والطرائق، قال لبيد [من الكامل]:

أَوْ مَـذْهَـبٌ جُـدَدٌ عَـلَـىٰ أَلْـوَاحِـهِ ....[1]

ويقال: جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ معطوف على بيض أو على جدد، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب[2]. وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: هي الجبال الطوال السود. فإن قلت: الغربيب تأكيد للأسود. يقال: أسود غربيب، وأسود حلكوك: وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، وأبيض يقق[3] وما أشبه ذلك. قلت: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر؛ كقول النابغة [من البسيط]:

وَالْـمُـؤْمِـنُ الْـعَـائِـذَاتِ الـطَّـيْـرِ ....[4]

---

(١) ينظر: ديوانه ص ١١٩، و الخصائص ١/١٩٣، والكتاب ٤/١٥١، ولسان العرب (ذهب)، (برز)، (نطق). (فعم)، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ص ٢٣٢.

(٢) قوله «ما هو على لون واحد غرابيب» لعله. غربيب. (ع)

(٣) قوله «وأبيض يقق» بفتح القاف الأولى، وحكى كسرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٤)
فلا لعمر الذي طيفت بكعبته ... وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يرقبها ... ركبان مكة بين الغيل والسند
ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه ... إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي

للنابغة. يعتذر للنعمان بن المنذر، ولا زائدة قبل القسم، لأنه في الغالب لنفي دعوى الخصم. والعمر: الحياة، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا، وطاف به يطيف طيفاً. أتى عليه ونزل به، وطاف به يطوف طوافاً وطوفانا، إذا دار حوله، ومنه: طيفت، وهو مبني للمجهول، ونائب الفاعل: الجار والمجرور، ولما كان مؤنثاً لحقت التاء الفعل شذوذاً، والفصيح تركها في مثله، والغيل والسند: أجمتان بجانب منى. وقيل: موضعا ماء بجانبي الحرم، وهو قريب مما قبله، أي: حياة الذي طاف الحجيج بكعبته قسمي، وماهريق، والمؤمن: بالرفع عطف على المبتدأ والعائذات منصوب بالمؤمن، والطير: عطف بيان للعائذات، ويجوز جعله بدلاً منه، وكذا كل موصوف تبع صفته، وهريق: أصله أريق. والجسد: البدن، وجسد به الدم؛ إذا لصق به، فهو جاسد وجسد. فعلى الأول «أريق» بمعنى ذبح، وعلى الثاني على ظاهره، لكنه كناية عن الذبح، أي وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدي، والذي آمن الطير العائذات اللائذات بالحرم، حال كونها ينظرها الحجاج في منى ولا يؤذونها لإحرامهم. وروي: يمسحها وهو أبلغ في الأمن، وما أتيت جواب القسم، وإن زائدة. ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال: إذا كان ذلك مني فلا =

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار[1] جميعاً، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ بمعنى: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود، حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال: ثمرات مختلفاً ألوانها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه. وقرئ: ألوانها. وقرأ الزهري جدد، بالضم: جمع جديدة، وهي الجدّة، يقال: جديدة وجدد وجدائد، كسفينة وسفن وسفائن. وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش [من الكامل]:

.... جُونُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ[2]

وروي عنه: جدد، بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. وقرئ: والدواب مخففاً ونظير هذا

= رفعت سوطي إلى يدي: بيان يدي، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف، وروي «سوطاً» بدل «سوطي» أي يضعف حتى لا يقدر على رفعه.

ينظر ديوانه (ص ٢٥) وفيه «والسعد» مكان و«السند»، خزانة الأدب (٥/ ٧١، ٧٣، ١٨٣، ٨/ ٤٥٠، ٤٥١)، شرح المفصل (٣/ ١١) الدر المصون (٥/ ٤٦٧).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لا يصح إلاَّ على مذهب من يُجَوِّزُ حذف المؤكد ومن النحويين من مَنَعَهُ وهو اختيارُ ابن مالك. قُلْتُ: ليس هذا هو التوكيد المختلف في حذف مؤكده لأنَّ هذا من باب الموصوف، ومعنى تسمية الزمخشري لها تأكيداً من حيث أنها لا تُفِيدُ معنًى زائداً إنما المبالغة والتوكيد في ذلك اللون والنحويون قد سَمَّوا الوصفَ إذا لم يُفِدْ غير الأول وتأكيداً فقالوا: وقد تجيءُ لمجرد التوكيد نحو ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ و﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والتوكيد المختلف في حذف مؤكده إنما هو في باب التوكيد الصناعي ومذهب سيبويه جوازه، أجاز مَرَرْتُ بأخَوَيْكَ أنفسهما بالنصب والرفع على تقدير أعنيهما أنفسَهما أو هما أنفسُهما فأين هذا من ذاك؟ إلاَّ أنه يشْكِلُ على الزمخشري هذا المذكور بعدَ «غِرَابِيبُ» ونحوه بالنسبة إلى أنَّه جَعَلَه مُفسراً لذلك المحذوف وهذا إنَّما عُهِدَ في الجُمَل لا في المفردات إلاَّ في باب البدل وعطف البيان فبأي شيء يُسَمِّيه. والأولى فيه أنْ يُسَمَّى توكيداً لفظياً إذ الأصلُ سودٌ غرابيبُ سودٌ.

(٢) والدهر لا يبقي على حدثانه جون السراة له جدائد أربع

لأبي ذؤيب في مرثية بنيه. والجون: الأسود ويطلق على الأبيض، فهو من الأضداد. وسراة الظهر: أعلاه. وسراة كل شيء: أعلاه. وجديدة وجدد وجدائد، كسفينة وسفن وسفائن. والجدائد: الأتن التي جف لبنها. والمرأة الجداء: التي لا ثدي لها: يسلي عن بنيه بأن لك عادة الدهر، فهو لا يبقي مع ما فيه من الحدثان أحداً، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أتن أربع يرعى معهن في البراري وينزو عليهن. وقيل: إنه يعيش مائتي سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشيء. ويجوز قراءة «يبقى» بالفتح. وجون بالرفع فاعل، وله جدائد: جملة حالية أي: لا بد أن تهلك أتنه واحدة بعد واحدة، أو يهلك هو.

ينظر: ديوان الهذليين (١/ ٤)، الدر المصون (٥/ ٤٦٦).

التخفيف قراءة من قرأ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين، فحرك ذاك أوّلهما، وحذف هذا آخرهما. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال. المراد: العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده، وما يجوز عليه وما لا يجوز، فعظموه وقدروه حق قدره، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمن. وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدّكم له خشية» (١٢٤٤). وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها/ ٢/١١٨أ العالم، فقال: العالم من خشى الله. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت: لا بدّ من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وهما معنيان مختلفان. فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه. وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به» (١٢٤٥). فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عمر بن عبد العزيز ويحكي عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم، كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، والمعاقب المثيب: حقه أن يخشى.

١٢٤٤ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٥٢): غريب، وذكره الثعلبي هكذا وقال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». انتهى.

١٢٤٥ ـ أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، كتاب الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم، حديث (١٣)، والشافعي في مسنده (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، كتاب الصوم، باب: فيما يفسد الصوم وما لا يفسده. حديث (٦٨٩). كلاهما من طريق عطاء بن يسار.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلاً في أثناء حديث أوله: «أن رجلاً قبل امرأته وهو صائم». انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم. وعن مطرف رحمه الله: هي آية القرّاء. وعن الكلبي رحمه الله: يأخذون بما فيه. وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به. وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ورضي عنهم. وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن، والتجارة؛ طلب الثواب بالطاعة. و﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بلن تبور، أي: تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق[1] عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ من التفضل على المستحق، وإن شئت جعلت (يرجون) في موضع الحال على: وأنفقوا راجين ليوفيهم، أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ على معنى: غفور لهم شكور لأعمالهم. والشكر مجاز عن الإثابة.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن. ومن للتبيين أو الجنس. ومن للتبعيض ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة: لأنّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ لما تقدّمه من الكتب ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه خبرك وأبصر أحوالك، فرآك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) قوله «وتنفق عند الله» أي تروج. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ﴾؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتوريثه. أو قال: أورثناه وهو يريد نورثه، لما عليه أخبار الله ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله، ومقتصد: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وسابق من السابقين. والوجه الثاني: أنه قدم إرساله في كل أمّة رسولاً وأنهم كذبوا برسلهم وقد جاءوهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ثم قال: إنّ الذين يتلون كتاب الله، فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي من بعد أولئك المذكورين، يريد بالمصطفين من عباده: أهل الملة الحنيفية، فإن قلت: فكيف جعلت ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الفضل الكبير[1] الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ قلت: لما كان السبب في نيل الثواب، نزل منزلة المسبب، كأنه هو الثواب، فأبدلت عنه جنات عدن، وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر، فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله، ولا يغترا بما/ ٢/ ١١٨ب رواه عمر ـ رضي الله عنه ـ عن

---

(١) قال محمود: «يعني بالمصطفين أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قسمتهم الآية إلى ظالم لنفسه: هو المرجأ لأمر الله، وإلى مقتصد: وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وإلى سابق. ثم قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جعل الجنات بدلاً من الفضل الكبير، وذلك في تتمة الآية في قوله: ﴿ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها﴾ قلت: لأن الإشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب في الجنات ونيل الثواب، فأقام السبب مقام المسبب. وفي اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً، وعليهما بالتوبة النصوح، ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» فإن شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع» قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم الدراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لمنهم، وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترىء، وقوله ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها: جنات مبتدأ، ويدخلونها الخبر، وقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. . . إلى آخر الآية: خبر بعد خبر، وخبر على خبر، والله المستعان.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» (١٢٤٦). فإن شرط ذلك صحة التوبة[1] لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وقوله ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع. وقرئ سباق. ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتيسيره وتوفيقه.

فإن قلت: لم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقرئ: جنة عدن على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين. وجنات عدن: بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر، أي يدخلون جنات عدن يدخلونها، ويدخلونها، على البناء للمفعول.

ويحلون: من حليت: المرأة، فهي حال ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ معطوف على محل من أساور، ومن داخلة للتبعيض، أي: يحلون بعض أساور من ذهب، كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض، كما سبق المسوّرون به غيرهم: وقيل: إنّ ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ. وقرئ: ولوُلُؤًا بتخفيف الهمزة الأولى، وقرئ: الحزن، والمراد: حزن المتقين، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧] ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حزن الأعراض والآفات.

وعنه: حزن الموت. وعن الضحاك: حزن إبليس ووسوسته. وقيل: همّ المعاش. وقيل: حزن زوال النعم، وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار، ومعناه: أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا. وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم؛ وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد الله الذي أذهب عنا

١٢٤٦ ـ أخرجه الواحدي في تفسيره (٣/ ٥٠٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٣)، حديث (١٤٩١)، وأعله بالفضل بن عمير، وقال: لا يتابع على إسناده، وقد روي بإسناد أصلح من هذا. انتهى.
والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٧١)، كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٥٣) للثعلبي في تفسيره بنفس سند العقيلي.
قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وهذا منقطع، وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر، فيه الفضل بن عميرة: وهو ضعيف. ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عمن سمع عمر فذكره موقوفاً. انتهى.

---

(١) قوله «فإن شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل. (ع)

الحزن»[1]. وذكر الشكور: دليل على أن القوم كثيرو الحسنات، المقامة: بمعنى الإقامة، يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من عطائه وإفضاله، من قولهم: لفلان فضول على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذي هو التفضل؛ لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق، والتفضل كالتبرع. وقرئ: لغوب، بالفتح: وهو اسم ما يلغب منه، أي: لا نتكلف عملاً يلغبنا: أو مصدر كالقبول والولوغ، أو صفة للمصدر، كأنه[2] لغوب لغوب، كقولك: موت مائت، فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له. وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس المشقة والكلفة. واللغوب: نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَيَمُوتُوا﴾ جواب النفي، ونصبه بإضمار أن: وقرئ: فيموتون، عطفاً على يقضي، وإدخالاً له في حكم النفي، أي: لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء (يجزي) وقرئ: يجازي. ونجزي ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾ بالنون[3] ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة. قال [من الطويل]:

.... كَصَرْخَةِ حُبْلَىٰ أَسْلَمَتْهَا قَبِيلُهَا[4]

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والبيهقي في أول الشعب والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني والنسائي في الكنى عن ابن عمر. وأخرى عند البيهقي في الشعب. وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمام في فوائده والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عن ابن مردويه.

(٢) «كأنه» لعله: كأنه قال. (ع)

(٣) قوله «ونجزي كل كفور بالنون» ونصب كل في هذه القراءة ورفعه فيما قبلها. (ع)

(٤) قصدت إلى عنس لأحدج رحلها ... وقد حان من تلك الديار رحيلها
فأنت كما أن الأسير وصرخت ... كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى: وعنست المرأة عنساً: إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن. والعنس: الناقة الصلبة الصعبة وحدج من باب ضرب: إذا شد الرحل على الناقة. والحدوج: الرحال والهوادج، =

واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته. فإن قلت: هلا اكتفى بـ «صالحًا» كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ وما فائدة زيادة ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم[1] كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فقالوا: أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ توبيخ من الله يعني: فنقول لهم. وقرئ: ما يذكر فيه، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر؛ إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. وعن النبيّ ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة» (١٢٤٧). وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين. وقيل: ثماني عشر وسبع عشر. و﴿النَّذِيرُ﴾ الرسول ﷺ. وقيل: الشيب. وقرئ: وجاءتكم النذر. فإن قلت/ ٢/ ١١٩أ: علام عطف وجاءكم النذير؟ قلت: على معنى: أولم نعمركم؛ لأن لفظه لفظ استخبار. ومعناه معنى إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

١٢٤٧ ـ ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٩)، وعزاه إلى البزار، والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٥٥)، وعزاه إلى البزار وابن مردويه وللحديث شواهد:

أخرجه البخاري في صحيحه (١٣/ ١٤): كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧): كتاب التفسير، تفسير سورة الملائكة، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٤٥): كتاب الجنائز باب في أعمار هذه الأمة، حديث (٢٩٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧٠)، كتاب الجنائز باب من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر... والبغوي في شرح السنة (٧/ ٢٨٢): كتاب الرقاق باب قصر الأمل: حديث (٣٩٢٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٢٩٠).

قال الحافظ: أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا، وأصله في البخاري بلفظ: «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر» ووهم الحاكم فاستدركه. ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد. انتهى.

= وهو بتأخير الجيم. وأما الجدح ـ بتأخير المهملة ـ: فهو اللت والخوض والمزج، أي: عمدت إلى ناقة صلبة لأشد رحلها عليها، والحال أنه جاء حين رحيلها من تلك الديار. والأنين: الصوت المنخفض للتحزن، أي: أنت كأنين الأسير في الأول، وصرخت برفع صوتها ثانياً كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة. والقبيل والقبول والقابلة: التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلقى الولد عند خروجه.

ينظر: ديوانه ص ٢٢٥، لسان العرب (قبل)، تاج العروس (قبل)، بلا نسبة في المخصص (١/ ٢٢)، (١٤/ ٢٥).

(١) قوله «ولأنهم كانوا يحسبون» لعله: أو لأنهم كانوا. (ع)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون، فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها، وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر - رضي الله عنه -: ذو بطن خارجة جارية (١٢٤٨). وقوله [من الطويل]:

. . . . لِتُغْنِيَ عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعَا(١)

المعنى: ما في بطنها من الحبل، وما في إنائك من الشراب؛ لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء. ألا ترى إلى قولهم: معها حبل، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها وذو: موضوع لمعنى الصحبة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يقال للمستخلف: خليفة وخليف؛ فالخليفة تجمع خلائف، والخليف: خلفاء،

١٢٤٨ - تقدم في سورة الإسراء. قال الحافظ: أخرجه في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: أن أبا بكر كان نحلني جداد عشرين وسقا - الحديث وفيه: «إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه في الإسراء. انتهى.

---

(١) وناولته من رسل كوماء جلدة ... وأغضبت عنه الطرف حتى تضلعا
إذا قال: قدني قلت بالله حلفة ... لتغني عني ذا إنائك أجمعا

لحريث بن عتاب الطائي. وَالرِّسْلُ - بالكسر -: اللبن القليل. والكوماء: السمينة. والجلدة: الصلبة. والإغضاء الغض والإغماض. والتضلع: امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع. وغض طرفه عن الضيف كي لا يستحي إذا قال الضيف: قدني، أي حسبي من الشرب قلت: بالله. وروي: قال بالله، فكأنه عبر عن نفسه بطريق الغيبة. ويروى: إذا قلت قدني قال، على أن الشاعر الضيف وليس بذاك. وحلفة: نصب بمعنى القسم قبله، أي: أحلف بالله حلفة، ولتغني: جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديراً بنون التوكيد الخفيفة، أي: لتمنعني عني. وروى ثعلب لتغتن بنون التوكيد الثقيلة، أي: لتبعدن عني، وكان حقه على اللغة المشهورة لتغنين، لكن حذفت ياؤه بعد الكسرة على لغة فزارة. وروي لتغني بكسر اللام للتعليل، أي: اشرب لتغني عني صاحب إنائك وهو اللبن، وأضافه للإناء لأنه فيه، وأضاف الإناء لضمير الضيف لأنه في يده، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على الكرم، وأجمع: توكيد للبن، أي لا ترد إلى ما في الإناء، بل أشربه كله.
ينظر: خزانة الأدب ١١/ ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٣، والدرر ٤/ ٢١٧، ومجالس ثعلب ص ٦٠٦، والمقاصد النحوية ١/ ٣٥٤، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ١٠٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٥٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٥٩، ٨٣٠، وشرح المفصل ٣/ ٨، ومغني اللبيب ١/ ٢١٠، والمقرب ٢/ ٧٧، وهمع الهوامع ٢/ ٤١.

والمعنى: أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة[1] السنية، فوبال كفره راجع عليه. وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار، والمقت: أشدّ البغض. ومنه قيل لمن ينكح امرأة أبيه: مقتي، لكونه ممقوتاً في كل قلب، وهو خطاب للناس. وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ جعلكم أمّة خلفت من قبلها. ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة، كما أنّ ذلك حكم من قبلكم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَرُونِى﴾ بدل من أرأيتم؛ لأنّ المعنى: أرأيتم أخبروني، كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلٰهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أم آتيناهم كتاباً من قبله، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ وهم الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقرئ: بينات.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

﴿أَن تَزُولَا﴾ كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا: لأن الإمساك منع ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة، حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدًّا، لعظم كلمة الشرك كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠]. وقرئ: ولو زالتا، وإن أمسكهما: جواب القسم في ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ سدّ مسدّ الجوابين، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء. من بعده: من بعد إمساكه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لرجل مقبل من الشام: من لقيت به؟ قال: كعباً. قال: وما

---

(١) قوله «وغمط مثل هذه النعمة» أي: واحتقر. (ع)

سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إنّ السموات على منكب ملك. قال: كذب كعب. أما ترك يهوديته بعد ثم قرأ هذه الآية (١٢٤٩).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما بعث رسول الله ـ ﷺ ـ كذبوه. وفي ﴿إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ وجهان، أحدهما: من بعض الأمم، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم. والثاني: من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ إسناد مجازي، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم. نفوراً عن الحق وابتعادا عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ بدل من نفوراً. أو مفعول له، على معنى: فما زادهم إلا أنْ نفروا استكباراً وعلوّاً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أو حال بمعنى: مستكبرين وماكرين برسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين. ويجوز أن يكون ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ معطوفاً على نفوراً فإن قلت: فما وجه قوله: (ومكر السيء)؟ قلت: أصله: وإن مكروا السيء، أي المكر السيء، ثم ومكرا السيء، ثم ومكر السيء. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ومعنى يحيق: يحيط وينزل. وقرئ: ولا يحيق المكر السيء، أي: لا يحيق الله، ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي ﷺ «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً» (١٢٥٠). فإنّ الله تعالى يقول ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغوا/ ٢/ ١١٩ب ولا تعينوا باغياً،

١٢٤٩ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (١٠/ ٤٢١) حديث (٢٩٠٣٩)، عن ابن مسعود ولم يذكر قوله: «لما ترك يهوديته بعد، كذلك ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٧٩)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن شقيق عن ابن مسعود بنحوه.
قال الحافظ: لم أجده. وروى الطبري من رواية أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام فذكره مثله، إلا أنه لم يقل ما ترك يهوديته. انتهى.

١٢٥٠ ـ تقدم في سورة يونس.
قال الحافظ: أخرجه ابن المبارك في الزهد وقد تقدم في أول يونس. انتهى.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]. وعن كعب أنه قال لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قرأت في التوراة: من حفر مغواة[1] وقع فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله، وقرأ الآية. وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقرأ حمزة: ومكر السيء، بإسكان الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة، ولعله اختلس فظنّ سكونا أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدأ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وقرأ ابن مسعود: ومكراً سيئا ﴿سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم، وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم، وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها، أي: لا يغيرها، وأنّ ذلك مفعول له لا محالة، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن: من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ليسبقه ويفوته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها، يريد بني آدم. وقيل: ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم (١٢٥١)، ثم تلا هذه الآية. وعن أنس: إن الضب ليموت هزالا في جحره بذنب ابن آدم (١٢٥٢). وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ وعيد بالجزاء.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة: أن أدخل من أي باب شئت» (١٢٥٣).

١٢٥١ ـ تقدم في سورة النحل.
وقال ابن حجر: أخرجه الحاكم وقد تقدم في النحل. انتهى.
١٢٥٢ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده عن أنس.
وقد تقدم في سورة النحل عن أبي هريرة وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب. انتهى.
١٢٥٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحدي من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) قوله «من حفر مغواة وقع فيها» في الصحاح: وقع الناس في أغوية، أي: في داهية. والمغويات ـ بفتح الواو مشددة ـ: جمع المغواة، وهي حفرة كالزبية، يقال: من حفر مغواة وقع فيها، والزبية: حفرة تحفر للأسد اهـ. أي: لصيد الأسد. (ع)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس

مكية، [إلا آية ٤٥ فمدنيّة] وآياتها ٨٣
نزلت بعد سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

قرئ: «يس» بالفتح[1]، كأين وكيف، أو بالنصب على: اتل يس، وبالكسر على الأصل كجير، وبالرفع على هذه يس، أو بالضم كحيث، وفخمت الألف وأميلت[2].
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: معناه يا إنسان (١٢٥٤) في لغة طيىء، والله أعلم بصحته، وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين، فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره، كما قالوا في القسم: م الله في أيمن الله ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي، أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ خبر بعد خبر، أو صلة للمرسلين. فإن قلت: أي حاجة إليه خبراً كان أو صلة، وقد علم أنّ المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟ قلت: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على

١٢٥٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/٤٢٥)، حديث، (٢٩٠٢٨)، وذكره السيوطي في تفسيره الدر المنثور (٥/٤٨٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

---

(١) قوله «قرئ يس بالفتح» يفيد أن السكون قراءة الجمهور، والحركات قراءات لبعضهم، فالفتح بناء أو نصب، والكسر بناء فقط، فتدبر. (ع).

(٢) قوله «فخمت الألف وأميلت» يعني: قرأ الجمهور بالتفخيم. وقرأ بعضهم بالإمالة، كما في النسفي. (ع).

صفته، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت، وأيضاً فإن التنكير فيه دلّ على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه[١]، وقرىء: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على أعني، وبالجرّ على البدل من القرآن ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قوماً غير منذر آباؤهم، على الوصف[٢]، ونحوه قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، وقد فسر ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ على إثبات الإنذار. ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية، لتنذر[٣] قوماً إنذار آبائهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوماً ما أنذره آباؤهم من العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]. فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ على التفسيرين؟ قلت: هو على الأوّل متعلق بالنفي؛ أي: لم ينذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وعلى الثاني بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو فهو غافل. فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قلت: لا مناقضة؛ لأنّ الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم[٤]. فإن قلت: ففي

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما سر قوله: (على صراط مستقيم) وقد علم بكونه من المرسلين أنه كذلك؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ما جاء به، فجاء بالوصفين في نظام واحد، فكأنه قال: إنك لمن المرسلين على طريق ثابت، قال: وأيضاً ففي تنكير الصراط أنه مخصوص من بين الصرط المستقيمة بصراط لا يكتنه وصفه. انتهى كلامه. قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيماً وتعظيماً، وهذا منه.

(٢) قال محمود: «إنه على الوصف كقوله: (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) قال: وقد فسر (ما أنذر آباؤهم) على إثبات الإنذار على أن ما مصدرية أو موصولة. قال: والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأوّل متعلقة بالنفي معنى جواباً له، والمعنى أن نفي إنذارهم هو السبب في غفلتهم، وعلى الثاني بقوله: (إنك لمن المرسلين) لتنذر، كما تقول: أرسلناك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو فهو غافل، انتهى» قال أحمد: يعني أنها على التفسير الثاني تفهم أن غفلتهم سبب في إنذارهم.

(٣) قوله «على المفعول الثاني لتنذر» لعل بعده سقطاً تقديره: أي لتنذر. (ع).

(٤) قال محمود: فإن قلت: كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين في قوله: (ما أتاهم من نذير من قبلك) وأجاب بأن الآية لنفي إنذارهم لا لنفي إنذار آبائهم، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل، وقد كانت النذارة فيهم. قال: فما تصنع بأحد التفسيرين الذي مقتضاه أن آباءهم لم ينذروا؛ وهو التفسير الأول في هذه الآية مع التفسير الثاني، ومقتضاه أنهم أنذروا، وأجاب بأن آباءهم الأباعد هم المنذرون لا آباؤهم الأدنون. قال: ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنهم لا يرعوون؛ ولا يرجعون بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يطأطئون رءوسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، قال: والضمير للأغلال؛ =

أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟ قلت: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [السجدة: ١٣] يعني تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

﴿إِنَّا ٢/ ١٢٠أ جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين؛ في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رءوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، في أن لا تأمل لهم ولا تبصّر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾؟ قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها، وذلك أن طوق الغلّ الذي في عنق المغلول، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود، نادراً[١] من الحلقة إلى الذقن؛ فلا تخليه يطأطيء رأسه ويوطيء قذاله[٢]، فلا يزال مقمحاً. والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره؛ يقال: قمح البعير فهو قامح: إذا روي فرفع رأسه، ومنه شهرا قماح[٣]؛ لأن الإبل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان. ومنه: اقتمحت السويق. فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي، وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق ـ وبذلك يسمى جامعة ـ كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي[٤]؟ قلت: الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ألا

= لأن طوق الغل يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن، فلا تخليه يطأطيء رأسه، فلا يزال مقمحاً. انتهى كلامه» قال أحمد: إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه مشبهاً بالإقماح؛ لأن المقمح لا يطأطيء رأسه. وقوله: (فهي إلى الأذقان) تتمة للزوم الإقماح لهم، وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبهاً بسدٍّ من خلفهم، وعدم النظر في العواقب المستقلة مشبهاً بسدٍّ من قدامهم.

(١) قوله «رأس العمود نادراً» أي شاذاً، كما يفيده الصحاح. (ع).

(٢) قوله «ويوطئ قذاله» في الصحاح «القذال»: جماع مؤخر الرأس، فتدبر. (ع).

(٣) قوله «ومنه شهرا قماح» بوزن كتاب وغراب، كما نقل عن القاموس. وفي الصحاح: سميا بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق، وبذلك يسمى جامعة: كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي. وأجاب بأن الوجه هو الأول، واستدل على هذا التفسير الثاني بقوله: (فهم مقمحون) لأنه جعل الإقماح نتيجة قوله: (فهي إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً، وترك الحق الأبلج =

ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ ولو كان الضمير للأيدي، لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً؛ على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج[1]. فإن قلت: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «في أيديهم»، وابن مسعود: «في أيمانهم»، فهل تجوّز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للأيمان؟ قلت: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال، وسداد المعنى عليه كما ذكرت. وقرىء: «سداً» بالفتح والضم. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله فالبضم ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم، أي: غطيناها، وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي، وعن مجاهد: فأغشيناهم: فألبسنا أبصارهم غشاوة. وقرىء: بالعين من العشا. وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله عينيه (١٢٥٥).

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

فإن قلت: قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله: ﴿إِنَّمَا

١٢٥٥ ـ أخرجه أبو نعيم في الدلائل ص (١٣٣)، وابن اسحاق (٢٨٤ ـ سيرة ابن هشام).
قال الحافظ: أخرجه ابن إسحق في السيرة في كلام طويل. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد بن سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس: «أن أبا جهل قال: إني أعاهد الله لأجلسن غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فذكر نحوه إلى قوله: قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه: وأصله في البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما. أهـ

= للباطل اللجلج. انتهى كلامه» قال أحمد: ويحتمل أن تكون الفاء للتعقيب كالفاء الأولى في قوله: (فهي إلى الأذقان) أو للتسبب، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الإقماح؛ فإن اليد ـ والعياذ بالله تعالى ـ تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأتها، ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير، فإن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل، ولا كذلك إذا كانت مغلولة، فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بغل الأيدي؛ فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص.

(١) قوله: «إلى الباطل اللجلج» أي الذي يردد من غير أن ينفذ. أفاده الصحاح. (ع).

﴿تُنذِرُ﴾[1] وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفياً. قلت: هو كما قلت، ولكن لما كان ذلك نفياً للإيمان مع وجودِ الإنذار، وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان ـ قفى بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر؛ وهو القرآن أو الوعظ، الخاشون ربهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن: إحياؤهم: أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس حبسوه، أو بناء بنوه، من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سيىء، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدث فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صدّعن ذكر الله؛ من ألحان وملاهٍ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدّم من أعماله، وأخّر من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا، وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد، فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية، فقال: عليكم دياركم. فإنما تكتب آثاركم. قال: فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ (١٢٥٦). وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح. والإمام: اللوح. وقرىء: «ويُكتبُ ما قدّموا وآثارهم» على البناء للمفعول، «وكل شيء» بالرفع.

١٢٥٦ ـ أخرجه مسلم (٣/ ١٨٢ نووي): كتاب المساجد: باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث (٢٨٠/ ٦٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٦٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٥١٧)، حديث (١٩٨٢)، وأبو عوانة (١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، حديث (٢٠٤٢)، والطبري (١٠/ ٤٢٩)، حديث (٢٩٠٧١، ٢٩٠٧٢).
وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٨٨) وعزاه لمسلم والطبري وابن مردوية عن جابر.

---

(١) قال محمود: «إن قلت: قد ذكرنا ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله: (إنما تنذر) وإنما كانت التقفية تصح لو كان الإنذار منفيًا، وأجاب بأن الأمر كذلك، ولكن لما بيَّن أن البغية المرومة بالإنذار وهي الإيمان منفية عنهم قفاه بقوله: (إنما تنذر) أو إنما تحصل بغية الإنذار ممن اتبع الذكر. انتهى كلامه» قلت: في السؤال سوء أدب، وينبغي أن يقال: وما وجه ذكر الإنذار الثاني في معرض المخالفة للأول، مع أن الأول إثبات، والإنذار الثاني كذلك؟

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا / ٢/ ١٢٠ب فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ ومثل لهم مثلاً، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثال، وهذه الأشياء على ضرب واحد، أي على مثال واحد. والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، أي: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأوّل. وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية. والقرية أنطاكية. و ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها، بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان، أرسل إليهم اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه، فقام، فآمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، ورقى حديثهما إلى الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك، فقال: حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس وضربوهما. وقيل: حبسا. ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون؛ فدخل متنكراً، وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به، فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال: صفاه وأوجزا. قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما، فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلٰهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سر، إنّ إلٰهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلٰهكما على إحياء ميت آمنا به، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن هم؟ قال شمعون: وهذان، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثّر فيه، نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾ فقوّينا؛ يقال: المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها، وتعزز لحم الناقة. وقرىء: بالتخفيف من عزه يعزه: إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ﴿بِثَالِثٖ﴾ وهو شمعون. فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟ قلت: لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون، وما لطف فيه

من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل، وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض، جعل سياقه له وتوجهه إليه، كأن ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق، الغرض المسوق إليه: قولك بالحق، فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رفع «بشر» ونصب[1] في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لأنّ «إلاّ» تنقض النفي، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه، فلا يبقى له عمل. فإن قلت: لم قيل: ﴿إنا إليكم مُرسلُون﴾ أوّلا[2]، و﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ آخراً؟ قلت: لأنّ الأوّل ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

وقوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي: الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته؛ وإلا فلو قال المدعي: والله إني لصادق فيما أدعي، ولم يحضر البينة ـ كان قبيحاً.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم[3]، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وعن مشركي مكة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ﴾ [النساء: ٧٨]. وقيل: حبس عنهم القطر فقالوا ذلك. وعن قتادة: إن أصابنا شيء كان من أجلكم ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وقرىء: «طيركم» أي: سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم، أو أسباب شؤمكم معكم، وهي كفرهم ومعاصيهم. وقرأ الحسن «أطيركم» أي تطيركم، وقرىء: «أئن ذكرتم» بهمزة الاستفهام وحرف الشرط، و «آئن» بألف بينهما[4]، بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم؟ وقرىء: «أأن

---

(١) قوله: «إنما رفع بشر ونصب» عبارة النسفي: إنما رفع بشر هنا ونصب... إلخ» (ع).
(٢) قال محمود: «إن قلت: لم أسقط اللام هنا وأثبتها في الثانية عند قوله (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) قلت: الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب إنكار» قال أحمد: أي فلاق توكيده.
(٣) قوله: «ونفرت منهم» لعله: منه كعبارة النسفي. (ع).
(٤) قوله: «وآئن بألف بينهما» الذي في النسفي أن هذا وما قبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية. (ع).

ذكرتم» بهمزة الاستفهام وأن الناصبة، يعني: أتطيرتم لأن ذكرتم؟ وقرىء: أن، وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار، أي تطيرتم/ ٢/ ١٢١أ لأن ذكرتم، أو إن ذكرتم تطيرتم. وقرىء: «أين ذكرتم»: على التخفيف، أي: شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم، وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في العصيان، ومن ثم أتاكم الشؤم، لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن برسول الله ﷺ، وبينهما ستمائة سنة؛ كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره. وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرةَ، فقالوا: أوأنت تخالف ديننا؟ فوثبوا عليه فقتلوه. وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه(١) من دبره. وقيل: رجموه وهو يقول: اللهمّ اهد قومي (١٢٥٧). وقبره في سوق أنطاكية، فلما قتل غضب الله عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام. وعن رسول الله ﷺ: «سُبّاق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون» (١٢٥٨). ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

١٢٥٧ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٤٣٤ جامع البيان)، حديث (٢٩٠٩٧) عن قتادة، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٤١) عن قتادة.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٩١) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة بمعناه.

١٢٥٨ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٩٣)، حديث (١١١٥٢)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٤٩).
وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٦٢)، حديث (١٠٧٢). وزاد نسبته إلى ابن مردوية، والثعلبي.
أما السباق أربعة فأخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٨٥) كتاب معرفة الصحابة: معرفة بلال رضي الله عنه، وابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٣٥٣) حديث (٢٥٧٧).

---

(١) قوله: «حتى خرج قصبه» في الصحاح «القصب» بالضم: المتقى، والمعي: واحد الأمعاء. (ع).

كلمة جامعة في الترغيب فيهم، أي: لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم؛ فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه؛ أنّ العبادة لا تصحّ إلاّ لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء، إن أرادكم هو بضرّ وشفع لكم هؤلاء، لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده؛ ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه، إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز.

وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به. وقرىء: «إن يوردني الرحمٰن بضرّ» بمعنى: إن يوردني ضرّاً، أي يجعلني مورداً للضرّ.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: لما قتل ﴿قِيلَ﴾ له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وعن قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق، أراد قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠] وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها. فإن قلت: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قلت: مخرجه مخرج الاستئناف؛ لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه، كأنّ قائلاً قال: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه، والتسخي لوجهه بروحه؟ فقيل: قيل: ادخل الجنة ولم يقل: قيل له؛ لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه، لا إلى المقول له مع كونه معلوماً، وكذلك ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله؛ ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان

= كتاب معرفة الصحابة: معرفة بلال ـ رضي الله عنه ـ، قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه بهذا، وفيه عمرو بن جميع وهو متروك. ورواه العقيلي، والطبراني، وابن مردويه، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، بلفظ السباق ثلاثة، فالسابق إلى عيسى صاحب يس، وإلى محمد ﷺ ـ علي بن أبي طالب. أ.هـ

والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة. وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً» (١٢٥٩). وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه؛ ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام. ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة؛ لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور. والأوّل أوجه. وقرىء: «المكرمين». فإن قلت: «ما» في قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي الماآت هي؟ قلت: المصدرية أو الموصولة؛ أي: بالذي غفره لي من الذنوب. ويحتمل أن تكون استفهامية؛ يعني بأي شيء غفر لي ربي؛ يريد به٢/ ١٢١ب ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل، إلا أنّ قولك: «بم غفر لي» بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا، أي: بأي شيء صنعت وبم صنعت.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخندق، فإن قلت: وما معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؟ قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؛ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]؟ قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن

١٢٥٩ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٦٣)، حديث (١٠٧٣)، وعزاه لابن مردوية في تفسيره. قال الحافظ: ورد هذا في قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة، فذكر القصة وفي آخرها فكان يقول وهو في النزع: يا معشر ثقيف ائتوا رسول الله ﷺ ـ فاطلبوا منه الأمان، قبل أن يبلغه موتي فيغزوكم. فلم يزل كذلك حتى مات، فبلغ النبي ﷺ ـ. فقال: لقد نصح قومه حياً وميتاً، وشبهه بصاحب يس. أ.هـ

قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكن الله فضَّل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، فضلاً عن حبيب النجار، وأولاهُ من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلىٰ أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلاّ مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلاّ صيحة واحدة. وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة، أي: ما وقعت إلاّ صيحة، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل؛ لأنّ المعنى: ما وقع شيء إلاّ صيحة، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل، ومثلها قراءة الحسن: «فأصبحوا لا ترى إلاّ مساكنهم» وبيت ذي الرمّة [من الطويل]:

. . . . وَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ[1]

وقرأ ابن مسعود: «إلازقية واحدة» من زقا الطائر يزقو ويزقي، إذا صاح. ومنه المثل: أثقل من الزواقي. ﴿خَـٰمِدُونَ﴾ خمدوا كما تخمد النار، فتعود رماداً؛ كما قال لبيد [من الطويل]:

وَمَا الْمَرْءُ إِلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ[2]

---

(١) بـرى لحمها سير الفيافي وحرها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع.

للبيد، يصف ناقته بأنها أذهب لحمها سير الأراضي القفرة؛ أي السير فيها وحرها الشديد، برى ما بقيت فيها إلاّ الضلوع. وكان الأفصح حذف التاء؛ لأن المعنى: ما بقي فيها شيء إلاّ الضلوع، لكنه أنث نظراً للضلوع. والجراشع: جمع جرشع كقنفذ، وهو الغليظ المرتفع. ويروى بدل الشطر الأول، طوى الحر والأجراز ما في عروضها، والأجراز: جمع جرز، وهي المفازة القفرة، والعروض: جمع عرض ـ بضم فسكون ـ: أي جنوبها. ويروى: النحز، بدل الحر، وهو بنون فمهملة فزاي: النخس والدفع. ويروى «غروض» بغين معجمة: جمع غرض، كقفل: وهو حزام الرحل، أراد به الصدر لعلاقة المجاورة. أو هو على حذف مضاف، أي محل غروضها. ويجوز أنه أراد بما في غروضها الصدر ذاته لا الشحم واللحم. ومعنى الطي التضمير أو الإذهاب على طريق المجاز.

ينظر ديوانه: ص ١٢٩٦، وتخليص الشواهد ص ٤٨٢، وتذكرة النحاة ص ١١٣، وشرح المفصّل لابن يعيش ٢/ ٨٧، والمحتسب ٢/ ٢٠٧، والمقاصد النحويّة ٢/ ٤٧٧، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/ ١٧٢، وشرح ابن عقيل ص ٢٤٣.

(٢) وما المرء إلاّ كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلاّ ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع.

للبيد العامري، أي: ليس حال المرء وحياته وبهجته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلاّ مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رماداً بعد إضاءته. ويمكن أن قوله: «يحور رماداً» استئناف مبين لوجه الشبه، وذلك تشبيه هيئة، ولا يصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه، وشبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيهاً بليغاً، بجامع أنه لا بد من أخذ كل، وبيّن ذلك بقوله: ولا بد أن ترد الودائع في يوم =

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسل؛ والمعنى: أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين، ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة فى معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه، وقراءة من قرأ: «يا حسرتا» تعضد هذا الوجه؛ لأن المعنى: يا حسرتي. وقرىء: «يا حسرة العباد»، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم؛ من حيث إنها موجهة إليهم، ويا حسرة على العباد: على إجراء الوصل مجرى الوقف.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في ﴿كَمۡ﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر؛ لأنّ أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيداً لمنطلق، وإن لم يعمل في لفظه. و ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم. وعن الحسن: كسر إنّ على الاستئناف. وفي قراءة ابن مسعود: ألم يروا من أهلكنا، والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال، وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة. ويحكى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أنّ علياً مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: بئس القوم نحن إذن، نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه (١٢٦٠). ﴿لَّمَّا﴾ قرىء: «لما» بالتخفيف، على أن «ما» صلة للتأكيد، «وإن» مخففة من الثقيلة، وهي متلقاة باللام لا محالة. و «لما» بالتشديد، بمعنى:

١٢٦٠ ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ١٤٥)، كتاب معرفة الصحابة، و(٢/ ٢٦٥): كتاب التفسير، سورة البقرة، قال الحافظ: أخرجه الحاكم في تفسير البقرة نحوه باختصار، وأخرجه من حديث الحسن في فضائل الصحابة أتم منه، وليس فيه: بئس القوم نحن إذن، انتهى.

= من الأيام.

ينظر: ديوانه ص ١٦٩، حماسة البحتري ص ٨٤، الدرر ٢/ ٥٣، لسان العرب (حور)، بلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ١١٠.

إلاّ، كالتي في مسألة الكتاب، نشدتك بالله لما فعلت، وإن نافية، والتنوين في ﴿كُلٌّ﴾ هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه، كقولك: مررت بكل قائماً، والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة. وقيل: محضرون معذبون. فإن قلت: كيف أخبر عن كل بجميع، ومعناهما واحد[1]؟ قلت: ليس بواحد؟ لأنّ كلاً يفيد معنى الإحاطة، وألا ينفلت/ ٢/ ١٢٢أ منهم أحد، والجميع: معناه الاجتماع، وأن المحشر يجمعهم. والجميع: فعيل بمعنى مفعول: يقال: حي جميع، وجاءوا جميعاً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

القراءة بالميتة على الخفة أشيع، لسلسها على اللسان. و ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل؛ لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض[2] وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال، ونحوه [من الكامل]:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي[3] ....

وقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحَبَّ هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء. قرىء: «وفجرنا» بالتخفيف والتثقيل، والفجر والتفجير، كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. وقرىء: «ثمره» بفتحتين وضمتين وضمة وسكون، والضمير لله تعالى، والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿وَ﴾ من ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من

---

(١) قال محمود: «إن قلت: لم أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد؟ وأجاب بأن كلا تفيد الإحاطة لا ينلفت عنهم أحد، وجميع تفيد الاجتماع، وهو فعيل بمعنى مفعول، وبينهما فرق، انتهى كلامه» قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى.

(٢) قال محمود: «يجوز أن يكون أحييناها صفة للأرض، وصح ذلك؛ لأن المراد بالأرض الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بياناً لوجه الآية فيها، قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسيًا وليس الغرض منه معيناً، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفية ومنه:

ولقد أمر على اللئيم يسبني.

(٣) تقدم.

الغرس والسقي والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم، وأصله من ثَمرنا كما قال: وجعلنا، وفجرنا، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات؛ كما قال رؤبة [من الرجز]:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ بَيَاضٍ وَبَلَقْ ... كَأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ[1]

فقيل له، فقال: أردت كأن ذاك، ولك أن تجعل ﴿ما﴾ نافية على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه. وقرىء على الوجه الأوّل، وما عملت من غير راجع، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير. ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأجناس والأصناف ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به؛ لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون؛ كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسمهم. وفي الحديث: «ما لا عين رأت[2]، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعتهم عليه» (١٢٦١). فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو، ونحوه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشائها[3]، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله. ﴿مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام، يقال: أظلمنا؛ كما تقول: أعتمنا وأدجينا[4]. ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه

١٢٦١ ـ تقدم في سورة السجدة.

---

(١) تقدم

(٢) قوله: «في الحديث: ما لا عين رأت» أوله: «أعددت لعبادي الصالحين» كما مر في تفسير السجدة. (ع).

(٣) قوله: «ومنه سلخ الحية لخرشائها» في الصحاح «الخرشاء»: مثل الحرباء: جلد الحية. (ع).

(٤) قوله: «أعتمنا وأدجينا»، الدجى: وجع في حافر الفرس أو خف البعير. أفاده الصحاح وغيره. (ع).

من فلكها في آخر السنة، شبه بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب؛ لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً، ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرّها؛ لأنها لا تعدوه، أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب. وقيل: مستقرّها أجلها الذي أقرّ الله عليه أمرها في جريها، فاستقرّت عليه وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقرّ فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

وقرىء: «تجري إلى مستقر لها»، وقرأ ابن مسعود: «لا مستقرّ لها»؛ أي: لا تزال تجري لا تستقرّ، وقرىء: «لا مستقرّ لها» على أنّ «لا» بمعنى ليس ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه، ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علماً بكل معلوم. قرىء: «والقمرُ» رفعاً على الابتداء، أو عطفاً على الليل، يريد: وَمن آياته القمر، ونصباً بفعل يفسره قدرناه، ولا بدّ في ﴿قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ من تقدير مضاف؛ لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، والمعنى: قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كلّ ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص٢/ ١٢٢ب الشهر، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي: الشرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العوّا، السماك، الغفر، الزباني، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا. فإذا كان في آخر منازله دقّ واستقوس، و ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وهو عود العذق، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وقال الزجاج: هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف. وقرىء: «العرجون» بوزن الفرجون[1]؛ وهما لغتان، كالبزيون والبزيون، والقديم المحول، وإذا قدم دق فانحنىٰ واصفر، فشبه به من ثلاثة أوجه. وقيل:

---

(١) قوله: «وقرئ العرجون بوزن الفرجون» في الصحاح «الفرجون»: المحسة، وقد فرجنت الدابة إذا فرجنتها. ومنه قول بعضهم: ادفنوني في ثيابي ولا تحسوا عني تراباً، أي: لا تنفضوه. وفيه «البزيون»: السندس. (ع).

أقل مدّة الموصوف بالقدم الحول، فلو أنّ رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حرّ، أو كتب ذلك في وصيته ـ عتق منهم من مضى له حول أو أكثر. وقرىء: «سابق النهار». على الأصل، والمعنى: أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسماً من الزمان، وضرب له حدّاً معلوماً، ودبر أمرهما على التعاقب، فلا ينبغي للشمس؛ أي: لا يتسهل لها ولا يصحّ ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله[1] ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره، ولا يسبق الليل النهار؛ يعني آية الليل آية النهار وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر، ويُطلع الشمس من مغربها. فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة،

---

(١) قال محمود: «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه فيطمس نوره، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى. قال: فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر، فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك، والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق، انتهى كلامه، قال أحمد: يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل، وهو المذهب المعروف للفقهاء، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل، وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع، وذلك يستدعي تقدم القمر وتبعية الشمس، فإنه لا يقال: أدرك السابق اللاحق، ولكن أدرك اللاحق السابق، وبحسب الإمكان توقيع النفي، فالليل ـ إذاً ـ متبوع والنهار تابع. فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار؟ وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً، فالجواب: أن هذا مشترك الإلزام، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة: إما تبعية النهار لليل، وهو مذهب الفقهاء. أو عكسه، وهو المنقول عن طائفة من النحاة. أو اجتماعهما، فهذا القسم الثالث منفي باتفاق «فلم يبق إلاّ تبعية النهار لليل، وعكسه، وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً؛ لأن من قال: إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال: ولا الليل يدرك النهار، فإن المتأخر إذا نفى إدراكه كان أبلغ من نفي سابقه، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ، فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة فضلاً عن أن تكون سابقة، فإذا أثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما، وحينئذ يثبت التعاقب، وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فإنه غير معتبر. ألا ترى إلى جواب موسى بقوله: هم أولاء على أثري، فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره، فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة؟ فذاك لو اتفق لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً، فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل، فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية وبين السبق بوناً بعيداً ومخالفاً أيضاً لبقية الآية، فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ولا يبلغ به عدم السبق، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن، وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده، والله الموفق للصواب من القول وتسديده».

والقمر غير سابق؟ قلت: لأنّ الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، والقمر يقطع فلكه في شهر، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر، خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، والمعنى: وكلهم، والضمير للشموس والأقمار على ما سبق ذكره.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم ومن يهمهم حمله. وقيل: اسم الذرية يقع على النساء؛ لأنهنّ مزارعها؛ وفي الحديث: أنه نهى عن قتل الذراري؛ يعني النساء. ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ سفينة نوح، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم؛ لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. و ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة؛ يقال: أتاهم الصريخ ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ لا ينجون من الموت بالغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] إلى أجل يموتون فيه لا بدّ لهم منه بعد النجاة من موت الغرق، ولقد أحسن من قال [من الوافر]:

وَلَـمْ أَسْـلَـمْ لِـكَـيْ أَبْـقَـى وَلَـكِـنْ ... سَـلِـمْـتُ مِـنَ الْـحِـمَـامِ إِلَـى الْـحِـمَـامِ[2]

وقرأ الحسن رضي الله عنه: «نغرّقهم».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم

---

(١) قال أحمد: من هنا أخذ أبو الطيب.
ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام
لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين، أي: إلى أجل يموتون فيه، ولا بد.

(٢) للمتنبي يقول: ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد، وإنما سلمت من الحمام ـ ككتاب ـ: أي الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر. أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر؛ لأنه لا خلود في الدنيا.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]. وعن مجاهد: ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر (١٢٦٢). وعن قتادة: ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت، يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة (١٢٦٣) ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب «إذا» محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فكأنه قال: وإذا قيل لهم: اتقوا أعرضوا. ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته، فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزّه، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله؛ لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى٢/١٢٣أ لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه، فنحن أحق بذلك. نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله، يعنون قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو حكاية قول المؤمنين لهم، أو هو من

١٢٦٢ ـ أخرجه الطبري (١٠/٤٩٧، جامع البيان)، حديث (٢٩١٦٩).
وذكره السيوطي في الدر (٥/٤٩٨)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبري عن مجاهد.

١٢٦٣ ـ أخرجه الطبري (١٠/٤٤٧ جامع البيان)، حديث (٢٩١٦٨).
وعبد الرازق في تفسيره (٢/١٤٤) في تفسيره القوا ما بين أيديكم، عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٩٧، ٤٩٨)، وعزاه للطبري وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

جملة جوابهم للمؤمنين. قرىء: «وهم يخصمون» بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء في الكسر، و«يختصمون» على الأصل. و«يخصمون»، من خصمه. والمعنى: أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون. ومعنى يخصمون: يخصم بعضهم بعضاً. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿تَوْصِيَةً﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم، بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قرىء: «الصور» بسكون الواو وهو القرن، أو جمع صورة، وحرّكها بعضهم. و«الأجداث» القبور، وقرىء: بالفاء[1]. ﴿يَنسِلُونَ﴾ يعدون بكسر السين وضمها، وهي النفخة الثانية. وقرىء: «يا ويلتنا»، عن ابن مسعود رضي الله عنه: من أهبنا، من هب من نومه إذا انتبه، وأهبه غيره، وقرىء: «من هبنا» بمعنى أهبنا: وعن بعضهم: أراد هب بنا، فحذف الجار وأوصل الفعل، وقرىء: «من بعثنا» و«من هبنا»، على من الجارة والمصدر، و ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و ﴿مَا وَعَدَ﴾ خبره، وما مصدرية أو موصولة. ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد، وما وعد: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا وعد الرحمٰن، أي: مبتدأ محذوف الخبر، أي: ما وعد ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ حق. وعن مجاهد: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور قالوا: من بعثنا، وأما ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فكلام الملائكة؛ عن ابن عباس. وعن الحسن: كلام المتقين. وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً. فإن قلت: إذا جعلت «ما» مصدرية، كان المعنى: هذا وعد الرحمٰن وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذا جعلتها موصولة؟ قلت: تقديره: هذا الذي وعده الرحمٰن والذي صدّقه المرسلون، بمعنى: والذي صدق فيه المرسلون، من قولهم: صدقوهم الحديث والقتال. ومنه: صدقني سن بكره. فإن قلت: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ سؤال عن الباعث، فكيف طابقه ذلك جواباً؟ قلت: معناه بعثكم الرحمٰن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل؛ إلا أنه جيء به على طريقة: سيئت

---

(١) قوله: «وقرئ بالفاء» في الصحاح «الجدف»: القبر، وهو إبدال الجدث. قال الفراء: العرب تعقب بين الفاء والثاء في اللغة، فيقولون: حدث وجدف، وهي الأجداث والأجداف. (ع).

بها قلوبهم، ونعيت إليهم أحوالهم، وذكروا كفرهم وتكذيبهم، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به، وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده، حتى يهمكم السؤال عن الباعث، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزّلة على ألسنة رسله الصادقين.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا . . . . . . إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾[1] حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم، وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود، وتمكين له في النفوس، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره ﴿فِي شُغُلٍ﴾ في أي شغل وفي شغل لا يوصف، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم، ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده، ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم، وذلك بعد الوله والصبابة، والتفضي من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية، وتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط. ومعاينة ما لقي العصاة من العذاب. وعن ابن عباس: في افتضاض الأبكار (١٢٦٤). وعنه: في ضرب الأوتار (١٢٦٥). وعن ابن كيسان: في التزاور. وقيل: في ضيافة الله. وعن الحسن: شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه (١٢٦٦). وعن الكلبي: هم في شغل عن أهاليهم من أهل

١٢٦٤ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٤٥٢ جامع البيان)، حديث (٢٩١٨٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠٠)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردوية عن ابن عباس: قال في افتضاض الأبكار.

١٢٦٥ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، وقال أبو حاتم: هذا خطأ من السمع إنما هو افتضاض الأبكار.

١٢٦٦ ـ أخرجه الطبري (١٠/٤٥٣)، حديث (٢٩١٩٣)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠٠)، وعزاه لعبد بن حميد والطبري، وابن المنذر عن الحسن ـ رضي الله عنه.

---

(١) قال أحمد: هذا مما التنكير فيه للتفخيم، كأنه قيل: في شغل أي شغل، وكذا قوله تعالى: سلام قولاً من رب رحيم.

النار، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، لئلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم. قرىء: «في شغل» بضمتين وضمة وسكون، وفتحتين، وفتحة وسكون. والفاكه والفكه: المتنعم والمتلذذ، ومنه الفاكهة؛ لأنها مما يتلذذ به، وكذلك الفكاهة، وهي المزاحة. وقرىء: فاكهون وفكهون، بكسر الكاف وضمها؛ كقولهم: رجل حدث وحدث[1]، ونطس ونطس. وقرىء: «فاكهين» و«فكهين»، على أنه حال٢/ ١٢٣ب والظرف مستقر. ﴿هُمْ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير في ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وفي ﴿فَٰكِهُونَ﴾ على أنّ أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال. وقرىء: «في ظلل»، والأريكة: السرير في الحجلة[2]. وقيل: الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود: «متكين» ﴿يَدَّعُونَ﴾ يفتعلون من الدعاء، أي: يدعون به لأنفسهم؛ كقولك: اشتوى[3] واجتمل، إذا شوى وجمل لنفسه. قال لبيد [من الرمل]:

.... فَٱشْتَوَى لَيْلَةَ رِيحٍ وَٱجْتَمَلْ[4]

ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه؛ كقولك: ارتموه؛ وتراموه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادّع عليّ ما شئت، بمعنى: تمنه عليّ، وفلان في خير ما ٱدّعىٰ، أي: في خير ما تمنّى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. و ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل مما يدعون، كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قَوْلًا مِّن﴾ جهة ﴿رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، والمعنى: أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يمنعونه. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين (١٢٦٧). وقيل: ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾، مبتدأ وخبره «سلام»، بمعنى: ولهم ما يدعون سالم

١٢٦٧ ـ ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٠١)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم بلفظ: قال: «فإن الله هو يسلم عليهم».

---

(١) قوله: «كقولهم رجل حدث وحدث» أي حسن الحديث، والنطس البالغ في التطهر والمدقق في العلم. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «السرير في الحجلة» هي بيت العروس يزين بالثياب والستور، كذا في الصحاح. (ع).

(٣) قوله: و«اجتمل إذا شوى» في الصحاح: جملت الشحم أجمله جملاً، واجتملته: إذا أذبته. (ع).

(٤)
وغـلام أرسـلـتـه أمـه ... بـألـوك فـبـذلـنـا مـا سـأل
أرسـلـتـه فـأتـاه رزقـه ... فـاشـتـوى لـيـلـة ريـح واحـتـمـل.

للبيد بن ربيعة، والألوك: الرسالة، أي: ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال، فبذلنا ما سأله من الطعام عقب سؤاله، وبين ذلك بقوله: أرسلته فأتاه رزقه، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام، أي: فأتاه رزقه من الصيد، فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود، واحتمل: أي حمل كثيراً منه بنفسه لنفسه، ولأمه التي أرسلته. ويروى: =

خالص لا شوب فيه. و ﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عدة من رب رحيم. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص، وهو من مجازه. وقرىء: «سلم»، وهو بمعنى السلام في المعنيين. وعن ابن مسعود: «سلاماً» نصب على الحال، أي: لهم مرادهم خالصاً[1].

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية [الروم: ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦]. يقال: مازه فانماز وامتاز. وعن قتادة: اعتزلوا عن كل خير (١٢٦٨). وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار يكون فيه، لا يرى ولا يرى. ومعناه: أنّ بعضهم يمتاز من بعض.

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

العهد: الوصية، وعهد إليه: إذا وصاه، وعهد الله إليهم: ما ركز فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم. وقرىء: «إعهد» بكسر الهمزة، وباب «فعل» كله يجوز في حروف مضارعته الكسر[2]، إلا في الياء. و«أعهد»، بكسر الهاء، وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب. و«أحهد»: بالحاء، وأحد وهي لغة تميم. ومنه قولهم: دحا محا[3]. ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمٰن؛ إذ لا صراط أقوم منه، ونحو

١٢٦٨ ـ أخرجه الطبري (١٠/٤٥٦ جامع البيان)، حديث (٢٩٢٠٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٠٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم والطبري. قال: «عزلوا عن كل خير».

= اجتمل، بالجيم: وفي الصحاح: جملت الشحم واجتملته إذا أذبته، وهذه الرواية أنسب وأفيد. ينظر: ديوانه (ص ١٧٨)، لسان العرب (جمل)، (شوا)، تهذيب اللغة (١١/ ١١٠)، تاج العروس (جمل)، بلا نسبة في مقاييس اللغة (٤/ ٢٢٥)، مجمل اللغة (٣/ ١٨٣).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وإذا كان بدلاً كان «ما يدعون» خصوصاً، والظاهر أنه عموم في كل ما يدعونه، وإذا كان عموماً لم يكن بدلاً منه. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «في حروف مضارعته الكسر» لعله مضارعه. (ع).

(٣) قوله: «ومنه قولهم دحا محا» أي: دعها معها. (ع).

التنكير فيه ما في قول كُثيِّر [من الطويل]:

لَئِنْ كَانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْيَابِهَا الْعُلَى لأَفْقَرَ مِنِّي إِنَّنِي لَفَقِيرُ[1]

أراد: إنني لفقير بليغ الفقر، حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فيّ، وإلا لم يستقم معنى البيت، وكذلك قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يريد: صراط بليغ في بابه، بليغ في استقامته، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه. ويجوز أن يراد: هذا بعض الصرط المستقيمة، توبيخاً لهم على العدول عنه، والتفادي عن سلوكه؛ كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة؛ كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق ـ أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده: هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار، توبيخاً له عن الإعراض عن نصائحه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾

قرىء: «جبلا» بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديدة، وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة. وهذه اللغات في معنى الخلق. وقرىء: «جبلا» جمع جبلة؛ كفطر وخلق، وفي قراءة علي رضي الله عنه: «جيلاً» واحداً، لا أجيال.

---

(١)
دعوت إلهي دعوة ما جهلتها وربي بما تخفي الصدور بصير
لئن كان يهدي برد أنيابها العلا لأفقر مني إنني لفقير
فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتيني بالطلاق بشير؟

لكثير عزة. وقيل: لمجنون ليلى. وقوله: «ما جهلتها» معناه: أنها عن قصد وحضور قلب. وقوله: لئن كان يهدي، بيان للدعوة، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر، أي: لئن كان يعطي برد أسنانها العليا، خصها لأنها التي تبدو كثيراً. وقيل: العلا الشريفة، لأحوج مني إنني لبليغ في الفقر، فأنا أحق بها من كل محتاج؛ لأني أحوج الناس إليها. ويجوز أن برد أنيابها: كناية عن ذاتها كلها، وإنني لفقير: خبر بمعنى الإنشاء مجاز مرسل؛ لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب. ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه باللام، وجواب الشرط محذوف وجوباً لدلالة المذكور عليه، وما تعجبية، وأكثر فعل تعجب، والأخبار معموله، وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وهي على تقدير حرف الجر، أي: أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها، وهل استفهام بمعنى التمني أو التعجب مجاز مرسل لعلاقة مطلق الطلب، أي: أتمنى ذلك أو أتعجب من عدمه.
ينظر: ديوانه ص ٤٩، تذكرة النحاة (ص ٤٦٣).

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يروى أنهم يجحدون ويخاصمون؛ فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، فعنكنَّ كنت أناضل»[1] (١٢٦٩)، وقرىء: «يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم». وقرئ: «ولتكلمنا٢/ ١٢٤أ أيديهم وتشهد»، بلام كي والنصب على معنى: ولذلك نختم على أفواههم: وقرىء: «ولتكلمنا أيديهم ولتشهد» بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط، أو يُضمَّن معنى ابتدروا، أو يجعل الصراط مسبوقاً لا مسبوقاً إليه، أو ينتصب على الظرف. والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع[2] الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيراً ـ كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين[3] في أمور دنياهم ـ لم يقدروا، وتعايىٰ عليهم أن يبصروا ويعلموا

١٢٦٩ ـ أخرجه مسلم (٩/ ٣٢٧ نووي)، كتاب الزهد.
حديث (٧/ ٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٨)، كتاب التفسير، باب سورة الانفطار، حديث (١١٦٥٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٢١٧، ٢١٨) وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٥٥، ٥٧)، حديث (٣٩٧٥، ٣٩٧٧)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٥٨)، حديث (٧٣٥٨)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٦٠١)، كتاب الأهوال، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠٢، ٥٠٣)، وعزاه لأحمد ومسلم والنسائي، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن أبي حاتم، وابن مرودية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس به.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم والنسائي من طريق الشعبي عن أنس ووهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

---

(١) قوله: «كنت أناضل» أي أجادل. (ع).
(٢) قوله: «إلى الطريق المهيع» الهيوع: الجبن، والهيعة: الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت، كذا في الصحاح. ولعل المراد الذي سهله كثرة سلوكه. (ع).
(٣) قوله: «موضعين» في الصحاح: وضع البعير وغيره: أسرع من سيره وأوضعه راكبه. (ع).

جهة السلوك فضلاً عن غيره. أو لو شاء لأعماهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف ـ كما كان ذلك هِجّيراهم ـ لم يستطيعوا. أو لو شاء لأعماهم، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً، يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك؛ كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضروا[1] به من المقاصد دون غيرها ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ وقرىء: «على مكاناتهم» والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام؛ أي: لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضيّ ولا رجوع. واختلف في المسخ: فعن ابن عباس: لمسخناهم قردة وخنازير. وقيل: حجارة (١٢٧٠). وعن قتادة: لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرىء: «مضياً» بالحركات الثلاث، فالمضيّ والمضي كالعتيّ والعتيّ. والمضيّ كالصبيّ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

«ننكسه في الخلق» نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل؛ وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلّوه من العلم؛ كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوّة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه ـ قادر على أن يطمس على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ بكسر الكاف[2]. وننكسه وننكسه، من التنكيس والإنكاس ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بالياء والتاء.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

١٢٧٠ ـ ذكره السيوطي (٥/ ٥٠٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح يقول «لجعلناهم حجارة».

---

(١) قوله: «وضروا به» أي: مرنوا. (ع).

(٢) قوله: «وقرئ بكسر الكاف» يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف، وهما من النكس. (ع).

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أنّ القائل: عقبة بن أبي معيط، فقيل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أنّ القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء، وأين هو عن الشعر، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهمّ إلا أنّ هذا لفظه عربي، كما أنّ ذاك كذلك ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمّياً لا يتهدّى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض. وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقوله:

أَنَــا الــنَّــبِــيُّ لاَ كَــذِبْ أَنَـا ٱبْـنُ عَـبْـدِ الْـمُـطَّـلِـبْ (١٢٧١)

وقوله:

هَــلْ أَنْــتِ إِلاَّ أُصْــبُــعٌ دَمِــيــتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ؟[1] (١٢٧٢)

١٢٧١ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٦٢٢): كتاب المغازي: باب قول الله تعالى ويوم حنين، حديث (٤٣١٦)، وأطرافه في (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠، ٣٠٤٢، ٤٣١٥)، ومسلم (٦/ ٣٥٦، ٣٥٧): كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث (٧٨/ ١٧٧٦) والترمذي (٤/ ١٩٩): كتاب الجهاد، باب ما جاء في الثبات عند القتال، حديث (١٦٨٨)، والبيهقي في السن الكبرى (٧/ ٤٣، ٩/ ١٥٤) وأحمد (٤/ ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٠٤).

والطبري في تفسيره، حديث (١٦٥٨٠)، (١٦٥٨١) والطيالسي (٢/ ١٠٨) ما جرى للنبي في غزوة هوازن يوم حنين، حديث (٢٣٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٧١)، حديث (١٧٢٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤١٦)، حديث (٣٦٩٨٣) وابن حبان في صحيحه (١١/ ٩٠)، حديث (٤٧٧٠).

وقال ابن حجر: متفق عليه من حديث البراء بن عازب في حديث. انتهى.

١٢٧٢ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٢٣): كتاب الجهاد: باب من ينكب في سبيل الله، حديث (٢٨٠٢)، =

---

(١) هــل أنــت إلاّ أصــبــع دمــيــت وفــي ســبــيــل الله مــا لــقــيــت؟
يــا نــفــس لا تــقــنــطــي بــمــوتــي هــذي حــيــاض الــمــوت قــد صــلــيــت
ومــا تــمــنــيــت فــقــد لــقــيــت إن تــفــعــلــي فــعــلــهــمــا هــديــت

لعبد الله بن رواحة حين حمل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب فأصيبت أصبعه في الحرب فدميت، وروى البخاري عن جندب أنه قال: بينما النبي ﷺ يمشي إذ أصابه حجر، فعثر، فدميت أصبعه، فقال: «هل أنت إلاّ أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت» فأفاد أنه ﷺ يتمثل بشعر غيره، وهو بكسر التاء على وفق القافية، وقال الكرماني: التاء في الرجز مكسورة، وفي الحديث ساكنة. وقال عياض: غفل بعض الناس فروى: دميت ولقيت، بغير مد، وخالف الرواية. وروى =

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة، من غير صنعة ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً؛ كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز، على أن الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعراً، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجنّ، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير: ٢٧] وما هو إلا قرآن كتاب سماوي، يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن٢/ ١٢٤ب أو الرسول، وقرىء: «لتنذر»، بالتاء. ولينذر: من نذر به إذا علمه ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي عاقلاً متأملاً؛ لأن الغافل كالميت، أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان.

= ومسلم (٦/ ٣٩٤ نووي): كتاب الجهاد: باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، حديث (١٧٩٦)، والترمذي (٥/ ٤٤٢): كتاب التفسير: باب تفسير سورة الضحى، حديث (٣٣٤٥)، والحميدي (٢/ ٣٤١)، حديث (٧٧٦)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٧٢، ١٧٣)، حديث (١٧٠٨)، وأيضاً (١٧٠٣، ١٧٠٧) وأحمد (٤/ ٣١٢، ٣١٣).

وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، حديث (٦٥٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢)، حديث (١٥٣٣)، من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» متفق عليه من حديث جندب بن سفيان في حديث انتهى.

= أحمد والطيالسي أنه ﷺ قاله حين كان خارجاً إلى الصلاة، ودميت: صفة أصبع، والمعنى: لم يحصل لك شيء من الأذى إلاً أنك دميت، ولم يكن ذلك هدراً، بل كان في سبيل الله ومرضاته لا غير، أي: الذي لقيته من الأذى في سبيل الله، فلا تحزني، ونزلها منزلة العاقل فخاطبها بذلك تسلية وتثبيتاً لها، وهو في الحقيقة لنفسه، ثم صرح بخطاب النفس مثبتاً لها. بقوله: إن لم تقتلي في الحرب فلا بد لك من الموت، وهذه حياضه، فلا تفري منها؛ لأن الوقوع في البلاء أهون من انتظاره، وشبه الموت بسيل على سبيل المكنية، فأثبت له الحياض تخييلاً، وشبهه بالنار كذلك، فأثبت له الصلى وهو اقتحام النار، ولا مانع من تشبيه الشيء بأمرين مختلفين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه، ويجوز استعارة الحياض للمعرفة تصريحاً، والذي تمنيته من الحرب المؤدي إلى الشهادة فقد لقيته، إن تفعلي كفعل زيد وجعفر، هديت إلى طريق الخير.

ينظر: كتاب العين (٦/ ٦٥)، تهذيب اللغة (٢/ ٥١)، تاج العروس (صبع)، جمهرة اللغة (ص ٦٨٦)، لسان العرب (صبع).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها، التي لا يصحّ أن يقدر عليها إلا هو. وعمل الأيدي: استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون، أو فهم لها ضابطون قاهرون، من قوله [من المنسرح]:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا[1]

أي: لا أضبطه، وهو من جملة النعم الظاهرة، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها؛ كما قال القائل [من الوافر]:

يُصَرِّفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهٍ ... وَيَحْبِسُهُ عَلَى الْخَسْفِ الْجَرِيرُ
وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْهَرَاوَى ... فَلاَ غِيَرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيرُ[2]

---

(1) أصبح مني الشباب مبتكراً ... إن ينأ عني فقد ثوى عصرا
فارقنا قبل أن نفارقه ... لما قضى من جماعنا وطرا
أصبحت لا أملك السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا

للربيع بن منيع، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاماً، عاش بعده مائة وستين. والمبتكر: المسافر أول النهار، فهو تشبيه بليغ، ثم تسلى بقوله: إن ينأ، أي بعد عني فقد أقام عندي أزمنة طويلة، فارقنا، أي: ذهب عنا قبل أن نموت، فقوله: «نفارقه» مجاز عن ذلك، أو كناية عنه، أو مجاز عن البغض. والجماع: معناه الاجتماع والمصاحبة، والوطر: الحاجة، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام، ولا يخفى ما في البيت من إبهام ما كان ينبغي الاحتراس منه، فإن قضاء الوطر من الجماع اشتهر استعماله في مقام الوطء، ثم قال: صرت لا أضبط السلاح بيدي ولا رأس البعير إن ند مني ولا أقدر عليهما. ويروى: لا أحمل السلاح، أي: لا أقدر على حمله، وأخشاه: أي أخافه، إن مررت به وحدي، وأخاف الرياح والمطر ولو مع غيري، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والهرم.
ينظر: أمالي المرتضى ١/ ٢٥٥؛ وحماسة البحتري ص ٢٠١؛ وخزانة الأدب ٧/ ٣٨٤؛ وشرح التصريح ٢/ ٣٦؛ والكتاب ١/ ٨٩؛ ولسان العرب ١٣/ ٢٥٩ (ضمن)؛ والمقاصد النحوية ٣/ ٣٩٨؛ وبلا نسبة في الرد على النحاة ص ١١٤؛ وشرح المفصل ٧/ ١٠٥؛ والمحتسب ٢/ ٩٩.

(2) لقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير

لكثير عزة حين رآه عبد الملك بن مروان قصيراً حقيراً، فقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وقيل: للعباس بن مرداس. وقيل: لمعاوية بن مالك الكلابي، وعظم: ضخم وطال. واللب: =

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]. وقرئ: «ركوبهم»، و«ركوبتهم». وهما ما يركب، كالحلوب والحلوبة. وقيل: الركوبة جمع. وقرئ: «ركوبهم»؛ أي ذو ركوبهم، أو فمن منافعها ركوبهم ﴿مَنَٰفِعُ﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، ذكرها مجملة، وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا . . .﴾ الآية [النحل: ٨٠]؛ والمشارب: جمع مشرب؛ وهو موضع الشرب، أو الشرب.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقوّوا بهم ويعتضوا بمكانهم، والأمر على عكس ما قدّروا حيث هم جند لآلهتهم معدّون ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم، ويغضبون لهم؛ والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار. وقرئ: «فلا يحزنك» بفتح الياء وضمها، من: حزنه وأحزنه، والمعنى: فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنا مجازوهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن. فإن قلت: ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارىء: «أنا نعلم» بالفتح: انتقضت صلاته، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى: كفر؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن وفي الشعر، وفي كل كلام وقياس مطرد، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء. وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «إنّ الحمد والنعمة لك» (١٢٧٣)، كسر أبو

١٢٧٣ ـ أخرجه مالك (١/ ٣٣١): كتاب الحج: باب العمل في الإهلال، حديث (٢٨)، والبخاري (٣/ ٤٠٨): كتاب الحج، باب التلبية، حديث (١٥٤٩)، ومسلم (٢/ ٨٤١): كتاب الحج: باب التلبية وصفتها ووقتها، حديث (١٩/ ١١٨٤)، وأبو داود (٢/ ٤٠٤): كتاب المناسك: باب كيف التلبية، حديث (١٨١٢)، والترمذي (٣/ ١٨٧) كتاب الحج: باب ما جاء في التلبية، حديث (٨٢٥)، =

= العقل، وأتى بالظاهر موضع المضمر للتهويل في الطول والجسامة، بكل وجه: في كل جهة، والخسف: الذل. والجرير: حبل غير الزمام يربط به. والهراوي: جمع هراوة وهي العصا، وجمعها دلالة على كثرة الضرب. والغير ـ بالتحريك ـ الغيرة. والنكير: الإنكار، يعني أن العبرة بالألباب والعقول، لا بالغلظ والطول.

ينظر: ديوانه ص ٨٧٧، لسان العرب (هرا)، تاج العروس (هرا).

حنيفة وفتح الشافعي، وكلاهما تعليل. والثاني: أن يكون بدلاً من ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ كأنه قيل: فلا

= والنسائي (٥/ ١٦٠): كتاب الحج: باب كيف التلبية، وابن ماجه (٢/ ٩٧٤): كتاب المناسك: باب التلبية، حديث (٢٩١٨)، والشافعي (١/ ٣٠٣): كتاب الحج: الباب الرابع فيما يلزم المحرم عند تلبسه بالإحرام، حديث (٧٨٩)، وأحمد (٢/ ٤٨)، والطيالسي (١/ ٢١١): كتاب الحج والعمرة: باب ما جاء في التلبية وصفتها ومدتها، حديث (١٠١٥)، والدارمي (٢/ ٣٤): كتاب المناسك: باب في التلبية، وابن الجارود ص: (١٥٣): باب المناسك، حديث (٤٣٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار» (٢/ ١٢٤): كتاب مناسك الحج. باب التلبية كيف هي، والبيهقي (٥/ ٤٤): كتاب الحج: باب كيف التلبية، والحميدي (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، رقم (٦٦٠)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٨٧)، وابن خزيمة (٤/ ١٧١)، رقم (٢٦٢١، ٢٦٢٢) وابن حبان، رقم (٣٨٠٤ ـ الإحسان)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٧٢ ـ ٦/ ٤٥)، من طرق عن نافع، عن ابن عمر به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه البخاري (١٠/ ٣٧٣) كتاب اللباس: باب التلبيد (٥٩١٥) ومسلم (٢/ ٨٤٢) كتاب الحج: باب التلبية وصفتها ووقتها حديث (٢١/ ١١٨٤) والنسائي (٥/ ١٥٩) كتاب الحج: باب كيف التلبية (٢٧٤٧) والبيهقي (٥/ ٤٤) من طريق الزهري عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر به.
وأخرجه أحمد (٢/ ٣، ٧٩) وأبو يعلى (١٠/ ٥٧) رقم (٥٦٩٢) والطبراني في «الصغير» (١٠ / ٥١ ـ ٥٢) من طرق عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر به.
وفي الباب عن عائشة وجابر وابن مسعود وأنس وعمرو بن معد يكرب وابن عباس.
ـ حديث عائشة:
أخرجه البخاري (٣/ ٤٧٨) كتاب الحج: باب التلبية حديث (١٥٥٠) وأحمد (٦/ ٣٢، ٢٣٠) والطحاوي في «شرح معاني الآثار (٢/ ١٢٤) والبيهقي (٥/ ٤٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٨) وأبو يعلى (٨/ ١٣٠ ـ ١٣١) رقم (٤٦٧١) من طريق الأعمش عن عمارة عن أبي عطية عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يلبي: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك...».
وأخرجه أحمد (٦/ ١٠٠) والطيالسي (١/ ٢١١ ـ مِنحة) رقم (١٠١٢) والبيهقي (٥/ ٤٤ ـ ٤٥) من طريق شعبة عن الأعمش سمعت خيثمة عن أبي عطية عنها.
وعلقه البخاري في «صحيحه (٣/ ٤٧٨) رقم (١٥٥٠) من هذا الطريق فقال: وقال شعبة أخبرنا سليمان ـ الأعمش ـ سمعت خيثمة عن أبي عطية سمعت عائشة رضي الله عنها.
ـ حديث جابر:
وهو حديثه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ وقد تقدم تخريجه.
ـ حديث ابن مسعود:
أخرجه أحمد (١/ ٤١٠) والنسائي (٥/ ١٦١) كتاب الحج: باب التلبية والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٢٤) وأبو يعلى (٨/ ٤٤٠ ـ ٤٤١) حديث (٥٠٢٧) من طريق حماد بن زيد ثنا أبان بن تغلب عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك.
ـ حديث أنس:
أخرجه أبو يعلى (٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦) رقم (٢٧٦٨) من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن =

يحزنك، أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون. وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها

= وقتادة عن أنس أن النبي ﷺ كان يلبي: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٦): رواه أبو يعلى من رواية عبد الله بن نمير عن إسماعيل ولم ينسبه فإن كان ابن أبي خالد وهو من رجال الصحيح وإن كان إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر وهو ضعيف وكلاهما روى عنه».

والحديث في «المطالب العالية (١٢٠١) وعزاه ابن حجر إلى أبي يعلى.

ـ حديث عمرو بن معد يكرب:

أخرجه البزار (٢ / ١٤ ـ كشف) رقم (١٠٩٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٢٤) من طريق شرقي بن قطامي عن شراحيل بن القعقاع قال: ثنى أبو طلق العانذي قال سمعت عمرو بن معدي كرب يقول: لقد رأيتنا في الجاهلية ونحن إذا حججنا البيت نقول [من الرجز]:

هــذي زبــيــد قــد أتــتــك قــســرا ... تــعــدو بــهــا مــضــمــرات شــزرا

يــقــطــعــن خــبــتــاً وجــبــالاً وعــرا ... قــد تــركــوا الأصــنــام خــلــواً صــفــرا

قال: ونحن اليوم نقول كما علمنا رسول الله ﷺ: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

وقال البزار: إسناده ليس بالثابت وإنما يحتمل إذا لم نعرف غيره وقد أسلم عمرو في زمن النبي ﷺ ولم يحدث إلاً بهذا.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٦)، وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير والصغير والأوسط.. وفيه شرقي بن قطامي وهو ضعيف وقال البزار: إسناده ليس بثابت.

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (١/ ٣٠٢) من طريق شريك عن أبي إسحق عن الضحاك عن ابن عباس قال: كانت تلبية النبي ﷺ لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..

ذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٥٥) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات والضحاك بن مزاحم لم يسمع من ابن عباس. وقال العلائي في «جامع التحصيل.. (ص ـ ١٩٩ ـ ٢٠٠): الضحاك بن مزاحم الهلالي صاحب التفسير كان شعبة ينكر أن يكون لقي ابن عباس وروى عن يونس بن عبيد أنه قال: ما رأى ابن عباس قط وعن عبد الملك بن ميسرة أنه لم يلقه إنما لقي سعيد بن جبير بالري فأخذ عنه التفسير وروى شعبة أيضاً عن مشاش أنه قال: سألت الضحاك لقيت ابن عباس؛ قال: لا وقال الأثرم سمعت أحمد بن حنبل يسأل الضحاك لقي ابن عباس؟ قال: ما علمت قيل فمن سمع التفسير؟ قال: يقولون سمعه من سعيد بن جبير قيل له فلقي ابن عمر؟ فقال أبو سنان يروي شيئاً ما يصح عندي. أ.هـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن عباس

أخرجه البزار (٢ / ١٣ ـ كشف) رقم (١٠٨٩) من طريق أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: كانت تلبية موسى ﷺ لبيك عبدك وابن عبديك وكانت تلبية عيسى ﷺ لبيك عبدك وابن أمتك وكانت تلبية النبي ﷺ لبيك لا شريك لك لبيك.

قال البزار: لا نعلمه عن ابن عباس إلاً من هذا الوجه ولا رواه عن عطاء إلاً أبو كدينة. =

مفعولة للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر «إن» وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك، فتفصل إنْ فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل؛ كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدّرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن علىٰ كون الله عالماً بسرهم وعلانيتهم، وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قبح الله عزّ وجلّ إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدلَّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسّة وتغلغله في القِحَة[1]؛ حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل٢/ ١٢٥أ الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار، وشرز صفحته[2] لمجادلته، ويركب متن الباطل ويلج، ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمَّت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها، وروي: أن جماعة من كفار

= وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٢٥): رواه البزار وفيه عطاء ابن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط وبقية رجاله رجال الصحيح.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث ابن عمر في أثناء حديث انتهى.

(١) قوله: «وتغلغله في القحة» في الصحاح: وقح الرجل قحة ووقاحة، إذا صار قليل الحياء. (ع).

(٢) قوله: «وشرز صفحته... إلخ» في الصحاح «الشرز» الشرس، وهو الغلظ. والمحك: اللجاج. (ع).

قريش منهم أبيّ بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك، فقال لهم أبيّ: ألا ترون إلى ما يقول محمد، إنّ الله يبعث الأموات، ثم قال: واللات والعزّى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه، وأخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ؟! قال ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم» (١٢٧٤) وقيل: معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطبق قادر على الخصام، مبين: معرب عما في نفسه فصيح، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]. فإن قلت: لم سمى قوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مثلاً؟ قلت: لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، أو لما فيه من التشبيه، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه، بدليل النشأة الأولى، فإذا قيل: من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه، كان تعجيزاً لله وتشبيهاً له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم: اسم لما بلي من العظام غير صفة، كالرمة والرفات، فلا يقال: لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميتة نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها. وأما أصحاب أبي

١٢٧٤ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٦٧)، حديث (١٠٧٩): غريب بهذا اللفظ. وعزاه للثعلبي عن قتادة.

وأخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ٤٦٤)، حديث (٢٩٢٤٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٩) في التفسير: تفسير سورة يس.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠٧) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم والإسماعيلي في المعجم وابن مردويه، والبيهقي في البعث، والضياء في المختارة، عن ابن عباس. لكن وجدته في الطبري عن سعيد بن جبير.

وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٠٨)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر والبيقهي. عن أبي مالك: جاء أبي بن خلف.

وأخرج الطبري (١٠/ ٤٦٤ جامع البيان)، حديث (٢٩٢٤٤) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٠٧)، وعزاه لابن جرير وابن مردوية عن ابن عباس: جاء عبد الله بن أبي.

وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٠٨)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس، قال: نزلت في أبي جهل ابن هشام.

قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي عن قتادة بغير سند، وأخرجه الحاكم من رواية أبي بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وأن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء، ففتته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد مارم؟ فقال: نعم، يميتك الله ـ الحديث، وروى البيهقي في الشعب من طريق حصين عن أبي مالك. قال: جاء أبي بن خلف بعظم نخر ـ الحديث، وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «جاء أبو جهل بعظم حائل»، انتهى.

حنيفة فهي عندهم طاهرة، وكذلك الشعب والعصب، ويزعمون أنّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت، ويقولون: المراد بإحياء العظام في الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حيّ حساس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم كيف يخلق، لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها. ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر، مع مضادة النار الماء وانطفائها به؛ وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المَرخ والعَفار، وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر، على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب (١٢٧٥). قالوا: ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين. قرئ: «الأخضر» على اللفظ، وقرئ: «الخضراء» على المعنى، ونحوه قوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤]. من قدر على خلق السمٰوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر، وفي معناه قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقرئ: «يقدر». وقوله: ﴿أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ يحتمل معنيين: أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة[1] بالإضافة إلى السمٰوات والأرض أو أن يعيدهم؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات. وقرئ: «الخالق» ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾: إنما شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة. فإن قلت: ما حقيقة قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؟ قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل؛ لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع. فإن قلت: فما وجه القراءتين في «فيكون»؟ قلت: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي أمره أن يقول له: كن. وأما النصب فللعطف على «يقول»، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه، من المباشرة بمحال القدرة، واستعمال الآلات، وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب، إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون؛ فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز

١٢٧٥ ـ ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/١٦٨)، حديث (١٠٨٠) وقال الحافظ: لم أجده.

---

(١) قوله: «والقماءة» الصغر والذِّلّة. أفاده الصحاح. (ع).

عن الإعادة؟! ﴿فَسُبْحَانَ﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته. وقرئ: «ملكة/٢/١٢٥ب كل شيء» و«ملك كل شيء». والمعنى واحد ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتحها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك، فإذا أنه لهذه الآية.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس، من قرأ يس يريد بها وجه الله، غفر الله تعالى له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس، نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له، ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت، لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان، ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان» (١٢٧٦). وقال عليه الصلاة والسلام: «إن في القرآن سورة تشفع لقارئها، ويغفر لمستمعها؛ ألا وهي سورة يس» (١٢٧٧).

١٢٧٦ ـ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٧)، حديث (٦٦١)، عن أبي بن كعب، وذكره الزيلعي (٣/ ١٧١)، حديث (١٠٨٠)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه، والثعلبي عن أبي بن كعب.
وأخرجه البزار، حديث (٢٣٠٤) من حديث أبي هريرة: «إن لكل شيء قلباً، وفي الباب عن أبي بكر، لكن لا يصح»، قال الحافظ بن حجر:
أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب، وأوله في الترمذي من رواية هرون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس، وقال: غريب. وهرون مجهول، وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة. فأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة. وهو ضعيف. وحديث أبي بكر: أخرجه الحكيم الترمذي، انتهى.
١٢٧٧ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٧١)، وعزاه للثعلبي قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة، انتهى.

سورة الصافات

مكية، وهي مائة وإحدى وثمانون آية، وقيل: واثنتان وثمانون [نزلت بعد الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات: ١٦٥] أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ السحاب سوقاً ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وقيل: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾: الطير، من قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي الله. والتاليات: كل من تلا كتاب الله. ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، فالزجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله والدراسات شرائعه أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر[1] مع ذلك لا تشغلها عنه تلك

---

(١) قال محمود: «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم، والمراد صفهم في الصلاة وزجرهم السحاب أي سوقهم وتلاوتهم ذكر الله أو العلماء، والمراد تصافف أقدامهم في الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصي وتلاوتهم الذكر... إلى أن قال: ... «ويكون التفاضل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحمد: قد جوز أن يكون ترتيبها في التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع، ونحن نبينه فنقول: وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم. فقدم؛ ووجه عكس هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ ومنه قوله [من الطويل]:

بهاليل منهم جعفر وابن أمه ... علي ومنهم أحمد المتخير

ولا يقال: إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة، فإن هذا غايته أنه عذر، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة؛ وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) فإنهما يقولان: الواو الثانية وما بعدها عواطف، وغيرهما يذهب إلى =

الشواغل؛ كما يحكى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت: إما أن تدلّ على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله [من السريع]:

يَا لَهْفَ زَيَّابة لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالغَانِمِ فالآيِبِ(1)

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فآب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه؛ كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك؛ كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين؛ فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات، فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟ قلت: إن وحدت الموصوف، كانت للدلالة على أن ترتب الصفات في التفاضل، وإن ثلثته، فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه، بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها، فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل: إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل، أعني: أن الطوائف الصافات ذوات فضل، والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً، أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصافات: الطير، وبالزاجرات: كل ما يزجر عن معصية، وبالتاليات: كل نفس تتلو الذكر؛ فإن الموصوفات مختلفة. وقرئ: بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. و ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ ثلثمائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب؛ تشرق الشمس كل يوم في مشرق وتغرب في مغرب، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. فإن قلت: فماذا أراد بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمٰن: ١٧]؟ قلت: أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ القربى منكم. والزينة: مصدر كالنسبة، واسم لما يزان به الشيء؛ كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، ويحتملهما قوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ فإن أردت المصدر، فعلى إضافته إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب، وأصله/ ٢/ ١٢٦أ: بزينة الكواكب، أو على

= أنها حروف قسم؛ فوقوع الفاء في هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد؛ إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم.

(1) تقدم.

إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسنها؛ لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله ﴿بِزِينَةِ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب. وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان: أن تقع الكواكب بياناً للزينة؛ لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به، وأن يراد ما زينت به الكواكب. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: بزينة الكواكب: بضوء الكواكب، ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة؛ كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء، وغير ذلك، ومطالعها ومسايرها. وقرئ على هذا المعنى: «بزينة الكواكب» بتنوين زينة، وجرّ الكواكب على الإبدال، ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة ﴿وَحِفْظًا﴾ مما حمل على المعنى؛ لأنّ المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] ويجوز أن يقدر الفعل المعلل؛ كأنه قيل: وحفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ زيناها بالكواكب، وقيل: وحفظناها حفظاً. والمارد: الخارج من الطاعة المتملس[1] منها.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

الضمير في «لا يسمعون» لكل شيطان، لأنه في معنى الشياطين. وقرئ بالتخفيف والتشديد، وأصله: يتسمعون. والتسمُّع: تطلب السماع. يقال: تسمع فسمع، أو فلم يسمع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم يتسمعون ولا يسمعون (١٢٧٨)، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد. فإن قلت: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلت: لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان، أو استئنافاً فلا تصحّ الصفة؛ لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له، وكذلك الاستئناف؛ لأنّ سائلاً لو سأل: لم تحفظ من الشياطين؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون: لم يستقم، فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً، لما عليه حال المسترقة للسمع[2]، وأنهم لا يقدرون أن

١٢٧٨ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١١)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنهم كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون!!

---

(١) قوله: «من الطاعة المتملس منها» في الصحاح: يقال: انملس من الأمر، إذا أفلت منه. (ع).

(٢) أبطل الزمخشري أن يكون (لا يسمعون) صفة؛ لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له، وأبطل أن يكون أصله لئلا يسمعوا، فحذف اللام وحذفها كثير، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل [من الطويل]:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟ =

يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة؛ فعندها تعاجله الهلكة بإتباع الشهاب الثاقب. فإن قلت: هل يصحّ قول من زعم أن أصله: لئلا يسمعوا فحذفت اللام؛ كما حذفت في قولك: جئتك أن تكرمني، فبقي ألاّ يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها، كما في قول القائل [من الطويل]:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغى(1) ....؟

قلت: كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات، على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب. فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدّث، وسمعت إليه يتحدّث، وسمعت حديثه، وإلى حديثه؟ قلت: المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك و«الملأ الأعلى»: الملائكة (١٢٧٩)؛ لأنهم يسكنون السماوات، والإنس والجن: هم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة. وعنه: أشراف الملائكة ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق ﴿دُحُورًا﴾

١٢٧٩ ـ ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥١١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي في قوله لا يسمعون إلى الملأ الأعلى: قال الملائكة.

= واستبعد اجتماع هذين الحذفين، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائغاً، ولما أبطل هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصاً لما عليه أحوال المسترقة للسمع، قال أحمد: كلا الوجهين مستقيم، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول: أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه، فحال الشيطان حال كونه محفوظاً منه هي حال كونه لا يسمع، وإحدى الحالين لازمة للأخرى، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه، وكونه موصوفاً بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فقوله تعالى «مسخرات» حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سخر. ومعناه مستقيم؛ لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة، فالحال التي سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة، لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك، وما أشار له الزمخشري في هذه الآية قريب من هذا التفسير؛ إلاَّ أنه ذكر معه تأويلاً آخر كالمستشكل لهذا الوجه، فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كممزق، وجعل المعنى: وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعاً من التسخير، وفيما ذكرناه كفاية، ومن هذا النمط (ثم أرسلنا رسلنا) وهم ما كانوا رسلاً إلا بالإرسال، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلاَّ بالحفظ، وأما الجواب عن إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) وأصله لئلا تضلوا، فحذف اللام و«لا» جميعاً من محليهما.

(1) تقدم.

مفعول له؛ أي: ويقذفون للدحور وهو الطرد، أو مدحورين على الحال، أو لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى؛ فكأنه قيل: يدحرون أو قذفاً. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي بفتح الدال على: قذفاً دحوراً طروداً، أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع. والواصب: الدائم، وصب الأمر وصوباً، يعني أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب، وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع ﴿مَنْ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في «لا يسمعون» أي: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ وقرئ: «خطف» بكسر الخاء والطاء وتشديدها، و«خطف» بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها، أصلها: اختطف. وقرئ: «فأتبعه» و«فاتبعه».

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير، فهي بمعنى الاستفهام في أصلها، فلذلك قيل: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: استخبرهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ولم يقل: فقرّرهم، والضمير لمشركي مكة. قيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة، وكني بذلك لشدّة بطشه وقوّته ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يريد: ما ذكر من خلائقه: من الملائكة، والسمٰوات والأرض، والمشارق، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة، وغلّب أولي العقل على غيرهم، فقال: «من خلقنا»، والدليل عليه قوله بعد عدّ هذه الأشياء: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ بالفاء المعقبة. وقوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مطلقاً من غير تقييد بالبيان، اكتفاء ببيان ما تقدّمه، كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه، فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أم الذي خلقناه من ذلك، ويقطع به قراءة من قرأ: «أم من عددنا» بالتخفيف والتشديد. و «أشدّ خلقاً» يحتمل أقوى خلقاً من قولهم: شديد/ ٢/١٢٦ب الخلق، وفي خلقه شدّة، وأصعب خلقاً وأشقّه، على معنى الردّ لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها ـ كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة؛ لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ [الرعد: ٥]. وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث. وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية، وليس هذا القول بملائم. وقرئ: «لازب» و «لاتب» والمعنى واحد، والثاقب: الشديد الإضاءة.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

«بل عجبت» من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ منك ومن

تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرئ بضم التاء: أي: بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني عجبت منها، فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي، أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله، وهم يسخرون ممن يصف الله تعالى بالقدرة عليه. فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام، والثاني: أن يُتخيل العجب ويفرض. وقد جاء في الحديث: «عجب ربكم من ألكم[1] وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم» (١٢٨٠). وكان شريح يقرأ بالفتح، ويقول: إنّ الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم، فقال إبراهيم النخعي: إنّ شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم، يريد عبد الله بن مسعود (١٢٨١)، وكان يقرأ بالضم. وقيل: معناه: قل: يا محمد بل عجبت. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على محل ﴿إِنَّ﴾ واسمها، أو على الضمير في «مبعوثون»، والذي جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام. والمعنى: أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد؛ يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل. وقرئ: «أو آباؤنا» ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ وقرئ: «نعِم» بكسر العين وهما لغتان. وقرئ: «قال نعم» أي: الله تعالى أو الرسول ﷺ. والمعنى: نعم تبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدّر تقديره: إذا كان ذلك فما ﴿هِىَ﴾ إلا ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وهي لا ترجع إلى شيء، إنما هي مبهمة موضحها خبرها.

١٢٨٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٧٥)، حديث (١٠٧٣): غريب قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في الغريب عن محمد بن عمرو يرفعه، ثم قال: فقال: الأول رفع الصوت بالدعاء، وقال بعضهم: يرويه الأول، وهو الشدة، انتهى.

١٢٨١ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش عن شقيق بن سلمة عن شريح، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٤٨).

---

(١) قوله: «من ألكم وقنوطكم» الأل: يأتي بمعنى السرعة والأنين والفساد. أفاده الصحاح. (ع).

ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة[1] وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليها فريعت لصوته. ومنه قوله [من المنسرح]:

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا ... أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالغَنَمِ[2]

يريد تصويته بها ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿يَنظُرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾

يحتمل أن يكون ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿احشروا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ كلام الكفرة. و ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم. ويوم الدين: اليوم الذي ندان فيه، أي: نجازى بأعمالنا. ويوم الفصل: يوم القضاء، والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾

﴿احْشُرُوا﴾ خطاب الله للملائكة، أو خطاب بعضهم مع بعض ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وضرباءهم عن النبي ﷺ، وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة: أهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل السرقة مع أهل السرقة. وقيل: قرناؤهم من الشياطين. وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها؛ هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز. عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر. وقرئ: «لا تتناصرون» و«لا تناصرون»، بالإدغام.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وكثيراً ما يقول هو وابن مالك: إنّ الضميرَ يُفَسِّرُهُ خَبرهُ. وَوَقَفَ أبو حاتم على «وَيْلَنَا» وجعل ما بعده من قَوْلِ الباريءِ تعالى وبعضهم جعل «هَذا يَوْمُ الدِّينِ» من كلام الكَفَرَةِ فيقفُ عليه. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ من قول الباريءِ تعالى، وقيل: الجميع من كلامهم وعلى هذا فيكون قوله: «تُكَذِّبونَ» إمَّا التفاتاً من التكلُّم إلى الخطاب وإمَّا مخاطبةَ بعضهم لبعض. انتهى. الدر المصون.

(٢) للنابغة الجعدي. وأبو عروة: كنية العباس عم النبي ﷺ، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفق مرارة الأسد في جوفه، وروي أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح: يا صباحاه فأسقطت الحوامل، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال، وزجره يزجره، إذا صاح بمنعه، أي: كزجر أبي عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية.
ينظر: ديوان (ص ١٥٨)، لسان العرب (عرا)، تهذيب اللغة (٣/ ١٦٢).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما، وكانوا يتيمنون بها، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون، ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سموها: الشؤمى، كما سموا أختها اليمنى، وتيمنوا بالسانح[1]، وتطيروا/ ٢/ ١٢٧أ بالبارح، وكان الأعسر معيباً عندهم، وعضدت الشريعة ذلك، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلها بالشمال، وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء (١٢٨٢). وجعلت اليمين لكاتب الحسنات، والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتاه بشماله، استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين، أي: من قبل الخير وناحيته، فصدّه عنه وأضلّه. وجاء في بعض التفاسير: «من أتاه الشيطان من جهة اليمين، أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق، ومن أتاه من جهة الشمال، أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة

١٢٨٢ ـ أخرجه البخاري (١/ ٣٢٣) كتاب الوضوء: باب التيمن في الوضوء والغسل حديث (١٦٧) وفي (١/ ٦٢٣) كتاب الصلاة: باب التيمن في دخول المسجد وغيره حديث (٤٢٦) وكتاب الأطعمة: باب التيمن في الأكل وغيره حديث (٥٣٨٠) وكتاب اللباس: باب يبدأ بالنعل اليمنى حديث (٥٨٥٤) وباب الترجيل والتيمن فيه حديث (٥٩٢٦) ومسلم (١/ ٢٢٦) كتاب الطهارة: باب التيمن في الطهور وغيره حديث (٦٧/ ٢٦٨) وأبو داود (٢/ ٤٦٨) كتاب اللباس: باب في الانتعال حديث (٤١٤٠) والترمذي (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦) كتاب الصلاة: باب ما يستحب من التيمن في الطهور حديث (٦٠٨) وفي «الشمائل المحمدية» رقم (٣٤) والنسائي (١/ ٧٨) كتاب الطهارة: باب بأي الرجلين يبدأ بالغسل حديث (١١٢) وفي (١/ ٢٠٥) كتاب الغسل والتيمم: باب التيمن في الطهور حديث (٤٢١) وفي (٨/ ١٨٥) كتاب الزينة: باب التيامن في الترجل حديث (٥٢٤٠) وابن ماجه (١/ ١٤١) كتاب الطهارة: باب التيمن في الوضوء حديث (٤٠١) وأحمد (٦/ ٩٤، ١٣٠، ١٤٧، ١٧٨، ١٨٨، ٢٠٢، ٢١٠) وأبو عوانة (١/ ٢٢٢) والطيالسي (١٤١٠) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٦١) وابن حبان (٥٤٥٦) والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٣١٠ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق الأشعث بن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها أتم من هذا انتهى.

---

(١) قوله: «وتيمنوا بالسانح» السانح: المار من اليسار إلى اليمين. والبارح عكسه. أفاده الصحاح. (ع).

وبالثواب والعقاب، ومن أتاه من خلفه، خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده؛ فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة». فإن قلت: قولهم: أتاه من جهة الخير وناحيته، مجاز في نفسه، فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق، وهذا من ذاك؛ ولك أن تجعلها مستعارة للقوّة والقهر؛ لأنّ اليمين موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش. والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه؛ وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم، والغواة لشياطينهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر، غير ملجئين إليه ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا﴾ مختارين الطغيان ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمنا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة، ولو حكى الوعيد كما هو، ألا لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قول القائل [من الوافر]:

أَلاَ زَعَـمَـتْ هَـوَازِنُ قَـلَّ مَـالِـي .... [(1)]

ولو حكى قولها لقال: قل مالك، ومنه قول المحلف للحالف: احلف لأخرجنّ، ولتخرجنّ؛ الهمزة لحكاية لفظ الحالف، والتاء لإقبال المحلف على المحلف ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغية، لقبولكم لها واستحبابكم الغيّ على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة مشتركون في العذاب؛ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿إِنَّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ﴾ بكل مجرم، يعني أنّ سبب العقوبة هو الإجرام، فمن ارتكبه استوجبها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا﴾ سمعوا بكلمة التوحيد، نفروا و استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ

---

(1) ألا زعـمـت هـوازن قـل مـالـي ... وهـل لـي غـيـر مـا أنـفـقـت مـال؟
أسـر بـه نـعـم ونـعـم قـديـمـاً ... عـلـى مـا كـان مـن مـال وبـال

ألا استفتاحية، وهوزان: امرأته، وضمَّن زعمت معنى قالت: فعداه إلى الجملة، ولو حكى قولها بلفظه لقال: قل مالك، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى، وهل: استفهام إنكاري، وغير: حال مقدمة، أي: ليس لي مال غير ما أنفقته في المكارم، وأسر به. مبني للمجهول صفة لمال، أي: لا يسرني غير ما أنفقته، وبين جهة الإنفاق بقوله: نعم ونعم، أي جوابي للسائلين بذلك من قديم الزمان: هو وبال ومضرة على ما كان لي من مال، ويجوز أن أسر مبني للفاعل. ونعم الأولى مفعوله، أي: هل لي مال أسر به من يجاب بنعم، والحال أن نعم وبال على المال، ومهلكة له قديماً، حيث أجيب السائل بها.

لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ رد على المشركين ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقرئ: «لذائقو العذاب»، بالنصب على تقدير النون؛ كقوله [من المتقارب]:

.... وَلاَ ذَاكِــرَ الــلَّــهَ إِلاَّ قَــلِــيــلا(١)

بتقدير التنوين. وقرئ: على الأصل «لذائقون العذاب» ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئاً بعمل سيىء.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ ولكن عباد الله، على الاستثناء المنقطع. فسر الرزق المعلوم بالفواكه؛ وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوّت لحفظ الصحة؛ يعني أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ، ويجوز أن يراد: رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها: من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وعن قتادة: الرزق المعلوم الجنة، وقوله ﴿فِى جَنَّٰتِ﴾ يأباه، وقوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ هو الذي يقوله وعن العلماء في حدّ الثواب على سبيل المدح والتعظيم، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوي الهمم، كما أنّ من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم.

التقابل أتم للسرور وآنس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

ويقال للزجاجة فيها الخمر: كأس، وتسمى الخمر نفسها كأساً، قال [من المتقارب]:

وَكَــأْسٍ شَــرِبْــتُ عَــلَــى لَــذَّةٍ ....(٢)

---

(١) تقدم.

(٢) وكــأس شــربــت عــلــى لــذة وأخــرى تـداويـت مــنـهـا بـهـا

لــكــي يــعــلــم الــنــاس أنـي امـرؤ أتـيـت الـمـعـيـشـة مـن بـابـهـا

للأعشى، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر، وعلى الخمر فيها: مجاز مشهور، وهي مؤنثة =

وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر، وكذا في تفسير ابن عباس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أو من نهر معين، وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، وصف بما يوصف به الماء؛ لأنه/ ٢/ ١٢٧ب يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥] ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ إمّا أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها، أو هي تأنيث اللذة، يقال: لذ الشيء فهو لذ ولذيذ. ووزنه: فعل، كقولك: رجل طب، قال [من الطويل]:

وَلَـذٍّ كَـطَـعْـمِ الـصَّـرْخَـدِيِّ تَـرَكْـتُـهُ ... بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ[1]

يريد النوم. الغول: مِنْ غاله يغوله غولاً، إذا أهلكه وأفسده. ومنه: الغول الذي في تكاذيب العرب. وفي أمثالهم: الغضب غول الحلم، و ﴿يُنزَفُونَ﴾ على البناء للمفعول، من نزف الشاربُ[2] إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف ومنزوف. ويقال للمطعون: نزف فَمات إذا خرج دمه كله، ونزحت الركية حتى نزفتها: إذا لم تترك فيها ماء، وفي أمثالهم: «أجبن من المنزوف ضرطاً» وقرئ: «ينزفون» من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه. قال [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُو أَوْ صَحَوْتُمُو ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُو آلَ أَبْجَرَا[3]

= بدليل تأنيث صفتها وضميرها. يقول: ورب كأس شربتها مع لذة، أو لأجل لذة فضرتني، فشربت كأساً أخرى تداويت من الأولى بها؛ ليعلم الناس أني مجرب للأمور، وكنى عن ذلك بقوله: أتيت المعيشة من بابها، وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها لدار لها باب على طريق المكنية، وإثبات الباب تخييل، أي: كما داويت الداء من بابه أدرك المعيشة وأحصلها من الأسباب التي تناسبها.
ويروى: بدل الشطر الثاني من البيت الأول «دهاق يرنح من ذاقها» ودهقه: كسره وغمزه غمزاً شديداً، وكأس داهق: ممتلئة، ودهاق: مملوءة. وترنح: تميل، لكن هذا من قافية أخرى.
ينظر: الدر المصون (٥/ ٥٠٠).

(١) اللذ: وصف، واللذة: مؤنثة، وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس، واسم للشيء اللذيذ. والصرخد: موضع من الشام ينسب إليه الشراب. والحدثان: مصدر كالحدث، إلاَّ أنه يدل على التجدد والتكرر، يقول: ورب شيء لذيذ يعني النوم، طعمه كطعم الشراب الطيب، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بي. ويروى بدل الشطر الثاني «عشية خمس القوم والعين عاشقة» وخمست القوم أخمسهم ـ بالضم ـ: أخذت خمس أموالهم.
ينظر: لسان العرب (لذذ)، تهذيب اللغة (١٤/ ٤٠٩)، تاج العروس (لذذ)، مجمل اللغة (٤/ ٢٤٥)، أساس البلاغة (لذذ).

(٢) قوله: «من نزف الشارب في الصحاح: نزفت ماء البئر نزفاً، إذا نزحته كله. ونزفت هي: يُتَعَدَّى ولا يَتَعَدَّى. . ونزفت أيضاً على ما لم يسم فاعله. (ع).

(٣) للأبيرد. ونزف دمه: خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته. ونزف الرجل في الخصومة: انقطعت حجته، وأنزف: صار ذا نزف، فنزف وأنزف لازمان. وقوله: لئن أنزفتم، أي سكرتم وبطلت حركتكم، أو انقطع شرابكم، ولبئس الندامى: جواب القسم، وجواب الشرط مثله محذوف، =

ومعناه: صار ذا نزف. ونظيره: أقشع السحاب، وقشعته الريح، وأكب الرجل وكببته، وحقيقتهما: دخلا في القشع والكب. وفي قراءة طلحة بن مصرف: ينزفون: بضم الزاي، من نزف ينزف كقرب يقرب، إذا سكر. والمعنى: لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار[1] أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك، ولا هم يسكرون[2]، وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر، ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، كقوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾[3] [**الواقعة**: ٣٧] والعين: النجل العيون[4] شبههنّ ببيض النعام المكنون في الأداحي، وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ بيضات الخدور.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؟ قلت: على يطاف عليهم. والمعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب[5] قال [من الوافر]:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلاَّ ... أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ[6]

= وأنتم: هو المخصوص بالذم. وآل أبجر: منادى، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم.
ينظر: لسان العرب (نزف)، بلا نسبة من جمهرة اللغة (ص ٨٢١)، خزانة الأدب (٩/ ٣٨٨)، الدرر (٥/ ٢١٥)، شرح عمدة الحافظ ص (٧٩٣)، المحتسب (٢/ ٣٠٨).

(١) قوله: «في الصحاح: الخمار: بقية السكر». (ع).

(٢) قوله: «ولا هم يسكرون» لعله: ولا هم عنها يسكرون. (ع).

(٣) قوله: «كقوله تعالى: عربا» أي متحببات إلى أزواجهن كما يأتي. (ع).

(٤) قوله: «النجل العيون» في الصحاح: النجل ـ بالتحريك: كشف العين. والرجل أنجل، والعين نجلاء، والجمع نجل. وفيه: مدحى النعامة: موضع بيضها. وأدحيها موضعها، وهو أفعول من دحوت؛ لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه اهـ والأداحي: جمعه. (ع).

(٥) قوله: «كعادة الشرب» جمع شارب، كالصحب جمع صاحب، كذا في الصحاح. (ع).

(٦) للفرزدق، يقول: وما بقيت لذة من اللذات إلاّ لذة أحاديث الكرام، أو ما بقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلاّ أحاديث الكرام على الخمر، وأتى بحرف الاستعلاء؛ لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه، وكان الظاهر: وما بقي من اللذات، لكن أنث الفعل؛ لأنه مفرغ لما بعد إلا، أو للتأويل المتقدم.
ينظر: البحر المحيط ٣٦/٧، الدر المصون (٥/ ٥٠٣).

فيقبل بعضهم على بعض ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله في إخباره. قرئ: «من المصدّقين»، من التصديق. ومن المصَّدّقين مشدّد الصاد، من التصدّق، وقيل: نزلت في رجل تصدّق بماله لوجه الله، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه؛ فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضني الله به في الآخرة خيراً منه، فقال: أئنك لمن المصدّقين بيوم الدين. أو من المتصدّقين لطلب الثواب. والله لا أعطيك شيئاً (١٢٨٣) ﴿لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون، من الدين وهو الجزاء. أو لمسوسون مربوبون. يقال: دانه ساسه. ومنه الحديث: «العاقل من دان نفسه» (١٢٨٤). ﴿قَالَ﴾ يعني ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين. قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل: القائل هو الله عزّ وجلّ. وقيل: بعض الملائكة يقول لأهل الجنة: هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار. وقرئ: «مطلعون» فاطلع. وفأطلع بالتشديد، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب: ومطلعون فاطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارع والمنصوب يقال: طلع علينا فلان، واطلع وأطلع بمعنى واحد، والمعنى: هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضاً. أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه، فاطلع هو بعد ذلك. وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره، فالمعنى: أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم، وهو من آداب المجالسة. أن لا يستبد بشيء دون جلسائه، فكأنهم مطلعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة. وقرئ: «مطلعونِ» بكسر النون، أراد: مطلعون إياي؛ فوضع المتصل موضع المنفصل، كقوله [من الطويل]:

١٢٨٣ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٤٩) بمعناه وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١٨) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء الخرساني بمعناه وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي بمعناه.

١٢٨٤ ـ قال الزيلعي (٣/ ١٧٥)، حديث (١٠٨٥) غريب بهذا اللفظ لكن ورد الحديث بلفظ: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله.
أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٨) كتاب صفة القيامة باب (٢٥) حديث (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣) كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له حديث (٧١٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٥٧)، وابن المبارك في «الزهد» (ص ٥٦) رقم (١٧١)، والبيهقي (٣/ ٣٦٩) كتاب الجنائز: باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، وفي «شعب الإيمان» (٧/ ٣٥٠) رقم (١٠٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٣٤١) رقم (٧١٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٥٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٨٥)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي فقال: لا والله أبو بكر واه.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد والبزار وأبو يعلى والحادث والطبراني كلهم من رواية أبي بكر ابن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس. انتهى.

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما، كأنه قال: تطلعون، وهو ضعيف لا يقع إلاّ في الشعر ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في وسطها، يقال: تعبت حتى انقطع سوائي، وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي (إن) مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان» ونحوه ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والإرداء: الإهلاك. وفي قراءة عبد الله: لتغوين/ ٢/١٢٨أ ﴿نِعْمَةُ رَبِّى﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء. أو إنعام الله تعالى بالثواب وكونه من أهل الجنة ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

الذي عطفت عليه الفاء محذوف، معناه: أنحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ولا معذبين. وقرئ: «بمائتين». والمعنى أنّ هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء: ما شرّ من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه؛ ليكون توبيخاً له يزيد به تعذباً، وليحكيه الله تعالى فيكون لنا لطفاً وزاجراً. ويجوز أن يكون قولهم جميعاً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه. وقيل: هو من قول الله عزّ وجلّ تقريراً لقولهم وتصديقاً له. وقرئ: «لهو الرزق العظيم»، وهو ما رزقوه من السعادة.

---

(١) هـم الـفـاعـلـون الـخـيـر والآمـرونـه ... إذا ما خشوا من حادث الدهر معظما

الخير: نصب على المفعولية. ويقال: أمرتك الخير وأمرتك به، فالآمرونه: اسم فاعل متعد للمفعول الثاني بنفسه، وكان حقه الفصل فوصل، وربما كان في البيت أوقع منه في اسم الفاعل المجرد من اللام، وما زائدة: أي إذا خافوا من حادث الدهر أمراً معظماً. ويروى: مفظعاً، أي: مخيفاً فحقه في حرف العين.

ينظر: أمالي ابن الحاجب ١/٣٩١، وخزانة الأدب ٤/٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٠، والدرر ٦/٢٣٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/١٢٥، والكتاب ١/١٨٨، ولسان العرب (طلع)، (حين)، (ها) وفيه «مفظعاً» مكان «معظماً»، ومجالس ثعلب ١/١٥٠، وهمع الهوامع ٢/١٥٧.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

تمت قصة المؤمن وقرينه، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الرزق ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي خير حاصلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وأصل النزل: الفضل والريع في الطعام، يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء، وحاصل الرزق المعلوم: اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم: الألم والغمّ، وانتصاب نزلاً على التمييز، ولك أن تجعله حالاً، كما تقول: أثمر النخلة خير بلحاً أم رطباً؟ يعني أنّ الرزق المعلوم نزل أهل الجنة. وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير في كونه نزلاً. والنزل: ما يقال[1] للنازل بالمكان من الرزق. ومنه إنزال الجند لأرزاقهم، كما يقال لما يقام لساكن الدار: السكن[2]. ومعنى الأوّل: أنّ للرزق المعلوم نزلاً، ولشجرة الزقوم نزلاً، فأيهما خير نزلاً. ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم. ﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، فكذبوا. وقرئ: «نابتة» ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها: والطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها؛ إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر؛ لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنه شرّ محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان، وإذا صوّره المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنهم اعتقدوا في المَلَكِ أنه خير محض لا شرّ فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة. قال الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيه تخييلي. وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدًا. وقيل: إنّ شجراً يقال له الأستن خشناً منتناً مرًّا منكر الصورة، يسمى ثمره: رءوس الشياطين. وما سمت العرب هذا الثمر رءوس الشياطين إلاّ قصداً إلى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك

---

(١) قوله: «ما يقال للنازل بالمكان» لعله «ما يقام» كعبارة النسفي. (ع).

(٢) قوله: «لساكن الدار السكن» في الصحاح «السكن»: كل ما سكنت إليه. (ع).

رجع أصلاً ثالثاً يشبه به. ﴿مِنۡهَا﴾ من الشجرة، أي من طلعها ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ بطونهم؛ لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها؛ ليكون باباً من العذاب، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شراباً من غساق أو صديد، شوبه: أي مزاجه ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [المطففين: ٢٧] وقرئ: «لشوبًا» بالضم، وهو اسم ما يشاب به، والأوّل تسمية بالمصدر. فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ﴾؟ قلت: في الأوّل وجهان، أحدهما: أنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد مليّ تعذيباً بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحرّ وهو الشراب المشوب بالحميم. والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التر اخي في ذلك بيِّن، وقرئ: ثم إن منقلبهم، ثم إن مصيرهم، ثم إن منفذهم إلى الجحيم: علل استحقاقهم/ ٢/١٢٨ب للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل، والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يحثون حثًّا. وقيل: إسراع فيه شبه بالرعدة.

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ﴾ قبل قومك قريش. ﴿مُّنذِرِينَ﴾ أنبياء حذروهم العواقب. ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذروا وحذروا، أي أهلكوا جميعاً ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين، أتبع ذلك بذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف،

والمخصوص بالمدح محذوف وتقديره: فوالله لنعم المجيبون نحن. والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى: إنا أجبناه أحسن الإجابة، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون. ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ هم الذين بقوا وحدهم وقد فني غيرهم، فقد روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده. أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح (١٢٨٥). وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث. فسام أبو العرب، وفارس، والروم، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج (١٢٨٦). ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعني يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي، كقولك: قرأت: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون العالمين عليه عن آخرهم. علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما. أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من أهل دينه وعلى سنته (١٢٨٧)، وما كان

١٢٨٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٥٠) عن قتادة: قال: ترك الله عليه ثناء حسناً في الآخرة. وابن جرير الطبري (١٠/٤٩٨)، حديث (٢٩٤٢٤)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٢٤)، وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق والطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة: قال: فالناس كلهم من ذرية نوح.

١٢٨٦ ـ أخرجه البزار (١/ ١١٨ كشف)، حديث (٢١٨) عن أبي هريرة، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٢٤)، وعزاه للبزار وابن أبي حاتم والخطيب، عن أبي هريرة، وذكر فيه: وولد يافث يأجوج ومأجوج: مرفوعاً.

١٢٨٧ ـ ذكر السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٢٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس قال من أهل ذريته.

بين نوح وإبراهيم إلاّ نبيان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة. فإن قلت: بم تعلق الظرف؟ قلت: بما في الشيعة من معنى المشايعة، يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه[1] بقلب سليم لإبراهيم، أو بمحذوف وهو: اذكر ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من جميع آفات القلوب. وقيل: من الشرك، ولا معنى للتخصيص؛ لأنه مطلق، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها. فإن قلت: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلت: معناه أنه أخلص لله قلبه، وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك. ﴿أَئِفْكًا﴾ مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً، وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون (إفكاً) مفعولاً به، يعني: أتريدون به إفكاً. ثم فسر الإفك بقوله: ﴿آلهة من دون الله﴾ على أنها إفك في أنفسها. ويجوز أن يكون حالاً، بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة؛ لأنّ من كان ربًّا للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام: والمعنى: أنه لا يقدر في وهم ولا ظنّ ما يصدّ عن عبادته. أو فما ظنكم به أي شيء هو من الأشياء، حتى جعلتم الأصنام له أنداداً؟ أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿فِي ٱلنُّجُومِ﴾ في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه، فقال: حبيب أنظر إليه، ومحتاج أنظر له، وكتاب أنظر فيه. كان القوم نجامين، فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم على أنه يسقم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ إني مشارف للسقم وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى؛ ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل ٢/ ١٢٩أ بالأصنام ما فعل. فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب؟ قلت: قد جوّزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والصحيح: أن الكذب حرام إلاّ إذا عرّض وورّى، والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لا يجوز؛ لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبيٍّ وهو «لِإِبْرَاهِيمَ»؛ لأنه أجنبيٌ من «شِيعَتِهِ» ومن «إِذْ» وزاد المنعُ إِنْ قدره ممن شايعه حين جاء لإبراهيم؛ «لأنه قَدَّر ممن شايعه فجعل العامل قبله صلة لموصول وفَصَلَ بينه وبين إذْ بإجنبي وهو لِإبراهِيمَ» وأيضاً فلام الابتداء تمنع أن يعمل ما قبلها فيما بعدها لو قلت إنَّ ضارباً لقادم علينا زيداً تقديره إنَّ زيداً قادم علينا لم يجز، انتهى. الدر المصون.

من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داء. وقول لبيد [من الكامل]:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بالسَّلَامَةِ جَاهِداً ... لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ[1]

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنْ الموت في عنقه. وقيل: أراد: إني سقيم النفس لكفركم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣)﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهب إليها في خفية، من روغة الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل:٢٧]. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنه قال: فضربهم ﴿ضَرْبًۢا﴾ لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً. أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً. وقرئ: «صفقا» و «سفقا»، ومعناهما: الضرب. ومعنى ضرباً ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ ضرباً شديداً قويًا؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. وقيل: بالقوّة والمتانة، وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)﴾

﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون، من زفيف النعام. ويُزفون: من أزفّ، إذا دخل في الزفيف. أو من أزفه، إذا حمله على الزفيف، أي: يزفّ بعضهم بعضاً. ويُزَفون، على البناء للمفعول، أي: يحملون على الزفيف. ويَزِفون، من وزف يزف إذا أسرع. ويَزْفون: من زفاه إذا حداه[2]، كأنّ بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه، فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى:

---

(١) كانت قناتي لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء
فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ... ليصحني فإذا السلامة داء

للبيد بن ربيعة العامري، والقناة: الرمح، استعارها لإقامته أو قوته على طريق التصريح، والليونة والغمز: ترشيح. والغمزي: الحبى باليد. ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب، يصف قوته زمن الشباب، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه، وأنه تطلب فسحة الأجل، فكانت سبب اضمحلاله.

وهو للنمر بن تولب في ملحق ديوانه ص ٤٠٠، وللبيد بن ربيعة في نهاية الأرب ٣/ ٧٠، ولعمرو بن قميئة في ملحق ديوانه ص ٢٠٤، وزهر الآداب ١/ ٢٢٣، ولبعض شعراء الجاهليَّة في الكامل ١/ ٢٨٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٥، وكتاب الصناعتين ص ٣٨، وقبله في هذه المصادر.

(٢) قوله: «إذا حداه» أي ساقه. أفاده الصحاح. (ع).

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٠] كالتناقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر، حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم، فلعله هو الكاسر؛ ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها، وفي الآخر: أنهم استدلوا بذمِهِ على أنه الكاسر. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفراً منهم دون جمهورهم وكبرائهم، فلما رجع الجمهور والعلية[1] من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك، وسألوا: من فعل هذا بها؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة، ولكن على سبيل التورية التعريض بقولهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ لبعض الصوارف. والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر. وقولهم: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١].

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يعني خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، كقوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] أي فطر الأصنام، فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعاً؟ قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب[2] والكرسي، وعمل الصائغ السوار والخلخال،

---

(١) قوله: «والعلية» أي العظماء. (ع).

(٢) قال محمود: «يعني خلقكم وما تعملون من الأصنام، كقوله: (بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله تعالى معمولاً لهم؟ وأجاب بأن هذا كما يقال: عمل النجار الباب... إلى أن قال:... وفي ذلك فك للنظم وتبتير كما لو جعلتها مصدرية» اهـ كلامه. قال أحمد: إذا جاء سيل الله ذهب سيل معقل، فنقول: يتعين حملها على المصدرية، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة، فلو كان كذلك لم يتعاونوا في تصويرها، ولا اختصوا بعبادتهم حجراً دون حجر، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التي هي أثر عملهم، ففي الحقيقة أنهم عبدوا عملهم، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله، مع أن المعبود كسب العابد وعمله، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدرية أوضح قيام وأبلغه، فإذا أثبت ذلك فليتتبع كلامه بالإبطال. أما قوله: إنها موصولة، وأن المراد بعملهم لها عمل أشكالها فمخالف للظاهر، فإنه مفتقر إلى حذف مضاف في موضع اليأس يكون تقديره: والله خلقكم وما تعملون شكله وصورته، بخلاف توجيه أهل السنة، فإنه غير مفتقر إلى حذف البتة، ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر، فكيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من عمل العابد، مع موافقته على أن جواهر الأصنام ليست من عملهم؟ فما هو من عملهم =

والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها، والأصنام جواهر وأشكال، فخالق جواهرها الله، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها، حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه. فإن قلت: فما أنكرت[1] أن تكون ما مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى: والله خلقكم وعملكم، كما تقول المجبرة[2]؟ قلت: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب، أن معنى الآية يأباه إباء جليًا، وينبو عنه نبوًّا ظاهراً، وذلك أن الله عزّ وجلّ قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعاً خلق الله، فكيف يعبد المخلوقُ المخلوقَ؟ على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله، ولولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها، ولو قلت: والله خلقكم وخلق عملكم (و)لم يكن محتجاً عليهم[3] ولا كان لكلامك طباق. وشيء آخر: وهو أن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ترجمة عن قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ و (ما) في ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولة لا مقال فيها، فلا يعدل بها عن أختها إلاّ متعسف متعصب لمذهبه، من غير نظر في علم البيان، ولا تبصر لنظم القرآن. فإن قلت: اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت، وأريد: وما تعملونه من أعمالكم. قلت: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلاّ الإذعان للحق، وذلك

= وهو الشكل ليس معبوداً لهم على هذا التأويل، وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم، فلم يستقر له قرار في أن المعبود على تأويله من عمل العابد، وعلى ما قررناه يتضح. وأما قوله: إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح، فإن لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدرية وأنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتهم؛ لأن هذه الأصنام وهي حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها، فلما عملوا فيها النحت عبدوها، ففي الحقيقة ما عبدوا سوى نحتهم الذي هو عملهم، فالمطابقة إذاً حاصلة، والإلزام على هذا أبلغ وأمتن، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة، ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافحين لقوله: (والله خلقكم وما تعملون) بأن يقولوا: لا ولا كرامة، ولا يخلق الله ما نعمل نحن، لأنا إنما عملنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه الله، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة، ويأبى الله إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولهم الأكاذيب الفارغة، فهذا إلزام بل إلجام لمن خالف السنة، وغل بعنقه، وعقر بكتفه، وضرب على يده، حتى يرجع إلى الحق آيبًا، ويعترف بخطئه تائباً.

(١) قوله: «فإن قلت فما أنكرت»؟ لعله: لم أنكرت. (ع).

(٢) قوله: «كما تقول المجبرة» يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لا خالق إلاّ الله، فهو الخالق لعمل العبد، والمعتزلة يقولون: إن العبد هو الخالق لعمل نفسه، فجعلوا العبد شريكاً لله في الخالقية، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، قالوا: لو كان الله هو الخالق لفعل العبد لكان تعذيبه للعبد على المعاصي ظلماً لا عدلاً. قال أهل السنة: يعذبه عليها كما يثيبه على الطاعة؛ لما له فيهما من الكسب والاختيار، فلا ظلم، لكن المعتزلة لم ينظروا في التوحيد تمام النظر، ولم يتبصروا في أدلته تمام التبصر. (ع).

(٣) قوله: «لم يكن محتجاً عليهم» يكفي في الاحتجاج أن الله هو الخالق لهم ولأعمالهم في الأصنام وغيرها، والأصنام لا تخلق شيئاً، بل الانفراد بالخالقية أدل على الانفراد بالإلهية. (ع).

أنك وإن جعلتها موصولة، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين، كحالك وقد جعلتها مصدرية، وأيضاً فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون، حيث تخالف بين المرادين بهما؛ /٢/١٢٩ب فتريد بما تنحتون: الأعيان التي هي الأصنام، وبما تعملون: المعاني التي هي الأعمال؛ وفي ذلك فك النظم وتبتيره، كما إذا جعلتها مصدرية.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾

﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الوقود، وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر، فهي جحيم. والمعنى: أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً، وأذلهم بين يديه: أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر، وقهرهم فمالوا إلى المكر، فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾

أراد بذهابه إلى ربه: مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام، كما ﴿قال إني مهاجر إلى ربي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفقني، كما قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] كأن الله وعده وقال له: سأهديك، فأجرى كلامه على سنن موعد ربه. أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده. أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله. ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هب لي بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ [مريم: ٥٣] قال عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم - حين هنأه بولده عليّ أبي الأملاك -: «شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب» ولذلك وقعت التسمية بهبة الله، وبموهوب، ووهب، وموهب، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ثم استسلم لذلك. وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم؛ وذلك لعزة وجوده، ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)﴾ [هود: ٧٥] لأنّ الحادثة شهدت بحلمهما جميعاً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. فإن قلت: ﴿مَعَهُ﴾ بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ، أو بالسعي، أو بمحذوف، فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حدّ السعي، ولا بالسعي لأنّ صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحدّ الذي يقدر فيه على السعي قيل: مع من؟ فقال مع أبيه. والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به، وأعطفهم عليه، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله؛ لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. والمراد: أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حدّ الطفولة، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم، أتي في المنام فقيل له: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة؛ فلهذا قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فذكر تأويل الرؤيا، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة، وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فمن ثم سُمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي يوم النحر. وقيل: إنّ الملائكة حين بشّرته بغلام حليم قال: هو إذن ذبيح الله. فلما ولد وبلغ حدّ السعي معه قيل له: أوف بنذرك ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ من الرأي على وجه المشاورة. وقرئ: «ماذا ترى»[1]، أي: ماذا تبصر من رأيك وتبديه. وماذا ترى، على البناء للمفعول: أي: ماذا تريك نفسك من الرأي ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ أي ما تؤمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله [من البسيط]:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ .... [2]

أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول، وتسمية المأمور به أمراً. وقرئ: «ما تؤمر به» فإن قلت: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ قلت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله؛ فيثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم؛ وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى

---

(١) قوله: «وقرئ ماذا ترى» لعله بضم التاء وكسر الراء، من أراه يريه، فليحرر. (ع).

(٢) تقدم.

البلاء وهو/ ٢/ ١٣٠أ كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله؛ ولأنّ المغافصة[1] بالذبح مما يستسمج، وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك. فإن قلت: لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة؟ قلت: كما أري يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه، وكما وُعِدَ رسول الله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام، وما سوى ذلك من منامات الأنبياء؛ وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين؛ لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾

يقال: سلم لأمر الله وأسلم، واستسلم بمعنى واحد. وقد قرئ بهنّ جميعاً إذا انقاد له وخضع، وأصلها من قولك: سلم هذا لفلان إذا خلص له. ومعناه: سلم من أن ينازع فيه، وقولهم: سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه، وحقيقة معناهما: أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى: استسلم: استخلص نفسه لله. وعن قتادة في: ﴿أَسْلَمَا﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه (١٢٨٨) ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه، فوقع أحد جبينيه على الأرض، تواضعا[2] على مباشرة الأمر بصبر وجلد، ؛ليرضيا الرحمٰن ويخزيا الشيطان. وروي أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منىٰ. وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم. فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف تقديره: فلما أسلما وتله للجبين ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض

١٢٨٨ ـ أخرجه الطبري (١٠/٥٠٨)، حديث (٢٩٤٨١).

---

(١) قوله: «المغافصة» في الصحاح: غافصت الرجل، أي: أخذته على غرة. (ع).
(٢) قوله: «تواضعا على مباشرة الأمر» أي توفقًا. (ع).

ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب، وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة، والظفر بالبغية بعد اليأس ﴿ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. الذبح: اسم ما يذبح. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فدي به إسماعيل (١٢٨٩). وعن الحسن: فدي بوعل[1] أهبط عليه من ثبير (١٢٩٠). وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم (١٢٩١) ﴿عظيم﴾ ضخم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحي. وقوله عليه السلام: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» (١٢٩٢) وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروي أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي، وروي أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده. وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إلٰه إلاّ الله والله أكبر، فقال إبراهيم عليه السلام: الله أكبر ولله الحمد، فبقي سنة، وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر. فقال له اشدد رباطي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز عليّ؛ ليكون أهون فإنّ الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمي فافعل؛ فإنه عسى أن يكون أسهل لها، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه، وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل؛ لأنّ الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه، فقال له: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه

١٢٨٩ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٤)، وعزاه لابن أبي شيبة والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

١٢٩٠ ـ أخرجه الطبري ١٠/٥١٦)، حديث (٢٩٥٤٩) عن الحسن بلفظ ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير.

١٢٩١ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف، حديث (٣/ ١٧٦)، حديث (١٠٨٦) وقال الحافظ: لم أجده.

١٢٩٢ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٧٦)، حديث (١٠٨٧) وقال: غريب.

وأخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ١١٩)، حديث (٢٦٧) عن ابن عباس. وقال الحافظ: لم أجده.

---

(١) قوله: «بوعل» في الصحاح: الوعل: الأروى اهـ، ويقال: التيس الجبلي. (ع).

فانقلب السكين، ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح، فكبر جبريل والكبش، وإبراهيم وابنه، وأتى المنحر من منى فذبحه. وقيل: لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج. وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة، فإن قلت: من كان الذبيح من ولديه؟ قلت: قد اختلف فيه؛ فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين: أنه إسماعيل. والحجة فيه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين (١٢٩٣)» وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين، فتبسم، فسئل عن ذلك فقال: «إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله: لئن سهل الله له أمرها ليذبحنّ أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا له: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والثاني إسماعيل» (١٢٩٤) وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان مجتهد بني إسرائيل يقول إذا دعا: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، فقال موسى عليه السلام: يا رب، ما لمجتهد بني إسرائيل إذا دعا قال: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، وأنا بين ٢/ ١٣٠ب أظهرهم، فقد أسمعتني كلامك واصطفيتني برسالتك؟ قال: يا موسى، لم يحبني أحد حبّ إبراهيم قط، ولا خُيِّرَ بيني وبين شيء قط إلا اختارني. وأمّا إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه. وأمّا إسرائيل فإنه لم ييأس من روحي في شدّة نزلت به قط (١٢٩٥)، ويدل عليه أنّ الله تعالى لما أتمّ قصة الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ **[الصافات: ١١٢]** وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل، فقال عمر: إنّ هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله، فقال: إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب (١٢٩٦)، ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت. وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعي أين عزب عنك

١٢٩٣ ـ ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٧٧)، حديث (١٠٨٩) وقال: غريب، وبيض له ابن حجر.

١٢٩٤ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٤) في كتاب التاريخ والطبري (١٠/ ٥١٤)، حديث (٢٩٥٣٠)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٧٨)، حديث (١٠٩٠) وزاد نسبته لابن مردويه. قال الحافظ: أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الضابحي عن معاوية رضي الله عنه وفيه قصة انتهى. ط

١٢٩٥ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥١١)، حديث (٢٩٥٠٠) عن عبد الله بن عمير قال موسى: يا رب يقولون إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. . .

١٢٩٦ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥١٤ جامع البيان)، حديث (٢٩٥٢٩)، وذكره السيوطي في تفسيره الدر (٥/ ٥٣٠) وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير.

عقلك؟ ومتى كان إسحاق؟ بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة، ومما يدلّ عليه أنّ الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به، ولأنّ الله بشّره بإسحاق وولده يعقوب في قوله: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفاً للموعد في يعقوب، وعن علي بن أبي طالب (١٢٩٧) وابن مسعود (١٢٩٨) والعباس (١٢٩٩) وعطاء وعكرمة (١٣٠٠) وجماعة من التابعين: أنه إسحاق. والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولداً، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به. ويدلّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله (١٣٠١).
فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، وإنما كان يصدقها لو صحّ منه الذبح، ولم يصحّ[1] قلت:

١٢٩٧ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٥٢)، وسعيد بن منصور، وذكره السيوطي (٥/ ٥٣١) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر عن علي.

١٢٩٨ ـ أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٩)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٣١) وعزاه لعبد الزراق والحاكم عن ابن مسعود.

١٢٩٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٥١٠)، حديث (٢٩٤٩١)، (٢٩٤٩٥) وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٣١) وعزاه لعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن العباس.

١٣٠٠ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥١٠)، حديث (٢٩٤٩٣) عن عكرمة عن ابن عباس والحاكم (٢/ ٥٥٨): كتاب التاريخ.
وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٥٣١) للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبري والحاكم.

١٣٠١ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الترمذي في النوادر في الحادي والعشرين بعد المائتين: حدثنا عمر بن أبي عمر حدثنا عصام بن المثنى الحمصي عن أبيه عن وهب بن منبه قال: كتب يعقوب كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب نبي الله إلى آخره وأخرج الدارقطني في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسي عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه: أوحى إلى ملك الموت أن ائت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث ـ وفيه فقال: اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإنا أهل بيت فذكره مطولاً قال الدارقطني: هذا موضوع وإسحاق يضع الحديث على ابن وهب وقد تقدم في يوسف من وجه آخر، انتهى.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: قد =

قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح: من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً، بل يسمى مطيعاً ومجتهداً، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل، ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه. فإن قلت: الله تعالى هو المفتدى منه؛ لأنه الآمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾؟ قلت: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والله عزّ وجلّ وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته. فإن قلت: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح. فما معنى الفداء، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قلت: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فري الأوداج وإنهار الدم، فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه. فإن قلت: فأي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قلت: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه. فإن قلت: لم قيل

= صدقت الرؤيا، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح، ولم يصح. فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله سبحانه منع الشفرة أن تمضي فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه. انتهى كلامه» قال أحمد: كل ما ذكر دندنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل، وتلك قاعدة المعتزلة. وأما أهل السنة فيثبتون جوازه؛ لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل، فجاز رفعه كالموت. وأيضاً فكل نسخ كذلك؛ لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية. ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل (افعل ما تؤمر) ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء، فمن ثم تحوم الزمخشري على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى، وغرضه بذلك أحد أمرين: إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح، وقد حصلت لا بنفس الذبح، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه، ولكن لم يتمكن. وكلا الأمرين لا يخلصه. أما قوله: أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله: (إني أرى في المنام أني أذبحك) وقوله: (افعل ما تؤمر) وأما قوله: لم يتمكن لأن الشفر منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح، فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المأمور به، فكان النسخ إذاً قبل التمكن، وهو عين ما أنكره المعتزلة، ولما لم يكن في هذين الجوابين لهم خلاص لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم، وهو باطل لا ثبوت له، وسياق الآية يخل دعواه ويفل ثنياه.

ههنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ وفي غيرها من القصص: إنا كذلك؟ قلت: قد سبقه في هذه القصة: ﴿إنا كذلك﴾، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وذلك أنّ المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما، فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيماً، وليس كذلك المبشر به، فإنه معدوم وقت وجود البشارة، وعدم المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة؛ لأنّ الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لن توجد النبوّة أيضاً بوجوده، بل تراخت عنه مدّة متطاولة، فكيف يجعل نبيًّا حالاً مقدّرة، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به؛ فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، فتقديرها[1] صفتهم؛ لأنّ المعنى مقدّرين الخلود، وليس كذلك النبوّة؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدّرة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق. قلت/ ٢/ ١٣١أ: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك، والذي يحل الإشكال: أنه لا بدّ من تقدير مضاف محذوف، وذلك قولك: وبشرناه بوجود إسحاق نبيًّا، أي بأن يوجد مقدّرة نبوّته؛ فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة، وبذلك يرجع، نظير قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ؛ لأنّ كل نبي لا بدّ أن يكون من الصالحين. وعن قتادة: بشره الله بنبوّة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه (١٣٠٢)، وهذا جواب من يقول: الذبيح إسحاق لصاحبه عن تعلقه بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ قالوا: ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوّته معاً؛ لأن الامتحان بذبحه لا يصحّ مع علمه بأنه سيكون نبيًّا ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ وقرئ: «وبرّكنا» أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه. وقوله: ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ نظيره: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى

١٣٠٢ ـ أخرجه الطبري (١٠/٥١٨)، حديث (٢٩٥٥٦).

---

(١) قوله: «فتقديرها صفتهم» لعله: فتقديره. (ع).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر. وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة، وأنّ المرء يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغرق. أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم[(١)]. ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ الضمير لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾. ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ومن جوز أن تكون التوراة عربية أن تشتق[(٢)] من ورى الزند «فوعلة» منه، على أنّ التاء مبدلة من واو. ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

قرئ: «إلياس» بكسر الهمزة، والياس: على لفظ الوصل. وقيل: هو إدريس النبي. وقرأ ابن مسعود: «وإنّ إدريس»، في موضع إلياس. وقرئ: «إدراس»، وقيل: هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدون بعلاً، وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل. وقيل: كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك

---

(١) قوله: «وغشمهم» في الصحاح «الغشم»: الظلم. (ع).
(٢) قوله: «أن تشتق» لعله: يجوز أن تشتق. (ع).

من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم بعلبك. وقيل: البعل: الرب، بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار، أي: من ربها؟ والمعنى: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾ قرئ: بالرفع على الابتداء، وبالنصب على البدل، وكان حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع، وقرئ: على الياسين. وإدريسين. وإدراسين. وإدرسين، على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. وقرئ: «على الياسين» بالوصل، على أنه جمع يراد به إلياس وقومه، كقولهم: الخبيبون والمهلبون. فإن قلت: فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته؟ قلت: لو كان جمعاً لعرف بالألف واللام. وأما من قرأ: «على آل ياسين» فعلى أنّ ياسين اسم أبي إلياس، أضيف إليه الآل.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾

﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، يعني: تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

قرئ: «يونس» بضم النون وكسرها. وسمي هربه من قومه بغير إذن ربه: إباقا على طريقة المجاز. والمساهمة: المقارعة. ويقال: استهم القوم، إذا اقترعوا. والمدحض: المغلوب المقروع. وحقيقته: المزلق/ ٢/ ١٣١ب عن مقام الظفر والغلبة. روي: أنه حين ركب في السفينة وقفت، فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده، وفيما يزعم البحارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق، وزجّ بنفسه في الماء ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ داخل في الملامة. يقال: رب لائم مليم، أي يلوم غيره وهو أحقّ منه باللوم. وقرئ: «مليم» بفتح الميم، من ليم فهو مليم، كما جاء: مشيب في مشوب، مبنيًا على شيب. ونحوه: مدعي، بناء على دعى. ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: هو قوله في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقيل: من المصلين. وعن ابن عباس:

كل تسبيح في القرآن فهو صلاة (١٣٠٣). وعن قتادة: كان كثير الصلاة في الرخاء (١٣٠٤). قال: وكان يقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صرع وجد متكأً. وهذا ترغيب من الله عزّ وجلّ في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة؛ لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ الظاهر لبثه فيه حيًّا إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة (١٣٠٥). وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً. واختلف في مقدار لبثه، فعن الكلبي: أربعون يوماً، وعن الضحاك: عشرون يوماً. وعن عطاء: سبعة. وعن بعضهم: ثلاثة. وعن الحسن: لم يلبث إلاّ قليلاً، ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه. وروي: أنّ الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء، فأسلموا، وروي: أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ اعتلّ مما حلّ به، وروي: أنه عاد بدنه كبدن الصبيّ حين يولد. واليقطين: كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل، وهو «يفعيل» من قطن بالمكان إذا قام به. وقيل: هو الدباء. وفائدة الدباء: أن الذباب لا يجتمع عنده ـ وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس» (١٣٠٦) وقيل: هي التين، وقيل: شجرة الموز، تغطى بورقها، واستظلّ بأغصانها، وأفطر على ثمارها. وقيل: كان يستظلّ بالشجرة وكانت وعلة[1] تختلف إليه، فيشرب من لبنها.

١٣٠٣ ـ أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٨)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٨٢) في تفسيره: «بالعشي والإبكار» عن قتادة، وذكره الزيلعي (٣/ ١٨٠) حديث (١٠٩٢)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قوله ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفاً، انتهى.

١٣٠٤ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥٢٧)، حديث (٢٩٥٩٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٤٣)، وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم والطبري عن الحسن. . . فذكر ذلك لقتادة قال: «لا، إنما كان يعمل في الرخاء».

١٣٠٥ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥٢٧)، حديث (٢٩٥٩٩) مختصراً وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٤٤) وعزاه لعبد بن حميد، والطبري، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

١٣٠٦ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٨١) وقال: غريب وعزاه لابن مردويه بنحوه. وقال الحافظ: لم أجده، وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس قال عبد الله: قال النبي ﷺ ـ واليقطين القرع. انتهى.

---

(١) قوله: «وكانت وعلة يقال: هي شاة جبلية. (ع).

وروي: أنه مرّ زمان على الشجرة فيبست، فبكى جزعاً، فأوحى الله إليه: بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر، فإن قلت: ما معنى ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً﴾؟ قلت: أنبتناها فوقه مظلة له؛ كما يطنب البيت على الإنسان ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى. وقيل: هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين، أو إلى غيرهم. وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى؛ لأنّ النبيّ إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم، وقال لهم: إن الله باعث إليكم نبيًّا ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر؛ أي: إذا رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر، والغرض: الوصف بالكثرة ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجل مسمى، وقرئ: «ويزيدون» بالواو، و«حتى حين».

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ معطوف على مثله في أوّل السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة، أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها؛ حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهنّ، وَوأْدِهِنَّ، واستنكافهم من ذكرهنّ. ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر، أحدها: التجسيم؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام، والثاني: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم، كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٧]، ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]، والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه، حيث أنثوهم، ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة، أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله جلد النمر، ولانقلبت حماليقه[1]، وذلك في أهاجيهم بين مكشوف، فكرّر الله سبحانه الأنواع/ ٢/ ١٣٢أ كلها في كتابه مرّات، ودلّ على فظاعتها في آيات: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٨٩]، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) قوله: «ولانقلبت حماليقه» في الصحاح «حملاق العين»: باطن أجفانها الذي يسوده الكحل، اهـ. (ع).

[الأنبياء: ٢٦]، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢]، ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٣٩]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ١٥٣]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: ١٦]، ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾. فإن قلت: لم قال: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ فخصّ علم المشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل لهم، وكذلك قوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] ونحوه قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم. ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك، كالقائل قولاً عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقهم. وقرئ: «ولد الله» أي الملائكة ولده. والولد «فعل» بمعنى مفعول، يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدي، وهؤلاء ولدي. فإن قلت: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ بفتح الهمزة: استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحّت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما. وهذه القراءة ـ وإن كان هذا محملها ـ فهي ضعيفة، والذي أضعفها: أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾؟ فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين[1]. وقرئ: «تَذْكُرونَ» من ذَكَرَ. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله، ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٥] وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد؛ وما الأساليب التي وردت عليها إلاّ ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكم وتعجيب، من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بالٍ ويحدّث به نفساً؛ فضلاً أن يجعله

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليست دخيلة بين نسبتين؛ لأن لها مناسبة ظاهرة مع قولهم: «ولد الله» فأما قوله: «وإنهم لكاذبون» فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفرة جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم. ونقل أبو البقاء: أنه قرئ «اصطفى» بالمد، قال: وهو بعيد جدًا. انتهى. الدر المصون.

معتقداً ويتظاهر به مذهباً.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة ﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته، والمعنى: جعلوا بما قالوا: نسبة بين الله وبينهم، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة. فإن قلت: لم سمى الملائكة جنة؟ قلت: قالوا: الجنس واحد، ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك؛ فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم. وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار ـ وهو من صفات الأجرام ـ لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك. ومثاله: أن تسوّي بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوّى بيني وبين عبدي؟ وإذا ذكره في غير هذا المقام وقَّره وكناه. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكفرة. والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة، وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون، والمراد المبالغة في التكذيب؟ حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة. وقيل: قالوا إنّ الله صاهر الجن فخرجت الملائكة. وقيل: قالوا: إن الله والشيطان أخوان.

وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله. ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين أن يكون الضمير في ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنى أن الشياطين عالمون بأنّ الله يحضرهم النار ويعذّبهم، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذّبهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن المخلصين ناجون. وسبحان الله: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون، أي: يصفه هؤلاء بذلك، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عزّ وجلّ: ومعناه: فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلاّ أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. فإن قلت: كيف يفتنونهم/ ٢/ ١٣٢ب على الله؟ قلت: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم، من قولك: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه وخيبها

عليه. ويجوز أن يكون الواو في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى مع، مثلها في قولهم: كل رجل وضيعته، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته، وأنّ كل رجل وضيعته، جاز أن يسكت على قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾، لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ سادّ مسدّ الخبر؛ لأن معناه: فإنكم مع ما تعبدون. والمعنى: فإنكم مع آلهتكم، أي: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها، ثم قال: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ ضال مثلكم. أو يكون في أسلوب قوله [من الوافر]:

فَـإِنَّـكَ وَالْـكِـتَـابُ إِلَـى عَـلِـيٍّ كَـدَابِـغَـةٍ وَقَـدْ حَـلِـمَ الأَدِيـمُ[1]

وقرأ الحسن «صالُ الجحيم» بضم اللام. وفيه ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن يكون جمعاً، وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف. فإن قلت: كيف استقام الجمع مع قوله: ﴿مَنْ هُوَ﴾؟ قلت: من موحد اللفظ مجموع المعنى، فحمل هو على لفظه، والصالون على معناه، كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه في آية واحدة. والثاني: أن يكون أصله صائل على القلب، ثم يقال: صال في صائل، كقولهم: شاك في شائك. والثالث: أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجري الإعراب على عينه، كما حذف من قولهم: ما باليت به بالة، وأصلها بالية من بالى، كعافية من عافى. ونظيره قراءة من قرأ: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤]، ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ [الرحمٰن: ٢٤] بإجراء الإعراب على العين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، كقوله [من الوافر]:

أَنَـا ٱبْـنُ جَـلاَ وَطَـلاَّعُ الـثَّـنَـايَـا ....[2]

* * *

(١) لعمرو بن العاص. وقيل للوليد بن عقبة بن أبي معيط، يحرض معاوية على حرب علي بن أبي طالب، وحلم الجلد حلماً، كتعب تعباً: إذا فسد ودوّد وتنقب. وحلم بالضم، حلماً بالكسر: عفى مع القدرة. وحلم بالفتح، حلماً بالضم: رأى في منامه شيئاً. يقول: فإنك وكتابك الواصل إلى علي ترجو به استقامته كرجل كثير الدبغ للجلد، أو كامرأة دابغة له، والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدبغ. والمقصود: تشبيه حالة بأخرى. ويجوز أن الواو للمعية لا للعطف، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابغة.
ينظر: البحر (٢/ ١٨٥)، (اللسان) (حلم)، الدر المصون (١(٥٥٠).

(٢) تقدم.

[ومن الرجز]:

.... بِكَفِّيْ كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ[1]

مقام معلوم في العبادة، والانتهاء إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه، كما روي: فمنهم راكع لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه ﴿لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ نَصُفُّ أقدامنا في الصلاة، أو أجنحتنا في الهواء. منتظرين ما نؤمر. وقيل: نصفُّ أجْنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين. وقيل: إنّ المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية. وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون أو المصلون. والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات: ١٥٩] من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ [الصافات: ١٥٨] كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزّة، وقالوا: سبحان الله، فنزهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين وبُرَّأهم منه، وقالوا للكفرة: فإذا صحّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلّوه إلاّ من كان مثلكم ممن علم الله ـ لكفرهم، لا لتقديره وإرادته[2]، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيراً ـ أنهم من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لربّ العزّة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة؟ وما نحن إلاّ عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً؛ خشوعاً لعظمته وتواضعاً لجلاله، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا، مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين، وكما يجب على العباد[3] لربهم. وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ، يعني: وما من المسلمين أحد إلاّ له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

هم مشركو قريش كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي كتاباً ﴿مِّنَ﴾ كتب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾

---

(١) تقدم.

(٢) قوله: «لا لتقديره وإرادته تعالى» مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يقدر الشر ولا يريده. وقال أهل السنة: إن كل كائن فهو بقضاء الله وقدره، كما بين في علم التوحيد. (ع).

(٣) قوله: «وكما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب. كعبارة النسفي. (ع).

الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل؛ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولما خالفنا كما خالفوا، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب، فكفروا به. ونحوه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. و«إن» هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادّين فيه، فكم بين أوّل أمرهم وآخره.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

الكلمة: قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدّة؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة. وقرئ: «كلماتنا» والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] ولا يلزم انهزامهم[(١)] في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها./ ٢/ ١٣٣أ وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبيّ في حرب ولا قتل فيها، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه: الظفر والنصرة ـ وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة ـ والحكم للغالب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة. وفي قراءة ابن مسعود: «على عبادنا»، على تضمين سبقت معنى حقت.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم وأغض[(٢)] على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة يسيرة وهي مدّة الكف عن القتال. وعن السدي: إلى يوم بدر. وقيل: إلى الموت. وقيل: إلى يوم القيامة ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة. والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة، الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام

---

(١) قوله: «ولا يلزم انهزامهم» أي لا يرد نقضاً للغلبة والنصر. (ع).

(٢) قوله: «وأغض على أذاهم» في الصحاح «الإغضاء»: إدناء الجفون. (ع).

ناظريك. وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً، فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود: فبئس صباح. وقرئ: «نزل بساحتهم» على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل، على: ونزل العذاب. والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم، واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا؛ لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي - قالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم. فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١٣٠٧) وإنما ثنى ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ليكون تسلية

١٣٠٧ - أخرجه البخاري (٢/ ١٠٧) كتاب الأذان: باب «ما يحقن بالأذان من الدماء» رقم (٦١٠)، (١/ ٥٧٢) كتاب الصلاة: باب «ما يذكر في الفخذ» رقم (٣٧١)، (٢/ ٥٠٧، ٥٠٨) كتاب الخوف: باب «التبكير والغلس بالصبح، والصلاة عند الإغارة والحرب»، رقم (٩٤٧)، (٤/ ٤٨٩)، كتاب البيوع: باب «بيع العبد والحيوان بالحيوان نسيئة» رقم (٢٢٢٨) طرفا منه، (٤/ ٤٩٤)، كتاب البيوع: باب «هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها» رقم (٢٢٣٥)، (٦/ ٩٨) كتاب الجهاد والسير: باب «فضل الخدمة في الغزو» رقم (٢٨٨٩)، (٦/ ١٠١، ١٠٢) كتاب الجهاد والسير: باب «من غزا بصبي للخدمة» رقم (٢٨٩٣)، (٦/ ١٣٠) كتاب الجهاد والسير: باب «دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة» رقم (٢٩٤٣ - ٢٩٤٤ - ٢٩٤٥)، (٦/ ١٥٦) كتاب الجهاد والسير: باب «التكبير عند الحرب» رقم (٢٩٩١)، (٦/ ٢٢٢، ٢٢٣) كتاب الجهاد والسير: باب «ما يقول إذا رجع من الغزو» رقم (٣٠٨٥ - ٣٠٨٦)، (٦/ ٢٢٣، ٢٢٤) كتاب الجهاد والسير: باب «الصلاة إذا قدم من سفر» رقم (٣٠٨٧)، (٦/ ٧٣٢) كتاب المناقب: باب «٢٨» رقم (٣٦٤٧)، (٧/ ٤٣٦) كتاب المغازي: باب «أحد جبل يحبنا ونحبه» رقم (٤٠٨٣ - ٤٠٨٤)، (٧/ ٥٣٤) كتاب المغازي: باب «غزوة خيبر» رقم (٤١٩٧ - ٤١٩٨ - ٤١٩٩ - ٤٢٠٠ - ٤٢٠١)، (٧/ ٥٤٧) كتاب المغازي: باب «غزوة خيبر» رقم (٤٢١١ - ٤٢١٢ - ٤٢١٣)، (٩/ ٢٩) كتاب النكاح: باب «اتخاذ السراري، ومن أعتق جارية ثم تزوجها» رقم (٥٠٨٥)، (٩/ ١٣٢) كتاب النكاح: باب «البناء في السفر» رقم =

على تسلية. وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالآخر عذاب الآخرة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

أضيف الرب إلى العزّة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزّة، كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزّة لأحد من الملوك وغيرهم إلاّ وهو ربها ومالكها، كقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه، مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على ما قيض لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن

= (٥١٥٩)، (٩/ ١٤٠) كتاب النكاح: باب «الوليمة ولو بشاة» رقم (٥١٦٩)، (٩/ ٤٤٠) كتاب الأطعمة: باب «الخبز المرقق، والأكل على الخوان والسفرة» رقم (٥٣٨٧)، (٩/ ٤٦٥) كتاب الأطعمة: باب «الحيس» رقم (٥٤٢٥)، (٩/ ٤٦٦) كتاب الأطعمة: باب «ذكر الطعام» رقم (٤٤٢٨)، (٩/ ٥٧٠) كتاب الذبائح والصيد: باب «لحوم الحمر الإنسية» رقم (٥٥٢٨)، (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب «ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها» رقم (٥٩٦٨)، (١٠/ ٥٨٤) كتاب الأدب: باب «قول الرجل» جعلني الله فداك» رقم (٦١٨٥)، (١١/ ١٧٧) كتاب الدعوات: باب «التعوذ من غلبة الرجال» رقم (٦٣٦٣)، (١١/ ١٨٢) كتاب الدعوات: باب «الاستعاذة من الجبن والكسل» رقم (٦٣٦٩)، (١٣/ ٣١٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب «إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة» رقم (٧٣٣٣)، ومسلم (٢/ ١٠٤٣، ١٠٤٤) كتاب النكاح: باب «فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها» رقم (٨٤/ ١٣٦٥)، والنسائي (٦/ ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤)، كتاب النكاح: باب «البناء في السفر» رقم (٣٣٨٠)، وأحمد (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١١١ ـ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ١٨٦ ـ ٢٠٦ ـ ٢٤٦ ـ ٢٦٣ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧١)، والبيهقي (٢/ ٢٣٠) كتاب الصلاة: باب «من زعم أن الفخذ ليست بعورة، وما قيل في السرة والركبة»، (٩/ ٥٥) كتاب السير: باب «قسمة الغنيمة في دار الحرب»، (٩/ ٧٩، ٨٠)، كتاب السير: باب «قتل النساء والصبيان في التبيت والغارة من غير قصد، وما ورد في إباحة التبيت»، وابن حبان (١١/ ٥١، ٥٢)، كتاب السير: باب «ذكر البيان بأن على المرء إذا أتى دار الحرب أن لا يشن الغارة حتى يصبح» رقم (٤٧٤٧). ومالك في «الموطأ» (٢/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩) كتاب السير: الخروج وكيفية الجهاد» رقم (٤٧٤٦)، والترمذي (٤/ ١٢١)، كتاب السير: باب «في البيات والغارات» رقم (١٥٥٠).

قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه.

مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. وعن عليّ رضي الله عنه: «من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: «سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» (١٣٠٨).

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين» (١٣٠٩).

١٣٠٨ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) حديث (٣١٩٦)، والبغوى في تفسيره (٤/ ٤٦)، وزاد نسبه للثعلبى في تفسيره وابن أبي حاتم، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق والثعلبى من رواية الأصبغ بن نباتة عن علي موقوفاً، ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً، انتهى.

١٣٠٩ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبى، وابن مردويه، والواحدي من طرف عن أبي بن كعب رضي الله عنه، انتهى.

سورة ص

مكية، وهي ست وثمانون آية، وقيل ثمان وثمانون آية
[نزلت بعد القمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

﴿صٓ﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة. وقرئ: بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله، كقولهم: الله لأفعلنّ، كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم، والفتح في موضع الجرّ، كقولهم: الله لأفعلنّ، بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث؛ لأنها بمعنى السورة، وقد صرفها من قرأ ﴿صٓ﴾ بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل، وقيل: فيمن كسر هو من/ ٢/ ١٣٣ب المصاداة وهي المعارضة والمعادلة. ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة، ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه. فإن قلت: قوله: ﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم، فما وجه انتظامه؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّي والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه، كأنه قال: ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ إنه لكلام معجز. والثاني: أن يكون ﴿صٓ﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنها اسم للسورة، كأنه قال: هذه ص، يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب، والقرآن ذي الذكر، كما تقول: هذا حاتم والله، تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله، وإذا جعلتها مقسماً بها وعطفت عليها ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله، وأن تريد السورة بعينها. ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر، كما تقول: مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة، ولا تريد بالنسمة غير الرجل. والذكر: الشرف

والشهرة، من قولك: فلان مذكور، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو الذكرى والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها، كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد. والتنكير في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما. وقرئ: «في غرّة» أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحقّ.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوي العزّة والشقاق ﴿فَنَادَوا۟﴾ فدعوا واستغاثوا، وعن الحسن. فنادوا بالتوبة ﴿وَّلَاتَ﴾ هي لا المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رُبَّ، وثُمَّ للتوكيد، وتغير بذلك حكمها؛ حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيها: إمّا الاسم وإما الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً، وهذا مذهب الخليل وسيبويه. وعند الأخفش: أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصّت بنفي الأحيان. و ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها، كأنك قلت: ولا حين مناص لهم. وعنه: أنّ ما ينتصب بعده بفعل مضمر، أي: ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء: أي ولا حين مناص كائن لهم، وعندهما أن: النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص، والرفع على ولات حين مناص حاصلاً لهم. وقرئ: «حين مناصٍ» بالكسر، ومثله قول أبي زبيد الطائي [من الخفيف]:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلاَتَ أَوَانٍ ... فَأَجَبْنَا أَنْ لاَتَ حِينَ بَقَاءِ[1]

---

(١)
بعثوا حربنا عليهم وكانوا ... في مقام لو أبصروا ورخاء
ثم لما تشذرت وأنافت ... وتصلوا منها كريه الصلاء
طلبوا صلحنا ولات أوانٍ ... فأجبنا أن لات حين بقاء

لأبي زبيد الطائي، استعار البعث للتسبب. وتنوين مقام ورخاء للتعظيم. والتشذر: التهيؤ للقتال، والتشمر بأطراف الثوب، والتطاول، والوعيد، والركوب من خلف المركوب، والإنافة: الارتفاع، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث، ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية، والبعث والتشذر والإنافة: تخييل. وشبهها بالنار أيضاً فأثبت لها التصلي وهو التدفؤ بالنار تخييلاً. أو استعار التصلي لاقتحام المكاره تصريحية، وطلبوا: جواب لما، أي: لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا، والحال أنه ليس الأوان أوان صلح، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء، بل وقت فناء. وأوان: مبني على الكسر لنية الإضافة. وقيل: إنه مبني على الكسر أيضاً لنية الإضافة، ونون للضرورة، وشبهه بنزال في الوزن. وقيل: مجرور على إضمار «من» الاستغراقية الزائدة. وزعم الفراء: أن لات هنا حرف جر. وعليها فتنوين أوان للتمكين. وزعم الزمخشري: أنه على البناء تنوين عوض، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب، وحين نصب على أنه خبر لات في بقاء، ثم تنزيلها منزلة نيتها في حين؛ لأن التقدير: أن لات حين بقائكم، وهو بعيد عن المعنى الجزل.

ينظر: البيت في ديوانه ص ٣٠، والإنصاف ص ١٠٩، وتخليص الشواهد ص ٢٩٥، وتذكرة النحاة =

فإن قلت: ما وجه الكسر في أوان؟ قلت: شبه بإذ في قوله: وأنت إذ صحيح، في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين؛ لأنّ الأصل: ولات أوان صلح. فإن قلت: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قلت: نزل قطع المضاف إليه من مناص؛ لأنّ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين؛ لاتحاد المضاف والمضاف إليه، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف، ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن. وقرئ: «ولات» بكسر التاء على البناء، كجير. فإن قلت: كيف يوقف على لات؟ قلت: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي تتصل به تاء التأنيث. وأمّا الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة. وأمّا قول أبي عبيد: إنّ التاء داخلة على حين فلا وجه له، واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين في الأمام لا متشبث به، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط. والمناص: المنجا والفوت. يقال: ناصه ينوصه إذا فاته، واستناص: طلب المناص. قال حارثة بن بدر [من الكامل]:

غَمْرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عِنَانَهُ ... بِيَدِي اسْتَنَاصَ وَرَامَ جَرْيَ الْمُسْحِلِ[1]

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ﴾ رسول من أنفسهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلاّ الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغيّ الذين قال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥١]، وهل ترى كفراً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدّقه الله بوحيه كاذباً، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الذي لا يصحّ غيره، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته.

= ص ٧٣٤، وخزانة الأدب ٤/١٨٣، ١٨٥، ١٩٠، والدرر ٢/١١٩، وشرح شواهد المغني ص ٦٤٠، ٩٦٠، والمقاصد النحوية ٢/١٥٦، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٤٩، وخزانة الأدب ٤/١٦٩، ٦/٥٣٩، ٥٤٥، والخصائص ٢/٣٧٠، ورصف المباني ص ١٦٩، ٢٦٢، وسر صناعة الإعراب ص ٥٠٩، وشرح الأشموني ١/١٢٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٩/٣٢، ولسان العرب (أون)، (لا)، (لات)، ومغني اللبيب ص ٢٢٥، وهمع الهوامع ١/١٢٦.

(١) لحارثة بن بدر، يصف فرساً بأنه كثير المجاراة لغيره من الأفراس، إذا قصرت: أي جذبت عنانه، استناص: أي طلب النوص والهرب والنجاء من الأعداء. وشبه الفرس بمن تصح منه الإرادة على طريق المكنية، والروم تخييل، أي: أراد جرياً كجري المُسْحِلِ وهو حمار الوحش، سمي به لكثرة سحاله، أي شهيقه.
ينظر ديوانه (ص ٣٥٩)، لسان العرب (نوص)، (جرا)، تهذيب اللغة (١٢/٢٤٦)، بلا نسبة في كتاب العين (٧/ ١٦٠).

روي: أنّ إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً، وشقّ على قريش وبلغ منهم، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا (١٣١٠)، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، يريدون الذين دخلوا في الإسلام، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السُّؤال[1] فلا تمل/ ٢/ ١٣٤أ كل الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني؟» قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلٰهك، فقال عليه السلام: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطيّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟» فقالوا: نعم وعشراً، أي نعطيكها وعشر كلمات معها، فقال: «قولوا: لا إلٰه إلاّ الله» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ أي: بليغ في العجب. وقرئ: «عجاب» بالتشديد، كقوله تعالى: ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢] وهو أبلغ من المخفف. ونظيره: كريم وكرام وكرام: وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ مثل قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال: أجعل الجماعة واحداً في قوله؛ لأنّ ذلك في الفعل محال.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧﴾

﴿ٱلْمَلَأُ﴾ أشراف قريش، يريد: وانطلقوا عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد، قائلين بعضهم لبعض: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾ فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الأمر ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه، وما أراد الله

١٣١٠ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة ص، حديث (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٥) كتاب السير: باب ممن تأخذ منهم، حديث (٨٧٦٩)، وأحمد (١/ ٣٦٢) والطبري (١٠/ ٥٥٠)، حديث (٢٩٧٣٧)، وابن حبان: صحيحه (١٥/ ٧٩، ٨٠)، حديث (٦٦٨٦) عن ابن عباس والحاكم (٢/ ٤٣٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٥٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
والبيهقى في الدلائل (٢/ ٣٤٥) عن ابن عباس به، وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبى بغير سند، وروى الترمذي والنسائي، وابن حبان، وأحمد، وإسحاق، وأبو يعلى، والطبري، وابن أبي حاتم، وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: «مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي ﷺ..... الحديث نحوه» وليس فيه أوله. انتهى.

---

(١) قوله: «يسألونك السؤال فلا تمل» لعله السواء، كما في عبار النسفي. (ع).

كونه فلا مردّ له ولا ينفع فيه إلا الصبر، أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه، أو إن دينكم لشيء يراد، أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه. و (أن) بمعنى أي؛ لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بدّ لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول، وأنهم قالوا: امشوا، أي: أكثروا واجتمعوا، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها. ومنه: الماشية؛ للتفاؤل، كما قيل لها: الفاشية. قال رسول الله ﷺ: «ضموا فواشيكم»[1] (١٣١١) ومعنى ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾: واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ: «وانطلق الملأ منهم امشوا» بغير (أن) على إضمار القول. وعن ابن مسعود: «وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا»﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل؛ لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة. أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا، أو ما سمعنا بهذا كائناً في الملة الآخرة، على أن تجعل (في الملة الآخرة) حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين. والمعنى: أنّا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله. ما ﴿هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: افتعال وكذب.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ من القرآن، يقولون في أنفسهم: أما وأما. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾

١٣١١ ـ أخرجه مسلم (٧/٢٠٣ نووي): كتاب الأشربة: باب الأمر بتغطية الإناء و. . .، حديث (٢٠١٣)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٣٥٦)، حديث (١٢٢٦) وأحمد (٣/٣٠١)، (٣/٣٩٥) وابن خزيمة (١/٦٨)، حديث (١٣٢)، وابن حبان في صحيحه (٤/٩١، ٩٢)، حديث (١٢٧٥، ١٢٧٦)، والبغوي في شرح السنة (٥/٥٥٥): كتاب السير والجهاد: باب متى يخرج إلى السفر، حديث (٢٦٦٦) ومسند أبي يعلى (٣/٣٠٥، ٣٠٦)، حديث (١٧٧١)، من حديث جابر، وقال الحافظ: أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ «كفوا» وأصله في مسلم، انتهى.

---

(١) قوله: «ضموا فواشيكم» بقيته في الصحاح: «حتى تذهب فحمة العشاء». (ع).

كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد[١] حينئذ، يعني: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه. ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا، ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم، ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام. وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله، كما قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢] ثم رشح هذا المعنى فقال: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها ربّ العزّة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا يحق له ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، ثم خسأهم خساءة[٢] عن ذلك بقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ يريد: ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله، مهزوم مكسور عما قريب[٣] فلا تبال بما يقولون،

---

(١) قال محمود: «معناه لم يذوقوه بعد. فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم... إلخ» قلت: ويؤخذ منه أن لما لائقة بالجواب، وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده، كما يقول سيبويه، وفرق بينها وبين لم بأن لم نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته قد، ولما نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبته قد؛ وإنما ذكرت ذلك لأني حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام: «الشفعة فيما لم يقسم» فإني استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة، فقيل لي: إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفي عنه القسمة، فإما أنها لا تقبل قسمة، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة، فأبطلت ذلك بأن آلة النفي المذكورة «لم» ومقتضاها قبول المحل للفعل المنفي وتوقع وجوده. ألا تراك تقول: الحجر لا يتكلم، ولو قلت: الحجر لم يتكلم؛ لكان ركيكاً من القول؛ لإفهامه قبوله للكلام.

(٢) قوله: «ثم خسأهم خسأة» في الصحاح: خسأت الكلب خسأ: طردته، وخسأ بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع).

(٣) قال محمود: «ثم تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإتياء النبوة دون من لا يستحق؛ فليَرتقوا في المعارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى، وينزلوا الوحي على من يختارونه. قال: ثم خسأهم بقوله: (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) معناه: إن هؤلاء إلاّ جند متحزبون على النبي ﷺ عما قليل يهزمون ويولون الأدبار» قال أحمد: الاستواء المنسوب لله ليس مما يتوصل إليه بالصعود في المعارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتمكن فوقه؛ لأن الاستواء المنسوب إلى الله تعالى ليس استواء استقرار =

ولا تكترث لما به يهذون. و (ما) مزيدة، وفيها معنى الاستعظام، كما في قول امرىء القيس [من البسيط]:

.... فَحَدِيثُ مَا عَلَى قِصَرِهْ[1]

إلا أنه على سبيل الهزء و ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده، قال/ ٢/ ١٣٤ب [من البسيط]:

وَالْبَيْتُ لاَ يُبْتَنَى إِلاَّ بِأَعْمِدَةٍ ... وَلاَ عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ[2]

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر، كما قال الأسود [من الكامل]:

.... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ[3]

= بجسم - تعالى الله عن ذلك - وإنما هو صفة فعل، أي فعل فيه فعلاً سماه استواء، هذا تأويل القاضي أبي بكر، وليست عبارة الزمخشري في هذا الفصل مطابقة للمفصل على جاري عاداته في تحرير العبارة على مراده.

(١) جد بالوفاق لمشتاق إلى سهره ... إن لم تجد فحديث ما على قصره

المراد بالوفاق: الوصال. وضمير «سهره» للمشتاق أو للوفاق. وحديث: مبتدأ خبره محذوف، أي: تجود به. وما زائدة للتعميم. ويجوز أنها للتعظيم. لكن الأول أوفق بالمقام. وعلى بمعنى مع، وضمير «قصره»: للحديث.

ينظر ديوانه ص (١٢٧)، لسان العرب (هنا)، مقاييس اللغة (٦/ ٦٨)، تاج العروس (هنا)، بلا نسبة في تهذيب اللغة (٦/ ٤٣٦)، ديوان الأدب (٤/ ٢٩)، والدر المصون ١/ ١٦٣.

(٢) والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أسباب وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

للرافدة الأودي، يقول: لا ينال الأمر إلاً بتوافر أسبابه، فالبيت من باب التمثيل: شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المشدودة بالحبال، ثم قال: فإن اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده، وهو بمعنى الجمع، فصح جمع ضميره، وكاده كيداً: عالجه علاجاً، أي: بلغوا الأمر الذي كادوه، أي عالجوه لتحصيله.

ينظر ديوانه (ص ١٠)، لسان العرب (كيد)، تاج العروس (٩/ ١٢٠) (كود).

(٣) ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد؟ =

وقيل: كان يشبح[1] المعذب بين أربع سوار، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب[2]. ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها: بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوهم جميعاً. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاً وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدّ العقاب وأبلغه، ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حقّ عقابهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهل مكة. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب؛ لاستحضارهم بالذكر، أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة: النفخة ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾

= جرت الرياح على مقر ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاد

للأسود بن يعفر. يقول: لا أتمنى شيئاً بعدهم من الدنيا. ومحرق: هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي. والإياد ـ في الأصل ـ: تراب يجمع حول الحوض والبيت. يحفظه عن المطر والسيول، من الأيدي: وهو القوة. وإياد: علم علي بن نزار بن معد، فهو أخو مضر وربيعة. والمراد به هنا القبيلة. وروي: وآل إياد، عطفاً على آل محرق. وغني بالمكان كرضي: أقام به. والبلى: الانمحاق. والنفاد: الفناء. يقول: تركوا منازلهم: جملة مستأنفة لبيان نفي التأميل، واعتراضية بين المتعاطفين. وقوله: «جرت الرياح» مستأنف لبيان حال القبيلتين، يقول: تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم، وجريان الرياح على مقر الديار؛ لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح، وذلك كناية عن موتهم، وأفاد أن فناءهم كان سريعاً كأنه دفعة واحدة بقوله: فكأنهم كانوا على ميعاد واحد، ولقد أقاموا بأرغد عيشة، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم، والظل: الترشيح، والأوتاد تخييل. وإذا معناها المفاجأة. أي فظهر بغتة أن كل نعيم لا محالة زائل، أي: فأدركهم المحاق والفناء.
ينظر الدر المصون (٣/٣٠٦).

(١) قوله: «وقيل: كان يشبح المعذب» أي يمده، أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قال محمود: «قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم الذين وجد التكذيب منهم» قال أحمد: وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى: وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليلى قوله تعالى: (فحق عقاب) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام، وهو كما قدمته في قوله: (وكذب موسى) حيث كرر الفعل؛ ليقترن بقوله: (فأمليت للكافرين).

وقرئ بالضم: ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع، يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ [النحل: ٦١] وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد (١٣١٢)، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة: ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نصيبنا من العذاب الذي وعدته، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقيل: ذكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين بالجنة؛ فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها. أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

فإن قلت: كيف تطابق قوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون، وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود، وهو أنه نبيّ من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوّة والملك؛ لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زلّ زلّة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض؛ حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب، ووجد منه ما يُحكَى من بكائه الدائم وغمّه الواصب[1]، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها، فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم؟ أو قال له ﷺ: اصبر على ما يقولون، وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلّة اليسيرة فلقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي. ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوّة في الدين

١٣١٢ ـ أخرجه الطبري (١٠/٥٥٨)، حديث (٢٩٧٧٧، ٢٩٧٧٨).

---

(١) قوله: «وغمه الواصب» أي: الدائم. (ع).

المضطلع بمشاقه وتكاليفه، كان على نهوضه بأعباء النبوّة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهو أشدّ الصوم، ويقوم نصف الليل. يقال: فلان أيد، وذو أيد، وذو آد. وأياد كل شيء: ما يتقوّى به ﴿أَوَّابٌ﴾ توّاب رجاع إلى مرضاة الله. فإن قلت: ما دلك على أنّ الأيد القوّة في الدين؟ قلت: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لأنه تعليل لذي الأيد. ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ وقت الإشراق، وهو حين تشرق الشمس، أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها، يقال: شرقت الشمس، ولما تشرق[1]. وعن أمّ هانئ: دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق» (١٣١٣). وعن طاووس، عن ابن عباس قال: هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن؟ قالوا: لا، فقرأ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ (١٣١٤) وقال: كانت صلاة يصليها داود عليه السلام، وعنه: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية، وعنه: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها في هذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ وكان لا يصلي صلاة الضحى (١٣١٥)، ثم صلاها بعد. وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس، فقال: أنا أوجدك ذلك في كتاب الله تعالى، يعني هذه الآية. ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا

١٣١٣ ـ أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٥)، حديث (٤٢٥٨)، والبغوى في تفسيره (٤/ ٥١) آية (١٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣): كتاب معرفة الصحابة: أم هانىء، وذكره الزيلعى (٣/ ١٨٧ ، ١٨٨) وزاد نسبته إلى الثعلبى وابن مردويه وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٦١) ونسبه إلى الطبراني في الأوسط وابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والثعلبى، والواحدي، والبغوى، والطبراني كلهم من رواية أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس: حدثتني أم هانىء، ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد الله ابن الحرث عن ابن عباس: «كان لا يصلى الضحى حتى أدخلناه على أم هانىء فقلت لها: أخبري ابن عباس قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات، قال: فخرج ابن عباس وهو يقول: «هذه صلاة الإشراق» هذا موقوف وهو أصح. انتهى.

١٣١٤ ـ أخرجه عبد الرزاق (في مصنفه ٣/ ٧٩)، حديث (٤٨٧٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٦١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد. عن عطاء عن ابن عباس.

١٣١٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٧٩) حديث (٤٨٧١).

---

(١) قال محمود: «الإشراق حين تشرق الشمس، أي يصفو نورها وهو وقت الضحى. وأما شروقها فطلوعها. يقال: شرقت الشمس ولما تشرق. ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى. قال: ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في وقت الشروق، ويكون المراد وقت صلاة الفجر؛ لانتهائه بشروق الشمس» قال أحمد: الوجه الثاني: يفرق بين العشي والإشراق، فإن العشي ظرف بلا إشكال، فلو حمل الإشراق على الدخول في وقت الشروق لكان مصدراً، مع أن المراد به الظرف؛ لأنه فعل الشمس وصفتها التي تستعمل ظرفاً، كالطلوع والغروب وشبههما.

دخلوا في الشروق، ومنه/ ٢/ ١٣٥أ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: ٧٣] وقول أهل الجاهلية: أشرق[1] ثبير، ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق. ويسبحن: في معنى ومسبحات[2] على الحال. فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح. ومثله قول الأعشى [من الطويل]:

.... إِلَـى ضَـوْءِ نَـارٍ فِـي يَـفَـاعٍ تَـحَـرَّقُ[3]

ولو قال: محرقة، لم يكن شيئاً. وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ في مقابلة (يسبحن) إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء، جيء به اسماً لا فعلاً. وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن ـ على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله عزّ وجلّ ـ لكان خلفاً؛ لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت، فذلك حشرها. وقرئ: «والطير محشورة» بالرفع. ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبح؛ لأنها كانت تسبح بتسبيحه، ووضع الأوّاب موضع المسبح: إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح، والمرجع

---

(١) قوله: «أشْرِق ثبير» كانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير، كيما في الصحاح. (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالاً؟ وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئاً بعد شيء، كأن السامع محاضر لها فيسمعها تسبح، ومنه قول الأعشى:

.... إلى ضوء نار في يفاع تحرق

ولو قال: محرقة لم يكن شيئاً. قال أحمد: ولهذه النكتة فرق سحنون من أصحابنا بين: أنا محرم يوم أفعل كذا بصيغة اسم الفاعل وبين أحرم بصيغة المضارع، فرأى أن المعلق بصيغة اسم الفاعل يكون محرماً بوجود صيغة التعليق، ولا كذلك المعلق بصيغة الفعل المضارع، فإنه لا يكون محرماً حتى يحرم، ويقال له: أحرم، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخراً. وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سحنون في اسم الفاعل يكون محرماً يوم يفعل، فمنهم من قال: أراد الفور فينشيء إحراماً، ومنهم من قال: يكون محرماً في الحال بالتعليق الأول ولا يجدد شيئاً، ومذهب مالك: التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام، والله أعلم. وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله: (والطير محشورة كل له أواب) فقال: لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة، وكان ذلك أدل على القدرة، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئاً فشيئاً معنى، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول.

(٣) تقدم.

رجاع؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، وإمّا لأن الأوّاب ـ وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته ـ من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه. وقيل: الضمير لله، أي: كل من داود والجبال والطير لله أوّاب، أي مسبح مرجع للتسبيح. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوّيناه، قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥] وقرئ: و«شدَّدنا» على المبالغة. قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم[1] يحرسونه (١٣١٦) وقيل: الذي شدّ الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة، أنّ رجلاً ادّعى عنده على آخر بقرة، وعجز عن إقامة البينة، فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدّعى عليه، فقال: هذا منام، فأعيد الوحي في اليقظة، فأعلم الرجل، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة، فقتله، فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه، فقتله، فهابوه (١٣١٧). ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة. الفصل: التمييز بين الشيئين. وقيل للكلام البين: فصل، بمعنى المفصول كضرب الأمير؛ لأنهم قالوا: كلام ملتبس، وفي كلامه لبس. والملتبس: المختلط، فقيل في نقيضه: فصل، أي: مفصول بعضه من بعض، فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه: أن لا يخطىء صاحبه مظانّ الفصل والوصل، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤] إلا موصولاً بما بعده، ولا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ﴾ حتى يصله بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ونحو ذلك، وكذلك مظانّ العطف وتركه، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل، كالصوم والزور، وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه في القضايا والحكومات، وتدابير الملك والمشورات. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قوله: البينة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه. وهو من الفصل بين الحق والباطل، ويدخل فيه قول بعضهم: هو قوله: «أمّا بعد»؛ لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه: فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أمّا بعد. ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع

١٣١٦ ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٥٨٦) عن السدي وابن جرير الطبري (١٠/٥٦٣)، حديث (٢٩٨١٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦٣) وعزاه لهما عن السدي.

١٣١٧ ـ أخرجه الطبري (١٠/٥٦٣)، حديث (٢٩٨١١).

---

(١) قوله: «مستلئم» أي: لابس اللأمة، وهي الدرع، أفاده الصحاح. (ع).

مملّ. ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ: فصل لا نذر ولا هذر (١٣١٨).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أنّ عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا، فأحبّها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يردّه ففعل، فتزوجها وهي أمّ سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود، فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن/ ٢/ ٣٥ب، مع كثرة نسائه. وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إنّ آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها؛ قد ابتلي إبراهيم بنمروذ وذبح ولده، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه: إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا، فاحترس، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فمدّ يده ليأخذها لابن له صغير، فطارت، فامتدّ إليها، فطارت فوقعت في كوّة، فتبعها، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها، وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء[1]، فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء. أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد، ففتح الله على يده وسلم، فأمر بردّه مرة أخرى، وثالثة، حتى قتل، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء، وتزوج امرأته (١٣١٩). فهذا ونحوه مما يقبح أن

١٣١٨ ـ تقدم في سورة الأعراف، وقال الحافظ: هو حديث أم معبد، وقد تقدم في سورة الأعراف، وفي الأدب لأبي داود من حديث عائشة «كان كلام رسول الله ﷺ فصلاً يفهمه من سمعه. انتهى.

١٣١٩ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥٧٠)، حديث (٢٩٨٥٢) عن ابن عباس وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٦٦) وعزاه للطبري عن ابن عباس بمعناه.

---

(١) قوله: «من غزاة البلقاء» في الصحاح: مدينة بالشام. (ع).

يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين[1] فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء (١٣٢٠). وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس. والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلاّ طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. فإن قلت: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به، كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة بأن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه، وذلك أزجر له؛ لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياساً لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة. فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ قلت: ليحكم بما حكم به من قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤] حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعترفاً على نفسه بظلمه. ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه، والخصم: الخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع، كالضيف. قال الله تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]؛ لأنه مصدر في أصله، تقول: خصمه خصماً؛ كما تقول: ضافه ضيفاً. فإن قلت: هذا جمع. وقوله: «خصمان» تثنية، فكيف استقام ذلك؟ قلت: معنى خصمان: فريقان خصمان، والدليل عليه قراءة من قرأ: خصمان بغى بعضهم على بعض، ونحوه قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ [ص: ٢٣]

١٣٢٠ ـ ذكره الزيلعي (٣/ ١٨٨)، حديث (١١٠١)، وقال الحافظ لم أجده.

---

(١) قوله: «من أفناء المسلمين» في الصحاح: يقال: هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو. وعبارة النسفي بدل قوله: فهذا ونحوه... إلخ: فلا يليق من المتسمين... إلخ. (ع).

وهو دليل على اثنين؟ قلت: هذا قول البعض، المراد بقوله: بعضنا على بعض. فإن قلت: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان. قلت: معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون. فإن قلت: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله: ﴿نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾ و ﴿خَصْمَانِ﴾؟ قلت: لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به. فإن قلت: بم انتصب (إذ)؟ قلت: لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك، أو بالنبأ، أو بمحذوف، فلا يسوغ انتصابه بأتاك؛ لأنّ إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود، ولا بالنبأ؛ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصحّ إتيانه رسول الله ﷺ. وإن أردت بالنبأ: القصة في نفسها لم يكن ناصباً، فبقي أن ينتصب بمحذوف، وتقديره: وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم. ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل، وأما إذ الثانية فبدل من الأولى. ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية: تسنمه، إذ علا سنامه، وتذرّاه: إذا علا ذروته. روي: أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس فتسوّرا عليه المحراب، فلم يشعر إلاّ وهما بين يديه جالسان ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً يجمع ٢/١٣٦أ بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم؛ فجاءوه في غير يوم القضاء ففزع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن خصمان. ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجر. وقرئ: «ولا تشطط»، أي: ولا تبعد عن الحق. وقرئ: ولا تشطط، ولا تشاطط، وكلها في معنى الشطط: وهو مجاوزة الحدّ وتخطي الحق. و ﴿سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وسطه ومحجته، ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَخِي﴾ بدل من هذا، أو خبر لـ «إنّ»، والمراد أخوّة الدين، وأخوّة الصداقة والألفة، أو أخوّة الشركة والخلطة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤] كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم. وقرئ: «تسع وتسعون»، بفتح التاء. ونعجة، بكسر النون، وهذا من اختلاف اللغات، نحو نطع ونطع، ولَقْوَة ولِقْوَة.[1]

---

(١) قوله: «نحو نطع ونطع، ولقوة ولقوة» في الصحاح: «النطع» فيه أربع لغات. وفيه «اللقوة»: داء في الوجه، والناقة السريعة اللقاح، والعقاب: الأنثى، واللقوة ـ بالكسر ـ: مثله. (ع).

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملكنيها. وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. ﴿وَعَزَّنِى﴾ وغلبني، يقال: عزّه يعزّه. قال [من الوافر]:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ[1]

يريد: جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردّه به. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد: خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة فغلبني؛ حيث زوّجها دوني. وقرئ: «وعازني» من المعازة وهي المغالبة. وقرأ أبو حيوة: «وعزني» بتخفيف الزاي طلباً للخفة، وهو تخفيف غريب، وكأنه قاسه على نحو: ظلت، ومست. فإن قلت: ما معنى ذكر النعاج؟ قلت: كأن تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً؛ لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ؛ لما ذكرنا، وللتنبيه على أنه أمر يستحيا من كشفه، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته، ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده، والدليل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ [ص: ٢٤] وإنما خصّ هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة. فإن قلت: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال، فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم. قلت: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله [من الكامل]:

يَا شَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... .[2]

* * *

---

(١) كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

لقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية، وقطاة: خبر كأن، وعزها: بمهملة فمعجمة، بمعنى: غلبها وحبسها، يقال: عز يعز بالكسر: تعظم، وبالفتح: قوي. وعزه يعزه ـ بالضم ـ: غلبه، وما هنا من الثالث: شبه قلبه حين سمع برحيلها بحمامة أمسك الشرك جناحها في كثرة الخفقان والاضطراب.

(٢) يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت عليّ وليتها لم تحرم

لعنترة من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها؛ فلذلك حرمت عليه. وقيل: كان تزوجها أبوه فحرمت عليه، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والنفرة عن الرجال، وأن كلا يصطاد بالاحتيال على طريق الاستعارة التصريحية، وذكر القنص ترشيح؛ لأنه يلائم الشاة، وما زائدة، أي يا شاة القنص تعالي، فهذا وقت التفكر في شأنك. وقيل: المنادى محذوف، أي: يا قوم أحضروا شاة قنص، وتعجبوا من حالها، والقنص: الصيد. والقنص ـ بالتحريك ـ والقنيص: المصيد. ويروى: يا شاة من قنص، فقيل: من زائدة، بناء على مذهب الكوفيين، من جواز زيادة =

[من الكامل]:

فَـرَمَـيْـتُ غَـفْـلَـةَ عَـيْـنِـهِ عَـنْ شَـاتِـهِ ....[1]

وشبهها بالنعجة من قال [من الخفيف]:

.... كَـنِـعَـاجِ الْـفَـلاَ تَـعَـسَّـفْـنَ رَمْـلاً[2]

= الأسماء. وقيل: نكرة موصوفة. وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر، أي يا شاة إنسان قانص. ولمن حلت: متعلق بمحذوف صفة لها، وحرمت عليّ: التفات على القول بندائها، وهو صفة لها، أو استئناف بيَّن به شأنها، وتمنى عدم حرمتها: ندم على ما وقع من سبب الحرمة.

ينظر ديوانه ص ٢١٣، والأزهية ص ٧٩، ١٠٣، ولسان العرب (شوه)، وخزانة الأدب ٦/ ١٣٠، ١٣٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٨١، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ١٢، والأشباه والنظائر ٤/ ٣٠٠، وخزانة الأدب ١/ ٣٢٩، والمغني ١/ ٣٢٩، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢/ ٤٥٨، والضرائر لابن عصفور ٨١، وارتشاف الضرب ١/ ٥٤٦، والدرر ١/ ١١٠.

(١) قـد كـنـت رائـدهـا وشـاة مـحـاذر ... حـذر يـقـل بـعـيـنـه إغـفـالـهـا

فـظـلـلـت أرعـاهـا وظـل يـحـوطـهـا ... حـتـى دنـوت إذا الـظـلام دنـا لـهـا

فـرمـيـت غـفـلـة عـيـنـه عـن شـاتـه ... فـأصـبـت حـبـة قـلـبـهـا وطـحـالـهـا

للأعشى. وقيل: لعمر بن أبي ربيعة. وضمير رائدها مرجعه في البيت قبله كامرأة أو مفازة، ثم قال: ورب شاة رجل محاذر، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية. والمحاذر: الذي يحاذر غيره ويخاف مكره. والحذر: كثير الحذر مستمره، يقل: بضم أوله، من أقل الرباعي. وإغفالها، أي: إغفال عينه. فظللت أراقب الشاة وظل هو يحفظها، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته التي كان يحفظها، وفيه نوع تهكم به، وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص؛ لأنها المذكورة أولاً، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر، ولأن القلب لا يغفل عنها لعزتها عنده، بل يذكرها في النوم. وأما العين فتغفل، فأصبت حبة قلبها أي وسطه، وأصبت طحالها، والرمي ترشيح للاستعارة؛ لأنه من ملائمات الشاة. ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية؛ حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة أحشاء المرأة بالحب، بحال من ظفر برمي الشاة بالسهم على غفلة من الراعي، بل يصبح أن يكون قوله: وشاة محاذر... إلى آخر الأبيات: استعارة تمثيلية لتلك الحال، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا.

ينظر ديوانه (ص ٧٧)، لسان العرب (حبب)، (شوه)، كتاب العين /٣/ ٣١)، بلا نسبة في تهذيب اللغة (٤/ ٨)، تاج العروس (حبب)، أساس البلاغة (حبب).

(٢) قـلـت إذ أقـبـلـت وزهـر تـهـادى ... كـنـعـاج الـفـلا تـعـسـفـن رمـلا

وتـنـقـبـن بـالـحـريـر وأبـديـن ... حـور الـمـداعـج نـجـلا

لعمر بن أبي ربيعة. وزهر: عطف على ضمير الفاعل المتصل، ومجيئه بلا فصل قليل. وتهادى: أصله تتهادى، حذف منه إحدى التاءين، وهو صفة زهر. وشبههن بالنعاج الوحشية في حسن المشية وسعة العيون وسوادها. والزهر: جمع زهراء، أي: بيضاء، والفلا: القفر الخالي. والتعسف: الميل عن سواء السبيل، وهو حال من النعاج. ورملا: نصب على نزع الخافض، أي: تمايلن في رمل. وتنقبت المرأة: لبست النقاب. وحور: جمع حوراء، أي: صافيات، والمداعج: الحدقات، من الدعج وهو اتساع سواد العين. والنجل: جمع نجلاء، أي: واسعات. =

لولا أنّ الخلطاء تأباه، إلاّ أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم[1]. فإن قلت: الملائكة عليهم السلام كيف صحّ منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قلت: هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوّروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي، كما تقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمرو له أربعون، وأنت تشير إليهما، فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد[2] وتقول أيضاً في تصويرها: لي أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها. وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها. فإن قلت: ما وجه قراءة ابن مسعود: «ولي نعجة أنثى[3]»؟ قلت: يقال لك: امرأة أنثى للحسناء الجميلة. والمعنىٰ: وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها. ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال؛ وقوله [من المتقارب]:

= في ملحق ديوانه ص ٤٩٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٠١، وشرح عمدة الحافظ ص ٦٥٨، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٧٦، واللمع ص ١٨٤، والمقاصد النحويّة ٤/ ١٦١، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٧٩، والخصائص ٢/ ٣٨٦، وشرح الأشموني ٢/ ٤٢٩، وشرح ابن عقيل ص ٥٠١، والكتاب ٢/ ٣٧٩.

(١) قال محمود: «فإن قلت: طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة، فإن كان من الخطبة فما وجهه؟ قال: الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة، كما استعاروا لها الشاة في قوله [من الكامل]:

يا شاة ما قنص لمن حلت له ....

إلاً أن لفظ الخلطاء يأباه، اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام، قال أحمد: والفرق بين التمثيل والاستعارة؛ أنه على التمثيل يكون الذي سبق إلى فهم داود عليه السلام أن التحاكم على ظاهره، وهو التخاصم في النعاج التي هي البهائم، ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله، وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما التحاكم في النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك.

(٢) قوله: «وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد» في الصحاح: ما له سبد ولا لبد، أي: لا قليل ولا كثير. والسبد: من الشعر، واللبد: من الصوف. (ع).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: فما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعجة أنثى. وأجاب بأنه يقال: امرأة أنثى للحسناء الجميلة، ومعناه: وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها. ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال، كقوله: «فتور القيام قطيع الكلام».
قال أحمد: ولكن قوله: (ولي نعجة) إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير؛ ليستجل على خصمه بالبغي لطلبه هذا القليل الحقير وعنده الجم الغفير، فكيف يليق وصف ما عنده والمراد تقليله بصفة الحسن التي توجب إقامة عذر ما لخصمه؛ ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاقتصار على ذكر النعجة، وتأكيد قلتها بقوله: (واحدة)، فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوريا الممثلة بالنعجة فيها مشهورة بالحسن، وصف مثالها في قصة الخصمين بالحسن زيادة في التطبيق؛ لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل.

فَــتُــورُ الْــقِــيَــامِ قَــطُــوعُ الــكَــلاَمِ .... [1]

وقوله [من المنسرح]:

.... تَــمْــشِــي رُوَيْــداً تَــكَــادُ تَــنْــغَــرِفُ [2]

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥)﴾

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ جواب قسم محذوف. وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه. والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها، كأنه قيل بإضافة ﴿نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ على وجه السؤال والطلب. فإن قلت: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه[3]؟ قلت: ما قال ذلك إلاّ بعد اعتراف صاحبه، ولكنه لم يحك في القرآن؛ لأنه

---

(١) فــتــور الــقــيــام قــطــوع الــكــلام ... لــعــوب الــعــشــاء إذا لــم تــنــم
تــبــذ الــنــســاء بــحــســن الــحــديــث ... ودل رخــيــم وخــلــق عــمــم
الفترة: ضعف حركة الأعضاء في العمل. فهي كثيرة الفترة في القيام. وقطوع الكلام: أي قليلته، أو كأنها لا تقدر على إتمام الألفاظ للينها واستحيائها، فكأنها تقطعها تقطيعاً، كثيرة اللعب في وقت العشاء مع زوجها، وإذا لم تنم: إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل، وهو وصف لها بالكسل الذي هو من توابع اللين والأنوثة. وبذ الرجل: إذا ساء خلقه ورث حاله، وبذه الرجل: إذا غلبه، أي تغلبهن بحسن الحديث، والدل والدلال، والتيه، والتغنيج، والتشكيل، والتكسر، والرخاوة، والرخامة، ورقة الصوت ولينه، والتمنع مع الرضاء. واعتم النبت: طال، واعتم الشيء: تم، وجسم عميم: تام، والجمع عمم، كسرير وسرر، ورجل عمم ـ بالإفراد ـ: أي تام، فالمراد أن خلقها أي جسمها تام حسن.
البيت لامرىء القيس، ينظر ديوانه (ص ١٥٧)، الأشباه والنظائر (٥/ ٢٣١).

(٢) مــا أنــس ســلــمــى غــداة تــنــصــرف ... تــمــشــي رويــداً تــكــاد تــنــغــرف
حذف ألف أنس للوزن، أي: لا أنساها، بل أتذكرها وقت انصرافها، وتمشي: بدل مما قبله. وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة. ورويداً: نصب يتمشى، أي: مشياً بتؤدة وأناة، تكاد تنغرف: أي تنقطع وتنكسر، وغرفته فانغرف: قطعته فانقطع، أو تكاد تؤخذ من الأرض، كما يغرف الماء باليد، فكأنها ماء لتنكلها وتقطعها في تبخترها. وفرس غروف: كثير الأخذ من الأرض بقوائمه.
البيت لقيس بن الخطيم، ينظر: في ديوانه ص ١٠٦، ولسان العرب (كبر)، (غرف)، وديوان الأدب ١/ ١٨٣، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٠٤، ٨/ ١٠٣، ١٠/ ٢٠٩، وتاج العروس (كبر)، (غرف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٧٩، وأساس البلاغة (خزر).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام آخر، وأجاب بأن =

معلوم. ويروى أنه قال: أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة، فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف ٢/ ١٣٦ب والجبهة، فقال: يا داود أنت أحقّ أن يضرب منك هذا وهذا، وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه و﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم، الواحد: خليط، وهي الخلطة، وقد غلبت في الماشية؛ والشافعي رحمه الله يعتبرها، فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلاّ أنّ مراحهما ومسقاهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة، فهما يزكيان زكاة الواحد، فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد. وعند أبي حنيفة: لا تعتبر الخلطة، والخليط والمنفرد عنده واحد، ففي أربعين بين خليطين؛ لا شيء عنده، وفي مائة وعشرين بين ثلاثة: ثلاث شياه. فإن قلت: فهذه الخلطة ما تقول فيها؟ قلت: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله، وعند أبي حنيفة لا شيء عليه، فإن قلت: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قلت: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكرّه إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسف على حالهم، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه، وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة. وقرئ: «ليبغي» بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة، وحذفها كقوله [من المنسرح]:

إِضْـرِبَ عَـنْـكَ الْـهُـمُـومَ طَـارِقَـهَـا ....[1]

وهو جواب قسم محذوف. وليبغ: بحذف الياء، اكتفاء منها بالكسرة، و (ما) في

= ذلك كان بعد اعتراف خصمه، ولكنه لم يحك في القرآن؛ لأنه معلوم، قال أحمد: ويحتمل أن يكون ذلك من داود على سبيل الفرض والتقدير، أي: إن صح ذلك فقد ظلمك.

(١) إضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

لطرفة بن العبد، وقال أبو حاتم وابن بري: هو مصنوع عليه. واضرب فعل أمر بنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة تقديراً، وحذفها لغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل. وقيل: ضرورة، كما هنا. والمعنى: ادفع عنك الهموم، فهو استعارة مصرحة. وضربك بالسوط، أي: كضربك به ترشيح، وطارقها: بدل من الهموم، أي الفاشي لك منها، والسوط: معمول من جلد تساق به الفرس. ويروى: بالسيف، لكنه غير ملائم للفرس، بل للفارس، وقونسها: أعلى رأسها. وقيل: شعر عنقها. ويجوز تشبيه الهموم بحيوان يصح ضربه على طريق المكنية. والضرب تخييل، والطروق ترشيح.

ينظر: النوادر (١٦٥)، الخصائص (١/ ١٢٦)، الممتع (١/ ٣٢٣) شرح المفصل لابن يعيش (٩/ ٤٤)، الدر المصون (٦/ ٩١).

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ للإبهام. وفيه تعجب من قلتهم. وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها، من قول امرىء القيس [من المديد]:

.... وَحَـدِيـثٌ مَـا عَـلَـى قِـصَـرِهْ[(1)]

وانظر هل بقي له معنى قط، لما كان الظنّ الغالب يداني العلم، استعير له. ومعناه: وعلم داود وأيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا، هل يثبت أو يزل؟ وقرئ: «فتناه» بالتشديد للمبالغة. وأفتناه، من قوله [من الطويل]:

لَئِنْ فَتَنَتْنِي لَهْيَ بِالأَمْسِ أَفْتَنَتْ .... [(2)]

وفتناه وفتناه، على أن الألف ضمير الملكين. وعبر بالراكع عن الساجد؛ لأنه ينحني ويخضع كالساجد. وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أنّ الركوع يقوم مقام السجود. وعن الحسن: لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع، ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة، فيكون المعنى: وخرّ للسجود راكعاً أي: مصلياً؛ لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة، ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل. وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلاّ لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه، ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع (١٣٢١)، وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك، واشتغل

١٣٢١ ـ أخرجه الطبري (١٠/ ٥٧٤)، حديث (٢٩٨٥٨)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٧٠) وعزاه لعبد الله بن أحمد والطبري عن مجاهد.

---

(١) تقدم.

(٢) لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت ... سعيداً فأمسى قد قلى كل مسلم
وألقى مصابيح القراءة واشترى ... وصال الغواني بالكتاب المنمنم

للأعشى الهمداني. وفتنته المرأة ـ بالتخفيف والتشديد ـ وأفتنته: دلهته وحيرته. و«لهي بالأمس أفتنت» جواب القسم المدلول عليه باللام في قوله: لئن فتنتني. وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم. والمعنى: إن فتنتني فلا أحزن ولا أتعجب، فإن تلك عادتها من قبل، فالمراد بالأمس: الزمن الماضي. وسعيد: هو ابن جبير، كان عالماً تقيًّا. وقلى كل مسلم، أي: بغض كل مسلم سواها. وعبر بالمسلم؛ لأنه يبعد بغضه. والمصابيح: يجوز أنها حقيقة، وأنها مجاز عن الكتب. والغواني: الجميلات. والمنمنم: المحسن بنقوش الكتابة.

ينظر: لسان العرب (فتن)، والمخصّص ٤/ ٦٢، وتاج العروس (فتن)، ولابن قيس الرقيات في الخصائص ٣/ ٣١٥، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (فتن)، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٨٩، وجمهرة اللغة ص ٤٠٦، ومقاييس اللغة ٤/ ٤٧٣، وديوان الأدب ٢/ ٣٣٤، وكتاب العين ٨/ ١٢٨.

بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له: إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل، فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها (١٣٢٢). وقيل: إنّ الخصمين كانا من الإنس، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما: إما كانا خليطين في الغنم، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري، والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة، فاستنزله عنها، وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين، وما كان ذنب داود إلاّ أنه صدّق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته[1].

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها. ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه. وجعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحقّ. وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحكم الله تعالى؛ إذ كنت خليفته ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾ هوى النفس في قضائك وغيره، مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى فيكون سبباً لضلالك ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول،

١٣٢٢ ـ أخرجه ابن جرير (١٠/ ٥٧٢)، حديث (٢٩٨٥٤)، عن عطاء الخرساني، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٧٠) وعزاه لأحمد والحكيم الترمذي والطبري عن عطاء الخرساني.

---

(١) قال محمود: «ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلاً وإنما كانت من البشر، إما خليطين في الغنم حقيقة، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسرارى، والثاني معسراً وما له إلاّ امرأة واحدة، فاستنزله عنها، وفزع داود وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء، وما كان ذنب داود إلاّ أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسألته، قال أحمد: مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه؛ لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب، وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلاّ والذي صدر منه أولاً وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: داود وغيره ـ منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب مُبَرّءون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال سذه القصة، وهذا هو الحق الأبلج، والسبيل الأبهج، إن شاء الله تعالى.

وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها، و ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ متعلق بنسوا، أي: بنسيانهم يوم الحساب، أو بقوله: (لهم)، أي: لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله. وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية. فقال: يا أمير المؤمنين، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿بَٰطِلًا﴾ أي خلقاً باطلاً، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة. أو مبطلين عابثين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ١٣٧/٢أ [الدخان: ٣٩] وتقديره: ذوي باطل أو عبثاً، فوضع باطلاً موضعه، كما وضعوا هنيئاً موضع المصدر، وهو صفة، أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المبين، وهو أن خلقناها نفوساً[1] أودعناها العقل والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً، والظنّ: بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرّين بأن الله خالق السمٰوات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة؟ قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جُعِلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأنّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقاً كلا إقرار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سوّى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) قوله: «وهو أن خلقناها نفوسا» عبارة النسفي: وهو أنا خلقنا نفوساً.

وقرئ: «مباركاً»، وليتدبروا: على الأصل، ولتدبروا: على الخطاب. وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل[1]، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة[2]، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

وقرئ: «نعم العبد» على الأصل[3]، والمخصوص بالمدح محذوف. وعلل كونه ممدوحاً بكونه أوّاباً رجاعاً إليه بالتوبة. أو مسبحاً مؤوّباً للتسبيح مرجعاً له: لأن كل مؤوّب أوّاب. والصافن: الذي في قوله [من الكامل]:

أَلِـفَ الـصّـفُـونَ فَـمَـا يَـزَالُ كَـأَنّـهُ ... مِـمَّـا يَـقُـومُ عَـلَـى الـثَّـلاَثِ كَـسِـيـرا[4]

---

(١) قوله: «لم يحل منه بكثير طائل» في الصحاح: قولهم: «لم يحل منه بطائل» أي: لم يستفد منه كبير فائدة. وفيه: اللقح ـ بالكسر ـ: الإبل بأعيانها، الواحدة لقوح، وهي الحلوب، مثل: قلوص وقلاص: واللقحة: اللقوح، والجمع لقح مثل قربة قرب، وفيه: ناقة درور، أي: كثيرة اللبن. وفيه: النثور، أي: كثيرة الولد.

(٢) قوله: «ولا الوزعة»، جمع وازع، وهو الذي يكف عن الضرر، والذي يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع).

(٣) قوله: «قرئ نعم العبد على الأصل» لعله بفتح النون وكسر العين. كما يفيده الصحاح. (ع).

(٤) لامرىء القيس. وقيل: للعجاج يصف فرساً. والصفون ـ بالمهملة ـ: الوقوف على سنبك يد أو رجل. والسنبك: طرف حافر الفرس. والصفون ـ بالمعجمة ـ: الجمع بين اليدين في الوقوف، ومما يقوم: خبر كأن، أي: أحب الصفون، كأنه من الجنس الذي يقوم على ثلاث قوائم، أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كخلق الإنسان من عجل، حال كونه مكسور القائمة الرابعة، أو كاسرها أي ثانيها، فما موصولة أو مصدرية. وكسيراً: حال، والجملة: خبر يزال، وهذا ما استقر عليه رأي ابن الحاجب في الأمالي بعد كلام طويل، ولو جعلت ما مصدرية، وكسيراً: خبر كأن، كان حقه الرفع، ولو جعلته خبر يزال كما اختاره ابن هشام، لكان المعنى: فلا يزال كسيراً، كأنه مما يقوم =

وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل: هو المتخيم. وأما الصافن: فالذي يجمع بين يديه. وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفوفاً فليتبوّأ مقعده من النار» (١٣٢٣) أي: واقفين كما خدم الجبابرة. فإن قلت: ما معنى وصفها بالصفون؟ قلت: الصفون لا يكاد يكون في الهجن، وإنما هو في العراب الخلص. وقيل: وصفها بالصفون والجودة؛ ليجمع لها بين الوصفين المحمودين: واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وروي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلى الأولى على كرسيه[1] واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي، وتهيبوه فلم يعلموه، فاغتم لما فاته، فاستردها وعقرها مقرباً[2] لله، وبقي مائة، فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها، وقيل: لما عقرها أبدله الله خيراً منها، . وهي الريح تجري بأمره. فإن قلت: ما معنى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾؟ قلت: أحببت: مضمن معنى فعل يتعدى بعن، كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي. أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن ذكر ربي. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أن «أحببت» بمعنى: لزمت من قوله [من الرجز]:

١٣٢٣ ـ أخرجه أبو داوود (٣٩٧/٤، ٣٩٨): كتاب الأدب: باب قيام الرجل للرجل، حديث (٥٢٢٩)، والترمذي (٥/ ٩٠، ٩١): كتاب الأدب: باب ما جاء من كراهية قيام الرجل للرجل (٢٧٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٣٥٧، ٣٥٨، بتحقيقنا): كتاب الاستئذان باب لا يقيم الرجل. . . ، حديث (٣٢٢٣)، والطبراني في معجمه الكبير (١٩/ ٣٢٠)، حديث (٧٢٤)، وأحاديث (٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٥٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤)، حديث (٢٥٥٨٢)، وابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٣٣٦)، حديث (٢٥٣١)، عن أبي مجلز قال خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير.
وذكره الزيلعي (٣/ ١٨٩)، حديث (١١٠٢)، وقال: غريب ـ أي بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف.
قال الحافظ: لم أجده هكذا، أو في السنن حديث معاوية «من سره أن يتمثل الناس له قياماً» وفي الغريب لأبي عبيد من حديث البراء، رضي الله عنه، كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ ـ فرفع رأسه قمنا معه صفوفاً. انتهى.

= على الثلاث، على ما مر. ويجوز أن يكون المعنى: فلا يزال كسيراً من قيامه على الثلاث، وكأنه اعتراض، وخبره محذوف، أي كأنه كسير. وفائدته الاحتراس.

ينظر: الأزهية (ص ٨٧)، أمالي ابن الحاجب (٢/ ٦٣٥)، شرح شواهد المغني (٢/ ٧٢٩)، لسان العرب (صفن)، معني اللبيب (١/ ٣١٨)، البحر المحيط (٧/ ٣٨٨)، الدر المصون (٥/ ٥٣٤).

(١) قوله: «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفي. صلى الظهر. (ع).

(٢) قوله: «وعقرها مقرباً لله» عبارة النسفي: تقربا. (ع).

وليس بذاك. والخير: المال، كقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] والمال: الخيل التي شغلته. أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها. قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» (١٣٢٤) وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وُصف لي رجل

١٣٢٤ ـ ورد عن جماعة من الصحابة: منهم، عروة البارقي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وجرير بن عبد الله، وأبي كبشة، وابن مسعود وجابر.
أما حديث عروة البارقي فأخرجه البخاري ٦/ ٦٤ في الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٨٥٠)، و(٦/٦٦)، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢)، و٦/ ٢٥٣ في فرض الخمس (٣١١٩)، ٦/ ٧٣١ في المناقب (٣٦٤٣). ومسلم ٣/ ٩٣ ١٤ في الإمارة. باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٨/ ٩٩/ ٨٧٣)، والنسائي ٦/ ٢٢٢ في الجهاد، باب فتل ناصية الفرس، وابن ماجه ٢/ ٩٢٣ في الجهاد، باب ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٦)، وأحمد ٤/ ٣٧٥، ٣٧٦، وأبو يعلى (٦٨٢٨)، والحميدي في مسنده ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ برقم (٨٤١، ٨٤٢)، والدارمي ٢/ ٢١١، ٢١٢ في الجهاد، باب فضل الخيل في سبيل الله، وسعيد بن منصور في سننه ٢/ ١٩٨ في الجهاد. باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٦) والطيالسي في الجهاد ١/ ٢٤١ برقم (١١٨٤، ١١٨٥)، والطبراني ١٧/ ١٥٥ برقم (٣٩٦ ـ ٤٠٠). والبيهقي ٦/ ١١٢ في القراض، باب المضارب يخالف بما فيه زيادة لصاحبه و٦/ ٣٢٩ في قسم الفيء، باب الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، ٩/ ٥٢ في السير. باب تفضيل الخيل و١٠/ ١٥ في كتاب السبق والرمي، باب ارتباط الخيل عدة في سبيل الله عز وجل. والطحاوي في شرح معاني الآثار =

---

(١) كيف قربت عمك القرشبا؟ ... حين أتاك لاغباً مخبا
حلت عليه بالقفيل ضربا ... تبًا لمن بالهون قد ألبا
مثل بعير السوء إذ أحبا
لأبي محمد الفقعسي. والقرشب ـ بكسر أوله وفتح ثالثه ـ: المسن، واللاغب، من اللغوب: وهو التعب. والمخب من أخبه: إذا حمله على الخبب، وهو نوع من السير. أو من أخب: إذا لزم المكان كما قيل. وحلت: أي قمت ووثبت عليه. والقفيل: السوط. وضربا: بمعنى ضاربا. أو تضربه ضرباً. والتب: الهلاك، وهو دعاء عليه، وفعله محذوف وجوباً. والهون ـ بالضم ـ: الهوان: وألب بالمكان: أقام به، ورواه الأصمعي هكذا:
كيف قربت شيخك الأذبا؟ ... لما أتاك يابسا قرشبا
قمت عليه بالقفيل ضربا ... مثل بعير السوء إذ أحبا
والذبب: كثرة الشعر وطوله. والأذب: البعير نبت على حاجبيه شعيرات، فإذا ضربته الريح نفر وهاج. وقال الجوهري: الإخباب: البروك. وهو في الإبل كالحران في الخيل.
ينظر: جمهرة اللغة ص ٣٠٨، وشرح المفصّل ١/ ٢٨، والكتاب ٣/ ٣٢٦، ولسان العرب (حبب)، (رزب)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ١٢٣، ومجالس ثعلب ١/ ٢٠٢، والمقتضب ٤/ ٩، وتاج العروس (حبب).

فرأيته إلا كان ٢/ ١٣٧ب دون ما بلغني إلا .. ..

= ١/ ٢٧٤، ٢٧٥، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٢٧ والبغوى في شرح السنة. بتحقيقنا ٥/ ٥٣٠ في السير والجهاد، باب اتخاذ الخيل للجهاد (٢٦٣٩) من طرق عنه به.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه البخاري ٦/ ٦٤ في الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، ٦/ ٧٣١ في المناقب (٣٦٤٤) ومسلم ٣/ ١٤٩٢، ١٤٩٣ في الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٦/ ١٨٧١) عن النسائي ٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ في الخيل، باب فتل ناصية الفرس.

وأما حديث جرير فأخرجه مسلم ٣/ ١٤٩٣ في الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٩٧/ ١٨٧٢)، والنسائي ٦/ ٢٢١ في الخيل، باب فتل ناصية الفرس. وأحمد ٤/ ٣٦١. والطحاوي ٣/ ٢٧٤ والبغوي في شرح السنة بتحقيقنا ٥/ ٥٣٠ برقم (٢٦٤٠) من طريق يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بأصبعه وهو يقول: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة».

وأما حديث أبي كبشة فأخرجه الطبراني ٢٢/ ٣٣٩ برقم (٨٤٩) وابن حبان (١٦٣٥ ـ موارد) والطحاوي ٢/ ٢٧٤، والحاكم ٢/ ٩١ ـ من طريق ابن وهب حدثني معاوية بن صالح. حدثني نعيم ابن زياد أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها. والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه الزيادة، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٦٢. رجاله ثقات.

وأما حديث ابن مسعود عند أبي يعلى (٥٣٩٦). قال حدثنا داود بن رشيد. حدثنا بقية بن الوليد عن علي بن علي حدثني يونس عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن مسعود قال: جاءه رجل فقال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الخيل معقود فذكره مطولاً.

وذكره الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٨٠ وقال: رواه أبو يعلى. وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس. وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث جابر فأخرجه أحمد ٣/ ٣٥٢ من طريق إبراهيم بن إسحاق وعلي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم حدثني حصين بن حرملة عن أبي مصبح عن جابر به.

وأخرجه أبو يعلى في معجم شيوخه(١٩٥) من طريق يحيى بن سعيد الأموي عن مجاهد عن الشعبي عن جابر عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥٥٧ من طريق الحسن بن سفيان حدثنا محمد بن الصباح. حدثنا علي بن ثابت عن الوازع عن أبي سلمة عن جابر.

وذكره الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٦١ وقال: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط باختصار ورجال أحمد ثقات.

وقال الحافظ في الفتح ٦/ ٦٧: روى حديث الخيل معقود في نواصيها الخير. جمع من الصحابة غير من تقدم ذكره. وهم ابن عمر وعروة وأنس وجرير وممن لم يتقدم سلمة بن نفيل ٦/ ٢١٤، وأبو هريرة عند النسائي. وعتبة بن عبد السلمي عند أبي داود (٢٥٤٢) وجابر، وأسماء بنت يزيد (٦/ ٤٥٥) وأبو ذر ٥/ ١٨١ عند أحمد وابن مسعود عند أبي يعلى وأبو كبشة عند أبي عوانة وابن =

زيد الخيل» (١٣٢٥) وسماه زيد الخير. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون: من السابق؟ فقال: رسول الله ﷺ. فقال له الرجل: أردت الخيل. فقال: وأنا أردت الخير (١٣٢٦). والتواري بالحجاب: مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك. أو المخبأة بحجابهما. والذي دلّ على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي، ولا بد للمضمر من جري ذكر أو دليل ذكر. وقيل: الضمير للصافنات، أي: حتى توارت بحجاب الليل يعني الظلام. ومن بدع التفاسير: أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فجعل يمسح مسحاً، أي: يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها، يعني: يقطعها. يقال: مسح علاوته، إذا ضرب عنقه، ومسح المسفر الكتاب[1] إذا قطع أطرافه بسيفه. وعن الحسن: كسف عراقيبها وضرب أعناقها، أراد بالكسف: القطع، ومنه: الكسف في ألقاب الزحاف في العروض. ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف. وقيل: مسحها بيده؛ استحساناً لها وإعجاباً بها. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾؟ قلت: بمحذوف، تقديره: قال ردّوها عليّ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له، كأن قائلاً قال: فماذا قال سليمان؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاءً ظاهراً، وهو اشتغال نبيّ من أنبياء الله بأمر الدنيا، حتى تفوته الصلاة عن وقتها. وقرئ: «بالسؤوق» بهمز الواو لضمتها، كما في

= حبان في صحيحيهما. وحذيفة عند البزار. وأبو أمامة وعريب، وهو بفتح المهملة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة ـ المليكي، والنعمان بن بشير وسهل بن الحنظلية عند الطبراني، وعن علي عند ابن أبي عاصم في الجهاد...»

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. انتهى.

١٣٢٥ ـ أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٣٣٧) في وفد طيء، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٤٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ٣٦ تهذيب)، وابن إسحاق (١٩٦١ ـ سيرة ابن هشام)، والحديث بلفظ ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلاَّ رأيته دون ما يقال لي منه إلاَّ زيد الخيل، وقال الحافظ: ذكره ابن إسحاق في المغازي بغير سند، والبيقهي في الدلائل من طريقه، وذكره ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له مقطوعة. انتهى.

١٣٢٦ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٩١)، حديث (١١٠٥) وعزاه لإبراهيم الحربي، وقال: رواه إبراهيم الحربي في كتابه: حدثنا ابن عائشة، عن أبي عوانة عن مغيرة. عن الشعبي قال: كان رهان فقال رجل لبلال: من سبق؟ قال: رسول الله ﷺ، قال فمن صلى؟ قال: أبو بكر، قال: إنما أعني في الخيل: قال وأنا أعني في الخير. انتهى. ذكره في باب صلى قال: والمصلي الذي يجيء على أثر السابق، قال الحافظ ابن حجر. أخرجه إبراهيم الحربي من رواية مغيرة عن الشعبي قال: كان رهان. فقال رجل لبلال: من سبق؛ قال: رسول الله ﷺ. قال: فمن صلى؟ قال: أبو بكر. قال: إنما أعني في الخيل. قال: وأنا أعني في الخير، انتهى.

---

(١) قوله: «ومسح المسفر الكتاب» الذي في الصحاح: سفرت الكتاب أسفره سفراً. وسفرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر الصبح: أي أضاء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق، فليحرر. (ع).

أدؤر. ونظيره: الغؤر، في مصدر غارت الشمس. وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق، كما قيل: مؤسى، ونظير ساق وسوق: أسد وأسد. وقرئ: «بالساق» اكتفاء بالواحد عن الجمع؛ لأمن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة. وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته: أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم ذلك، فكان يغذوه في السحابة،[1]، فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروي عن النبي ﷺ: قال سليمان: «لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهنّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» (١٣٢٧)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾. وهذا ونحوه مما لا بأس به. وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان، فالله أعلم بصحته. حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر، وأنّ بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها، وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها، فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن في ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد، فجلس عليه تائباً إلى الله متضرّعاً، وكانت له أمّ ولد يقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملكه في خاتمه،

١٣٢٧ ـ أخرجه البخاري (٦/ ١١٦، ١١٧): كتاب الجهاد والسير: باب من طلب الولد للجهاد، حديث (٢٨١٩)، وأطرافه في (٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠، ٧٤٦٩)، ومسلم (٦/ ١٣١ نووي): كتاب الأيمان: باب الاستثناء، حديث (٢٢ ـ ٢٥/ ١٦٥٤) والنسائي (٧/ ٢٦) كتاب الأيمان: باب إذا حلف فقال له رجل: إن شاء الله هل له استثناء، حديث (٣٨٤٠) وأحمد (٢/ ٢٧٥)، ٢/ ٢٢٩، ٥٠٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٤٤): كتاب الأيمان، باب من قال وأيم الله، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٨٠)، حديث (٤٣٣٧، ٤٣٣٨) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انتهى.

---

[1] قوله: «فكان يغذوه» في الصحاح: غذوت الصبي باللبن، أي ربيته به فاغتذى. (ع).

فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر ـ وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر ـ على صورة سليمان، فقال: يا أمينة خاتمي، فتختم به وجلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفف، فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين، فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة. وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلاّ فيهنّ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر، فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم، فتختم به ووقع ساجداً، ورجع إليه ملكه، وجاب صخرة لصخر[1] فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر (١٣٢٨). وقيل: لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك، والخاتم لا يقرّ في يدك، فتب إلى الله عز وجل. ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل. وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ قبيح، وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ٢/١٣٨أ ألا ترى إلى قوله: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣]، وأما السجود للصورة فلا يظن بنبيّ الله أن يأذن فيه، وإذا كان بغير علمه فلا عليه. وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ

١٣٢٨ ـ أخرجه النسائي في تفسيره (١/١٨٦) حديث (١٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال كان الذي أصاب سليمان بن داوود في سبب امرأة من أهله ـ يقال لها جرادة. . .

وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٥، ٣٦) عن ابن عباس، وقال: إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما، إن صح عنه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان. . .، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله تعالى أعلم بالصواب.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/١٩٢)، حديث (١١٠٧)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث ابن عباس. وقال ابن حجر: أخرجه النسائي في التفسير من رواية المنهال بن عمرو وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده قوي، وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس قريباً مما أورده المصنف. انتهى.

---

(١) قوله: «وجاب صخرة لصخر» أي: خرق أو قطع، أفاده الصحاح. (ع).

كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ نابٍ عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّاً ظاهراً.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

قَدَّم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم. ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ لا يتسهل ولا يكون. ومعنى ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ دوني. فإن قلت: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره؟ قلت: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوّة ووارثاً لهما، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حدّ الإعجاز؛ ليكون ذلك دليلاً على نبوّته قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ وقيل: كان ملكاً عظيماً، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وقيل: ملكاً لا أسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي، كما سلبته مرّة وأقيم مقامي غيري. ويجوز أن يقال: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. أو أراد أن يقول: ملكاً عظيماً فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ما عنده. وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد مني من قال: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ وهذا من جرأته على الله وشيطنته، كما حكي عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله؛ لأنه شرط في طاعته فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾

قرئ: «الريح» والرياح. ﴿رُخَآءً﴾ لينة طيبة لا تزعزع. وقيل: طيعة له لا تمتنع عليه. ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ حيث قصد وأراد. حكى الأصمعي عن العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا، ويقال: أصاب الله بك خيراً. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾

عطف على الريح، ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من الشياطين، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على كل داخل في حكم البدل، وهو بدل الكل من الكل، كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية، ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ، وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر، وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل؛ للتأديب والكف عن الفساد. وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع[1] (١٣٢٩). والصفد: القيد، وسمي به العطاء؛ لأنه ارتباط للمنعم عليه، ومنه قول عليّ رضي الله عنه: من برّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك. ومنه قول القائل: غلّ يداً مطلقها، وأرقّ رقبة معتقها. وقال حبيب: إنّ العطاء إسار؛ وتبعه من قال [من الطويل]:

.... وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا[2]

وفرقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده، وأصفده أعطاه، كوعده وأوعده، أي: ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عَطَآؤُنَا﴾ بغير حساب، يعني: جمًّا كثيراً لا يكاد يقدر على حسبه وحصره؛ ﴿فَٱمْنُنْ﴾ من المنة وهي العطاء، أي: فأعط منه ما شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ مفوّضاً إليك التصرف فيه. وفي قراءة ابن مسعود: (هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب) أو هذا التسخير عطاؤنا، فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب، أي لا حساب عليك في ذلك.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

١٣٢٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٨٥) حديث (٢٩٩٢٨) بلفظ تجمع اليدين إلى عنقه. عن السدي.

---

(١) قوله: «في الجوامع» في الصحاح؛ «الجامعة»: الغل؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. (ع).

(٢) وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

للمتنبي، يقول: تركت سير الليل وراء ظهري، أي: بالغت في تركه لمن قل ماله؛ لأنه لا زال يبتغيه، واكتفيت بنعمتك العظمى، وشبه الآمال التي امتدت إليه وبلغت مناها، بأفراس منعلة بالذهب على طريق التصريحية، والأنعال ترشيح. ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة، واستعار التقييد للمنع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه. ويجوز أنه شبه نفسه بحيوان، والتقييد: تخييل. والذرا ـ بالفتح ـ: كل ما ستر الشيء، يقال: أنا في ظل الجبل وفي ذراه، أو في ظل فلان وفي ذراه، أي: في كنفه وحماه، ومحبة: مفعول لأجله، وشبه الإحسان بالقيد؛ لأنه سبب استملاك النفس.

﴿أَيُّوبَ﴾ عطف بيان. و ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال منه. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأني مسني: حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال بأنه مسّه؛ لأنه غائب. وقرئ: «بنصب» بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما، وضمهما، فالنصب والنصب: كالرشد الرشد، والنصب: على أصل المصدر، والنصب: تثقيل نصب، والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة. والعذاب: الألم، يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب[1]. وقيل: ٢/١٣٨ب الضرّ في البدن، والعذاب في ذهاب الأهل والمال. فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟ قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين، فارتد أحدهم، فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان: إنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه أنّ رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه (١٣٣٠). وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر، فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله. ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب عليه السلام، أي: اضرب برجلك الأرض. وعن قتادة: هي أرض الجابية[2] فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه؛ فيبرأ باطنك وظاهرك، وتنقلب ما بك قلبة[3]. وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله، وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ﴾ مفعول لهما، والمعنى: أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير

١٢٣٠ ـ ذكره السيوطي في الدر (٥٨٩/٤)، وعزاه لابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، بلفظ: إنما كان، ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤه عنه فلم يعنه، ولم يأمر بمعروف وينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله.

---

(١) قوله: «من أنواع الوصب»، في الصحاح: «الوصب»: المرض. (ع).

(٢) قوله: «هي أرض الجابية» مدينة بالشام، كما في الصحاح. (ع).

(٣) قوله: «وتنقلب ما بك قلبة»، في الصحاح: «القلاب» داء يأخذ البعير. وقولهم: ما به قلبة، أي: ليست به علة. (ع).

أولي الألباب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم. ﴿وَخُذْ﴾ معطوف على اركض. والضغث: الحزمة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك. وعن ابن عباس: قبضة من الشجر، كان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برئ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها، وهذه الرخصة باقية. وعن النبي ﷺ: أنه أتي بمخدج[1]، وقد خبث بأمة، فقال: «خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» (١٣٣١) ويجب أن يصيب

١٣٣١ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ١٦١)، كتاب الحدود: باب إقامة الحد على المريض، حديث (٤٤٧٢). أنه أخبره بعض أصحاب رسول الله. . . والنسائي في الكبرى (٤/ ٣١٢، ٣١٣): كتاب الرجم: باب الضرير في الخلقة يصيب الحدود، حديث (٧٣٠٧، ٧٣٠٨).
والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٠): كتاب الحدود: باب الضرير في خلقته لا من مرض يصيب الحد بلفظ «أن رجلاً» وأخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٧٧)، حديث (٥٥٦٨)، (٥٥٦٥، ٥٥٨٧) عن سهل بن حنيف.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٥) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال رجاله ثقات.
وأخرجه البغوى في شرح السنن (٥/ ٤٧٤)، حديث (٢٥٨٤) بتحقيقنا، والشافعي في مسنده (٢/ ٨٠)، حديث (٢٥٨) والدارقطني (٣/ ١٠٠)، حديث (٦٧) عن أبي أمامة عن ابن سهل بن حنيف وله شاهد من حديث عن سعد بن عبادة.
أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٥٩): كتاب الحدود: باب الكبير والمريض يجب عليه الحد، حديث (٢٥٧٤)، وقال البوصيري في الزوائد: مدار الإسناد على محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة وأحمد في المسند (٥/ ٢٢٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٠): كتاب الحدود: باب الضرير في خلقته لا من مرض تصيب الحد، والطبراني في الكبير (٦/ ٦٣)، حديث (٥٥٢١)، وأخرجه البغوى في شرح السنة (٥/ ٤٧٥)، حديث (٢٥٨٥) بتحقيقنا.
وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٥) عن أبي سعيد وعزاه للطبراني وقال رجاله رجال الصحيح، وعن سهل بن سعد الساعدي وقال رواه النسائي باختصار، والطبراني وفيه أبو بكر بن أبي سبر، وهو متروك.
وحديث أبي سعيد أخرجه الدارقطني (٣/ ١٠٠)، حديث (٦٦) وذكره الزيلعى (٣/ ١٩٤)، حديث (١١٠٨) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة والبزار وإسحاق بن راهوية.
وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٩٢) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير عن أبي إمامة.
وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني وابن عساكر من طريق ابن أمامة عن سعيد بن عبادة.
وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن ثوبان وعزاه للطبراني عن سهل بن سعد.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والبزار، والطبراني من رواية أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن عبادة. قال: «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج، فلم يرع الحي إلاّ وهو على أمة من إمائهم يخبث بها ـ الحديث». قال البزار: لم يرد إلاّ هذا، =

---

(١) قوله: «إنه أتى بمخدج» الخداج: النقصان، وأخدجت الناقة: إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج، والولد مخدج، كذا في الصحاح. (ع).

المضروب كل واحد من المائة، إمّا أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب، وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام. وقيل: قال لها الشيطان: اسجدي لي سجدة فأردّ عليكم مالكم وأولادكم، فهمت بذلك فأدركتها العصمة، فذكرت ذلك له، فحلف. وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برئ، فعرضت له بذلك. وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق، ﴿وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ علمناه صابراً. فإن قلت: كيف وجده صابراً وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟ قلت: الشكوى إلى الله عزّ وعلا لا تسمى جزعاً، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابراً مع تمني العافية وطلب الشفاء، فليسم صابراً، مع اللَّجْء إلى الله تعالى، والدعاء بكشف ما به، ومع التعالج ومشاورة الأطباء، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة؛ حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبيًّا لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلاّ القلب واللسان. ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يهبني ما ملكت يميني[1]، ولم آكل إلاّ ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان؛ فكشف الله عنه.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف بيان لعبادنا. ومن قرأ: «عبدنا» جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على عبدنا، وهي إسحاق ويعقوب، كقراءة ابن عباس: «وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق». ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمال جذماً لا أيدي لهم، وعلى ٢/ ١٣٩أ ذلك ورد قوله عزّ وعلا: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى

= واختلف في إسناده. فقيل هكذا. وقيل عن أبي الزناد عن أبي أمامة مرسلاً، ورواه أبو داود من وجه آخر عن أبي أمامة أنه أخبره بعض أصحاب النبي ـ ﷺ. انتهى.

---

(١) قوله: «ولم يهبني ما ملكت يميني» أي: لم ينشطني ولم يهيجني، من هبت الريح: أي هاجت، وهب البعير: أي نشط، كما في الصحاح. (ع).

﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات، ولا يستبصرون ـ في حكم الزمني الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما. وقرئ: «أولي الأيادي» على جمع الجمع. وفي قراءة ابن مسعود: «أولي الأيد» على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة. وتفسيره بالأيد ـ من التأييد ـ قلق غير متمكن. ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ جعلناهم لنا مخلصين ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها «بذكرى الدار» شهادة بذكرىٰ الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها. وقرئ: على الإضافة. والمعنى: بما خلص من ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمّ آخر، إنما همهم ذكرى الدار لا غير. ومعنى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾: ذكراهم الآخرة دائباً، ونسيانهم إليها ذكر الدنيا. أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها، وتزهيدهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء وديدنهم. وقيل: ذكرى الدار. الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم. فإن قلت: ما معنى ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾؟ قلت: معناه: أخلصناهم بسبب هذه الخصلة، وبأنهم من أهلها. أو أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللطف بهم في اختيارها. وتعضد الأوّل قراءة من قرأ: «بخالصتهم». ﴿ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ أي المختارين من أبناء جنسهم. و ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ جمع خَيِّرٍ، أو خير على التخفيف؛ كأموات في جمع ميت أو ميت.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ كأن حرف التعريف دخل على يسع. وقرئ: «والليسع»، كأن حرف التعريف دخل على ليسع، فيعل من اللسع. والتنوين في ﴿وَكُلّٞ﴾ عوض من المضاف إليه، ومعناه: وكلهم من الأخيار.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ أي: هذا نوع من الذكر وهو القرآن. لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه، وهو باب من أبواب التنزيل، ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها[1]. قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كما يقول الجاحظ في كتبه:

---

(١) قال محمود: «إنما قال: هذا ذكر ليذكر عقبه ذكراً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر.» قال أحمد: وكما ما يقول الفقيه ـ إذا ذكر أدلة =

فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه: أنه لما أتمّ ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار. قال: ﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ﴾ وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذا ذكر من مضى من الأنبياء. ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ معرفة لقوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [مريم: ٦١] وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب. و ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال، والعامل فيها ما في (للمتقين) من معنى الفعل. وفي ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ضمير الجنات، والأبواب بدل من الضمير، تقديره: مفتحة هي الأبواب، كقولهم: ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال. وقرئ: «جنات عدن مفتحة» بالرفع، على أن جنات عدن مبتدأ، ومفتحة خبره. أو كلاهما خبر مبتدإٍ محذوف، أي هو «جنات عدن» هي مفتحة لهم؛ كأن اللّدات سمين أتراباً؛ لأن التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سنّ واحدة؛ لأنّ التحاب بين الأقران أثبت. وقيل: هنّ أتراب لأزواجهنّ، أسنانهنّ كأسنانهم.

﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قرئ: «يوعدون» بالتاء والياء ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأجل يوم الحساب، كما تقول: هذا ما تدخرونه ليوم الحساب، أي: ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

﴿هَـٰذَا﴾ أي الأمر هذا، أو هذا كما ذكر. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم، أي: هذا حميم فليذوقوه. أو العذاب هذا فليذوقوه، ثم ابتدأ فقال: هو ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أو: هذا فليذوقوه بمنزلة ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه، والغساق ـ بالتخفيف والتشديد ـ: ما يغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين، إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده. وقيل: لو قطرت منه

= المسألة عند تمام الدليل الأول ـ: هذا دليل ثان كذا وكذا إلى آخر ما في نفسه، ويدل عليه أنه عند انقضاء ذكر أهل الجنة قال: (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فذكر أهل النار.

قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق. وعن الحسن رضي الله عنه. الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة. ﴿وَءَاخَرُ﴾ ٢/١٣٩ب ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناس. وقرئ: «وآخر» أي: وعذاب آخر. أو مذوق آخر. وأزواج: صفة لآخر؛ لأنه يجوز أن يكون ضروباً، أو صفة للثلاثة وهي: حميم، وغساق، وآخر من شكله. وقرئ: «من شكله» بالكسر[1] وهي لغة. وأما الغنج[2] فبالكسر لا غير. ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم وقرانكم، والاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة: الشدة. وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب. ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً: أو رحبت بلادك رحباً، ثم تدخل عليه «لا» في دعاء السوء. و ﴿بِهِمْ﴾ بيان للمدعو عليهم. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم. ونحوه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقيل: هذا فوج مقتحم معكم: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم. و ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ كلام الرؤساء. وقيل: هذا كله كلام الخزنة ﴿وَقَالُوا﴾ أي الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يريدون: الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقّ به، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم. فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلت: المقدم هو عمل السوء. قال الله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠ ـ ٥١] ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه، قيل: أنتم قدمتموه لنا، فجعل الرؤساء هم المقدمين، وجعل الجزاء هو المقدّم، فجمع بين مجازين؛ لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤساؤهم، والعمل هو المقدم لا جزاؤه. فإن قلت: فالذي جعل قوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ والمخاطبون ـ أعني رؤساءهم ـ لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قلت: كأنه قيل: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحقّ به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب،

---

(١) قوله: وقرئ «من شكله بالكسر، وهي لغة» أي في الشكل بمعنى المثل. (ع).

(٢) قوله: «وأما الغنج فبالكسر لا غير» في الصحاح: الغنج والغنج: الشكل، وقد غنجت الجارية وتغنجت، فهي غنجة. وفيه: الشكل ـ بالفتح ـ: المثل، وبالكسر: الدل، يقال: امرأة ذات شكل. (ع).

وهذا صحيح، كما لو زين قوم لقوم بعض المساوي فارتكبوه فقيل للمزينين: أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم؟ فقال المزين لهم للمزينين: بل أنتم أولى بالخزي منا، فلولا أنتم لم نرتكب ذلك، ﴿وَقَالُواْ﴾ هم الأتباع أيضاً ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً، ومعناه: ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين، كقوله عزّ وجلّ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[1] [الأحزاب: ٦٨] وجاء في التفسير ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ حيات وأفاعي[2].

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير للطاغين. ﴿رِجَالًا﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشراراً، ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ «رجالاً»، مثل قوله: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها[3] في الاستسخار منهم. وقوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ له وجهان من الاتصال، أحدهما: أن يتصل بقوله: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها: قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار. إلاّ أنه خفي عليهم مكانهم. والوجه الثاني: أن يتصل بـ «اتخذناهم» سخرياً، إما أن تكون أم متصلة على معنى: أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم، أم الازدراء بهم والتحقير، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم، وعن الحسن: كل ذلك قد فعلوا، اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم. وإما أن تكون منقطعة بعد مضي «أتخذناهم سخرياً» على الخبر أو الاستفهام، كقولك: إنها إبل أم شاء، وأزيد عندك أم عندك عمرو، ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته؛ لأنّ «أم» تدلّ عليها، فلا تفترق القراءتان: إثبات همزة الاستفهام وحذفها. وقيل: الضمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ لصناديد قريش، كأبي جهل

---

(١) قوله تعالى: (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً)، وقال في موضع آخر: (آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) والقصة واحدة. قال أحمد: وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شيء واحد، خلافاً لمن قال غير ذلك؛ لأنه في موضع قال: (فزده عذاباً ضعفاً) والمراد: مثل عذابه، فيكونا عذابين، وقال في موضعين (ضعفين) والمراد: ذا عذابين.

(٢) قوله: «وجاء في التفسير... إلخ» عبارة الخازن: قال ابن عباس: حيات وأفاعي. (ع).

(٣) قوله: «وتأنيب لها» أي: تعنيف ولوم. أفاده الصحاح. (ع).

والوليد وأضرابهما، والرجال: عمار وصهيب وبلال وأشباههم. وقرئ: «سخرياً» بالضم والكسر.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به، ثم بين ما هو فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾. وقرئ: بالنصب على أنه صفة لذلك، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس[1] ٢/ ١٤٠أ. فإن قلت: لم سمى ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك[2]؛ ولأنّ قول الرؤساء: لا مرحباً بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحباً بكم، من باب الخصومة، فسمي التقاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ما أنا إلا رسول ﴿مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله للمشركين، وأقول لكم: إنّ دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أن لا إله إلا الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ بلا ندّ ولا شريك ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكل شيء، وأنّ الملك والربوبية له في العالم كله وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة، وهو مع ذلك ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب من التجأ إليه. أو قل لهم: ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته، فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه، كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا فيه نظر؛ لأنهم نصوا على أن أسماء الإشارة لا توصف إلا بما فيه أل نحو «مررت» بهذا الرجل، ولا يجوز «مررت» بهذا غلام الرجل، فهذا أبعد، ولأن الصحيح أن الواقع بعد اسم الإشارة المقارن لأل إن كان مشتقاً كان صفة وإلا كان بدلاً و«تخاصم» ليس مشتقاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «إن قلت لم سمي ذلك تخاصما؟ قلت: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك؛ ولأن قول الرؤساء: لا مرحبا بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحبا بكم، من باب الخصومة» قال أحمد: هذا يحقق أن ما تقدم من قوله: (لا مرحبا بهم إنهم صالو النار) من قول المتكبرين الكفار، وقوله تعالى: (بل أنتم لا مرحبا بكم) من قول الأتباع، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم، خلافاً لمن قال: إن الأوّل من كلام خزنة جهنم، والثاني: من كلام الأتباع؛ فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين، فالتفسير الأول أمكن وأثبت.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به ـ من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له ـ نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلاّ غافل شديد الغفلة. ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبىء به عن الملأ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب، فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله. ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ أي: لأنما أنا نذير. ومعناه: ما يوحى إليّ إلا للإنذار، فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليّ إلاّ هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك، أي ما أومر إلاّ بهذا الأمر وحده، وليس إليّ غير ذلك. وقرئ: «إنما» بالكسر على الحكاية، أي: إلاّ هذا القول، وهو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين ولا أدعي شيئاً آخر[1]. وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد، وعن ابن عباس: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. فإن قلت: بم يتعلق ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؟ قلت: بمحذوف؛ لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم، و ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. فإن قلت: ما المراد بالملإ الأعلى؟ قلت: أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس؛ لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم، فإن قلت: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم وقالوا له، فأنت بين أمرين: إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم، وإما أن تقول: التقاول كان بين الله وبينهم، فقد جعلته من الملإ الأعلى. قلت: كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك، فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط، فصحّ أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس، وهم الملأ الأعلى. والمراد بالاختصام: التقاول على ما سبق.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفي تخريجه تعارضٌ؛ لأنه قال: إلاَّ هذا القول، فظاهره الجملةُ التي هي: «إنَّمَا أنَا نَذِيرٌ مبينٌ» ثم قال: وهو أنْ أقُولَ لكم: إنِّي نَذِيرٌ، فالمُقَامُ مقامَ الفاعل هو أنْ أقُولَ لَكُم وإنِّي وما بعده في موضع نصب، وعلى قوله: إلاَّ هذا القول يكون في موضع رفْع؛ فتعارضا. قُلْتُ: ولا تَعارُضَ البتَّةَ؛ لأنه تفسيرُ مَعْنًى في التقدير الثاني، وفي الأول تفسيرُ إعرابٍ، فلا تعارُضَ. انتهى. الدر المصون.

سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

فإن قلت: كيف صحّ أن يقول لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ قلت: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فَقَعُوا۟﴾ فخروا، كل: للإحاطة. وأجمعون: للاجتماع، فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجدَ، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات. فإن قلت: كيف ساغ السجود لغير الله؟ قلت: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل، إلاّ أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه، فإن قلت: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجنّ؟ قلت: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أريد: وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً؛ لأن (كان) مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيها شئت، ويجوز أن يراد: وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾: قلت: قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل في عمل ٢/ ١٤٠ب القلب: هو مما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يدين له: يداك أوكتا[(١)] وفوك نفخ. وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك. ومنه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، و: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؟ قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم، واستنكف منه أنه سجود لمخلوق، فذهب بنفسه، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق، وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار. ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب، وزلّ عنه أنّ الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه[(٢)] وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة، وهم أحقّ

---

(١) قوله: «يداك أوكتا» في الصحاح: أوكى على ما في سقائه: إذا شده بالوكاء. (ع).

(٢) قوله: «حين أمر به أعز عباده» مبني على مذهب المعتزلة: أن الملك أفضل من البشر. وعند أهل =

بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدّام أعينهم، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له؛ تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه ـ كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حري بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له؛ لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح، فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ؟ أي: ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي ـ لا شكّ في كونه مخلوقاً ـ امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة؟ فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه، وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة، وقد أمرك الله به؟ يعني: كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة، ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتباراً لسقوطه، فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى عليّ سقوطه[1]، يريد: هلا اعتبرت أمري

= السنة: البشر أفضل من الملك. (ع).

(١) قال محمود: «لما كان ذو اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه: غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغير اليدين، حتى قيل في عمل القلب: هذا مما عملت يداك. قال: ومعناه أن الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف بسببه: أنه سجود لمخلوق، مع أنه دون الساجد؛ لأن آدم من طين، وإبليس من نار، فرأى للنار فضلاً على الطين، وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر أعز عباده عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر ـ لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر، مع انحطاطه عن مراتبهم، فقيل له: ما منعك أن تسجد لهذا الذي هو مخلوق بيدي كما وقع لك، مع أنه لا شك أن في ذلك امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة؟ فذكر له العلة التي منعته من السجود، وقيل له: ما حملك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمري؟ ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتباراً لسقوطه. فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه؟ يريد: هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب» قال أحمد: إنما أطال القول هنا ليفر من معتقدين لأهل السنة تشتمل عليهما هذه الآية: أحدهما: أن اليدين من صفات الذات أثبتهما السمع، هذا مذهب أبي الحسن والقاضي، بعد إبطالهما حمل اليدين على القدرة؛ فإن قدرة الله تعالى واحدة، واليدان مذكورتان بصيغة التثنية، وأبطلا حملهما على النعمة بأن نعم الله لا تحصى، فكيف تحصر بالتثنية. وغيرهما من أهل السنة كإمام الحرمين وغيره يجوز حملهما على القدرة والنعمة، ويجيب عما ذكراه بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة، وهذا ما يحقق تفضيله على إبليس؛ إذ لم يخلق إبليس لنعمة الآخرة، وعلى أن المراد القدرة، فالتثنية تعظيم، ومثل ذلك يوجد في اللغة كثيراً. المعتقد الثاني: أن النبي أفضل من الملك، والزمخشري شديد العصبية في هذه المسألة والإنكار على من قال بذلك من أهل السنة، لا جرم أنه أجرم في بسط كلامه على آدم عليه السلام، فمثل قصته في انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره: زر بعض سقاط الحشم، فجعل سقاط حشم الملك مثالاً لآدم الذي هو عنصر الأنبياء عليهم السلام، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده، أنه أفضل من آدم؛ لكونه من نار وآدم من طين، وإنما غلطه من جهة =

وخطابي وتركت اعتبار سقوطه، وفيه: أني خلقته بيدي، فأنا أعلم بحاله، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه: من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له، ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له؟ وقيل: معنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لما خلقت بغير واسطة. وقرئ: «بيدي» كما قرئ: «بمصرخي». وقرئ: «بيدي»، على التوحيد. ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ممن علوت وفقت، فأجاب بأنه من العالين حيث ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وقيل: «أستكبرت» الآن، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين. ومعنى الهمزة: التقرير. وقرئ: «استكبرت» بحذف حرف الاستفهام؛ لأنّ أم تدلّ عليه. أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى، أي: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله؟ وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿مِنْهَا﴾ من الجنة. وقيل: من السموات. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقته، فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانيًّا. والرجيم: المرجوم. ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور والملعون؛ لأنّ من طرد رمي بالحجارة على أثره. والرجم: الرمي بالحجارة. أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب. فإن قلت: قوله: ﴿لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع؟ قلت: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [**الأعراف**: ٤٤] ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة، فكأنها انقطعت.

= أخرى. وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة، وجعل قوله تعالى: (لما خلقت بيدي) إنما ذكر تقريراً للعلة التي منعت إبليس من السجود، وهو كونه دونه، وهذا ـ نسأل الله العصمة ـ المراد منه ضد ما فهم الزمخشري، وإنما ذكر ذلك تعظيماً لمعصية إبليس؛ إذ امتنع من تعظيم من عظمه الله إذ خلقه بيده، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير منه، ويدل عليه الحديث الوارد في الشفاعة، إذ يقول له الناس عندما يقصدونه فيها: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته. فإنما يذكرون ذلك في سياق تعديد كراماته وخصائصه، لا فيما يحط منه، معاذ الله وإياه نسأل أن يعصمنا من مهاوي الهوى ومهالكه، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه، إنه ولي التوفيق، وبالإجابة حقيق.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾

فإن قلت: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم؟ قلت: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى. ويومه: اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يستقدم ولا يستأخر.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ إقسام بعزّة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾

قرئ: «فالحق والحق» منصوبين على أن الأول مقسم به كالله في [من الرجز]:

إنَّ عـلـيـك الله أن تُـبَـايِـعَـا[1]

وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ والحق أقول: اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلاّ الحق. والمراد بالحق: إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] أو الحق الذي هو نقيض الباطل: عظمه الله بإقسامه به. ومرفوعين على أنّ الأوّل مبتدأ محذوف الخبر، كقوله: (لعمرك) أي: فالحق قسمي لأملأنّ. والحق أقول، أي: أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين: على أنّ الأوّل ٢/ ١٤١أ مقسم به قد أضمر حرف قسمه، كقولك: الله لأفعلنّ. والحق أقول، أي: ولا أقول إلاّ الحق على حكاية لفظ المقسم به. ومعناه: التوكيد والتشديد. وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضاً. وهو وجه دقيق حسن. وقرئ: برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثاني، وتخريجه على ما ذكرنا، ﴿مِنكَ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم، فإن قلت: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ قلت: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في «منهم»، أو الكاف في «منك» مع «من تبعك». ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً، أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

---

(١) وبعده: «تؤخذ كرها أو تجيء طائعا»
الرجز بلا نسبة في الخزانة (٥/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٤٠٢) الكتاب (١/ ١٥٦) وشرح التصريح (١/ ١٦١)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٤٠) والمقاصد النحوية (٤/ ١٩٩) والمقتضب (٢/ ٦٣).

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن أو للوحي. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدّعياً ما ليس عندي، حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للثقلين. أوحى إليّ فأنا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم» (١٣٣٢) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وفشوه، من صحة خبره، وأنه الحق والصدق. وفيه تهديد.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير» (١٣٣٣).

١٣٣٢ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٢٧٠)، باب: في حفظ اللسان فصل في فضل السكوت عما لا يعنيه، رقم (٥٠٦٤).
من طريق أرطأة بن المنذر مقطوعاً، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٩٤) للثعلبي في تفسيره من طريق أرطأة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصلي حدثنا حيوة بن شريح عن أرطأة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل مرفوعاً به، ورواه البيهقي في الشعب في الثالث والثلاثين من رواية بقية عن أرطأة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منبه قوله. انتهى.

١٣٣٣ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٩٥) للثعلبي في تفسيره، ولابن مردويه في تفسيره في آل عمران، والحديث تقدم تخريجه بتوسع برقم (٣٤٦) وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي رضي الله عنه. انتهى.

سورة الزمر

مكية، إلاّ قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا. . .﴾ الآية، وتسمى سور الغرف، وهي خمس وسبعون آية. وقيل: ثنتان وسبعون آية [نزلت بعد سورة سبأ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف، أو خبر مبتدإٍ محذوف والجار صلة التنزيل، كما تقول: نزل من عند الله، أو غير صلة، كقولك: هذا الكتاب من فلان إلى فلان، فهو على هذا خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإٍ محذوف، تقديره: هذا تنزيل الكتاب، هذا من الله، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل، نحو: اقرأ، والزم. فإن قلت: ما المراد بالكتاب؟ قلت: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن، وعلى الثاني: أنه السورة. ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر. وقرئ: «الدين» بالرفع. وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً ـ بفتح اللام ـ كقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ والخالص والمخلص: واحد، إلاّ أن يصف الدينَ بصفة صاحبه على الإسناد المجازي. كقولهم: شعر شاعر، وأما من جعل ﴿مُخْلِصًا﴾ حالاً من العابد، و ﴿لَّهُ الدِّينَ﴾ مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك: لله الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر؛ لاطلاعه على الغيوب والأسرار، ولأنه الحقيق بذلك؛ لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة

بها. وعن قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يحتمل المتخذِين وهم الكفرة، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزّى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، فالضمير في ﴿اتَّخَذُوا﴾ على الأوّل راجع إلى الذين، وعلى الثاني إلى المشركين، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوماً، والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ في موضع الرفع على الابتداء. فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأوّل إما ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾. وعلى الثاني: أن الله يحكم بينهم. فإن قلت: فإذا كان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الخبر، فما موضع القول المضمر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال، أي: قائلين ذلك. ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محلّ، كما أنّ المبدل منه كذلك. وقرأ ابن مسعود بإظهار القول. «قالوا ما نعبدهم» وفي قراءة أبيّ: «ما نعبدكم ٢/١٤١ب إلا لتقربونا» على الخطاب، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم. وقرئ: «نعبدهم» بضم النون إتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر، والتنوين في ﴿وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٢] والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم ولأوليائهم. والمعنى: إن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها؛ حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم. واختلافهم: أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى. وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السمٰوات والأرض؟ أقرّوا وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين[1]. وقرئ: «كذاب وكذوب»، وكذبهم: قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله؛ ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصحّ؛ لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصّهم ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل

---

(١) قال محمود: «المراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا يلطف بهم، وأنه في علمه من الهالكين» قال أحمد: مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر، فإن معتقدهم أن معنى هداية الله تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه، ومعنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفاً يؤمن عنده طائعاً، خلافاً للقدرية. وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره.

ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء[1] على الله وملائكته، غالبين[2] في الكفر، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافيه، وهو أنه واحد، فلا يجوز أن يكون له صاحبة؛ لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له؛ وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقهار: غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

ثم دلّ بخلق السمٰوات والأرض، وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر، وتسخير النيرين، وجريهما لأجل مسمى، وبثّ الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب. والتكوير: اللف والليّ، يقال: كار العمامة على رأسه وكوّرها. وفيه أوجه منها: أن الليل والنهار خِلْفَة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس. ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب [من البسيط]:

تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقَيْهَا حَوَاشِيَهُ ... لَيَّ الْمُلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيجِ[3]

---

(١) قوله: «متبالغين في الافتراء» لعله: مبالغين. (ع).

(٢) قوله: «غالبين في الكفر» لعله: غالين. (ع).

(٣) وراكد الشمس أجاج نصبت له ... حواجب القوم بالمهرية العوج
إذا تنازع جالاً مجهل قذف ... أطراف مطرد بالحز منسوج
تلوي الثنايا بأحقيها حواشيه ... لي الملاء بأبواب التفاريج
كأنه والرهاة المرت يركضه ... أعراف أزهر تحت الريح منتوج

لذي الرمة يصف السراب، وراكد الشمس: ما يتساقط منها على الأرض. والأجاج: صفة مبالغة، أي: كثير الأجيج، يقال: أجت النار أجيجاً: اشتعلت، والحر: اشتد. وأج الظليم أجاً: أسرع وله حفيف. وأج الأمر: اختلط. والأج: طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام. ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير، فيجوز أنه من الأولين. ويجوز أنه منسوب للأخير؛ لأنه يشبهه، واللام للتوقيت، والقواضب: السيوف القواطع. والمهرية: الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبي قبيلة من =

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار. ومنها: أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً. فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب المصرين، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب التائبين[1]. أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فسمى الحلم عنهم: مغفرة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان[2] من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق

= اليمن، خيلها أنجب الخيل. والعوج: جمع عوجاء نوع جيد منها أيضاً. والحالان: ارتفاع الأرض وانخفاضها. والمجهل: الموضع الذي يجهله المسافر. والقذف ـ كسبب ـ: الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه. والمطرد: السراب المستوي، شبه بالخز المنسوج في الاستواء والبياض. والثنايا: العقبات. والحقو: الخصر والإزار، وشده عليه استعارة لجانب العقبة، وحواشي السراب: جوانبه، والملاء بالضم والمد: اسم جمع ملاءة وهي الجلباب. والتفراج: الباب الصغير والثوب من الديباج. والرهاة ـ جمع رهو ـ: المكان المرتفع، ويطلق على المنخفض أيضاً. وقيل: اسم موضع. والموت: القفر. والركض: ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقاً، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية. والأعراف: جمع عرف. وعرف الديك والفرس: أعلى شعر العنق، وأعرف البحر والسيل: إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف، والأزهر: السحاب الأبيض والماء الأبيض، وهو الأنسب بكونه تحت الريح؛ لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ والمنتوج: الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر، يقول: ورب راكد من الشمس، يعني السراب الشديد الحر أو السير، نصبت مستقبلا لوقته سيوف قومي مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو السراب، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلي الجلباب في أبواب التفاريج، وتلوى: يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرد وجوابها، دل عليه ما قبلها وأسند اللي للثنايا؛ لأنها سبب الالتواء، ولي الملاء: مفعول مطلق، وأعراف: خبر كأنه، والرهاة: جملة حالية، وفاعل يركض إما ضمير الآل أو ضمير الرهاة؛ لأنهما كأنهما يتضاربان. وروي: تطرده، وفاعله ضمير الرهاة جزماً؛ لأن الآل هو المطرود، وبيت الكشاف: يلوي الثنايا بأحقيها. والحقو: جمعه أحق، وأصل وزنه: أفعل.

ينظر: ديوانه ٩٩٠، ولسان العرب: (حقا)، وكتاب العين: ٣/ ٢٥٤، وجمهرة اللغة ص ٥٦٢، وتهذيب اللغة، ٥/ ١٢٤، وخزانة الأدب: ٤/ ١١٠، وتاج العروس (حقا).

(١) قال محمود: «أي لذنوب التائبين» قال أحمد: الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على ما دون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى. ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما وجه العطف بثم في قوله: (ثم جعل)؟ وأجاب بأنهما آيتان. . . إلخ» =

الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيريه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجربها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى؛ للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود. وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة، كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت، ثم شفعها ٢/ ١٤٢أ الله بزوج. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى لكم وقسم؛ لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول(١) من السماء، حيث كتب في اللوح: كل كائن يكون. وقيل: لا تعيش الأنعام إلاّ بالنبات. والنبات لا يقوم إلاّ بالماء. وقد أنزل الماء، فكأنه أنزلها. وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها. ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزوج: اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر. قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سويًّا، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف. والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة. وقيل: الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ . . . . فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه؛ لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ رحمة لهم؛ لأنه يوقعهم في الهلكة. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم وفلاحكم؛ فإذن ما كره كفركم ولا رضي شكركم إلاّ لكم ولصلاحكم(٢)، لا لأنّ منفعة ترجع إليه؛ لأنه الغني الذي لا

= قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم، وخلق حواء منه، وهو متقدم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية، فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة، على تقدير: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، يعني: شفعها بزوجها، فكانت ههنا على بابها لتراخي الوجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال محمود: «إنما جعلها منزلة؛ لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول. . . إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز: أسنمة الآبال في سحابة.

(٢) حمل الزمخشري الرضا على الإرادة، والعباد على العموم. . . إلخ» قال أحمد: إن المصر على هذا =

يجوز عليه الحاجة. ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى[1] ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام الذي أريد به الخاص، وما أراد إلاّ عبادهُ الذين عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] يريد: المعصومين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ: «يرضهُ» بضم الهاء بوصل وبغير وصل، وبسكونها. ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه. قال أبو النجم [من الرجز]:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ ... كُومَ الذُّرَى مِنْ خِوَلِ الْمُخَوِّلِ[2]

= المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين، أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغاثر العبارات، وبديع الزمان في صناعة البديع، فكيف نبا عن جادة الإجادة فهمًا، وأعار منادي الحذافة أذنًا صمًّا، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقًّا، وغطى سني مكشوف العبارة فسحقا سحقاً، أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط، لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً، ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيع البدعة: أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء، وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً، واللازم من ذلك عقلاً: تقدم المراد وهو الشكر، على الإرادة وهي الرضا، ولغة: تقدم المشروط على الشرط. والزمخشري أخص من قال: إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين، على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك، فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً، تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية ـ والله أعلم ـ: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر، فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً، ومثل هذا يقدر في قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة.

(١) قوله: «ليثبت لله تعالى... إلخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الإرادة، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: هو غيرها، فكفر الكافر مراد غير مرضى، وعند المعتزلة: غير مراد ولا مرضى. (ع).

(٢) الحمد لله الوهوب المجزل ... أعطى فلم يبخل ولم يبخل
كوم الذرى من خول المخول

الوهوب: الوهاب. والمجزل: المكثر العطاء، وبينه بقوله: أعطى السائلين فلم يبخل عليهم، ولم يبخل: مشدد مبني للمجهول، أي: لم يتهم بالبخل. وقيل: هو توكيد. ويروى بناؤه للفاعل، أي لم يجعل من أعطاهم بخلاء، بل جعلهم كرماء. وكوم الذرى: نصب بأعطى، أي: نوقاً عظيمات السنام. والكوم: جمع كوماء. والذرى: جمع ذروة. والمخول بالتشديد المعطي، وهو الله عز وجل.

ينظر لسان العرب: (بقل)، (خول)، وتهذيب اللغة: ٧/ ٥٦٤، ومجمل اللغة: ١/ ٢٨١، وأساس البلاغة: (خول)، وتاج العروس: (خول)، والطرائف الأدبية ص ٥٧.

وفي حقيقته وجهان، أحدهما: جعله خائل مال، من قولهم: هو خائل مال، وخال مال: إذا كان متعهداً له حسن القيام به، ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة (١٣٣٤). والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفي معناه قول العرب [من البسيط]:

.... إِنَّ الْـغَـنِـيَّ طَـوِيـلُ الـذَّيْـلِ مَـيَّـاسُ

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾

﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و﴿مَا﴾ بمعنى من، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل: ٣] وقرئ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتح الياء وضمها، بمعنى أنّ نتيجة جعله لله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة: قد تكون غرضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض. وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ من باب الخذلان والتخلية، كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه؛ مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه؛ لأنه لا مبالغة في الخذلان؛ لأنه أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به، ونظيره في المعنى قوله: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٩﴾

قرئ: «أمن هو قانت» بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد

١٣٣٤ ـ أخرجه البخاري (١/ ٢١٨)، كتاب العلم، باب: «ما كان النبي ﷺ يتخولهم...» رقم (٦٨)،(١/ ٢٢٠، ٢٢١)، كتاب العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، رقم (٧٠).
(١٢/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، كتاب الدعوات، باب: الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم (٦٤١١).
ومسلم (٩/ ١٧٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٨٢) ـ (٢٨٢١). والترمذي (٥/ ١٤٢)، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان، رقم (٢٨٥٥).
وأحمد (١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٦٢) رقم (٤٥٢٤) وابن حبان (١٠/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، كتاب السير، باب: الخلاقة والإمارة كلهم من طريق أبي وائل عن ابن مسعود، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح،

على إدخال ﴿أَمْ﴾ عليه. و﴿مَن﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن هو قانت كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جري ذكر الكافر قبله. وقوله بعده: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر. أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصلاة طول القنوت» (١٣٣٥)، وهو القيام فيها. ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائماً ﴿سَاجِدًا﴾ حال. وقرئ: «ساجد وقائم» على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. وقرئ: «ويحذر عذاب الآخرة». وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. ٢/١٤٢ب وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقنتون، ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون. وقيل: ونزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي. وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو[1]، فقال: هذا تمنّ وإنما الرجاء قوله، وتلا هذه الآية.

١٣٣٥ ـ أخرجه مسلم ١/ ٥٣٠ في صلاة المسافرين، باب أفضل الصلاة طول القنوت (١٦٤ ـ ١٦٥/ ٧٥٦)، والترمذي ٢/ ٢٢٩ في أبواب الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة (٣٨٧)، وابن ماجه ١/ ٤٥٦ في إقامة الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢١)، وأحمد ٣/ ٣٠٢، ٣٩١، والحميدي برقم (١٢٧٦)، والطيالسي ١/ ٢٤ برقم (٢٩)، وأبو يعلى (٢١٣١): . . . عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ، أفضل الصلاة طول القنوت».
وفي رواية سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، وقال النووي في شرح مسلم ٢/ ٤٠٦: المراد بالقنوت هنا القيام باتفاق العلماء فيما علمت وقال أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي ٢/ ١٧٨ ـ ١٧٩: تتبعت موارد القنوت فوجدتها عشرة: الطاعة، والعبادة، ودوام الطاعة: والصلاة، والقيام، وطول القيام والدعاء، والخشوع، والسكوت، وترك الالتفات، وكلها محتملة. أولاها: السكوت والخشوع والقيام. وأحدها في هذا الحديث القيام. وهو في النافلة بالليل أفضل، والسجود والركوع بالنهار أفضل.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر، ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر بلفظ «سئل أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام. انتهى».

---

(١) قال محمود: «سئل الحس عمن يتمادى على المعاصي ويرجو. . . إلخ» قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله، فإن الحسن أراد أن المتمادي على المعصية مصرًا عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنيًا، لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاءه، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة الله تعالى وحاشاه، وأما قرينه حال الزمخشري فإنها تنم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة؛ فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحّدًا =

وقرئ: «إنما يذَّكّر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة. وهي دخول الجنة، أي: حسنة غير مكتنهة بالوصف. وقد علقه السدي بحسنة، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر، فما معنىَ تعليقه بحسنة؟ ولا يصحّ أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت: هو صفة لها إذا تأخر، فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق، وإن لم يكن التعلق وصفاً، ومعنى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة؛ حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحوّلوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم؛ ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم. وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقيل: هي أرض الجنة. و ﴿ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى غيرها. من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يحاسبون عليه. وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفاً، وهو تمثيل للتكثير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُهتدىٰ إليه حساب الحساب ولا يُعرف. وعن النبيّ ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين. ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» (١٣٣٦).

١٣٣٦ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، رقم (١٢٨٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٩١) في ترجمة (جابر بن زيد) كلاهما من طريق قتادة عن جابر بن زيد.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) للثعلبي في تفسيره، ولأبي القاسم =

= يجب خلوده في نار جهنم، ولا معنى لرجائه، ولتنمية صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن، كالتزام إلى تتميم هذه النزعة، وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ بإخلاص الدين ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِـ﴾ أجل ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة، والمعنىٰ: أنّ الإخلاص له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فإن قلت: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد[1]؟ قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح، كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عوّض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] وفي معناه أوجه: أن أكون أوّل من أسلم في زماني ومن قومي؛ لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره؛ لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون

= الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب ولابن مردوية في تفسيره، وقال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث جابر، وقتادة تفرد به عنه مجاعة وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً، وأورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً. انتهى.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف عطف أمرت على أمرت وهما راحد؟ وأجاب بأنه ليس بتكرير. . . إلخ» قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية بقوله: (فاعبدوا ما شئتم من دونه) فإن مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى؛ لفظاعة خسرانهم، فقال: استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدإ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتًا وجوهاً ثلاثة من المبالغة، أحدها: تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان. الثاني: بناؤه على فعلوت، وهي صيغة مبالغة كالرحموت، وهي الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه. الثالث: تقديم لامه على عينه؛ ليفد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب، يعني: أن الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب، بدليلي العقل والوحي. فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه. فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾؟ قلت: ليس بتكرير؛ لأنّ ٢/ ١٤٣أ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأوّل، فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حققت فيه القول مرتين. قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها، (و) خسروا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم. وقيل: وخسروهم[1] لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، يعني: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظُلَلٌ﴾ لآخرين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ويخوفهم؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ فلا تتعرّضوا لما يوجب سخطي، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة. وقرئ: «يا عبادي».

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين، أطلقت على الشيطان أو الشياطين؛ لكونها مصدراً وفيها مبالغات، وهي

---

(١) قوله: «وخسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو. (ع).

التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب هو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها ههنا الجمع. وقرئ: «الطواغيت» ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] الله عزّ وجلّ يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ [الحديد: ١٢] وأراد بعباده ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حرّاصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر[1]، وأبينها دليلاً أو أمارة، وأن لا تكون في مذهبك، كما قال القائل [من البسيط]:

.... وَلاَ تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا[2]

يريد المقلد، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو: القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو، فيحدّث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه. ومن الوقفة من يقف على قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ويبتدىء: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾ يرفعه على الابتداء، وخبره ﴿أُولَٰئِكَ﴾.

---

(١) قال محمود: «يدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر... إلخ» قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

(٢) شمّر وكن في أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثل عير قيد فانقادا
للزمخشري: تشمير الثياب عن الساعد: كناية عن ترك الكسل، ثم قال: واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهة. ويحتمل أن المعنى: اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

أصل الكلام: أمّن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدلّ عليه الخطاب، تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حقّ عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة. ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلّصه؟ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾؟ ٢/١٤٣ب وإنما جاز حذف: فأنت تخلصه؛ لأن ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يدل عليه، نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزّل اجتهاد رسول الله ﷺ وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان في منزلة إنقاذهم من النار. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يفيد أنّ الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقد الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علا بعضها فوق بعض. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾؟ قلت: معناه ـ والله أعلم ـ: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما تجري تحت المنازل، من غير تفاوت بين العلوّ والسفل، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأنّ قوله لهم غرف في معنى: وعدهم الله ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها، ﴿يَهِيجُ﴾ يتمّ جفافه، عن الأصمعي؛ لأنه إذا تمّ جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حُطَٰمًا﴾ فتاتاً ودريناً.[1] ﴿إِنَّ فِى

---

(١) قوله: «فتاتا ودرينا» في الصحاح «الدرين»: خطام المرعى إذا قدم، وهو ما يلي من الحشيش. (ع).

﴿ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال. ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا، كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. وقرئ: «مصفارًا».

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿أَفَمَن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله: هو لطفه، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، فقيل: يا رسول الله، فما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت» (١٣٣٧) وهو نظير قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] في حذف الخبر. ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجل ذكره، أي: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. وقرئ: «عن ذكر الله» فإن قلت: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ما ذكرت، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره: سقاه من العيمة، أي من أجل عطشه، وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعده عن العطش.

١٣٣٧ ـ أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣). كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٥٩).
والحاكم (٤/ ٥٤٠)، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر خمس بلاء أعاذ النبي ﷺ منها المسلمين.
والطبراني في الصغير (٢/ ٨٧).
والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥١)، باب: في الزهد وقصر الأمل حديث (١٠٥٥٠). كلهم من حديث ابن عمر.
وذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١/ ٥٢٥)، في الأصل السادس والثمانون.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٢) لابن مردويه في تفسيره من طريق أبي فروة بزيد بن محمد بن سنان الرهاوي عن أبيه عن جده، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود، وفيه أبو فروة الرهاوي فيه كلام، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر في الأصل السادس والثمانين، وفي إسناده إبراهيم النخعي وهو ضعيف. انتهى.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة، فقالوا له: حدثنا فنزلت، وإيقاع اسم الله مبتدأ وبناء ﴿نَزَّلَ﴾ عليه فيه: تفخيم لأحسن الحديث، ورفع منه، واستشهاد على حسنه، وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلاّ عنه، وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث. و ﴿كِتَابًا﴾ بدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه، و﴿مُتَشَابِهًا﴾ مطلق في مشابهة بعضه بعضاً، فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت، ويجوز أن يكون ﴿مَثَانِيَ﴾ بياناً لكونه متشابهاً؛ لأن القصص المكررة لا تكون إلاّ متشابهة. والمثاني: جمع مثنى بمعنى مردّد ومكرّر، ولما ثنى من قصصه وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان(1) ولا يخلق على كثرة الرّد (١٣٣٨). ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل، من التثنية بمعنى التكرير، والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] بمعنى كرّة بعد كرّة، وكذلك: لبيك وسعديك، وحنانيك. فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير، إلاّ تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس، وسور وآيات ٢/ ١٤٤أ، وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب، ألا أنك تركت الموصوف إلى الصفة، وأصله: كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك: برمة أعشار، وثوب أخلاق. ويجوز أن لا يكون مثاني صفة، ويكون منتصباً على التمييز من ﴿مُتَشَابِهًا﴾، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه. فإن قلت: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم

١٣٣٨ ـ تقدم في آل عمران.

---

(١) قوله: «لا يتفه ولا يتشان» في الصحاح «التافه»: الحقير اليسير، وفيه تشانت القربة: أخلقت، وتشان الجلد: يبس وتشنج. (ع).

يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً؛ (١٣٣٩) ليركزه في قلوبهم، ويغرسه في صدورهم. اقشعر الجلد: إذا تقبّض تقبضاً شديداً، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس، مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء؛ ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد. يقال: اقشعر جلده من الخوف وقَفَّ شعره[١]، وهو مثل في شدّة الخوف، فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل؛ تصويراً لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق. والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. فإن قلت: ما وجه تعدية «لان» بإلى؟ قلت: ضمن معنى فعل متعدّ بإلى، كأنه قيل: سكنت، أو اطمأنت إلى ذكر الله، لينة غير منقبضة، راجية غير خاشية. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ قلت: لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة، ورحمته هي سابقة غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رءوفاً رحيماً. فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أوّلاً، ثم قرنت بها القلوب؟ ثانياً؟ قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب، فقد ذكرت القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة، فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة ليناً في جلودهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ يوفق به من يشاء، يعني: عباده المتقين؛ حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذله من الفساق[٢] والفجرة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أي: أثر هداه وهو لطفه، فسماه هدى؛ لأنه حاصل بالهدى، ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ بهذا الأثر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشين راجين، فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن لم تؤثر فيه ألطافه؛ لقسوة

١٣٣٩ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٣): غريب والحديث بمعناه عند البخاري (١/ ٢٥٤)، كتاب العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم (٩٥) من طريق ثمامة عن أنس، وقال الحافظ: لم أجده، وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ـ الحديث» وزاد أحمد «وكان يستأذن ثلاثاً». انتهى.

---

(١) قوله: «وقف شعره» أي: قام من الفزع، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «ومن يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: أنه يخلقه كالخير، فالإضلال: خلق الضلال في القلب. (ع).

قلبه، وإصراره على فجوره. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من مؤثر فيه بشيء قط.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾

يقال: اتقاه بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده. وتقديره: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1] كمن أمن العذاب، فحذف الخبر كما حذف في نظائره، و﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: شدّته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعزّ أعضائه عليه، والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلاّ بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة، وقيل: نزلت في أبي جهل. وقال لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . . . . . . مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم. والخزي: الذلّ والصغار، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء، وما أشبه ذلك من نكال الله.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف. فإن قلت: فهلا قيل: مستقيماً: أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط، كما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، والثانية: أن لفظ العوج مختص ٢/ ١٤٤ب بالمعاني دون الأعيان، وقيل: المراد بالعوج: الشكّ واللبس. وأنشد [من البسيط]:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنَ الإلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ[2]

---

(١) قال محمود: «معناه كمن هو آمن، فحذف الخبر أسوة أمثاله. . . إلخ» قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله، لم يقصد الاتقاء بوجهه، ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، عبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

(٢) الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد باليقين والقول: القرآن. أو اليقين: الأسرار، والقول: القرآن. أو اليقين: القرآن، والقول: ما عداه من الأوامر والنواهي، و«من الإله» متعلق بأتاك. والمعنى: أن ذاك =

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

واضرب لقومك مثلاً، وقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره سادر[1]، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدري أيهم يرضي بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته؟ وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أيُّ هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، وقلبه أوزاع[2]، وحال من لم يثبت إلا إلٰهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب من آجله. و ﴿فِيهِ﴾ صلة شركاء، كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه، ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ خالصاً. وقرئ: «سلما» بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين، وهي مصادر سلم. والمعنى: ذا سلامة لرجل، أي: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سلمت له الضيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أي: وهناك رجل سالم لرجل، وإنما جعله رجلاً؛ ليكون أفطن لما شقي به أو سعد، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ هل يستويان: صفة على التمييز، والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: «مثلين» كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩] مع قوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ويجوز فيمن قرأ: «مثلين»، أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ للمثلين؛ لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل. والمعنى: هلَ يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه، أي: يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه

= من الشك واللبس، ومن الكذب؛ فالعوج: استعارة تصريحية.

(١) قوله: «في أمره سادر» في الصحاح «السادر»: المتحير. (ع).

(٢) قوله: «فهمه شعاع... إلخ» بالفتح، أي: متفرق. وقولهم: بها أوزاع من الناس، أي: جماعات، كذا في الصحاح. (ع).

وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلاّ هو، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم، فلا معنى للتربص، وشماتة الباقي بالفاني. وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم[1]. وقرئ: «مائت ومائتون»،[2] والفرق بين الميت والمائت: أنّ الميت صفة لازمة كالسيد. وأما المائت فصفة حادثة، تقول: زيد مائت غداً، كما تقول: سائد غداً، أي سيموت وسيسود. وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت. والمعنى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأنّ ما هو كائن فكأن قد كان، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ ثم إنك وإياهم، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، تقول الأتباع: أطعنا سادتنا وكبراءنا، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون؛ وقد حمل على اختصام الجميع، وأنّ الكفار يخاصم بعضهم بعضاً؛ حتى يقال لهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨] والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام. قال عبد الله بن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا وديننا ونحن نرى أنّ هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب؟ قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها أنزلت فينا (١٣٤٠). وقال أبو سعيد الخدري:

١٣٤٠ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، كتاب: الأهوال، باب: لا يدخل أهل الجنة الجنة حتى. . .، من طريق القاسم بن عوف البكري عن ابن عمر. وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية القاسم ابن عوف عن ابن عمر رضي الله عنهما. انتهى.

---

(١) قوله: «ونعى إليكم أنفسكم» لعله: إليهم أنفسهم. (ع).

(٢) قال محمود: «قرئ: إنك ميت ومائت. . . إلخ» قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعني: توفي الموت (والتي لم تمت في منامها) أي يتوفاها حين المنام، تشبيهاً للنوم بالموت، كقوله: (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية (ويرسل الأخرى) أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا (١٣٤١). وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا (١٣٤٢). وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة. والوجه الذي يدلّ عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ ٢/ ١٤٥أ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة. ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ، ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فاجأه بالتكذيب؛ لما سمع به من غير وقفة؛ لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون. ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو رسول الله ﷺ: جاء بالصدق وآمن به، وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذلك قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلا أنّ هذا في الصفة وذاك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به، وهم الرسول الذي جاء بالصدق، وصحابته الذي صدقوا به[1]. وفي قراءة ابن مسعود: «والذين

١٣٤١ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٤) للثعلبي من طريق أبي هاشم عن الخدري.
وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي قال: وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن الخدري. انتهى.

١٣٤٢ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٧٢).
والطبري في تفسيره (١١/ ٤)، رقم (٣٠١٤٠)، كلاهما من طريق ابن عون عن إبراهيم النخعي، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٤) للثعلبي في تفسيره من نفس الطريق السابق.
وقال الحافظ بن حجر: أخرجه عبد الرزاق، والطبري، والثعلبي، من رواية عبد الله بن عون عن إبراهيم بهذا. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه توزيع للصلة، والفوج هو الموصول، فهو كقولك: جاء =

جاءوا بالصدق وصدقوا به» وقرئ: «وصدق به» بالتخفيف، أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به، يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: صار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأنّ القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده، ولا يجوز أن يصدق إلاّ الصادق، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة، وقرئ: «وصدق به»، فإن قلت: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا؟ وما معنى التفضيل فيهما؟ قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بني مروان. وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلاّت المكفرة، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن؛ لحسن إخلاصهم فيه؛ فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن. وقرئ: «أسوأ» الذي عملوا جمع سوء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها. وقرئ: «بكاف عبده» وهو رسول الله ﷺ، و «بكاف عباده» وهم الأنبياء؛ وذلك: أنّ قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معرتها[1] لعيبك إياها. ويروى: أنه بعث خالداً إلى العزّى ليكسرها، فقال له سادنها: أحذركها يا خالد، إنّ لها لشدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إليها فهشم أنفها. فقال الله عزّ وجلّ: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم؛ لأنّهم خوّفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضرّ. أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت أممهم نحو ذلك، فكفاهم الله، وذلك قول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق؛ لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم. وقرئ: «بكافي عباده» على الإضافة. و«يكافي عباده». ويكافي: يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية، كقولك: يجازي في يجزى، وهو أبلغ من كفى؛ لبنائه على لفظ المبالغة والمباراة: أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة؛ لما تقدم من قوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾، ﴿بِٱلَّذِينَ مِن

= الفريق الذي شَرّفَ وشُرِّفَ، والأظهر عدم التوزيع، بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الأولى. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «معرتها» أي: إثمها. أفاده الصحاح. (ع).

دُونِهِۦ﴾ أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه. ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بغالب منيع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قرئ: «كاشفاتٌ ضرَّه» و«ممسكاتٌ رحمتَه» بالتنوين على الأصل، وبالإضافة للتخفيف. فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قلت: لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأن خالق العالم هو الله وحده. ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن كاشفات عني ضرّه أو ممسكات رحمته؟ حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ٢/ ١٤٥ب ببنت شفة قال: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافياً لمعرّة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه تهكم. ويروى أنّ النبيّ ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإن قلت: لم قيل: كاشفات وممسكات، على التأنيث بعد قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟ قلت: أنثهن وكن إناثاً وهن اللات والعزى ومناة، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضرّ وإمساك الرحمة؛ لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة، كأنه قال: الأناث اللاتي هن اللاّت والعزّى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز. وفيه تهكم أيضاً.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا، وحيث ـ للزمان، وهما للمكان. فإن قلت: حق الكلام: فإني عامل على مكانتي، فلم حذف؟ قلت: للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد، والإيذان بأنّ حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة؛ لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا

أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزّه وغلبته، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل ذليل من أعدائه. ﴿يُخْزِيهِ﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب، أي: عذاب مخزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم وهو عذاب النار. وقرئ: «مكاناتكم».

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه؛ ليبشروا وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة إلى ذلك فأنا الغني، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرّها. وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى؛ فإنّ التكليف مبنيّ على الاختيار دون الإجبار.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ الجمل كما هي، وتوفيها: إماتتها، وهو أن تُسلَب ما هي به حية حساسة درّاكة من: صحة أجزائها وسلامتها؛ لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ **[الأنعام: ٦]** حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أنّ الموتى كذلك، ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الحقيقي، أي: لا يردّها في وقتها حية، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النائمة إلى أجل مسمى إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها ويقضيها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. ورووا عن ابن عباس رضي الله عنهما: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. (١٣٤٣) والصحيح ما ذكرت أوّلاً؛ لأنّ الله عزّ وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعاً بالأنفس، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إنّ في توفي الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها

١٣٤٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٠٥): غريب جداً. قال ابن حجر: لم أجده.

إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرئ: «قُضِيَ عليها الموتُ» على البناء للمفعول.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قريش، والهمزة للإنكار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَاءَ﴾ حين قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلاّ بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له. وههنا الشرطان مفقودان جميعاً. ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾ معناه: أيشفعون ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قطّ؛ حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم، ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك، كان مالكاً لها. ١٤٦/٢أ فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ قلت: بما يليه، معناه: له ملك السمٰوات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلاّ له، فله ملك الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾

مدار المعنى على قوله: «وحده» أي: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم «اشمأزوا» أي: نفروا وانقبضوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا؛ لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها. وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا؛ لأنّ فيه نفياً لآلهتهم. وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من ذكر آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأنّ الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلّل. والاشمئزاز: أن يمتلىء غمًّا وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت: ما العامل في ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾؟ قلت: العامل في إذا المفاجأة، تقديره وقت ذكر الذين من دونه، فاجأوا وقت الاستبشار.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾

بَعِل[1] رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد، فقيل لهَ: ادع الله بأسمائه العظمى، وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ووعيد لهم. وعن الربيع بن خثيم[2] وكان قليل الكلام. أنه أخبر بقتل الحسين - رضي الله عنه، وسخط على قاتله - وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروي أنه قال على أثره: قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته، وهو نظير قوله تعالى في الوعد: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ [السجدة: ١٧] والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو سيئات كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وأراد بالسيئات: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا، فسماها سيئات، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التخويل: مختص بالتفضل. ويقال: خولني، إذا أعطاك على غير جزاء. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم مني أني سأعطاه؛ لما فيّ من فضل واستحقاق. أو على علم من الله بي وباستحقاقي:[3] أو على علم مني بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾

---

(١) قوله: «بعل رسول الله» في الصحاح: «بعل الرجل» بالكسر، أي: دهش. (ع).

(٢) قوله: «وعن الربيع بن خثيم» في النسفي: خيثم. (ع).

(٣) قال محمود: «معناه على علم من الله بي وباستحقاقي... إلخ» قال أحمد: كذلك يقول: على =

[القصص: ٧٨]. فإن قلت: لم ذكر الضمير في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ وهو للنعمة؟ قلت: ذهاباً به إلى المعنى؛ لأنّ قوله: ﴿نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾ شيئاً ما النعم وقسماً منها. ويحتمل أن تكون (ما) في إنما موصولة لا كافة، فيرجع إليها الضمير. على معنى: إن الذي أوتيته على علم ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ إنكار لقوله كأنه قال: ما خولناك من النعمة لما تقول، بل هي فتنة، أي: ابتلاءَ وامتحان لك، أتشكر أم تكفر؟ فإن قلت: كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ قلت: حملاً على المعنى أوّلاً، وعلى اللفظ آخراً؛ ولأنّ الخبر لما كان مؤنثاً أعني ﴿فِتۡنَةٞ﴾: ساغ تأنيث المبتدإ لأجله؛ لأنه في معناه، كقولهم: ما جاءت حاجتك. وقرئ: «بل هو فتنة» على وفق ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾. فإن قلت: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ قلت: السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾[1] [الزمر: ٤٥] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّ أحدهم ضرّ دعا من اشمأزّ من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه[2]. قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله: «أنت تحكم ٢/١٤٦ب بينهم» ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الزمر: ٤٧] متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً، أو إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به. حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلاّ جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو، كقولك: قام زيد وقعد عمرو. فإن قلت: من أي وجه وقعت مسببة؟

= قدري تمنى على الله أن يثيبه في الآخرة: أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول، وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة؛ إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في ذلك قول سيد البشر ﷺ: لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فما أحمق من منى نفسه وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم عطفت هذه الآية على التي قبلها بالفاء؟ والآية التي قبلها في أول السورة بالواو؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله: (وإذا ذكر الله. . .) إلخ» قال أحمد: كلام جليل فافهمه، فضلاً عن مشبه قليل.

(٢) قوله: «المعترض بينه وبينه» لعل قوله: «وبينه» مزيد من بعض الناسخين. (ع).

والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه، بل هو مقتض لصدوفهم[1] عنه.
قلت: في هذا التسبيب لطف، وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه، مقيم كفره مقام الإيمان، ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر. ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله.؟

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الضمير في ﴿قَالَهَا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنها كلمة أو جملة من القول. وقرئ: «قد قاله» على معنى القول والكلام، وذلك والذين من قبلهم: هم قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه. ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم ببدر، وحبس عنهم الرزق، فقحطوا سبع سنين، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين، فقيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله عزّ وجلّ.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ قرئ: بفتح النون وكسرها وضمها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة[2]، وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه؛ لأنّ القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود:

---

(١) قوله: «لصدوفهم عنه» أي: إعراضهم. أفاده الصحاح. (ع).
(٢) قوله: «يعني بشرط التوبة» عند التوبة، فالعموم شامل للشرك، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة، ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما تقرر في علم التوحيد، فارجع إليه. (ع).

«يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء». والمراد بمن يشاء: من تاب؛ لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته. وقيل: في قراءة النبيّ ﷺ وفاطمة رضي الله عنها: «يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي» ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥] وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر، وقد عبدنا الأوثان، وقتلنا النفس التي حرّم الله؟ فنزلت. وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما، ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً، فنزلت. فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا، وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: «ألا ومن أشرك» (١٣٤٤) ثلاث مرّات.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه. ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهوكم. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأنّ المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس؛ إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التكثير،

١٣٤٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/١٦)، حديث (٣٠١٨٧).
والبيهقي في الشعب (٥/٤٢٣)، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة حديث (٧١٣٧)، كلاهما من طريق أبو عبد الرحمن الحُبُلّي عن ثوبان، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٥) لابن مردويه من تفسيره، وللثعلبي في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان، وفيه ابن لهيعة عن أبي قبيل وهما ضعيفان. انتهى.

كما قال الأعشى ٢/١٤٧أ [من الطويل]:

وَرَبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا[1]

وهو يريد: أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً. ونظيره: ربّ بلد قطعت، ورب بطل قارعت. وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلاّ التكسير. وقرئ: «يا حسرتي» على الأصل. ويا حسرتاي، على الجمع بين العوض والمعوّض منه. والجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته، وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا: فرّط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه. قال سابق البربري [من الطويل]:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ[2]

وهذا من باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه، فقد أثبته فيه. ألا ترى إلى قوله [من الكامل]:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ[3]

---

(١) دعا قومه حولي فجاءوا لنصره وناديت قوماً بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بحوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

للأعشى، وقيل: لأبي عمرو بن العلاء، يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنيت الشيء سهلته، أي: منعمة مملسة، أو بالية مفتتة. ويجوز أن أصله مسننة، فقلبت النون الثانية ألفاً. وسننت الحجر حددته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجبن، بل هم دون تلك الأموات، فرب بقيع: أي موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، والمراد مقبرة، لا بقيع الغرقد بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها، لو هتفت بحوه، أي: ناديت شجاعهم لجاءني كريم ينفض رأسه من تراب القبر. أو من الغضب لما نالني من المكروه، وليس المراد كريماً واحداً، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام. والحو ـ بالمهملة ـ: الشجاع، وبالمعجمة: العسل، وبالجيم: ما غلظ وارتفع من الأرض.

ينظر: ديوانه ٨، والبحر المحيط ٧/٤٣٥، ومقاييس اللغة ١/ ٢٨٢، الدر المصون ٦/١٩.

(٢) أما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بادكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع

لجميل بن معمر، يستعطف صاحبته بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها، أي: أما تخافين الله في جنب وامق، أي: في حقه الواجب عليك، فالجنب: كناية عن ذلك. والوامق. الشديد المحبة، يعني نفسه. وحرى: أي ذات حر واحتراق. وتقطع: أصله تتقطع، والادكار: أصله الاذتكار، قلبت تاؤه دالاً مهملة، وأدغمت الذال المعجمة فيها، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيماً. وفي البيت رد العجز على الصدر، وهو من بديع الكلام.

ينظر تاج العروس: (جنب) (جيم) البحر، ٧/ ٤٣٥، ديوان جميل (٢٧٣)، الدر المصون (٦/ ٢٠).

(٣) لزيادة الأعجم، يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة، يعني أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلاً.

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون: لأجلك. وفي الحديث: «من الشرك الخفيّ أن يصلي الرجل لمكان الرجل» (١٣٤٥) وكذلك: فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه، قيل: ﴿فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ على معنى: فرطتُ في ذات الله. فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنه قيل: فرطت في الله. فما معنى فرطت في الله؟ قلت: لا بدّ من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك. وفي حرف عبد الله وحفصة: في ذكر الله. «وما» في «ما فرطت» مصدرية مثلها في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، [التوبة: ١١٨]، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها، ومحل ﴿وَإِن كُنتُ﴾ النصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي: فرطت في حال سخريتي. وروي: أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق. وأتاه إبليس، قال له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه، وكان له مال فأنفقه في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذّ ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، ذهب عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ لا يخلو: إما أن يريد الهداية[1] بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي، فالإلجاء خارج عن الحكمة، ولم يكن من أهل الإلطاف فيلطف به. وأما الوحي فقد كان، ولكنه عرض ولن يتبعه حتى يهتدي، وإنما يقول هذا تحيراً في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤوساء والشياطين ونحو ذلك، ونحوه ﴿لَوْ هَدَىٰنَا

١٣٤٥ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٩)، كتاب الرقاق، باب: من تشعبت به الهموم لم يبال في أي أودية الدنيا هلك.

والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٣٤)، باب: في إخلاص العمل لله وترك الرياء رقم (٦٨٣٢) ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٦) لإسحاق بن راهويه والبزار في مسانيدهم.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد، وإسحاق، والبزار، والحاكم، والبيهقي، من رواية ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن جده قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتذاكر الدجال، فقال: غير الدجال أخوف عليكم: الشرك الخفي: أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم. انتهى.

---

(١) قوله: «لا يخلو إما أن يريد به الهداية» تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة، ولكن خلق الهداية لا يصلح إلى حد الإلجاء؛ لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية؛ لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

ٱللَّهُ لَهَدَيْنَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ ردّ من الله عليه، معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله، وآثرت الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى. وقرئ: بكسر التاء[1] على مخاطبة النفس. فإن قلت: فهلا قرن الجواب بما هو جواب له، وهو قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت: لأنه لا يخلو: إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثاني: فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب. فإن قلت: كيف صحّ أن تقع بلى جواباً لغير منفي؟ قلت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ فيه معنى: ما هُديت.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال[2] عنه، فأضافوا إليه

---

(١) قوله: «وقرئ بكسر التاء» لعل من كسرها كسر الكاف أيضاً. (ع).

(٢) قال محمود: «يعني الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه... إلخ» قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلاّ التوفيق الذي حرمه، ولا يعافيه منه إلاّ الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه، وسنقيم عليه حد الرد؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولو ينأي عن الالتفات إليه كشحا، وبالله التوفيق فنقول: أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أما الزمخشري وإخوانه القدرية، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا. وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض؛ فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفعال لما يشاء. وعند القدرية ليس فعالاً لما يشاء؛ لأن الفعل إما منوط على حكمة ومصلحة، فيجب عليه أن يفعله عندهم؛ وإما عار عنها فيجب عليه أن يفعله، فأين أثر المشيئة إذاً؟ وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى، فاعتقاد باطل؛ لأن ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبيده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق، ولازم الحق حق، ولا معنى للظلم إلاّ التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.
وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال، ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية؛ إذ يقولون: لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك، مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه =

الولد والشريك، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح[١]، وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوض، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئياً معايناً مدركاً بالحاسة، ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً متسترين بالبلكفة، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال، إن كان «ترى» من رؤية البصر، ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية القلب ٢/ ١٤٧ب.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

قرئ: «يُنْجي» و«ينجّي» ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم، يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه. وتفسير المفازة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو بسبب منجاتهم، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي بمنجاة

= يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل. وأما قوله: إنهم يتسترون بالبلكفة، فيعني به قولهم: «بلا كيف» أجل، إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء. وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أنداداً بإثباتهم معه قدماء، فنفي لإثباتهم صفات الكمال، كلا والله، إنما جعل لله أنداداً القدرية؛ إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم. حتى قالوا: إن ما شاءوه كان وما شاء الله لا يكون. وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن لله تعالى علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاماً وحياة، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للقدري إذا سمع قوله تعالى: (وسع ربنا كل شيء علماً) إلاّ اعتقاد أن لله تعالى علماً. أو جحد آيات الله وإطفاء نوره، (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً ووجهاً، فذلك فرية ما فيها مرية، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة. وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان والعينان والوجه، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز، على أن غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة والنعمة، والوجه على الذات؛ وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب، فقد اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حتفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سنته، فإنه قد أساء عليهم الأدب، ونسبهم بكذبه إلى الكذب، والله الموفق.

(١) قوله: «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصٍ، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة، وإيلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضاً، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما في علم الأصول، وجوزوا عليه الرؤية وهي غير مختصة بالأجسام عندهم، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها، لكن لا كالأيدي. وأراد بالقدماء صفات المعاني: كالقدرة والإرادة، حيث قال أهل السنة: إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول، فانظره. والبلكفة: قولهم: «بلا كيف». (ع).

منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب منجاتهم العمل الصالح؛ ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز: بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه: مفازة؛ لأنه سببها. وقرئ: «بمفازاتهم» على أن لكل متّق مفازة. فإن قلت: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قلت: أما على التفسير الأوّل فلا محل له؛ لأنه كلام مستأنف. وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح، ولا واحد لها من لفظها. وقيل: مقليد. ويقال: إقليد وأقاليد، والكلمة أصلها فارسية. فإن قلت: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟ قلت: التعريب أحالها عربية، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؟ قلت: بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها. وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء، وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون، وقيل: سأل عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، فقال: «يا عثمان، ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلاّ الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير» (١٣٤٦) وتأويله على هذا: أن الله

١٣٤٦ ـ أخرجه أبو يعلى في مسنده، وما في تخريج الزيلعي (٣/٢٠٧)، والعقيلي في الضعفاء (١/١١٧ ـ ١١٨)، رقم (١٤٠) وأعله بأغلب بن تميم الكندي وقال: لا يتابع عليه.

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢٠٧) لابن أبي حاتم وللثعلبي، ولابن مردويه في تفاسيرهم، وكذا للبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولابن الجوزي في كتابه الموضوعات، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم، والعقيلي، والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بن تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم، وعبد الرحمن بن عدي عن عبد الله بن عمر به، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. وله وجه آخر عند ابن مردويه. من طريق كلب بن وائل عن عمر، ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى =

هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السمٰوات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، أولئك هم الخاسرون.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بأعبد. و﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ اعتراض. ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم، وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلٰهك. أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي: اعبد، والأصل: تأمرونني أن أعبد، فحذف «أن» ورفع الفعل، كما في قوله: [الطويل]

أَلاَ أَيُّهٰذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَى(1) ....

ألا تراك تقول: أفغير الله تقولون لي: أعبد، وأفغير الله تقولون لي: أعبد، فكذلك أفغير الله تأمرونني أن أعبده. وأفغير الله تأمرونني أن أعبد، والدليل على صحة هذا الوجه: قراءة من قرأ (أعبد) بالنصب. وقرئ: «تأمرونني» على الأصل. و«تأمروني»، على إدغام النون أو حذفها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قرئ: «ليحبطن عملك» وليحبطنّ: على البناء للمفعول. ولنحبطنّ، بالنون والياء، أي: ليحبطنّ الله أو الشرك. فإن قلت: الموحى إليهم جماعة، فكيف قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على التوحيد؟ قلت: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم: لئن أشركت كما تقول: كسانا حلة، أي: كل واحد منّا. فإن قلت: ما الفرق بين اللامين؟ قلت: الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب، وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط، فإن قلت: كيف صحّ هذا الكلام مع علم الله أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قلت: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصحّ فرضها لأغراض، فكيف بما ليس بمحال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] يعني على سبيل الإلجاء، ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه. فإن

= ابن عباس: «إن عثمان ـ فذكره» وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما. انتهى

---

(1) تقدم.

قلت: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؟ قلت: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل. ويحتمل: ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة. ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشدّ، فلا يمهله بعد الردة، ألا ترى ١٤٨/٢أ إلى قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه.[1] ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم. وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه، تقديره: بل الله أعبد فاعبد.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حقّ تقديره وعظمه حق تعظيمه قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وقرئ بالتشديد على معنى: وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين[2] إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى: أن

---

(١) قال محمود: «أصل الكلام: إن كنت عابداً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه. اهـ كلامه، قال أحمد: مقتضى كلام سيبويه في أمثال هذه الآية: أن الأصل فيه فاعبد الله. ثم حذفوا الفعل الأول اختصاراً، فلما وقعت الفاء أولاً استنكروا الابتداء بها، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظاً ودالة على أن ثم محذوفاً اقتضى وجودها، ولتعطف عليه ما بعدها وينضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص.

(٢) قال محمود: «الغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى عن رسول الله ﷺ: أن حبراً جاء إليه فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ وتعجب مما قال الحبر، ثم قرأ هذه الآية تصديقاً له، فإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلاً ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلاً إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخييل، ثم قال: وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخييل قد زلت فيه الأقدام قديماً. اهـ كلامه» قال =

جبريل[1] جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السمٰوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال، ثم قرأ تصديقاً له: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ . . . الآية (١٣٤٧)، وإنما ضحك: أفصح العرب ﷺ وتعجب؛ لأنه لم يفهم منه إلاّ ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهامَ والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى باباً في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليته[2] تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً، وما أوتي الزالون[3] إلاّ من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى

١٣٤٧ ـ أخرجه البخاري (١٥/٣٤٨)، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾، رقم (٧٤١٤)، (١٥/٤٤٤)، كتاب: التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة»، رقم (٧٥١٣) (٩/٥١٤)، كتاب التفسير، باب: قوله: «وما قدروا الله حق قدره» رقم (٤٨١١).
ومسلم (٩/١٤٢ ـ ١٤٣)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ١٩ ـ (٢٧٨٦).
والترمذي (٥/٣٧١)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر، رقم (٣٢٣٨ ـ ٣٢٣٩).
والنسائي في الكبرى (٤/٤٠٠)، كتاب النعوت، رقم (٧٦٨٧/١).
وأحمد (١/٤٥٧).
والطبري في تفسيره (١١/٢٥)، رقم (٣٠٢١٧)، (٣٠٢١٩) والبغوى في تفسيره (٤/٨٧)، رقم (٦٧).
وابن حبان (١٦/٣١٩ ـ ٣٢٠)، كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس. كلهم من طريق ابن مسعود.
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

= أحمد: إنما عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخييل التمثيل، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام، لا تليق به بوجه من الوجوه، والله أعلم.

(١) قوله: «أن جبريل جاء إلى رسول الله» قيل: الصواب أنه حبر من أحبار اليهود لا جبريل. ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي، كذا بهامش. ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في ندائه ﷺ. (ع) متفق عليه من حديث ابن مسعود. (تنبيه) وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف. والذي في الصحيح «جاء حبر من اليهود» وفي رواية «أن يهودياً» وفي رواية «أن رجلاً من أهل الكتاب».

(٢) قوله: «وعليته» أي معظمه. (ع).

(٣) قوله: «وما أتى الزالون» أي أجيبوا (ع).

يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدَّروه حق قدره لما خفي عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه؛ إذ لا يحل عقدها المورِبة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، وقد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة[1]، والوجوه الرثة، ؛لأنّ من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً منه من دبير[2]. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان، قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر؛ ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن. والقبضة: المرة من القبض ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] والقبضة ـ بالضم ـ: المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضاً: أعطني قبضة من كذا: تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر، كما روي: أنه نهى عن خطفة السبع[3] (١٣٤٨). وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون جميعاً قبضته، أي: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة، يعني أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطهن لا يبلغن إلاّ قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان، والقلة جرعته، أي: ذات أكلته وذات جرعته؛ تريد: أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته، وجرعة فردة من جرعاته. وإذا أريد معنى القبضة فظاهر؛ لأنّ المعنى: أنّ الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن

١٣٤٨ ـ جاء من حديث أبي الدرداء، وأبي ثعلبة الخشني، وابن عباس، فأما حديث أبي الدرداء: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥)، (٦/ ٤٤٥)، وأما حديث أبي ثعلبة الخشني، أخرجه الدارمي (٢/ ٨٥)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع.
وأما حديث ابن عباس: فأخرجه أحمد (١/ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢)، والدرامي (٢/ ٨٥)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يأكل من السباع، وأبو يعلى (٤/ ٣٧٣) رقم (١٦٤)، (٢٤٩١).
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وروى أحمد وإسحاق، وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد الله بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا الدرداء، يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل خطفة ونهبة والمجثمة وكل ذي ناب من السباع»، ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي، ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبي أوس عن الزهري عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة، بلفظ: «نهى عن الخطفة والمجثمة والنهبة. وكل ذي ناب من السباع». انتهى.

---

(١) قوله: «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع، وتكون خبزته غليظة شبيهة بخبز الملة. (ع).
(٢) قوله: «قبيلا منه من دبير» في الصحاح «القبيل»: ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله. وفيه «الدبير»: ما تدبر به المرأة من غزلها حين تفتله. ومنه قيل: فلان ما يعرف قبيلا من دبير. (ع).
(٣) قوله: «نهى عن خطفة السبع» أي: والمراد مخطوفه. (ع).

قلت: ما وجه قراءة من قرأ «قبضته» بالنصب؟ قلت: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم: ﴿مَطْوِيَّـٰتُۢ﴾ من الطي الذي هو ضدّ النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه، وقيل: قبضته: ملكه بلا مدافع ولا منازع، وبيمينه: بقدرته. وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه؛ لأنه أقسم أن يفنيها، ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل؛ ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله، ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته، وما مني[1] به من أمثاله؛ وأثقل منه على الروح، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله، واستحسانهم له، وحكايته على فروع المنابر، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين. وقرئ: «مطويات» على نظم السمٰوات في حكم الأرض، ودخولها تحت القبضة، ونصب مطويات على الحال. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه/ ٢/١٤٨ب عما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

فإن قلت: ﴿أُخْرَىٰ﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: يحتمل الرفع والنصب: أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾[2] [الحاقة: ١٣] وأما النصب فعلى قراءة من قرأ: ﴿نفخة واحدة﴾ [الحاقة: ١٣] والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة، ثم نفخ فيه أخرى؛ وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان. وقرئ: «قياماً ينظرون»: يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب. وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قد استعار الله عزّ وجلّ النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك. والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في

---

(١) قوله: «وما مني به» أي ابتلى. (ع).

(٢) قوله: «أما الرفع فعلى قوله: «فإذا نفخ» أي في الحاقة. وقوله: «من قرأ» أي: هناك. وقوله: «حذفت» أي هنا. (ع).

الحساب ووزن الحسنات والسيئات، وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه؛ لأنه هو الحق العدل. وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها، وإنما يجور فيها غير ربها، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور. وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (١٣٤٩) وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفي الظلم. وقرئ: «وأُشرقت» على البناء للمفعول، من شرقت بالضوء تشرق: إذا امتلأت به واغتصت. وأشرقها الله، كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً. و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ صحائف الأعمال، ولكنه أكتفى باسم الجنس، وقيل: اللوح المحفوظ. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار. وقيل: المستشهدون في سبيل الله.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

الزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض، وقد تزمروا[1]، قال [من الرجز]:

١٣٤٩ ـ أخرجه البخاري (٥/ ١٢٠ ـ ١٢١) كتاب المظالم: باب الظلم ظلمات يوم القيامة حديث (٢٤٤٧) وفي «الأدب المفرد» رقم (٤٨١) ومسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث (٥٧/ ٢٥٧٩) وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٤٦) والبيهقي (٦/ ٩٣) كتاب الغصب: باب تحريم الغصب والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٣٦٤ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً وللحديث شاهد من حديث جابر بلفظ: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.
أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم حديث (٥٦/ ٢٥٧٩) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٧٩) وأحمد (٣/ ٣٢٣) من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر به.
وله شاهد أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩) عنه مرفوعاً بلفظ: الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش... وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث ابن عمر، ولمسلم عن جابر، والنسائي، وأبي داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. انتهى.

---

(١) قوله: «وقد تزمروا» وفي نسخة أخرى: تزامروا. وفي الصحاح: احزألت الإبل في السير: ارتفعت. (ع).

حَـتَـى ٱحْـزَأَلَّـتْ زُمَـرٌ بَـعْـدَ زُمَـرْ[1]

وقيل في زمر الذين اتقوا: هي الطبقات المختلفة: الشهداء، والزهاد، والعلماء، والقرّاء وغيرهم. وقرئ: «نذر منكم» فإن قلت: لم أضيف إليهم اليوم؟ قلت: أرادوا لقاء وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدّة ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا، ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأنّ جهنم، لسوء أعمالنا، كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال. واللام في المتكبرين للجنس؛ لأنّ ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فاعل بئس، وبئس فاعلها: اسم معرف بلام الجنس. أو مضاف إلى مثله، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل، والجملة المحكية بعدها هي الشرطية، إلاّ أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدلّ بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحق موقعه ما بعد خالدين. وقيل: حتى إذا جاءوها، وفتحت أبوابها، أي: مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلاّ عند دخول أهلها فيها. وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها، بدليل قوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٥٠] فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين. ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي. وطهرتم من خبث الخطايا، ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة، فما هي إلاّ دار

---

(١) إن العفاة بالسيوب قد غمر   حتى احزألت زمر بعد زمر
«السيوب» في الأصل: السيول، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية. والغمر: ترشيح، أي: طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا. واحزألت: ارتفعت سائرة من عنده «زمر»: أي أفواج بعد أفواج ويروى: زمراً، على الحال، أي: احزألت العفاة حال كونها أفواجاً متتابعة. وعلى الأول ففيه إظهار في موضع الإضمار، دلالة على التكثير.

الطيبين ومثوى الطاهرين؛ لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قذر، فلا ٢/ ١٤٩أ يدخلها إلاّ مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلاّ أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً، تنقّي أنفسنا من درن الذنوب، وتميط وضر هذه القلوب. ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿وَالْأَرْضَ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه كما يشاءون، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

﴿حَافِّينَ﴾ محدقين من حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله، متلذذين لا متعبدين. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؟ قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلاّ قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة، على أن ثوابهم ـ وإن كانوا معصومين جميعاً ـ لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت: قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من القائل ذلك؟ قلت: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا: الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين الذي خافوا»

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر (١٣٥٠).

١٣٥٠ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٤٧٥)، كتاب الدعوات، باب: ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم (٣٤٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤)، كتاب: التفسير، باب: سورة الزمر رقم (١١٤٤٤/ ١)، والحاكم (٢/ ٤٣٤)، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الزمر، والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣)، الباب التاسع عشر، باب: ذكر سورة بني إسرائيل والزمر، رقم (٢٤٧٠)، كلهم من طريق عائشة، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١١) لإسحاق بن راهويه في مسنده. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبي أمامة عن عائشة في أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق، وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه. انتهى.

سورة المؤمن

مكية. [قال الحسن: إلاّ قوله ﴿وسبح بحمد ربك﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة، وقد قيل في الحواميم كلها: إنها مكيات: عن ابن عباس وابن الحنفية] وهي خمس وثمانون آية، وقيل: ثنتان وثمانون] [نزلت بعد الزمر]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها، وبتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين، وإيثار أخف الحركات، نحو أين وكيف، أو النصب بإضمار اقرأ، ومنع الصرف، للتأنيث والتعريف أو للتعريف، وأنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل. ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ والثوب والأوب: أخوات في معنى الرجوع، و﴿الطول﴾: الفضل والزياد. يقال: لفلان على فلان طول، والإفضال. يقال: طال عليه وتطوّل، إذا تفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوف معرفة يقتضي أن تكون مثله معارف؟ قلت: أمّا ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً؛ حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش. وأما شديد العقاب فأمره مشكل؛ لأنه في تقدير: شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً. وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوّ ظاهر، والوجه أن يقال: لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن، فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل،[1] ولقائل أن

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: لما اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن تكون مثله معارف؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان؛ لأنهما صفتان لازمتان، وليستا لحدوث الفعل حتى تكونا حالاً أو استقبالاً، بل إضافتهما حقيقة. وأما شديد العقاب فلا شك في =

يقول: هي صفات، وإنما حذف الألف واللام من ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً، فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج، حتى قالوا: ما يعرف سحادليه من عنادليه، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع؛ على أنّ الخليل قال ـ في قولهم: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل ـ: أنه على نية الألف واللام، كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف. ويجوز أن يقال ٢/١٤٩ب: قد تعمد تنكيره، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. ويجوّز أن يقال: هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال(١).

فإن قلت: ما بال الواو في قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾؟ قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات. وأن يجعلها محاءة للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول. وروي أنّ عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب، من عمر إلى فلان: سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلاّ هو: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدّدوه ووقفوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه (١٣٥١).

١٣٥١ ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٩٧ ـ ٩٨)، في ترجمة يزيد بن الأصم. =

= أن إضافته غير حقيقية، يريد: لأنه من الصفات المشبهة، ولا تكون إضافتها محضة أبداً. عاد كلامه قال: وجعله الزجاج بدلاً وحده، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر. والوجه أن يقال: إن جميعها أبدال غير أوصاف؛ لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة، كما لو جاءت قصيدة تفاعيلها كلها على مستفعلن، قضى عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن: كانت من الكامل، قال أحمد: وهذا لأن دخول مستفعلن في الكامل يمكن؛ لأن متفاعلن يصير بالإضمار إلى مستفعلن، وليس وقوع متفاعلن في الرجز ممكناً؛ إذ لا يصير إليه مستفعلن البتة، فما يفضي إلى الجمع بينهما فإنه يتعين، وهذا كما يقضي الفقهاء بالخاص على العام؛ لأنه الطريق في الجمع بين الدليلين.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه نزعة اعتزالية، ومذهب أهل السنة جواز الغفران للعاصي وإن لم يتب، إلا الشرك، قلت: وما أبعده عن نزعة الاعتزال، ثم أقول: التلازم لازم من جهة أنه تعالى متى قبل التوبة فقد غفر الذنب وهو كافٍ في التلازم. انتهى. الدر المصون.

سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد: الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله، وقد دلَّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله، وقوله ﷺ: «إنّ جدالاً في القرآن كفر» (١٣٥٢) وإيراده منكراً، وإن لم يقل: إنّ الجدال تمييز منه بين جدال وجدال. فإن قلت: من أين تسبب لقوله: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ ما قبله؟ قلت: من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإنّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاوة الأبد. ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم

= وذكره ابن هشام في تفسيره (٣/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، رقم (١٦٠٧) وعزاه للزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) لعبد بن حميد في تفسيره، وكذا للثعلبي وابن أبي حاتم في تفاسيرهم.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر ابن برقان عن يزيد الأصم، «أن رجلاً كان ذا بأس ـ فذكره بتمامه، ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار. وكذا ابن أبي حاتم والثعلبي. انتهى.

١٣٥٢ ـ جاء من حديث أبي هريرة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. فأما حديث أبي هريرة.
فأخرجه أبو داود (٤/ ١٩٩)، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن، رقم (٤٦٠٣).
وأحمد (٢/ ٢٥٨، ٢٨٦، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨). وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣).، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ١٣٦)، (٤/ ٨١)، والحاكم (٢/ ٢٢٣)، كتاب: التفسير، باب: الجدل في القرآن كفر، وابن حبان (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، كتاب: الصلاة، باب: الوعيد على ترك الصلاة، رقم (١٤٦٤). والطبراني في الصغير(١/ ١٧٨)، باب: من اسمه شباب، وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ٣٠٣)، رقم (٥٧) ـ (٥٨٩٧).
والبيهقي في الشعب (٢/ ٤١٦)، الباب التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٦).
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٧) لإسحاق بن راهويه في مسنده، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأما حديث عبد الله بن عمرو، فأخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٤١٦ ـ ٤١٧)، الباب: التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٧)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطيالسي، ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالاً فيه كفر»، وفي الباب عن أبي هريرة بلفظ: «مراء في القرآن كفر في الصحيح والسنن». انتهى.

بالباطل وما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلاً: ما كان من نحو ذلك من الأمم، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه. وقرئ: «فلا يغرّك».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾

﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: «برسولها» ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيذ؛ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه، كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار. وقرئ: «كلمات».

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

روي: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سمٰوات، وإنه

ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع[1] (١٣٥٣)». وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة» (١٣٥٤). وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة، يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ٢/ ١٥٠أ رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وقرأ ابن عباس: «العرش» بضم العين. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟[2] قلت: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه ،كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ

١٣٥٣ ـ أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨) رقم (٢٨٨) ـ (٢٧)، (٣/ ٩٤٩ ـ ٩٥٠)، ذكر حملة العرش وعظم خلقهم، رقم (٤٧٧) ـ (٢)، من طريق ابن عباس.
قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٨): غريب، وفي تفسير الثعلبي: وروي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «لا تتفكروا في عظم ربكم. . .» إلى آخره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وروى شهر بن حوشب: أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقاً، وهو في كتاب العظمة لأبي الشيخ. انتهى.
١٣٥٤ ـ قال ابن حجر: لم أجده، وسكت عنه الزيلعي.

---

(١) قوله: «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور. (ع).
(٢) قال محمود: «إن قلت. ما فائدة قوله: (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى؟. . . إلخ» قال أحمد: كلام حسن إلاَّ استدلاله بقوله: (ويؤمنون به) على أنهم ليسوا مشاهدين. فهذا لا يدل؛ لأن الإيمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به. بدليل صحة إطلاق الإيمان بالآيات مع أنها مشاهدة، كانشقاق القمر وقلب العصا حية. وإنما نقب الزمخشري بهذا التكلف عما في قلبه من مرض، لكنه طاح بعيداً عن الغرض، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين، بدليل قوله تعالى: (ويؤمنون) لأن معنى الإيمان عنده التصديق بالغائب، ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين: أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الإيمان مستلزم عدم الرؤية، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة، وقوله: ولو كانت صحيحة لرأوه: شرطية عقيمة الإنتاج؛ لأن الرؤية عبارة عن إدراك، يخلق الله تعالى هذا الإدراك لحملة العرش، إلا أن يذهب بالزمخشري الوهم إلى أن مصححي الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى الله عن ذلك، وحاشى أهل السنة ومصححي الرؤية من ذلك.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] فبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة[1] لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين، ولما وصفوا بالإيمان؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم عُلِمَ أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام ـ سواء: في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير، وأنه لا طريق إلى معرفته إلاّ هذا، وأنه منزه عن صفات الأجرام. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن. فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المضمر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله، وأن يكون حالاً. فإن قلت: تعالى الله عن المكان، فكيف صحّ أن يقال: وسع كل شيء؟ قلت: الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى. والأصل: وسع كل شيء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء. فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً، وما ذكر إلاّ الغفران وحده؟ قلت: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك[2]. وسبيل الله: سبيل

---

(١) قوله: «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة؛ لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة لزمهم القول بأنه تعالى جسم، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية، خلافاً للمعتزلة، كما بين في علم التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قد ذكر أولاً الرحمة والعلم، ثم ذكر ما توجبه الرحمة وهو الغفران، فأين موجب العلم؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك.. إلخ» قال أحمد: كلامه ههنا محشو بأنواع الاعتزال: منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعي الحكم على الله تعالى. ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوباً وإن لم يكن توبة. ومنها اعتقاد امتناع غفران الله تعالى للكبائر التي لم يتب عنها. ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على الله تعالى. ومنها جحد الشفاعة، واعتقاد أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ما عدا الشرك وإن لم يتب منها، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته لا بالوجوب عليه، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين، فهذه جواهر خمسة نسأل الله تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة، وأن لا يحرمنا ألطافه ومراحمه، آمين. وجميع ما يحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال في هذا =

الحق التي نهجها[1] لعباده ودعا إليها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلاّ بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك، ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوبات، أو جزاء السيئات. فحذف المضاف على أن السيئات، هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها. والوقاية منها: التكفير أو قبول التوبة. فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد؟ قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته زيادة الكرامة والثواب. وقرئ: «جنة عدن» و«صلُح» بضم اللام، والفتح أفصح. يقال: صلح فهو صالح، وصلح فهو صليح، و«ذريتهم».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أي: ينادون يوم القيامة، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ والتقدير: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بذكرها مرة. و ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوب بالمقت الأوّل[2]. والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء

= الموضع قد تقدم، غير أنه جدد ههنا قوله: إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة، وذلك مزيد الكرامة لا غير، يريد: أن المغفرة للتائب واجبة على الله فلا تسأل، وهذا الذي قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة، كيف يجعل المسئول مزيدة الكرامة لا غير. ونص الآية: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، فهي ناطقة بأنهم يسألون من الله تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم، وهو الذي أنكر الزمخشري كونه مسئولاً.

(١) قوله: «التي نهجها» أي: أبانها وأوضحها. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: وردَّ عليه الشيخُ بأنه يلزم منه الفصل بين المصدر ومعموله بأجْنَبِيٍّ وهو الخبر. وقال: هذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تخفى على المُبْتَدِىء فضلاً عن مَنْ يَدَّعِي من العجم أنه شيخُ العرب والعجم. قُلْتُ: ومثْلُ هذا لا يَخْفَى على أبي القاسم وإنما أراد أنَّه دالٌّ على ناصِبِه. وعلى تقدير ذلك فهو مذهبٌ كوفي قال به، أَوْ لأَنَّ الظرف يُتَّسَعُ فيه ما لا يتسع في غيره، وأيُّ غُمُوضٍ في هذا حتى يَنْحَى عليه هذا الإنْحاء؟ ولله القائلُ [من الكامل]:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَه فَـالـقَـوْمُ أَعْـدَاءٌ لَـهُ وخُـصُـومُ

كضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا كَـذِبـاً وزوراً: إنَّـه لَـدمِـيـمُ

وهذا الردُّ قد سبقه إليه أبو البقاء فقال: ولا يجوز أن يعمل فيه «مَقْتُ الله» لأنه مصدرٌ أُخْبِرَ عنه وهو قوله: «أَكْبَرُ» فمن ثَمَّ أخَذَهُ الشيخُ. ولا يجوز أن ينتصبَ بالمقت الثاني؛ لأنهم لم يَمْقُتُوا أنْفُسَهُمْ وَقْتَ دُعَائِهِم إلى الإيمانِ وإنما مَقَتُوهَا يومَ القيامة. والظاهرُ أنَّ مَقْتَ الله واقعٌ في الدنيا. وجوَّز =

والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ. وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم، فنودوا لمقت الله. وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض، كقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾: تعليل، والمقت: أشدّ البغض، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه. ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ إماتتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أوّلاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحيائتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. فإن قلت: كيف صحّ أن يسمي خلقهم أمواتاً: إماتة؟ قلت: كما صحّ ٢/ ١٥٠ب أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد، من غير ترجح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما[1] على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد

= الحَسَنُ أنْ يكون في الآخرة، وضعَّفه الشيخُ بأنه يَبْقَى «إذْ تَدْعُونَ» مُفلتاً من الكلام لكونه ليس له عامل مقدم ولا ما يُفَسِّرُ عاملاً، فإذا كانَ المَقْتُ في الدنيا أَمْكَنَ أَنْ يُضمَرَ له عامل تقديره: مَقَتَكُمْ. قُلْتُ: وهذا التَّجَرِّي على مثل الحسن يَهُوْنُ عليك تَجَرِّيه على الزمخشري ونحوه. انتهى الدر المصون.

(١) قال محمود: «إحدى الإماتتين خلقهم أمواتاً أولاً، والأخرى إماتتهم عند انقضاء آجالهم، ثم قال: فإن قلت: كيف سمى خلقه لهم أمواتاً إماتة؟ وأجاب بأنه كما يقال: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما يقال للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معاً على المصنوع الواحد، وكذلك الضيق والسعة، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر، جعل صرفاً عن الآخر وهو متمكن منه.» قال أحمد: ما أسد كلامه ههنا؛ حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه الله في مسألة: ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لإحداهما والخيرة في عينها، فإنه منع من ذلك؛ لأن المشتري لما كان متمكناً من تعيين كل واحدة منهما على سواء، فإذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى، وقد كان متمكناً منها منزلة اختيارها أولاً، ثم الانتقال عنها إلى هذه، فإذا آل إلى بيع إحداهما بالأخرى غير معلومتي التماثل، وهو الذي لخصه أصحابنا في قولهم: إن من خير بين شيئين فاختار أحدهما: عُدَّ متنقلاً. وقد سبقت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيما تقدم.

حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلاّ أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها، أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستثنيين من الصعقة في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٧٨]. فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى؛ لأن من لم يخش العاقبة تخرق[١] في المعاصي، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم. ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه. وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي؛ ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك[٢] به، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد: ،وقوله: ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلاّ كذلك، وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته. وقيل: كأن الحرورية[٣] أخذوا قولهم: لا حكم إلاّ لله، من هذا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾

---

(١) قوله: «تخرق في المعاصي» في الصحاح: يقال: هو يتخرق في السخاء، إذا توسع فيه. (ع).

(٢) قال محمود: «أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء (من سبيل) قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) معناه: أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد الله تعالى، وإيمانكم بالإشراك، قال أحمد: وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم [من مجزوء الرمل]:

هل إلى نجد وصول ... وعلى الخيف نزول

وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع.

(٣) قوله: «الحرورية» في الصحاح: أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية، وكأنه يريد أهل السنة؛ فإنهم الذين اشتهر عنهم هذا القول، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع، كما بيّن في الأصول. (ع).

﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق: المطر؛ لأنه سببه. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلاّ من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه، ثم قال للمنيبين: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك، وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: «هو» مترتبة على قوله: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أو أخبار مبتدإٍ محذوف، وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً[(١)].

وقرئ: «رفيع الدرجات» بالنصب على المدح. ورفيع الدرجات، كقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣] وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، وهي دليل على عزّته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء. والعرش فوقهن. ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه، كما أنّ ذا العرش عبارة عن ملكه. وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة ﴿ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره، يريد: الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله أو الملقى عليه: وهو الرسول أو الروح. وقرئ: «لتنذر» أي: لتنذر الروح لأنها تؤنث، أو على خطاب الرسول. وقرئ: «لينذر يوم التلاق» على البناء للمفعول. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلائق تلتقي فيه. وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: المعبود والعابد. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عراة حفاة غرلاً» (١٣٥٥) ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾. أي: من أعمالهم وأحوالهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يخفى عليه منهم شيء. فإن قلت: قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا، فما معناه؟ قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون ـ في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب ـ أنّ الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا

١٣٥٥ ـ أخرجه البخاري (١٣/١٨٧ ـ ١٨٨)، كتاب الرقاق، باب: الحشر حديث (٦٥٢٧). ومسلم (٩/٢١٠)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا، وبيان الحشر. حديث (٥٦) ـ (٢٨٥٩)، كلاهما من طريق عائشة.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

---

(١) قال السمين الحلبي: أما الأول: ففيه طُول الفصل وتعدُّد الأخبارِ وليست في معنى خَبَرٍ واحِدٍ. انتهى. الدر المصون.

يتوهمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ ٢/ ١٥١أ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم؛ وظنهم أنّ الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يُعْصَ الله فيها قط «فأوّل ما يتكلم به أن ينادي منادٍ: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس. . .) الآية. فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك، وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت، وأن الظلم مأمون؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطيء؛ لأن الله لا يشغله حساب على حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخذ في حسابهم لم يَقِلْ[١] أهل الجنة إلاّ فيها ولا أهل النار إلاّ فيها.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

الآزفة: القيامة، سميت بذلك لأزوفها، أي: لقربها. ويجوز أن يريد بـ«يوم الآزفة»: وقت الخُطَّة الآزفة، وهي مشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا، ولكنها معترضة كالشجا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]. فإن قلت: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ بما انتصب؟ قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى؛ لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وتعضده قراءة من قرأ: «كاظمون» ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: وأنذرهم، أي: وأنذرهم

---

(١) قوله: «لم يقل أهل الجنة إلاّ فيها» من قال يقيل قيلولة. (ع).

مقدّرين أو مشارفين الكظم، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] الحميم: المحب المشفق. والمطاع: مجاز في المشفع؛ لأنّ حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلاّ لمن فوقك. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؟ قلت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة[١]، كما تقول: ما عندي كتاب يباع، فهو محتمل نفي البيع وحده، وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه، ونفيهما جميعاً، وأن لا كتاب عندك، ولا كونه مبيعاً. ونحوه [من السريع]:

.... وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[٢]

يريد: نفي الضب وانجحاره. فإن قلت: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله؟ قلت: على نفي الأمرين جميعاً، من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلاّ من أحبه الله ورضيه، وأنّ الله لا يحبّ الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولأن الشفاعة لا تكون إلاّ في زيادة التفضل[٣]، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٤] وعن الحسن رضي الله عنه: والله ما يكون لهم شفيع البتة، فإن قلت: الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قلت: في ذكرها فائدة جليلة، وهي أنها ضمت إليه؛ ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف، بيانه: أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: ما لي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة، كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي؟ فكذلك قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون المنفي الشفيع الذي هو الموصوف وصفته وهي الطاعة، ويحتمل أن يكون المنفي الصفة وهي الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد: إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة، ونفي المجموع كما يكون بنفي كل واحد من جزئيه، وكذلك يكون بنفي أحدهما، على أن المراد هنا ـ كما قال ـ: نفي الأمرين جميعاً. قال: وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفي الصفة؛ لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعاً، قلت: فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين.

(٢) تقدم.

(٣) قوله: «لا تكون إلاّ في زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة: فتكون في الخروج من النار أيضاً، كما تقرر في التوحيد. وحديث الشفاعة مشهور، نعم الكفار لا خروج لهم من النار. (ع).

ولا شفيع، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف[1] غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب ٢/ ١٥١ب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ لا يساعد عليه[2]. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؟ قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ مثل ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ولكن ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ قد علل بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلاّ بالحق والعدل؛ لاستغنائه عن الظلم. وآلهتكم لا يقضون بشيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو لا يقضي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: «يدعون» بالتاء والياء.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

(هم) في ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ فصل. فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلاّ بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشدّ منهم. قلت: قد ضارع المعرفة

---

(١) قوله: «موضع الأمر المعروف» أي الذي يعرفه السامع ويسلمه، كما هو شأن الشاهد على الدعوى، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفاً فلا ينتفي أن يتوهم وجوده، وبهذا يتبين قوله فيما سبق، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجوده الموصوف. (ع).

(٢) قال محمود: «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى: (وما تخفي الصدور) قال أحمد: إنما لم يساعد عليه؛ لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه: الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور، لا ما تخفيه الصدور، بخلاف التأويل الأول، فإن المراد به نظرات الأعين، فيطابق خفيات الصدور.

في أنه لا تدخله الألف واللام فأجري مجراها. وقرئ: «منكم» وهي في مصاحف أهل الشام. ﴿وَءَاثَارًا﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم، وما يوصف بالشدّة من آثارهم. أو: أرادوا أكثر آثاراً، كقوله [من مجزوء الكامل]:

.... مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً[1]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات، فقالوا: هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحراً وكذباً ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالنبوّة، فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً، يريد: أن هذا قتل غير القتل الأول: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وذهاب، باطلاً لم يجد عليهم، يعني: أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني، وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحسّ بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقاً، وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى، وما علم أنّ كيده ضائع في الكرتين جميعاً.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) ورأيت زوجك في الوغى ... متقلداً سيفاً ورمحا

الوغى: الحرب. ورمحاً: نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وروي بدل الشطر الأول:

يا ليت زوجك قد غدا ....

أي: ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.

البيت لعبد الله بن الزبعري. انظر الخصائص (٢/ ٤٣١)، أمالي ابن الشجري (٢/ ٣٢١)، الإنصاف (٢/ ٦١٢)، شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٥٠)، الكامل (١/ ٣٣٤)، مجاز القرآن (٢/ ٦٨)، تأويل المشكل (٢١٤)، شرح القصائد العشر (٢٤٧)، المقتضب ٢/ ٥٠، الطبري (١١/ ٥٧٧)، والبحر المحيط ١/ ٧٧، والدر المصون ١/ ١٠٧.

﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلاّ ساحراً مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكان قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تمويهاً[1] على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، بدليل قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] والفساد في الأرض: التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً، كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه. أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وفي مصاحف أهل الحجاز: «وأن يظهر» بالواو، ومعناه. إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معاً. وقرئ: «يُظْهِرُ» من «أظهر»[2]، و«الفساد» منصوب، أي: يظهر موسى الفساد. وقرئ: «يَظَّهَّر» بتشديد الظاء والهاء، من تظهر بمعنى تظاهر، أي: تتابع وتعاون.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال ٢/ ١٥٢أ لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل

---

(١) قال محمود: «كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم: ليس هذا ممن يخاف، وإنما هو ساحرٌ لا يقاومه إلاّ مثله، وقتله بوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفاً، وكان فرعون لعنه الله في ظاهر أمره ـ والله أعلم ـ عالماً أنه نبي خائفاً من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجزع، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم: ذروني أقتله؛ ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم، لا إلى جزعه وخوفه. ويدل على خوفه منه لكونه نبياً قوله: (وليدع ربه) وهذا من تمويهاته المعروفة، قال أحمد: هو من جنس قوله: (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفاً منهم، ولكن غيظاً عليهم، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة، لا أن ذلك خوف وهلع، ولقد كذب، إنما كان فؤاده مملوءاً رعباً.

(٢) قوله: «وقرئ: يظهر من أظهر» يفيد أن القراءة المشهورة: يظهر من ظهر، والفساد مرفوع. (ع).

استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض؛ فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلاّ ارتكبها. و«عذت» ولذت أخوان. وقرئ: «عت»، بالإدغام.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ وقرئ: «رجل» بسكون الجيم، كما يقال: عضد في عضد، وكان قبطيا ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرًا وقيل: كان إسرائيليًا و﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لرجل. أو صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب، وقيل: خربيل أو حزبيل، والظاهر أنه كان من آل فرعون فإنّ المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلّوا ولم يعزُّوا. والدليل عليه قول فرعون: ﴿أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥]. وقول المؤمن: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] دليل ظاهر على أنه يتنصّح لقومه. ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلاّ كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم[1]، وللك أن تقدر مضافاً محذوفاً، أي: وقت

(١) قال محمود: «الظاهر أن الرجل من آل فرعون، وقيل: إنه من بني إسرائيل. ومن آل فرعون: متعلق بيكتم، تقديره: يكتم إيمانه من آل فرعون، وهو بعيد؛ لأن بني إسرائيل كان إيمانهم ظاهراً فاشياً، ولقد استدرجهم هذا المؤمن في الإيمان باستشهاده على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببينات عدة لا بينة واحدة، وأتى بها معرفة، معناه: البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك؛ ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم. . . إلخ، قال أحمد: لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى: (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيمصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق وهو يوسف دونها؛ لرفع التهمة وإبعاد الظن؛ وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه؛ إذ بدأ =

أن يقول. والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره؟[1]. وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد: بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض ﴿ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو نبيّ صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم[2] ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو كلام المنصف[3] في مقاله غير المشتط فيه؛ ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلاً أن يتعصب له، أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل، وأنشد بيت لبيد [من الكامل]:

تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا ... أَوْ يَـرْتَـبِـطْ بَـعْـضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[4]

= بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، حتى قيل: إنه لما انتهى إليه قال: اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك، فقالوا: والله لنفتشنه، فاستخرجها من وعائه.

(١) قال السمين الحلبي: رده الشيخ: بأن تقدير هذا الوقت لا يجوز إلا مع الوقت المُصَرَّح به تقول: جئتك صياح الديك أي: وقت صياحه، ولو قلت: أجيئك أن صاح الديك، أو أن يصيح، لم يَصِحّ، نص عليه النحويون. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في الصحاح: فلان يلاوص الشجر، أي: ينظر كيف يأتيها لقلعها. (ع).

(٣) وطريقة هذا اللون توحي بمقصود المتكلم وإن خالفت ظاهر العبارة، وقد أشار الزمخشري ومعه أبو السعود ونحوهم أن هذه الطريقة أدخل في النفس وإن كان معانداً وأجلب له وإن اشتط في إعراضه، ولهذا تكون غالباً في مقامات الحوار والجدل، وقد اتخذها النبيون والمرسلون في طريقة محاورة الخصوم والمعاندين، وهذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤].
وقد علق ابن المنير على هذا اللون بأنه «تفسير مهذب وافتنان مستعذب».
«يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨٢ وما بعدها.

(٤) تقدم.

قلت: إن صحت الرواية عنه، فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي: كان أجفى من أن يفقه ما أقول له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فيتخلصون منه، وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة، ولما عضده بالبينات. وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشدّ من ذلك، طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا، فقال: أنا ذاك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فالتزمه من ورائه وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، رافعاً صوته بذلك، وعيناه تسفحان، حتى أرسلوه (١٣٥٦). وعن جعفر الصادق: أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرًا، وأبو بكر قاله ظاهراً.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل، يعني: أنّ لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم ٢/١٥٢ب به هو مساهم لهم فيه. ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم برأي إلاّ بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلاّ قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب. ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يريد: سبيل الصواب والصلاح. أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، ولا أدّخر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب؛ فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى،

١٣٥٦ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٣٧١)، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً...» رقم (٣٦٧٨)، (٧/ ٥٥٥)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٦)، (٩/ ٥١٨)، كتاب: التفسير، باب: سورة المؤمن، رقم (٤٨١٥)، وأحمد (٢/ ٢٠٤، ٢١٨)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦)، باب: ذكر ما لقي الرسول وأصحابه...»، وابن حبان (١٤/ ٥٢٥ ـ ٥٢٧)، كتاب: التاريخ باب: كتب النبي ﷺ، رقم (٦٥٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨ ـ ١٩)، وقال: في الصحيح طرف منه ورواه أحمد، وقد صرح ابن إسحق بالسماع، وبقية رجاله رجال الصحيح. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص، وابن حبان من طريق يحيى بن عروة عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أتم منه. قلت: علقه البخاري نحوهما. انتهى.

ولكنه كان يتجلد، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: «الرشاد» فعال من رشد بالكسر، كعلام. أو من رشد بالفتح كعباد، وقيل: هو من أرشد كجبار من أجبر، وليس بذلك؛ لأنّ فعالاً من أفعل لم يجئ إلاّ في عدّة أحرف، نحو: درّاك وسآرا وقصار وجبّار، ولا يصحّ القياس على القليل. ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد، كعوّاج وبتات[1]، غير منظور فيه إلى فعل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع؛ لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله [من الوافر]:

كُـلُـوا فِـي بَـعْـضِ بَـطْـنِـكُـمْ تَـعِـفُّـوا ....[2]

وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب، ودأب هؤلاء: دأبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكون ذلك دائباً دائماً منهم لا يفترون عنه، ولا بدّ من حذف مضاف، يريد: مثل جزاء دأبهم. فإن قلت: بم انتصب ﴿مِثْلَ﴾ الثاني؟ قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأوّل؛ لأنّ آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح، ولو قلت: أهلك الله الأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود، لم يكن إلاّ عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام، فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة الظلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً، كان عن الظلم

---

(١) قوله: «كعواج وبتات» أي: صاحب العاج، والعاج: عظم الفيل. والبتات: الذي يبيع البتوت، أو يعملها. والبت: الطيلسان من الخز، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) كـلـوا فـي بـعـض بـطـنـكـم تـعـفـوا ... فـإن زمـانـكـم زمـن خـمـيـص

أي كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس، أي: لا تملئوها، فإن أطعمتوني عففتم عن الطعام، وعف يعف ـ بكسر عين المضارع، من باب ضرب يضرب، ثم قال: فإن زمانكم، أي أمرتكم بذلك؛ لأن زمانكم مجدب. والخميص: الضامر البطن، فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية، ووصفه بالخمص تَخييل لذلك.

ينظر: أسرار العربيّة ص ٢٢٣، وتخليص الشواهد ص ١٥٧، وخزانة الأدب ٧/ ٥٣٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٣، والدرر ١/ ١٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧٤، وشرح المفصّل لابن يعيش ٥/ ٨، ٦/ ٢١، والكتاب ١/ ٢١٠، والمحتسب ٢/ ٨٧، والمقتضب ٢/ ١٧٢، وهمع الهوامع ١/ ٥٠.

أبعد. وحيث نكر الظلم، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده[1]. ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد لهم أن يظلموا؛ يعني أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين[2].

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

«التنادي» ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد، وهو أن يندّ بعضهم من بعض؛ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾ [عبس: ٣٤] وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلاّ وجدوا ملائكة صفوفاً، فبينا هم يموج بعضهم في بعض؛ إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب. ﴿تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ عن قتادة: منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فارّين عن النار غير معجزين.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل: هو يوسف بن إبراهيم[3] بن يوسف بن يعقوب: أقام فيهم نبيًّا عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر. وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا

---

(١) قوله: «كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده، وأن الإرادة بمعنى الرضا. وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر، فالرضا غير الإرادة عندهم، كما تقرر في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «يجوز أن يكون معناه معنى: (وما ربك بظلام للعبيد). وهذا أبلغ؛ لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد، وحيث نكر الظلم أيضاً، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده. قال: ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) فيكون المعنى: أن الله لا يريد لعباده أن يظلموا؛ لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد: هذا من الطراز الأول، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بإرادة الله تعالى خلافاً لهذا وأشياعه.

(٣) قوله: «وقيل: هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفي: (ع).

شاكين كافرين. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ قبض ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه، وليس قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته. وقرئ: «ألن يبعث الله» على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين[1] يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه. ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بدل من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، فكأنه قال: كل مسرف. فإن قلت: فما فاعل ﴿كَبُرَ﴾؟ قلت: ضمير ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. فإن قلت: أما قلت: هو جمع، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون؟ قلت: بلى هو جمع في المعنى. وأما ٢/ ١٥٣أ اللفظ فموحد، فحمل البدل على معناه، والضمير الراجع إليه على لفظه، وليس ببدع[2] أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، وله نظائر، ويجوز أن يرفع ﴿الذين يجادلون﴾ على الابتداء، ولا بدّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر، تقديره: جدال الذين يجادلون كبر مقتاً، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ مبتدأ؛ و﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ خبراً[3]،

---

(١) قوله: «أي مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الإضلال بالخذلان والترك، بناء على مذهبهم: أن الله لا يخلق الشر. وأهل السنة يفسرونه يخلق الضلال في القلب، بناء على أنه تعالى يخلق الشر كالخير كما بين في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «(الذين يجادلون) بدل من (من هو مسرف)؛ لأن المراد (كل مسرف). وجاز إبداله على معنى (من)، لا على لفظها. قال: فإن قلت: ما فاعل كبر؟ وأجاب بأنه ضمير (من هو مسرف)، فحمل البدل على المعنى، والضمير على اللفظ، وليس ببدع» اه كلامه. قال أحمد: فيما ذكره معاملة لفظ (من) بعد معاملة معناها، وهذا مما قدمت أن أهل العربية استغربونه، والأولى أن يجتنب في إعراب القرآن، فإن فيه إبهاماً بعد إيضاح، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه، والصواب أن يجعل الضمير في قوله(كبر) راجعاً إلى مصدر الفعل المتقدم، وهو قوله: (يجادلون) تقديره: كبر جدالهم مقتًا، ويجعل(الذين) مبتدأ، على تأويل حذف المضاف، تقديره: جدال الذين يجادلون في آيات الله، والضمير في قوله(كبر مقتا) عائد إلى الجدال المحذوف، والجملة مبتدأ وخبر. ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) على أحد تأويله، ومثله كثير. وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما يتطرق إلى الوجه المتقدم، فالوجه العدول عنه.

(٣) قال السمين الحلبي: وردَّه الشيخُ بأنَّ فيه تفكيك الكلام بعضَه من بعضٍ؛ لأنَّ الظاهرَ تَعَلُّقُ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ بِيُجَادِلُونَ، ولا يُعْقَلُ جَعْلُه خَبَراً لِلَّذِينَ؛ لأنه جارٌ ومجرور، فيصير التقدير: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ كائِنُونَ أَوْ مُسْتَقِرُّونَ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ، أي في غَيْرِ سُلْطَانٍ، لأنَّ الباءَ إذ ذاكَ ظرفيةٌ خَبَرٌ عن الجُثَثِ. انتهى. الدر المصون.

وفاعل كبر قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال، و﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنف، ومن قال: كبر مقتاً عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل، والفاعل لا يصحّ حذفه[1]. وفي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، والشهادة على خروجه من حدّ إشكاله من الكبائر. وقرئ: «سلطان» بضم اللام. وقرئ: «قلب» بالتنوين، ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه مركزهما ومنبعهما، كما تقول: رأت العين، وسمعت الأذن. ونحوه قوله عزّ وجل: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر، و﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه، كالرشاء ونحوه، فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير، ولو قيل: لعلي أبلغ أسباب السمٰوات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السمٰوات أبهمها ثم أوضحها؛ ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه. وقرئ: «فأطلع» بالنصب[2] على جواب الترجي، تشبيهاً للترجي بالتمني. ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والمزين: إما الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٣٤] أو الله تعالى على وجه التسبيب؛ لأنه مكن[3] الشيطان وأمهله. ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]. وقرئ: «وزَيَّنَ له سوءَ عملِهِ»[4] على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ، دلّ عليه قوله: ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وصدّ،

---

(١) قال السمين الحلبي: القائل بذلك هو الحوفي لكنه لا يريد بذلك تفسير الإعراب إنما يريد به تفسير المعنى، وهو معنى ما قدّمتهُ من أنَّ الفاعل ضميرٌ يعود على جدالهم المفهوم من فِعْلِهِ، فَصَرَّحَ الحوفيُّ بالأصل وهو الاسمُ الظاهر ومراده ضميرٌ يعود عليه. انتهى. الدر المصون.

(٢) «وقرى: (فأطلع) بالنصب» يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف.(ع).

(٣) قوله: «على وجه التسبيب لأنه مكن» أول بهذا؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل، وتبقى الآية على ظاهرها.(ع).

(٤) قوله: «وقرئ وزين له سوء عمله» أي بدل قوله تعالى: (وكذلك زين لفرعون سوء عمله).(ع).

بفتح الصاد وضمها وكسرها، على نقل حركة العين إلى الفاء، كما قيل: قيل. والتباب: الخسران والهلاك. وصدّ: مصدر معطوف على سوء عمله وصدّوا هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

قال: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشرّ كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقرّ. وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما؛ ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ وفي هذا أيضاً دليل بيّن على أن الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغي. وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة؛ لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة؛ لأنها فضل. قرئ: «يَدْخُلون» ويُدْخَلون. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة إلاّ مثلها، يعني: أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف

بهم، ويستدعي بذلك ٢/١٥٣ب أن لا يتهموه، فإنّ سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحه لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾. وأما المجيء بالواو العاطفة، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلهاً؟[1].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل (لا) ردًّا لما دعاه إليه قومه. وجرم: فعل بمعنى حق، وأنّ مع ما في حيزه فاعله، أي: حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى: كسب، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] أي: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلاّ ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يقال: أن لا جرم، نظير: لا بدّ، فعل من ا لجرم، وهو القطع، كما أن بدّاً فعل من التبديد وهو التفريق، فكما أن معنى: لا بد أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بد لك من فعله، فكذلك لا جرم أن لهم النار، أي: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع؛ لبطلان دعوة الأصنام، أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًّا. وروي عن العرب: لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء، بزنة بد، وفعل وفعل: أخوان. كرشد ورشد، وعدم وعدم. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته، لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدّعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضجّ من دعائكم. وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره، وفي الآخرة: إذا أنشأه الله حيواناً، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته.

---

(١) قال محمود: «المراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً؟» قال أحمد: وهذا من قبيل «على لا حب لا يهتدي بمناره» أي: لا منار له فيهتدى به، وكلام الزمخشري ههنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون: (ما علمت لكم من إله غيرى).

وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة. أو دعوة مستجابة، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة. أو سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان. قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]. ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ عن قتادة: المشركين. وعن مجاهد: السفاكين للدماء بغير حلها. وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون. وقرئ: «فستذكرون». أي: فسيذكر بعضكم بعضاً. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: نجا مع موسى، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم. ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من سوء العذاب. أو خبر مبتدإ محذوف، كأن قائلاً قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو مبتدأ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: «النار» بالنصب، وهي تعضد الوجه الأخير. وتقديره: يدخلون النار يعرضون عليها، ويجوز أن ينتصب على الاختصاص. ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم، فأمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو ينفس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: عبارة عن الدوام، هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لهم: ادْخُلوا[1] يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾ عذاب جهنم. وقرئ: ﴿أدخلوا آل فرعون﴾ أي: يقال لخزنة جهنم: أدخلوهم. فإن قلت: قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين، كقول العرب: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعاً عليهم؛ لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت: يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوماً فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقاً؛ لأنه همّ بسوء، فأصابه ما يقع عليه اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهمّ فرعون ـ لما سمع إنذار المسلمين بالنار، وقول المؤمن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] ـ فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهمَّ بفعله. ويستدلّ ٢/ ١٥٤أ بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

---

(١) وهي قراءة من القراءات.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

واذكر وقت يتحاجون ﴿تَبَعًا﴾ تباعاً، كخدم في جمع خادم. أو ذوي تبع، أي: أتباع، أو وصفاً بالمصدر.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

وقرئ: «كلًّا» على التأكيد لاسم إن، وهو معرفة، والتنوين عوض من المضاف إليه، يريد: إنا كلنا، أو كلنا فيها[١]. فإن قلت: هل يجوز أن يكون «كلًّا» حالاً قد عمل (فيها) فيها؟ قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول: قائماً في الدار زيد. ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوّام بتعذيب أهلها. فإن قلت: هلا قيل: الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً، من قولهم: بئر جهنام بعيدة القعر[٢]، وقولهم في النابغة: جهنام، تسمية بها، ؛لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر[٣]، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر [من الرجز]:

قُلَيْذَمٌ مِنَ الْعَيَالِيمِ الْخُسُفْ[٤]

---

(١) قال السمين الحلبي: قلت: وليس هذا مذهباً للزمخشري وحده بل هو منقول عن الكوفيين أيضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «بئر جهنام بعيدة القعر... إلخ» في الصحاح: بكسر الجيم والهاء. (ع).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: فهلا قيل: لخزنتها، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم: بئر جهنام، أي: بعيدة القعر، وكان النابغة يسمي الجهنام لبعد غوره في الشعر» قال أحمد: الأول أظهر، والتفخيم فيه من وجهين، أحدهما: وضع الظاهر موضع المضمر، وهو الذي أشار إليه، والثاني: ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه؛ لأن جهنم أفظع من النار؛ إذ النار مطلقة» وجهنم أشدها.

(٤) أودى جميع العلم مذ أودى خلف ... من لا يعد العلم إلا ما عرف
رواية لا يجتني من الصحف ... قليذم من العيالم الخسف =

وفيها أعتى الكفار وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى؛ فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم. ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات. ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم، فإنا لا نجترىء على ذلك ولا نشفع إلاّ بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين، وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة؛ فإن الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه، فكيف يسمع دعاء الكافر.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتص[1] من أعدائهم ولو بعد حين. والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد ﷺ، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. واليوم الثاني بدل من الأوّل، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة[2] لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦]،

= لأبى نواس يرثى خلف الأحمر بن أحمد. وأودى هلك ومن لا يعد العلم صفة خلف، أي: لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين. أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين، فهو رواية، أي كثير الرواية لا يأخذ من الكتب، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية، والاجتناء تخييل. والقليذم: البئر الغزيرة الماء. والعيلم: الحفرة الكثيرة الماء. والخسف: البعيدة الغور العميقة، شبهه بذلك تشبيها بليغاً؛ لكثرة علمه ومعرفته للمعانى البعيدة الخفية.
ينظر: ديوانه ٢/ ١٤١، وتاج العروس: (خسف)، (علم)، ولسان العرب: (علم)، ومقاييس اللغة: ٢/ ١٨١.

(١) قوله: «من يقتص» أي: يقدر. (ع).

(٢) قال محمود: «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم؛ لأنها باطلة. ويحتمل أنهم لا يعتذرون، ولو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة «قال أحمد: «هما الاحتمالان في قوله تعالى: (ولا شفيع يطاع) ولكن بين الموضعين فرقاً يصير أحدهما معه عكس الآخر؛ وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة، قطعاً لرجائهم كي لا يعتذروا البتة، كأنه قيل: إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له، وفي الآية المتقدمة جعل نفي الموصوف بتا لنفي الصفة؛ ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل.

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ البعد من رحمة الله. ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوء دار الآخرة، وهو عذابها. وقرئ: «تقوم»، و «لا تنفع»، بالتاء والياء.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ (٥٣) هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٥٤)﴾

يريد بالهدى: جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع. ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾ وتركنا على بني إسرائيل من بعده ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ﴾ إرشاداً وتذكرة، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال. وأولوا الألباب: المؤمنون به العاملون بما فيه.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٥٥)﴾

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يعني أن نصرة الرسل في ضمان الله، وضمان الله لا يخلف، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده، وإبقاء آثار هداه في بني إسرائيل، والله ناصرك كما نصرهم، ومظهرك على الدين كله، ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها، فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص؛ فإن العاقبة لك، وما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق، وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار، ودم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (٥٦)﴾

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ إلا تكبر وتعظم، وهو إرادة التقدّم والرياسة، وأن لا يكون أحد فوقهم؛ ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة. أو إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسداً وبغياً. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] أو إرادة دفع الآيات بالجدال: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوّة أو دفع الآيات. وقيل: المجادلون هم ٢/ ١٥٤ب اليهود، وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح ابن داود، يريدون الدّجال، ويبلغ سلطانه البر

والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك، فسمى الله تمنيهم ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمناهم. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرّهم.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السمٰوات والأرض لأنهم كانوا مقرّين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله[1]، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيىء. وقرئ: «يتذكرون» بالياء والتاء، والتاء أعم.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف اتصل قوله (لخلق السموات والأرض) بما قبله؟ وأجاب بأن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم، فخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله، قال أحمد: الأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين، أحدهما ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر. الثانية: أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعني السموات والأرض داخلاً تحت القدرة فابتداء خلق الحقير: يعني الناس أدخل تحتها، وإعادته أدخل من ابتدائه، فهو أولى بأن يكون مقدوراً عليه مما اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين، وإلى هذا الترتيب وقعت الإشارة بقوله تعالى في: (ألم غلبت الروم): (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره، أي: خلقها من آياته، فكيف بما هو أحط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان، فقال تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)؛ وإذا تأملت الذي ذكرته منسوباً لما ذكره الزمخشري، علمت أن ما ذكره هو لباب المراد، فجدد عهداً به إن لم تعلم ذلك.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة، وليس بمرتاب فيها؛ لأنه لا بد من جزاء. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ اعبدوني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ والاستجابة: الإثابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم. وعن الحسن ـ وقد سئل عنها ـ: اعملوا وأبشروا؛ فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (١٣٥٧) وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن

١٣٥٧ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٠): غريب وقد ورد الحديث بلفظ «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وإليك تخريجه.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٨٤) كتاب فضائل القرآن: باب (٢٥) حديث (٢٩٢٦)، والدارمي (٢/ ٤٤١) كتاب فضائل القرآن: باب فضل كلام الله على سائر الكلام، وابن نصر في «قيام الليل» (ص ٧١)، والعقيلي في «الضعفاء (٤/ ٤٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٣٨) كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن غريب. والحديث أعله العقيلي في «الضعفاء بمحمد بن الحسن وقال لا يتابع عليه».
وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٨٢) رقم (١٧٣٨): سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السائلين قال أبي هذا حديث منكر ومحمد بن الحسن ليس بالقوي أ.هـ فأعل العقيلي وأبو حاتم هذا الحديث بمحمد بن الحسن قلت: قال البيهقي: تابعه الحكم بن بشير ومحمد بن مروان عن عمرو بن قيس لتنحصر علة الحديث في ضعف وتدليس عطية العوفي.
وللحديث شاهد من حديث عمر بن الخطاب أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٩٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤١٣) رقم (٥٧٢) كلاهما من طريق صفوان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده مرفوعاً به ومن طريق صفوان أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٦٦) وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع ما رواه إلاّ صفوان بهذا الإسناد فأما صفوان فيروي عن الإثبات. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال: «يقول الله: إذا اشتغل عبدي بثنائه عن مسألتي أعطيته =

رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (١٣٥٨) وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتي: دعائي؛ لأن الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها، يصدقه قول ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء (١٣٥٩). وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلاّ نبيًّا مرسلاً: كان يقول لكل نبيّ أنت شاهدي على خلقي، وقال لهذه الأمة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وكان يقول: ادعني أستجب لك؛ وقال لنا: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد. ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿مُبْصِرًا﴾ من الإسناد المجازي؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعي حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر؛ لأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً ـ والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، وساكن لا ريح فيه ـ لم تتميز الحقيقة من المجاز. فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل، أو لمتفضل؟ قلت: لأن الغرض تنكير الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يستوي بالإضافة. فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦، الزخرف: ١٥] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ

= أفضل ما أعطي السائلين» وهذا مرسل، وفي الترمذي عن أبي سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». انتهى.

١٣٥٨ ـ تقدم في مريم، وقال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وتقدم في مريم. انتهى.

١٣٥٩ ـ أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، كتاب: الدعاء، باب: فضل العبادة هو الدعاء، من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ الآية. انتهى. وقال الحافظ بن حجر: أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه. انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء، والوحدانية: لا ثاني له. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان. ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة أفك كما أفكوا. وقرئ: «خالق كل شيء» نصباً على الاختصاص. وتؤفكون: بالتاء والياء.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

هذه أيضاً دلالة أخرى على تميزه بأفعال خاصة، وهي أنه جعل الأرض مستقرًّا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي: قبة. ومنه: أبنية العرب ٢/ ١٥٥أ لمضاربهم؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض، ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] وقرئ: بكسر الصاد، والمعنى واحد. قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: لا إله إلاّ الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين (١٣٦٠).

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

فإن قلت: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه؟ قلت: بلى، ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها

١٣٦٠ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٨)، كتاب: التفسير، باب: «من قال لا إله إلاّ الله فليقل على أثرها الحمد لله»، والطبري في تفسيره (١١/ ٧٥)، رقم (٣٠٣٩١)، كلاهما من طريق مجاهد عن ابن عباس، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢١) للبيهقي في الأسماء والصفات وللثعلبي في تفسيره وكذا لابن مردويه جميعهم من نفس الطريق السابق.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الحافظ: أخرجه الطبري، والحاكم أيضاً، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه. انتهى.

نحو قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل ـ كان ذكر البينات ذكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدلّ على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا. وكذلك لتكونوا. وأما ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. وقرئ: «شيوخاً» بكسر الشين. وشيخاً، على التوحيد، كقوله: ﴿طفلاً﴾ [الحج: ٥] والمعنى: كل واحد منكم. أو اقتصر على الواحد؛ لأنّ الغرض بيان الجنس. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾ يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدوراً لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرعه.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحي، فعلام تحمل الآية؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها، نحو قوله: (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية، قال أحمد: اللائق بقواعد السنة أن يقال: أما معرفة الله تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة، فمستفاد من أدلة العقول، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعيات. وأما وجوب عبادة الله تعالى وتحريم عبادة الأصنام، فحكم شرعي لا يستفاد إلاّ من السمع؛ فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال. وقوله تعالى: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إنما أريد به ـ والله أعلم ـ: تحريم عبادة غير الله، فهذا لا يستفاد إلاّ من نهي الله تعالى عن ذلك، لا من العقل، لكن قاعدة الزمخشري تقتضي أن تحريم عبادة غير الله تعالى تتلقى من العقل قبل ورود الشرع؛ إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقبيح، ولهذا أورد الإشكال عليه، واحتاج إلى الجواب عنه، ثم قوله في الجواب: إن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعاً، وما دل قطعاً، كيف يحتمل الزيادة والتأكيد، والقطعيات لا تفاوت في ثبوتها؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الكتب. فإن قلت: وهل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ إلى مثل قولك: سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا: إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال. وعن ابن عباس: والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء، على عطف الجملة الفعلية على الإسمية. وعنه: والسلاسل يسحبون بجر السلاسل. ووجهه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقبتين: حمل قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ على العبارة الأخرى. ونظيره [من الطويل]:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلاَ نَاعِبٍ إِلاَّ بِبَيْنٍ غُرَابُهَا[١]

كأنه قيل: بمصلحين. وقرئ: «وبالسلاسل يسحبون» ﴿فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود. ومنه: السجير[٢]، كأنه سجر بالحب، أي: ملئ ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار مملوؤة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٦،٧] اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك. ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا ننتفع بهم. فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: أنهم مقرونون بآلهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات[٣]، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم؛ إلا

---

(١) تقدم.
(٢) قوله: «ومنه السجير» في الصحاح: «سجير الرجل»: صفيه وخليله، والجمع السجراء. (ع).
(٣) قوله: «في سائر الأوقات» أي باقي الأوقات بعد وقت التوبيخ. (ع).

أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم. ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول: حسبت أنّ فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم.، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا. ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك وعبادة الأوثان. ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم. قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ٢/ ١٥٥أ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مقدّرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم. فإن قلت: أليس قياس النظم أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين، كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى؟ قلت: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فإن نرك. و (ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل[1] ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن: إما تكرمني أكرمك. فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ على ﴿نرينك﴾ وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فقولك: فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون: غير صحيح، وإن جعلت ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مختصًا بالمعطوف الذي هو نتوفينك، بقي المعطوف عليه بغير جزاء. قلت: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ متعلق بنتوفينك، وجزاء ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك. أو أن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم[2] منهم أشدّ الانتقام ونحوه قوله

---

(١) قال محمود: «المصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط، ولولا (ما) لم يجز دخولها، قال أحمد: وإنما كان كذلك؛ لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل في غير الواجب، والشرط من قبيل الواجب، إلاّ أنه إذا أكد قوي إبهامه فقربته قوة الإبهام من غير الواجب، فيساغ دخول النون فيه.

(٢) قال محمود: «إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله: (فإلينا يرجعون) جزاء مشركاً بينهما فلا يستقيم المعنى، على: فإما نرينك بعض الذي نعدهم.. فإلينا يرجعون، وإن جعل الجزاء مختصًا بالثاني بقي الأول بغير جزاء، وأجاب بأنه مختص بالثاني، وجزاء الأول محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم، وهو ما حل بهم يوم بدر، فذاك. أو نتوفينك، فإلينا يرجعون، فننتقم منهم، قال أحمد: وإنما حذف جواب الأول دون الثاني؛ لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل =

تـــعـــالـــى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبيّ: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن عليّ رضي الله عنه: أنّ الله تعالى بعث نبيًّا أسود (١٣٦١)، فهو ممن لم يقصص عليه. وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً، يعني: إنّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلاّ أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات. وأمر الله: القيامة ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً.

﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

١٣٦١ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٠)، رقم (٣٠٤٠٩)، من طريق عبد الله بن يحيى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٢) لابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس، وللثعلبي في تفسيره من طريق أبي الطفيل عن علي، في تفسير سورة البروج.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد الله بن يحيى عن علي رضي الله عنه في قوله: (ومنهم من لم نقصص عليك) قال: أرسل الله عبداً حبشياً، فهو الذي لم نقصص عليك، وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبي الطفيل عن علي «كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي. بعث نبي من الحبشة إلى قومه. ثم قرأ: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ـ الآية). انتهى.

= في إنكائهم، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم، وهو حصول المراد على التمام. وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه. قال: ومثله قوله تعالى: (فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون): كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية.

الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ولتبلغوا عليها، ولم يقل: لتأكلوا منها، ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون[1] عليها حاجة في صدوركم؟ قلت: في الركوب: الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق[2] به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك، كما قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟ [هود: ٤٠] قلت: معنى الإيعاء[3] ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم؛ لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صحّ المعنيان صحت العبارتان. وأيضاً فليطابق قوله: (وعليها) ويزاوجه﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأية آيات الله قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب. وهي في (أي) أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: هلا قيل: لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا، ومنها تركبون ومنها تأكلون، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو علم، وهذه أغراض دينية: إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الإرادة» قال أحمد: جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية، وهي أن الأمر راجع إلى الإرادة، فالواجب والمندوب مرادان؛ لأنهما مندرجان في الأمر، والمباح غير مراد؛ لأنه غير مأمور به، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق: أنه لا ربط بين الأمر والإرادة، فقد يأمر بخلاف ما يريد، ويريد خلاف ما يأمر به، فالجواب الصحيح إذاً أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار؛ فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر؛ فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم، فلذلك جردت هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.

(٢) قوله: «المباح الذي لا يتعلق به» مبني على مذهب المعتزلة: أن الإرادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلاّ بالمطلوب. وعند أهل السنة: هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فتتعلق بجميع الممكنات، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

(٣) قوله: «معنى الإيعاء»، في الصحاح: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. (ع).

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨٣﴾

﴿وَءَاثَارًا﴾ قصورهم ومصانعهم. وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم. ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام، محلها النصب، والثانية: موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم. ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل: ٦٦]: وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء، كما قال عزّ وجلّ: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم: ٣٢] ومنها: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان، وكانوا إذ سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه، وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ومنها: أن يوضع قوله: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣] ولا علم عندهم البتة، موضع قوله: لم يفرحوا بما جاءهم من العلم، مبالغة في ٢/ ١٥٦أ نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء[1]. ومنها أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين مرحين. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ومنها: أن يجعل الفرح للرسل. ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادي واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه. وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ـ وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف[2] عن الملاذ والشهوات ـ لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُعبِّرُه بالجملة الظاهرة كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام نحو: شرُّ أهرَّ ذا ناب على خلاف فيه.
ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز، وأما في الآية فينبغي أن لا يحمل على القليل؛ لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «والظلف» في الصحاح: ظلفت نفسي عن كذا ـ بالكسر ـ تظلف ظلفاً، أي: كفت. (ع).

للفوائد من علمهم، ففرحوا به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

البأس: شدّة العذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ وبينه لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم؟[1] قلت: هو من كان في نحو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] والمعنى: فلم يصحّ ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قلت: كيف ترادفتِ هذه الفاءات؟ قلت: أما قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ [غافر: ٨٢] فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢] وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [غافر: ٨٣] فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ [غافر: ٨٢] كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر: ٨٣] كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا، وكذلك: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] وما أشبهه من المصادر المؤكدة. و﴿هُنَالِكَ﴾ مكان مستعار للزمان، أي: وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بعد قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ [غافر: ٧٨] أي: وخسروا وقت مجيء أمر الله، أو وقت القضاء بالحق.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلاّ صلّى عليه واستغفر له» (١٣٦٢).

١٣٦٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه. انتهى.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: أي فرق بين قوله: فلم يك ينفعهم إيمانهم. وبينه لو قيل: فلم ينفعهم؟ وأجاب بأن معنى (كان) هنا معناها في قوله: (ما كان لله أن يتخذ من ولد) بمعنى: فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم، قال أحمد: كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي (كان) الكثير استعمالها، المكرر دورانها في الكلام. وأما (كان) هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف، بل هي مثل: صان، وحان، في القلة، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف، وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها: المبالغة في نفي الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون، وخصوصاً باعتباره في هذه الآية مثلاً، فكأنه نفي مرتين، والله أعلم.

سورة فصلت، وتسمى السجدة

مكية، وآياتها ٥٤، وقيل: ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)﴾

إن جعلت ﴿حمٓ (١)﴾ اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ. و﴿تَنزِيلٌ﴾ خبره. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف و﴿كِتَٰبٌ﴾ بدل من تنزيل. أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف، وجوّز الزجاج أن يكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره. ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك، وقرئ: «فصلت»، أي: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولك: فصل من البلد. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت. وقيل: هو نصب على الحال، أي: فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أي: تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب؛ لئلا يفرق بين الصّلات والصفات. وقرئ: «بشير ونذير» صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون ولا يطيعون، ومن قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥)﴾

والأكنة: جمع كنان. وهو الغطاء، و«الوقر» بالفتح: الثقل. وقرئ: بالكسر. وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف ٢/١٥٦ب وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل في إبطال أمرنا، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ: «إنا عاملون» فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجاباً حاصلاً وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ[1] فيها. فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر؛ ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب)؟ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها، ولو لا ذكر (من) فيها لكان المعنى: على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط» قال أحمد: ولا ينفك المعنى بدخول (من) عما كان عليه قبل، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية؛ لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى، فيكون التقدير إذاً: (ومن بيننا وبينك حجاب)، وهذا يخل بمعنى (بين) إخلالاً بينا، فإنها تأبى تكرار العامل معها، حتى لو قال القائل: جلست بين زيد، وجلست بين عمرو: لم يكن مستقيماً؛ لأن تكرار العامل يصيرها داخلة على مفرد فقط، ويقطعه عن قرينه المتقدم. ومن شأنها الدخول على متعدد؛ لأن في ضمن معناها التوسط. وزاد الزمخشري على هذا فجعل (بين) الثانية غير الأولى؛ لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته، وليس الأمر كما ظنه، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر محفوظ، فوجب تكرار حافظه وهو بين، والدليل على هذا: أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو؛ وبين أن تقول: جلست بين زيد وبين عمرو. وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع المضمر وجوباً لما بيناه؛ فإذا وضح ذلك فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا) وذلك للإشعار بأن الجهة المتوسطة مثلاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير، ووجود من قريب من عدمها، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه: تبين ضعفه، والله الموفق، وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلاّ في دور الكتاب العزيز، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحد منها كاف في فنه، فأولها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصمم. وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلاّ أسبلته، ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعاً ولا صريخاً إلاّ استلبته، فنسأل الله كفايته.

نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة[1] إلاّ في المعاني.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾

فإن قلت: من أين كان قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[2]؟ قلت: من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحي إليَّ دونكم فصحت ـ بالوحي إليّ وأنا بشر ـ نبوّتي، وإذا صحت نبوّتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليَّ: أن إلٰهكم إلٰه واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾. وقرئ: «قال إنما أنا بشر». فإن قلت: لم خصّ من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحبّ شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته. ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة[3] من الدنيا فقرّت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ،وأهل الردّة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلاّ بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحرب، وجوهدوا[4]. وفيه بعث للمؤمنين على أداء

---

(١) قوله: «والملاحظة» لعله: والملاحة. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: كيف كان هذا جواباً لما تقدمه» قال أحمد: وأجاب بما نلخصه فنقول: لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الإباء، بدأهم بإقامة الحجة على وجوب القبول منه، فإنه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت. وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل.

(٣) قوله: «إلاّ بلمظة من الدنيا» في الصحاح: «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه، اهـ. اهـ . فلظمة: بمعنى ملموظ، كمضغة بمعنى ممضوغ. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: لم خص الزكاة؟ وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فبذله مصداق لاستقامته ونصوع طويته، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلاّ بلمظة من الدنيا، وأهل =

الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة. وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج، ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ. وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

الممنون: المقطوع. وقيل: لا يمنّ عليهم لأنه إنما يمن التفضل. فأما الأجر فحقّ أداؤه. وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر، كأصحّ ما كانوا يعملون.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين[1]: الثانية بين بين. و «ءائنكم» بألف بين همزتين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين. وهو ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾؟ وهل اقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ﴾ [النمل: ٦١]؟ قلت: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها، أو مركوزة فيها كالمسامير: لمنعت من الميدان أيضاً، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض؛ لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها، حاضرة محصليها؛ وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه، وهو ممسكها عزّ وعلا بقدرته. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها وأنماه. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود. وقسم فيها أقواتها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾ فذلكة[2] لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا

= الردة ما تظاهروا إلاّ بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا.» قال أحمد: كلام حسن بعد تبديل قوله: وما خدع المؤلفة؛ فإن استعماله الخداع غير لائق؛ لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الإيمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(١) قوله: «أئنكم بهمزتين» لعله: قرئ بهمزتين... إلخ. (ع).

(٢) أي كلام منقطع. روح المعاني (٢٤/١٠١).

نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة اليومين. وقرئ: «سواء» بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أي: استواء: والرفع على: هي سواءٌ. فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أي: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. ٢/١٥٧أ[1] فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول: في يومين وأن تقول: في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين ـ وقد يطلق اليومان على أكثرهما ـ لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ من قولك: استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحوه قولهم: استقام إليه وامتد إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك. قيل: كان عرشه قبل

---

(١) قال محمود: «إن قوله (في أربعة أيام) فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة: اليومين، ثم قال: فإن قلت: بمتعلق قوله: (للسائلين)؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أي: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد: لم يبين امتناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله: (في أربعة أيام فذلكة)، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلو جعل قوله: (للسائلين) متعلقاً بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج؛ فإن الأربعة على قوله من تتمة الأول، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف؛ ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج ـ والله أعلم ـ أرجح؛ فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة؛ إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فإنه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتي هي على الجملة كقوله: (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة).

خلق السمٰوات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع[1]، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. ويجوز أن يكون تخييلاً ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه، فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير[2] أثر قدرته في المقدورات لا غير؛ من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني، فلم يتركني ورائي[3] الحجر الذي ورائي. فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوّة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: ائتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضيًا، وجاء مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير: من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض. وتنصره قراءة من قرأ: «آتيا» وآتينا: من المؤاتاة وهي الموافقة: أي: لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها. قالتا: وافقنا وساعدنا. ويحتمل وافقا أمري ومشيئتي ولا تمتنعا. فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل للزوم وتأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلنَ هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سمٰوات وأرضون. قلت: لما

---

(١) قوله: «فعل الآمر المطاع» لعله: أمر الآمر. (ع).

(٢) قوله: «تصوير أثر قدرته» لعله) تأثير. (ع).

(٣) قال محمود: «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع، فهذا وجه. وأما أن يكون تخييلاً فيبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والأرض فأجابتاه، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط للوتد لم تشقنى؟ قال الوتد: اسأل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى، فإن معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحاً والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة؛ لما فيها من إيهام وسوء أدب، والله أعلم.

جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: طائعين، في موضع: طائعات. نحو قوله: (ساجدين)[1]. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ونحوه: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ **[الحاقة: ٧]** ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال، والثاني: على التمييز، قيل: خلق الله السمٰوات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان[2]. فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين

---

(١) قال محمود: فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال: (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي من الشكل: ائتي يا أرض مدحوة وقرارا ومهاداً، وائتي يا سماء سقفاً مقبية. ثم قال: فإن قلت ما معنى طوعاً أو كرهاً، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال: فإن قلت: هلا قيل طائعتين، على اللفظ. وطائعات، على المعنى: لأنها سموات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره. قيل: طائعين في موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين» قال أحمد: لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين: أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة، وهذا هو السؤال الذي أورده. الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره، ولهذا نظره بقوله: (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء. فأما السؤال الآخر فلا؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف؛ فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر: وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنث، فيقال أولاً: لم ذكرها؟ وثانياً: لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء، ليتحقق نسبة السؤال والجواب؟ والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأملاك مثلاً وما في معناه من المذكر، ثم يغلب المذكر على المؤنث، ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً.

(٢) قال محمود: «قيل: إن الله تعالى خلق السموات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة، وخلق آدم في تتمة اليوم، وفيه تقوم القيامة، ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال: في يومين، في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان»، قال أحمد: كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر، وهذا لا يتم له منه غرض، فإن للقائل أن يقول: إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ، وبخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله، فتأمله.

كاملين. أو قيل: بعد ذكر اليومين: تلك أربعة سواء؟ قلت: الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب[1]؛ ليتميز الفاضل من الناقص، والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات، ويتضاعف الثواب، ﴿أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك. أو شأنها وما يصلحها. ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها حفظاً، يعني من المسترقة بالثواقب. ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى، كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ ٢/١٥٧ب بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة، أي: عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة. وقرئ: «صعقة» (مثل) صعقة عاد وثمود: وهي المرة من الصعق أو الصعق. يقال: صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً، وهو من باب: فعلته ففعل. ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلاّ العتوّ والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة، وتقول: استدرت بفلان من كل جانب، فلم يكن لي فيه حيلة. وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم. وقيل: معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم. فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم، أي: من قبلهم وممن يجيء من خلفهم، أي: من بعدهم؛ فكان الرسل جميعاً قد جاءوهم. وقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم. «أن» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بمعنى أي، أو مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه لا تعبدوا، أي: بأنّ الشأن والحديث قولنا لكم: لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف

---

(١) قوله: «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أي أمكنة الغوص على اللؤلؤ، وأمكنة اصطكاك الركب. (ع).

أي: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل[1] ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي: أنّ أبا جهل قال في ملإٍ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ، فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلّلنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت؛ فلما فرغ قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلاّ قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلاّ أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب (١٣٦٣).

١٣٦٣ ـ أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، باب: «اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله =

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخُ: تَتَبَّعْتُ القرآن وكلام العرب فلم أجِدْ مفعول شاءَ الواقع بعد «لَوْ» إلاَّ مِنْ جنسِ جوابها نحو: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لو شاء جَمْعَهُمْ على الهدى لجَمَعَهُمْ عليه، ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿ولو شاء الله ما عبدنا من دونه﴾ وقال [من الطويل]:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ ... وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَ بْنَ مَرْثَدِ

وقال [من الزجر]:

والَّذِ لَوْ شَاءَ لَكُنْتُ صَخْراً ... أو جَبَلاً أَشَمَّ مُشْمَخِرًّا

قال: فَعَلَى ما تقدم لا يكون المحذوفُ ما قدَّره الزمخشريُّ، وإنما التقدير: لو شاءَ ربُّنَا إنْزَالَ ملائكةٍ بالرسالة منه إلى الإنس لأَنْزَلَهُمْ بها إليهم؛ وهذا أَبْلَغُ في الإمْتَاع من إرْسَال البشر؛ إذْ علَّقُوا ذلك بإنْزَال الملائكةِ، وهو لم يشأ ذلك فكيف يشاءُ ذلك في البشر؟ قلْتُ: وتقدير أبي القاسم أَوْقَعُ مَعْنًى وأَخْلَصُ من إيقاع الظاهر موقع المضمر؛ إذْ يصير التقدير: لو شاء إنْزَالَ ملائكة لأَنْزَلَ ملائكةً. انتهى. الدر المصون.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوّة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوّتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده. فإن قلت: القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية، وهي نقيضة الضعف. وأما القدرة فما لأجله يصحّ الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية[1] وهي نقيضة العجز، والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلاّ على معنى القدرة، فكيف صحّ قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ وإنما يصحّ إذا أريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد؟ قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوّة والشدّة والصلابة في البنية، وحقيقتها: زيادة القدرة[2]، فكما صحّ أن يقال: الله أقدر منهم، جاز أن يقال:

= تعالى من الإعجاز...»، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٠ ـ ٣٣١)، كتاب المغازي، باب: «في أذى قريش للنبي ﷺ...» رقم (٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥١)، رقم (٥١) ـ (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧١)، في ذكر ما كان من أمر عتبة بن ربيعة، رقم (٢٨٣)، والحاكم (٢/ ٢٥٣)، كتاب التفسير، باب: ما أحسن محسن من مسلم ولا كافر إلاّ أثابه الله، والبغوي في تفسيره (٤/ ١١٠)، كلهم من طريق جابر بن عبد الله، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ١٩٩، ٢٠٠)، باب: اعتراف القدماء بأعلام النبوة، رقم (٨٢٨٥)، والهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢ ـ ٢٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٩) للثعلبي ولابن مردويه في تفسيريهما، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وبقية رجاله ثقات.

قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلاً، ووصله ابن أبي شيبة، وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال بن حرملة عن جابر مطولاً. انتهى.

---

(١) قوله: «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي: إنه يقدر لذاته، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «القوة: الشدة في البنية ونقيضها الضعف، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل، وهي نقيضة العجز، فإن وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها، فكيف صح قوله: (هو أشد منهم قوة)؟ ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة، والقوة زيادة في القدرة، فكما صح أن =

أقوى منهم، على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة، وهو معطوف[1] على فاستكبروا، أي: كانوا كفرة فسقة. ٢/١٥٨أ الصرصر: العاصفة التي تصرصر، أي: تصوّت في هبوبها. وقيل: الباردة التي تحرق بشدّة بردها، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر، أي: يجمع ويقبض. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحساً: نقيض سعد سعداً، وهو نحس. وأما نحس، فإمّا مخفف نحس، أو صفة على فعل، كالضخم وشبهه. أو وصف بمصدر. وقرئ: «لتذيقهم» على أنّ الإذاقة للريح أو للأيام النحسات. وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب، كأنه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد: الفعل السيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي: أبلغ من وصفهم به. ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

وقرئ: «ثمود» بالرفع والنصب منوّناً وغير منوّن، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء. وقرئ بضم الثاء. ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد. فإن قلت: أليس معنى هَدَيْتَهُ: حصلت فيه الهدى، والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى: تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح

= يقال: أقدر منهم، صح أن يقال: أقوى منهم، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم» قال أحمد: فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين، فإن سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام، وجعل التفضيل من حيث إن الله تعالى قادر لذاته. أي: بلا قدرة، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرية، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل: زيد أعلم من عمرو، بإثبات صفة العلم للمفضول، وسلبها بالكلية عن الأفضل. وهل هذا إلاّ عنة وعمى في اتباع الهوى وعمه؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله، معلومة قبله وبعده، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها، فضلاً عن تجاوزها إلى غيره، وقدرة الله جلت قدرته مؤثرة في المقدورات، موجودة أزلاً وأبداً، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلاّ من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من الله المنة.

(١) قوله: «وهو معطوف على فاستكبروا» أي: قوله تعالى (وكانوا... إلخ). (ع).

عللهم ولم يُبق لهم عذراً ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها. ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغة، أو أبدله منه، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة[1] بشهادة نبيها ﷺ ـ وكفى به شاهداً ـ إلاّ هذه الآية، لكفى بها حجة[2].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾

قرئ: «يحشر» على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها، ويحشر:

---

(١) قوله: «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم: جميع الحوادث ـ خيراً كانت أو شراً من أفعال العباد الاختيارية أو غيرها ـ فهي بقضاء الله تعالى وقدره، خلافاً للمعتزلة؛ حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره، ولا تأثير له فيها أصلاً. وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيده الحديث. وفسروا الإضلال والهوى في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) بخلق الضلال وخلق الاهتداء، خلافاً للمعتزلة: حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه، والهدى بالبيان، ونقل النسفي عن أبي منصور الماتريدي: أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان، كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم. وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة، ثم كفروا وعقروها اهـ (ع).

(٢) قال محمود: «فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، ثم قال: فإن قلت: أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم، ولم يبق لهم عذر ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها، ثم قال: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام ـ وكفى به شهيداً ـ إلاّ هذه الآية، لكفى بها حجة، قال أحمد: قد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، فإن القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك، ومنهبط في مهواة هذا الهلك، ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة: هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين، والإضلال: خلق الضلال في قلوب الكافرين، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعاً، نحو هذه الآية، فإن المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسره الزمخشري. وقد اتفق الفريقان: أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع موارده في الشرع، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ وأي دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره، ويذيقه وبال أمره؟

على البناء للفاعل، أيّ: يحشر الله عزّ وجلّ ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ الكفار من الأوّلين والآخرين ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته؛ فإن قلت: (ما) في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ما هي؟ قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ [يونس: ٥١] أي: لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرّمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت: الله عزّ وجلّ ينطقها كما أنطق الشجرة[1] بأن يخلق فيها كلاماً. وقيل: المراد بالجلود: الجوارح. وقيل: هي كناية عن الفروج، أراد بكل شيء: كل شيء، من الحيوان، كما أراد به في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كل شيء من المقدورات، والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه - وإنما قالوا لهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا﴾ كنتم ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك[2] الظنّ هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عيناً كالئة ورقيباً مهيمناً؛ حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملأ، ولا يتبسط في سره مراقبة[3] من التشبه بهؤلاء الظانين.

---

(١) قوله: «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام وهو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور. وعند أهل السنة: هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله. (ع).

(٢) قوله: «وذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله. وذلكم. (ع).

(٣) قوله: «في سره مراقبة من التشبه» أي مخافة، كما أفاده الصحاح. (ع).

وقرئ: «ولكن زعمتم» ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿ظَنُّكُمُ﴾ و ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبران، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً من ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ و ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ الخبر.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه: لم يعتبوا ٢/ ١٥٨ب: لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عزّ وعلا: ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ: «وإن يستعتبوا» فما هم من المعتبين» أي: إن سألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي: لا سبيل لهم إلى ذلك. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وقدّرنا لهم، يعني لمشركي مكة: يقال: هذان ثوبان قيضان: إذا كانا متكافئين. والمقايضة: المعاوضة. ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً[1] من الشياطين جمع قرين، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم[2] ومنعهم التوفيق؛ لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوىٰ الشياطين[3]. والدليل عليه ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ نقيض. ﴿أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما تقدّم من أعمالهم وما هم عازمون عليها. أو ما بين

(١) قوله: «قرناء أخدانا» أي أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «قلت: معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير، فلا داعي إلى هذا التكلف. قال تعالى: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) إلخ. (ع).

(٣) قال محمود: «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين. والدليل عليه قوله تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن... الآية) قال أحمد: جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة: أن الأمر على ظاهره، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه، ويأمر بما لا يريد حصوله، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها، وإنما تأولها الزمخشري ليتبعها هواه الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهى عما يريد. وإن وقع النهي عنه فعلى خلاف الإرادة ـ تعالى الله عن ذلك وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعاً للهوى، وحينئذ فنقول: لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية، لكفى بها؛ فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه.

أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات، وما خلفهم: من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ جملة أمم. ومثل في هذه ما في قوله [من المنسرح]:

إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ ... فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا[1]

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد. فإن قلت: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قرئ: «والغوا فيه» بفتح الغين وضمها. ويقال: لغى يلغي، ولغا يلغو: واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا ورفث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل[2]، وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم. وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بدر. و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون، حتى تستقيم هذه الإشارة. و ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدأ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ قلت: معناه أن النار

---

(١) لعروة بن أذينة، يقول: إن تك مأفوكاً ـ أي: مصروفاً ومنقلباً عن أحسن العطاء ـ فلا عجب، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ومنه: المؤتفكات، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط، وتقول العرب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، يعنون: الرياح المختلفة المهاب.
ينظر: ديوانه ص ٣٤٣، ولسان العرب: (أفك) (وفيه «عمرو بن أذينه» وهذا تصحيف)، وأساس البلاغة (أفك)، وتاج العروس (أفك)، ومقاييس اللغة: ١/١١٨، ومجمل اللغة: ١/١٩٨، والمخصص: ٣/٤٥، ١٢/١٠٢.

(٢) قوله: «والزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت: والأزمولة ـ بالضم ـ: المصوت من الوعول وغيرها. (ع).

في نفسها دار الخلد، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وتقول: لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعنى الدار بعينها ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ أي: الشياطين اللذين أضلانا ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لأنّ الشيطان على ضربين: جني وإنسي. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٥ ـ ٦] وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق (١٣٦٤). وقرئ: «أرنا» بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ: فخذ. وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى: بصرنيه. وإذا قلته بالسكون، فهو استعطاء، معناه: أعطني ثوبك، ونظيره: اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه؛ لأنّ الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشدّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب. وعن

١٣٦٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٥)، رقم (٣٠٥١١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٨٦)، والحاكم (٢/ ١١٠)، كتاب التفسير، باب: إن أول ما يتكلم يوم القيامة من الآدمي فخذه وكفه، جميعهم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في الدرّ المنثور (٥/ ٦٨١) للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل. وعن علي رضي الله عنه: أدّوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به. قال: «قل ربّي الله، ثم استقم» قال: فقلت: ما أخوف ٢/١٥٩أ ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال: «هذا» (١٣٦٥) ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى. وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم؛ ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ «أن» بمعنى أي. أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: لا تخافوا، أي: يقولون: لا تخافوا، والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه؛ من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غمّ، فلن تذوقوه أبداً. وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين. ﴿تَدَّعُونَ﴾ تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها: ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في

١٣٦٥ ـ أخرجه مسلم (١/ ٢٢٢) الأبي) كتاب الإيمان: باب: «جامع أوصاف الإسلام» رقم (٦٢/ ٣٨)، والترمذي (٤/ ٦٠٧) كتاب الزهد: باب «ما جاء في حفظ اللسان» رقم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤) كتاب الفتن: باب «كف اللسان في الفتنة» رقم (٣٩٧٢)، والدارمي (٢/ ٢٩٨)، كتاب الرقاق: باب «في حفظ اللسان»، وابن حبان (٨/ ٢٣٧ الموارد)، رقم (٢٥٤٣)، ووهم الحاكم وأخرجه (٤/ ٣١٣)، وأخرجه الطبراني (٧/ ٧٨)، رقم (٦٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد»، (٩/ ٢٣٤)، رقم (٤٨٧٧).

وأخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢١، ٢٢٢) كتاب الرقائق: باب «الأدعية» ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يُقربه إليه بفضل الله علينا بذلك» رقم (٩٤٢)، بلفظ «قل آمنت بالله. . . الحديث»، وأحمد (٣/ ٤١٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: «وهو وهم من الحاكم فقد أخرجه مسلم كما بينا في أول التخريج».

والحديث ذكره الهيثمي في «الموارد» لزيادة وقعت عنده وهي: قلت يا رسول الله ما أخوف ما يخاف علي؟ قال: هذا وأشار إلى لسانه. وقال الحافظ: أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان بتمامه، وأصله في مسلم. انتهى.

المؤذنين (١٣٦٦)، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير داعياً إليه؛ وما هم إلاّ طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله[1]. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول: هذا قول أبي حنيفة، تريد مذهبه.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها ـ إذا اعترضتك حسنتان ـ فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة: أن تعفو عنه، والتي هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال: وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلاّ أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير. فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت: هو على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ادفع بالتي هي أحسن. وقيل: (لا) مزيدة. والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة. فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، قلت: أجل، ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة؛ ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة (١٣٦٧)، وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن رحمه الله: والله ما عظم حظ دون الجنة، وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدوًّا مؤذياً لرسول الله ﷺ، فصار وليًّا مصافياً.

١٣٦٦ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٠٤)، كتاب الآذان والإقامة، باب: في فضل المؤذن وثوابه، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٥/ ٦٨٤) لابن المنذر ولابن مردويه.

١٣٦٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١١١)، رقم (٣٠٥٤٤) من طريق علي عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٨٥) لابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفسيرهما.

---

(١) قوله: «العاملين من آهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك، فلا وجه للتخصيص. (ع).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

النزغ والنسغ بمعنى، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جد جدّه. أو أريد: وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على شأنك ولا تطعه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث. يقال: الأقلام بريتها وبريتهنّ: أو لما قال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ كن في معنى الآيات، فقيل: خلقهنّ. فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها. وعند أبي حنيفة رحمه الله: يسأمون؛ لأنها تمام المعنى، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ٢/١٥٩ب، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين. ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة. وقرئ: «لا يسأمون» بكسر الياء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

الخشوع: التذلل والتصاغر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربوّ وهو الانتفاخ؛ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة(١). وقرئ «وربأت» أي

(١) قوله: «في الأطمار الرثة» في الصحاح «الطمر» الثوب الخرق، والجمع: الأطمار. (ع).

ارتفعت؛ لأن النبت إذا همّ أن يظهر ارتفعت له الأرض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾

يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ «يلحدون ويلحدون» على اللغتين. وقوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ وعيد لهم على التحريف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾؟ قلت: هو بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠] والذكر: القرآن؛ لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوّله المبطلون؟ قلت: بلى، ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣﴾

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والغرض: تخويف العصاة.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾

كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم، فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت. وقالوا: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي بينت ولخصت بلسان نفقهه.

﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي، وقرئ «أعجمي» والأعجمي: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمّة العجم. وفي قراءة الحسن (أعجمي) بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي، والمرسل أو المرسل إليه عربي. والمعنى: أنّ آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلاً، فجعل بعضها بياناً للعجم، وبعضها بياناً للعرب. فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجميًا كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي؛ وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر. ألا تراك تقول ـ وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة ـ: اللباس طويل واللابس قصير. ولو قلت: واللابسة قصيرة، جئت بما هو لكنة وفضول قول؛ لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته، إنما وقع في غرض وراءهما. ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من الظن والشك. فإن قلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ منقطع ٢/ ١٦٠أ عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر؛ إلا أنّ فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإمّا أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر[1] على حذف المبتدأ. أو في آذانهم منه وقر وهو عليهم عمى. وقرئ: «وهو عليهم عم» «وعمى» كقوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [هود: ٢٨] ﴿يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين، أحدهما: أن تكون الواو لعطف الذين على الذين، ووقر على هدى وشفاء، ويكون من العطف على عاملين. قال: وإما أن يكون (والذين) مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، على حذف المبتدإ. أو في آذانهم منه وقر. اهـ. قال أحمد: أي وبتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدإ.

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل. والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فنفسه نفع. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرّ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو لا يعلمها إلا الله. وقرئ: «من ثمرات من أكمامهن»[1]. والكم ـ بكسر الكاف ـ وعاء الثمرة، كجف الطلعة، أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به. يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج[2] والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح وغير ذلك. ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم، وبيانه في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وفيه تهكم وتقريع. ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي ما منا أحد اليوم ـ وقد أبصرنا وسمعنا ـ يشهد بأنهم شركاؤك، أي: ما منا إلا من هو موحد لك، أو ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء، أي: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم، فكأنهم ضلوا عنهم ﴿وَظَنُّوا۟﴾ وأيقنوا. والمحيص: المهرب. فإن قلت: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إخبار بإيذان كان منهم، فإذ قد آذنوا فلم سئلوا؟ قلت: يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائي)؟ إعادة للتوبيخ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكي. ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا

---

(١) قوله: «وقرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة: من ثمرة من أكمامها. والذي في النسفي: من ثمرات من أكمامها. ومن ثمرة من أكمامها. وأما: من ثمرات من أكمامهن. فهي المزيدة هنا، فحرر. (ع).

(٢) قوله: «من الخداج» أي: النقصان، كما في الصحاح. (ع).

نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخباراً بإيذان قد كان، كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أي هذا حق وصل إلي؛ لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ. أو هذا لي لا يزول عني، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١] ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] يريد: وما أظنها تكون، فإن كانت على طريق التوهم ﴿إِنَّ لِى﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمنيتان، يقول في الدنيا: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾. ويقول في الآخرة: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محقوقون بذلك. / ٢/ ١٦٠ب

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

هذا أيضاً ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، وكأنه لم يلق بؤساً قط فنسي المنعم وأعرض عن شكره ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر

وتعظم. وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ بشدّة العذاب. وقرئ: «ونأى بجانبه» بإمالة الألف وكسر النون للاتباع. وناء على القلب، كما قالوا: راء في رأى. فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله [من الوافر]:

.... وَنَـفَـيْـتُ عَـنْـهُ مَـقَـامَ الـذِّيـبِ.........[1]

يريد: ونفيت عنه الذئب. ومنه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦] ومنه قول الكتاب: حضرت فلان ومجلسه، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبر ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كل مذهب، وعصفت به الخيلاء؛ وأن يراد بجانبه: عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، وتولى بركنه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) وماء قد وردت لأجل أروى ... عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه ... مقام الذيب كالرجل اللعين.

للشماخ: وأروى، اسم محبوبته. واللجين ـ بفتح اللام وكسر الجيم ـ: ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق؛ لأنه يضربه الهوى أو الراعي، فيسقط من الشجر. وذعرت ـ بفتحتين، أي: أخفت فيه القطا، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء. ومقام الذيب: إقامته أو محلها، وعبر به كناية عن ذاته، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلاً. والرجل اللعين: هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام، يقول: ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي، عسى أن تجيء عنده فأراها. ويروى: لوصل أروى، فلعله كان موعدٌ بينهما. وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده، فيصلح موعداً للوصل. وذعرت ـ إلى آخره: كناية عن وروده ليلاً، وكالرجل اللعين: حال من ضمير الشاعر، فيفيد أنه سبق القطا والذيب وقعد هناك، أو حال من الذيب، أي: على هيئة مفزعة. وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته.

ينظر ديوانه ص ٣٢١، وجمهرة اللغة ص ٩٤٩، وخزانة الأدب. ٤/٣٤٧، ٣٤٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ٣/١٣، ولسان العرب (لعن)، والمعاني الكبير: ١/١٩٤، والمصنف ١/١٠٩، ومجالس ثعلب: ٢/٥٤٣، والمحتسب ١/٣٢٧.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر متحمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقًّا وقد كفرتم به. فأخبروني من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ موضوع موضع منكم، بياناً لحالهم وصفتهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب[1] خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعهود خارقة للعادات؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها، والاستقراء يطلعك ـ في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم ـ على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور؛ وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل. ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. و﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره. أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة. وقرئ: «في مرية» بالضم

---

(١) قوله: «وفي باحة العرب» أي: ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع).

وهي الشك. ﴿مُّحِيطُۢ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات» (١٣٦٨).

١٣٦٨ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي. انتهى.

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٧ فمدنية]
وآياتها ٥٣ [نزلت بعد سورة فصلت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ/ ٢/ ١٦١أ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما «حم سق». ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي مثل ذلك الوحي. أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك وإلى الرسل ﴿مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين، ولم يقل: أوحي إليك؛ ولكن على لفظ المضارع؛ ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرئ: «يوحى إليك» على البناء للمفعول. فإن قلت: فما رافع اسم الله على هذه القراءة؟ قلت: ما دلّ عليه يوحي، كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله، كقراءة السلمي: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] على البناء للمفعول ورفع شركائهم، على معنى: زينه لهم شركاؤهم. فإن قلت: فما رافعه فيمن قرأ نوحي بالنون؟ قلت: يرتفع بالابتداء. والعزيز وما بعده: أخبار، أو العزيز الحكيم: صفتان؛ والظرف خبر. قرئ: «تكاد» بالتاء والياء. وينفطرن، ويتفطرن. وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة «تتفطرن» بتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر، روي في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تشممن[1]. ومعناه: يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته، يدل عليه

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والظاهر أنَّ هذا وَهَمٌ منه؛ لأنَّ ابنَ خالويه قال في شاذ القرآن ما =

مجيئه بعد العلي العظيم. وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. فإن قلت: لم قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؟ قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة: فوق السمٰوات، وهي: العرش، والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى؛ فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهنّ الفوقانية. أو: لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السمٰوات، فكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهنّ، ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٠] فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة. وقيل: من فوقهنّ: من فوق الأرضين. فإن قلت: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ قلت: قوله: ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على جنس أهل الأرض، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم؛ فيجوز أن يراد به هذا وهذا. وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون، فما أراد الله إلا إياهم. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧] وحكايته عنهم ﴿فَٱغْفِرْ

= نصُّهُ: تَنْفَطِرْنَ بالتَّاء والنون يونس عن أبي عمرو. وقال ابن خالويه: وهذا حرف نادر؛ لأنَّ العربَ لا تجمع بين عَلامَتَيْ تأنيث لا يقال: النساءُ تَقُمْنَ ولكن يَقُمْنَ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ ولا يقال: تُرْضِعْنَ، وقد كان أبو عمرو الزاهد روى في نوادرِ ابنِ الأعرابي الإبِلُ تَتَشَمَّمْنَ فأنكرناه، فقد قوَّاه الآنَ هَذَا.

قال الشيخ: فإنَّ كانت نسخ الزمخشري مُتَّفِقَةً على قوله بتاءين مع النون فهو وهم، وإن كان في بعضها بتاء مع النون كان موافقاً لقول ابن خالويه وكان بتاءين تحريفاً من النساخ، وكذلك كتبهم تَتَفَطَّرْنَ وَتَتَشَمَّمْنَ بتاءين. انتهى. قُلْتُ: كيفَ يستقيم أن يكون كَتْبُهم تَتَشَمَّمْنَ بتاءين وَهْمًا؛ وذلك لأنَّ ابن خالويه أَوْرَدَهُ في معرض الندرة والإنكار حتى تقوى عنده بهذه القراءة؟ وإنما يكون نادراً منكراً بتائين فإنه حينئذٍ يكون مضارعاً مسنداً لضمير الإبل فكان من حقه أن يكون حرف مضارعته ياء منقوطة من أسفل، نحو النساء يقمن فكان ينبغي أن يقال: الإبِل يَتَشَمَّمْنَ بالياء من تحت ثم بالتاء من فوق، فمَّا جاء بتاءَين كلاهما من فوق ظهر ندورُه وإنكاره، ولو كان على ما قال الشيخُ: إنَّ كتبهم بتاءَين وَهمًا بل كان ينبغي كَتْبُهُ بتاء واحدة. لما كان فيه شذُذٌ ولا إنكار لأنه نظير: النسوةُ تَدَحْرَجْنَ فإنه ماضٍ مسند لضمير الإناث، وكذا لو كُتِبَ بياء من تحت وتاء من فوق لم يكن فيه شُذُوذٌ وَلاَ إنكارٌ، وإنما يجيء الشذوذُ والإنكار إذا كان بتاءَين منقوطتين من فوق؛ إنه سواءٌ قرئ: «تَتَفَطَّرْنَ» بتاءَين أو بتاء ونون؛ فإنه نادرٌ لمَا ذكر ابنُ خالويه، وهذه القراءة لم يُقْرأْ بها في نظيرها في سورة مريم. انتهى. الدر المصون.

﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم، فكيف للكفرة. ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار: طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦] والمراد: الحلم عنهم وأن لا يعالجهم بالانتقام فيكون عامًّا. فإن قلت: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ بتفسيرين. فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قلت: أما على أحدهما فكأنه قيل: تكاد السمٰوات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون - خضوعاً لعظمته - على عبادته وتسبيحه وتحميده، ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته. وأما على الثاني: فكأنه قيل: يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء، والملائكة يوحدون الله وينزهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون، مختارين غير ملجئين، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة ومن أهلها. أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم؛ لما عرفوا في ذلك من المصالح، وحرصاً على نجاة الخلق، وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ولا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد/ ٢/ ١٦١ب بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم، ولا قسرهم على الإيمان. إنما أنت منذر فحسب.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم؛ لأنّ هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمة، والكاف مفعول به لأوحينا. و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بيّن، لا لبس فيه عليك؛ لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حدّ الإنذار. ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، أي: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك ﴿لِّتُنذِرَ﴾ يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا. وقد

عدى الأوّل، أعني: لتنذر أمّ القرى، إلى المفعول الأول والثاني وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني. ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهل أمّ القرى كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. وقرئ «لينذر» بالياء والفعل للقرآن ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة، لأنّ الخلائق تجمع فيه. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له[١]. قرئ «فريق» وفريق؛ بالرفع والنصب، فالرفع على: منهم فريق، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى: يوم جمع الخلائق. والنصب على الحال منهم، أي: متفرّقين، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]. فإن قلت: كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين. وإن أريد بالجمع: جمعهم في الموقف، فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق.

﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان. قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله. دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان[٢]، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون؛ ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

---

(١) قوله: «لا محل له» لعله. لا محل له من الإعراب. (ع).

(٢) قوله: «لقسرهم جميعاً على الإيمان» هذا عند المعتزلة: أما عند أهل السنة، فالإرادة تستلزم وجود المراد، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد؛ لأنها لا تنافي الاختيار، لما لهم في أعمالهم من الكسب. وإن كانت مخلوقة له تعالى. وأما التي لا تستلزم المراد وهي التي سماها مشيئة الحكمة، فهي التي بمعنى الأمر عند المعتزلة، ولا يثبتها أهل السنة، كما تقرر في التوحيد؛ فمعنى الآية: ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل، ولكن شاء إيمان البعض، فآمن من شاء إيمانه.

معنى الهمزة في ﴿أَمِ﴾ الإنكار، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ هو الذي يجب أن يُتولَّى وحده ويُعْتَقَد أنه المولى والسيد، فالفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدّر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا وليًا بحق، فالله هو الولي بالحق، لا وليّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْيِ﴾ أي: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى ﴿ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو الحقيق بأن يتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين. أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم هو ﴿ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ردّ كيد أعداء الدين، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أرجع في كفاية شرهم. وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]: فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا؛ لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قرئ بالرفع والجر، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم. أو خبر مبتدأ محذوف، والجرّ على: فحكمه إلى الله فاطر السمٰوات، و﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ﴿أُنِيبُ﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ خلق/٢/١٦٢أ لكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: خلق من الأنعام أزواجاً. ومعناه: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم وكثرهم. والذر، والذرو، والذرء: أخوات. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من

الأحكام ذات العلتين[1]، فإن قلت: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير؟ وهلا قيل: يذرؤكم به؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير؛ ألا تراك تقول: للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] قالوا: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم، كان أبلغ[2] من قولك: أنت لا تخفر. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه، يريدون: إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر[3] لذاته»

---

(١) قال محمود: «إن الضمير المتصل بيذرؤ عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد: الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً. والثاني: مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب، فالأول لتغليب العقل. والثاني لتغليب الخطاب.

(٢) قوله: «لا تخفر الذمم كان أبلغ» في الصحاح: أخفرته، إذا نقضت عهده وغدرت به، وفيه: «أيفع الغلام» أي: ارتفع: وهو يافع، ولا نقول: موفع. وقوله: «كان أبلغ» لعل تقديره: فإن قلت له ذلك كان أبلغ. (ع)

(٣) قال محمود: «تقول العرب: مثلك لا يبخل، فينفون البخل عن مثله، والمراد نفسه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته، تريد طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية: لم يكن فرق بين قولك: ليس كالله شيء وبين قوله: ليس كمثله شيء، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. ونحوه قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان) فإن معناه بل هو جواد من غير تصور يدٍ ولا بسط؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئاً آخر، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا بد له؛ فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، وفيمن لا مثل له، ثم قال: ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت في قول من قال: «وصاليات ككما يؤثفين».

ومن قال: «فأصبحت مثل كعصف مأكول» انتهى كلامه. قال أحمد: هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفي المماثلة، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية، وبين تأكيد نفي المماثلة، فإن نفي المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفي المماثلة المقترنة بالتأكيد؛ إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة. ولا يلزم من نفي مماثلة محققة متأكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد. وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته، فليس النظر في الآية بهذين النظرين مستقيماً والله أعلم. ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقائل أن يقول: ليس زيد شبيهاً بعمرو؛ لكن مشبهاً له، ولو عكس هذا لم يكن صحيحاً، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفي أدنى المشابهة نفي أعلاها، ولا يلزم من نفي أعلاها نفي أدناها، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة. والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده، وأتى بمطية الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله: ولك أن تزعم، فافهم.

(١٣٦٩) والقصد إلى طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته، ونحوه قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فإن معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد، كما كرّرها من قال [من الرجز]:

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنْ (١)

١٣٦٩ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤/٢٥٩)، حديث برقم (٦٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٧٢)، قال الحافظ: رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بني زهرة عن أبيه: حدثني مخرمة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لذاته، ورواه الطبراني، وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم، وكانت لدة عبد المطلب قال: تتابعت على قريش سنون الحديث بطوله «ورويناه في جزء أبي السكين (تنبيه) وقع رقيقة بنت صيفي والصواب بنت أبي صيفي. انتهى».

---

(١) لم يبق من آي بها يحلين ... غير رماد وعظام كثفين
وغير ود جازل أو ودين ... وصاليات ككما يؤثفين

لخطام المجاشعي. والآي: واحدة آية، أي: علامة. ويحلين: مضارع مبني للمجهول، من حليته تحلية: إذا وصفت حليته وصفته. يقول: لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين. والكثف ـ بالتحريك ـ: كسبب: المجتمع، فلعله سكنه للوزن. وروي: غير رماد وخطام كثفين. والخطام: الزمام. ويروى بالمهملة، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس. والكثف ـ كحمل: وعاء الرعي فكثفين على حذف العاطف. وقيل بدل مما قبله، والأوجه روايته، وخطام كثفين بالإضافة؛ لأجل موافقة القوافي أي: ورباط وعامين، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد. والود: أصله وتد، فقلبت التاء دالاً وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذاً. والجادل: المنتصب والغليظ، أي: لم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير، حيث لم يشك إلا في ذلك. والصاليات صفة للأثافي. وقيل: صفة للنساء الموقدات للنار: وقيل: صفة للخيل الصاليات للحرب كالأثافي الصاليات للنار، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو. والأثفية: حجر الكانون، وزنها: أفعولة في الأصل، وجمعها أثافي. وأثفيت للقدر: وضعت الأثافي لها. وثفيتها تثفية: وضعتها على الأثافي. وقوله: يؤثفين مضارع مبني للمجهول، جاء على الأصل مهموزاً، كيؤكرم من بالهمزة، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للنار المحترقات بها؛ فلعله شبه النساء بالأثافي لدمامتهن وسوادهن، بكثرة الدخان وملازمتهن النار. وعليه فالمعنى: ونساء صاليات كالأحجار تثفي وتوضع للقدر؛ فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة؛ وكرر كاف التشبيه للتوكيد، لكن الثانية اسم بمعنى مثل؛ لأن حرف الجر لا يدخل على مثله. ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذاً. ويروى بعد قوله: وصاليات... الخ. =

ومن قال [من الرجز]:

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ[1]

= لا يشتكين عملاً ما أنقين ... ما دام مخ في سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق. والإنقاء: كثرة النقي بالكسر وهو المخ. يقال: أنقت الإبل إذا سمنت وكثر مخها، أي: لا يشتكين عملاً مدة إنقائهن وسمنهن، وفسر ذلك بقوله: ما دام مخ... الخ والسلاميات: عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبقى فيه المخ. ويروى أيضاً هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين ... وصاليات ككما يؤثفين؟

والغريان: بناءان طويلان، يقال: هما قبرا مالك وعقيل: نديمي جذيمة الأبرش؛ سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه. والأشبه أن ذلك من تخليط الراوي، وأن الصاليات: الأحجار. وقوله: «لا يشتكين... الخ» ليس من هذا الرجز، فلا ينبغي روايته معه، وهو الذي من صفة الخيل، أو أصل النساء لا الصاليات، ويجوز أن الرجز هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين ... لم يبق من آي بها يلين

وأن قوله: «لا يشتكين... الخ» من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل، كما رواه صاحب الكافي شاهداً على الإكفاء في القافية هكذا:

بنات وطاء على خد الليل ... لا يشتكين عملاً ما أنقين

لاختلاف حرفي الروي، والوطاء ـ بالضم والتشديد ـ: من الوطء على الأرض. وخد الليل: طريقه الذي لا يسلك إلا فيه. وقال بعضهم: إن هذا في صفة الخيل، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف. وعلى أنه في صفة أجل، أي: فلك المطايا بنات نوق أو فحول، وطاء: جمع واطىء أو واطئة، على خد الليل: كناية عن قوتهن في السير، حتى كأنهن يغلبن الليل، فيصرعنه ويطأن على خده، فهن لا يبالين به.

ينظر البيت في لسان العرب (رنب)، (ثفا)، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٤٩، وتاج العروس (ثفا)، (غرا)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٣٦، وكتاب العين ٨/ ٢٤٥، ومقاييس اللغة ١/ ٥٨، والمخصّص ٨/ ٧٦، ١٤/ ٤٩، ٦٤، ١٦/ ١٠٨، وديوان الأدب ٢/ ٣٣٥، ولسان العرب (أثف).

(١) بالأمس كانت في رخاء مأمول ... فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤبة بدله:

ولعب طير بهم أبابيل ... فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول: بالأمس، أي: في الزمن الماضي القريب، كانت تلك الديار مثلاً في رخاء، أي: خصب وسعة من الثروة والغنى، مأمول ذلك، أي: متمنى للناس، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد، والعصف: ما على الحب وعلى ساق الزرع من التين والورق اليابس، مأكول: أي أصابه الأكال، وهو الدود. وأكلته الدواب ثم راتته. وأبابيل، بمعنى جماعات متفرقة، صفة طير، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: واحده أبول كعجول. وقيل: إبال كمفتاح. وقيل إبيل كمسكين. وقول رؤبة «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول، ولعل هذا رجز غير ذاك.

لرؤبة في ملحق ديوانه ص ١٨١، وخزانة الأدب ١٠/ ١٦٨، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٩، وشرح التصريح ١/ ٢٥٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٥٣، والمقاصد النحويّة ٢/ ٤٠٢، ولحميد الأرقط في الدرر ٢/ ٢٥٠، والكتاب ١/ ٤٠٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/ ٥٢، والجنى الداني ص ٩٠، وخزانة =

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وقرئ: «ويقدّر» ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً، ولم ترد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] ومحل ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ﴾ إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد. ﴿يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ﴾ يجتلب إليه ويجمع ـ والضمير للدين بالتوفيق والتسديد ـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفاً.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ﴾ أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد، وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ حين افترقوا لعظم ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الشورى: ١٤] وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِي شَكّٖ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان. وقيل: كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم. وإنما اختلفوا للبغي بينهم. وقيل: وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث

= الأدب ٧/ ٧٣، ورصف المباني ص ٢٠١، وسرّ صناعة الإعراب ص ٢٩٦، وشرح الأشموني ١/ ١٥٨، ولسان العرب (عصف)، ومغني اللبيب ١/ ١٨٠، والمقتضب ٤/ ١٤١، ٣٥٠، وهمع الهوامع ١/ ١٥٠، وتاج العروس (عصف).

رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ٤] وإنّ الذين «أورثوا» الكتاب من بعدهم هم المشركون الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل. وقرئ «ورّثوا» وورثوا.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية/ ٢/ ١٦٢ب القديمة، ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب، أيّ كتاب صحّ أنّ الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة. لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا؛ لأنّ المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم؛ وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام؛ ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩] كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم[(١)] وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام. ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة زالة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا

---

(١) قوله: «ونحن خير منكم» لعله: «فنحن» كعبارة النسفي.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي جنس الكتاب، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: ملتبساً بالحق، مقترناً به، بعيداً من الباطل، أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك، ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في تأويل البعث؛ فلذلك قيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب. فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف. المماراة: الملاجة[1]؛ لأنّ كل واحد منهما يمري ما عند صاحبه ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الحق: لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برّ بليغ البرّ بهم، قد توصّل برّه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أنّ البرّ أصناف، وله أوصاف. والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه، فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه، وهو الذي أراد بقوله تعالىٰ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] كما يرزق أحد الأخوين ولداً دون الآخر، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

سمى ما يعمله العامل مما يبغي به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز. وفرق بين عملي العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا

---

(١) قوله: «الملاجة» بالجيم: التمادي في الخصومة، ويمري: أي يستخرج، كذا في الصحاح. (ع)

أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة؛ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

معنى الهمزة في ﴿أَمْ﴾ التقرير والتقريع. وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا؛ لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به، وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله/ ٢/ ١٦٣أ، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة. وتارة إلى الله؛ ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم: جعلت شارعة لدين الكفر، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. وقرأ مسلم بن جندب «وأنّ الظالمين» بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل، يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ يريد: ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه، أشفقوا أو لم يشفقوا. كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ منصوب بالظرف لا بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾. قرئ: «يبشر» من بشره. ويبشر من أبشره. ويبشر، من بشره. والأصل: ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده، فحذف الجار، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم حذف الراجع إلى الموصول، كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده[1]. روي أنه

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس بظاهر إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشري، ولا ما يدل عليه من بشر أو شبهه، انتهى. الدر المصون.

اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً، أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأنّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت: هلا قيل: إلا مودّة القربى: أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟ قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقرًّا لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم هوى وحب شديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحله، وليست (في) بصلة للمودَّة، كاللام إذا قلت: إلا المودّة للقربى. إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس. وتقديره: إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة[(١)] فيها. والقربى: مصدر كالزلفى والبشرى، بمعنى: قرابة. والمراد في أهل القربى. وروي أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما» (١٣٧٠) ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا (١٣٧١) وعن

١٣٧٠ ـ أخرجه الطبراني في معجمه (١١/ ٤٤٤)، حديث (١٢٢٥٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠١)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن حاتم، وابن مردويه والطبراني، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٤)، وزاد نسبته إلى كتاب مناقب الشافعي للحاكم.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه مما هو أولى منه؛ ففي البخاري من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية؛ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ؛ فقال ابن عباس: عجلت. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلاَّ كان له فيهم قربة ـ الحديث»، قلت: وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال: «أكثروا علينا في هذه الآية. فكتبنا إلى ابن عباس فكتب ـ فذكر نحوه» وابن طاوس أتم منه. انتهى.

١٣٧١ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١/ ٣١٩)، حديث برقم (٩٥٠)، وذكره القرطبي (١٦/ ١٦)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٥)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

=

---

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل: إلا مودة القربى. أو: إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقرًّا لها، كقولك: لي في آل فلان هوى وحب شديد، وليس (في) صلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى؛ وإنما هي متعلقة بمحذوف تقديره: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها، قال أحمد: وهذا المعنى هو الذي قصد بقوله في الآية التي تقدمت؛ إن قوله: (يذرؤكم فيه)، إنما جاء عوضاً من قوله: يذرؤكم به، فافهمه.

النبي ﷺ: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة» (١٣٧٢) وروي: أنّ الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا، فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونني»؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. فنزلت الآية (١٣٧٣). وقال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً (١٣٧٤)، ألا ومن مات على

= وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الكديمي عن ابن عائشة بسنده عن علي رضي الله عنه ورواه الطبراني من حديث أبي رافع أن النبي ﷺ قال لعلي: إن أول أربعة يدخلون الجنة ـ فذكره وسنده واحد». انتهى.

١٣٧٢ ـ ذكره القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٦)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٢٥ ـ ٢٣٣ ـ ٢٥٩) حديث (٢٣٦) (٢٤٠٧) (٢٥٢٤)، وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط عن عثمان بن عفان، قال رسول الله ﷺ: «من صنع إلى أحد من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا فهي مكافأته غداً إذا لقيني».

وللثعلبي في تفسيره بسند به بعض الكذابين على رفعه «من اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها إذا لقيني يوم القيامة».

ورواه الجعابي في تاريخ الطالبين بلفظ: «من اصطنع معروفاً إلى أحد من أهل بيتي يداً كافأته عنها يوم القيامة، وقد بينه السخاوي في استجلاء وارتقاء الغرف».

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه وفيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه وهو كذاب. انتهى.

١٣٧٣ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ١٤٤)، حديث برقم (٣٠٦٧٨)، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٥١٥)، حديث (٣٨٧٦)، وذكره القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٧)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن أبي زياد إلاّ عبد السلام بن حرب، تفرد به عبد المؤمن بن علي.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني في الأوسط كلهم من حديث ابن عباس، وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف. انتهى.

١٣٧٤ ـ قال الحافظ: أخرجه الثعلبي أخبرنا عبد الله بن محمد بن علي البلخي ثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ثنا محمد بن أسلم ثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير ـ بطوله وأثار الوضع عليه لائحة ومحمد وما فوقه أثبات والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد. انتهى.

حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب[1] بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد/ ٢/ ١٦٣ب لم يشم رائحة الجنة» وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربى، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت. والمعنى: إلا أن تودوني في القربى، أي: في حق القربى أو من أجلها، كما تقول: الحب في الله والبغض في الله، بمعنى: في حقه ومن أجله، يعني: أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ. وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك، فنزلت، وردّه (١٣٧٥). وقيل ﴿الْقُرْبَىٰ﴾: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقرئ: «إلا مودّة في القربى» ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ عن السدّي أنها المودّة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودّته فيهم. والظاهر: العموم في أي حسنة كانت؛ إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى: دل ذلك على أنها تناولت المودّة تناولاً أوّليًا، كأنّ سائر الحسنات لها توابع. وقرئ «يزد» أي: يزد الله. وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ: «حسنى» وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله:

١٣٧٥ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٦/ ٣٥٤) حديث برقم (٥٧٥٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه والثعلبي والواحدي في أسباب النزول. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عثمان أبي اليقظان إلا نصير بن زياد، تفرد به حسين الأشقر.
قال الزيلعي: غريب، وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب عن ابن عباس بغير سند. ويشبه أن يكون عن الكلبي عن أبي صالح عنه. وروى الطبراني من طريق عثمان أبي اليقظان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عنه. انتهى.

---

(١) قوله: «مكتوب بين عينيه» لعله: مكتوباً.

مجاز للاعتداد بالطاعة، وتوفيه ثوابها، والتفضل على المثاب

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيه التوبيخ[1]، كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها. ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم. ومثال هذا: أن يخوّن بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني، لعل الله أعمى قلبي، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب. وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾[2] [الأنبياء: ١٨] يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه. ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم، إنّ الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك. وعن قتادة ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر، حتى لا يشق عليك أذاهم. فإن قلت: إن كان قوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم، فما بال الواو ساقطة في الخط؟ قلت: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١] وقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٨] على أنها مثبتة في بعض المصاحف.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقال: قبلت منه الشيء، وقبلته عنه. فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه. ومعنى: قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال

---

(١) قوله: «ومعنى الهمزة فيه للتوبيخ» لعله: فيها.

(٢) قوله: «من البهت» أي: إتهام الإنسان بما ليس فيه.

بالواجب. وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التقصي على طريقه، وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللّٰهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. قرئ بالتاء والياء، أي: يعلمه فيثيب على حسناته، ويعاقب على سيئاته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾/ ٢/ ١٦٤أ أي يستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم. وقيل: الاستجابة: فعلهم، أي يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ هو ﴿مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾ على ثوابهم. وعن سعيد بن جبير: هذا من فعلهم: يجيبونه إذا دعاهم. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَبَغَوْاْ﴾ من البغي وهو الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة[1]، وكفى بحال قارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

«أخوف ما أخاف على أمّتي زهرة الدنيا وكثرتها» (١٣٧٦) ولبعض العرب [من الطويل]:

١٣٧٦ ـ أخرجه ابن جرير الطبري (١١/ ١٤٩). حديث (٣٠٦٩٨)، عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٤)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٩)، وزاد نسبته إلى الثعلبي، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٧): كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، حديث (١٤٦٥)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٥٢) كتاب الزكاة: باب تخوف =

---

(١) قوله: «مبطرة مأشرة» في الصحاح: الأشر: البطر. (ع).

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بني رُومَانَ نَبْعاً وَشَوْحَطَا[1]

يعني: أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفانن. أو من البغي وهو البذخ والكبر، أي: لتكبروا في الأرض، وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد. وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى. قال خباب بن الأرت: فينا نزلت، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها (١٣٧٧) ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. يقال قدره قدراً وقدرا. ﴿خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعرف ما تئول إليه أحوالهم، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية. ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض، ومنهم مبسوط لهم، ومنهم مقبوض عنهم؛ فإن كان المبسوط لهم يبغون، فلم بسط لهم، وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط، فلم شرطه؟ قلت: لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه[2] الآن.

= ما يخرج من زهرة الدنيا، حديث (١٠٥٢)، والنسائي (٥/ ٩٠) كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتيم حديث (٢٥٨١). وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢) كتاب الفتن: باب فتنة المال حديث برقم (٣٩٩٥)، وأحمد في مسنده (٣/ ٩١)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٠) كتاب الزكاة: باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك (٣٢٢٥)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢/ ٤٣٦)، حديث برقم (١٢٤٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٩٦)، كتاب الجامع: باب في أصحاب الأموال، حديث (٢٠٠٢٨)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٢٥)، حديث (٧٤٠)، وقال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ. بهذا ـ وزاد: «وكان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا». انتهى.

١٣٧٧ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٩)، وذكره البغوي في تفسيره (٤/ ١٢٧)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٩)، والواحدي في الوسيط (٤/ ٥٤).

---

(١) يروى: وقد جعل الوسمي أول مطر السنة؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. والشوحط مثله، أي: قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم. والمعنى: أنهم يطلبون الإقامة حتى تعظم الأشجار بينهم؛ لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم. أو المعنى: أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسي، ويتحاربون. فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين، وهذا هو الذي يعطيه السياق، وذكر البينية، وتخصيص ذلك الشجر.
ينظر: لسان العرب (شحط)، تاج العروس (شحط).

(٢) قوله: «عكس ما عليه الآن» لعله: ما هو عليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرئ: «قنطوا» بفتح النون وكسرها ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب. وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتدّ القحط وقنط الناس (١٣٧٨) فقال: مطروا إذاً. أراد هذه الآية. ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء، كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث، وينشر غيرها من رحمته الواسعة. ﴿ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمَا بَثَّ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً يحمل على المضاف إليه أو المضاف. فإن قلت: لم جاز ﴿فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والدواب في الأرض وحدها؟ قلت: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ[1] من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم، وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح[2]، ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران. فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي. ولا يبعد أن يخلق في السمٰوات حيواناً

١٣٧٨ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٣٠٧٠٠) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٩١)، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٦/ ٢٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٠)، وزاد نسبته إلى الثعلبي، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال: وذكر لنا فذكره بتمامه ورواه باختصار عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس، فقال مطروا إذاً.

---

(١) قوله: «فخذ» العشائر أقلها الفخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب. فهو أكثرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه، كقوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح. . . الخ» قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب ـ والله أعلم ـ: هو الوجه الأول، وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) ثم قال: (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة» فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق. ﴿إِذَا﴾ يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ وقال الشاعر [من الخفيف]:

وَإِذَا مَا أَشَاءُ أَبْعَثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطاً مَذْعُورَا[1]

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ③⓪ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ③①﴾

في مصاحف أهل العراق ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط. وفي مصاحف أهل المدينة ﴿بما كسبت﴾ بغير فاء، على أنّ (ما) مبتدأة، وبما كسبت: خبرها من غير تضمين معنى الشرط. والآية مخصوصة بالمجرمين[2] ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض. فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة. وعن النبي ﷺ/ ٢/ ١٦٤ب: «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر» (١٣٧٩) وعن بعضهم: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن

١٣٧٩ ـ الحديث مروي عن الحسن البصري ـ وقتادة والبراء. أما حديث الحسن: أخرجه البيهقي في =

---

(١) إذا: ظرف للمستقبل، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلاً؛ أو المضارع كان نصًا في الاستقبال، وجرد من الناقة أمراً آخر لشدة سيرها؛ فلذلك قال: منها. وأصل المعنى: أبعثها في آخر الليل كالناشط، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى، والمذعور: الخائف وهو كناية عن سريع السير جدًا.

ينظر: ديوانه ص ٢٩، شرح أبيات سيبويه ٢/ ١١٨ وشرح المفصل لابن يعيش: ٨/ ١٣٤، والكتاب ٣/ ٦٢، والمقتضب ٢/ ٥٧.

(٢) قال محمود: «الآية مخصوصة بالمجرمين... الخ» قال أحمد: هذه الآية تتكسر عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب، وهو غير ممكن لهم ههنا؛ فإنه قد أثبت التبعيض في العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيض التوبة أيضاً. وهي عندهم لا تتبعض. وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم. فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وقول الزمخشري: إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض، وإنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ في الأصل والفرع؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين. ألا ترى أن القاضي أبا بكر ألزمهم قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال: لا أعواض لها، وليس مترتباً على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

والمصائب باكتسابه. وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر: كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وعن آخر: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب؛ ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة، وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه: «من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة» (١٣٨٠) وعنه رضي الله

= شعب الإيمان (٧/ ١٥٣): باب في الصبر على المصائب: فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٦)، وهناه في الذهد (١/ ٣٤٩): باب ما جاء في العقوبة في الدنيا حديث (٤٣١). وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ١٩٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٦).

وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم كلهم عن الحسن البصري مرسلاً.

أما حديث قتادة:

فقد أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٥٠) حديث (٣٠٧٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٥٢): باب في الصبر على المصائب: فصل في ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور ((٢/ ٧٠٦)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وأما حديث البراء:

أورده السيوطي في الجامع الصغير (٥/ ٤٩٢ ـ فيض) حديث (٨٠٨١).

وعزاه لابن عساكر. ورمز لضعفه.

وذكره في الدر المنثور (٥/ ٧٠٦)، وعزاه إلى ابن مردويه، وأورده السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (٥/ ٤١٤)، بلفظ: «ما اختلج عرق ولا عين إلاّ بذنب ـ وما يدفع الله أكثر». ورمز لصحته وعزاه إلى الطبراني في الأوسط والضياء، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب. عن قتادة كلاهما مرسل. ووصله عبد الرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه. انتهى.

١٣٨٠ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ١٦): بكتاب الإيمان: باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، حديث (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٦٨): كتاب الحدود: باب الحد كفارة، حديث (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٩٩). وأبو يعلى (١/ ٣٥١)، حديث (٤٥٣)، والدارقطني في سننه (٣/ ٢١٥): كتاب الحدود (٣/ ٤٠٣)، و(١/ ٤٥٣)، حديث (٦٠٨). وعبد بن حميد (ص ٥٨): حديث (٨٧). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٥): كتاب التفسير. والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٢٣)، حديث (٧١٣٥).

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف: (٣/ ٢٤١)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه، والبزار وإسحاق بن راهويه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخان ولم يخرجاه. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه من رواية أبي جحيفة عن علي رفعه. بلفظ: من أصاب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني على عبد عقوبته. ومن أذنب ذنباً فستر الله عليه وعفا عنه ـ فالله أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه»، ورواه أحمد والبزار والحاكم والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع =

عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين ما قضي عليكم من المصائب. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ من متول بالرحمة.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن. وقرئ «الجوار» ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء [من البسيط]:

.... كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ[1]

وقرئ «الرياح فيظللن» بفتح اللام وكسرها؛ من ظل يظل ويظل، نحو: ضل يضل ويضل[2] ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري. ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر البحر[3]. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على

= والأربعين. وقال إسحاق في مسنده: أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصفراء عن يونس بن حبان عن علي نحوه وفيه انقطاع. انتهى.

---

(١) وإن صخراً لمولانا وسيدنا ... وإن صخراً إذا يشتو لنحار
أغر أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

للخنساء ترثي أخاها. ويشتو: أي يدخل في الشتاء، وهو حكاية حال ماضية. ونحار: كثير نحر الإبل للضيفان كناية عن كثرة كرمه. والأغر: الأبيض. والأبلج: الطلق الوجه المعروف. والهداة: جمع هاد: من يتقدم غيره ليدله، والعلم: الجبل: وفي رأسه نار: صفة علم جاءت لترسيخ التشبيه وتقريره، والمبالغة في توضيح المشبه وتشهيره، وعادة دليل الركب: الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة، فإذا كان فوقها نار: علم أن أهلها كرام. ويروى:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... .

ينظر: ديوانها ص ٣٨٦، جمهرة اللغة ص ٩٤٨، وتاج العروس: (صخر)، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٠٩.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس كما ذكر؛ لأنَّ يضَلُّ بفتح العين من ضلِلْتُ بكسرها في الماضي، ويضِلُّ بالكسر من ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مقيس، يعني: أن كُلاًّ منهما له أصْلٌ يرجع إليه بخلاف ظَلَّ فإنَّ ماضيه مكسور العين فقط والنون اسمها و«رَوَاكِدَ» خبرها، ويجوز أن يكون ظَلَّ هنا بمعنى صار؛ لأن المعنى ليس على وَقْتِ الظُّلُولِ هو النهار فقط، وهو نظير و«أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ» من هذه الحَيْثِيَّةِ والرُّكُودُ: الثُّبوتُ والاستقرارُ قال [من الطويل]:

وَقَدْ رَكَدَتْ وَسْطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا ... رُكُوداً بِوَادِي الزَّبْرَبِ المُتَفَرِّقِ

وقال الشيخ: ولا يتعيَّنُ أن يكون التقدير أو يعصفها فيغرقن؛ لأنَّ إهْلاكَ السفن لا يتعيَّنُ أن يكون بِعَصْفِ الريح بل قد يهلكها بقَلْعِ لَوْحٍ أو خَسْفٍ. قُلْتُ: والزمخشريُّ لم يذكر أنَّ ذلك متعيِّنٌ، وإنما ذَكَرَ سبباً مناسباً؛ لأنَّ قولَهُ: «يُسْكِنِ الرِّيحَ» يقابلُه يُعْصِفُها فهو في غاية الحُسْنِ والطبَاقِ. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه ثوابت لا تجري على ظهر البحر» قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإن الريح المذكورة هنا نعمة =

بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله، فهو يستملي منها العبر. ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذنوب. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها، فإن قلت: علام عطف يوبقهن؟ قلت: على يسكن؛ لأنّ المعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن. أو يعصفها فيغرقن بعصفها. فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم. فإن قلت: فمن قرأ «ويعفو»؟ قلت: قد استأنف الكلام.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿وَيَعْلَمَ﴾؟ قلت: أما الجزم فعلى ظاهر العطف، وأما الرفع فعلى الاستئناف، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، منه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن؛ لأنّ قبلها جزاء، تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك، على تأويل: وأنا أكرمك. وإن شئت وأكرمك جزماً ـ ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه. قال: واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك: ضعيف، وهو نحو من قوله [من الوافر]:

. . . . وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا[1]

فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام فيه ولا وجهه، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل، إلا أن يكون من الأوّل فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه: أجازوا فيه هذا على ضعفه، اهـ. ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا الباب لما

= ورحمة؛ إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه. وأما اطراده فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً.» فلأجل الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

(١) تقدم.

أخلى سيبويه منها كتابه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة. فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ﴿وَيَعْلَمَ﴾؟ قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين. ﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾ من محيد عن عقابه.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾

﴿ما﴾ الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. عن علي رضي الله عنه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون، فنزلت.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذلك ما بعده. ومعنى ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ الكبائر من هذا الجنس. وقرئ «كبير الإثم» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك. ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ، وإسناد ﴿يَغْفِرُونَ﴾ إليه لهذه الفائدة، ومثله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار: دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتموا الصلوات الخمس./ ٢/ ١٦٥أ وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة: إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، فأثنى الله عليهم، أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» (١٣٨١) والشورى: مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور. ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى، وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾

١٣٨١ ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢/ ٨١). باب المشورة وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٩٨): كتاب الأدب باب في المشورة من أمر بها، حديث (٢٦٢٧٥)، وذكره المصنف مرفوعاً في سورة آل عمران وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد وقد ذكره المصنف مرفوعاً في آل عمران. انتهى.

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا. وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق. فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار؟ قلت: نعم؛ لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه، محاماة على عرضه وردعا له، فهو مطيع. وكل مطيع محمود.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

كلتا الفعلتين: الأولى وجزاؤها سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]: يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، فإذا قال: أخزاك الله قال: أخزاك الله، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة[١] والاعتداء خصوصاً في حال الحرد [٢]والتهاب الحمية، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر. وعن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم. قال: فيقوم خلق، فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله» (١٣٨٢).

١٣٨٢ ـ الحديث مروي عن أنس، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة وابن عباس، ومحمد بن المنكدر، والحسن. وأما حديث أنس فقد أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣١٥) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب، حديث (٨٣١٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٨٧)، والطبراني في مكارم الأخلاق (ص ٣٣١)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٤٤٧)، حديث (١٤٩٨)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٥): كتاب الحدود وغيرها: باب الترغيب في العفو عن القاتل والجافي والظالم... حديث (٣٦٣٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن، تفرد به الفضل عن غالب. =

---

(١) قال محمود: «فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه... الخ» قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل: لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم؛ فيشفي غليل السائل ويحصل منه على كل طائل. ومن هذا النمط والله الموفق: قوله تعالى: (وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور).

(٢) قوله: «الحرد» في الصحاح: «الحرد» بالتحريك: الغضب. (ع)

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، وتفسره قراءة من قرأ «بعد ما ظلم» ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى معنى (من) دون لفظه. ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للعاتب والعائب. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

= وفي إسناده الفضل بن يسار قال عنه العقيلي: لا يتابع من وجه يثبت. هذا ويروى بغير هذا الإسناد من وجه أصلح من هذا..

أما حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٦٣) باب في حسن الخلق: فصل في التجاوز والعفو وترك المكافأة، حديث (٨٠٨٦)، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٣٩٤): كتاب الفتن: باب شفاعة المؤمنين، حديث (٤٦٦٣)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: ضعيف.

وقال البيهقي: هذا متن غريب، وفي إسناده ضعف.

ـ حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٢٠) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب حديث (٨٣٣٠).

والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٢٦٥): حديث (١٢٧٢).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه. وفيه عمرو بن حمزة القيسي. قال العقيلي: لا يتابع على حديثه.

ـ حديث ابن عباس:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩) وعزاه إلى ابن مردويه.

والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٣)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

ـ حديث الحسن:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وعزاه إلى ابن مردويه.

ـ حديث محمد بن المنكدر:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وعزاه إلى ابن المنذر وسعيد بن منصور».

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه. قال: «إذا وقف العبد للحساب ينادي مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة... الحديث»، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس. وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه ـ قال البيهقي: المتن غريب ـ والإسناد ضعيف. انتهى.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم. ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله، فكان المسبوب يكظم، ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون. وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى. وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو: أن زينب أسمعت عائشة بحضرته، وكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونك فانتصري» (١٣٨٣).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذله الله[1] ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

١٣٨٣ ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٦٤): الجزء الرابع باب من انتصر من بعد ظلمه. حديث (٥٥٨).

وأبو داود (٢/ ٢٧٥): كتاب الأدب: باب الانتصار حديث (٤٨٩٨).

والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٨١) كتاب عشرة النساء: باب حب الرجل نساءه أكثر من بعض، حديث (٨٨٩٢)، (٨٨٩٣)، (٨٨٩٤)، وفي التفسير (٢/ ٢٦٩)، حديث (٤٩٦)، وابن ماجه (١/ ٦٣٧): كتاب النكاح: باب حسن المعاشرة (١٩٨١). وأحمد في مسنده (٦/ ٩٣). وابن جرير الطبري (١١/ ١٥٦)، حديث (٣٠٧٢٩).

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٢٤) لكنه جعل مكان زينت بنت جحش أم سلمة ـ وقال: رواه أبو داود غير أنه جعل مكان أم سلمة زينبَ بنت جحش، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٩).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٨)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه. وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٤)، وزاد نسبته إلى ابن عدي في الكامل، وابن أبي شيبة في مسنده.

قال الهيثمي: رواه أحمد، وفيه علي بن زيد وفيه ضعف.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي بمعنى. فذكر نحوه. ولم يذكر فيه النهي. ولفظه: ودخل علي رسول الله ـ ﷺ ـ وعندنا زينب بنت جحش ـ إلى أن قال: فأقبلت زينب هجم لعائشة فنهاها رسول الله ـ ﷺ ـ فأبت أن تنتهي. قال: لعائشة سبيها فسبتها فغلبتها». انتهى.

---

(١) قوله: «ومن يخذل الله فما له من ولي» تأويل على مذهب المعتزلة: أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: يخلقه كالخير، فالإضلال خلق الضلال. ومن بعده: أي من بعد إضلاله. (ع)

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ وقد يعلق ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ﴾، ويوقف على ﴿خَٰشِعِينَ﴾ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف.[1] وهكذا نظر الناظر إلى المكاره: لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحاب. وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفي. وفيه تعسف. ﴿يَوْمَ﴾ إما أن يتعلق بخسروا، ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ «من» صلة «لا مردّ»، أي: لا يرده الله بعدما حكم به. أو من صلة يأتي، أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه. والنكير: الإنكار، أي: ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون ٢/ ١٦٥ب أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد؛ لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ولم يرد إلا المجرمين؛ لأن إصابة السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة: النعمة من الصحة والغنى والأمن. والسيئة: البلاء من المرض والفقر والمخاوف. والكفور: البليغ الكفران، ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم[2]، كما قال: ﴿إِنَّ

---

(١) قوله: «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أي: المحبوس للقتل. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «لم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم... الخ» قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: (وقال الذين آمنوا إن =

﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦] والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها[1].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها: أتبع ذلك أنّ له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته، فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط. فإن قلت: لم قدّم الإناث أوّلاً على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ، ثم رجع فقدّمهم، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث، لأنّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء، وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ـ وهم أحقاء بالتقديم ـ بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدمهنّ، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٩] وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا﴾ على ثلاثة أوجه: إما

= الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن، فيقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(١) قوله: «وينسى النعم ويغمطها» يبطرها ويحقرها. أفاده الصحاح. (ع)

على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. قال عبيدة بن الأبرص [من الطويل]:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا ... بِإِبْلِ أَبِي أَوْفَى فَقُمْتُ عَلَى رِجْلِ[1]

أي: ألهمني وقذف في قلبي. وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه؛ لأنه في ذاته غير مرئي[2]. وقوله: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ مثل أي، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وَحْيًا﴾، و﴿أن يرسل﴾: مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنّ ﴿أن يرسل﴾، في معنى إرسالاً. ومن وراء حجاب: ظرف واقع موقع الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو مرسلاً. ويجوز أن يكون ﴿وَحْيًا﴾، موضوعاً موضع: كلاماً؛ لأنّ الوحي كلام خفي في سرعة، كما تقول: لا أكلمه إلا جهراً وإلا خفاتًا؛ لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً: جعل الكلام على لسان الرسول بغير واسطة، تقول: قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك. وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ معناه: أو إسماعاً من وراء حجاب؛ ومن جعل ﴿وَحْيًا﴾ في معنى: أن يوحي، وعطف ﴿يُرْسِلَ﴾ عليه، على معنى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلا بأن يوحي. أو بأن يرسل، فعليه أن يقدر قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ تقديراً يطابقهما عليه، نحو: أو أن يسمع[3] من وراء حجاب. وقرئ ﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي﴾ بالرفع، على: أو هو يرسل. أو بمعنى مرسلاً عطفاً على ﴿وَحْيًا﴾ في معنى موحياً. وروي أنّ اليهود ٢/ ١٦٦أ قالت للنبي ﷺ:

---

(١) أي ألهمني الله وألقى في قلبي: أنهم تأمروا. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير القوم أو الحال والشأن. واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت؛ لأنها مهملة. وإن ضمن «أوحى» معنى: قال: فإن تفسيرية، أي، قد تآمروا بوزن تفاعلوا، أي: تشاوروا في الأمر، أو أجمعوا أمرهم. ومنه (يأتمرون بك ليقتلوك) بإبل أبى أوفى ليغتصبوها، فقمت في طلبهم لأردها على رجل واحدة، أي: بسرعة، فلا أضع رجلي معاً في الأرض.

(٢) قوله: «لأنه في ذاته غير مرئي» أي: لا تجوز رؤيته. وهذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر في محله. (ع)

(٣) قوله: «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله: أو بأن. (ع)

ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى الله (١٣٨٤)، فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنّ محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية (١٣٨٥)، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول: فتلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة: إما إلهاماً، وإما خطاباً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريد: ما أوحي إليه؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت: قد علم أن رسول الله[1] ﷺ: ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله

١٣٨٤ ـ قال: الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

١٣٨٥ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٤٥٩): كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما... حديث (٣٢٣٤) من طريق محمد بن عبد الله بن إسماعيل حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن عون أنبأنا القاسم عن عائشة.
وأخرجه البخاري (٩/٥٨٧): كتاب التفسير: باب ـ والنجم، حديث (٤٨٥٥). =

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدري الكتاب قبل الوحي... الخ» قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركًا حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان ولا يناله وعد المؤمنين. وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية: عدها فرصة لينتهزها وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإيراده مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما قول أهل السنة، للزم أن ينفى عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقًا، ولما كان التصديق ثابتًا للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين: لزم أن لا يكون الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء: من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث. وهذا الذي طمع فيه: يخرط القتاد، ولا يبلغ منه ما أراد. وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: إن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقًا ـ يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه، ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتًا قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة: استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

عليه؛ فما معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل؛ وذاكِ ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] بالصلاة؛ لأنها بعض ما يتناوله الإيمان. ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من له لطف ومن لا لطف له، فلا هداية تجدي عليه. ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل. وقرئ «لِتُهْدَى» أي: يهديك الله. وقرئ «لتدعو».

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ **كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له» (١٣٨٦).**

= وفي (١٥/ ٣١١) كتاب التوحيد: باب قوله تعالى: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا» حديث (٧٣٨٠). ومسلم في صحيحه (٢/ ٩): كتاب الإيمان: باب قول الله عز وجل: ولقد رآه، حديث (٢٨٩) (١٧٧) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٩).
من طريق إسماعيل بن خالد عن عامر الشعبي، به.
وأخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٤٥٩): كتاب بدء الخلق: باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء... حديث (٣٢٣٥).
ومسلم في صحيحه (٢/ ٩): كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: ولقد رآه، حديث (٢٩٠) (١٧٧).
من طريق أبي أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن ابن الأشوع، عن الشعبي، به.
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨): كتاب الإيمان: باب ولقد رآه، حديث (١٧٧). والترمذي في سننه (٥/ ٢٦٢): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنعام، حديث (٣٠٦٨) والطبري في تفسيره (١١/ ٥١٢ ـ ٥١٣). حديث برقم (٣٢٤٧٥). (٣٢٤٧٦). (٣٢٤٧٧). (٣٢٤٧٨)، (٣٢٤٧٩).
وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٥٧): كتاب الإسراء: باب ذكر تعداد عائشة قول ابن عباس الذي ذكرناه من أعظم الفرية، حديث (٦٠)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٨/ ٣٠٣)، حديث برقم (٤٩٠٠).
كلهم من طريق داود بن أبي هند عن عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة به.
وقال الحافظ: متفق عليه وقد تقدم طرف منه في الأنعام. انتهى.

١٣٨٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة الموضوع على رسول الله ﷺ.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الزخرف

مكية، وقال مقاتل: إلا قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ وهي تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)﴾

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن[١] وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابًا للقسم[٢] وهو من الأيمان الحسنة البديعة؛ لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد. ونظيره قول أبي تمام [من الخفيف]:

وَثَنَايَاكِ إِنَّهَا إِغْرِيضُ .... [٣]

﴿الْمُبِينِ﴾ البين للذين أنزل عليهم؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم. وقيل: الواضح

---

(١) نلاحظ القسم بالكتاب المبين وهو القرآن والمقسم عليه ما بعده ليدل على أنه لا بد من وجود علاقة قوية بين المقسم به والمقسم عليه، وكلما وضحت هذه العلاقة كلما كان القسم بليغًا، وهذا ما رأيناه في هذه الآيات، وقد وضح المفسر العلامة هذا في مواضع كثيرة، وانظر هذا المعنى واضحًا عنده في قوله تعالى:
﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ [سبأ: ٣].
«يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨١».

(٢) قال محمود: «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا) جوابًا للقسم... الخ» قال أحمد: تنبيه حسن جدًا. ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححًا للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الإشعار بأنه في غاية الحسن، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن، لا أنها هي إغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححًا للقسم والله أعلم.

(٣) وثنـاياك إنـهـا إغـريـض ولآل نـوار أرض ومـيـض =

للمتدبرين. وقيل: (المبين) الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة. ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنى صيرناه معدّي إلى مفعولين. أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. و﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ حال. و«لعل»: مستعار لمعنى الإرادة[١]؛ لتلاحظ[٢] معناها ومعنى الترجي[٣]، أي خلقناه عربيًا غير عجمي: إرادة أن تعقله العرب، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته، وقرئ: «أمّ الكتاب» بالكسر وهو اللوح، كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] سمي بأم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. عَلِيّ رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزًا من بينها، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أي: منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بمعنى: أفننحي عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة [من المنسرح]:

إِضْرِبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ[٤]

= وأقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض أريض

لأبي تمام. والإغريض: البرد. والطلع والنوار: كرمان نور الشجر، واحده نوارة. والوميض: شديد البريق واللمعان. والأقاح: نور أبيض طيب الرائحة. والأريض: طيب الأرض، فيكون نضرًا بهيجًا: أقسم بثناياها أي: مقدم أسنانها، إنها: أي ثناياها إغريض. فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد، وشبههما بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللآلىء. فأضافتها إليه للتشبيه. ووميض: نعت مقطوع للنوار. أو تابع للإغريض؛ لكن الأول أجزل، وشبهه بالأقاح الذي نور في البطاح؛ لأنه أنضر وأزهى. وهزه في الصباح من صفة الأقاح «وخص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى، فيكون في غاية النضرة والزهو. وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض في التمايل وظهور الزهور في أعلى كل منهما، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلىء، وإن كانت جمعًا؛ لأن فعيل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فعيل بمعنى مفعول، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكرًا ومؤنثًا. ويروى بدل الشطر الثاني: ولآل توم ورق وميض. والتوم: واحدة تومة «وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة، ولا إشكال في إعرابه».

(١) قال محمود: «ولعل مستعار لمعنى الإرادة» (فسره بالإرادة) قال أحمد: قد بينا فساد ذلك غير ما مرة.

(٢) قوله: «لتلاحظ معناها» لعله: ليلاحظ. (ع)

(٣) قوله: «ومعنى الترجي» لعله: أو معنى. (ع)

(٤) تقدم.

والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر؛ إنكارًا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم على إنزاله الكتاب. وخلقه قرآنًا عربيًا؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجبه. وصفحًا على وجهين. إما مصدر من صفح عنه إذا أعرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضًا عنكم. وإمّا بمعنى الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه، على معنى: أفننحيه عنكم جانبًا، فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبًا، وامش جانبًا. وتعضده قراءة من قرأ «صفحًا» بالضم. وفي/ ٢/ ١٦٦ب هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح، وينتصب على الحال، أي: صافحين معرضين؛ ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: لأن كنتم. وقرئ: «إن كنتم» و﴿إِذْ كُنتُمْ﴾. فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قلت: هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل[1] بصحة الأمر، المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي، وهو عالم بذلك، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق: فعل من له شك في الاستحقاق، مع وضوحه استجهالاً له.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية مستمرة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه. الضمير في ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ للقوم المسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله ﷺ، ووعيد لهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

فإن قلت: قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم[2]، فما تصنع بقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان من قول

---

(١) قوله: «عن المدل» أي: المواثق. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قوله: (ليقولون خلقهن العزيز العليم) وما سرد من الأوصاف عقبه إن كان من قولهم. . . الخ» قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول =

الله، فما وجهه؟ قلت: هو من قول الله لا من قولهم. ومعنى قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي من صفته كيت وكيت؛ لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه. ﴿بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد، ولم يكن طوفانًا.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه. فإن قلت: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك[1]. وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قلت: غلب المتعدّي بغير

= الله تعالى، فالذي هو من قولهم: (خلقهن)، وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله؛ ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لما قالوا: خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامه، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد. ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول أكرمني زيد، فتقول أنت واصفًا للمذكور: الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها، إلى التكلم في قوله: (فأنشرنا) كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى) فجاء أول الكلام حكاية عن موسى، إلى قوله: (ولا ينسى) ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافًا متصلة بكلام موسى؛ حتى كأنه كلام واحد. وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: (فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى) فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين ترى العجب، والله الموفق.

(١) قال محمود: «يقال: ركبت الدابة وركبت في الفلك... الخ» قال أحمد: لم يحرر العبارة في هذا الموضع، فإن قوله: «غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تباينًا وليس كذلك. فإن المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن، غاية ما، ثُمَّ أن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة. وباعتبار بعضها بالتعدي بنفسه، والاختلاف بالتعدي والقصور أو باختلاف آلات التعدي وباختلاف أعداد المفاعيل ـ لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة، مثل: سكرت وأخواته، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة، مثل دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى: لأفهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعدون بعضها إلى مفعولين، ومرادفه إلى مفعول واحد، كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدي. والقصور: الاختلاف في المعنى، فالذي يحرر من هذا: أن «ركب» باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص =

واسطة؛ لقوّته على المتعدّي بواسطة، فقيل: تركبونه. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام. ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ: أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا. . . إلى قوله. لمنقلبون» وكبر ثلاثًا وهلل ثلاثًا (١٣٨٧). وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٣٨٨) [هود: ٤١] وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان

١٣٨٧ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤) كتاب الجهاد باب ما يقول الرجل إذا ركب، حديث (٢٦٠٢)، والترمذي (٥/ ٥٠١) كتاب الدعوات باب ما جاء ما يقول إذا ركب دابة، حديث (٣٤٤٦)، والنسائي (٥/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) كتاب السير: باب التسمية عند ركوب الدابة والتحميد، والدعاء إذا استوى على ظهرها حديث (٨٧٩٩)، وأحمد (١/ ٩٧، ١١٥)، والطيالسي (١/ ١٢٢ ـ منحة) رقم (٥٧٤)، وابن حبان (٢٣٨٠، ٢٣٨١ ـ موارد) وعبد بن حميد رقم (٨٨)، والحاكم (٢/ ٩٩) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٥٢)، وفي «الأسماء والصفات» ص (٤٧١) كلهم من طريق أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي به.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ: أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث علي، وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا، ولمسلم من طريق علي الأرزي عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا الآية). انتهى.

١٣٨٨ ـ قال الزيلعي: غريب.
قال ابن حجر لم أجده من فعله ـ ﷺ ـ لكنه مروي من قوله ﷺ.
أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ١٢٤). حديث (١٢٦٦١) من حديث ابن عباس، وأورده الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥): كتاب الأذكار: باب ما يقول إذا ركب البحر، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٠٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك.
أخرجه أبو يعلى الموصلي (١٢/ ١٥٢)، حديث برقم (٦٧٨١)،
وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٣/ ٢٣٧): كتاب الأذكار والدعوات: باب ما يقول من ركب =

= أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها، فالصواب أحد الأمرين: إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب تعليله باعتبار التعدي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) على أحد التأويلين فيه: فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى، أعني: أجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقارنا: غلب أحدهما على الآخر، ثم جعل المغلب هو المتعدي بنفسه، والله أعلم.

الذي سخر لنا هذا. فقال: أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم (١٣٨٩)، كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه. وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها. جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات؟ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء، إذا أطاقه. قال ابن هرمة [من الطويل]:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلْتَنِي وَلَقَلَّمَا ... يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ[1]

وحقيقة «أقرنه»: وجده قرينته وما يقرن به؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف. ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا يقرن به الصعبة. وقرئ «مقرنين» والمعنى واحد. فإن قلت: كيف اتصل بذلك قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؟ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت[2] أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة

= السفينة حديث (٣٣٦٥) وعزاه لأبي يعلى، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٥)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٠٢)، وزاد نسبته إلى الطبراني وابن السني وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٥٠) وزاد نسبته إلى الطبراني في الدعاء.

قال الهيثمي: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مفلس وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: لم أجده من فعله ﷺ، وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا: بسم الله، وما قدروا الله حق قدره ـ الآية بسم الله مجريها ومرساها» ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. انتهى.

١٣٨٩ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٩١): كتاب الدعاء باب في الرجل يركب الدابة والبعير ما يدعو به حديث (٢٩٧٢٤)، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٠) حديث (٣٠٧٧٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩١) وزاد عزوه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٥١)، وزاد عزوه إلى الطبراني في كتاب الدعاء، وقال الحافظ: أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن علي فذكره.. انتهى.

---

(١) لابن هرمة «وأقرنت الشيء: إذا وجدته قرينًا لك لا يزيد عنك» ثم استعمل في الإطاقة توسعًا. ولقلما: اللام للقسم. وقل: فعل. وما: كافة، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولا فاعل له، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية، والحمل تخييل، يقول: أطقت ما حملتني إياه من صدك عني وهجرك لي، والحال أنه لا يطاق احتمالهما. وفي الاعتراض بندائها: نوع استعطاف.

ينظر: البحر ٨/ ٧، والدرر المصون ٦/ ٩٣.

(٢) قوله: «أو شمست أو تقحمت» في الصحاح: شمس الفرس شموسًا وشماسًا: منع ظهره. وفيه «القحمة» بالضم: المهلكة. وقحم الطريق: مصاعبه. اهـ، فتقحم الدابة براكبها: خوضها به في قحمته. (ع)

انكسرت بهم فغرقوا؛ فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر، واتصالاً بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًا للقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم[1] وهم على ظهور الدواب، أو في بطون السفن/ ٢/ ١٦٧أ وهي تجري بهم، لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامره. وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يصح إلا بعدما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية. وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ [الزخرف: ٩] أي: ولئن سألتهم عن خالق السمٰوات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءًا فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أن قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءًا له وبعضًا منه، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءًا له. ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتًا وبيتًا [من البسيط]:

إنْ أَجـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَـوْمًـا فَـلاَ عَـجَـبٌ ....[2]

* * *

(١) قوله: «حتى تميل طلاهم» في الصحاح «الطلى» الأعناق. قال الأصمعي: واحدتها طلية. وقال أبو عمرو والفراء: واحدتها طلاة. (ع)

(٢) إن أجـزأت حـرة يـومًـا فـلا عـجـب ۞ قد تـجـزئ الـحـرة الـمـذكـار أحـيـانًـا
قيل: «الجزء» اسم للأنثى، واشتقوا منه: أجزأت المرأة، إذا ولدت جزءًا: أي أنثى. وأنكره الزمخشري وقال: إنه اصطناع لا لغة. والمعنى: إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا =

[ومن البسيط]:

زَوَّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً ....[1]

وقرئ: «جزؤوا» بضمتين. ﴿لَكَفُورٌ﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده؛ لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله. ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ بل اتخذ، والهمزة للإنكار: تجهيلاً لهم وتعجيبًا من شأنهم؛ حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءًا، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين: وهو الإناث دون الذكور، على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهنّ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهنّ، كأنه قيل: هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضًا وتمثيلاً، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعائكم[2] أنه آثركم على نفسه بخير

= عجب؛ فإن الحرة التي تلد الذكور كثيرًا قد تلد أنثى في بعض الأوقات. وقيل: حرة الأولى اسم امرأة، والثانية صفة.

ينظر: لسان العرب: (جزأ)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٥، وتاج العروس (جزأ).

(١) زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللدن في أبياتها زجل

قيل: «المجزئة» التي تلد البنات. والجزؤ: البنت. وأنكره الزمخشري وقال: إنه مصنوع لا لغة. والعوسج: ضرب من الشوك. والمراد به: عود المغزل المتخذ منه. واللدن: اللين. والزجل: صوت دوران المغزل. ونحوه: وزوجتها، مبني للمجهول. وروي: «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه، تلد تلك المرأة البنات، وجعل العوسج لدنًا؛ لأنه أكثر دويًا ورنينًا في دورانه.

ينظر: تاج العروس (جزأ)، ولسان العرب (جزأ)، وتهذيب اللغة: ١١/١٤٦.

(٢) قال محمود: «كأنه قيل: هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضًا وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه... الخ» قال أحمد: نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئة الله تعالى، حتى الضلالة والهدى: اتباعًا لدليل العقل، وتصديقًا لنص النقل في أمثال قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدًا، ولا تفيده إلا تصويبًا وتسديدًا، فنقول: إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت، فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً. أما كونها كلمة حق فلما مهدناه. وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهمًا أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا، فإذا وضح ما قلناه فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه، لأنهم توهموا أنها حجة على الله، فدحض الله حجتهم، وأكذب أمنيتهم، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)، (وإن هم إلا يظنون) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل والإشراك بالله: اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) فشبه =

الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبهًا لأنه إذا جعل الملائكة جزءًا لله وبعضًا منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس. ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه[1] غيظًا وتأسفًا وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت [من الرجز]:

مَـا لأَبِـي حَـمْـزَةَ لاَ يَـأْتِـيـنَـا؟ يَـظَـلُّ فِـي الْـبَـيْـتِ الَّـذِي يَـلِـيـنَـا

غَـضْـبَـانُ أَنْ لاَ نَـلِـدَ الْـبَـنِـيـنَـا لَـيْـسَ لَـنَـا مِـنْ أَمْـرِنَـا مَـاشِـيـنَـا

وَإِنَّـمَـا نَـأْخُـذُ مَـا أُعْـطِـيـنَـا[2]

= تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: (إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله: أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: (فلّله الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك، لا لأن المقالة في نفسها كذب، فقال: (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث إنَّ (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم، بل شاء ضلالتهم. ولو شاء هدايتهم لما ضلوا؛ فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم، والنور اللائح والمنهج الواضح. والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم: هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيًا وتيسرًا للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية. حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية؛ فهذه الآية أقامت الحجة، ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة؛ ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة؛ فلا جرم أن أفهامهم تبددت، وأفكارهم تبدلت؛ فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار. أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطًا، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى؛ فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة؛ لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(١) قوله: «واربد وجهه غيظًا» تغير إلى الغبرة من الغضب. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) مـا لأبـي حـمـزة لا يـأتـيـنـا؟ يـظـل فـي الـبـيـت الـذي يـلـيـنـا

غـضـبـان أن لا نـلـد الـبـنـيـنـا لـيـس لـنـا مـن أمـرنـا مـا شـيـنـا

وإنـمـا نـأخـذ مـا أعـطـيـنـا حـكـمـة ربـي ذي الـجـلال فـيـنـا

لامرأة ولدت أنثى فهجر زوجها بيتها، والاستفهام إنكاري. ويظل: استئناف، أي يصير دائمًا في =

والظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها. وقرئ: «مسودّ ومسوادّ» على أن في ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشر، و﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ جملة واقعة موقع الخبر، ثم قال: أو يجعل للرحمٰن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته. وهو أنه ﴿يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم[1] ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه[2] وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وفيه: أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا (١٣٩٠). وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى. وقرئ: «ينشأ»، وينشأ، ويناشأ. ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء: المغالاة بمعنى الإغلاء.

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات؛ وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخسّ النوعين؛ وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله[3]، فاستخفوا بهم

١٣٩٠ ـ أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/٢٦٨): كتاب اللباس وآدابه: باب ذكر الإباحة للمرء أن يكون مطلق الإزار في الأحوال، حديث (٥٤٥٤) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف، وزاد نسبته إلى أبو عبد القاسم في غريب الحديث: (٣/٢٥١ ـ كشاف) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو عبيد في الغريب: حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي العدس الأسدي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ذكر هذا وزاد، واجعلوا الرأس رأسين ـ الحديث» موقوفًا، ورواه ابن حبان من طريق أبي عثمان. قال: أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا. انتهى.

= البيت الذي يقرب منا، ولا يأوي إلى بيتنا، وغضبان: أي هو غضبان، فهو على تقدير الاستفهام. ويحتمل أنه إخبار، أي: هو غضبان من عدم ولادتنا البنين، ثم ترضته واستعطفته بقولها: ليس لنا من أمرنا ما نشاء، فخفف همزة شئنا للقافية، ولا نأخذ إلا ما أعطانا الله إياه؛ لأن الأمر كله لله، تلك حكمته فينا معاشر الخلق.

(١) قوله: «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبتيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «يحتج به من يخاصمه» لعله: على من يخاصمه، أو لعله: يحج به من يخاصمه، أي: يغلبه في الحجاج. (ع)

(٣) قوله: «هم أكرم عباد الله على الله» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك. (ع)

واحتقروهم. وقرئ: «عباد الرحمٰن» وعبيد الرحمٰن، وعبد الرحمٰن، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم. وإناثًا، وأنثا: جمع الجمع. ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: إنهم إناث. وقرئ: «أشهدوا» وأأشهدوا، بهمزتين مفتوحة ومضمومة. وآأشهدوا بألف بينهما، وهذا تهكم بهم/ ٢/ ١٦٧ب، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم، فأخبروا عن هذه المشاهدة. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وهذا وعيد. وقرئ: «سيكتب» وسنكتب: بالياء والنون. وشهادتهم، وشهاداتهم. ويساءلون على: يفاعلون.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ هما كفرتان أيضًا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث، وهما: عبادتهم الملائكة من دون الله، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله، كما يقول إخوانهم المجبرة[1]، فإن قلت: ما أنكرت على من يقول: قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل، على أن الله تعالى قد حكى عنهم ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءًا، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثًا. وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات[2] ـ قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده لو جدّوا في النطق به ـ مدحًا لهم، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله، فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءًا

---

(١) قوله: «المجبرة» يريد أهل السنة، حيث قالوا: إنه تعالى يريد الشر كالخير؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافي اختيار العبد؛ لما له في أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى في الحقيقة، بل الجبر إنما يكون لو كان العباد لا دخل له في أفعاله أصلاً، كالريشة في الهواء، كما قالت المجبرة الحقيقية. وإنما ذم الله تلك المقالة من الكفار؛ لأنهم قالوها استهزاء وعنادًا، لا إقرارًا واعتقادًا، والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. (ع).

(٢) قوله: «لكان النطق بالمحكيات... الخ» ممنوع، وكذا ما بعده، والمعتزلة قالوا: لا يريد الشر بناء على أن الإرادة هي الأمر، وهو ممنوع، وعفا الله عن صاحب الكتاب في بذاءة لسانه على أهل السنة، وجعلهم إخوان الكفار. (ع)

لم يكن لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ معنى، لأنّ من قال: لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب؛ لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادًا كان أو هازئًا. فإن قلت: ما قولك فيمن يفسر ما لهم - بقولهم[1]: إن الملائكة بنات الله - من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله؟ قلت: تمحل مبطل وتحريف مكابر. ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الضمير في ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ للقرآن أو الرسول. والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله: قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتابًا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به. بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين. وقرئ: «على إمة» بالكسر، وكلتاهما من الأمّ وهو القصد، فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد. وقيل: على نعمة وحالة حسنة. ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ خبر «إن». أو الظرف صلة لمهتدون.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿مُتْرَفُوهَا﴾ الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

﴿۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قرئ: «قل» وقال: وجئتكم، وجئناكم، يعني، أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى

---

(١) قوله: «ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم؟» لعله: «يفسر مالهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم... الخ». (ع)

من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قرئ: «براء» بفتح الباء وضمها. وبريء، فبريء وبراء، نحو كريم وكرام[1]؛ وبراء: مصدر كظماء؛ ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. يقال: نحن البراء منك، والخلاء منك. ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فيه غير وجه: أن يكون منصوبًا على أنه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، وأن يكون مجرورًا بدلاً من المجرور بمن؛ كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني[2]. فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين؛ أحدهما: أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون. والثاني، أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة؟ قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون ﴿إِلَّا﴾ صفة بمعنى غير، على أن ﴿ما﴾ في ما تعبدون موصوفة[3]. تقديره: إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فهو نظير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ على التسويف؟ قلت: قال مرة: ﴿فهو يهدين﴾ [الشعراء: ٧٨]/ ٢/ ١٦٨أ ومرة ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ فاجمع بينهما وقدّر، كأنه قال. فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال. ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. ونحوه ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ﴾

---

(١) قوله: «نحو كريم وكرام» في الصحاح: الكرام ـ بالضم ـ: مثل الكريم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وردّه الشيخُ بأنه لا يجوز إلاَّ في نَفْيٍ أو شِبْهِهِ قال: وعَزَّهُ كَوْنُ بَرَاءٍ في معنى النَّفْيِ ولا ينفعه ذلك لأنه مُوجِبٌ: قد تَأَوَّلَ النحاةُ ذلك في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ والاستثناء المُفَرَّغ لا يكون في إيجاب، ولكن لَمَّا كَانَ يأتي بمعنى لا تفعل وإنها لكَبِيرَةٌ بمعنى لا تَسْهُلُ ولاَ تَخِفُّ ساغَ ذلك، فهذا مثله. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وإنَّمَا أَخْرَجَهَا في هذا الوجه عن كونها موصولة؛ لأنه يرى أنَّ «إلا» بمعنى غَير لا يوصفُ بها إلاَّ النكرةُ، وفيها خلافٌ فعلى هذا يجوز أن تكون «ما» موصولةً وإلاَّ بمعنى غير صفة لها. انتهى. الدر المصون.

[البقرة: ١٣٢] وقيل: وجعلها الله. وقرئ: «كلمة» على التخفيف وفي عقبه كذلك، وفي عاقبه، أي: فيمن عقبه، أي: خلفه.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد؛ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة، فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم. وقرئ «بل متعنا» فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ «متعت» بفتح التاء؟ قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨] فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادًا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه[1] قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت: المراد بالتمتيع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه... الخ» قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله: «خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا ـ وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها ـ كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: (بل إدارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول، بل ثانيها آكد من أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما، ومثله كثير، وبالله التوفيق.

التنبه، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها: وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق، ومكابرة الرسول، ومعاداته، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم، قرئ: «على رجْل» بسكون الجيم من القريتين: من إحدى القريتين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٢] أي من أحدهما. والقريتان: مكة والطائف. وقيل: من رجلي القريتين، وهما: الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس. وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل. وعن قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وكان الوليد يقول: لو كان حقًّا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي، وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرًا رسولاً، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى، جاءوا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين، وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به، وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدّمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيمًا.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأنّ الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسوّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدمًا؛ ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم؛ ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا. وإذا كانوا في تدبير أمر المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله/ ٢/ ١٦٨ب الكبرى ورأفته العظمى؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام؟ ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ

رَبِّكَ﴾ يريد: وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب: خير ممّا يجمع هؤلاء من حطام الدنيا. فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع[1]، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام؛ فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال. قلت: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها، ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسماها رزق الله؛ وإذا لم يسلكها تناولها حرامًا، وليس له أن يسميها رزق الله[2]؛ فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوبًا لقميصه[3]. وقرئ: «سقفًا» بفتح السين وسكون القاف. وبضمها وسكون القاف وبضمها: جمع سقف، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء: جمع سقيفة وسقفًا بفتحتين، كأنه لغة في سقف وسقوفًا، ومعارج ومعاريج. والمعارج: جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج: وهي المصاعد إلى العلالي. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي على المعارج، يظهرون السطوح يعلونها، فما اسطاعوا أن يظهروه. وسررًا، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف. ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. وقرئ بكسر اللام، أي: للذي هو متاع الحياة، كقوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] ولما بالتشديد بمعنى إلا، وإن نافية. وقرئ: «إلا» وقرئ: وما كل ذلك إلا. لما قال:

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع... الخ» قال أحمد: قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالاً كان أو حرامًا، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله، وقد تقدم.

(٢) قوله: «وليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حرامًا. والمصنف يريد: أن الله لا ييسر الحرام؛ لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا أدري ما أراد بقوله، قلت: أراد بذلك أن اللامين للعلة، أي: كانت الهبة لأجلك لأجل قميصك، فلقميصك بدل اشتمال بإعادة العامل بعينه، وقد نقل أن قوله: «وهبنا له إسحاق» أنها للعلة. انتهى. الدر المصون.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه بما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا[1] عندنا للكفار سقوفًا ومصاعد وأبوابًا وسررًا كلها من فضة وزخرف، وجعلنا لهم زخرفًا، أي: زينة من كل شيء. والزخرف: الزينة والذهب. ويجوز أن يكون الأصل: سقفًا من فضة وزخرف، يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب، فنصب عطفًا على محل ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وفي معناه قول رسول الله ﷺ: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» (١٣٩١) فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدّى إليها التوسعة

١٣٩١ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل حديث (٢٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٥٣) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٩٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٩) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل ابن سعد الساعدي به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد توبع عبد الحميد، تابعه أبو يحيى زكريا ابن منظور.

أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٨) من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور ضعفوه. وفي «الزوائد» في إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث ابن عمر أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٠) ومن حديث ابن عباس.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٤).

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور، وقال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة. وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه، =

---

(١) قال محمود: «معناه: لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفًا من فضة، أي: لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد: «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم... الآية) فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفًا كما قدمته، فيكون وجه الكلام ههنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدًا مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجودًا تحقيقًا فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرًا معه على ذلك الآية، أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدرًا لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدرًا معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.

عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين(١)، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قرئ: «ومن يعشُ» بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى. وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا. ونظيره: عرج، لمن به الآفة(٢). وعرج، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج. قال الحطيئة [من الطويل]:

= ولفظه: «ما أعطي كافرًا منها شيئًا» ورواه البيهقي في الشعب في الحادي والسبعين من رواية أبي معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وفيه الحسن بن عمارة وهو ضعيف جدًا، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، بلفظ المصنف قال ابن طاهر: فيه علي بن محمد بن أحمد بن أبي عوف عن أبي مصعب عنه، لا أصل له من حديث مالك. انتهى.

---

(١) قال محمود: «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما يؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى: أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين. أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنها بقوله: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا).

(٢) قال محمود: «يقال: عشي بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة...» قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما: الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه ردًا عنيفًا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية؛ وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرًا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدًا لوجهين، أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانًا، فكيف بالعاشي عن ذكر الله. والآخر: يؤخذ من الآية، وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعًا في قوله: (وإنهم) فإنه عائد إلى =

مَـتَـى تَـأْتِـهِ تَـعْـشُـو إِلَـى ضَـوْءِ نَـارِهِ ....[1]

أي: تنظر إليها نظر العشيّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء. وهو بَيِّنٌ في قول حاتم [من الكامل]:

أَعْـشُـو إِذَا مَـا جَـارَتِـي بَـرَزَتْ   حَـتَّـى يُـوَارِيَ جَـارَتِـي الْـخِـدْرُ[2]

= الشيطان قولاً واحدًا «ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة. النكتة الثانية: أن في هذه الآية ردًا على من زعم أن العود على معنى (من) يمنع من العود على لفظها بعد ذلك. واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة. وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا قد أحسن الله له رزقًا) ونقض غيره بقوله: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه... الآية) وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: (يعش) و(له) مرتين، ثم على المعنى في قوله: (ليصدونهم) ثم على اللفظ بقوله: (حتى إذا جاءنا) وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا) فإن الجملة واحدة، فانظره في موضعه.

(1)
كسوب ومتلاف إذا ما سألته   تهلل واهتز اهتزاز المهند
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلاً   بكفيه لم يمنعك من نائل الغد
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

للحطيئة، يقول: هو كثير الكسب وكثير الإتلاف، وبينهما طباق التضاد: إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله: تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطبق من حديد الهند، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معًا كناية عن كثرة العطاء، وسألته في غد أعطاك أيضًا. وعشي يعشى كرضي ويرضى: إذا كان ببصره آفة. وعشا يعشو: إذا تعاشى بغير آفة. والمعنى: متى تأته على هيئة الأعشى ـ مجاز عن إظهار الفاقة ـ تجده أكرم الناس، عبر عنه بذلك على طريق الكناية.

ينظر: البيت في ديوانه ص ٥١، وإصلاح المنطق ص ١٩٨، والأغاني ٢/ ١٦٨، وخزانة الأدب ٣/ ٧٤، ٧/ ١٥٦، ٩/ ٩٢ ـ ٩٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٦٥، والكتاب ٣/ ٨٦، ولسان العرب (عشا)، ومجالس ثعلب ص ٤٦٧، والمقاصد النحويّة ٤/ ٤٣٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٧١، وخزانة الأدب ٥/ ٢١٠، وشرح الأشموني ٣/ ٥٧٩، وشرح ابن عقيل ص ٥٨١، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٦٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٦٦، ٤/ ١٤٨، ٧/ ٤٥، ٥٣، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٨٨، والمقتضب ٢/ ٦٥.

(2)
ناري ونار الجار واحدة   وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرني جار أجاوره   ألا يكون لبابه ستر
أعشو إذا ما جارتي برزت   حتى يواري جارتي الخدر

لحاتم الطائي: وعشي يعشى كرضي يرضى: صار لا يبصر ليلاً. وعشا يعشو كدعا يدعو: إذا نظر كنظر الأعشى. =

وقرئ: «يعشو» على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض[1]. ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، كقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ نخذله[2] ونخل بينه وبين الشياطين، كقوله تعالى:

= يقول: إن ناري هي نار جاري، وتنزل قدري إليه ليأكل منها قبلي، أو ناري ونار جاري واحدة في الزمن والقوة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلي ليأكلها سريعًا خوف اطلاع أحد عليه. لكن يبعد هذا أن المقام ليس لذم الجار بل للمدح. ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله: ما ضرني جار من جيراني بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله، فإني أتغافل وأغض بصري إذا خرجت جارتي، حتى يسترها بيتها. وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار. والاحتمال الأول أقعد؛ لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه. وأما الثاني ففيه ذم جاره. وهو لا يلائم ما بعده.

ينظر: ديوانه (٢٤٥)، أمالي المرتضى (٢/ ٤٧٤)، البحر المحيط (٨/ ٤)، الدر المصون (٦/ ٩٨).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخُ: ولا يتعيَّنُ موصوليتها بل يُخَرَّجُ على وجهين؛ إما تقديرُ حَذْفِ حركةِ العلة وقد حكاها الأخفشُ لغة وتقدم منه في سورة يوسف شواهد، وإمَّا على أنه جَزَمَ بِمَنْ الموصولة تشبيهاً لها بِمَنْ الشرطية قال: وإذَا كانوا قد جزموا بالذي وليس بِشَرْطٍ فأولى بما استعمل شَرْطاً وغيرَ شرط وأنشد [من الطويل]:

وَلاَ تَحْفِرَنْ بِئْراً تُرِيدُ أَخاً بِها ... فَإنَّكَ فِيها أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ.

كذاك الذي يَبْغِي على الناسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عواقبُ مَا صَنَعْ

قال: وهو مذهب الكوفيين، وله وجه من القياس وهو أَنَّ الذي أَشْبَهَتْ اسم الشرطَ في دخول الفاء في خبرها فَتُشْبِهُ اسمَ الشرط في الجزم أيضاً إلاَّ أَنَّ دخول الفاء مُنْقَاسٌ بشرطه. وهذا لا ينقاس ويقال: عَشَا يَعْشُو وعَشِيَ يَعْشَى فبعضهم جعلهما بمعنى وبعضهم فَرَّقَ بأن عَشِيَ يَعْشَى إذَا جعلت الآفَةُ من بصره وأصله الواو وإنما قلبت ياء لانكسار ما قبلها كرَضِيَ يَرْضَى وعَشَا يَعْشُو أي تفاعل. ذلك ونَظَرَ نَظَرَ العُشْي ولاَ آفَةَ ببصره كما قالوا: عَرِجَ لِمَنْ به آفة العَرَجِ وعَرَج لمن تَعَارَجَ ومَشَى مِشْيَةَ ال عُرْجَانِ قال [من الكامل]:

أَعْشُو إذا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الخِدْرُ

أي أُنْظُرَ نَظَرَ العَشِي. وقال آخر [من الطويل]:

مَتَى تأته تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِه ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

أي تَنْظُر نَظَر العُشْي لضعف بصره من كثرة الوقود، بعضُهم بأن عَشَوْتَ إلى النار إذَا استدلَلْتَ عليها بنظرٍ ضعيف. وقال الفراء: عَشَا يَعْشِي يَعْرِضُ وعَشِيَ عَمِيَ. إلاَّ أَنَّ ابنَ قتيبة قال: لم نَرَ أحداً حكى عَشَوْتُ عن الشيء أَعْرَضْتُ عنه وإنما يقال: تَعَاشَيْتُ عن كذا إذَا تَغَافَلْتُ عنه وتَعامَيتُ. وقرأ العامة «نُقَيِّضْ» بنون العظمة وعلي بن أبي طالب والأعمش ويعقوب والسلمي وأبو عمرو وعاصم في روايةٍ عنهما «يُقَيِّضُ» بالياء من تحت أي يُقَيِّضْ الرحمنُ والشَّيْطَانَ نَصْبٌ في القراءتين. وابنُ عباسٍ «يُقَيَّضْ» مبنياً للمفعول «شَيْطَانٌ» بالرفع قائمٌ مقام الفاعل. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله: «نقيض له شيطانًا: نخذله» تأويله بذلك مبني على أنه تعالى لا يفعل القبيح، وهو مذهب =

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] وقرئ: «يقيض» أي: يقيض له الرحمٰن ويقيض له الشيطان. فإن قلت: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؟ قلت: لأنّ (من) مبهم في/٢/١٦٩أ جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعًا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَانَا﴾ العاشي. وقرئ: «جاآنا» على أنّ الفعل له ولشيطانه. ﴿قَالَ﴾ لشيطانه ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب كما قيل: العمران والقمران. فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما، والأصل: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق. فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية: أضاف البعد إليهما. ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه؛ وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: (يا ليت بيني وبينك) على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين. وقوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل، أي: لن ينفعكم تمنيكم؛ لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركون في سببه وهو الكفر. وتقوّيه قراءة من قرأ «إنكم» بالكسر وقيل: إذا رأى الممنو بشدّة[1] من مني بمثلها: روّحه ذلك ونفس بعض كربه، وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء [من الوافر]:

.... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي[2]

= المعتزلة. وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها، فالآيات على ظاهرها. (ع)

(١) قوله: «إذا رأى الممنو بشدة» أي المبتلى. ومني: أي ابتلى، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) يذكرني طلوع الشمس صخرًا ... وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

للخنساء ترثي أخاها. وإسناد التذكير للطلوع: مجاز عقلي؛ لأنه سبب في تذكيرها إياه، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثاني عادة. أو لأنه يذهب في الأول للغارات، ويجلس في الثاني مع الضيفان. أو لأن طلوعها يشبه طلعته، وغروبها: يشبه موته. وفيه نوع من البديع يسمى التنكيت: وهو الإتيان بلفظ يسد غيره مسده، لولا نكتة فيه ترجح اختصاصه بالذكر: لكان اختصاصه خطأ، كما في اختصاص الوقتين هنا. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان. وفيه أيضًا نوع آخر يسمى الإدماج: وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم. أو بحسن الطلعة. والباء في «بكل» سببية. ويحتمل أن الإسناد للأول من باب الإسناد للزمان، فتكون الباء في الثاني بمعنى «في» أو «مع» وذكر الشمس ثانيًا في آخر المصراع الثاني من باب رد العجز على الصدر. وأعزي النفس: أسليها =

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم؛ لعظم ما هم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾؟ قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة. وإذ: بدل من اليوم. ونظيره [من الطويل]:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ .... [1]

أي: تبين أني ولد كريمة.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكدّ روحه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغيّ، فأنكر عليه بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

(ما) في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بمنزلة لام القسم: في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة، والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أشد الانتقام في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا، وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة. وقرئ: «نرينك» بالنون الخفيفة. وقرئ: «بالذي أوحىٰ إليك» على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجل، والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكًا بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضالٌ شقي، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت[2]

= وأصبرها عنه بالتأسي، أي: الاقتداء بغيري من أهل المصائب وفي اقتدائها بالباكين من الرجال: إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم. وروي «على أمواتهم» بدل: «على إخوانهم»، و«أسلي» بدل «أعزي». ينظر: ديوانها (٨٥)، البحر المحيط (١٧/٨)، المخصص (٢٢/١٦).

(١) تَقَدَّمَ.

(٢) قوله: «ولكن كما يفعل الثابت» لعله: وكن. أو لعله: ولكن كن. (ع)

الذي لا ينشطه تعجيل ظفر، ولا يثبطه تأخيره.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الذي أوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَ﴾ لـ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرًا وفحصًا[1]: نظره في كتاب الله المعجز المصدّق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا. وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها، والسؤال الواقع مجازٌ عن النظر، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة: كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال: سل الأرض: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا[2] أجابتك اعتبارًا. وقيل: إن النبيّ ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم. وقيل له/ ٢/١٦٩ب: سلهم، فلم يشكك ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وعن الفراء: إنما هم يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ما أجابوه به عند قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحرًا. وإذا للمفاجأة. فإن قلت: كيف جاز أن يجاب لَمّا بإذا المفاجأة؟ قلت: لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب[3] في

---

(١) قال محمود: «سؤال مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في مللهم... الخ» قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم. (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) والله أعلم.

(٢) قوله: «تجبك حوارًا» أي مخاطبة بالنطق. في الصحاح: استحاره، أي: استنطقه. (ع)

(٣) قال محمود: «جازت فيه إجابة لما بإذا التي للمفاجأة؛ لأن فعل المفاجأة مقدر معها، وهو العامل فيها النصب... الخ» قال أحمد: الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق ـ والله أعلم ـ أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأن كل آية دونها. فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضًا فكره بغظمها، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه =

محلها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فإن قلت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قلت: أختها التي هي آية مثلها. وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة، كما تقول: هو أفضل رجل رأيته. تريد: تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلًا رجلًا(١)، فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأنّ معناه: ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة. قلت: الغرض من هذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير التي تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك، فعلى ذلك بنئ الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك. ومنه بيت الحماسة [من البسيط]:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي(٢)

= النهاية، وأن كل آية دونها. والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما؛ ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية. وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(١) قوله: «إذا قروتهم رجلًا رجلًا» أي تتبعتهم. (ع)

(٢)
هينون لينون أيسار ذوو كرم ... سواس مكرمة أبناء أيسار
إن يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا ... فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن تودّدتهم لانوا وإن شهموا ... كشفت أذمار شرّ غير أشرار
لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ... ولا يمارون من مارى بإكثار
من تلق منهم تقل: لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

لعبيد بن الأبرص. وقيل للعرندس. وهينون لينون: جمع هين ولين: تخفيف هين ولين بالتشديد، على فيعل. وأيسار: جمع يسر، كقطب وأقطاب، وهو في الأصل ضد العسر، سمي به الرجل مبالغة، أو جمع يسرة كقصبة، وهي في الأصل: الخط في باطن الكف، أطلقت على الرجل إشعارًا بالكرم. وسواس: جمع سائس، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة، وبمعنى الولي المصلح. وجهده الطعام: إذا اشتاق إليه واشتهاه. وجهد الرجل فهو مجهود: أصابه القحوط والمشقة. وقوله: «فالجهد يخرج منهم» جواب الشرط. ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله. وإن جهدوا: جوابه دل عليه ما قبله. والشهامة: الخشونة، وشهمت الفرس حركته ليسرع. وأذمار شر: أي شجعان حرب: جمع ذمر ككبد، من ذمر الرجل: عبس وغضب. وذمر الأسد زأر بصوته، أي: إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار. وضمن النطق معنى الإخبار، فعداه =

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت. ثكلتهم[1] إن كنت أعلم أيهم أفضل، وهم كالحلقة المفرّغة لا يدرى أين طرفاها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان[2]. فإن قلت: لو أراد رجوعهم لكان، قلت: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به[3] ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد، وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأنّ الإرادة لم تكن قسرًا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب: السنون، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وقرئ: «يا أيه الساحر» بضم الهاء، وقد سبق وجهه. فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قلت: قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكثه، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: (إننا لمهتدون) وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر:

= بعن. ويجوز أنها بمعنى الباء. والمماراة: الجدال. وبإكثار: متعلق بـ «مارى»، أو بـ «يمارون». من تلقه منهم تقل فيه: لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل. فكما أن النجم يهتدي به المسافر، كذلك هم يهتدي بهم المختبط الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل. ويروى بدل «وإن جهدوا... الخ»: وإن خبروا. في الجهد أدرك منهم طيب أخبار. أي: إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم.

(١) قوله: «ثكلتهم» الثكل: فقدان المرأة ولدها.

(٢) قال محمود: «معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان... الخ» قال أحمد: تقدم في غير موضع أن «لعل» حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق. وعليه تأول سيبويه ما ورد. وأما الزمخشري فيحمل «لعل» على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى مع اعتقاد أن الله يريد شيئًا ويريد العبد خلافه، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ـ فما أشنعها زلة وأبشعها خلة. ولقد أساء الأدب في هذا الموضع؛ حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هدي به وما اهتدى. وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وأن مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع؛ فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض؛ نعوذ بالله من هذه الغواية: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا).

(٣) قوله: «ليس إلا أن يأمره به» هذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة: فإرادته غير الأمر، سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره، ولا يلزم تأويل الآية بالإرادة؛ لجواز أن يكون معناها: ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجى رجوعهم. (ع)

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك: من أن دعوتك مستجابة. أو بعهده عندك وهو النبوّة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعًا له. والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكأنه نودي به بينهم فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يعني أنهار النيل ومعظمهما أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس: قيل: كانت تجري تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجري: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر، وعجب الناس من مدى عظمته، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها؛ لئلا تخفى تلك الأُبَّهَة[1] والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبيدي، فولاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر، والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾/ ٢/ ١٧٠أ أم هذه متصلة؛ لأنّ المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون، إلا أنه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ موضع: تبصرون؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب[2]. ويجوز

---

(١) قوله: «تلك الأبهة» كسكرة، كذا بهامش الصحاح. وفي الصحاح: «دهماء الناس»: جماعتهم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا متكلّفٌ جدًا؛ إذ المعادل إنما يكون مُقَابِلًا للسابق، فإنْ كَانَ المعادلُ جملة فعلية كان السابق جملة فعلية أو جملة اسمية يُتَقَدَّرُ منها فعلية كقوله: ﴿أدعوتموهم أم انتم صامتون﴾ لأن معناه أَمْ صَمَتُّم. وهنا لا يتقدر منها جملة فعلية؛ لأنَّ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» ليس مقابلاً لقوله: «أَفَلاَ تُبْصِرُونَ» وإن كان السابقُ اسمًا كان المعادل اسمًا أو جملة فعلية يتقدر منها اسمٌ، نحو قوله [من الرجز]:

أَمُـخْـدَجُ الـيَـدَيْـنِ أَمْ أَتَـمَّـتِ؟ =

أن تكون منقطعة على: بل أأنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدّم عليهم من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير. وقرئ: «أما أنا خير» ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرُّتة[1] يريد: أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة، وكانت الأنبياء كلهم أبيناء[2] بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن[3] به، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا: لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقًا ملكه ربه وسوّده وسوّره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره. وقرئ: «أساور» جمع «أسورة» و«أساوير» جمع أسوار وهو السوار، و«أساورة» على تعويض التاء من ياء أساوير. وقرئ: «ألقي عليه أسورة» وأساور، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزهم. وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف أسفًا إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة: «رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر» (١٣٩٢). ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا

١٣٩٢ ـ تقدم في سورة طه، وقال الحافظ: تقدم في سورة طه. انتهى.

= فأَتَمَّتْ معادلُ للاسم فالتقدير أَمْ مُتِمًا؟ قُلْتُ: وهذا الذي رده على الزمخشري رَدٌّ على سيبويه؛ لأنه السابق به. وكذا قوله أيضًا: أنه لا يحذف المعادل بعد أَمْ إلاّ وبعدها «لاَ» فيه نَظَرٌ من حيث تجويز سيبويه حذف المعادل دون «لاَ» فهو رَدٌّ على سيبويه أيضًا. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لما به من الرتة» بالضم: العجمة في الكلام، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «وكانت الأنبياء كلهم أبيناء» في الصحاح: بان الشيء بيانًا: اتضح، فهو بين، والجمع أبيناء، مثل هين وأهيناء. (ع)

(٣) قوله: «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن. (ع)

طورهم، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ: «سلفًا» جمع سالف، كخادم وخدم. وسلفا ـ بضمتين ـ جمع سليف، أي: فريق قد سلف. وسلفا: جمع سلفة، أي: ثلة قد سلفت. ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، وحديثًا عجيب الشأن سائرًا مسير المثل، يحدثون به ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)﴾

لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا[1] من ذلك امتعاضًا شديدًا، فقال عبد الله بن الزبعرى: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبيّ وتثني عليه خيرًا وعلى أمه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما. وعزير يعبد. والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية (١٣٩٣). والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش من هذا المثل ﴿يصدّون﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج[2] فرحًا وجزلاً وضحكًا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيّوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأمّا من قرأ «يصدّون» بالضم ـ فمن الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو: يعكف ويعكف ونظائر لهما. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينًا. ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق

١٣٩٣ ـ تقدم في سورة الأنبياء. وقال الحافظ ابن حجر، تقدم في أواخر الأنبياء. انتهى.

---

(١) قوله: «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم، كذا في الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أي صياح وكذا اللجب. أفاده الصحاح. (ع)

والباطل، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج، كقوله تعالى: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ما أريد به إلا الأصنام، وكذلك قوله عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» إنما قصد به الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة، إلا أن ابن الزبعرى بخبثه وخداعه وخُبْثِ دُخْلَتِه[1] لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغًا، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال[2] وحب المغالبة/ ٢/ ١٧٠ب والمكابرة، وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فدل به على أنّ الآية خاصة في الأصنام، على أنّ ظاهر قوله: (وما تعبدون) لغير العقلاء. وقيل: لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: نحن أهدى من النصارى؛ لأنهم عبدوا آدميًا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. وقوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى؛ لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلاً. معناه: وما قالوا هذا القول، يعني: ءآلهتنا خير أم هو. إلا للجدال، وقرئ: «آآلهتنا خير» بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها؛ لدلالة أم العديلة عليها. وفي حرف ابن مسعود: خير أم هذا. ويجوز أن يكون ﴿جدلاً﴾ حالاً، أي: جدلين. وقيل: لما نزلت ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرًا، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر. ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجون ويضجرون. والضمير في ﴿أَمْ هُوَ﴾ لمحمد ﷺ، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم: السخرية به والاستهزاء. ويجوز أن يقولوا ـ لما أنكر عليهم قولهم: الملائكة بنات الله وعبدوهم ـ ما قلنا بدعا من القول، ولا فعلنا نكرًا من الفعل؛ فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه، ونحن أشف[3] منهم قولاً وفعلاً، فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي، فقيل لهم: مذهب النصارى شرك بالله، ومذهبكم شرك مثله، وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل، وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيث جعلناه آية: بأن خلقناه من غير سبب، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنيَ إسرائيل.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) قوله: «وخبث دخلته» بالضم: باطن أمره. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «على طريقة المحك» أي: اللجاج، كما في الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «ونحن أشف منهم» أي: أرق. أفاده الصحاح. (ع)

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يخلفونكم في الأرض كما يلخفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل؛ لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام، وذات القديم متعالية عن ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي شرط من أشراطها تعلم به، فسمي الشرط علمًا لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس: لعلم، وهو العلامة. وقرئ: «للعلم» وقرأ أبيّ: لذكر، على تسمية ما يذكر به ذكرًا، كما سمي ما يعلم به علمًا. وفي الحديث: أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة: يقال لها: أفيق وعليه ممصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة، وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقدِّمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به (١٣٩٤). وعن الحسن: أن الضمير للقرآن، وأن

١٣٩٤ ـ قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند وهو مفرق في الأحاديث،
أ ـ قوله ثنية أفيق أخرجه أحمد (٤/ ٢١٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٨): كتاب الفتن والملاحم، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٩١): كتاب الفتن باب ما ذكر في فتنة الدجال، حديث (٣٧٤٧٨)، في كنز العمال (٣٨٨٢٩) وذكره المتقي الهندي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤٣) وزاد نسبته إلى الطبراني. قوله. «وعليه ممصرتان».
أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١١٧): كتاب الملاحم باب خروج الدجال، (٤٣٢٤)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٤٠٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٥) كتاب التاريخ، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٢٣٣): كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن، والحوادث، حديث (٦٨٢١). .
من حديث أبي هريرة:
قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقوله: «والناس في صلاة الصبح».
أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٥٩): كتاب الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج حديث (٤٠٧٧).
قوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب».
أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٤١٥): كتاب المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير، حديث (٢٤٧٦)، أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٦): كتاب الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا =

القرآن به تعلم الساعة؛ لأن فيه الإعلان بها، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ من المرية وهي الشك، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا هداي وشرعي. أو رسولي. وقيل: هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ للقرآن.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد بانت عداوته لكم[1]: إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات. ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: الإنجيل والشرائع. فإن قلت: هلا بيّن لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه؟ قلت: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم. ﴿الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى عليه السلام. وقيل: اليهود والنصارى. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعيد للأحزاب. فإن قلت: ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ إلى من يرجع الضمير فيه؟ قلت: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ وهم قومه المبعوث إليهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

= حديث (١٥٥)، وأبو داود في سننه (٤/١١٧): كتاب الملاحم: باب خروج الدجال، حديث (٤٣٢٤)، والترمذي في سننه (٤/٥٠٦): كتاب الفتن باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حديث برقم (٢٢٣٣)، وابن ماجه (٢/١٣٦٣): كتاب الفتن: باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم... حديث (٤٠٧٨)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/٢٤٠)، والحميدي في مسنده (٢/٤٦٨)، حديث (١٠٩٧) من حديث أبي هريرة، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي بغير سند، وهو موجود في أحاديث متفرقة. فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص. وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة. وقوله: والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجه من حديث أبي أسامة، وقوله: «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبي هريرة. انتهى.

---

(١) قوله: «قد بانت عداوته لكم» في الصحاح «بان الشيء بيانًا»: اتضح فهو بين، كذلك أبان فهو مبين. (ع)

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة. وَالمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قلت: أما أدى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مؤدّى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيستغني عنه؟ قلت: لا؛ لأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم، كقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾/ ٢/ ١٧١أ [يس: ٤٩] ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بعدوّ، أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتًا، إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله. وقيل: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء. وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. ﴿يَـٰعِبَادِ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذٍ، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوب المحل صفة لعبادي؛ لأنه منادى مضاف، أي: الذين صدّقوا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين وجوههم لنا، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا. وقيل: إذا بعث الله الناس فزع كل أحد، فينادي مناد، يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين. وقرئ: «يا عباد» ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره ـ أي: أثره ـ على وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤] وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه. والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل. والكوب: الكوز لا عروة له. ﴿وَفِيهَا﴾ الضمير للجنة. وقرئ: «تشتهي» وتشتهيه. وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون. ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة. وهي مبتدأ، و﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبر. و﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة الجنة. أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة. والتي أورثتموها: خبر المبتدأ. أو التي أورثتموها: صفة، و﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار. وفي الوجه الأول تتعلق بأورثتموها. وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ: «ورّثتموها» ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من للتبعيض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزينة بالثمار أبدًا موقرة بها، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا.

وعن النبي ﷺ: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها[1] إلا نبت مكانها مثلاها» (١٣٩٥).

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرّها. والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدًا: لا يرى ولا يرى. ﴿هُمُ﴾ فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين. وقرئ: «وهم فيها» أي: في النار[2] وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما: «يا مال» بحذف الكاف للترخيم، كقول القائل [من المنسرح]:

.... وَالْـحَـقُّ يَـا مَـالِ غَـيْـرُ مَـا تَـصِـفُ[3]

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ «ونادوا يا مال» فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم (١٣٩٦). وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم

١٣٩٥ ـ تقدم في سورة البقرة:
قال الحافظ: أخرجه البزار عن ثوبان، وقد تقدم في البقرة. انتهى.

١٣٩٦ ـ قال الزيلعي: غريب ـ تخريج الكشاف (٣/ ٢٥٦)، هذا وقد روى البخاري في صحيحه (٦/ ٤٥٨): كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم أمين. . .، حديث (٣٢٣٠) ومسلم (٣/ ٤٢٠): كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٧١) عن يعلى عن أبيه: «سمعت رسول ـ ﷺ ـ يقرأ على المنبر: «ونادوا يا مالِ» قال سفيان في قراءة عبد الله: «ونادوا يا مال» واللفظ للبخاري.
=

---

(١) قوله: «من ثمرها إلا نبت مكانها» في الخازن: ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها». (ع)

(٢) قوله: «وقرئ: (وهم فيها) أي في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ؛ لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)

(٣) يـحـيـي رفـات الـعـظـام بـالـيـة ... والـحـق يـا مـال غـيـر مـا تـصـف

أي: يحيي الله المتفتت من العظام حال كونها بالية، يقال: رفته رفتًا، إذا فتته. والرفات: اسم منه كالفتات، قال: والحق غير ما تذكره يا مالك، فرخمه بحذف الكاف، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.

وهو لعمرو بن امرىء القيس في لسان العرب ٥/ ٤٦ (فجر)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٨١، وتاج العروس ١٣/ ٣٠٠ (فجر)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ١/ ٢١٣.

ما هم فيه. وقرأ أبو السّرار الغنوي «يا مال» بالرفع كما يقال: يا حار[1] ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ من قضى عليه إذا أماته ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا. فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويغوّثون[2] أوقاتًا لشدّة ما بهم. ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ لابثون. وفيه استهزاء. والمراد: خالدون. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة (١٣٩٧). وعن النبي ﷺ «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكًا، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك» (١٣٩٨) .﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ كلام الله عزّ وجل: بدليل قراءة من قرأ: «لقد جئتكم» ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل. لما سألوا مالكًا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم: أجابهم الله بذلك.

= وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: لم أجده بإسناد.
وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي ﷺ يقرؤها كذلك. انتهى.

١٣٩٧ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٤٨): كتاب التفسير، والطبري في جامع البيان (١١/٢١٣): حديث برقم (٣٠٩٩١)، وسفيان الثوري في تفسيره (ص ٢٧٣): حديث (٨٨٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٠٢)، وذكره الواحدي في الوسيط (٤/ ٨٢)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٣٥)، وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في وصفة النار وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: (ونادوا يا مالك) قال: مكث عنهم ألف سنة ثم يقول: «إنكم ماكثون» وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ـ الحديث: وفيه: قال الأعمش: بين أن ينزل عليهم وإجابة مالك ألف عام» وقال الترمذي: قطبة ثقة. وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا. وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير. ثم رواه من طريق قطبة مرفوعًا؛ ولم يفعل أيضًا. انتهى.

١٣٩٨ ـ أخرجه الترمذي في سننه (٤/٧٠٧): كتاب صفه جهنم، باب ما جاء في صفه طعام أهل النار حديث (٢٥٨٦)، وأبو بكر بن شيبة في مصنفه (٧/ ٤٩) كتاب ذكر النار: باب ما ذكر فيما أعد لأهل النار وشدته حديث (٣٤١٢٩)، والطبري في جامع البيان (٩/ ٢٤٨) حديث (٢٥٦٨٦).
قال الترمذي: إنما تعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله وليس بمرفوع. وقال الحافظ: هو في الحديث الذي قبله. انتهى.

---

(١) قوله: «كما يقال: يا حار» في نداء حارث. (ع)
(٢) قوله: «ويغوثون» في الصحاح: «غوث الرجل»: قال: واغوثاه. (ع)

﴿كَرِهُونَ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه؛ لأنّ مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أَمْ﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: ٤٢]؟ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ. فإن قلت: ما المراد بالسر والنجوى؟ قلت: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال. والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ يريد/ ٢/ ١٧١ب الحفظة عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك. وعن يحيى بن معاذ الرازي: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السمٰوات فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ﴾ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له[1] كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى

---

(١) قال محمود: «معناه إن صح وثبت برهان قاطع، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له... الخ» قال أحمد: لقد اجترأ عظيمًا واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدليًا: إن كان الله خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه فأنا أول القائلين: إنه شيطان وليس بإله، فلينقم عليه ذلك بقول القائل: قد ثبت قطعًا عقلاً وشرعًا أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الإيمان، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا الله، وتصديقًا بمضمون قوله تعالى: (هل من خالق غير الله) وقوله: (الله خالق كل شيء) وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلاً: لزمه فرك أذنه وغل عنقه؛ إذ يلحد في الله إلحادًا لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة. ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة؛ فإنه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها: والله المسئول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلي للمجبر[1]، إن كان الله تعالى خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه عذابًا سرمدًا، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله؛ فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقًا للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له ـ: أما والله[2] لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى ـ: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلٰهًا غيرك. وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقيل: إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم: «العبدين» وقيل: هي إن النافية، أي: ما كان للرحمٰن ولد، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد. وروي: أنّ النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني. فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمٰن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة: أن لا ولد له. وقرئ: «ولد» بضم الواو. ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السمٰوات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد؛ ليدل على أنه من صفة الأجسام. ولو كان جسمًا لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ﴾ وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب، وإعلام لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول، وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وإيعاد بالشقاء في العاقبة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

---

(١) قوله: «ونظيره أن يقول العدلي للمجبر» يريد: أحد المعتزلة لأحد أهل السنة، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حقه تعالى ما لا يخفى. (ع)

(٢) قوله: «قال له: أما والله» في الصحاح: «أما» مخفف تحقيق للكلام الذي يتلوه، اهـ. ولعل حذف الألف لغة، فليحرر. (ع)

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ضمن اسمه تعالى معنى وصف؛ فلذلك علق به الظرف في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] كما تقول: هو حاتم في طيّ، حاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في طي جواد في تغلب. وقرئ: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئًا، وزاده طولاً أنّ المعطوف داخل في حيّز الصلة. ويحتمل أن يكون ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف، على أنّ الجملة بيان للصلة. وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية، لا على معنى الاستقرار. وفيه نفي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض. ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ قرئ بضم التاء وفتحها. و«يرجعون» بياء مضمومة. وقرئ: «تحشرون» بالتاء.

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو توحيد الله، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأنّ في جملة الذين يدعون من دون/ ٢/ ١٧٢أ الله: الملائكة، وقرئ: «تدعون» بالتاء وتدّعون بالتاء وتشديد الدال.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قرئ بالحركات الثلاث، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله، وعنه: وقال قيله. وعطفه الزجاج على محل الساعة، كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمرًا، وحمل الجرّ على لفظ الساعة، والرفع

(١) قال محمود: «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف، فعلق به الظرف. وهو قوله: (في السماء)... الخ» قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافًا إلى الطول الذي ذكره: وقوع الموصول خبرًا عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره؛ إذ كان أصل الكلام: وهو الذي هو في السماء إله. ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وأن الراجع إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد؛ فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله: (تمامًا على الذي أحسن) ومع أي في موضعين على رأي.

على الابتداء، والخبر ما بعده وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف. معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله. والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا، ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه: أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك: ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب. أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم، وودعهم وتاركهم، ﴿وَقُلۡ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ أي تسلم منكم ومتاركة. ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله ﷺ. والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ لرسول الله ﷺ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب» (١٣٩٩).

١٣٩٩ ـ تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. انتهى.

سورة الدخان

مكية، إلا قوله: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا. . .﴾ الآية

وهي سبع وخمسون آية، وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد الزخرف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾

الواو في قوله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ واو القسم، إن جعلت حم تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة، مرفوعًا على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت حم مقسمًا بها. وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن. والليلة المباركة: ليلة القدر. وقيل: ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصكّ، وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. وقيل في تسميتها: ليلة البراءة والصكّ: أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عزّ وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة. وقيل: هي مختصة بخمس خصال: تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها، قال رسول الله ﷺ: «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك: ثلاثون يبشرونه بالجنة، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا. وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان» (١٤٠٠). ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يرحم أمتي[(١)] في هذه الليلة بعدد شعر

١٤٠٠ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٦١) حديث (١١٧٠)، وعزاه إلى أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي في كتاب الترغيب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن النبي ﷺ وإلى أبي الفضل محمد =

---

(١) قوله: «يرحم أمتي في هذه الليلة» لعله: من أمتي. (ع)

أغنام بني كلب» (١٤٠١) وحصول المغفرة: قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين، أو مصرّ على الزنا» (١٤٠٢) وما أعطي فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة؛

= ابن ناصر السلامي في كتاب فضائل شعبان عن جعفر بن محمد عن أبيه مرفوعًا.
وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب ولم يرفعه، وإلى الحافظ أبي محمد عبد العزيز بن الأخضر في كتابه فضائل شعبان عن بضعة وثلاثين رجل من أصحاب النبي.
وذكره الديلمي في فردوس الأخبار عن علي بن أبي طالب (٤/ ٥٣) حديث (٥٦٥٧).
بلفظ «من صلى مائة ركعة في ليلة النصف من شعبان يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وعشر مرات: «قل هو الله أحد» ـ قضيت له كل حاجة طلبها في تلك الليلة».
وأخرجه السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/ ٦٠): كتاب الصلاة، صدره عن علي بن أبي طالب وعجزه عن ابن عمر وعن أبي يحيى عن أربعة وثلاثين من الصحابة.
قال الحافظ ابن حجر: ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر هكذا، وأخرجه أبو الفتح سليم ابن أيوب في الترغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن علي موقوفًا، وأخرجه ابن الأخضر من رواية جعفر المدائني عن أبي يحيى العتابي حدثني بضعة وثلاثون من أصحاب النبي ﷺ أنه قال ـ فذكره. انتهى.

١٤٠١ ـ أخرجه الترمذي (٣/ ١٠٧) كتاب الصوم: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (٧٣٩)، والنسائي (٤/ ٩١) كتاب الجنائز: باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين، حديث (٢٠٣٧)، وابن ماجه في سننه (١/ ٤٤٤): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (١٣٨٩)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٣٨)، وعبد بن حميد في مسنده (١٥٠٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٥٥٦): كتاب الصوم: حديث في فضيلة ليلة النصف من شعبان حديث (٩١٥).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٦) وزاد نسبته إلى البيهقي وابن أبي شيبة، وذكره الزيلعى في تخريج الكشاف (٣/ ٢٦٢)، وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه وابن دحية في العلم المشهور قال الترمذي: لا يعرف هذا الحديث.
وقال: يحيى لم يسمع من عروة والحجاج لم يسمع من يحيى.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث عائشة مرفوعًا: «إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا. فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب. قال الترمذي: لا نعرفه إلاّ من حديث الحجاج؟ وسمعت محمدًا يضعفه. وقال: ابن يحيى لم يسمع من عروة، والحجاج لم يسمع من يحيى، وفي الباب عن أنس في الدعوات للبيهقي. وفي روايته مجاهيل. ومن وجه آخر عن عائشة في الأفراد للدارقطني. وفيه عطاء بن عجلان. وهو متروك. انتهى.

١٤٠٢ ـ قال الزيلعى: غريب بهذا اللفظ انظر تخريج الكشاف (٣/ ٢٦٤).
قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا. وله شواهد.
عند البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨٤): باب في الصيام: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، حديث برقم (٣٨٣٣)، وابن ماجه (١/ ٤٤٥): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (١٣٩٠). وأحمد في المسند (٦/ ٢٣٩) وابن حبان (١٢/ ٤٨١) كتاب =

وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته. فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع، إلا من شرد عن الله شراد البعير (١٤٠٣). ومن عادة الله في هذه الليلة: أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة. والقول الأكثر أنّ المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] ولمطابقة قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ لقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلت: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر، وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا. فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾/ ٢/ ١٧٢ب ما موقع هاتين الجملتين؟ قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان[1]. فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] كأنه قيل: أنزلنا؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا؛ لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم. والمباركة: الكثيرة الخير لما يتيح[2] الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم منها إلى

= الحظر والإباحة: باب ما جاء في التباغض والتحاسد والتدابر، حديث (٥٦٦٥) والبزار (٢/ ٤٣٥): كتاب الأدب: باب ما جاء في الشحناء، حديث (٢٠٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩١). والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٠٨) حديث (٢١٥).

وذكرها الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٦٤) وعزاها إلى البيهقي في الدعوات، وابن عدي والعقيلي، وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده هكذا. وفي ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال: «يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلاَّ لمشرك أو مشاحن» وفي ابن ماجه من حديث أبي موسى كذلك، والبزار من حديث أبي بكر وفي إسناده ضعف، والبزار أيضًا من حديث عوف بن مالك، وفيه ابن لهيعة. ومن حديث أبي هريرة وفيه من لا يعرف. ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد عن عائشة، وفيها: «لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحم، ولا إلى عاق، ولا إلى مدمن خمر» وفي رواية أنس عن عائشة التي ذكرناها في التي قبلها: «والمدمن، والعاق، والمصر على الزنا، وزادوا: «ولا مصور ولا قتار». انتهى.

١٤٠٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف: غريب (٣/ ٢٦٦) حديث (١١٧٣).

---

(١) قوله: «ملفوفتان» لعله من اللف والنشر المقرر في البيان، وبيانه ما بعده. (ع)

(٢) قوله: «لما يتيح الله فيها» أي: يقدر. (ع)

الأخرى القابلة. وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. وعن بعضهم: يعطى كل عامل بركات أعماله، فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته. وقرئ: «يفرق» بالتشديد و﴿يُفَرَقُ﴾ كل على بنائه للفاعل ونصب كل، والفارق: الله عزّ وجلّ، وقرأ زيد بن عليّ رضي الله عنه «نفرق» بالنون، كل أمر حكيم: كل شأن ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة، وهو من الإسناد المجازى؛ لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ نصب على الاختصاص. جعل كل أمر جزلاً فخمًا بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا، كائنًا من لدنا، كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي، ثم إما أن يوضع موضع فرقانًا الذي هو مصدر يفرق؛ لأنّ معنى الأمر والفرقان واحد، من حيث إنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه. أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه: إما من ضمير الفاعل، أي: أنزلناه آمرين أمرًا. أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمرًا من عندنا بما يجب أن يفعل، فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعولاً له، على معنى: إنا أنزلنا القرآن؛ لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلاً ليفرق. أو لقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ ورحمة: مفعولاً به، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] أي يفصل في هذه الليلة كل أمر. أو تصدر الأوامر من عندنا؛ لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا. وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة؛ وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عزّ وعلا؛ لأنّ الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع. والأصل: إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانًا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وفي قراءة زيد بن عليّ: «أمر من عندنا» على: هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمة من ربك»، على: تلك رحمة، وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته، وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه. وقرئ: «رب السمٰوات... ربكم ورب آبائكم» بالجر بدلاً من ربك. فإن قلت: ما معنى الشرط الذي هو قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؟ قلت: كانوا يقرون بأن للسمٰوات والأرض ربًّا وخالقًا، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا

الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر إسخاؤه، إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن، ولا عن جدّ وحقيقة: بل قول مخلوط بهزء ولعب. ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ﴾ مفعول به، مرتقب. يقال: رقبته وارتقبته. نحو: نظرته وانتظرته. واختلف في الدخان؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبه أخذ الحسن: أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة؛ حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ[(١)]، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص[(٢)]، وعن رسول الله ﷺ/ ٢/ ١٧٣أ «أوّل الآيات: الدخان، والدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين[(٣)] تسوق الناس إلى المحشر» قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية، وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» (١٤٠٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: خمس قد مضت: الروم، والدخان، والقمر، والبطشة، واللزام (١٤٠٥). ويروى أنه قيل لابن

١٤٠٤ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (١١/ ٢٢٧) حديث (٣١٠٦١)، والبغوي في معالم التنزيل (٤/ ١٥٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٤٥)، والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٦٦). عزاه إلى الثعلبي.

هذا، وقد ضعفه الطبري فقال: وحدثني محمد بن خلف العسقلاني أنه سأل روادًا عن هذا الحديث» هل سمعه من سفيان؟ فقال: لا قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا، قال: فقلت له: أقرئ عليه وأنت حاضر؟ فقال: لا، قلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني قوم فعرضوه علي، وقالوا لي: اسمعه منا، فقرؤوه ثم ذهبوا فحدثوا ثوابه عني».

قال ابن حجر هذا أولى وفي مسنده رواد بن الجراح وهو متروك، وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث. انتهى.

١٤٠٥ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٥٤٤): كتاب التفسير باب: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ =

---

(١) قوله: «كالرأس الحنيذ» أي المشوي، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «ليس فيه خصاص» أي: فرج. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «أبين» في الصحاح: «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن. (ع)

مسعود: إن قاصًا عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق، فقال: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه: الله أعلم، ثم قال: ألا وسأحدّثكم أنّ قريشًا لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: «اللّهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» (١٤٠٦) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز[1]، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدّث الرجلَ[2] فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم. ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يشملهم ويلبسهم، وهو في محل الجر صفة لدخان. و﴿هَٰذَا عَذَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ منصوب المحل بفعل مضمر، وهو: يقولون، ويقولون: منصوب على الحال، أي: قائلين ذلك. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات،

= حديث (٤٨٢٥) وأيضًا في (٩/ ٥٤١)، حديث (٤٨٢٠)، ومسلم في صحيحه (٩/ ١٥٦): كتاب صفات المنافقين وأحكامهم؛ باب الدخول، حديث (٢٧٩٨). والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٢): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا». حديث (١١٣٧٤)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٢٢٦): حديث (٣١٠٤٦).

١٤٠٦ ـ تقدم تخريجه، وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه دون قوله: «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائي، والحاكم، والطبراني من حديث ابن عباس قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أنشدك الله والرحم، لقد أكلنا العلهز يعني الوبر، والدم فأنزل الله: (ولقد أخذناهم بالعذاب ـ الآية). انتهى.

---

(١) قوله: «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» ـ بالكسر ـ: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة. (ع)

(٢) قوله: «وكان يحدث الرجل فيسمع» لعله: يحدث الرجل الرجل، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميرًا يعود على الرجل السابق. (ع)

فلكم يذكروا وتولوا عنه، وبهتوه[1] بأن عداسًا غلامًا أعجميًا لبعض ثقيف هو الذي علمه، ونسبوه إلى الجنون، ثم قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال. فإن قلت: كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ قلت: إذا أتت السماء بالدخان تضور[2] المعذبون به من الكفار والمنافقين. وغوثوا وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ منيبون، فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يومًا، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون، ثم قال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يريد يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤]. ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم. فإن قلت: بم انتصب يوم نبطش؟ قلت: بما دل عليه ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وهو ننتقم. ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون؛ لأن «إن» تحجب عن ذلك. وقرئ: «نبطش» بضم الطاء. وقرأ الحسن «نبطش» بضم النون، كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى. أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم. وقيل: ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾: يوم بدر.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

وقرئ: «ولقد فتنا» بالتشديد للتأكيد. أو لوقوعه على القوم. ومعنى الفتنة: أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق؛ فكان ذلك سببًا في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الآثام. أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا، فاختاروا الكفر على الإيمان، أو سلبهم ملكهم وأغرقهم. ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين. أو كريم في نفسه؛ لأنّ الله لم يبعث نبيًا إلا من سراة قومه وكرامهم. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ هي أن المفسرة؛ لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله. أو المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدّوا إليّ، و﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إليّ وأرسلوهم معي، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم على: أدوا إليّ يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ

---

(١) قوله: «وتولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه كما في الصحاح أيضًا. (ع)

(٢) قوله: «تضور المعذبون به» التضور: الصياح والتلوي عند الألم والتغويث قولها: واغوثاه، أفاده الصحاح. (ع)

﴿أَمِينٌ﴾ غير ظنين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته. ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ﴾ أن هذه مثل الأولى في وجهيها، أي: لا تستكبروا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالاستهانة برسوله ووحيه. أو لا تستكبروا على نبيّ الله. ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة. ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلون. وقرئ: «عت» بالإدغام. ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونهُ به من الرجم/ ٢/ ١٧٣ب والقتل ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ يريد: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني، أي: فخلوني كفافًا لا لي ولا عليّ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم؛ فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾

﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن هؤلاء، أي: دعا ربه بذلك. قيل: كان دعاؤه: اللّهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم: وقيل هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] وإنما ذكر الله تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك، وهو كونهم مجرمين. وقرئ: «إنّ هؤلاء» بالكسر على إضمار القول، أي: فدعا ربه فقال: إن هؤلاء ﴿فَأَسْرِ﴾ قرئ: بقطع الهمزة من أسرى، ووصلها من سرى. وفيه وجهان: إضمار القول بعد الفاء، فقال: أسر بعبادي. وأن يكون جواب شرط محذوف، كأنه قيل: قال إن كان الأمر كما تقول فأسر ﴿بِعِبَادِى﴾ يعني: فأسر ببني إسرائيل، فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجي المتقدمين ويغرق التابعين. الرهو فيه وجهان، أحدهما: أنه الساكن. قال الأعشى [من البسيط]:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلاَ الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ... وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[1]

---

(١) يمشين رهوًا فلا الأعجاز خاذلة ... ولا الصدور على الأعجاز تتكل
فهن معترضات والحصى رمض ... والريح ساكنة والظل معتدل
يتبعن سامية العينين تحسبها ... مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل
تهدي لنا كلما كانت علاوتنا ... ريح الخزامى جرى فيها الندى الخضل

للقطافي، يصف إبلًا يمشين مشيًا رهوًا على هينة وسكينة، فلا أعجازها خاذلة أي تاركة لصدورها متكلة عليها بحيث تضعف من ورائها، ولا صدورها تتكل على أعجازها بأن تضعف من قدامها، فأطلق الخذلان والاتكال وأراد لازمهما، وهو الضعف: مجاز مرسل. وأصل تتكل توتكل، فقلبت الواو تاء وأدغمت فيما بعدها، فهن سائرات في عرض الفلوات. والحال أن الحصى حار من شدة وقع الشمس عليه. ورمض الحصى والرمل رمضًا كتعب تعبًا: اشتد حره من الشمس، فأطلق المصدر على اسم الفاعل مبالغة. ويجوز أنه رمض كحذر والريح ساكنة، فلا نسيم يأتي بالبرودة. أو فلا غبار يضر بالسفر والظل معتدل: كناية عن اشتداد الحر؛ لأنه لا يعتدل إلا بتوسط الشمس في =

أي مشيًا ساكنًا على هيئة. أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، كما ضربه فانفلق، فأمر بأن يتركه ساكنًا على هيئته، قارًا على حاله: من انتصاب الماء، وكون الطريق يبسًا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئًا ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. والثاني: أن الرهو الفجوة الواسعة. وعن بعض العرب: أنه رأى جملاً فالجًا[(1)] فقال: سبحان الله، رهوٌ بين سنامين، أي: اتركه مفتوحًا على حاله منفرجًا. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقرئ بالفتح، بمعنى: لأنهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة. وقيل: المنابر. والنعمة ـ بالفتح ـ من التنعم، وبالكسر ـ من الإنعام. وقرئ: «فاكهين» وفكهين.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أو في موضع الرفع على الأمر كذلك. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل: كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم. إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض، وبكته الريح، وأظلمت له الشمس. وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» (١٤٠٧). وقال جرير [من البسيط]:

١٤٠٧ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (١١/ ٢٣٨)، حديث (٣١١٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٧٢): باب في الصبر على المصائب: فضل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض =

= كبد السماء يتبعن تلك المطايا ناقة حديدة البصر رافعة طرفها لتبصر أمامها، تظنها يا من تراها مجنونة. أو رائية شيئًا لا تراه بقية الإبل. أو شيئًا لا تراه الإبل عادة؛ فلذلك استغربته، تهدي لنا تلك الناقة أو الإبل بمشيها كلما وجد ارتفاعنا في الطريق ريح الخزامى. والعلاوة ـ بالضم ـ: ضد السفالة. وأما بالكسر فهي ما يعلق على البعير بعد حمله. والخزامى: نبت طيب الرائحة. والخضل: الرطب والمبتل والناعم. وضمير فيها عائد على الخزامى. أو على الريح، لكن هذا يفيد أن السفر كان صباحًا.

ينظر: ديوانه ص (٢٦)، ولسان العرب (رها)، وتاج العروس (رها)، وتهذيب اللغة (٦/ ٤٠٤)، وأساس البلاغة (رهو).

(١) قوله: «أنه رأى جملاً فالجًا» في الصحاح «الفالج»: الضخم ذو السنامين. (ع)

. . . . تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا[١]

وقالت الخارجية [من الطويل]:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا؟ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ[٢]

= والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨٨٨)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٤٨/٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا، والزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦٨/٣) وزاد نسبته إلى الثعلبي، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البيهقي في الشعب في السبعين منه، والطبري، والثعلبي من حديث شريح بن عبيد الحضري عن النبي ـ ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا إلاَّ غربة على مؤمن. ما مات مؤمن في غربة غائب عنه فيها بواكيه ـ الحديث». انتهى.

---

(١) نعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرًا عظيمًا فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

لجرير، يرثي عمر بن عبد العزيز. والنعي: النداء بالموت. وقوله: «يا خير» حكاية قول النعاة، أي: قائلين يا خير، ويحتمل أنه من كلام الشاعر، ففيه التفات. والأمر العظيم: الخلافة ومشاقها: شبهها بالمحسوس على طريق المكنية. والتحميل: تخييل. وأمر الله: شرعه. أو اكتفى به عن ذكر النهي لدلالته عليه. وعمرا: منادى مندوب، وألف الندبة منعت ضمة وجلبت فتحة. واستعمال «يا» في الندبة مع أن الأصل فيها «وا» لعدم اللبس في النداء بعد ذكر النعي. ويقال: كسفت الشمس كسوفًا، وكسفها الله كسفًا، وبكى على زيد وبكاه، وباكاه فبكاه، أي غلبه في البكاء، كفاخره ففخره إذا غلبه في الفخر، فكسف، وبكى: متعديان ولازمان، وطالعة: خبر الشمس. وليست بكاسفة: خبر ثان. وتبكي عليك: حال أو خبر ثالث. ونجوم الليل: مفعول كاسفة، أي: لم تكسف الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلة ضوئها من كثرة بكائها، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور. ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكي. أي: تغلب نجوم الليل في البكاء عليك. وقيل: روايته هكذا وهم، والرواية: الشمس كاسفة ليست بطالعة: أي لا تطلع أبدًا من حينئذ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكي. وقيل: ظرف له، أي: مدة نجوم... الخ. وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية، والقمر: مفعول معه، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه، لا سيما الناس العقلاء.
ينظر: ديوانه ص ٧٣٦، والأشباه والنظائر ٣٠٧/٥، وأمالي المرتضى ٥٢/١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦، والعقد الفريد ٩٦/١، ولسان العرب ٢٩٩/٩ (كسف)، ٨٣/١٤ (بكى)، وبلا نسبة في لسان العرب ١١٣/٦ (شمس).

(٢) أيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرض الندى بحليف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف

لليلى بنت طريف ترثي أخاها الوليد. وأيا: حرف نداء. والخابور: موضع كثير الشجر، نزلت شجره منزلة العاقل، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجه الورق، من باب تجاهل العارف ساقت =

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: من بكاء مصلى المؤمن، وآثاره في الأرض، ومصاعد عمله، ومهابط رزقه في السماء تمثيل، ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده: فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض. وعن الحسن: فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين، يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة، بل عجل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب المهين، كأنه في نفسه كان عذابًا مهينًا؛ لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. ويجوز أن يكون المعنى: من العذاب المهين واقعًا من جهة فرعون. وقرئ: «من عذاب المهين» ووجهه أن يكون تقدير قوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: من عذاب فرعون، حتى يكون المهين هو فرعون. وفي قراءة ابن عباس: من فرعون، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال: من فرعون، على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوّه

= المعلوم مساق المجهول، واستفهمت عنه لفرط ما بها من الجزع تيقنت أن كل الأشياء جزعت عليه حتى الشجر، فخاطبته بقولها: كأنك لم تجزع على أخي، وذكرته بكنيته تعظيمًا لقدره وتنويهًا بذكره. ومورقًا: حال من كاف الخطاب، ثم قالت: هو فتى لا يحب أن يتزود إلا من التقى، ولا يحب المال إلا من الغنائم بالحرب، فقولها: «إلا من قنا وسيوف»: كناية عن ذلك. والقنا: الرماح، واحده: قناة. حليف الندى: أي ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع، فهو استعارة مصرحة، ثم قالت: يرضى به أي بصحبته الندى: مدة حياته وإن طالت. وهذا ترشيح للاستعارة. وقولها: فإن مات «إن» فيه بمعنى إذ، فهي لمجرد الربط لا للشك، كما ذهب إليه الكوفيون في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه. ويحتمل أنه كان في مرض الموت، أي: شارفنا فقده مجازًا، كأنه قد حصل. وشبهته بالربيع في ضمن تشبيه فقدانه فقدان الربيع بجامع عموم نفع كل: مدحته بالتقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة، وتنكير ألوف للتكثير. ويروى: دهمائنا، بدل ساداتنا. والدهماء: السواد العظيم. وظاهر التمني يدل أيضًا على أنه كان قد مات، إلا أن يكون المعنى: ليتنا فديناه مما أصابه فأمرضه. وتكرير «حليف» من باب رد العجز على الصدر.

لليلي بنت طريف في الأغاني ١٢/ ٨٥، ٨٦، والحماسة الشجريّة ١/ ٣٢٨، والدرر ٢/ ١٦٣، وشرح شواهد المغني ص ١٤٨، ولليلي أو لمحمد بن بجرة في سمط اللآلي ص ٩١٣، وللخارجيّة في الأشباه والنظائر ٥/ ٣١٠، وبلا نسبة في لسان العرب ٤/ ٢٢٩ (خبر)، ومغني اللبيب ١/ ٤٧، وهمع الهوامع ١/ ١٣٣.

وشيطنته، ثم عرف حاله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبيرًا رفيع الطبقة، ومن بينهم فائقًا لهم، بليغًا في إسرافه. أو عاليًا متكبرًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. و﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان، كأنه قيل: إنه كان متكبرًا مسرفًا.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

الضمير في ﴿ٱخْتَرْنَـٰهُمْ﴾ لبني إسرائيل. و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال، أي: عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا. ويجوز أن يكون المعنى: مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط /٢/ ١٧٤أ منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم. وقيل: على الناس جميعًا لكثرة الأنبياء منهم. ﴿مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة؛ لأنّ الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة. أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون، كقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش، فإن قلت: كان الكلام واقعًا في الحياة الثانية(١) لا في الموت(٢)، فهلا قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين؟ كما قيل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؟ وما معنى قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾؟ وما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا

---

(١) قوله: «واقعًا في الحياة الثانية» أي التي ينكرونها. (ع)

(٢) قال محمود: فإن قلت: «كان الكلام معهم واقعًا في الحياة الثانية لا في الموت... الخ» قال أحمد: وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين: الأولى منهما الموت، والأخرى حياة البعث: أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت، ونفوا ما بعدها، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين، أحدهما: أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه؛ لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم: فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة، الثاني: أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة، فإن الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان. والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طرأ عليها هذا، مع أن في بقية السورة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وإنما عنى بالموتة الأولى هنا: الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط، ففيه إرشاد لما ذكرته، والله أعلم.

الأولى؟ قلت: معناه ـ والله الموفق للصواب ـ: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة، كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذًا بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ في المعنى. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ هذا خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور: من رسول الله ﷺ والمؤمنين، أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله وينشر لهم قصيّ بن كلاب ليشاوروه؛ فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشئون.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾

هو تبع الحميري: كان مؤمنًا وقومه كافرين؛ ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمه، وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند. وقيل: هدمها وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك برًّا وبحرًا. وعن النبي ﷺ: «لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم» (١٤٠٨)

١٤٠٨ ـ هذا الحديث مروي عن سهل بن سعد وابن عباس أما حديث سهل بن سعد.

أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (٥/ ٣٤٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٣)، حديث (٦٠١٣) والبغوى في معالم التنزيل (٤/ ١٥٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩): كتاب الأدب: باب النهي عن سبب الأموات، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣١). وزاد نسبته إلى أبي حاتم وابن مردويه.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب.

أما حديث ابن عباس.

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١١/ ٢٩٦). حديث (١١٧٩٠). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣/ ٢٠٥) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩)، كتاب الأدب: باب النهي عن سب الأموات، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣١). وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أحمد بن أبي برة المكي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد، والطبراني، والطبري، وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد، وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر. وهما ضعيفان. وروى حبيب عن مالك عن أبي حازم عن سهل مثله قال الدارقطني: تفرد به حبيب وهو متروك. وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا. عن أبي حذيفة عن سفيان. انتهى.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تبع نبيًا أو غير نبي» (١٤٠٩) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبيًا. وقيل: نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوى وقبر حبى بنتيّ تبع لا تشركان بالله شيئًا. وقيل: هو الذي كسا البيت. وقيل لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنهم يتبعون، كما قيل: الأقيال، لأنهم يُتَقيلون[1]، وسمي الظل «تبعًا» لأنه يتبع الشمس. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ولا خير في الفريقين؟ قلت: معناه أهم خير في القوّة والمنعة، كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣] بعد ذكر آل فرعون. وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما: أهم أشدّ أم قوم تبع.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وما بين الجنسين. وقرأ عبيد بن عمير: وما بينهن. وقرأ «ميقاتهم» بالنصب على أنه اسم إن، ويوم الفصل؛ خبرها، أي: إنّ ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل. ﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى﴾ أيّ مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ عن أي مولى كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من إغناء. أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنهم في المعنى كثير؛ لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في ﴿يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمهُ الله. ويجوز أن

١٤٠٩ ـ ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٧٠) وعزاه إلى الثعلبي.
وللحديث لفظ آخر: «ما أدري أتبع العين هو أم لا». أخرجه البخاري في تاريخه الكبير (١/ ١٥٣). وأبو داود في سننه (٤/ ٢١٨): كتاب السنة: باب التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حديث (٤٦٧٤)، والحاكم النيسابوري (٢/ ١٤ ـ ٤٥٠). كتاب البيوع والتفسير.
وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٢٨): باب ما يلزم العالم إذا سئل عما لا يدريه من وجوه العلم، حديث رقم (١٥٥٢).
ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٠)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا. والمعروف بهذا الإسناد: «ما أدرى ألعين هو أم لا. وما أدرى أعزير نبي أم لا» أخرجه أبو داود، وكذا الحاكم لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله. انتهى.

---

(١) قوله: «لأنهم يتقيلون» في الصحاح: تقيل: شرب نصف النهار، وتقيل فلان أباه: تبعه. (ع)

ينتصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من عصاه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أطاعه.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قرئ: «إنّ شجرت الزقوم» بكسر الشين، وفيها ثلاث لغات: شجرة، بفتح الشين وكسرها وشيرة، بالياء. وروي أنه لما نزل ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ **[الصافات: ٦٢]** قال ابن الزبعرىٰ: إنّ أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر: التزقيم، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فإنّ هذا هو الذي يخوّفكم به محمد، فنزل ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ وهو الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول طعام اليثيم، فقال: قل طعام الفاجر[1] يا هذا. وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي: أن يؤدي القارىء المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئًا. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأنّ في كلام العرب خصوصًا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته/ ٢/ ١٧٤ب وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر، وروي علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ قرئ: بضم الميم وفتحها، وهو دردي[2] الزيت. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ **[المعارج: ٨]** مع قوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ **[الرحمٰن: ٣٧]** وقيل: هو ذائب الفضة والنحاس، والكاف رفع خبر بعد خبر، وكذلك ﴿يَغْلِى﴾ وقرئ: بالتاء للشجرة، وبالياء للطعام. و﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الحار الذي انتهى غليانه: يقال للزبانية ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة، وهو أن يؤخذ بتلبيب[3] الرجل فيجر إلى حبس أو قتل. ومنه «العتلّ» وهو الغليظ الجافي. وقرئ: بكسر التاء وضمها ﴿إِلَىٰ

---

(١) قال محمود: «نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلاً فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام اليثيم... الخ» قال أحمد: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونًا على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار، وهو الوجه، والله أعلم.

(٢) قوله: «وهو دردى الزيت» لعله: ردى الزيت كعبارة النسفي. (ع)

(٣) قوله: «وهو أن يؤخذ بتلبيب الرجل» الذي في الصحاح: لببت الرجل تلبيبًا، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة، ثم جررته اهـ ويجوز أنه أراد بتلبيب الرجل: ثيابه من عند صدره ونحره. (ع)

﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها. فإن قلت: هلا قيل: صبوا فوق رأسه من الحميم، كقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] لأنّ الحميم هو المصبوب لا عذابه؟ قلت: إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته، إلا أنّ صب العذاب طريقة الاستعارة، كقوله [من البسيط]:

.... صُبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ[1]

وكقوله تعالى: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٥٠] فذكر العذاب معلقًا به الصب، مستعارًا له، ليكون أهول وأهيب يقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه. وروي أنّ أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعزّ ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا. وقرئ: «إنك» بمعنى: لأنك. وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أنه قرأ به على المنبر ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب. أو إن هذا الأمر هو ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي تشكون. أو تتمارون وتتلاجون.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

قرئ: «في مقام» بالفتح: وهو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم. وبالضم: وهو موضع الإقامة. و﴿الأمين﴾ من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة؛ لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره. قيل: السندس: ما رق من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه وهو تعريب استبر. فإن قلت: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي؟ قلت: إذا عرب خرج من أن يكون عجميًا؛ لأن معنى التعريب أن يجعل عربيًا بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب ﴿كَذَٰلِكَ﴾

---

(١) كم امرئ كان في خفض وفي دعة صبت عليه صروف الدهر من صبب

الصبب: مكان الصباب الماء وانحداره. يقول: كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة، توالت عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية. والصبب: تخييل. والصب: ترشيح. والصروف: جمع صرف، كحروف جمع حرف: مكاره الزمن ومصائبه.

الكاف مرفوع على الأمر كذلك. أو منصوب على: مثل ذلك أثبناهم ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ وقرأ عكرمة «بحور عين» على الإضافة، والمعنى: بالحور من العين؛ لأن العين إما أن تكون حورًا أو غير حور، فهؤلاء من الحور العين[1] لا من شهلهن مثلاً. وفي قراءة عبد الله: «بعيس عين» والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير «لا يذاقون فيها الموت» وقرأ عبد الله «لا يذوقون فيها طعم الموت»، فإن قلت: كيف استثنيت الموتة الأولى - المذوقة قبل دخول الجنة - من الموت المنفي ذوقه فيها؟ قلت: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ موضع ذلك؛ لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها[2]. وقرئ: «ووقاهم» بالتشديد ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ عطاء من ربك وثوابًا، يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار. وقرئ: «فضل» أي: ذلك فضل.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ فذلكة للسورة. ومعناها: ذكرهم بالكتاب المبين (فإنما يسرناه) أي: سهلناه، حيث أنزلناه عربيًا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك متربصون بك الدوائر.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» (١٤١٠) وعنه عليه السلام: «من قرأ سورة حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة

١٤١٠ - أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٣) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل «حم» الدخان حديث (٢٨٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٨٤) رقم (٢٤٧٥) من طريق عمر بن أبي خثعم عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا =

---

(١) قوله: «من الحور العين» لعله: من حور العين. (ع)

(٢) قال محمود: «إنما استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها... الخ» قال أحمد: هذا الذي ذكره مبني على أن الموتة بدل، على طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس. وأما على طريقة الحجازيين، فانتصبت الموتة استثناء منقطعًا. وسر اللغة التميمية: بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعًا في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحد إلا حمار، على معنى: إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتمًا بالنفي. وعليه حمل الزمخشري (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) أي إن كان الله ممن في السموات والأرض، ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني، فجزمت بالنفي، والله أعلم.

جمعة أصبح مغفورًا له» (١٤١١).

= وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف، قال محمد: وهو منكر الحديث.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي أيضًا وابن عدى والبيهقي في الشعب من رواية عمر بن خثعم عن يحيى بن أبي عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وقال: غريب، وعمر يضعف. قال محمد: إنه منكر الحديث. قلت: وهو الذي قبله. انتهى.

١٤١١ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٣) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل حم الدخان حديث (٢٨٨٩)، والدارمي (٢/ ٣٥٧) كتاب فضائل القرآن: باب في فضل (يس)، والطيالسي (٢/ ٢٣ ـ منحة) رقم (١٩٧٠)، وأبو يعلى (٦٢٢٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٤)، والطبراني (١/ ١٤٩) كلهم من طريق الحسن عن أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف ولم يسمع الحسن من أبي هريرة هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الترمذي، وأبو يعلى، وابن السني في اليوم والليلة، والبيهقي في الشعب، وقال: تفرد به أبو المقدام وهو ضعيف. وعن الحسن عن أبي هريرة وقال الترمذي: أبو المقدام ضعيف والحسن لم يسمع من أبي هريرة. انتهى.

سورة الجاثية

مكية [إلا آية ١٤ فمدينة]

وآياتها ٣٧ وقيل ٣٦ آية [نزلت بعد الدخان]

/ ٢/ ١٧٥أ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (٦)﴾.

﴿حمٓ (١)﴾ إن جعلتها اسمًا مبتدأ مخبرًا عنه بـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لم يكن بدّمن حذف مضاف، تقديره: تنزيل حمٓ تنزيل الكتاب. و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديدًا للحروف كان (تنزيل الكتاب) مبتدأ، والظرف خبرًا ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يجوزأن يكون على ظاهره، وأن يكون المعنى؛ إنّ في خلق السمٰوات لقوله: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ فإن قلت: علام عطف ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ أعلى الخلق المضاف؟ أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت: بل على المضاف، لأنّ المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه، استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. قرئ «آيات لقوم يوقنون» بالنصب والرفع، على قولك: إنّ زيدًا في الدار وعمرًا في السوق. أو عمرو في السوق. وأمّا قوله: ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1] فمن العطف على عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما: إن، وفي، أقيمت الواو مقامهما، فعملت[2] الجر في ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والنصب في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾. وإذا رفعت فالعاملان: الابتداء وفي عملت الرفع في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، والجر في ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾ وقرأ ابن مسعود «وفي اختلاف الليل والنهار» فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش

---

(١) قوله: «وأما قوله: آيات لقوم» أي مع قوله (واختلاف). (ع)

(٢) قوله: «فعملت» أي: الواو. (ع)

سديد لا مقال فيه. وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده؟ قلت: فيه وجهان عنده. أحدهما: أن يكون على إضمار في. والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها. ويعضده قراءة ابن مسعود. والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفًا على ما قبله أو على التكرير، ورفعها بإضمار هي: وقرئ: «واختلاف الليل والنهار» بالرفع. وقرئ: «آية» وكذلك وما يبث من دابة آية. وقرئ «وتصريف الريح» والمعنى: إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السمٰوات والأرض النظر الصحيح، علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بدّ لها من صانع، فآمنوا بالله وأقرّوا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان: ازدادوا إيمانًا، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس؛ فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها. ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ جنوبًا وشمالاً وقبولاً ودبورًا: عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم، وسمي المطر رزقًا؛ لأنه سبب الرزق ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة، أي: تلك الآيات آيات الله. و﴿نَتۡلُوهَا﴾ في محل الحال، أي: متلوة ﴿عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة. ونحوه: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [1] [هود: ٧٢] وقرئ «يتلوها» بالياء ﴿بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي بعد آيات الله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، يريدون: أعجبني كرم زيد. ويجوز أن يراد: بعد حديث الله، وهو كتابه وقرآنه، كقوله تعالى؛ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقرئ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالتاء والياء.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس نحوه لأنَّ في «وَهَذَا بَعْلِي» حرف تنبيه فقيل العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه أي تَنَبَّهْ وَأَمَّا «تِلْكَ» فليس فيها حرف تنبيه «فإذا كان حرف التنبيه» عاملاً بما فيه من معنى التنبيه لأن الحرف قد يعمل في الحال فالمعنى تنبه لزيد في حال شيخه أو في حال قيامه وقيل العامل في مثل هذا التركيب فِعْلٌ محذوف يدل عليه المعنى أي انْظُرْ إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ولا حرف التنبيه إنْ كانَ هناك قُلْتُ: بل الآية نحو ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ من حَيْثِيَّةِ نسبة العمل لاسم الإشارة غاية ما ثَمَّ أنَّ في الآية الأخرى ما يصلُح أن يكون عاملاً وهذا لا يقدح في التنظير إذَا قصدْتَ جهةً مشتركة وأَمَّا إضْمَارُ الفعلِ فهو مشترك في الموضعين عند مَنْ يَرَى ذلك. قال ابنُ عطية: وفي «نَتْلُوهَا» حذفُ مضافٍ أي نَتْلُو شأْنَهَا وشَرْحَ العِبْرَةِ فيها ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المُنَزَّل في هذا المعنى فلا يكون فيها حذف مضاف. وقرأ بعضُهم «يَتْلُوهَا» بياء الغيبة عائدًا على البارىء تعالى و«بِالْحَقِّ» حالٌ من الفاعلِ أي مُلْتَبِسِينَ بالْحَق أَوْ من المفعول أي مُلْتَبَسَةً بالحق، ويجوز أن تكون للسببية وتتعلق بنفس «نَتْلُوهَا». انتهى. الدر المصون.

﴿يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

الأفاك: الكذاب، والأثيم: المتبالغ في اقتراف الآثام ﴿يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة[1] وهو أن ينحى عليها صارًا أذنيه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريًا لها معجبًا بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن. والآية عامّة في كل ما كان مضارًا لدين الله. فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؟ قلت: كمعناه في قول القائل [من الطويل]:

.... يَـرَى غَـمَـرَاتِ الـمَـوْتِ ثُـمَّ يَـزُورُهـا[2]

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعدما رآها وعاينها؛ شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها: كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها ﴿كَأَن﴾ مخففة، والأصل كأنه لم يسمعها / ٢/ ١٧٥ب: والضمير ضمير الشأن، كما في قوله [من الطويل]:

.... كَأَنْ ظَبْيَةٌ[3] تعطو إِلَى وَارِق السَّلَمْ[4]

---

(١) قوله: «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح. وفيه أيضًا: صر الفرس أذنيه: ضمها إلى رأسه، فإذا لم يوقعوا قالوا: أصر الفرس، بالألف. (ع)

(٢) تقدم.

(٣) فـيـومًا تـوافـيـنـا بـوجـه مـقـسـم   كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم
ويـومًا تـريـد مـالـنـا مـع مـالـهـا   فإن لـم نـنـلـهـا لـم تـنـمـنـا ولـم تـنـم

لباعث بن صريم اليشكري يذكر حال امرأته. ويومًا: ظرف مقدم. ويروى: ويوم، أي: ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم. وقسم قسامًا وقسامة، كجمل جمالاً. وظرف ظرافة. والمقسم: المحسن. وكأن: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير المرأة، أو ضمير الشأن. وظبية: بالرفع على الأول خبر. وعلى الثاني: مبتدأ، وهو مع خبره خبر كأن. وتعطو: صفة على الأول، وهو الخبر على الثاني. ويروى: ظبية، بالنصب؛ فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلاً. ويروى: مجرورًا بالكاف، وأن: زائدة بين الجار والمجرور: وتعطو: تأخذ وتتناول، مائلة إلى وارق السلم. ومن النوادر: أورق فهو وارق. وأينع فهو يانع. والقياس: مورق، أي: كثير الورق. ويروى: ناضر، بدل: وارق. والسلم: شجر العضاه، هذا شأنها في يوم. وفي يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضمًا إلى مالها، فإن نعطها لم تتركنا ننام من كثرة كلامها وإيذائها، ولم تنم هي أيضًا. واليوم هنا: مطلق الزمن. =

ومحل الجملة النصب على الحال. أي: يصر مثل غير السامع ﴿وَإِذَا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ أي اتخذ الآيات ﴿هُزُوًا﴾ ولم يقل: اتخذه، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ: خاض في الاستهزاء بجميع الآيات. ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، ويحتمل: وإذا علم من آياتنا شيئًا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة: افترصه واتخذ آيات الله هزوًا، وذلك نحو افتراص ابن الزبعرى قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ، وقوله: خصمتك. ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء؛ لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية [من البسيط]:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ ... أَللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا[(١)]

حيث أراد عتبة. وقرئ: «علم أولئك» إشارة إلى كل أفاك أثيم، لشموله الأفاكين.
والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام. قال [من الطويل]:

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي؟ ... أَدِبُّ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ[(٢)]

= البيت في خزانة الأدب. ١٠/٤١١، أوضح المسالك ١/٣٧٧، وجواهر الأدب ص ١٩٧، والجنى الداني ص ٢٢٢، ٥٢٢، ورصف المباني ص ١١٧، ٢١١، وسر صناعة الإعراب ٢/٦٨٣، وسمط اللآلي ص ٨٢٩، وشرح الأشموني ١/١٤٧، ٣٣١، وشرح قطر الندى ص ١٥٧، والكتاب ٣/١٦٥، والمحتسب ١/٣٠٨، ومغني اللبيب ١/٣٣، والمقرب ١/١١١، ٢٠٤، والمنصف ٣/١٢٨، وهمع الهوامع ١/١٤٣، والدر المصون ٢/٣٩٠.

(١) نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدي يكفيها
إني لأيأس منها ثم يطمعني ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها
لأبي العتاهية. وكنى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها عتبة، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثًا. وقوله: «من الدنيا» معناه: أنه لا يريد من الدنيا غيره. والقائم: أي بأمر الشرع. ويكفيها، أي: يكفيني تلك الحاجة. أو يكفي نفسي ما تريد، وألله: بقطع الهمزة؛ لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة، إني لأيأس أي أقطع طمعي منها، ثم أطمع فيها ثانيًا بسبب احتقارك للدنيا وما فيها. وهو مدح بنهاية الكرم. وروي أنه كتب ذلك في ثوب، وأدرجه في برنية وأهداها للمهدي، فهم بدفعها إليه فقالت: أتدفعني إلى رجل متكسب بالتعشق، فأمر بملء البرنية مالاً ودفعها إليه، فقال للخزان: إنما أمر لي بدنانير، فقال له: نعطيك دراهم ونراجعه. واختلفوا في ذلك سنة، فقالت: لو كان عاشقًا لما فرق بينهما.
ينظر: ديوانه (٣٤٧)، والبحر المحيط (٨/٤٤)، والدر المصون (٦/١٢٦).

(٢) لعبيد، والهمزة للتقرير. وورائي هنا بمعنى: أمامي، وهو في الأصل: الجهة التي يواريها الشخص، لكن يكثر في الجهة التي خلفه، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب. ومنه: المستقبل. وتراخت: تباعدت وتأخرت. وأدب: أمشي بهينة وتؤدة. وأن المصدرية مقدرة قبله؛ لأنه اسم =

ومنه قوله عزّ وجل: ﴿مِن وَرَآئِهِمْ﴾ أي من قدّامهم ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان.

﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لأنّ آيات ربهم هي القرآن، أي هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، تريد كامل في الرجولية. وأيما رجل. والرجز: أشد العذاب. وقرئ بجر «أليم» ورفعه.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر. فإن قلت: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وما موقعها من الإعراب، قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني: أنه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقه. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي جميعًا منه، وأن يكون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ ثم ابتدىء قوله: ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وأن يكون ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنْهُ﴾ خبره. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «منة» وقرأ سلمة بن محارب: منه، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي. أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك. أو هو منه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾

حذف المقول لأنّ الجواب دال عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها. وقيل: نزولها في عمر رضي الله عنه ـ وقد شتمه رجل من غفار

= ليس، وإن كان لفظه مرفوعًا. وأزحف: يحتمل أنه بدل، وأنه حال. وكالنسر: حال. أو معناه: كزحف النسر في الأرض، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس؛ لأنه يتوهم من قوله: «مع الولدان» نقص عقله، فدل على أن المراد الضعف كالولدان. والشيب كالنسر؛ لأنه أبيض، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه.

فهمّ أن يبطش به. وعن سعيد بن المسيب: كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ قارىء هذه الآية، فقال عمر: ليجزى عمر بما صنع ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليل الأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت: قوله: ﴿قَوْمًا﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقومًا[1] مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر: ليجزى عمر بما صنع: ليجزى بصبره واحتماله. وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي. وقرئ «ليجزي قومًا» أي: الله عزّ وجل. وليجزى قوم. وليجزي قومًا، على معنى: وليجزي الجزاء قومًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة والفقه. أو فصل الخصومات بين الناس؛ لأنّ الملك كان فيهم /٢/١٧٦أ والنبوّة ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ آيات ومعجزات ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أو لعداوة وحسد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة ومنهاج ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال، ودينهم المبني على هوى وبدعة، وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين أبائك. ولا توالهم، إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم، وأما المتقون، فوليهم الله وهم مواله. وما أبين الفصل بين الولايتين.

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) قوله: «أيما قوم وقومًا مخصوصين» لعله: أو قومًا. (ع)

﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحًا وحياة وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن. وقرئ «هذه بصائر» أي: هذه الآيات.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح: الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أي نصيرهم. وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأولهما الضمير، والثاني: الكاف، والجملة التي هي ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأنَّ الجملة تقع مفعولاً ثانيًا، فكانت في حكم المفرد. ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم، كان سديدًا، كما تقول: ظننت زيدًا أبوه منطلق[1]. ومن قرأ «سواء» بالنصب: أجرى سواء مجرى مستويًا، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية، وكان مفردًا غير جملة. ومن قرأ: «ومماتهم» بالنصب، جعل محياهم ومماتهم: ظرفين، كمقدم الحاج وخفوق النجم. أي سواء: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتًا؛ لافتراق أحوالهم أحياء. حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي. ومماتًا، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدَّ لهم. وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، لأنَّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترقون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم: كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه. وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردّد إلى الصباح: ساء ما

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخُ: وهذا أعني إبدالَ الجملةِ من المفرد أجازه ابنُ جني وابن مالك ومنعه ابنُ العِلِج ثم ذكر عنه كلامًا كثيرًا في تقرير ذلك ثم قال: والذي يظهر أنه لا يجوزُ. يعني ما جَوَّزَهُ الزمخشريُّ قال: لأنهما بمعنى التَّصْيِيرِ ولا يجوز صَيَّرْتُ زيدًا أبُوه قائمٌ لأنَّ التصيير انتقالٌ من ذَاتٍ إلى ذاتٍ أوْ من وَصْفٍ في الذات إلى وَصْفٍ فيها وتلك الجملةُ الواقعة بعد مفعول صَيَّرْتُ المقدَّرَة مفعولاً ثانيًا لأنَّ النحاة نَصُّوا على جَوَازِ وقوع الجملةِ صفةً وحالاً نحو: مررتُ برجلٍ أبوهُ قائم، وجاء زيدٌ أبوه قائمٌ فالذي حكموا عليه بالوصفية والحالية يجوز أن يقع في حَيِّزِ التصير إذْ لاَ فَرْقَ بين صفةٍ وصفةٍ من هذه الحيثية. انتهى الدر المصون.

يحكمون. وعن الفضيل: أنه بلغها فجعل يردّدها ويبكي ويقول: يا فضيل، ليت شعري من أي الفريقين أنت.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوف على بالحق، لأنّ فيه معنى التعليل. أو على معلل محذوف تقديره: خلق الله السمٰوات والأرض، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلٰهه. وقرئ: «آلهة هواه»، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وتركه عن الهداية[1] واللطف وخذله على علم، عالمًا بأنّ ذلك لا يجدي عليه، وأنه ممن لا لطف له. أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة[2] ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿ٱللَّهِ﴾ وقرئ «غشاوة» بالحركات الثلاث. وغشوة، بالكسر والفتح. وقرئ: «تتذكرون».

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا. أو يموت بعض ويحيا بعض. أو نكون مواتًا نطفًا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. أو يصيبنا الأمران/ ٢/ ١٧٦ب: الموت والحياة، يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة. وقرئ: «نحيا» بضم النون. وقرئ: «إلا دهر يمرّ» ما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظنّ وتخمين: كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى

---

(١) قوله: «وتركه عن الهداية» تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة: أنه لا يريد الشر ولا يفعله. وعند أهل السنة: لا يقع في ملكه إلا ما يريد، والله خالق كل شيء، فالإضلال: خلقه الضلال في القلب. (ع)

(٢) قوله: «المحصلة والمقربة» يعني: للهداية. (ع)

أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر» (١٤١٢) أي: فإنّ الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وقرئ «حجتهم» بالنصب والرفع، على تقديم خبر كان وتأخيره. فإن قلت: لم سَمّيَ قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله [من الوافر]:

.... تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[1]

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد: نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جوابًا لقولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت. ألزموا ما هم مقرّون به: من أنّ الله عزّ وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق، وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ

١٤١٢ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٥٤٥): كتاب التفسير: باب وما يهلكنا إلا الدهر، حديث (٤٨٢٦) وفي (١٥/ ٤٣٢) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، حديث (٧٤٩١)، ومسلم (٨/ ٥): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث برقم (٢٢٤٦). وأحمد في مسنده (٢/ ٢٣٨)، وأبو داود (٤/ ٣٦٩): كتاب الأدب: باب في الرجل سب الدهر (٥٢٧٤) الحميدي في مسنده (٢/ ٤٦٨) حديث (١٠٩٦). كلهم من طريق ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

وأخرجه مسلم (٨/ ٥): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦) (٥) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٠/ ٤٥٢) حديث برقم (٦٠٦٦). والخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ٣٣٤). من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم. انتهى.

---

(١) تقدم.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

عامل النصب في ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ﴾ يخسر، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من (يوم تقوم) ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة مستوفزة على الركب. وقرئ: «جاذية». والجذْو: أشد استيفازًا من الجثوّ؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاثية مجتمعة. وعن قتادة جماعات من الجثوة، وهي الجماعة، وجمعها: جثى. وفي الحديث: «من جثي جهنم»[1] (١٤١٣) وقرئ: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ على الابتداء، وكل أمة: على الإبدال من كل أمة ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ محمول على القول. فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عزَّ وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة، وقد لابسهم ولابسه، أما ملابسته إياهم، فلأن أعمالهم مثبتة فيه. وأما ملابسته إياه؛ فلأنه مالكه، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في جنته. وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا

١٤١٣ ـ أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ١٤٨) كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. حديث (٢٨٦٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٢)، كتاب الوعيد لمن دعا بدعوى الجاهلية: حديث (٨٨٦٦).
وأحمد في المسند (٤/ ١٣٠). والطبراني في معجمه الكبير (٣/ ٣٢٦) حديث (٣٤٣٠)، وأبو داود الطيالسي (٢/ ٥٣): كتاب خصال الخير من البر والحكم والمواعظ والأمثال: باب ما جاء في خمس خصال مجتمعه (٢١٤٨) وابن خزيمة (٢/ ٦٤): كتاب الصلاة، باب النهي عن الالتفات في الصلاة، حديث (٩٣). وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٣/ ١٤٠) حديث (١٥٧١) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٢٤): كتاب التاريخ باب بدء الخلق حديث (٦٢٣٣). والحاكم في المستدرك (١/ ١١٨) كتاب العلم.
قال الحافظ ابن حجر في هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم. . . الحديث» أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وأبو يعلى، (تنبيه) احتج به المصنف على أن جثي جمع جثوة: وهي الجماعة. وفي البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيام جثا، كل أمة تتبع نبيها». انتهى.

---

(١) قوله: «من جثى جهنم» في الصحاح «الجثوة» مثلثة: الحجارة المجموعة. وجثى الحرم، بالضم وبالكسر: ما اجتمع فيه من حجارة الجمار. (ع)

فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقرئ: «والساعة» بالنصب عطفًا على الوعد، وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيّ شيء الساعة؟ فإن قلت: ما معنى ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ قلت: أصله نظن ظنًا. ومعناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء، ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدًا بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ...... سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي قبائح أعمالهم. أو عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عدة ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالىٰ به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال، كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا. فإن قلت: فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه / ٢/ ١٧٧أ. وقرئ «لا يخرجون» بفتح الياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السمٰوات والأرض والعالمين، فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب. وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب» (١٤١٤).

١٤١٤ ـ تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات ١٠ و١٥ و٣٥ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٥ آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح وبتقدير ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له. ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

﴿بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن، يعني: أنّ هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين، من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم، أي: على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب. وقرئ: «أثرة»، أي: من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ: «أثرة» بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء، فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة. وأما الأثرة فالمرّة من مصدر: أثر الحديث إذا رواه. وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر، كالخطبة: اسم ما يخطب به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام[1]، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر عل تحصيل كلّ بغية ومرام، ويدعون من دونه جمادًا لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامة وحشر الناس: كانوا لهم أعداء، وكانوا عليهم ضدًا، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرّة، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة؛ وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم. وإنما قيل: ﴿مَن﴾ و(هم) لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلًا وغباوة. ويجوز أن يريد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان، فغلب غير الأوثان عليها. قرئ: «ما لا يستجيب» وقرئ: «يدعو غير الله من لا يستجيب»، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿بَيِّنَاتٍ﴾ جمع بينة: وهي الحجة والشاهد. أو واضحات مبينات. واللام في ﴿لِلْحَقِّ﴾ مثلها في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ [الأحقاف: ١١] أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا[2]. والمراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المتلو عليهم، فوضع

---

(١) قال محمود: «استفهام معناه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام... الخ» قال أحمد: وفي قوله إلى يوم القيامة: نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها. لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضًا لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم: أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعًا واحدًا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدم آنفًا في سورة الزخرف في قوله: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾.

(٢) قال محمود: «اللام في قوله تعالى للحق نحو اللام في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا... الخ» قال أحمد: هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفًا في بابها؛ فإنه انتقال إلى موافق، لكنه أزيد من الأول، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه.

الظاهران موضع الضميرين؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلوّ بالحق ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بادهوه بالجحود ساعة أتاهم، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر. ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سموه سحرًا مبينًا ظاهرًا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرًا إلى ذكر قولهم: إن محمدًا افتراه. ومعنى الهمزة في أم: الإنكار والتعجيب، كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب،/ ١٧٧/٢ب وذلك أن محمدًا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله، ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقًا من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريًا. والضمير للحق؛ والمراد به الآيات ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه. فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه. يقال: فلان لا يملك إذا غضب، ولا يملك عنانه إذا صمم، ومثله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] ومنه قوله عليه الصلاة السلام: «لا أملك لكم من الله شيئًا» (١٤١٥)، ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى، والطعن في آياته، وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود. ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا، وإشعار بحلم

١٤١٥ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢٤٢): كتاب المناقب: باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية حديث (٣٥٢٧). ومسلم في صحيحه (٢/ ٨٢): كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» حديث (٣٤٨) (٢٠٤). والنسائي في سننه (٦/ ٢٤٩) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، حديث برقم (٣٦٤٤). والترمذي في سننه (٥/ ٣٣٨): كتاب تفسير القرآن، حديث (٣١٨٥). وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣٣). والدارمي في سننه (٢/ ٣٠٥) كتاب الرقائق: باب وأنذر عشيرتك الأقربين وفي الباب عن عائشة وقد تقدم تخريجه بتوسع.
قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا النبي ـ ﷺ ـ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص. فقال: يا بني كعب بن لؤي، يا بني مرة بن كعب، يا بني عبد شمس يا بني عبد مناف، يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب: إني لا أملك لكم من الله شيئًا ـ الحديث». انتهى.

الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا. فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إليهم[1] في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ قلت: كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم، فكأنه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله، فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

البدع، بمعنى: البديع، كالخف بمعنى الخفيف. وقرئ «بدعا» بفتح الدال، أي: ذا بدع ويجوز أن يكون صفة على فعل، كقولهم: دين قيم، ولحم زيم[2]. كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب. فقيل له: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فآتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات؛ فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم. ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟ بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢] ﴿وَمَآ أَدْرِي﴾ لأنه لا علم لي بالغيب ـ ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله، ويقدّر لي ولكم من قضاياه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وعن الحسن: وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، ومن الغالب منا والمغلوب. وعن الكلبي:

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إليهم... الخ» قال أحمد: فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضًا وتقديرًا. ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح، فإن النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأمورًا به من الله تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذًا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعتزلة القائلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلاً وقال: إن الله حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول الله إليكم. ولم يكن متعوقًا: فإنه محق في الأمر بالتوحيد؛ لأن العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفتريًا في دعوى كونه رسولاً من الله عز وجل. وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة: أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشيء على مقابله بطريق المفهوم، فالمعنى إذًا إن كنت مفتريًا فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني، فمفهومه: وإن كنت محقًا وأنتم مفترون فالعقوبة واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ وأمثاله كثيرة والله أعلم.

(٢) قوله: «ولحم زيم» في الصحاح «اللحم الزيم» المتفرق ليس بمجتمع في مكان فيبدن. وفيه أيضًا: بدن الرجل يبدن، إذا ضخم وسمن. (ع)

قال له أصحابه ـ وقد ضجروا من أذى المشركين ـ: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها ـ يعني في منامه ـ ذات نخيل وشجر؟ وعن ابن عباس: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة[١]. وقرئ: «ما يفعل» بفتح الياء، أي: يفعل الله عزّ وجل. فإن قلت: إنّ (يفعل) مثبت غير منفي، فكان وجه الكلام: ما يفعل بي وبكم. قلت: أجل، ولكن النفي في ﴿وَمَآ أَدۡرِي﴾ لما كان مشتملاً عليه لتناوله «مَا» وما في حيزه صح ذلك وحسن. ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] كيف دخلت الباء في حيز أنّ وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها. و(ما) في (ما يفعل) يجوز أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهامية مرفوعة. وقرئ: «يوحي» أي الله عزّ وجل.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾

جواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين[٢]. ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والشاهد من بني إسرائيل: عبد الله بن سلام، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب. وتأمّله فتحقق أنه هو النبّي المنتظر وقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل

---

(١) قال محمود: «أجود ما ذكر فيه حمله على الدراية المفصلة، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر... الخ» قال أحمد: «بنى على أن المجرور معطوف على مثله، وأنهما جميعًا في صلة موصول واحد، ولو قيل: إن المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله، حتى يكون التقدير: وما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم: لكانت (لا) واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل، وحذف الموصول المعطوف وتفاصيله كثيرة. ومنه [من الوافر]:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضي الله عنه: فمن يهجو رسول الله ﷺ ومن يمدحه سواء.

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ، بأنه لو كان كذلك لوجبت الفاء؛ لأن الجملة الاستفهامية حتى وقعت جوابًا للشرط لزمت الفاء، ثم إن كانت أداة الاستفهام همزة تقدمت على الفاء نحو: إن تزرنا أفما نكرمك؟ وإن كانت غيرها تقدمت الفاء عليها نحو: إن تزرنا فهل ترى إلا خيرًا؟ قلت: والزمخشري ذكر أمرًا تقديريًا فسر به المعنى لا الإعراب، وقال ابن عطية: وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون الجملة كان وما عملت فيه سادة مسد مفعوليها. انتهى. الدر المصون.

الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال: أشهد أنك رسول الله حقًا، ثم قال: يا رسول الله،/ ٢/ ١٧٨أ إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني[1] عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه. قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ (١٤١٦) الضمير للقرآن، أي: على مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الأعلى: ١٨]، ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الشورى: ٣] ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك، يعني كونه من عند الله. فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة[2] النظم.

١٤١٦ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٤): كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم وذريته حديث (٣٣٢٩)، وفي (٧/ ٦٩١) كتاب مناقب الأنصار: باب منه حديث (٣٩٣٨)، وفي (٩/ ١٦) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿من كان عدوًا لجبريل﴾ حديث (٤٤٨٠)، والنسائي في سننه الكبرى (٦٥/ ٣٣٨): كتاب عشرة النساء: باب كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل. حديث (٧٤/ ٩). والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٨) والبغوى في معالم التنزيل (٤/ ١٦٥). من طريق عن حميد الطويل به.

وأخرج ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١١٧): كتاب إخباره عن مناقب الصحابة: باب ذكر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأبو يعلى في مسنده (٧٦/ ٤٥٨): (٣٨٥٦) كلاهما عن يزيد بن هارون عن حميد به.

وأخرج طرفه الخاص بإسلام عبد الله بن سلام. البخاري في صحيحه (٧/ ٦٦٢): كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه إلى المدينة حديث (٣٩١١)، وأحمد (٣/ ٢١١)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٦): من طريق عبد الوارث عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البخاري من رواية حميد عن أنس، وأتم منه. انتهى.

---

(١) قوله: «بهتوني» أي: رموني بما ليس فيّ. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم... الخ» قال =

قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط، كما عطفته (ثم) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو في ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ فقد عطفت جملة قوله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على جملة قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت، وأقبلت عليك وأعرضت عني، لم نتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما، والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ مسببًا عن الشهادة على مثله؛ لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه، وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة، قالوا: عامّة من يتبع محمدًا السقاط، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود، فلو كان ما جاء به خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء. وقيل: لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار: قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه رعاء البهم. وقيل: إن أمة لعمر أسلمت، فكان عمر يضربها حتى يفتر ثم يقول لولا أني فترت لزدتك ضربًا، كان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو إليه محمد حقًا ما سبقتنا إليه فلانة. وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه. فإن قلت: لا بدّ من عامل في الظرف[1] في قوله: ﴿وَإِذْ لَمْ

= أحمد: إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة؛ لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما والآية من هذا النمط، ومثلها قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، وقد تقدم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهدًا.

(١) قال محمود: «لا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه. . . الخ» قال أحمد: إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف ألا تنافي دلالتي المضي والاستقبال، فهذا غير مانع، فإن الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى؛ لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا: =

﴿يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ومن متعلق لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وغير مستقيم أن يكون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ هو العامل في الظرف، لتدافع دلالتي المضي والاستقبال، فما وجه هذا الكلام؟ قلت: العامل في إذ محذوف، لدلالة الكلام عليه، كما حذف من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٥] وقولهم: حينئذٍ الآن، وتقديره: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم، فسيقولون هذا إفك قديم، فهذا المضمر صحّ به الكلام، حيث انتصب به الظرف وكان قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مسببًا عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] لمصادفة (حتى) مجرورها، والمضارع ناصبه. وقولهم: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كقولهم: أساطير الأوّلين ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرًا مقدمًا عليه، وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، كقولك: في الدار زيد قائمًا. وقرئ: ومن قبله كتاب موسى، على: وآتينا الذين قبله التوراة. ومعنى ﴿إِمَامًا﴾: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى. أو لما بين يديه وتقدّمه من جميع الكتب. وقرئ «مصدق لما بين يديه» ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في مصدق، والعامل فيه (مصدق) ويجوز أن ينتصب حالاً عن كتاب[1] لتخصصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوّز أن يكون مفعولاً لمصدق، أي: يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول. وقرئ: «لينذر» بالياء والتاء، ولينذر: من نذر ينذر إذا حذر ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ في محل النصب/ ٢/ ١٧٨ب معطوف على محل لينذر، لأنه مفعول له.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

= هذا إفك قديم، وأساطير الأولين وغير ذلك؛ فمعنى الآية إذًا: وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصروا عليه، فعبر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها، ثم دوامها فعبر بصيغة الاستقبال، وهذا طريق الجمع بين قوله: (سيهدين) وقوله في الأخرى (فهو يهدين) ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرته هو الوجه، ولكن الفاء المسببة دلت بدخولها على محذوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم؛ فوجب تقدير المحذوف عاملاً فيه لينتظم بتقديره عاملاً أمران: مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلل لعلته، فتعين ما ذكره الزمخشري لأجل الفاء لا لتنافي الدلالتين. والله أعلم.

(١) أجاز محمود في نصبه أن يكون حالاً عن كتاب لتخصصه بالصفة... الخ. قال أحمد: وجهان حسنان أعززهما بثالث: وهو النصب على الاختصاص، وهذه الوجوه في قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم أمرًا من عندنا﴾، والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قرئ: «حسنًا» بضم الحاء وسكون السين. وبضمهما، وبفتحهما. وإحسانًا، وكرهًا، بالفتح والضم، وهما لغتان في معنى المشقة، كالفقر والفقر. وانتصابه على الحال: أي: ذات كره. أو على أنه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كُرهٍ ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدّة حمله وفصاله ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدّة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل: ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستة أشهر. وقرئ: «وفصله» والفصل والفصال: كالفطم والفطام. بناء ومعنى. فإن قلت: المراد بيان مدّة الرضاع لا الفطام، فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلت: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم: سمي فصالاً، كما سميٰ المدّة بالأمد من قال [من الخفيف]:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـ ... ـرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ[1]

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال ووقته. وقرئ: «حتى إذا استوى وبلغ أشدّه» وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه أن يكون ذلك أوّل الأشد، وغايته الأربعين. وقيل: لم يبعث نبيّ قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه. وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس. فإن قلت: ما معنى (في) في قوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾؟ قلت: معناه: أن يجعل ذريّته موقعًا للصلاح[2] ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذرّيتي وأوقعه فيهم ونحوه [من الطويل]:

.... يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي[3]

﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ من المخلصين. وقرئ: «يتقبل» ويتجاوز، بفتح الياء، والضمير فيهما

---

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى في ههنا، وأجاب بأن المراد جعل ذريته... الخ» قال أحمد: ومثله قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ عدولاً عن قوله: إلا مودة القربى. أو المودة للقربى، والله أعلم.

(٣) تقدم.

لله عز وجل. وقرئا بالنون. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؟ قلت: هو نحو قولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه، تريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم، ونظمني في عدادهم، ومحله النصب على الحال، على معنى: كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: يتقبل، ويتجاوز: وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز. وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمّه أم الخير وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. وقيل: لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِى وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِىٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ مبتدأ خبره: أولئك الذين حق عليهم القول. والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول، ولذلك وقع الخبر مجموعًا. وعن الحسن: هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وعن قتادة: هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه. وقيل: نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر[(١)] قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمّه أمّ رومان إلى الإسلام، فأفف بهما وقال: ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو، وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد، ويشهد لبطلانه أن المراد بالذي قال: جنس القائلين ذلك، وأنّ قوله الذين حق عليهم القول: هم أصحاب النار، وعبد الرحمٰن كان من أفاضل

---

(١) قال محمود: «زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبي بكر... الخ».
قال أحمد: ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي بكر، ولكننا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه، فإن له أن يقول: أراد عبد الرحمن وأمته، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا: (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) فخاطبها وخاطب أمتها، والمقصودة هي، وقد عاد إلى خطابها خصوصًا بقوله: (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن: ما ذكره الزمخشري ثانيًا فقال: (إن الذين حق عليهم القول) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم، فقال مروان: أيها الناس إن هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾... الآية فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله» قال أحمد: وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعمم؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة ولا في الخبر، فلا يجوز أن تقول: الدينار الصفر خير من الدرهم البيض، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنسًا جاء على نعت خبر المجموع كما رأيت، والله أعلم.

المسلمين وسرواتهم. وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمٰن: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيها الناس، هو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته ولكنّ الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله[1] (١٤١٧). وقرئ: «أف» بالكسر والفتح بغير

١٤١٧ ـ أخرجه النسائي في تفسيره: (٢/ ٢٩٠): سورة الأحقاف والحاكم في مستدركه (٤/ ٤٨١)، وصححه على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي فقال: فيه انقطاع؛ فإن محمدًا لم يسمع من عائشة. أ.هـ.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٢) إلى ابن أبي خيثمة في أول تاريخه، وإلى ابن مردويه في تفسيره، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ١١)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

كلهم من طريق محمد بن زياد عن عائشة به.

وللقصة طريق آخر:

أخرجه البزار في مسنده (٢/ ٢٤٧) رقم (١٦٢٤ ـ كشف) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهيّ مولى الزبير، قال: كنت في المسجد، ومروان يخطب، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «والله ما استخلف أحدًا من أهله، فقال مروان أنت الذي نزلت فيك: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ فقال عبد الرحمن: كذبت، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ «لعن أباك» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٤٤). وقال: رواه البزار وإسناده حسن.

وللحديث شاهد أيضًا عند البخاري:

فقد أخرجه البخاري (٩/ ٥٤٧): كتاب التفسير باب سورة الأحقاف، حديث (٤٨٢٧) من طريق يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له، بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا: فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا إلاّ أن الله أنزل عذري».

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤/ ١٥٨ ـ ١٥٩): «وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي واللفظ له، وابن أبي خيثمة، والحاكم، وابن مردويه من رواية محمد بن زياد، وقال: لمّا بايع معاوية لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر، سنة هرقل وقيصر. قال مروان: هذا الذي أنزل، فذكر الآية. فبلغ ذلك عائشة فقالت: «كذب والله» ما هو به فذكره. ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه... إلخ. ولفظ ابن أبي =

---

(١) قوله: «فأنت فضض من لعنة الله» في الصحاح كل شيء تفرق فهو فضض. وفي الحديث: أنت فضض من لعنة الله، يعني: ما انفض من نطفة الرجل وتردد في صلبه. (ع)

تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال: حس، علم منه أنه متوجع، واللام للبيان، معناه: هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما دون غيركما. وقرئ «أتعدانني» بنونين. وأتعداني: بأحدهما/ ٢/ ١٧٩أ. وأتعداني: بالإدغام. وقد قرأ بعضهم: أتعدانني بفتح النون، كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء، ففتح الأولى تحريًا للتخفيف، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض. وقرئ: «أخرج» ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ يعني: ولم يبعث منهم أحد ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور: والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿فِي أُمَمٍ﴾ نحو قوله: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦] وقرئ: «أن» بالفتح، على معنى: آمن بأن وعد الله حق.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الجنسين المذكورين ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا منهما[1]. فإن قلت: كيف قيل: درجات، وقد جاء: الجنة درجات والنار دركات؟ قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لاشتمال كل على الفريقين ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ وقرئ: بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه، كأنه قيل: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم، قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ وعرضهم على النار: تعذيبهم بها، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف[2] إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ

= خيثمة: إن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبايع الناس ليزيد بن معاوية فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية... إلخ لفظ المصنف. قلت: أصله في البخاري من رواية يوسف بن ماهك عن عائشة دون ما في آخره. انتهى.

---

(١) قوله: «ومن أجل ما عملوا منهما» لعله: أو من أجل. (ع)

(٢) قال محمود: «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف... الخ» قال أحمد: وإن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوبًا، فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقلوبًا؛ لأن الملجىء ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هي المدركة، =

عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦] ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس رضي الله عنه: يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أي: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم، وقد ذهبتم به وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر رضي الله عنه: لو شئت لدعوت بصلائق وصناب[1] وكراكر وأسنمة، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا (١٤١٨). وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا وأحسنكم لباسا، ولكني أستبقي طيباتي (١٤١٩)، وعن رسول الله ﷺ: أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعًا، فقال: «أأنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى، ويغدىٰ عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا:

١٤١٨ ـ أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد من طريق جرير بن حازم عن الحسن عن عمر به موقوفًا عليه، ومن طريق ابن المبارك رواه إبراهيم الحربي في «غريب الحديث»؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٢٨٣)، وعزاه الزيلعي أيضًا إلى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث»، وإلى ابن سعد في الطبقات في ترجمة عمر.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن المبارك في الزهد أخبرنا جرير بن حازم، أنه سمع الحسن يقول: «قدم على أمير المؤمنين عمر وفد أهل البصرة مع أبي موسى الأشعري، قال: لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت. فذكر الحديث. وفيه: «أما والله ما أجهل من كراكر وأسنمة وصلا وصناب، وقال جرير: الصلا هو الشواء والصناب الخردل، والصلائق الخبز الرقاق. ولكن سمعت الله عير أقوامًا بأمر فعلوه. فقال: (أذهبتم طيباتكم) الآية. وأخرجه أبو عبيدة في الغريب. وابن سعد وأحمد في الزهد. وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق جرير به. انتهى.

١٤١٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩) رقم (٣١٢٨٠)، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٢٨٣)، من طريق يزيد بن هارون عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا... إلى آخر.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمر (١/ ٤٩) من حديث عفان عبد جرير بن حازم عن الحسن عن عمر، قال: والله لو شئت... إلى آخره. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢)..
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية، سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا عمر قال: فذكره. انتهى.

= فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة. وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم؛ فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(١) قوله: «بصلائق وصناب» في الصحاح: الصلائق: الخبز الرقاق. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. والكركرة: رحى زور البعير: والزور: أعلى الصدر اهـ، أخذا من مواضع. (ع)

نحن يومئذٍ خير. قال: بل أنتم اليوم خير» (١٤٢٠) وقرئ: «أذهبتم» بهمزة الاستفهام. و«آأذهبتم» بألف بين همزتين: «الهون» و«الهوان»: وقرئ «عذاب الهوان»، وقرئ: «يفسقون» بضم السين وكسرها.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)﴾

الأحقاف: جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من احقوقف الشيء إذا اعوج، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن. وقيل: بين عمان ومهرة. و ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ ومن بعده. وقرئ: «من بين يديه ومن بعده» والمعنى: أنّ هودًا عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب؛ وأعلمهم أنّ الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه: يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه. ومعنى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ على هذا التفسير ومن بعد إنذاره، هذا إذا علقت، وقد خلت النذر

١٤٢٠ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (١١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩) رقم (٣١٢٨٠)، من طريق بشر بن معاذ عن يزيد بن هارون عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل يومًا على أصحاب الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعًا. . . إلى آخره سواء.
ومن طريق الطبري رواه الثعلبي، وهذا مرسل، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (حـ٣/ ٢٨٤)، وعزاه الزيلعي أيضًا إلى أبي نعيم في الحلية في ترجمة أصحاب الصفة من طريق هناد بن السري عن يونس بن بكير عن سنان بن سنبس الحنفي عن الحسن قال: بنيت صفة لضعفاء المسلمين، فجعل المسلمون يوغلون إليها ما استطاعوا من خير، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأتيهم، فيقول: «السلام عليكم يا أهل الصفة». . . إلى آخر.
وللحديث شاهد من حديث علي:
أخرجه الترمذي (٤/ ٦٤٧): كتاب صفة القيامة، حديث (٢٤٧٦) من طريق يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثني من سمع علي بن أبي طالب يقول: إنا لجلوس مع رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد. . . إلى آخره.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن. أ.هـ. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية سعد عن قتادة قال: ذكر لنا، فذكره. ومن طريقه الشعبي. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال: «حسب أضعاف المسلمين»، فذكر نحوه مطولاً وفي الترمذي من طريق محمد بن كعب القرظي: حدثني من سمع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا نحن جلوس في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلاّ بردة له مرقوعة بفرو. فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ بكى للذي كان فيه من النعمة. ثم قال: كيف بكم. . . الحديث نحوه». انتهى.

بقوله: أنذر قومه، ولك أن تجعل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ اعتراضًا بين أنذر قومه وبين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ ويكون المعنى: واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم؛ وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك، فاذكرهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الإفك: الصرف. يقال أفكه عن رأيه ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ﴾ صادقا في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فإن قلت: من أين طابق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ جوابًا لقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؟ قلت: من حيث إنّ قولهم هذا استعجال/ ٢/ ١٧٩ب منهم بالعذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابًا، إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم؟ ومعنى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ وقرئ بالتخفيف: أن الذي هو شأني وشرطي: أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرّضكم لسخط الله بجهدي، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ في الضمير وجهان: أن يرجع إلى ما تعدنا، وأن يكون مبهمًا قد وضح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزًا وإما حالاً. وهذا الوجه أعرب وأفصح. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء. ومثله: الحبئ والعنان، من حبا وعنّ: إذا عرض. وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفًا للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ القول قبله مضمر، والقائل: هود عليه السلام، والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود، بل هو» وقرئ: «قل بل ما استعجلتم به هي ريح»، أي قال الله تعالى: قل ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير، فعبر عن الكثرة بالكلية. وقرئ: «يدمر كل شيء» من دمر دمارًا إذا هلك «لا ترى» الخطاب للرائي من

كان. وقرئ: «لا يرى»، على البناء للمفعول بالياء والتاء، وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه: لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم. ومنه بيت ذي الرمّة [من الطويل]:

.... وَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ(1)

وليست بالقوية. وقرئ: «لا ترى إلا مسكنهم»، و«لا يرى إلا مسكنهم». وروي أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة. وقيل: أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار. وروي: أوّل ما عرفوا به أنه عذاب: أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم؛ فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنه، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر. وروي أنّ هودًا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس. وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء وتدمغهم بالحجارة وعن النبّي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة: قام وقعد، وجاء وذهب، وتغير لونه، فيقال له: يا رسول الله ما تخاف؟ فيقول: إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا: هذا عارض ممطرنا» (١٤٢١). فإن قلت: ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قلت: الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما

١٤٢١ ـ أخرجه البخاري (٧٦/٤٤٣): كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشرابين يدي رحمته) حديث (٣٢٠٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٦١٦): كتاب صلاة الاستسقاء: باب التعوذ عند رؤية الريح، والغيم، والفرح بالمطر، حديث (١٤، ١٥/٨٩٩)، والترمذي (٥/ ٣٨٢) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأحقاف حديث (٣٢٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠): كتاب الدعاء: باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر، حديث (٣٨٩١).
وأحمد في مسنده (٦/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، وأبو يعلى في مسنده: (٨/ ١٦٥) رقم (٣٥٧/٤٧١٣)؛ كلهم من طرق عن عطاء بن رباح عن عائشة به.
وله طريق آخر:
أخرجه البخاري (٩/٥٤٩ ـ ٥٥٠): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض مُمْطِرنا﴾ حديث (٤٨٢٩)، وأبو داود (٤/٣٢٦): كتاب الأدب باب ما يقول إذا هاجت الريح، حديث (٥٠٩٨)، وأحمد (٦/٦٦)، كلهم من طرق عن عبد الله بن وهب =

(١) تقدم.

يشهد لعظم قدرته، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده. وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عزّ وجل: يعضد ذلك ويقوّيه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِن﴾ نافية، أي: فيما ما مكناكم فيه، إلا أنّ ﴿إِن﴾ أحسن في اللفظ؛ لما في مجامعة (ما) مثلها من التكرير المستبشع. ومثله مجتنب، ألا ترى أن الأصل في «مهما»: (ماما) فلبشاعة التكرير، قلبوا الألف هاء. ولقد أغث[1] أبو الطيب في قوله [من الطويل]:

لَعَمْرُكَ مامَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبِ ....[2]

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال: لعمرك ما إن بان منك لضارب[3]. وقد

= عن عمرو بن الحارث عن أبي النضر عن سليمان بن يسار عن عائشة به بنحوه.
وله طريق آخر أيضًا:
أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٦٧) من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن عائشة به بنحوه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ١٤)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والبزار، وأبو يعلى، والبخاري في الأدب المفرد؛ كلهم من رواية عطاء عن عائشة، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب. انتهى.

---

(١) قوله. «ولقد أغث أبو الطيب» في الصحاح «أغث»: أي ردؤ وفسد، تقول: أغث الرجل في منطقه. (ع)

(٢) لعمرك ماما بان منك لضارب ... بأقتل مما بان منك لعائب
لأبي الطيب. يقول: وحياتك ليس الذي ظهر منك للضارب يعني السنان، أقتل: أي أسرع قتلًا من الذي ظهر منك للعائب، يعني: اللسان، بل هما سواء في الحدة. ويجوز أنه استعار القتل للضرب تصريحًا.
ينظر: ديوانه ص (٢٨٥)، والدر المصون (٦/ ١٤٢).

(٣) قال أحمد: بيت المتنبي ليس كما أنشده، وإنما هو كما يروى:
لعمرك إن ما بان منك لضارب ... بأقتل مما بان منك لعائب
ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله:
هو ابن رسول الله وابن صفيه ... وشبههما شبهت بعد التجارب
من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي، ولو أتى أبو الطيب عوض «ما» بـ «إن» لجاء البيت:
يرى أن إن ما بان منك لضارب ....
وهذا التكرار أثقل من تكرار «ما» بلا مراء. وإنما فنده الزمخشري وألزمه استعمال «إن» عوض =

جعلت إنْ صلة، مثلها فيما أنشده الأخفش: [الوافر]

يُـرَجِّـي الْـمَـرْءُ مَـا إنْ لا يَـرَاهُ ... وَتَـعْـرِضُ دُونَ أَدْنَـاهُ الْـخُـطُـوبُ

وتؤوّل بإنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه، والوجه هو الأوّل، ولقد جاء عليه غير آية في القرآن ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾ [غافر: ٨٢] وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي من شيء من الإغناء، وهو القليل منه. فإن قلت:/ ٢/ ١٨٠أ بم انتصب ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾؟ قلت: بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾. فإن قلت: لم جرى مجرى التعليل؟ قلت: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته وضربته إذ أساء؛ لأنك إذا ضربته في وقت إساءته؛ فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه؛ إلا أن «إذ»، وحيث، غلبتا دون سائر الظروف في ذلك».

= «ما»؛ لاعتقاده أن البيت كما أنشده:

لعمرك ماما بان منك لضارب ... بأقتل مما بان منك لعائب

ولو عوض «إن» عوض «ما» كما أصلحه الزمخشري: لزم دخول الباء في خبر «ما» وإنما تدخل الباء في خبر «ما» الحجازية العاملة، و«إن» لا تعمل عمل «ما» على الصحيح، فلا يستقيم دخول الباء في خبرها، فما عدل المتنبي عن ذلك إلا لتعذره عليه من كل وجه. على أني لا أبرىء المتنبي من التعجرف، فإنه كان مغرى به، مغرمًا بالغريب من النظم. ونقل الزمخشري في الآية وجهًا آخر: وهو جعلها صلة مثلها في قوله [من الوافر]:

يرجى المرء ما إن لا يراه ... وتعرض دون أدناه الخطوب

قال: «ويكون معناه على هذا مكناهم في مثل ما مكناكم... الخ» قلت: واختص بهذه الطائفة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

(١) فإن أمسك فإن العيش حلو ... إلي كأنه عسل مشوب

يرجي المرء ما إن لا يراه ... وتعرض دون أدناه الخطوب

وما يدري الحريص علام يلقى ... شراشره أيخطىء أم يصيب؟

لجابر بن رالان الطائي. وقيل: لإياس بن الأرت. والشراشر: جمع شرشر، وهي أطراف الشيء المشرشرة، أي: المفرقة المنشورة، وتطلق على الجسد وعلى الثقل ويكنى بها عن النفس كما هنا. وقيل: هي حبال الصيد. يقول: إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلاوة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وضمن «حلو» معنى محبوب، فعداه بإلي. ثم قال: ولكن لا خير في الإمساك؛ فإن المرء يرتجي الأمر الغائب عنه. وتحول أهوال الموت أو شدائد الدهر بينه وبين أدنى شيء منه. وإن: زائدة بعد ما الموصولة حملاً على ما النافية، وما يدري الذي وجه نفسه بكليتها للدنيا عواقب أمره، أربح أم خسر، وعلى أنها حبال الصيد ففي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال من أخذ في أسباب الأمر جاهلاً عاقبته: بحال من نصب الحبال للصيد، فقد وقد.

ينظر: حاشية الدسوقي على المغني (١/ ٢٤)، والخزانة (٣/ ٥٦٧)، والدر المصون (٦/ ١٤٢).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

القربان: ما تقرب به إلى الله تعالى، أي: اتخذوهم شفعاء متقربًا بهم إلى الله، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين[1] المحذوف[2]، والثاني: آلهة. وقربانًا: حال ولا يصح أن يكون قربانًا مفعولاً ثانيًا وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى. وقرئ: «قربانا» بضم الراء. والمعنى: فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم، أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء. وقرئ «إفكهم»، والأفك والإفك: كالحذر والحذر. وقرئ: «وذلك إفكهم» أي: وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق. وقرئ: «أفَّكهم» على التشديد للمبالغة. و«آفِكهم»، جعلهم آفكين. و«آفَكهم»، أي: قولهم الآفك ذو الإفك، كما تقول قول كاذب، وذلك إفك مما كانوا يفترون، أي: بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى

---

(١) قال محمود: «أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف... الخ» قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب. ونحن نبينه فنقول: لو كان قربانًا مفعولاً ثانيًا ومعناه متقربًا بهم: لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقربًا به؛ لأن السيد إذا وبخ عبده وقال: اتخذت فلانًا سيدًا دوني، فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصد؛ فإن الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره؛ فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثاني لا غير.

(٢) قوله: «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذي أبرزه في قوله: أي اتخذوهم. (ع)

﴿صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. وقرئ: «صرفنا» بالتشديد؛ لأنهم جماعة. والنفر: دون العشرة. ويجمع أنفارًا. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: لو كان ههنا أحد من أنفارنا (١٤٢٢) ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ الضمير للقرآن. أي: فلما كان بمسمع منهم. أو لرسول الله ﷺ. وتعضده قراءة من قرأ «فلما قضى» أي أتمّ قراءته وفرغ منها ﴿قَالُوٓاْ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُواْ﴾ اسكتوا مستمعين. يقال: أنصت لكذا واستنصت له. روي: أن الجنّ كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبإ حدث، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جنّ نصيبين أو نينوى: منهم زوبعة، فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة، فوافقوا[1] رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف (١٤٢٣). وعن

١٤٢٢ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ النووي) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ حديث (١٣٢/ ٢٤٧٣) وأخرجه أحمد، وابن راهويه والبزار في مسانيدهم؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٢٨٧).
وقال الحافظ ابن حجر: هذا طرف من قصة إسلام أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر ذكره مطولاً. وفيه: فبينا أنا في ليلة قمراء ختموانية، وقد ضرب الله على أهل مكة، فما يطوف غير امرأتين، فأتيا على ذكر القصة. وفيه ثم انطلقتا يولولان. ويقولان، لو كان ههنا أحد من أنصارنا» أخرجه مسلم مطولاً. انتهى.

١٤٢٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٨٧): غريب بهذا اللفظ، أ.هـ والحديث أخرجه البخاري (٩/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣): كتاب التفسير: باب سورة: ﴿قل أوحى إلى﴾، حديث (٤٩٢١)، ومسلم (٢/ ٤٠٣ ـ النووي) كتاب الصلاة: باب الجهد بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، حديث (١٤٩/ ٤٤٩)، والترمذي (٥/ ٤٢٦): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الجن، حديث (٣٣٢٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٣)؛ كلهم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ على الجن وما رآهم... الحديث».
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما أخرجه مسلم وحده حديث داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ بطوله بغير هذه الألفاظ. أ.هـ.
وله شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
من طريق سفيان عن عاصم عن ذر عن عبد الله قال: هبطوا على النبي ـ ﷺ ـ... فذكره وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله، ودون =

---

(١) قوله: «فوافقوا رسول الله ﷺ لعله: فوافوا. (ع)

سعيد بن جبير رضي الله عنه: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم (١٤٢٤). وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرًا منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني: قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطا وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدًا حتى خفت على رسول الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئًا؟ قلت: نعم رجالاً سودًا مستثفري ثياب بيض[1]، فقال: أولئك جن نصيبين (١٤٢٥)، وكانوا اثني عشر ألفًا، والسورة التي قرأها عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

= قوله: «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة»، ودون قوله «في جوف الليل يصلي»، ودون قوله: «من نينوى» ودون قوله: «عند منصرفه إلى آخره»، وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية ذر عن ابن مسعود قال: «هبطوا ـ يعني الجن ـ على النبي ـ ﷺ ـ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ـ الآية) وقوله: «نينوى» أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث». انتهى.

١٤٢٤ ـ تقدَّم ـ ينظر السابق. وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من رواية سعيد بن جبير، وهو من الذي قبله.

١٤٢٥ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٨٩): غريب بهذا اللفظ. أ.هـ.

والحديث أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٩٨) رقم (٣١٣١٥) عن يزيد عن سعيد عن قتادة؛ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قال: «ذكر لنا أنهم صُرفُوا إليه من نينَوى...» فذكره وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة كما في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤) في تفسير سورة الجن من حديث الزهري عن أبي عثمان بن شيبة الخزاعي عن عبد الله بن مسعود قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل؟» فلم يحضر منهم أحد غيري... فذكره.

وأخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٩٨) رقم (٣١٣١٧) من حديث معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود به.

قال الحافظ ابن حجر: لم أجده بتمامه في سياق واحد، بل وجدته مفرقًا. فروى الطبري من رواية قتادة ذكر لنا النبي ـ ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن. فأيكم يتبعني فأطرقوا ثلاثًا إلاَّ ابن =

---

(١) قوله: «مستثفري ثياب بيض» في القاموس «الاستثفار»: أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويًا وإدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه اهـ. (ع)

فإن قلت: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؟ قلت: عن عطاء رضي الله عنه: أنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالت ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾. فإن قلت: لم بعّض في قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؟ قلت: لأن من الذنوب مالا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم ونحوها. ونحوه قوله عزّ وجل: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح: ٣ ـ ٤]. فإن قلت: هل للجن ثواب كما للإنس؟ قلت: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، لقوله تعالى: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله. والصحيح أنهم في حكم بني آدم، لأنهم مكلفون مثلهم ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا ينجي منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ۝١٢﴾/ ٢/ ١٨٠ب [الجن: ١٢].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ محله الرفع؛ لأنه خبر أن، يدل عليه قراءة عبد الله: قادر؛ وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على أن وما في حيزها. وقال الزجاج: لو قلت: ما ظننت أنّ زيدًا بقائم: جاز، كأنه قيل: أليس الله بقادر. ألا ترى إلى وقوع بلى مقرّرة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره، لا لرؤيتهم. وقرئ: «يقدر»، ويقال: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه. ومنه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ [ق: ١٥].

= مسعود، فاتبعه حتى دخل شعبًا يقال له شعب الحجون قال: وخط على ابن مسعود خطًا. فذكر أي: قوله: حتى خفت عليه ـ وزاد فيه: فقلت: ما هذا اللغط؟ فقال: اختصموا إلي في جبل قضيت بينهم بالحق»، وروى الحاكم والطبراني والدارقطني من طريق أبي عثمان بن شيبة الخزاعي، وكان رجلاً من أهل الشام أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: «إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل. فلم يحضر منهم أحد غيري. قال: فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطًا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام. فافتتح القرآن... الحديث» ولم يذكر قوله: «رجالاً سودًا... إلى آخر». وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي، أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة. وفيها فقال: «رأيت شيئًا؟ قلت: نعم. قد رأيت رجالاً سودًا مستشعري ثياب بيض. فقال: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع ـ فذكر الحديث»، وليس فيه عددهم ولا اسم السورة. وروى ابن أبي حاتم من رواية عكرمة في هذه الآية قال: «كانوا من جن نصيبين جاؤوا من جزيرة الموصل. وكانوا اثني عشر ألفًا. فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلاّ اسم السورة. انتهى.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ محكي بعد قول مضمر، وهذا المضمر هو ناصب الظرف. وهذا إشارة إلى العذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ والمعنى: التهكم بهم، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٨].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ أولوا الجد والثبات والصبر. و﴿مِنَ﴾ يجوز أن تكون للتبعيض، ويراد بأولي العزم: بعض الأنبياء. قيل: هم نوح، صبر على أذى قومه: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح ولده، وإسحٰق على الذبح[1]، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضرّ، وموسى قال له قومه: إنا لمدركون، قال: كلا إنّ معي ربي سيهدين، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال: إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وفي يونس: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] ويجوز أن تكون للبيان، فيكون أولو العزم صفة للرسل كلهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ لكفار قريش بالعذاب، أي: لا تدع لهم بتعجيله؛ فإنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر، وأنهم مستقصرون حينئذٍ مدّة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة. أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ إلا الخارجون عن الاتعاظ به، والعمل بموجبه. ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ: بلغ فهل يهلك، وقرئ «بلاغًا»، أي بلغوا بلاغًا، وقرئ: «يهلك»، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها، من هلك وهلك. ونهلك بالنون ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا» (١٤٢٦).

١٤٢٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، الموضوع على رسول الله ـ ﷺ ـ وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

---

(١) والحق أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو الذي يدل عليه ظواهر القرآن الكريم، والآثار عن الصحابة والتابعين ومنها ما له حكمة الرفع بتقرير النبي ﷺ.

سورة محمد ﷺ

مدنية عند مجاهد. وقال الضحاك وسعيد بن جبير: مكية. وهي سورة القتال وهي تسع وثلاثون آية. وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾

﴿وَصَدُّوا﴾ وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام: أو صدّوا غيرهم عنه. قال ابن عباس رضي الله عنه: هم المطعمون يوم بدر. وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر. وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عامّ في كل من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها. وحقيقته: جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها، كالضالة من الإبل[1] التي هي بمضيعة لا ربَّ لها يحفظها ويعتني بأمرها. أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها، كما يضل الماء في اللبن. وأعمالهم: ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم: من صلة الأرحام وفك الأسارىٰ وقرى الأضياف وحفظ الجوار. وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله: بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله.

---

(١) قال محمود: «معناه جعلها كالضالة من الإبل... الخ» قال أحمد: هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى صار صالحهم مستهلكًا في غمار سيئهم، ومقابله في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة، حتى صار سيئهم مكفرًا ممحقًا في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيء أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال مقاتل: هم ناس من قريش. وقيل: من الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هو عام. وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيمًا لشأنه وتعليمًا، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به. وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقيل: معناها إنّ دين محمد هو الحق، إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره. وقرئ: «نزل وأنزل»، على البناء للمفعول. ونزّل على البناء للفاعل، ونزل بالتخفيف/ ٢/ ١٨١أ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره، أي: ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني: كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق. ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كما ذكر بهذا السبب، فيكون محل الجار والمجرور منصوبًا على هذا[1]، ومرفوعًا على الأوّل و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ ما لا ينتفع به. وعن مجاهد: الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين، على معنى: أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

﴿لَقِيتُمُ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضربًا، فحذف

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا حاجة إليه، قوله: «كذلك يضرب» خرجه الزمخشري على مثل ذلك الضرب «يضرب الله للناس أمثالهم» والضمير راجع إلى الفريقين أو إلى الناس على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس؛ ليعتبروا. انتهى الدر المصون.

الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافًا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه. وضرب الرقاب عبارة عن القتل، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، وذلك أنهم كانوا يقولون: ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته، وضرب ما فيه عيناه[1] إذا قتله، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه[2] من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه. ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه، من الشيء الثخين: وهو الغليظ. أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: ـ اسم ما يوثق به ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ منصوبان بفعليهما مضمرين، أي: فإمّا تمنون منا، وإما تفدون فداء. والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. فإن قلت: كيف حكم أسارىٰ المشركين؟ قلت: أمّا عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين: إمّا قتلهم وإمّا استرقاقهم: أيهما رأى الإمام، ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية: نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ. وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق. ويجوز أن يراد بالمنّ: أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا. أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية، وكونهم من أهل الذمّة. وبالفداء أن يفادىٰ بأساراهم أسارىٰ المسلمين، فقد رواه الطحاوي مذهبًا عن أبي حنيفة، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره، خيفة أن يعودوا حربًا للمسلمين، وأما الشافعي فيقول: للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين، وهو: القتل، والاسترقاق[3]، والفداء بأسارىٰ المسلمين، والمن. ويحتج بأن رسول الله ﷺ منّ على أبي عروة الحجبي (١٤٢٧)، وعلى ثمامة بن أثال الحنفي (١٤٢٨)، وفادى رجلًا برجلين من

١٤٢٧ ـ أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ٣٣٦) رقم (٨٢٥)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) إلى الدارقطني في كتابه «المؤتلف والمختلف»، والبيهقي في «المعرفة» وابن سعد في طبقاته، والواقدي في مغازيه. =

---

(١) قوله: «وضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه. (ع)
(٢) قوله: «لما فيه من تصوير القتل» لعله لما فيها. (ع)
(٣) قوله: «وهو القتل والاسترقاق» لعله: وهي... (ع)

المشركين (١٤٢٩). وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي. وقرئ: «فدى» بالقصر مع فتح الفاء. أوزار الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع. قال الأعشى [من المتقارب]:

وَأَعْــدَدْتُ لِــلْــحَــرْبِ أَوْزَارَهَــا ... رِمَــاحًــا طِــوَالاً وَخَــيْــلاً ذُكُــورا[1]

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها. وقيل: أوزارها آثامها، يعني: حتى يترك أهل الحرب. وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا. فإن قلت: (حتى) بم تعلقت؟ قلت: لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشد، أو بالمن والفداء؛ فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي

= قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:
هو مذكور في المغازي لابن إسحاق وغيره: «أنه أسر يوم بدر، فمنَّ عليه رسول الله - ﷺ - بغير فداء، ثم أسره يوم أحد، فقتله صبرًا» ورواه الواقدي عن ابن أخي الزهري عن عمه عن سعيد بن المسيب. انتهى.

١٤٢٨ - أخرجه البخاري (٨/ ٤١٩): كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، حديث (٤٣٧٢)، ومسلم (٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ - النووي) كتاب الجهاد والسير: باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، حديث (٥٩/ ١٧٦٥)، وأبو داود (٣/ ٥٧): كتاب الجهاد: باب في الأسير يوثق حديث (٢٦٧٩)، والنسائي (١/ ١١٠) كتاب الطهارة: باب تقديم غسل الكافر إذا أراد أن يسلم، و(٢/ ٤٦): كتاب المساجد: باب ربط الأسير بسارية المسجد. كلهم من حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة به. وقال الحافظ ابن حجر: «قوله على ثمامة بن أثال الحنفي»، هو في حديث أبي هريرة عند الشيخين مطولاً. انتهى.

١٤٢٩ - أخرجه الترمذي (٤/ ١٣٥): كتاب السير: باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء، حديث (١٥٦٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٦) لابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. أ.هـ.
قال الحافظ ابن حجر:
قوله: «وفادى رجلاً برجلين من المشركين»: هذا طرف من حديث أخرجه مسلم، والترمذي، وغيرهما من حديث عمران، ولكن فيه أن أصحاب رسول الله - ﷺ - أسروا رجلاً من بني عقيل، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول الله - ﷺ - ففداه النبي - ﷺ - بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف» وروى البيهقي في المعرفة عن الشافعي من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب. ثم قال: أظنه من الكاتب، والصحيح الأول. انتهى.

---

(١) للأعشى، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار، أي: أحمال ثقال على طريق المكنية، وإثبات الأوزار تخييل، ورماحًا: بدل.
ينظر: ديوانه ص ١٤٩، ولسان العرب (وزر)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٢٢٢، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٤٤، ومجمل اللغة ٤/ ٥٢٣، وكتاب العين ٧/ ٣٨١، وأساس البلاغة (وزر)، وتاج العروس (وزر)، وبلا نسبة في المخصص ٦/ ٧٦.

رضي الله عنه: أنهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا علق بالضرب والشد؛ فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك/ ٢/ ١٨١ب حين لا تبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمن والفداء، فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك ﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لا نتقم منهم ببعض أسباب الهلك: من خسف، أو رجفة، أو حاصب، أو غرق. أو موت جارف، ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين: أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب. وقرئ: «قتلوا» بالتخفيف والتشديد: وقتلوا. وقاتلوا. وقرئ: «فلن يضل أعمالهم»، وتضل أعمالهم: على البناء للمفعول. ويضل أعمالهم من ضل. وعن قتادة: أنها نزلت في يوم أحد ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة. قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها. وعن مقاتل: إن الملك الذي وكّل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله، أو طيبها لهم، من العرف: وهو طيب الرائحة. وفي كلام بعضهم: عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري[1]. أو حددها لهم؛ فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها، من: عرف الدار وأرفها. والعرف والأرف، الحدود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾

﴿إِن تَنصُرُواْ﴾ دين ﴿ٱللَّهَ﴾ ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ كأنه قال: أتعس الذين كفروا. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؟ قلت: على الفعل الذي نصب تعسًا؛ لأنّ المعنى فقال: تعسا لهم، أو فقضى تعسا لهم. وتعسا له: نقيض

---

(١) قوله: «عزف كنوح القماري» العزف: الغناء. والقمارى: جمع قمري، اسم طير. والعود القماري: منسوب إلى موضع ببلاد الهند. أفاده الصحاح. (ع)

«لَعُالَهُ» قال الأعشى [من البسيط]:

. . . . فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا[1]

يريد: فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردي في النار ﴿كَرِهُوا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾

دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك عليه ما يختص به. والمعنى: دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة؛ لأن التدمير يدل عليها. أو للسنة، لقوله عزّ وعلا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ [الأحزاب: ٣٨، ٦٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾

﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليهم وناصرهم. وفي قراءة ابن مسعود «ولي الذين آمنوا» ويروى:

---

(١) وبلدة يرهب الجواب دلجتها ... حتى تراه عليها يبتغي الشيما
كلفت مجهولها نفسي وشايعني ... همي عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت ... فالتعس أولى لها من أن يقال: لعا

للأعشى، أي: ورب مفازة يخاف الجواب: أي كثير السير، من جبت الأرض: قطعتها بالسير. والدلجة من دلج وأدلج، وزن افتعل. وأدلج وزن أكرم: إذا سار ليلاً. والدلجة: ساعة من الليل، أي: يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلاً، حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها، كلفت نفسي سير المجهول منها، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر، كأنه ماء، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل، ثم قال: مع ناقة صاحبة قوة. ويطلق اللوث على الضعف أيضًا، فهو من الأضداد. عفرناة: غليظة. ويقال للعاثر: لعا لك: دعاء له بالانتعاش. وتعسا له: دعاء عليه بالسقوط، يريد أنها لا تعثر، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.
ينظر: ديوانه ص ١٥٣، ولسان العرب (لوث)، (تعس)، (لعا)، والتنبيه والإيضاح ١/١٨٧، وتهذيب اللغة ٢/٧٩، ٣/١٩٢، وجمهرة اللغة ص ٩٥٢، وكتاب العين ٨/٢٣٩، وأساس البلاغة (لعو)، وتاج العروس (لوث)، (تعس)، (لعا)، وسر صناعة الإعراب ٢/٦٩٢، وكتاب العين ٢/ ١٢٣، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/٦٥، ٥/٢٥٣.

أن رسول الله ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات، وفيه نزلت، فنادى المشركون: اعل هبل: فنادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فنادى المشركون: يوم بيوم والحرب سجال، إن لنا عزى ولا عزى لكم؛ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون» (١٤٣٠). فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠] مناقض لهذه الآية. قلت: لا تناقض بينهما، لأن الله مولى عباده جميعًا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم؛ وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيامًا قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في مسارحها ومعالفها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

وقرئ: «وكائن» بوزن كاعن[(١)]. وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك:

١٤٣٠ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (١١/ ٣٠٩) رقم (٣١٣٥٨) من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد، ورسول الله ـ ﷺ ـ في الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات... إلى آخره سواء وكذلك ذكره الثعلبي في تفسيره عن قتادة من غير سند كما في تخريج الكشاف للزيلعي (حـ٣/ ٢٩٧).

وللحديث شاهد من حديث البراء بن عازب: أخرجه البخاري (٨/ ٩٢): كتاب المغازي: باب غزوة أحد، حديث (٤٠٤٣) من طريق عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: لقينا المشركين يومئذٍ وأجلس النبي ـ ﷺ ـ جيشًا من الرماة وأمر عليهم عبد الله... إلى آخره فذكره.

وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: «ذكر لنا أن هذه الآية. يعني: ﴿إن الله مولى الذين آمنوا﴾ نزلت يوم أحد، ورسول الله ـ ﷺ ـ في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات. إلخ، . سواء. وله شاهد في البخاري من حديث البراء بن عازب. انتهى.

---

(١) قوله: «وكأين بوزن كاعن» في الصحاح «كائن»: معناها معنى كم في الخبر والاستفهام، وفيها لغتان: كاين. مثال كعين وكائن: مثال كاعن اهـ. (ع)

كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال: أهلكناهم فهم لا ينصرون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

من زين له: هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله، ومن كان على بينة من ربه أي على حجة من عنده وبرهان: وهو القرآن/ ٢/ ١٨٢أ المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ. وقرئ: «أمن كان على بينة من ربه». وقال تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ للحمل على لفظ «من» ومعناه.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾؟ قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار[1]، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار، أي كمثل جزاء من هو خالد في النار. فإن قلت: فلم عرّى في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم. ونظيره قول القائل [من المنسرح]:

---

(١) قال محمود: «هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي... الخ» قال أحمد: كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها، لا يعوزها إلا للتنبيه على أن في الكلام محذوفًا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه. ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإنه لا بد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني؛ ليتعادل القسمان. وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين. وهو من وادي تنظير الشيء بنفسه، باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى؛ فإن المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة. والمتبع للهوى: هو المعذب في النار المنعوتة، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيًا.

أَفْـــــرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْـــــكِـــــرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُودًا شَـــصَـــائِـــصَـــا نَـــبَـــلا[1]

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزنّ به[2] فكأنه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودًا يقل طائلهُ[3] وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثل الجنة: صفة الجنة العجيبة الشأن، وهو مبتدأ، وخبره: كمن هو خالد. وقوله: فيها أنهار، داخل في حكم الصلة كالتكرير لها. ألا ترى إلى صحة قولك: التي فيها أنهار. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها[4] أنهار، وكأن قائلاً قال: وما مثلها؟ فقيل: فيها أنهار، وأن يكون في موضع الحال، أي: مستقرّة فيها أنهار، وفي قراءة عليّ رضي الله عنه «أمثال الجنة» أي: ما صفاتها كصفات النار. وقرئ: «أسن» يقال: أسن الماء وأجن: إذا تغير طعمه وريحه. وأنشد ليزيد بن معاوية [من البسيط]:

لَـقَـدْ سَـقَـتْـنِـي رُضَـابًـا غَـيْـرَ ذِي أَسِـنٍ كَـالمِسْـكِ فُـتَّ عَـلَـى مَـاءِ الْـعَـنَـاقِـيدِ[5]

﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا، فلا يعود قارصًا ولا حاذرًا[6]. ولا ما يكره من الطعوم ﴿لَّذَّةٍ﴾ تأنيث لذّ، وهو اللذيذ، أو وصف بمصدر. وقرئ بالحركات الثلاث، فالجر على صفة الخمر، والرفع على صفة الأنهار، والنصب على العلة، أي: لأجل لذة الشاربين. والمعنى: ما هو إلا التلذذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿مُّصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانمازت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

---

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ما أزن» أي اتهم. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «يقل طائله» لأن الشصائص قليلات اللبن. والنبل: الكبار من الإبل، والصغار منها أيضًا، فهو من الأضداد. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله: «هي فيها» لعله: أي هي فيها. (ع)

(٥) ليزيد بن معاوية. وترضب الرجل ريق المرأة: إذا ترشفه. وأسن أسنًا كتعب تعبًا: تغير طعمه أو ريحه أو لونه؛ لطول مدته. يقول: سقتني ريقها الذي لم يتغير. وماء العناقيد: كناية عن الخمر، واستعاره لريقها على التصريحية، وناولتني المسك حال كونه تفتت على ريقها الشبيه بالخمر، أي: كأنه كذلك لطيبه. ويروى: كالمسك وهي الظاهرة، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب؛ لأنه لا يريد تشبيه الرضاب بالمسك فقط.

(٦) قوله: «ولا حاذرًا ولا ما يكره» لعله محذوف، وأصله: حازر بالزاي، وفي الصحاح: الحاذر: اللبن الحامض.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

هم المنافقون: كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاونًا منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة، ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء. وقيل: كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء. وقيل: قالوه لعبد الله بن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سميت فيمن سئل ﴿ءَانِفًا﴾ وقرئ: «أنفًا» على فعل، نصب على الظرف[1] قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء: إذا ابتدأته. والمعنى: ماذا قال في أوّل وقت يقرب منا.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أعانهم عليها. أو أتاهم جزاء تقواهم. وعن السدي: بين لهم ما يتقون. وقرئ: «وأعطاهم» وقيل: الضمير في زادهم، لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل اشتمال من الساعة، نحو: ﴿أَن تَطَؤُوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقرئ: «أن تأتهم» بالوقف على الساعة واستئناف الشرط، وهي في مصاحف أهل مكة كذلك: فإن قلت: فما جزاء الشرط؟ قلت: قوله ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ ومعناه: إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم، أي تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة، يعني لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]. فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾/ ٢/ ١٨٢ب على القراءتين؟ قلت: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمني زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه. والأشراط: العلامات. قال أبو الأسود [من الطويل]:

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا ... فَقَدْ جَعَلَتْ أَشْرَاطُ أَوَّلِهِ تَبْدُو[2]

وقيل: مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها، وانشقاق القمر، والدخان. وعن

---

(١) قوله: «وقرئ أنفًا على فعل نصب على الظرف» لعله: بالضم. (ع)

(٢) لأبي الأسود. يقول: إن كنت جزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتميه؛ لأن علامات ابتدائه شرعت في الظهور.

ينظر: البحر (٨/ ٧٠)، والدر المصون (٦/ ١٥٢).

الكلبي: كثرة المال والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام. وقرئ: «بغتة» بوزن جربة[1]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها، وهي مروية عن أبي عمرو، وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو، وأن يكون الصواب: بغتة، بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن فيما تقدم.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس: باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك. والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور. أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار. ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى، وأن يستغفر ويسترحم. وعن سفيان بن عيينة: أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ثم قال بعد: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] ثم أمر بالعمل بعد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا[2] وشق عليهم، وسقطوا في أيديهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء:

---

(١) قوله: «بغتة بوزن جربة وهي غريبة» في القاموس «الجربة» محركة مشددة: جماعة الحمراء. وفي الصحاح «الجربة» بالفتح: بغتة، وتشديد الباء: العانة من الحمير. وفيه أيضًا «العانة» القطيع من حمر الوحش. (ع)

(٢) قوله: «كاعوا» في الصحاح: كاع الكلب يكوع، أي: مشى على كوعه في الرمل من شدة الحر. (ع)

٧٧]. ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال. وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين. وقيل لها «محكمة» لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. وقيل: هي المحدثة؛ لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة. وفي قراءة عبد الله «سورة محدثة» وقرئ: «فإذا نزلت سورة وذَكَرَ فيها القتالُ» على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا وغيظًا، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل: من الولي وهو القرب. ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ كلام مستأنف، أي: طاعة وقول معروف خير لهم. وقيل: هي حكاية قولهم، أي قالوا طاعةٌ وقول معروف، بمعنى: أمرنا طاعة وقول معروف. وتشهد له قراءة أبيّ: يقولون طاعة وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي جدّ. والعزم والجد لأصحاب الأمر. وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد. أو: فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣﴾

عسيت وعسيتم: لغة أهل الحجاز. وأما بنو تميم فيقولون: عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا، ولا يلحقون الضمائر، وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب، وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات؛ ليكون أبلغ في التوكيد. فإن قلت: ما معنى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ . . . أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ قلت: معناه: هل يتوقع منكم الإفساد؟ فإن قلت: فكيف يصح هذا في كلام الله عزّ وعلا وهو عالم بما كان وبما يكون؟ قلت: معناه إنكم ـ لما عهد منكم ـ أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان: يا هؤلاء، ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا؟ وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية/ ٢/ ١٨٣أ من الإفساد في الأرض: بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام: بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا ووأد البنات؟ وقرئ: «وليتم»[1].

---

(١) قوله: «وقرئ وليتم» لعله بالبناء للمجهول، وكذا توليتم في قراءة علي. (ع)

وفي قراءة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «تُولِّيتم» أي: إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم؟ وقرئ: «وتَقْطَعُوا» «وتقطعوا» من التقطيع والتقطع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام، فمنعهم ألطافه وخذلهم، حتى صموا عن استماع الموعظة، وعموا عن إبصار طريق الهدى. ويجوز أن يريد بالذين آمنوا: المؤمنين الخلص الثابتين، وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم، فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة، حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر. وعن قتادة: إذًا والله يجدوا في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبروه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا. فإن قلت: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال؛ فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. وقرئ: «إقفالها» على المصدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا لأنّ، كقولك: إنّ زيدًا عمرو مرّ به. سوّل لهم: سهل لهم ركوب العظائم، من السول وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا[1] ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الآمال

---

(١) قال محمود: هو مشتق من السول وهو الاسترخاء، أي: سهل لهم ركوب العظائم. قال: وقد اشتقه من السؤال من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا، قلت: لأن السؤل مهموز، وسول معتل.
قال السمين الحلبي: وفيما قاله الزمخشري نظر؛ لأن السؤال له مادتان: سأل بالهمزة، وسال بالألف المنقلبة عن واو، وعليه قراءة «سال سائل». انتهى. الدر المصون.

والأماني. وقرئ: «وأملى لهم» يعني: إنّ الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقرئ: «وأملي لهم» على البناء للمفعول، أي: أمهلوا ومدّ لهم في عمرهم. وقرئ: «سوّل لهم»[1]، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف. فإن قلت: من هؤلاء؟ قلت: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعته في التوراة. وقيل: هم المنافقون. الذين قالوا: هم اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله: المنافقون. وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير: لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم. وقيل: ﴿بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾: التكذيب برسول الله ﷺ، أو بلا إله إلا الله، أو ترك القتال معه. وقيل: هو قول أحد الفريقين للمشركين: سنطيعكم في التظافر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه. ومعنى: ﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ في بعض ما تأمرون به. أو في بعض الأمر الذي يهمكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ وقرئ: «إسرارهم» على المصدر، قالوا ذلك سرًا فيما بينهم، فأفشاه الله عليهم. فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذٍ؟ وقرئ: «توفاهم» ويحتمل أن يكون ماضيًا، ومضارعًا قد حذفت إحدى تاءيه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره (١٤٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من كتمان نعت رسول الله ﷺ. و﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾: الإيمان برسول الله.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادهم وإخراجها: إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين. وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم، وكانت صدورهم تغلي حنقًا عليهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرفناكهم ودللناك عليهم. حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم: وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة يُعلمون بها. وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين: كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق (١٤٣٢). فإن قلت: أي فرق بين اللامين في ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾

١٤٣١ ـ ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون سند (١٦/ ١٦٥).

١٤٣٢ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٨)؛ غريب، وهو في الثعلبي هكذا. أ.هـ. وقال الحافظ =

---

(١) قوله: «وقرئ سول لهم» لعله بالبناء للمجهول. (ع)

و﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾؟ قلت: الأولى هي الداخلة في جواب(لو) كالتي في ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ كررت في المعطوف، وأما اللام في ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾/ ٢/ ١٨٣ب فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ في نحوه وأسلوبه. وعن ابن عباس: هو قولهم: ما لنا إن أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا إن عصينا من العقاب. وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك، أي: تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية. قال [من الكامل]:

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الأَلْبَابِ[(١)]

وقيل للمخطىء: لاحن؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم، ليعلم حسنها من قبيحها؛ لأن الخبر على حسب المخبر عنه: إن حسنًا فحسن، وإن قبيحًا فقبيح، وقرأ يعقوب: ونبلو، بسكون الواو على معنى: ونحن نبلو أخباركم. وقرئ: «وليبلونكم ويعلم» ويبلو بالياء. وعن الفضيل: أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللّهم لا تبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب؛ لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول، أي: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل: هم رؤساء قريش، والمطعمون يوم بدر.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾

= ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده. انتهى.

---

(١) اللحن: العدول بالكلام عن الظاهر، كالتعريض والتورية، والمخطىء لاحن؛ لعدوله عن الصواب أي: لكي تفهموا دون غيركم، فإن اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم. والألباب: العقول اهـ.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر[1]، كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلى أن قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] وعن أبي العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل (١٤٣٣)، حتى نزلت ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فكانوا يخافون الكبائر

١٤٣٣ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٨) لمحمد بن نصر المروزي الفقيه الشافعي في كتاب الصلاة، من طريق أبي قدامة عن وكيع عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾. انتهى.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية فذكره. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٧/ ١٠٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو يعلى الموصلي في مسنده كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٢٩٨). كلهم من طريق يحيى بن يمان عن سفيان عن إبراهيم عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يضر مع الإسلام ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل». انتهى.
وأعله عبد الحق الأشبيلي في أحكامه في كتاب الإيمان بيحيى بن اليمان وقال: إنه لا يحتج بحديثه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (حـ ٣/ ٢٩٩).
وله شاهد آخر من حديث عمر بن الخطاب:
أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»: (٧/ ١٣٤)، والعقيلي في كتابه، وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف (٣/ ٢٩٩) كلهم من طريق حجاج بن نصير عن منذر بن زياد الطائي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا ينفع مع الشرك شيء كما لا يضر مع الإيمان شيء» أ.هـ.
وذكره الكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة» (١/ ١٥٣) من حديث عمر بن الخطاب وقال: ولا =

---

(١) قال محمود: «معناه: لا تحبطوا الطاعات بالكبائر... الخ» قال أحمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأن الله ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا. وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب سمة الإيمان عنه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه؛ فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعًا بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل، فإن كان نصًا لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله، وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل وبركن يقتضي بطلانه من أصله، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول.

على أعمالهم. وعن حذيفة: فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم. وعن ابن عمر: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً، حتى نزل ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات[1] والفواحش، حتى نزل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] فكففنا عن القول في ذلك (١٤٣٤)، فكنا

= يصح، فيه المنذر بن زياد وجاء من حديث أنس بن مالك من طريق أحمد بن عبد الله الهروي، وهو من عمله. (تعقب) بأن له طريقا آخر عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول، فذكره بلفظ: لا يضر مع الإسلام ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، وفي لفظ عند الطبراني: من قال لا إله إلاَّ الله لم يضره معها خطيئة كما لو أشرك بالله لم تنفعه معها حسنة، رواه أبو نعيم في الحلية والطبراني وقالا: هكذا قال يحيى بن اليمان عن مسروق سمعت عبد الله بن عمرو وخالفه غيره فقال: نزل رجل على مسروق فقال: سمعت عبد الله بن عمرو فذكره (قلت): أخرجه من طريق الرجل المبهم أحمد والطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح ما خلا التابعي؛ فإنه لم يسم، وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان: يعقوب بن سفيان، عن حجاج بن نصير، عن المنذر بن زياد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر بحديث: لا يضر مع الإيمان شيء قال ابن القطان: لا يعرف حاله، وقال شيخنا في الذيل: علة الخبر إما حجاج وإما المنذر. انتهى. وفي اللسان أيضًا في ترجمة منذر بن زياد: أعل عبد الحق في الأحكام هذا الحديث بحجاج بن نصير فعاب عليه ابن القطان ذلك، فأصاب، فإن علته من منذر هذا، وحجاج لا يحتمل مثل هذا الموضوع المكشوف. انتهى. وكل هذا غفلة عن حديث عبد الله بن عمرو فإنه شاهد جيد والله أعلم.

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/ ٢٩٩)، وقال: قال عمرو ابن علي الغلاس: كان المنذر بن زياد كذابًا، وقال الدارقطني: متروك وله مناكير قال ابن الجوزي: وقد رواه أحمد بن عبد الله الهروي عن عبد الله بن معدان الأزدى، عن أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إني لأرجو ألا يمنع مع التوحيد ذنب كما لا يمنع مع الشرك عمل» وقال: هذا أيضًا باطل، وهو من عمل الهروي. أ. هـ.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب قدر الصلاة له. قال: حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس بهذا وزاد: فنزلت: (ولا تبطلوا أعمالكم) وفي الكتاب حديث مرفوع، أخرجه إسحاق وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، قال أبو نعيم: تفرد به يحيى بن يمان عن سفيان أ. هـ. ويحيى ضعيف. وفيه عن عمر أيضًا أخرجه العقيلي. وابن عدي من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان. انتهى.

١٤٣٤ـ أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة كما في تخريج الكشاف (٣/ ٣٠٠) من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلاَّ مقبولاً حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟... إلى آخره. =

(١) قوله: «فقلنا: الكبائر الموجبات» عبارة الخازن: الكبائر والفواحش. (ع)

نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها. وعن قتادة رحمه الله: رحم الله عبدًا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء. وقيل: لا تبطلوها بمعصيتهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تبطلوها بالرياء والسمعة، وعنه: بالشك والنفاق، وقيل: بالعجب؛ فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقيل: ولا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤)﴾

﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قيل: هم أصحاب القليب، والظاهر العموم.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٥)﴾

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدوّ ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وقرئ: «السلم» وهم المسالمة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الأغلبون الأقهرون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم. وعن قتادة: لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وقرئ: لا تدّعوا، من ادّعى القوم وتداعوا: إذا دعوا. نحو قولك: ارتموا الصيد وتراموه. وتدعوا: مجزوم لدخوله في حكم النهي. أو منصوب لإضمار إن. ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلًا من ولد أو أخ أو حميم، أو حربته، وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله، من الوتر وهو الفرد؛ فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله» (١٤٣٥) أي أفرد عنهما قتلًا ونهبًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ (٣٧) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم (٣٨)﴾

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥) وزاد نسبته إلى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمران وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن المبارك عند بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر بهذا، وأخرجه محمد بن نصر أيضًا من هذا الوجه. انتهى.

١٤٣٥ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث ابن عمر.

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على ربع العشر، ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح. وأحفى شاربه: إذا استأصله ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي تضطغنون على رسول الله ﷺ[(1)]، وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والضمير في ﴿يُخْرِجْ﴾ لله عزّ وجل، أي يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبخل؛ لأنه سبب الاضطغان، وقرئ «نخرج» بالنون. ويخرج، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي أنتم الذين تدعون. أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء/ ٢/ ١٨٤أ الموصوفون، ثم استأنف وصفهم، كأنهم قالوا: وما وصفنا؟ فقيل: تدعون ﴿لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: هي النفقة في الغزو. وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة. فلا يتعداه ضرر بخله، وإنما ﴿يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ يقال بخلت عليه وعنه، وكذلك ضننت عليه وعنه. ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه، فهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على: وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قومًا سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقيل: هم الملائكة. وقيل: الأنصار. وعن ابن عباس: كندة والنخع. وعن الحسن: العجم. وعن عكرمة: فارس والروم. وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه وقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله رجال من فارس» (١٤٣٦).

١٤٣٦ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة محمد ﷺ، حديث (٣٢٦١)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٦٢ ـ ٦٣) رقم (٧١٢٣)، والطبري في تفسيره (١١/ ٣٣٠) رقم (٣١٤٤٢ ـ ٣١٤٤٣ ـ ٣١٤٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

كلهم من طرق مختلفة عن عبد العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. أ.هـ. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/ ٥٥)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في =

---

(١) قوله: «أي تضطغنون على رسول الله ﷺ»، في الصحاح: «الضغن» الحقد. وتضاغن القوم واضطغنوا: انطووا على الأحقاد. (ع)

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقًا على الله أن يسقيه من أنهار الجنة» (١٤٣٧).

= الأوسط عن أبي هريرة به.

وله طريق آخر:

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة محمد ـ ﷺ ـ، حديث (٣٢٦٠) من طريق عبد الرزاق عن شيخ من أهل المدينة عن العلاء به. وقال: هذا حديث غريب في إسناده مقال. أ.هـ. وأخرج طرفه الأخير:

مسلم (٨/ ٣٤١ ـ ٣٤٢ ـ النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب فضل فارس، حديث (٢٣١/ ٥٤٦) من طريق ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة به.

وأحمد في مسنده (٢/ ٣٠٩) من طريق معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب رجل من فارس أو أبناء فارس حتى يتناوله». أ.هـ. وقال ابن حجر: «أخرجه الترمذي وابن حبان، والحاكم والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة وله طرق عنه وعن غيره. انتهى.

١٤٣٧ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي ابن كعب. انتهى.

سورة الفتح

مدنية [نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية]
وآياتها تسعٌ وعشرون [نزلت بعد الجمعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة ربّ العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبِر[1] ما لا يخفى[2]. فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة ـ من حيث إنه جهاد للعدوّ ـ سببًا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحًا بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح. فإن قلت: كيف يكون فتحًا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلت: كان ذلك قبل الهدنة، فلما طلبوها وتمت كان فتحًا مبينًا. وعن موسى بن عقبة: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدّونا

---

(١) قوله: «علو شأن المخبر» لعله: المخبر به. وعبارة النسفي: المخبر عنه. (ع)

(٢) قال محمود: «جاء الإخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد؛ لأن المراد فتح مكة، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح، وذلك على عادة رب العزة في إخباره؛ لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى» قال أحمد: ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

عن البيت وصد هدينا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح[1]، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا» (١٤٣٨)، وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة، أصاب: أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس؛ وبلغ الهدى محله، وأطعموا نخل خيبر، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد (١٤٣٩) وقيل: هو فتح خيبر،

١٤٣٨ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٤/ ١٦٠ ـ ١٦١) من طريق أبي عبد الله الحافظ عن إسماعيل ابن محمد بن الفضل، عن جده، عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن فُليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، عن أبي عبد الله بن الحافظ، عن أبي جعفر البغدادي، عن محمد بن عمرو بن خالد، عن أبيه، عن ابن لهيعة، قال: حدثنا أبو الأسود عن عروة قالوا: وأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ من الحديبية راجعًا، فقال رجالٌ... إلى آخره فذكره قال الحافظ ابن حجر:

هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه، ومن طريق أبي الأسود عن عروة ـ أيضًا ـ نحوه مطولاً. انتهى.

١٤٣٩ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٢٧٩): كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، حديث (٣٥٧٧)، و(٨/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩): كتاب المغازي باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٠ ـ ٤١٥١) من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب به.

وقال الحافظ ابن حجر:

متفق عليه من حديث البراء مطولاً باللفظ الأول، ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع؛ قال: قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ـ ﷺ ـ على جنب الركية فإما دعا وإما بصق، قال: فجاشت، فسقينا واستقينا. وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، فلم يلبث الناس أن سرحوه، وشكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالريء ولا مخالفة في هذا لحديث البراء.، لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان، عن أبيه حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم صحابة أن ناجية بن الأعجم. قال: «دعاني رسول الله ـ ﷺ ـ حين شكى إليه من قلة الماء فدفع إلي سهمًا من كنانته وأمر بدلو من مائها، فمضمض فاه منه ثم مجه في الدلو، وقال لي: أنزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم. ففعلت. فوالذي بعثه بالحق. ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني». وروي أيضًا من حديث قتادة. قال: لما دعا رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل. تنزل بالسهم وتوضأ، ومج فاه منه، ثم رده في البئر: جاشت بالرواء. انتهى.

---

(١) قوله: «عن بلادهم بالراح» في الصحاح «الراح»: الخمر، والراح: جمع راحة وهي الكف. والراح: الارتياح، اهـ والظاهر هنا الثالث. (ع)

وقيل: فتح الروم. وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه. وقيل: معناه قضينا لك قضاء بينًا على أهل مكة أن تدخلها أنت/ ٢/ ١٨٤ب وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت: من الفتاحة وهي الحكومة، وكذا عن قتادة ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. وعن مقاتل: ما تقدم في الجاهلية وما بعدها. وقيل: ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ فيه عز ومنعة - أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ السكون كالبهيتة للبهتان، أي: أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة غب القتال، فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بالشرائع مقرونًا إلى إيمانهم وهو التوحيد. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أوّل ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج، ثم الجهاد، فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم. أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم. وقيل: أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه. وقع السوء: عبارة عن رداءة الشيء وفساده؛ والصدق عن جودته وصلاحه، فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق، وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء. ومعنى ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم -

والسوء: الهلاك والدمار. وقرئ: «دائرة السوء»[1] بالفتح، أي: الدائرة التي يذمونها ويسخطونها، فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق. فإن قلت: هل من فرق بين السُّوء والسَّوء؟ قلت: هما كالكُره والكَره والضُّعف والضَّعف، من ساء، إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء. وأما السُّوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير. يقال: أراد به السوء وأراد به الخير؛ ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذمومًا؛ وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة، فصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله عزّ وعلا: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

﴿شَٰهِدًا﴾ تشهد على أمّتك، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ الضمير للناس ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ ويقووه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ ويعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح. أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله ﷺ. ومن فرق الضمائر فقد أبعد. وقرئ: «لتؤمنوا» «وتعزروه»[2] «وتوقروه» «وتسبحوه» بالتاء. والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته. وقرئ: «وتعزروه» بضم الزاي وكسرها. وتعزروه بضم التاء والتخفيف، وتعززوه بالزايين. وتوقروه من أوقره بمعنى وقره. وتسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

لما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أكده تأكيدًا على طريق التخييل[3] فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

---

(١) قوله: «وقرئ دائرة السوء بالفتح، يفيد أن القراءة المشهورة. دائرة السوء. بالضم. (ع)

(٢) قوله: «قرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الباء هي المشهورة، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة: وتسبحوا الله... الآية. (ع)

(٣) قال محمود: «لما قال: إنما يبايعون الله أكده تأكيدًا على طريق التخييل... الخ» قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدمت أمثاله.

﴿أَيْدِيهِمْ﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقدِ الميثاق مع الرسول/ ٢/ ١٨٥أ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] والمراد: بيعة الرضوان ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقًا، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم (١٤٤٠). وقرئ: «إنما يبايعون لله» أي: لأجل الله ولوجهه، وقرئ: «ينكث» بضم الكاف وكسرها، وبما عاهد وعهد ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بالنون والياء، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

هم الذين خلفوا عن الحديبية، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل. وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي، ليعلم أنه لا يريد حربًا، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عُقْرِ[1] داره بالمدينة وقتلوا

١٤٤٠ ـ أخرجه مسلم (٧/ ٥ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ / ١٨٥٦) من طريق أبي الزبير عن جابر به.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٠٧) إلى أبي يعلى الموصلي والبزار في مسنديهما من حديث أبي سفيان عن جابر به بنحوه.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره، أخرجه مسلم. ولأبي يعلى من هذا الوجه: «لم نبايعه على الموت، وإنما بايعناه على ألاّ نفر، بايعناه كلنا، إلاّ الجد بن قيس؛ فإنه اختبأ تحت بطن بعيره، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً. انتهى.

---

(١) قوله: «قد غزوه في عقر داره» في المصباح: عقر الدار أصلها، وهو محلة القوم. وأهل المدينة =

أصحابه، فيقاتلهم، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم (١٤٤١). وقرئ: «شغلتنا» بالتشديد ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم. وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق؛ وطلبهم للاستغفار أيضًا ليس بصادر عن حقيقة ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظفر وغنيمة[1] وقرئ: «ضرًا»، بالفتح والضم. الأهلون: جمع أهل. ويقال: أهلات، على تقدير تاء التأنيث. كأرض وأرضات، وقد جاء أهلة. وأمّا أهال، فاسم جمع، كليال.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)﴾

وقرئ: «إلى أهلهم» «وَزَيَّنَ»، على البناء للفاعل وهو الشيطان، أو الله عز وجل،

١٤٤١ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٤/ ١٦٤) من طريق أبي عبد الله الحافظ، عن عبد الرحمن ابن الحسن القاضي، عن إبراهيم بن الحسين، عن آدم بن أبي إياس، عن ورقاء، عن ابن أبي يحيى، عن مجاهد قال: أري رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة... الحديث».
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء. عن ابن نجيح عن مجاهد نحوه. انتهى.

= يقولون: عقر الدار، بالضم. (ع)

(١) قال محمود: «أي قتلاً وهزيمة أو أراد بكم نفعًا أي ظفرًا وغنيمة» قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل ـ والله أعلم ـ: فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعًا؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطردًا، كقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث «إني لا أملك لكم شيئًا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة، وسر اختصاصه بدفع المضرة: أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة؛ فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء؛ إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة﴾ فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته. والله أعلم.

وكلاهما جاء في القرآن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، و﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤] والبور: من بار، كالهلك: من هلك، بناء ومعنى؛ ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ. والمعنى: وكنتم قومًا فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم. أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ⑬﴾

﴿الْكَافِرِينَ﴾ مقام مقام لهم، للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة، كما نكر ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑭﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم، فيغفر ويعذب بمشيئته[1]، ومشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ رحمته سابقة لغضبه، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑮﴾

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ وقرئ: «كلم الله» أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر[2] إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم

---

(1) قال محمود: «يغفر ويعذب بمشيئته... الخ» قال أحمد: قد تقدمت أمثالها، والقول بأن موجب الحكمة ما ذكر تحكم. هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعتقده فلا تبقي ولا تذر، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد فيقيد مطلقًا ويحجر واسعًا، والله الموفق.

(2) قال محمود: «المراد بكلام الله وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضًا عما يفوتهم من غنائم مكة... الخ» قال أحمد: فالإضراب الأول إذًا هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانيًا أشد من المنسوب إليهم أولاً؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق. وقلة فهم على الاسترسال.

شيئًا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] «تحسدوننا» أن نصيب معكم من الغنائم. قرئ: بضم السين وكسرها ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿قَلِيلًا﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] فإن قلت: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت: الأوّل إضراب معناه: ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين، إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم/ ٢/ ١٨٥ب إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب. والمجوس تقبل منهم الجزية، وعن الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ، ولكن بعد وفاته. وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] وقيل: هم فارس والروم. ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾ ينقادون، لأنّ الروم نصارى، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية. فإن قلت: عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن، وكان ذلك في أيام رسول الله ﷺ؟ قلت: إن صح ذلك فالمعنى: لن تخرجوا معي أبدًا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين. أو على قول مجاهد: كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد في غزوة الحديبية. أو يسلمون. معطوف على تقاتلونهم، أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما. وفي قراءة أبيّ: «أو يسلموا» بمعنى: إلى أن يسلموا.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ: «ندخله» «ونعذبه» بالنون.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

هي بيعة الرضوان، سميت بهذه الآية، وقصتها: أنّ النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جوّاس[1] بن أمّية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي، لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدويّ يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم: عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة. قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها. وقيل: كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائمًا على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه. فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكان عدد المبايعين ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين، وقيل: ألفًا وأربعمائة، وقيل: ألفًا وثلثمائة (١٤٤٢) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ

١٤٤٢ - أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣١) من طرق مختلفة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، فذكراه.

وأخرج الطبري في تفسيره (١١/ ٣٤٧) رقم (٣١٥١٤) عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله - ﷺ - دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى مكة... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره (١١/ ٣٤٧ - ٣٤٨) رقم (٣١٥١٥) عن عكرمة مولى ابن عباس: «أن رسول الله - ﷺ - دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره كذلك (١١/ ٣٤٨) رقم (٣١٥١٦) عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله - ﷺ - حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة... فذكره.

وقوله: فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة:

أخرجه مسلم (٧/ ٥ - النووي): كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. =

---

(١) «جواس» الذي في أبي السعود وفي الشهاب: خراش، بالخاء والراء والشين، اهـ ملخصًا من هامش، وكذا في النسفي والخازن. (ع)

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ وقرئ: «وآتاهم» وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن: فتح هجر، وهو أجلّ فتح: اتسعوا بثمرها زمانًا ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر، وكانت أرضًا ذات عقار[1] وأموال، فقسمها ـ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ عليهم، ثم أتاه

= وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧/٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠/١٨٥٦) عن أبي الزبير عن جابر أنه سئل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة.

وقول جابر لو كنت أبصر لأريتكم مكانها:

أخرجه البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٤)، ومسلم (٧/٦ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، حديث (٧١/ ١٨٥٦). كلاهما من طريق عمرو عن جابر ـ رضي الله عنه به.

وحديث عبد الله بن المغفل:

أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»: (٦/ ٤٦٥) كتاب التفسير: سورة الفتح: قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ حديث (١١٥١٠/٢).

وقوله عليه السلام: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» تقدم قريبًا.

وأما عدد المبايعين: ففيه ثلاث روايات كما ذكر المصنف:

فالرواية الأولى:

أخرجها البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٣)، ومسلم (٧/ ٦ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٢/١٨٥٦) والرواية الثانية: أخرجاها في الصحيحين عن عمرو بن مرة عن جابر قال: كنا يوم الحديبية... وقد تقدم قريبًا بتمامه.

والرواية الثالثة: أخرجها البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٥)، ومسلم (٧/ ٧ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٥/ ١٨٥٧) عن عمرو عن عبد الله بن أبي أوفى به.

وقال الحافظ ابن حجر: أما الأولى فمتفق عليها من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر، دون قوله: «وخمسًا وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين، وفي رواية أبي الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: «كم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة قال: قلت: فإن جابرًا قال: كانوا أربع عشرة مائة قال: رحمه الله لقد وهم، هو والله حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل: كأن جابرًا رجع عن رواية خمس عشرة. إلى ألف وأربعمائة؛ وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع. انتهى. والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلثمائة وكان من أسلم من المهاجرين. قلت: والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسًا وعشرين، أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفًا، وفي عددهم أقوال غير هذه بسطتها في شرح البخاري. انتهى.

---

(١) قوله: «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح: الأرض والضياع والنخل. (ع)

عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا. وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. وقيل: رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا، وثقة بفضل الله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على هذه، أي: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال: لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها. ويجوز في ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ النصب بفعل مضمر، يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ/ ٢/ ١٨٦أ بِهَا﴾ تقديره: وقضى الله أخرى قد أحاط بها. وأما ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصفة لأخرى، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا، وقد أحاط بها: خبر المبتدأ، والجرّ بإضمار رُبّ. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠] كيف موقعه؟ قلت: هو كلام معترض. ومعناه: ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا، لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانًا.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا. وقيل: من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد، أي: سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أيدي أهل مكة، أي: قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله، على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحًا. وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة (١٤٤٣). وعن ابن عباس رضي الله عنه: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ: «تعملون» بالتاء والياء.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وقرئ: «والهدي» «والهديّ» بتخفيف الياء وتشديدها، وهو ما يهدي إلى الكعبة: بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدّوكم. أي: صدّوكم وصدّوا الهدي وبالجر عطفًا على المسجد الحرام، بمعنى: وصدّوكم عن نحر الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ محبوسًا عن أن يباع، وبالرفع على: وصدّ الهدي. ومحله: مكانه الذي يحل فيه نحره،

١٤٤٣ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (١١/٣٥٦) رقم (٣١٥٦٠) من طريق ابن حميد عن يعقوب القُمّي عن جعفر عن ابن أبزى قال: لما خرج النبي ـ ﷺ ـ بالهدي... إلى آخره. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/٧٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى.
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر هو ابن أبي المغيرة عن ابن أبزى: قال «لما خرج النبي ـ ﷺ ـ بالهدي وانتهي إلى ذي الحليفة: قال له نمر: يا نبي الله، تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلاّ حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها. فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبي جهل، قد خرج عليه في خمسمائة. فقال لخالد بن الوليد: يا خالد، هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل. فقال خالد: أنا سيف الله ورسوله فيومئذٍ سمي سيف الله، يا رسول الله ارم بي أين شئت، فبعثه على خيل، فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه. حتى أدخله حيطان مكة ـ الحديث» وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه وفي صحته نظر؛ لأن خالد لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية. فلو كانت في عمرة القضية لأمكن. مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه. انتهى.

أي يجب. وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم. فإن قلت: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قلت: بعض الحديبية من الحرم (١٤٤٤). وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت فى الحل، ومصلاه في الحرم (١٤٤٥). فإن قلت: فإذن قد نحر في الحرم، فلم قيل: ﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾؟ قلت: المراد المحل المعهود وهو منى ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ صفة للرجال والنساء جميعًا. و﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم. والمعرة: مفعلة، من عره بمعنى عراه إذا دهاه[1] ما يكره ويشق عليه. و﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ متعلق بأن تطؤهم، يعني: أن تطؤوهم غير عالمين بهم. والوطء والدوس: عبارة عن الإيقاع والإبادة. قال [من الكامل]:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ ... وَطْأَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الْهَرْمِ[2]

١٤٤٤ ـ أخرجه البخاري (٥/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥): كتاب الصلح باب الصلح مع المشركين، حديث (٢٧٠١) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ـ ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت. . . إلى آخره، أ. هـ.
وقال الحافظ ابن حجر:
أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال: «خرج رسول الله ـ ﷺ ـ معتمرًا فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان: «أنه ـ ﷺ ـ قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخاري: والحديبية خارج الحرم. انتهى.

١٤٤٥ ـ أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣) من حديث الفتح: عن يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق ابن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية. . . فذكره بطوله وفيه: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي وهو مضطرب في الحل. أ. هـ.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان، في أثناء الحديث الطويل، قال: «وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل».

---

(١) قوله: «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها: هو يعر قومه: أي يدخل عليهم مكروهًا يلطخهم به. والمعرة: الإثم. (ع)

(٢) ووطئتنا وطأ على حنق ... وطأ المقيد نابت الهرم
وتركتنا لحمًا على وضم ... لو كنت تستبقي من اللحم

لحرث بن وعلة الذهلي. والوطء: وضع القدم فوق الشيء بشدة. وهو كناية عن الإهلال. والحنق كسبب: الحقد والغيظ. والهرم ـ بالسكون ـ: ضرب من الحمض ترعاه الإبل، وبعير هارم: يرعى الهرم. يقول: أتيتنا مرتفعًا علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم، النابت: أي الحديث النبات. ويروى: يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه، أو مع يبسه فيتفتت، فجعله مقيدًا لتكون بطشته قوية؛ حيث يرفع رجليه معًا ويضربها عند الوثوب. أو جعله مقيدًا؛ لأن الذليل إذا قدر لا يعفو. والوضم: خوان الجزار الذي يقطع عليه اللحم. و«لو» شرطية. جوابها دل عليه قوله: «تركتنا» أي: على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذي =

وقال رسول الله ﷺ: «وإن آخر وطأة وطئها الله بِوَجٍّ» (١٤٤٦) والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفي الأماكن: فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسًا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة: لما كف أيديكم عنهم، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه[1]. ويجوز أن يكون ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ كالتكرير للولا رجال مؤمنون، لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو الجواب. فإن قلت: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون. قلت: يصيبهم وجوب الدية والكفارة، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دلت عليه الآية وسيقت له: من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم؛ صونًا لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته؛ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض: من زاله يزيله. وقرئ: «لو تزايلوا».

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾

﴿إِذْ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله. أي: لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام/ ٢/ ١٨٦ب في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة

١٤٤٦ - تقدم في آخر سورة براءة.

= يهيأ للأكل. وفي التعبير بلو: دلالة على أنه لم يستبق منهم.
البيت لزهير بن أبي سلمى في لسان العرب (هرم)، وتهذيب اللغة ٦/٢٩٦، وتاج العروس (هرم)، وليس في ديوانه، وللحارث بن وعلة في أمالي القالي ١/٢٦٣، وشرح القصائد السبع الطوال ص ٥٤٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي في ص ٢٠٦. وراجع قافية «نابت الهرم».

(١) قال محمود: «يجوز أن يكون جواب لولا محذوفًا... الخ» قال أحمد: وإنما كان مرجعهما ههنا واحدًا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود. و«لو» تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهر؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله: (تزيلوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه. وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني ويسميه تطرية، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول، فمرة يطرى بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه. وقد تقدمت لها أمثال، والله أعلم. وهو الموفق.

المؤمنين - والحمية الأنفة والسكينة والوقار - ما روي أنّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف، على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللّٰهم، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» (١٤٤٧) فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا. و﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بسم الله الرحمٰن الرحيم ومحمد رسول الله: قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم. وقيل: هي كلمة الشهادة. وعن الحسن رضي الله عنه: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد. ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: كلمة أهل التقوى. وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله: «وكانوا أهلها وأحق بها»، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في

١٤٤٧ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٩٩ - ١٠٨) عن عروة بن الزبير وأخرجه النسائي في «تفسيره» (٢/ ٣١٢ - ٣١٣) رقم (٥٣٠) من طريق ثابت البناني عن عبد الله بن المغفل بنحوه، ومن طريق ثابت أخرجه. أحمد (٤/ ٨٦ - ٨٧)، والحاكم (٢/ ٤٦٠ - ٤٦١)، والطبري في «تفسيره» (٢٦/ ٥٨ - ٥٩)، والبيهقي في سننه (٦/ ٣١٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٥/ ٣٥١) وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو... إلخ مطولاً، والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب، ومن رواية مروان والمسور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل. انتهى.

عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت (١٤٤٨). ومعنى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوًا كبيرًا ـ فحذف الجارّ وأوصل الفعل، كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فإن قلت: بم تعلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؟ قلت: إمّا بصدق، أي: صدقه فيما رأى، وفي كونه وحصوله صدقًا ملتبسًا بالحق: أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص، وبين من في قلبه مرض، ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي: صدقه الرؤيا ملتبسًا[1] بالحق، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام. ويجوز أن يكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قسمًا: إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل. أو بالحق الذي هو من أسمائه. و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جوابه. وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف. فإن قلت: ما وجه دخول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في أخبار الله عز وجل؟ قلت: فيه وجوه: أن يعلق عدته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك، متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته. وأن يريد: لتدخلنّ جميعًا إن شاء الله ولم يمت منكم أحدًا، أو كان ذلك على لسان ملك، (فأدخل الملك إن شاء الله)[2] . أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقصّ عليهم. وقيل: هو متعلق بآمنين ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

١٤٤٨ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/٣١٦) وأخرجه الطبري (١١/٣٦٧) عن مجاهد، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٦٧) رقم (٣١٦٠٤) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به.
وقال الحافظ ابن حجر:
لم أجده هكذا مفسرًا، وروى الطبرى من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) ـ الآية فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ: «إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين. فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه، فقال الله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) ـ الآي: وروى الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «أرى رسول الله ـ ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدي وهو بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت، وبه قال وقوله: (فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا) قال: النحر بالحديبية. فرجعوا ففتحوا خيبرًا. وقال: ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة». انتهى.

---

(١) قوله: «أي «صدقه الرؤيا» ملتبسًا» لعله: ملتبسة. (ع)
(٢) هذا الكلام لا يصح، انظر التعليق عليه في ص ١١ من الجزء الأول.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بدين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنس الدين كله، يريد: الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب: ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى دينًا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنّ الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه من فتح مكة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن. وعن الحسن رضي الله عنه: شهد على نفسه أنه سيظهر دينك[1].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

﴿مُّحَمَّدٌ﴾ إما خبر مبتدأ، أي: هو محمد لتقدّم قوله/ ٢/ ١٨٧أ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٨] وإما مبتدأ، ورسول الله: عطف بيان. وعن ابن عامر أنه قرأ: رسول الله، بالنصب على المدح ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ جمع شديد ورحيم. ونحوه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعن الحسن رضي الله عنه: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء. وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله، وكذلك التقبيل. قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئًا من جسده. وقد رخص أبو يوسف في المعانقة. ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف: فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة. وكف الأذى. والمعونة، والاحتمال،

(١) قوله: «إنه سيظهر دينك» لعله: دينه، كعبارة النسفي. (ع)

والأخلاق السجيحة[1] ووجه من قرأ: «أشداء، ورحماء» بالنصب ـ: أن ينصبهما على المدح، أو على الحال بالمقدّر في ﴿مَعَهُۥٓ﴾، ويجعل ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ الخبر ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم. وقرئ: «سيماؤهم» وفيها ثلاث لغات: هاتان. والسيمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يفسرها، أي: من التأثير الذي يؤثره السجود، وكان كل من العليين: عليّ بن الحسين زين العابدين، وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك، يقال له: ذو الثفنات؛ لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات[2] البعير. وقرئ: «من أثر السجود» و«من آثار السجود»، وكذا عن سعيد بن جبير: هي السمة في الوجه. فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا[3] صوركم» (١٤٤٩)، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود فقال: إن صورة وجهك أنفك، فلا تعلب وجهك، ولا تشن صورتك (١٤٥٠). قلت: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة. وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه، ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله تعالى. وعن بعض المتقدّمين: كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء، ونرى

١٤٤٩ ـ بيض له الزيلعي في «تخريجه» (٣/٣١٧)، وقال ابن حجر: لم أجده مرفوعًا وهو في الذي بعده موقوف. انتهى.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده مرفوعًا وهو في الذي بعده. موقوف. انتهى.

١٤٥٠ ـ أخرجه عبد الرزاق (٢/١٧٣ ـ ١٧٤) رقم (٢٩٤١) من طريق الثوري عن الأعمش عن حبيب عن أبي الشعثاء عن ابن عمر أنه... فذكره.
وفي تخريج الزيلعي (٣/٣١٧): ورواه إبراهيم الحربي في كتابه غريب الحديث: ثنا أحمد بن جعفر ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء عن ابن عمر أنه رأى رجلاً قد أثر السجود في وجهه فقال: لا تعلب صورتك. انتهى.
وقال الحافظ ابن حجر:
أخرجه عبد الرزاق عن الثوري، عن الأعمش، عن حبيب، عن أبي الشعثاء، عن ابن عمر: أنه رأى رجلاً ينتحز إذا سجد فقال: لا تقلب صورتك، يقول لا تؤثرها، قلت: ما تقلب صورتك؟ قال: لا تغير لا تشن، ورواه إبراهيم الحربي من رواية أبي معاوية، عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء، عن عمر: «أنه رأى رجلاً قد أثر السجود بوجهه فقال: لا تقلب صورتك. ثم قال: قلبت الشيء إذا أثرت به. انتهى.

---

(١) قوله: «والأخلاق السجيحة» أي السهلة. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «ثفنات البعير» في الصحاح: هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ. (ع)
(٣) قوله: «لا تعلبوا صوركم» في الصحاح: علبته أعلبه ـ بالضم ـ: إذا وسمته أو خدشته، أو أثرت فيه. (ع)

أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير، فما ندري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق. وقيل: هو صفرة الوجه من خشية الله. وعن الضحاك: ليس بالندب[1] في الوجوه، ولكنه صفرة. وعن سعيد بن المسيب: ندى الطهور وتراب الأرض. وعن عطاء رحمه الله: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل، كقوله: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» (١٤٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف ﴿مَثَلُهُمْ﴾

١٤٥١ ـ أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٢) كتاب الصلاة باب ما جاء في قيام الليل حديث (١٣٣٣) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٢٦) والعقيلي (١/ ١٧٦) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٠٨، ٤٠٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣٤١، ١٣/ ١٢٦) وابن حبان (١/ ٢٠٧) وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٠٩ ـ ١١١) كلهم من طريق ثابت بن موسى الضرير عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ. وقال العقيلي: هذا حديث باطل ليس له أصل. وثابت ابن موسى الضرير.
قال ابن حبان: كان يخطىء كثيرًا لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، وهو الذي روى عن شريك وذكر القصة، ثم قال: وذكر هذا من ثابت جماعة من الضعفاء.
وقال ابن عدى: وبلغني عن محمد بن عبد الله بن نمير أنه ذكرله [هذا] الحديث عن ثابت فقال: باطل وكان شريك مزاحًا وكان ثابت رجلًا صالحًا فشبه أن يكون ثابت دخل على شريك وهو يقول حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ فالتفت فرأى ثابتًا فقال يمازحه: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت أن هذا الكلام هو متن الإسناد الذي قرأه فحمله على ذلك، وإنما هو قول شريك أ.هـ. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ونقل كلام ابن عدي وأقره. وللحديث شاهد من حديث أنس.
أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١١١) من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار قال: حدثني أبى عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعًا وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهذا السند فيه عثمان بن دينار روت حكامة أحاديث بواطيل لا أصل لها أ.هـ.
وقال ابن أبي حاتم في العلل: قال أبي: هذا حديث موضوع.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه عن إسماعيل الطلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعًا بهذا، واتفق أئمة الحديث وابن عدى، والدارقطني، والعقيلي، وابن حبان، والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي، وعبد الحميد بن بحر وغيرهما، وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثوري، وابن جريج عن أبي الزبير عن جابر، وهو موضوع على هذا الإسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى واهية. قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع في معجمه من حديث أنس وابن الجوزي من وجه آخر عنه وهو باطل أيضًا من الوجهين. انتهى.

---

(١) قوله: «ليس بالندب في الوجوه» في الصحاح «الندب»: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد. (ع)

أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا، ثم ابتدأ فقال: ﴿كَزَرْعٍ﴾ يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ ثم ابتدىء: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]. وقرئ: «الأنجيل» بفتح الهمزة ﴿شَطْأَهُ﴾ فراخه. يقال: أشطا الزرع إذا فرّخ. وقرئ: «شطأه» بفتح الطاء. وشطاه، بتخفيف الهمزة: وشطاءه بالمدّ. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها. وشطوه، بقلبها واوًا ﴿فَآزَرَهُ﴾ من المؤازرة وهي المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: «فأزره» بالتخفيف والتشديد، أي: فشدّ أزره وقوّاه. ومن جعل (آزر) أفعل، فهو في معنى القراءتين ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق. وقيل: مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليّ. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأنّ النبي ﷺ، قام وحده. ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع. فإن قلت: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة، ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى ﴿مِنْهُم﴾ البيان، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ/ ٢/ ١٨٧ب سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة» (١٤٥٢).

١٤٥٢ ـ تقدم برقم ٣٤٦، وقال الحافظ: أخرجه ابن مردوية، والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الحجرات

مدنية، وآياتها ١٨ [نزلت بعد المجادلة]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

قدّمه وأقدمه: منقولان بتثقيل الحشو والهمزة، مِن قَدَمَهُ إذا تقدّمه[1]، في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ [هود: ٩٨] ونظيرهما معنى ونقلاً: سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ من غير ذكر مفعول: وجهان، أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم. والثاني: أن لا يقصد قصد[2] مفعول ولا حذفه، ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل، ولا تجعلوه منكم بسبيل[3] كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨] ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم، كوجه وبين. ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته، وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ: «لا تقدموا» بحذف إحدى تاءي تتقدموا، إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه، وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن، والعلماء له أقبل. وقرئ: «لا تقدموا» من القدوم، أي لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليهما. وحقيقة قولهم: جلست بين يديَ فلان، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبًا منه، فسميت الجهتان يدين

---

(١) قوله: «إذا تقدمه في قوله تعالى» لعله كما في قوله تعالى. (ع)

(٢) قوله: «أن لا يقصد قصد... الخ» عبارة النسفي: أن لا يقصد مفعول. والتهجي متوجه إلى نفس التقدمة. (ع)

(٣) ذكر الزمخشري من النكت: «أنه تعالى ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسوله متقدمًا على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص» قال أحمد: يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا، بإطراح ذلك المفعول كقوله: (يحيي ويميت) وحلى الكلام بمجاز التمثيل في قوله: (بين يدي الله ورسوله) بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه مثل أن يجلس العبد في الجهتين المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعًا، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة هٰهنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلًا. ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان: وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة: والمعنى: أن لا تقطعوا أمرًا إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل. وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه. وعن مجاهد: لا تفتاتوا على الله شيئًا حتى يقصه[1] على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوّة الاختصاص، ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى: سلك له ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته؛ لأنّ من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي: كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت، ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلًا وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل. إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة، فاعتزيا لهم إلى بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم، فقتلوهما وسلبوهما، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: «بئسما صنعتم كانا من سليم، والسلب ما كسوتهما» فوداهما رسول الله ﷺ (١٤٥٣) ونزلت، أي: لا تعملوا شيئًا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ. وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه، فقالت للجارية: اسقه عسلًا، فقلت: إني صائم، فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم (١٤٥٤). وفيه نزلت. وعن الحسن: أنّ أناسًا ذبحوا يوم الأضحى

١٤٥٣ ـ أخرجه البيقهي في الشعب (٢/١٩٦)، في الباب الخامس عشر باب: في تعظيم النبي ـ ﷺ وإجلاله وتوقيره، رقم (١٥١٧).
والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٣٨ ـ ٣٤١)، باب: غزوة بئر معونة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان، قال: «بلغنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو ـ فذكر قصة بئر معونة مطولاً. وفيه هذا اللفظ. وروى الدلائل من طريق ابن إسحاق، ومن طريق موسى بن عقبة: هذه القصة على غير هذا السياق وأن المقتولين بني كلاب ـ وأن الثلاثة قتل منهم واحد وهو المحفوظ والمشهود في المغازي. انتهى.
١٤٥٤ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥): غريب؛ وعزاه للدارقطني في =

---

(١) قوله: «حتى يقصه على لسان رسوله» لعله: يقضيه. (ع)

قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحًا آخر (١٤٥٥). وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله، إلا أن تزول الشمس. وعند الشافعي: يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضًا: لما استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل، فنهوا أن يبتدؤوه بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء (١٤٥٦) وعن قتادة: ذكر لنا أنّ ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل فيه كذا لكان كذا، فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل؛ ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني[1] في الافتتاح بالطعام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقيّ حذر لا يشافه أمرًا[2] /٢/١٨٨أ إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار. فتنهاه أوّلاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون، وحق مثله أن يتقى ويراقب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾

إعادة النداءَ عليهم: استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية

= المؤتلف والمختلف من طريق مالك بن حمزة عن مسروق، ذكره في باب: حمزة وحمرة. وللثعلبي في تفسيره قال ابن حجر في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمرة بضم المهملة والراء. عن مسروق، قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها في اليوم الذي يشك فيه أنه يوم عرفة»... الحديث. انتهى.

١٤٥٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٣٠)، والطبري في تفسيره (١١/ ٣٧٨)، رقم (٣١٦٦١) كلاهما من طريق الحسن.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق: حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: هم قوم ذبحوا قبل أن يصلي النبي ـ ﷺ ـ فأمرهم أن يعيدوا الذبح، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة، قال: «ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل كذا. لو صنع كذا، لو قبل كذا». قال: وقال الحسن هم أناس، فذكره. انتهى.

١٤٥٦ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٢٥): غريب. وقال ابن حجر: لم أجده.

---

(١) قوله: «وأن يستأني في الافتتاح» أي: ينتظر. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «لا يشافه أمرًا» أي: لا يتشاغل بأمر، وفي الصحاح: «الشفه»: الشغل، يقال: شفهني عن كذا، أي: شغلني. (ع)

الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملاً بما يحدوه[1] عليه. وارتداعًا عما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير، والمراد بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم؛ حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق[2] غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم. وبقوله: ولا تجهروا له بالقول: إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] وقيل معنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لا تقولوا له: يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه بالنبوّة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله، (١٤٥٧) وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه (١٤٥٨)،

١٤٥٧ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف: غريب والحديث أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٤٠٣)، رقم (٧٥٥)، وفي تفسيره (٤/ ١٥١).
وله شاهد من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿إن الذين يغضون﴾ ـ الآية قال أبو بكر. . . أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الواحدي عن عطاء عن ابن عباس، ولم يسق سنده إليه، وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر، قال لما نزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ قلت: يا رسول الله، آليت ألا أكلمك إلاّ كأخي السرار حتى ألقى الله» وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة. قال: لما نزلت ﴿إن الذين يغضون﴾ ـ الآية قال أبو بكر: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلاّ كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل وقال: صحيح على شرط مسلم. انتهى.
١٤٥٨ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦) كتاب التفسير باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) حديث (٤٨٤٥) من حديث ابن الزبير عن عمر. =

---

(١) قوله: «بما يحدوه عليه» أي: يحضه. (ع)
(٢) قوله: ««كشية الأبلق» في الصحاح «الشية»: لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفيه أيضًا: اللغط الصوت والجلبة. وفيه الصخب: الصياح والجلبة. (ع)

وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ وفد: أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ (١٤٥٩)، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر: ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأنّ ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير، ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث، أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس» (١٤٦٠) وكان العباس أجهر الناس صوتًا (١٤٦١). يروى: أنّ غارة أتتهم يومًا فصاح العباس يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدّة صوته (١٤٦٢). وفيه يقول نابغة بني جعدة [من المنسرح]:

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا ... أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ[1]

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه (١٤٦٣)، وفي قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» والباء مزيدة محذوّ بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي [من مجزوء الكامل]:

رَفَعْتُ عَيْنِي بِالْحِجَا ... زِ إِلَى أُنَاسٍ بِالْمَنَاقِبْ[2]

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد، تخيلًا أن يكون ما دون

= قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البخاري من حديث ابن الزبير. قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ـ الآية كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبي ـ ﷺ ـ حدثه كأخي السرار. لم يسمعه حتى يستفهمه. انتهى.

١٤٥٩ ـ قال الحافظ في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٢٧): غريب وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

١٤٦٠ ـ بيض له الزيلعي (٣/ ٣٢٧) وقال الحافظ: لم أجده. وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين والعباس لم يشهد أحدًا.

١٤٦١ ـ بيض له الزيلعي، وقال الحافظ: لم أجده.

١٤٦٢ ـ بيض له الزيلعي (٣/ ٣٢٧)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

١٤٦٣ ـ بيض له الزيلعي في «الكشاف» (٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨)، وقال الحافظ: لم أجده.

---

(١) تقدم.

(٢) للأعلم الهذلي، يقول: نظرت وأنا في الحجاز إلى من في المناقب. وهذان الموضعان بينهما مسافة بعيدة، وهذا من شدة الشوق إلى من في المناقب.

الشديد مسوغًا لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، فكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته (١٤٦٤). وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت: فقد ثابت، فتفقده رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه، فدعاه، فسأله فقال: يا رسول الله، لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإني رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة» (١٤٦٥). وأمّا ما يروى عن الحسن: أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحمله والخطاب للمؤمنين: على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهي، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان/ ٢/١٨٨ب المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم، فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكان التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا: أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقًا، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ منصوب الموضع، على أنه مفعول له، وفي متعلقه وجهان، أحدهما: أن يتعلق بمعنى النهي، فيكون المعنى: انتهوا عما نهيتهم عنه لحبوط أعمالكم، أي: لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] والثاني: أن يتعلق بنفس الفعل، ويكون المعنى: أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط: جعل كأنه فعل لأجله، وكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨] فإن قلت: لخص الفرق بين الوجهين. قلت: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضمومًا

١٤٦٤ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

١٤٦٥ ـ أخرجه البخاري (٥٦٦/٩) كتاب التفسير: باب «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» حديث (٤٨٤٦)، ومسلم (٣٧٩/١ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله حديث (١١٩/١٨٧)، وأحمد (١٣٧/٣)، وأبو يعلى (٧٦/٦) رقم (٣٣٣١)، والواحدي في «أسباب النزول (ص ٢٨٧) من حديث أنس بن مالك.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث أنس دون قوله «لست هناك، وزاد أحمد والطبراني فيه. فقال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة». انتهى.

إليه المفعول له، كأنهما شيء واحد[1]، ثم يصب النهي عليهما جميعًا صبًا. وفي الأوّل يقدر النهي موجهًا على الفعل على حياله، ثم يعلل له منهيًا عنه. فإن قلت: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قلت: بالثاني عند البصريين، مقدرًا إضماره عند الأوّل، كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ [الكهف: ٩٦] وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل: وقراءة ابن مسعود: «فتحبط أعمالكم» أظهر نصًا بذلك؛ لأنّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسببًا عما قبله، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِىۖ﴾ [طه: ٨١] والحبوط من حبطت الإبل: إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها، وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حَبَطًا أو يُلِمّ» (١٤٦٦) ومن أخواته:

١٤٦٦ ـ أخرجه مسلم (٢/ ٧٢٧) كتاب الزكاة: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا حديث (١٠٥٢/ ١٢٣)، وأحمد (٣/ ٩١)، والنسائي (٥/ ٩٠) كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتيم، وأبو يعلى (١٢٤٢)، وابن ماجه (٣٩٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم وغيره. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إنه مفعول له ومتعلقه إما معنى النهي، كأنه قال: انتهوا كراهية حبوط أعمالكم على حذف مضاف، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ وأما نفس الفعل فهو المنهي عنه، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهي عنه إلى الحبوط، منزلة جعل الحبوط علة في الجهر على التمثيل، من وادي (ليكون لهم عدوًا وحزنًا) قال: وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثاني يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول. . . الخ» قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة إياك ورودها: وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم، وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في مواضع من هذا المجموع، فجدد العهد بها: وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار، وأن الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياه ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك. والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها فيما يدعيه: أن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعًا بنفيه: لم تستقم الإخافة به، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله، ونظم الكلام يأباه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي: الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولاً، حماية للذريعة وحسمًا للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع للصوت منقسمًا إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر: لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقًا، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل، وهو البالغ حد الإيذاء؛ إذ لا دليل ظاهر يميزه، وإن كان =

حبجت الإبل، إذا أكلت العرفج[1] فأصابها ذلك. وأحبض عمله: مثل أحبطه. وحبط الجرح وحبر: إذا غفر، وهو نكسه وترامیه إلى الفساد: جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض[2] لمن يصاب به، أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين، أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله. والثاني: أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط، ولعله عند الله كذلك؛ فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③﴾

﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له، ودرب للنهوض به. فهو مضطلع به غير وان عنه. والمعنى أنهم صبّر على التقوى، أقوياء على احتمال مشاقها. أو وضع الامتحان موضع المعرفة؛ لأنّ تحقق الشيء باختباره، كما يوضع الخبر موضعها، فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى، وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي كائن له ومختص به قال [من الرجز]:

أَنْـتَ لَـهَـا أَحْـمَـدُ مِـنْ بَـيْـنِ الْـبَـشَـرْ[3]

* * *

= فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله: (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: (وأنتم لا تشعرون) موقع؛ إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيًا فيكون كفرًا محبطًا قطعًا، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعًا، فعلى كلا حاليه الأحوط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الإحباط ثابت مطلقًا، والله أعلم وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة إحداهما: أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام. المقدمة الأخرى: أن إيذاء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرًا، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله الموفق.

(١) قوله: «إذا أكلت العرفج» في الصحاح: شجر ينبت في السهل، الواحدة: عرفجة. (ع)

(٢) قوله: «كالداء والحرض» أي الفساد. أفاده الصحاح.

(٣) رائعة: خالية من الحشو والتعقيد: وصوغتها ـ بالتشديد ـ: للمبالغة؛ وأنت لها: أي أهل لها وكفء؛ وأحمد: منادى. ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أي: منتخبًا من بينهم. ويجوز أن «أحمد» أفعل تفضيل، كذا قيل.
ينظر: لسان العرب (غبر)، وتاج العروس (غبر)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٢٣)، وأساس البلاغة (غبر).

[ومن الطويل]:

أَعَدَّاءُ مَنْ لِلْيَعْمُلاتِ عَلَى الْوَجَى ....[1]

وهي مع معمولها منصوبة على الحال. أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت وتظهر تقواها، ويعلم أنهم متقون؛ لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. وقيل أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب وفتنه، إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاه. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال، من محنه، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهدته فقد محنته. وأنشد [من الرجز]:

أَتَتْ رَذَايَا بَادِيًا كِلالُهَا   قَدْ مَحَنَتْ وَاضْطَرَبَتْ آطَالُهَا[2]

قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لأنّ المؤكدة. وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معًا. والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة: مبهمًا أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته/ ٢/ ١٨٩أ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ

---

(١) أعداء من لليعملات على الوجى   وأضياف بيت بيتوا لنزول
أعداء ما للعيش بعدك لذة   ولا لخليل بهجة بخليل
أعداء ما وجدي عليك بهين   ولا الصبر إن أعطيته بجميل

لعتبة بن مالك العقيلي، يرثي عداء صاحبه. والهمزة للنداء. وعداء ـ كفعال ـ: على صيغة المبالغة، أي: يا من كان معدًا لإغاثة المطايا الكثيرات العمل، والسفر مع الوجاء وهو الحفاء في أخفافها من كثرة السير، واليعملات: جمع يعملة، والبعير يعمل، ومن كان معدًا لأضياف بيته الذين يبيتون للنزول والاستراحة عنده. والعيش: الحياة، أو ما يعاش به. والبهجة: السرور. والوجد: الحزن. وإن أعطيته: اعتراض، دل على أنه لم يصبر. ونفى جمال الصبر مبالغة في عظم عداء عنده وحبه إياه، وكرر النداء لإظهار التفجع.

(٢) الرذايا جمع رذية وهي الناقة المهزولة الضعيفة. ومحنته: بلوته. ويقال: محنت ناقتي أجهدتها في السير. ومحنت الجلد: مددته ووسعته. والآطال: جمع أطل وهو الخاصرة، كأسباب وسبب. يقول: أتت المطايا مهازيل ظاهرًا ملالها وتعبها من السير، قد أجهدت تلك النوق بالسير. أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى: أوصالها، أي: أعضاؤها.

والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام[(١)]. ومن لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. فإن قلت: فرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه. قلت: الفرق بينهما أنّ المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني: لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية. ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد، والذي يقول: ناداني فلان من وراء الدار. لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقًا بغير تعيين واختصاص، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ[(٢)] والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض، من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فعلة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة، وجمعها: الحجرات ـ بضمتين، «والحجرات» بفتح الجيم، والحجرات بتسكينها. وقرئ بهنّ جميعًا، والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته. والفعل وإن كان مسندًا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعًا، فقد ذكر الأصم: أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون: يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة. ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدًا إلى نفي أن يكون فيهم من

---

(١) قال محمود: «الوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام... الخ» قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بني تميم بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: هم حفاة بني تميم، وعلى الجملة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة؛ لأن واحدًا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء. فقد ورد أن المنادي له عليه السلام: هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه الكتب الصحاح.

(٢) قوله: «أنهم نادوه من البر والخارج» الظاهر أن تفسيره ما بعده. وفي الصحاح «في مادة برر» أن البرية هي الصحراء. وفي مادة ضمن: في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه: «إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» ما نصه: فالضاحية: هي الظاهرة التي في البر من النخل، والضامنة: ما تضمنها أمصارهم وقراهم. (ع)

يعقل، فإنَّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروي: أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، فجعلوا ينادونه: محمد اخرج إلينا، فاستيقظ فخرج (١٤٦٧) ونزلت: وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم، لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم» (١٤٦٨) فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر: من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله: منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل، لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته. ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهوينا للخطب على رسول الله ﷺ، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم، وهلم جرا، من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية، فتأمّل كيف ابتدىء بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر. كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم

١٤٦٧ ـ أخرجه الواحدي في: أسباب النزول (ص ٤٠٤) من طريق عمر بن الحكم عن جابر بن عبد الله به. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف.
أخرجه ابن إسحق في السيرة قال: «قدمت وفود العرب على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر القصة قال: ولما قدم وفد بني تميم دخلوا المسجد. فنادوا رسول الله ـ ﷺ ـ من وراء الحجرات: يا محمد، اخرج إلينا ـ فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «لما قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً ـ فذكره مطولاً، وأخرجه ابن منده في المعرفة. وأورده الثعلبي من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن شمر بن الحكم عن جابر قال: «جاءت بنو تميم فدخلوا المسجد فنادوا رسول الله ـ ﷺ ـ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ ـ من صياحهم. فذكره مطولاً. انتهى.

١٤٦٨ ـ أخرجه الثعلبي كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣١) أنبأ أبو القاسم الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف ثنا أحمد بن عيسى بن السكين البلدي ثنا هاشم بن القاسم الحراني ثنا يعلى ابن الأشدق ثنا سعيد بن عبد الله أن النبي ـ ﷺ ـ سئل عن قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) من هم؟ قال: «هم جفاة بني تميم...» إلى آخره.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية هاشم بن القاسم الحراني عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعيد بن عبد الله: أن النبي ـ ﷺ فذكره: ولمسلم من حديث أبي هريرة: «لا أزال أحب بني تميم لثلاث» ـ فذكر فيه: «وهم أشد أمتي على الدجال». انتهى.

وهجنته أتم: من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه؛ لأنّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين[(1)] والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا؛ ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبي عبيد ـ ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أنه قال: ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية؛ لأنّ المعنى: ولو ثبت صبرهم. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا، محذوف منه المفعول، وهو النفس، وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس، فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل: صبر. وفي كلام بعضهم: الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ. فإن قلت: هل/ ١٨٩/٢ب من فرق بين ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ﴾ وإلى أن تخرج؟ قلت: إنّ «حتى» مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها، أو صدرها: لم يجز، و«إلى» عامّة في كل غاية، فقد أفادت «حتى» بوضعها: أنّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه. فإن قلت: فأي فائدة في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾؟ قلت: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في (كان) إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو، وإما ضمير مصدر ﴿صَبَرُوا﴾، كقولهم: من كذب كان شرّا له ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمّه ـ وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعًا، ثم قال: هل أزيدكم، فعزله عثمان عنهم (١٤٦٩) ـ مصدّقًا إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم

١٤٦٩ ـ أخرجه مسلم (٣/ ١٣٣١ ـ ١٣٣٢) كتاب الحدود باب حد الخمر حديث (٣٨/ ١٧٠٧) عن =

---

(١) قوله: «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

إحنة، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم. فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم فقال: «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه (١٤٧٠). وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهجدين، فسلموا إليه الصدقات (١٤٧١)، فرجع. وفي تنكير الفاسق والنبأ: شياع في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ[1]. فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان

= حصين بن المنذر قال: شهدت عثمان بن عفان أتى الوليد بن عقبة، وقد صلى الغداة بالكوفة ركعتين. . . الحديث.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٤): هكذا في مسلم: وقد صلى الغداة ركعتين ورواه البيهقي في «دلائل النبوة والنسائي في سننه الكبرى، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وقالوا فيه، وقد صلى الغداة أربعًا. فلينظر. وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه مسلم من طريق أبي سليمان حصين بن منذر قال: شهدت عثمان أخا الوليد بن عقبة وقد صلى الغداة بالكوفة أربعًا. . . الحديث بطوله» وأخرجه ابن إسحاق والنسائي من هذا الوجه وقالوا فيه: وقد صلى الغداة أربعًا». انتهى.

١٤٧٠ ـ أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٤٠١) رقم (٩٦٠)، وإسحاق بن راهويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٢) من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٤): وفيه موسى بن عبيد الربذي وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث الحارث بن ضرار.

أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٧٤)، والواحدي في أسباب النزول (٧٦٠) من طريق محمد بن سابق ثنا عيسى بن دينار عن الحارث به وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٢) وقال: رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن منده وابن مردويه وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه إسحاق والطبراني من حديث أم سلمة. دون قوله: «فاتهمهم، فقال: لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم إلخ» وعندهما بدل ذلك: «فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية» وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضًا من حديث الحارث بن دثار الخزاعي، أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ الوليد بن عقبة فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام: لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً ـ فذكره. انتهى.

١٤٧١ ـ قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: لم أره. انتهى.

---

(١) قال محمود: «نكر فاسقًا ونبأ لقصد الشياع، فكأنه قيل: أيّ فاسق جاء بأي نبأ» قال أحمد: تسامح بلفظ الشياع والمراد الشمول؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق =

الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: قفست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضًا: قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبًا له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة [من الرجز]:

فَـــوَاسِـــقًـــا عَـــنْ قَـــصْـــدِهَـــا جَـــوَائِـــرَا[(١)]

وقرأ ابن مسعود: «فتثبتوا» والتثبت والتبين: متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف، ولما كان رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ مفعول له، أي: كراهة إصابتكم ﴿قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ حال، كقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥] يعني جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح: بمعنى الصيرورة. والندم: ضرب من الغم، وهو: أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام: وهو لزام الشريب ودوام صحبته. ومن مقلوباته: أدمن الأمر أدامه. ومدن بالمكان: أقام به. ومنه: المدينة وقد تراهم يجعلون الهم صاحبًا ونجيًا وسميرًا وضجيعًا، وموصوفًا بأنه لا يفارق صاحبه. الجملة المصدّرة بلولا تكون كلامًا مستأنفًا، لأدائه إلى تنافر النظم[(٢)]، ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع، أو البارز المجرور. وكلاهما مذهب سديد. والمعنى: أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها. أو أنتم على

= النفي، والله أعلم.

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «الجملة المصدرة بلولا تكون مستأنفة؛ لأدائه إلى تنافر للنظم... الخ» قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة: ثلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه: ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضًا عن سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضممت هذه النبذة التي ذكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده: تبين لك من حاله ـ أعني الزمخشري ـ ما لا أطيق التصريح به؛ لأنه لم يصرح، وإنما سلكنا معه سبيل الإنصاف ومحجة الانتصاف: نص بنص، وتلويح بتلويح؛ فنسأل الله العظيم ـ بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين ـ أن يرضى عن أصحابه أجمعين، وعنا بهم آمين.

حالة يجب عليكم تغييرها: وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأي، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه، المحتذى على أمثلته؛ ولو فعل ذلك ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي لوقعتم في العنت والهلاك. يقال: فلان يتعنت فلانًا، أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك. وقد أعنت العظم: إذا هيض[1] بعد الجبر. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد. وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ/ ٢/ ١٩٠أ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي إلى بعضكم، ولكنه أغنت عن ذكر البعض: صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة، التي لا يفطن لها إلا الخواص. وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ، أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته. فإن قلت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلت: القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه. فإن قلت: فلم قيل ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ دون: أطاعكم؟ قلت: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كقولك: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم، تريد: أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرًا. فإن قلت: كيف موقع ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ وشريطتها مفقودة: من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا وإثباتًا؟ قلت: هي مفقودة من حيث اللفظ، حاصلة من حيث المعنى؛ لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم، فوقعت، لكنّ في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق[2]، وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه

---

(١) قوله: «إذا هيض بعد الجبر» في الصحاح: هاض العظم يهيضه هيضًا: كسره بعد الجبر. وفيه أيضًا: جبرت العظم جبرًا، وجبر العظم بنفسه جبورًا، أي: انجبر. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق... الخ» قال أحمد: تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق، وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر، اغترارًا بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكمًا، وتغلغل باتباع هوى معجمًا، فجره ذلك بل جرأه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته. وجعله مجازًا؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافًا إلى الله تعالى، والعبد إذًا ممدوح بما ليس من فعله. وهذا عنده محال، فأتبع الآية رأيه الفاسد؛ فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية، والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل =

أن الرجل لا يمدح بغير فعله؛ وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثني عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإن قلت: فإنّ العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه، وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود. قلت: الذي سوّغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء[١] ووسامة المنظر في الغالب، يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة، ومن ثم قالوا: أحسن ما في الدميم وجهه[٢]، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته، ولكن لدلالته على غيره، على أن من محققة الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به، وقصر المدح على النعت بأمّهات الخير: وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة، وما يتشعب منها ويرجع إليها، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطًا ومخالفة عن المعقول. و﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود. ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر. ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي: العانذ[٣]. واعتصت النواة: اشتدّت. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة؛ وأنشد [من الوافر]:

وَغَـيْـرُ مُـقَـلَّـدٍ وَمُـوَشَّـمَـاتٍ   صَـلِـيـنَ الـضَّـوْءَ مِـنْ صُـمِّ الـرَّشَـادِ[٤]

= والنقل، فإنه يتمسك في تأويلها بالحبال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد، مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فالذي نعتقده ـ ثبتنا الله على الحق ـ أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن؛ فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً؛ فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بد أن أطارحه القول فأقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم: هل بمكتسب أم بغير مكتسب، فلا يسعه أن يقول: إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه، بل بما وهبه إياهم فاتهبوه. وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة، فقد خرج عن أهل الملة، وانحرف عن أهل القبلة، وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى.

(١) قوله: «حسن الرواء» في الصحاح: الرواء ـ بالضم ـ: المنظر. (ع)

(٢) قوله: «ما في الدميم وجهه» في الصحاح: «الدميم»: القبيح. (ع)

(٣) قوله: «والعرق العاصي: العانذ» في الصحاح: عنذ العرق: سال ولم يرقأ، فهو عرق عانذ. (ع)

(٤) الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل، وغير الأثافي المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي: التي احترقت بضوئها أي حرها. ومن صم الرشاد: بيان لها. والصم: جمع صماء، أي: صلبة. والرشاد الصخر. واحده رشادة. وقيل: يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرها أثر السير قوية، بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب.

و﴿فَضْلًا﴾ مفعول له، أو مصدر من غير فعله[1]، فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل. قلت: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه: صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى، والجملة التي هي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتراض. أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من الله. وأما كونه مصدرًا من غير فعله، فأن يوضع موضع (رشدًا)؛ لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار، فأمسك عبد الله بن أبيّ بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد

---

(١) أعرب الزمخشري فضلاً في الآية مفعولاً لأجله، منصبًا عن قوله: الراشدون... الخ» قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بينا: أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له، وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الإشكال وارد نصًا على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم. ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل؛ وسواء كان ذلك حقيقة أو مجازًا حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه ذلك في الجواب عنه طريقان: إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين: وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشدًا؛ إذ هو مطاوعه؛ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا. وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله: (يريكم البرق خوفًا وطمعًا) فإن الإشكال بعينه وارد فيها؛ إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون، والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك، والجواب عنه: أنهم مفعولون في معنى الفاعلين، بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا. وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً وعكسه آية الحجرات؛ إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية فتأمله، والله الموفق.

آذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك (١٤٧٢) وروي: حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك (١٤٧٣)؛ ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا/ ٢/ ١٩٠ب، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج، فتجالدوا بالعصي، وقيل: بالأيدي والنعال والسعف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي: الاستطالة والظلم وإباء الصلح. والفيء: الرجوع، وقد سمي به الظل والغنيمة؛ لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة: ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وعن أبي عمرو: «حتى تفي» بغير همز؛ ووجهه أنّ أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة[1] فظنه قد طرحها. فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ والقياس اقتتلتا[2]، كما قرأ ابن أبي عبلة «اقتتلا» كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله: «حتى يفيئوا إلى أمر الله» فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط. وحكم الفئة الباغية: وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل.

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

١٤٧٢ ـ قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٥): غريب من حديث ابن عباس.
وأخرجه البخاري (٥/ ٣٥١) كتاب الصلح: باب ما جاء في الإصلاح بين الناس حديث (٢٦٩١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٤) كتاب الجهاد: باب (٤٠) حديث (١١٧/ ١٧٩٩) من حديث أنس بنحو ما ذكر المصنف وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف.
لم أره عن ابن عباس، وهو في الصحيحين من حديث أنس. وفيه: «فبلغنا أنها أنزلت «وإن طائفتان من المؤمنين... الآية». دون بول الحمار. وقوله: «والله إن بول حماره لأطيب من مسكك، وليس فيه أيضًا» وأنه صلى الله عليه وسلم مضى. ثم نزلت الآية. انتهى.

١٤٧٣ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أره هكذا، وحديث أنس في الصحيحين «والله لحمار رسول الله ـ ﷺ ـ أطيب ريحًا منك.. انتهى.

---

(١) قوله: «تلك الخلسة» في الصحاح: خلست الشيء واختلسته، إذا استلبته «والاسم الخلسة ـ بالضم». (ع)

(٢) قال محمود: «لم قال: اقتتلوا عدولاً... الخ» قال أحمد: قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ «من»، بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: (اقتتلوا) ثم على اللفظ بقوله: (بينهما) فلا يعتقد أن المقول في «من» مطرد في هذا؛ لأن المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير، وههنا لا يلزم ذلك؛ إذ لا إبهام في الطائفة، بل لفظها مفرد أبدًا، ومعناها جمع أبدًا، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعًا ومرة مفردًا، فتأمله، والله الموفق.

قاله بعد أن اعتزل: فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عُمِلَ بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمّة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها» (١٤٧٤) ولا تخلوا الفئتان من المسلمين في اقتتالهما: إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا، فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي: صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما. وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها: ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله؛ فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع، فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره: وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد، والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات: ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. فإن قلت: فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأوّل؟ قلت: لأنّ المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معًا أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت، فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما: إصلاح ذات

١٤٧٤ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ١٥٥)، وابن عدى (٦/ ٢٠٩٦)، والبيهقي (٨/ ١٨٢) من طريق كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر، وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: كوثر متروك.
وقال البيهقي: تفرد به كوثر بن حكيم وهو ضعيف.
والحديث أخرجه أيضًا البزار، والحارث، والواحدي، كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٦) وقال البزار: لا نعلم رواه عن النبي ـ ﷺ ـ إلاّ ابن عمر، ولا طريق له غير هذا الطريق أ.هـ وقال في التنقيح: هذا حديث غير ثابت وقال الحافظ ابن حجر:
أخرجه الحاكم في المستدرك، والبزار، والحارث، وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع، عن نافع، عن ابن عمر. وكوثر متروك، قال فيه أحمد: أحاديثه أباطيل. انتهى.

البين، وتسكين الدهماء[1] بإراءة الحق والمواعظ الشافية، ونفي الشبهة؛ إلا إذا أصرتا، فحينئذٍ تجب المقاتلة. وأما الضمان فلا يتجه، وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط ـ بالفتح ـ: الجور من القسط: وهو اعوجاج في الرجلين[2]. وعود قاسط: يابس. وأقسطته الرياح. وأمّا القسط بمعنى العدل، فالفعل منه: أقسط، وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق: ما إن لم يفضل الأخوّة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد، لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، وأن يركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًّا للسفراء[3] بينهما، إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه، وما استشن[4] من الوصال من يبله؛ فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشدّ منه. وعن النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله/ ٢/ ١٩١أ، ولا يعيبه، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره»[5] ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل» (١٤٧٥). فإن قلت: فلم خص الاثنان

١٤٧٥ ـ أخرجه الثعلبي في «تفسيره كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٦).
وصدر الحديث في الصحيحين وقد تقدم تخريجه وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية إسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبي هريرة سواء وزاد فيه: «ولا يؤذيه بقتار قدره إلاّ أن يغرف له منها. ولا يشتري لبنيه الفاكهة، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها». قلت: وإسناده ضعيف وأول الحديث في الصحيحين من وجه آخر عن أبي هريرة: وسيأتي في آخر تفسير سورة الواقعة. انتهى.

---

(١) قوله: «الدهماء» أي: الجماعة. (ع)

(٢) قوله: «وهو اعوجاج في الرجلين» في الصحاح: القسط ـ بالتحريك ـ: انتصاب في رجلي الدابة، وذلك عيب؛ لأنه يستحب فيهما الانحناء والتوقير اهـ. (ع)

(٣) قوله: «وبثًّا السفراء بينهما... الخ» جمع سفير: وهو الرسول والمصلح بين القوم. (ع)

(٤) قوله: «استشن» في الصحاح: تشنن الجلد يبس، واستشن الرجل: هزل. (ع)

(٥) قوله: «بقتار قدره» في الصحاح: «القتار»: ريح الشواء. (ع)

بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم؛ لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج، وقرئ: «بين إخوتكم وإخوانكم» والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم، واشتمال رأفته عليكم حقيقًا بأن تعقدوا به رجاءكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾

القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وقال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم[(١)] إلا ما ذب عنه» (١٤٧٦) والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم، كصوّم وزوّر: في جمع صائم وزائر. أو تسمية بالمصدر. عن بعض العرب: إذا أكلت طعامًا أحببت نومًا وأبغضت قومًا. أي قيامًا، واختصاص القوم بالرجال: صريح في الآية وفي قول زهير [من الوافر]:

.... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ؟[(٢)]

١٤٧٦ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أره عن علي، وأخرجه ابن المبارك في البر والصلة من قول عمر بن الخطاب وكذلك رواه أبو عبيد وإبراهيم الحربي في الغريب. انتهى.

---

(١) قوله: «على وضم» الوضم: ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء؟
فإن تكن النساء مخبآت ... فحق لكل محصنة اهتداء

لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزاري. والقوم: الرجال فقط، حتى قيل: إنه جمع قائم، كصوم وزور، في صائم وزائر. وقيل: إنه في الأصل مصدر، والهمزة لطلب التعيين، ولكن الكلام من مجاهل العارف. ونساء: عطف على قوم الواقع خبرًا من آل حصن، أو خبرًا لمبتدأ محذوف، والعطف من عطف الجمل. ويجوز أن الهمزة للتسوية كالواقعة بعد سواء، كأنه قال: ما أبالي منهم، سواء أكانوا رجالاً أو نساء، فيتعين أنه من عطف الجمل لأجل التسوية، ولكن المقام يؤيد =

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث؛ لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات[1] من بعض؛ وأن تقصد إفادة الشياع، وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية، وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد[2]؛ إعلامًا بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعًا للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي[3] والإنكار، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به، فيؤدي ذلك ـ وإن أوجده واحد ـ إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقومًا. وقول تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر[4] عن العلة الموجبة لما جاء النهي[5] عنه، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله

= الأول، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملقى عند المفعول، والاعتراض أيضًا بين ما أدري وبين الاستفهام بجملة التسويف؛ لأن «أدري» طالب لمفعولين وجملة «أقوم» سادة مسدهما، وانظر كيف خطر بباله أن ينفي الدراية بحان الآل. ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدري، ثم قبل أن يكمل ذلك قال: إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن، فحكى حال النفس عند ترددها في شأنه، فلله در العرب ما ألطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال. وروي لست بدل سوف. وفيه نظر؛ واسم تكن ضمير القوم، والنساء خبرها، ومخبآت حال، أي: فإن كن محصنات فحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن، وهدى المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء، بمعنى.

ينظر: ديوانه ص ٧٣، والاشتقاق ص ٤٦، وجمهرة اللغة ص ٩٧٨، والدرر ٢/ ٢٦١، ٤/ ٢٨، ٥/ ١٢٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٠٩، وشرح شواهد المغني ص ١٣٠، ٤١٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٩، ومغني اللبيب ص ٤١، ١٣٩، ٣٩٣، ٣٩٨، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ١٥٣، ٢٤٨، ٢/ ٧٢.

(١) قال محمود: «لم يقل: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات... الخ» قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض: لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد في التنكير فائدة: أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للإشعار... الخ» قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(٣) قوله: «ولا يأتي ما عليه من النهي» أي يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهي الساخر والإنكار عليه. (ع)

(٤) قال محمود: «وقوله: «عسى أن يكونوا خيرًا منهم) جواب للمستخبر عن علة النهي... الخ» قال أحمد: وهو من الطراز الأول.

(٥) قوله: «لما جاء النهي عنه» لعل ما مصدرية، ولفظ عنه مزيد من ناسخ الأصل، أي: لمجيء النهي، =

بالفاء. والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن[1] عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب، وعلمهم من ذلك بمعزل، فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضدّ صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه: خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه (١٤٧٧). وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبًا (١٤٧٨). وفي قراءة عبد الله: «عسوا أن يكونوا» و«عسين أن يكن»، فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [محمد: ٢٢] وعلى الأولى هى التي لا خبر لها كقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢١٦]. واللمز: الطعن والضرب باللسان. وقرئ: «ولا تلمزوا» بالضم. والمعنى: وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء من عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس» (١٤٧٩) وعن الحسن رضي الله

١٤٧٧ ـ قال الحافظ: لم أره عنه وفي ابن أبي شيبة عن أبي موسى من قوله نحوه. انتهى.

١٤٧٨ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا. انتهى.

١٤٧٩ ـ أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤١٨) رقم (١٠١٠) والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٠٢) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٩٥) وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٢٠) والبيهقي في سننه (١٠/ ٢١٥) وفي شعب الإيمان. (٩٦٦٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣٨٢، ٣/ ١٨٨، ٧/ ٢٦٢) وفي «الكفاية» ص (٤٢) والسهمي في «تاريخ جرجان» (٧٥) كلهم من طريق الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعًا. قال البيهقي: وهذا يعد في أفراد الجارود وقد روىٰ عن غيره وليس بشيء ثم روى عن الحاكم بسنده إلى العلاء بن بشر ثنا سفيان بن عيينة عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال «ليس لفاسق غيبة». انتهى ثم قال: قال أبو عبد الله الحاكم: هذا غير صحيح ولا معتمد قال البيهقي: وهذا إن صح فإنما أراد به فاجرًا معلنًا بفجوره أو هو ممن يشهد في أمور الناس ويتعلق به شيء من الديانات فيحتاج إلى بيان حاله لئلا يعتمد عليه انتهى كلامه.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه أبو يعلى والترمذي الحكيم في النوادر في الثامن والستين والعقيلي وابن عدي، وابن حبان =

= وإلا: أي: وإلا يكن مستأنفًا. (ع)

(١) قوله: «وإنما الذي يزن عند الله» لعله: يزين. (ع)

عنه في ذكر الحجاج: أخرج إلي بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد يا أبا سعيد، وقال لما مات: اللّهم أنت أمته فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش[1] يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والسوط. وقيل: معناه لا يعب بعضكم بعضًا؛ لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به؛ لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة./ ٢/ ١٩١ب والتنابز بالألقاب: التداعي بها: تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون ويقال: النبز[2] والنزب: لقب السوء والتلقيب المنهي عنه، وهو ما يتداخل المدعوّ به كراهة؛ لكونه تقصيرًا به وذمًّا له وشينًا، فأما ما يحبه مما يزينه وينوّه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه» (١٤٨٠) ولهذا

= كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم. عن أبيه عن جده مرفوعًا أترعوون عن ذكر الفاجر؟ اذكره بما فيه، كي يحذره الناس، واتفقوا على أن الجارود غير ثقة، وقال الدارقطني: هو من وضع الجارود ثم سرقه منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر، وسليمان بن عيسى عن الثوري عن بهز وسليمان وعمرو كذابان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز: قال الدارقطني: وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال: «ليس للفاسق غيبة»، انتهى وهذا أورده البيهقي في الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال: قال الحاكم: هذا غير صحيح ولا معتمد. وقال ابن طاهر: روي عن معمر عن بهز أيضًا أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق. وعبد الوهاب كذاب وأخرجه الطبراني في الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره، قال: وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب ورواه يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرني منهال السراج عن عمر. انتهى.

١٤٨٠ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٣٠) رقم (٨٧٧٢) عن الحاكم بسنده إلى موسى بن عبد الملك بن عمير عن شيبة بن عثمان الحجي عن عثمان بن طلحة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» انتهى
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٤٠) إلى الطبراني في معجمه، وأبي يعلى الموصلي في مسنده من حديث ذيال بن عبيد بن حنظلة عن جده حنظلة بن جذيم المالكي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه»
وكذلك عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف٣/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) إلى ابن عدي في الكامل عن الحكم بن

---

(١) قوله: «فإنه أتانا أخيفش أعيمش» في الصحاح «الخفش»: صغر في العين، وضعف في البصر خلقة، والرجل أخفش. وفيه: العمش في العين: ضعف الرؤية مع سيلان الدمع. والرجل أعمش اهـ. وأخيفش وأعيمش تصغير: أخفش وأعمش. (ع)

(٢) قوله: «ويقال: النبز» في الصحاح «النبز» بالتحريك: اللقب؛ وبالتسكين: المصدر. (ع)

كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصدّيق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقلَّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روي عن الضحاك أن قومًا من بني تميم استهزءوا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذرّ وسالم مولى حذيفة. فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أمّ سلمة ربطت حقويها بسبيبة[1] وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه، فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أمّ سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حييّ أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد» (١٤٨١)، وروي: أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر،

= عبد الله بن سعد الأيلي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مكروه أن يدعو أحدكم أخاه يا هناه ويا هذا، ولكن ليدع أحدكم أخاه بأحب أسمائه إليه» انتهى.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:
لم أجده هكذا. وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين عن عثمان بن طلحة الحجي رفعه قال: «ثلاث مصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف، وروى أبو يعلى والطبراني من حديث ذيال بن عبيد بن حنظلة حدثني جدي حنظلة بن جذيم قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه». انتهى

١٤٨١ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٩) كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حديث (٣٨٩٤)، وأحمد (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٩١ ـ ٢٩٢): كتاب عشرة النساء: باب الافتخار، حديث (٨٩١٩)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤) رقم (٧٢١١)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٥٨) رقم (٣٤٣٧)، وعبدالرزاق (١١/ ٤٣٠) رقم (٢٠٩٢١).
كلهم من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. غريب من هذا الوجه. أ. هـ.
وله طريق آخر:
أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٨): كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حديث (٣٨٩٢) وقال: وهذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي وليس =

---

(١) قوله: «حقويها بسبيبة» في الصحاح «السب»: شقة كتان: والسبيبة: مثله. (ع)

وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع؛ فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لي، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال لرجل: تنح، فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد: أمًّا كان يعير بها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت، فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدًا (١٤٨٢) ﴿ٱلِاسۡمُ﴾ هٰهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته. وحقيقته: ما سما من ذكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره؛ كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين[1] بسبب ارتكاب هذه الجرائر[2] أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: ﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة[3] والثاني: أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق،

= بإسناده بذلك القوي.

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن عكرمة، عن ابن عباس بغير إسناد، وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي: حدثنا كنانة حدثتنا صفية بنت حيي قالت: «دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام. فذكرت ذلك له فقال: ألا قلت: وكيف تكونا خيرًا مني وزوجي محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي هارون وعمي موسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وكان الذي بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها وخير منها نحن وأزواجه وبنات عمه» وقال: غريب ـ وليس إسناده بذاك. وروى الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني من رواية معمر عن ثابت عن أنس قال: «بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت» فذكر معناه. انتهى

١٤٨٢ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٤٢): غريب، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص/٤٠٩)، رقم (٧٦٢) وكذلك البغوي في تفسيره (٤/ ٢١٤)؛ كلاهما من رواية ابن عباس. قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

---

(١) قال محمود: «الاسم ههنا الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم. كأنه قال: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين... الخ» قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملاءمة لقاعدة أهل السنة وأولاها: هو أولها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق، وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى. ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك: انحرافًا إلى قاعدة: يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن، تحومًا على أن الاسم التسمية، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى. وأما الوجه الثاني، فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحًا. وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلمها، ولله الحمد.

(٢) قوله: «هذه الجرائر» جمع جريرة، وهي الجناية. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «بعد الكبرة الصبوة» الكبرة ـ بالفتح ـ: اسم للكبر في السن. والصبوة: الميل إلى الجهل =

فنهوا عنه، وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز. والثالث: أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقال: جنبه الشر إذا أبعده عنه، وحقيقته: جعله منه في جانب، فيعدى إلى مفعولين. قال الله عز وجل: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولاً. والمأمور باجتنابه هو بعض الظن، وذلك البعض موصوف بالكثرة: ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾؟ فإن قلت: بَيِّن الفصل بيْنَ ﴿كَثِيرًا﴾، حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة. قلت: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين؛ لئلا يجترىء أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة، مع استشعار للتقوى والحذر، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطًا بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبًا، وما اتصف منه بالقلة مرخصًا في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها: أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر: كان حرامًا واجب الاجتناب؛ وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء» (١٤٨٣) وعن الحسن/٢/١٩٢أ: كنا في زمان: الظنُّ بالناس

١٤٨٣ ـ الحديث ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعًا:
أخرجه البخاري (١٢/١٠٦)، كتاب الأدب، باب: «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن. . .» الآية، حديث (٦٠٦٦) ومسلم (٨/٣٦١)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس. . .، حديث (٢٨) ـ (٢٥٦٣). وزاد مسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، مختصر.
ـ والبيهقي في الشعب (٧/٥٠٧ ـ ٥٠٨)، باب: السابع والسبعون من شعب الإيمان، باب: في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، حديث (١١١٥١).

=

= والفتوة. أفاده الصحاح. (ع)

حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت، وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه: إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له (١٤٨٤). والإثم: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه: كالنكال والعذاب والوبال، قال [من الطويل]:

لَقَدْ فَعَلَتْ هٰذِي النَّوَى بِيَ فَعْلَةً أَصَابَ النَّوَى قَبْلَ المَمَاتِ أَثَامُهَا[1]

= ابن ماجه (٢/١٢٩٧)، كتاب الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله، حديث (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمدٍ بيده! لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك. ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرًا.

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجه. من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين، ولفظه «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة، وهو يقول: ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمدٍ بيده لحرمة دم المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرًا» وروى ابن أبي شيبة من طريق مجالد عن الشعبي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال «ما أعظمك. . .» وروى البيهقي في الشعب من طريق مجاهد عن عباس نحوه. وفيه حفص بن عبدالرحمن.

١٤٨٤ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (٧/١٠٨ ـ ١٠٩)، في الباب التاسع والستين، باب: في الستر على أصحاب القروف، حديث (٩٦٦٤).

ـ والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٥٦)، حديث (٢٩٦).

ـ والبيهقي (١٠/ ٢١٠)، كتاب الشهادات، باب: «الرجل من أهل. . .» ـ والخطيب في التاريخ (٨/ ٤٣٨) و(٤/ ١٧١).

ـ وابن عدي في الكامل (١/ ٣٧٧). كلهم من طريق أبي سعد الساعدي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأبو سعد قال الدارقطني في سؤالات البرقاني (ص ٧٧): مجهول يترك حديثه.

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري في الشعب في التاسع والستين والقضاعي في مسند الشهاب من طريق رواد بن الجراح عن أبي سعد الساعدي عن أنس وإسناده ضعيف. وأخرجه ابن عدي من رواية الربيع بن بدر عن أبان عن أنس. وإسناده أضعف من الأول.

ـ قال ابن حبان في الضعفاء: أبو سعد شيخ يروي عن أنس بن مالك المناكير، التي لا يشاركه فيها أحد، لا يجوز الاحتجاج به بحال. انتهى

---

(١) النوى: نية المسافر من قرب أو بعد، فهي مؤنثة، وتستعمل اسم جمع نية، فيذكر: أي لقد فعلت في هذه النية فعلة مسيئة، فيّ بمعنى في، ثم دعا عليها بقوله: أصاب النوى التي أذتني أثامها، أي: جزاء تلك الفعلة. أو جزاء النوى التي تستحقه. وقد يسمى الذنب إثمًا وأثامًا، من إطلاق المسبب على السبب، وقال قبل الممات، أي: قبل موته ليتشفى فيها، فكأنه شبهها بعدو، ثم دعا عليها. ينظر: أساس البلاغة (أثم).

والهمزة فيه عن الواو، كأنه يثم الأعمال: أي يكسرها بإحباطه. وقرئ: «ولا تحسسوا» بالحاء، والمعنيان متقاربان. يقال: تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه: تفعل من الجس، كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس؛ لما في اللمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن: ٨] والتحسس: التعرّف من الحس، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد. خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ: أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهنّ. وقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين: فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته» (١٤٨٥).

١٤٨٥ ـ ورد من حديث ابن عمر، ومن حديث أبي برزة، ومن حديث البراء بن عازب، ومن حديث ثوبان، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث بريدة.
ـ أما حديث ابن عمر: فرواه الترمذي (٣٧٨/٤)، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن، حديث (٢٠٣٢).
ـ وابن حبان (١٣/ ٧٥ ـ ٧٦)، كتاب الحظر والإباحة، باب: الغيبة، حديث (٥٧٦٣).
ـ وأما حديث أبي برزة: فأخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٠)، كتاب الأدب: باب: في الغيبة، حديث (٤٨٨٠).
ـ وأحمد (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ و٤٢٤).
ـ وابن أبي الدنيا في الصمت (١٩٧).
ـ والبيهقي (١٠/ ٢٤٧)، كتاب الشهادات، باب: «من عضه غيره. . .».
ـ وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٤١٩)، حديث (٤) ـ (٧٤٢٣).
وأما حديث البراء بن عازب: فأخرجه أبو يعلى (٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨) حديث (٢٢) ـ (١٦٧٥).
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٤٥) لابن مردويه في تفسيره.
ـ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٦) وقال: ورجاله ثقات.
وأما حديث ثوبان: فأخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩)، ولفظه «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم؛ طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته». انتهى
وأما حديث ابن عباس: فأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٦)، حديث (١١٤٤٤).
ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٤٦) لابن عدي في الكامل، وأعله بقدامة.
وأما حديث بريدة: فعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٤٦) لابن مردويه في تفسيره.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:
أخرجه الطبراني والعقيلي. وابن عدي من رواية قدامة بن محمد الأشجعي عن إسماعيل بن شبيب الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا؛ وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي، وابن حبان في صحيحه ولفظه «صعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبر فنادى بصوت رفيع: قال يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه. ولو في =

وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمرًا؟ فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به (١٤٨٥ مكرر). غابه واغتابه: كغاله واغتاله. والغيبة من الاغتياب، كالغيلة من الاغتيال[1]: وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره. فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» (١٤٨٦) وعن ابن

= جوف رحله» وعن أبي بردة عند أبي داود وأحمد والطبراني وأبي يعلى وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى، والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق عن البراء. وعن ثوبان عند أحمد بلفظ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته» وعن بريدة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه «صلينا الظهر خلف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما انفتل أقبل علينا غضبان، فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور» فذكر نحوه. انتهى

١٤٨٥ ـ أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٧٢): كتاب الأدب باب في النهي عن التجسس، حديث (٤٨٩٠). وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ٢٣٢): كتاب اللقطة، باب: التجسس، حديث (١٨٩٤٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٣٣٤): كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في النهي عن التجسس وفي الشعب (٦/ ٩٩): باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث (٧٦٠٤).
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة وعبدالرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال أتى ابن مسعود قيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا لفظ أبي داود والباقين نحوه ورواه الحاكم والبزار من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن التجسس» قال البزار تفرد به أسباط وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة والترمذي عن البخاري: أخطأ فيه أسباط والصحيح من رواية أبي معاوية وغيره عن الأعمش أن الله نهانا.

١٤٨٦ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، حديث (٧٠) ـ (٢٥٨٩).
ـ الترمذي (٤/ ٣٢٩)، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الغيبة، حديث (١٩٣٤).
ـ وأبو داود (٤/ ٢٦٩)، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة، حديث (٤٨٧٤).
ـ وأحمد (٢/ ٢٣٠، ٤٥٨).
ـ والبيهقي (١٠/ ٢٤٧)، كتاب: الشهادات، باب: من عضه غيره.
ـ والبغوي في شرح السنة (٦/ ٥١٧)، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة، حديث (٣٤٥٤).
ـ والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٥) كلهم من رواية أبي هريرة.
ـ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن أبي برزة وابن عمر وعبدالله بن عمرو.
وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى

---

(١) قوله: «كالغيلة من الاغتيال» كذا في الصحاح. وفيه يقال: قتله غيلة، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه. (ع)

عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدًا من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخًا. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتًا. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب ﴿مَيْتًا﴾ على الحال من اللحم. ويجوز أن ينتصب عن الأخ. وقرئ: «ميّتا»، ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحدًا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه، عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ معناه: فقد كرهتموه واستقرّ ذلك. وفيه معنى الشرط، أي: إن صحّ هذا فكرهتموه، وهي الفاء الفصيحة، أي: فتحققت ـ بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره؛ لإباء البشرية عليكم أن تجحدوا ـ كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أيضًا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقرئ: «فكرهتموه» أي: جبلتم على كراهته. فإن قلت: هلا عدّى بإلى كما عدّى في قوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وأيهما القياس؟ قلت: القياس تعدّيه بنفسه؛ لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه، تقول: كرهت الشيء، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول. وأما تعدّيه بإلى، فتأوّل وإجراء لكره مجرى بغض؛ لأنّ «بغض» منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه، كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوًا عنه بالتوبة. أو لأنه بليغ في قبول التوبة، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط، لسعة كرمه. والمعنى: واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وعن ابن عباس: أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يومًا، فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إدامًا، وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء، فأخبرهما سلمان بذلك، فعند ذلك قالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما، فقالا: ما تناولنا لحمًا فقال: إنكما قد اغتبتما (١٤٨٧) فنزلت.

١٤٨٧ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف: (٣/٣٤٨ ـ ٣٤٩): غريب، وعزاه لأبي القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب، وللثعلبي في تفسيره.

ـ قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راوٍ. وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلة نحوه. انتهى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدم وحوّاء. وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأمّ، فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلى به/ ٢/ ١٩٢ب الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل: خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب؛ لأنّ القبائل تشعبت منها. وقرئ: «لتتعارفوا» ولتعارفوا بالإدغام. ولتعرفوا، أي لتعلموا كيف تتناسبون. ولتتعرفوا. والمعنى: أن الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض. فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وقرئ: «أنّ» بالفتح، كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم. وعن النبي ﷺ: أنه طاف يوم فتح مكة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقيّ هين على الله» (١٤٨٨) ثم قرأ الآية. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق

١٤٨٨ ـ ورد من حديث ابن عمر ومن حديث أبي هريرة.

فأما حديث ابن عمر: فأخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٩)، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات، حديث (٣٢٧٠).

ـ والبغوي (٦/ ٥٠٦)، كتاب: البر والصلة، باب: الافتخار بالنسب، حديث (٣٤٣٨).

ـ وأبو داود مختصرًا (٢/ ١٧٦)، كتاب: المناسك، باب: الطواف الواجب، حديث (١٨٧٦).

ـ وأبو يعلى مختصرًا (١٠/ ١٣٤)، حديث (٣٤٧) ـ (٥٧٦١).

ـ وعبد بن حميد في مسنده (ص/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، حديث (٧٩٥).

ـ وذكره الحافظ في المطالب العالية (١/ ٣٣٤) برقم (١١٢٧) مختصرًا. وكذلك الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٤٦).

ـ قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبدالله بن دينار إلا من هذا الوجه، وعبدالله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره، وهو والد علي بن المديني، وفي الباب =

---

(١) قوله: «عبية الجاهلية» في الصحاح: رجل فيه عبية، أي: كبر وتجبر. وعبية الجاهلية: نخوتها. (ع)

الله» (١٤٨٩). وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغني، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فاشتراه رجل فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة، ففقده يومًا فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به، فجاءه وهو في ذمائه[1]. فتولى غسله ودفنه، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر

= عن أبي هريرة، وابن عباس. انتهى.

قال الهيثمي: رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف وقد وثق فيما رواه عن غير عبدالله بن دينار وهذا منها.

وأما حديث أبي هريرة: فأخرجه أبو داود (٤/ ٣٣١)، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، حديث (٥١١٦).

ـ وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) لابن المبارك في كتاب البر والصلة، ولابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ في الكشاف: أخرجه الترمذي وابن حبان، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم من رواية ابن دينار عن ابن عمر، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد، والبزار، وابن المبارك في البر والصلة من رواية سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عنه نحوه، ومنهم من قال عن سعيد عن أبي هريرة: وعن عبدالملك بن قدامة الحاطبي، حدثني أبي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام فتح مكة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أيها الناس، فذكر نحوه وأخرجه. انتهى

١٤٨٩ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٢٧٠)، كتاب: الأدب، باب: لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل.

ـ والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠)، رقم (١٩٤٦)، وأعله بهشام بن زياد، وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت. انتهى

ـ وابن حبان في المجروحين (٣/ ٨٨) مختصرًا، وقال: هشام بن زياد أبو المقدام: كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها، لا يجوز الاحتجاج به. جميعهم من طريق محمد بن كعب القرضي عن ابن عباس.

ـ وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٢) لاسحاق بن راهويه في مسنده، ولابن عدي وللبيهقي في الزهد.

قال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبدالله والطبراني وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق هشام بن زياد أبي المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأتم منه. قال البيهقي في الزهد: تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث، وأنه كان يقول: حدثني عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد، ثم أخرجه البيهقي من طريق عبد الجبار بن محمد العطاردي والد أحمد بن عبدالرحمن الطيبي بن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه. انتهى

---

(١) قوله: «وهو في ذمائه» في الصحاح «الذماء»: ممدود بقية الروح في المذبوح. (ع)

عظيم، فنزلت (١٤٩٠).

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

الإيمان: هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس. والإسلام: الدخول في السلم. والخروج من أن يكون حربًا للمؤمنين بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا، ولكن قولوا أسلمنا. أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً، ودفع ما انتحلوه[1]، فقيل: قل لم تؤمنوا. وروعي هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه، فلم يقل: كذبتم، ووضع ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ **[الحجرات: ١٥]** تعريضًا بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح، واستغنى بالجملة التي هي لم: ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم، ليكون خارجًا مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به. فإن قلت: قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة. قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ هو تكذيب

١٤٩٠ ـ ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٥٣) وعزاه للثعلبي.
وقال الحافظ ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند. انتهى

---

(١) قال محمود: «وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً... الخ» قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم الحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة، لا أنهم كذبوا في أن رسول الله ﷺ رسول من الله وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

دعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم ﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾ وما في (لما) من معنى التوقع: دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: ألته السلطان حقه أشدّ الألت، وهي لغة غطفان. ولغة أسد وأهل الحجاز: لاته ليتا. وحكى الأصمعي عن أمّ هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات، ولا تصمه الأصوات[1]. وقرئ باللغتين «لا يلتكم» ولا يألتكم. ونحوه في المعنى ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ومعنى طاعة الله ورسوله/ ٢/١٩٣أ: أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم، ووهب لهم مغفرته. وأنعم عليهم بجزيل ثوابه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ نفرًا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة، فأظهروا الشهادة، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه، فنزلت.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

ارتاب: مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه. فإن قلت: ما معنى ثم هٰهنا وهي للتراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنًا للإيمان لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين، أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرًا غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكبًا رأسه لا يطلب له مخرجًا، فوصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان، تنبيهًا على مكانه؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة

---

(١) قوله: «ولا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى: لا تصدعه الأصوات ولا تعيبه، وإن كان من الصمم فالمعنى: لا تجد أصم. وفي الصحاح «الوصم»: الصدع والعيب. وفيه «أصممته»: وجدته أصم. (ع)

المتراخية المتطاولة غضًا جديدًا. ﴿وَجَـٰهَدُوا۟﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويًا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى. وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال: نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد، أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يقال: ما علمت بقدومك، أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وفيه تجهيل لهم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقال: منّ عليه بيد أسداها إليه، كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة: النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه[1]؛ واشتقاقها من المنّ الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال: منّ عليه صنعه، إذا اعتده عليه منة وإنعامًا. وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلامًا، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانًا؛ فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرًا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام. فقل لهم: لا تعتدّوا على إسلامكم، أي حدثكم المسمى إسلامًا عندي لا إيمانًا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف: ما لا يخفى على المتأمل، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم

---

(١) قوله: «من يزلها إليه» في الصحاح: أزللت إليه نعمته، أي: أسديتها إليه. وفي الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزللت شيئًا من حقه، أي: أعطيت اهـ. (ع)

الإيمان، فللّه المنة عليكم. وقرئ: «إن هداكم» بكسر الهمزة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم. وقرئ: «تعلمون» بالتاء والياء، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم، يعني أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم، وذلك أنّ حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله ومن عصاه» (١٤٩١). /٢/ ١٩٣ب.

١٤٩١ ـ تقدم رقم (٣٤٦)

وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب به. انتهى

سورة قٓ

مكية [إلا آية ٣٨ فمدنية]
وآياتها ٤٥ نزلت بعد [المرسلات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾

الكلام في ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ نحوه في ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ١ ـ ٢] سواء بسواء، لالتقائهما في أسلوب واحد. والمجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علمًا بمعانيه وعمل بما فيه: مجد عند الله وعند الناس، وهو بسبب من الله المجيد، فجاز اتصافه بصفته. قوله بل عجبوا: ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحًا لقومه مترفرفًا[١] عليهم، خائفًا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه، وإذا علم أنّ مخوفًا أظلهم، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السمٰوات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه، وإقرارهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء. ثم عوّل على أحد الإنكارين بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ أَءِذَا مِتۡنَا﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. وهذا إشارة إلى الرجع؛ وإذا منصوب بمضمر؛ معناه: أحين نموت ونبلى نرجع؟ ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) قوله: «مترفرفًا عليهم» في الصحاح: فلان يرفنا، أي: يحوطنا. ورفرف الطائر: إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. ورف لونه بالفاء رفًا ورفيفًا: برق وتلألأ. وثوب رفيف وشجر رفيف: إذا تدانت أوراقه. وفيه أيضًا: ترقرق الشيء بالقاف: تلألأ. (ع)

﴿رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾ مستبعد مستنكر، كقولك: هذا قول بعيد. وقد أبعد فلان في قوله. ومعناه: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع. وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعادًا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث، والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ: «إذا متنا» على لفظ الخبر، ومعناه: إذا متنا بعد أن نرجع، والدّال عليه ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾. فإن قلت: فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع؟ قلت: ما دلّ عليه المنذر من المنذر به، وهو البعث.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادرًا على رجعهم أحياء كما كانوا. عن النبّي ﷺ: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب» (١٤٩٢)، وعن السدي: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيدفن في الأرض منهم ﴿كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير، وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم؛ وهو التكذيب بالحق(١) الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير

١٤٩٢ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٥١٥)، كتاب: التفسير، باب: ٤ الحديث (٤٨١٤)، ورواه في (٩/ ٦٩٩) في التفسير الحديث (٤٩٣٥) ومسلم (٩/ ٣١٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين الحديث (٢٩٥٥)، وأبو داود (٢/ ٦٤٩) كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور الحديث (٤٧٤٣)، والنسائي (٤/ ١١١ ـ ١١٢) كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥) كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى الحديث (٤٢٦٦). ومالك في الموطأ (١/ ٢٣٩) كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٢، ٤٢٨، ٤٩٩، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٠٧، ٤٠٨) رقم (٣١٣٨، ٣١٣٩)، وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٩) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٠٩) رقم (٣١٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢٣) رقم (١٣٨٢)، وأحمد (٣/ ٢٨) كلهم من طريق أبي سعيد قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشأ».
وقد ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٦) وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.. ا. هـ.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبي سعيد، وزاد «قالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: هو مثل حبة الخردل، منه ينبتون». انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: وقال الشيخ: وكان هذا الإضراب الثاني. بدلاً من الأول. قلت: وإطلاق هذا =

تفكر ولا تدبر ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه وجرج؛ فيقولون تارة: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد: وقرئ: «لما جاءهم» بكسر اللام وما المصدرية، واللام هي التي في قولهم لخمس خلون، أي: عند مجيئه إياهم، وقيل: ﴿الحَقِّ﴾: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ رفعناها بغير عمد ﴿مِن فُرُوجٍ﴾ من فتوق: يعني أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾

﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ دحوناها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت لولا هي لتكفأت ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ يبتهج به لحسنه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ لتبصر به وتذكر كل ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه، مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: «تبصرة وذكرى» بالرفع، أي: خلقها تبصرة.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير المنافع ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ وحبّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالاً في السماء: وفي قراءة رسول الله ﷺ: باصقات، بإبدال السين صادًا لأجل القاف ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض: إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه؛ أو كثرة ما فيه من الثمر ﴿رِّزْقًا﴾ على أنبتناها رزقًا، لأنّ الإنبات في معنى الرزق. أو على أنه مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة/ ٢/ ١٩٤أ، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ

= في كتاب الله لا يجوز البتة، وقيل: قبل هذه الآية جملة مضروب عنها. تقديرها: ما أجادوا النظر بأن كذبوا، وما قاله الزمخشري أحسن. انتهى. الدر المصون.

﴿ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى: ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيهِمۡ﴾ [يونس: ٨٣] لأنّ المعطوف عليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات ﴿كُلّٞ﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم، إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجب وحلّ وعيدي، وهو كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

عيى بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة للإنكار. والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأوّل، حتى نعجز عن الثاني، ثم قال: هم لا ينكرون[١] قدرتنا على الخلق الأوّل، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ أي في خلط وشبهة. قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول علي رضي الله عنه: يا حار[٢]، إنه لملبوس عليك، اعرف الحق تعرف أهله. ولبس الشيطان عليهم: تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة، فتركوا لذلك القياس الصحيح: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر. فإن قلت: لم نكر الخلق الجديد[٣]، وهلا عرّف كما

(١) قوله: «ثم قال هم لا ينكرون» يعني كأنه قال ذلك بمعونة الإضراب. وقوله: «في طيه... إلخ» أي يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس. (ع)

(٢) قوله: «يا حار إنه لملبوس» لعله ترخيم حارث. (ع)

(٣) وقع في النسخة ما أحكيه وصورته: «فإن قلت لم نكر الخلق الجديد... الخ» قال أحمد: هذا كلام كما تراه غير منتظم، والظاهر أنه لفساد في النسخة، والذي يتحرر في الآية ـ وهو مقتضى تفسير الزمخشري: أن فيها أسئلة ثلاثة: لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه، ومنه تعريف الذكور في قوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول؛ لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى أي إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته، فالخلق الآخر أولى أن لا يعبأ به؛ فهذا سر تعريف الخلق الأول. وأما التنكير فأمره منقسم: فمرة يقصد به تضخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة؛ ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه، وعلى الأول (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله: (لهم مغفرة وأجر عظيم) و(إن المتقين في جنات ونعيم) وقوله: (بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وهو أكثر من أن يحصى. والثاني: هو الأصل في التنكير، فلا يحتاج إلى تمثيله، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم، كأنه قال: في لبس أيّ لبس: وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول، ويحتمل أن يكون للتفخيم، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبسًا عليه، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة، فإن يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك، وإلا فالعق العسل ولا تسل.

عرّف الخلق الأول؟ قلت: قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد. حق من سمع به أن يهتمّ به ويخاف، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

الوسوسة: الصوت الخفيّ. ومنها: وسواس الحلي. ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك: صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان، أي: ما تجعله موسوسًا، وما مصدرية، لأنهم يقولون: حدّث نفسه بكذا، كما يقولون: حدثته به نفسه. قال [من الرمل]:

وَٱكْـذِبِ الـنَّـفْـسَ إِذَا حَـدَّثْـتَـهَـا ....(١)

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ مجاز، والمراد: قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقًا لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكأنه ذاته قريبة منه، كما يقال: الله في كل مكان، وقد جلّ عن الأمكنة. وحبل الوريد: مثل في فرط القرب، كقولهم: هو مني مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة [من الرجز]:

---

(١) واكـذب الـنـفـس إذا حـدثـتـهـا ... إن صـدق الـنـفـس يـزري بـالأمـل
غـيـر أن لا تـكـذبـنـهـا فـي الـتـقـى ... واخـزهـا بـالـبـر لله الأجـل

للبيد بن ربيعة، وسئل بشار: أي بيت قالته العرب أشعر؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير سديد، ولكنه أحسن لبيد في قوله: واكذب النفس، يقال: كذبه وصدقه مخففًا ومشددًا، بمعنى. وما هنا من الأول للوزن، أي: لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدثتها فيه؛ لأنها مثبطة عن نيل الفضائل. طامحة إلى الرذائل، وهذا معنى «إن صدق النفس» أي: تصديقها، يزري بالأمل. يقال: زراه، إذا عابه. وأزرى به: إذا أوقع به العيب، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها في تحديثها إياك بالتقى، والخوف من الله، فإن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ويجوز أنه ضمير المخاطب، ولا ناهية، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف في بيان المستثنى والمستثنى منه، ويمكن إجراؤه على الاستدراك؛ لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحمل على الاستثناء، ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «ولا» نافية أو زائدة، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهي كثير، وبعد النفي قليل، ومع الإثبات في هذا شاذ أو ضرورة، ولا بد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظًا. وقد قال القسطلاني في شرح صحيح البخاري باحتمال النهي والزيادة. وبعضهم باحتمال النفي في قوله ﷺ لعائشة حين حاضت في الحج: «فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت» وخزاه يخزوه: قهره وغلبه، أي: واقهرها بالخير لله الأجل الأعظم، وكأن في البر قهرًا لها لمشقته عليها عادة.

ينظر: ديوانه ص ١٨٠، ولسان العرب (كذب)، (خزا)، وجمهرة اللغة ص ٥٩٦، وتاج العروس (كذب)، (خزا)، وجمهرة الأمثال ١/ ٥١، وخزانة الأدب ٥/ ١١٢، وفصل المقال ص ١٧٣، وكتاب الأمثال ص ١١٦، وكتاب الأمثال لمجهول ص ٢٢، والمستقصى ١/ ٢٨٩، ومجمع الأمثال ٢/ ١٣٩.

وَالْـمَـوْتُ أَدْنَـى لِـي مِـنَ الْـوَرِيـدِ[١]

والحبل: العرق، شبه بواحد الحبال، ألا ترى إلى قوله [من الرجز]:

كَـأَنَّ وَرِيـدَيْـهِ رِشَـاءَا خُـلُـبِ[٢]

والوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين، يردان من الرأس إليه. وقيل: سمي وريدًا لأنّ الروح ترده. فإن قلت: ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد، والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن تكون الإضافة للبيان، كقولهم: بعير سانية. والثاني: أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد، كما لو قيل: حبل العلياء[٣] مثلاً.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِذْ﴾ منصوب بأقرب، وساغ ذلك لأنّ المعاني تعمل في الظرف متقدّمة ومتأخرة، والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان[٤] من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به، إيذانًا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه؛ وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما

---

(١) هـل أغـدون فـي عـيـشـة رغـيـد؟ والـمـوت أدنـى لـي مـن الـوريـد

لذي الرمة. والاستفهام إنكاري، أي: لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إليّ من الوريد. وروي: أوفى. والمعنى واحد. والوريدان: عرقان في مقدم صفحتي العنق، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس. أو لأن الروح تردهما. وقال: عيشة رغيد، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وإن كان قليلاً في فعيل بمعنى فاعل.

(٢) غـضـنـفـر تـلـقـاه عـنـد الـغـضـب كـأن وريـديـه رشـاءا خـلـب

لرؤبة. والغضنفر: الأسد. والوريدان: عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم. وقيل: تردهما الروح. والرشاءان: حبلان للاستقاء. والخلب ـ بضمتين، وقد يسكن ـ: اللب والماء المخلوط بالطين. ويجوز أن يراد به هنا البئر الكدرة: شبه الشجاع بالأسد، وشبه وريديه عند الغضب بالرشاءين، وكأن هنا عاملة، وهي مخففة، وهو قليل، والكثير إهمالها. بل الكثير إعمالها!! حسن.

ينظر: ملحق ديوانه ص ١٦٩، وشرح التصريح ١/ ٢٣٤، والمقاصد النحوية ٢/ ٢٩٩، وبلا نسبة في لسان العرب (خلب)، (أنن)، والإنصاف ١/ ١٩٨، وأوضح المسالك ١/ ٣٧٥، وتخليص الشواهد ص ٣٩٠، والجنى الداني ص ٥٧٥، وخزانة الأدب ١٠/ ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤١٢، ورصف المباني ص ٢١١، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٧٥، وشرح المفصّل ٨/ ٨٣، والكتاب ٣/ ١٦٤، ١٦٥، والمقرب ١/ ١١٠، وتاج العروس (خلب).

(٣) قوله: «لو قيل حبل العلياء» هي عصب العنق، كما في الصحاح. (ع)

(٤) قوله: «وهو أقرب من الإنسان» يقال: قرب من الشيء كما يقال: قرب إليه. (ع)

ذلك لحكمة اقتضت ذلك: وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد. وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله. من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ: «إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما» (١٤٩٣) ويجوز أن يكون تلقي الملكين بيانًا للقرب، يعني: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به، والتلقي: التلقن بالحفظ والكتبة. والقعيد: القاعد، كالجليس بمعنى الجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله [من الطويل]:

... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا ....[1]

﴿رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب عمله ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر، واختلف فيما يكتب الملكان، فقيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا،/ ٢/ ١٩٤ب وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» (١٤٩٤) وقيل: إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه

١٤٩٣ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف للثعلبي في التفسير أخبرني الحسن بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا أحمد بن جعفر بن سليمان الختلى ثنا أحمد بن أيوب المرجاني ثنا جميل بن الحسن ثنا أرطاة بن الأشعث العدوى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ «مقعد ملكيك...» إلى آخره. وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطأة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال: «مقعد ملكيك» فذكره. انتهى.

١٤٩٤ ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٩٠) رقم (٧٠٤٩)، (٧٠٥٠)، (٧٠٥١).
والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧ ـ ٢١٨) رقم (٧٧٦٥)، والبغوي في معالم التنزيل (٤/ ٢٢٣)، والواحدي في الوسيط (٤/ ١٦٥) من حديث أبي أمامة.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩) لابن راهويه في مسنده، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه في تفسيره.
وروى الطبري في تفسيره (٧/ ٣٥٠) رقم (٢٠٢١١).
من حديث كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمين على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على =

---

(١) تقدم.

وعند جماعه. وقرئ: «ما يلفظ» على البناء للمفعول.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي. وهو قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ ونفخ في الصور، وسكرة الموت: شدّته الذاهبة بالعقل. والباء في بالحق للتعدية، يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال: من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من أن كل نفس ذائقة الموت. ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ **[المؤمنون: ٢٠]** أي وجاءت ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر. أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ **[الأنعام: ٧٣]** وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما «سكرة الحق بالموت» على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له، وأنها حكمة. والباء للتعدية؛ لأنها سبب زهوق الروح لشدتها، أو لأنّ الموت يعقبها؛ فكأنها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى: جاءت ومعها الموت. وقيل سكرة الحق سكرة الله، أضيفت إليه تفظيعًا لشأنها وتهويلاً. وقرئ: «سكرات الموت» ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموت، والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ **[الحجر: ٢٦]** على طريق الالتفات. أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب. وعن بعضهم: أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ؛ فحكاه لصالح بن كيسان فقال: والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب، هو

= الشمال للذي على اليمين: أكتب وذكر حديثًا طويلاً.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الثعلبي والبغوي من طريق جعفر عن القاسم عن أبي أمامة. ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني. وأخرجه البيهقي من هذا الوجه. ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه. وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه. وروى أبو نعيم في الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رديم، عن القاسم عن أبي أمامة وعند الطبري من طريق علي بن جرير عن حمّاد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة. قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، كم مع العبد ملك؟ ـ الحديث. انتهى.

للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعًا: هو للبرّ والفاجر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ على تقدير حذف المضاف، أي: وقت ذلك يوم الوعيد، والإشارة إلى مصدر نفخ ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها؛ ومحل ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ النصب على الحال من كلّ لتعرّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة. قرئ: «لقد كنتِ» عنكِ غطائكِ فبصركِ، بالكسر على خطاب النفس، أي: يقال لها لقد كنتِ. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئًا؛ فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق. ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته: حديدًا لتيقظه.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هو الشيطان الذي قيض له في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] يشهد له قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧]. ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ هذا شيء لديّ وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى: أن ملكًا يسوقه وآخر يشهد عليه، وشيطانًا مقرونًا به، يقول: قد أعتدته لجهنم وهيئته لها بإغوائي وإضلالي. فإن قلت: كيف إعراب هذا الكلام؟ قلت: إن جعلت ﴿مَا﴾ موصوفة، فعتيد: صفة لها: وإن جعلتها موصولة، فهو بدل، أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَلْقِيَا﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد: ويجوز أن يكون خطابًا للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرد: إن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما، كأنه قيل: ألق ألق: للتأكيد. والثاني: أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا: خليليّ وصاحبيّ، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسيّ، اضربا عنقه. وقرأ الحسن «ألقين» بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في ﴿أَلْقِيَا﴾ بدلاً من النون: إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند مجانب للحق معاد لأهله ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئاً قط. أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخط للحق ﴿مُّرِيبٍ﴾

شاكّ في الله وفي دينه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرط، ولذلك أجيب بالفاء. ويجوز أن/ ٢/ ١٩٥أ يكون ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ منصوبًا بدلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ويكون ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكريرًا للتوكيد.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧)﴾

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلت: لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون. فإن قلت: فأين التقاول هٰهنا؟ قلت: لما قال قرينه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ وتبعه قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وتلاه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨]: علم أنّ ثم مقاولة من الكافر، لكنها طرحت لما يدل عليها، كأنه قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه: ربنا ما أطغيته. وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين: وقول قرينه ما قال له: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ما جعلته طاغيًا، وما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ استئناف مثل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ [ق: ٢٧] كأن قائلاً قال: فماذا قال الله؟ فقيل: قال لا تختصموا. والمعنى: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي، فما تركت لكم حجة عليَّ، ثم قال: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي فأعفيكم عما أوعدتكم به ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ مزيدة مثلها في ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أو معدية، على أن «قدّم» مطاوع بمعنى «تقدّم» ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ ويكون ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ حالاً، أي: قدّمت إليكم هذا ملتبسًا بالوعيد مقترنًا به. أو قدّمته إليكم موعدًا لكم به. فإن قلت: إنّ قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ واقع موقع الحال من ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب. قلت: معناه: ولا تختصموا وقد صح عندكم أني قدمت إليكم بالوعيد، وصحة ذلك عندهم في الآخرة، فإن قلت: كيف قال: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ على لفظ المبالغة[1]؟ قلت: فيه

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة... إلخ» قال أحمد: وذكر فيه وجهان آخران، =

وجهان، أحدهما: أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام للعبيد. والثاني: أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلامًا مفرط الظلم. فنفى ذلك.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

قرئ: «نقول» بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال. وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر. نحو: اذكر وأنذر. ويجوز أن ينتصب بنفخ، كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول، ولا يقدّر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل[1] الذي

= أحدهما: أن فعالاً قد ورد بمعنى فاعل، فهذا منه. الثاني: أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم: إن عظيمًا فعظيم، وإن قليلاً فقليل، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعياذ بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود؛ ولقد بدل القدرية فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفًا بما لا يطاق، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلمًا، والله تعالى مبرأ من الظلم. ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلامًا لعبيده، تعالى الله عن ذلك؛ لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين: هو عين ما اعتقدوه ظلمًا فنفوه، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها، لتبين للناس ما نزل إليهم، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله الموفق للصواب.

(١) قال محمود: «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى... إلخ» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع، والنكير ههنا أشد عليه؛ فإن إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفي مثل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز، فمعنى كلامه صحيح؛ لأنا نعتقد فيهما المجاز، وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة، وأي إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل. ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فلا يشك في وجوب اجتنابه، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه ههنا فنقول: هو منكر لفظًا ومعنى. أما اللفظ فقد تقدم، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك: منها هذا: ومنها: لجاج الجنة والنار. ومنها: اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها في نفسين. وهذه وإن لم تكن نصوصًا فظواهر يجب حملها على حقائقها؛ لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع ههنا «فإن القدرة صالحة. والعقل يجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل، وقد وقع مثل هذا قطعًا في الدنيا. كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي ﷺ وفي يد أصحابه، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة لا تسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق، فاشدد =

يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته، وفيه معنيان، أحدهما: أنها تمتلىء مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء[1] ولا يزاد على امتلائها، لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] والثاني: أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ استكثارًا للداخلين فيها واستبداعًا للزيادة[2] عليهم لفرط كثرتهم. أو طلبًا للزيادة غيظًا على العصاة. والمزيد: إما مصدر كالمحيد والمميد، وإما اسم مفعول كالمبيع.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف، أي: مكانًا غير بعيد. أو على الحال، وتذكيره لأنه على زنة المصدر، كالزئير والصليل؛ والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. أو على حذف الموصوف، أي: شيئًا غير بعيد، ومعناه التوكيد، كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل. وقرئ: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتاء والياء، وهي جملة اعتراضية. و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من قوله للمتقين، بتكرير الجارّ كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وهذا إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر أزلفت. والأوّاب: الرجاع إلى ذكر الله تعالى، والحفيظ: الحافظ لحدوده تعالى. و﴿مَّنْ خَشِيَ﴾ بدل بعد بدل تابع لكل. ويجوز أن يكون بدلاً عن موصوف أوّاب وحفيظ، ولا يجوز أن يكون في حكم أوّاب وحفيظ؛ لأنّ من لا يوصف به ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره: يقال لهم ادخلوها بسلام، لأنّ ﴿مَّنْ﴾ في معنى الجمع. ويجوز أن يكون منادى كقولهم: من لا يزال محسنًا أحسن إليّ، وحذف حرف النداء للتقريب ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المفعول، أي: خشيه وهو غائب لم يعرفه، وكونه معاقبًا إلا بطريق الاستدلال. أو صفة لمصدر خشي، أي خشيه خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب، أو خشية/ ٢/ ١٩٥ب بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه، وقيل: في الخلوة حيث لا يراه أحد. فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟[3]

= يدك بما فصل في هذا الفصل، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل، والله الموفق.

(١) قوله: «حتى لا يسعها شيء» كأن فيه قلبًا. (ع)

(٢) قوله: «واستبداعًا للزيادة» لعله واستبعادًا. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت: كيف قرن الخشية باسمه الدال على سعة الرحمة... إلخ» قال أحمد: ومن =

قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة. كما أثنى عليه بأنه خاش، مع أنّ المخشي منه غائب، ونحوه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى؛ لأنّ الاعتبار بما ثبت منها في القلب. يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي سالمين من العذاب وزوال النعم. أو مسلمّا عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي مقدّرين الخلود ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم، حتى يشاؤوه. وقيل: إن السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فتقول: نحن المزيد الذي قال الله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

«فنقبوا» وقرئ بالتخفيف: فخرقوا في البلاد ودوّخوا[١]. والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. قال الحارث بن حلزة [من الخفيف]:

نَـقَّـبُـوا فِـي الْـبِـلاَدِ مِـنْ حَـذَرِ الْـمَـوْ ... تِ وَجَـالُـوا فِـي الأَرْضِ كُـلَّ مَـجَـالِ[٢]

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: شدّة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون، فهل رأوا لهم محيصًا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم، والدليل على صحته قراءة من قرأ: «فنقبوا» على الأمر، كقوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ [التوبة: ٢] وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال [من الرجز]:

مَـا مَـسَّـهَـا مِـنْ نَـقَـبٍ وَلاَ دَبَـرْ[٣]

= هذا الوادي بالغ رسول الله ﷺ في الثناء على صهيب بقوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

(١) قوله: «ودوخوا» الذي في الصحاح: أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها. (ع)

(٢) للحرث بن كلدة. والنقب: الطريق. ونقبوا، أي: ساروا في طرق البلاد ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ، لأجل حذرهم من الموت. وجالوا، أي: ذهبوا في الأرض. والجول: الناحية والجانب، أي: ساروا في نواحي الأرض وجوانبها، كل مجال، أي: كل طريق، أو كل جولان؛ لأن مفعل صالح للمكان والحدث.

(٣) أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبر
اغفر له اللهم إن كان فجر

لأعرابي: شكا إلى عمر رضي الله عنه ضعف ناقته، فأعطاه شيئًا من الدقيق ولم يعطه مطية، فولى يقول ذلك: فأعطاه مراده. ومن زائدة في الفاعل، مفيدة للمبالغة في الاستغراق. والنقب ـ كالتعب =

والمعنى: فنقبت أخفاف إبلهم. أو: حفيت أقدامهم ونقبت، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ من الله، أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع؛ لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع: الإصغاء ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر بفطنته؛ لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه [من السريع]:

مَا شِئْتَ مِنْ زَهْزَهَةٍ وَالْفَتَىٰ ... بِمُصْقِلابَاذِ لِسَقْيِ الزُّرُوع[1]

= -: ضرر خف البعير من الحفا، ويطلق على الجرب والحكة ورقة الجلد. والدبر كالتعب أيضًا: انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ، لأنها محل ابتداء، كما نص عليه الخليل، والمراد بالفجور: الحنث.

لرؤبة في شرح المفصل ٣/ ٧١، وليس في ديوانه، ولا يمكن أن يكون رؤبة هو الذي قاله لعمر بن الخطاب، ذلك أنه توفي سنة ١٤٥هـ، ولم يعتبره أحد من التابعين فضلاً عن المخضرمين. وهو لعبد الله بن كيسبة أو لأعرابي في خزانة الأدب ٥/ ١٥٤، ١٥٦، ولأعرابي في شرح التصريح ١/ ١٢١، والمقاصد النحوية ٤/ ١١٥، ولسان العرب (نقب)، (فجر)، وتاج العروس (نقب)، (فجر)، وتهذيب اللغة ١١/ ٥٠، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/ ١٢٨، وشرح الأشموني ١/ ٥٩، وشرح شذور الذهب ص ٥٦١، وشرح ابن عقيل ص ٤٨٩، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٧٩، وأساس البلاغة (نقب)، وديوان الأدب ٢/ ١١١، وكتاب العين ٨/ ٣٠٧.

(١) يجيء في فضلة وقت له ... مجيء من شاب الهوى بالنزوع
ثم يرى جبلة مشبوبة ... قد شددت أحماله بالنسوع
ما شئت من زهزهة والفتى ... بمصقلا باذ لسقي الزروع

ملح ولمح به الإمام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه، وهو أبو عامر الجرجاني، أي: يجيء في بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له، كمجيء من خلط الهوى بالنزوع، أي الرجوع ويطلق النزوع على الشوق أيضًا، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب. والجبلة - بكسرتين فتشديد، وبتثليث أوله وسكون ثانيه -: الخلقة والطبيعة؛ ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته. ويقال: شب يشب ويشب شبابًا وشبيبًا: قمص ولعب. وشببت النار شبًا وشبوبًا: أوقدتها. وشببته: أظهرته. وأشببته: هيجته. ويروى: ثم ترى جلسة مستوفز، أي: مستعجل متهيء للقيام. وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى. والنسع: حزام عريض يوضع تحت صدر المطية، وستر الهودج، واسترخاء لحم الأسنان، وريح الشمال، والذهاب، وسرعة الإنبات. وجمعه: أنساع ونسوع ونسع. أي: والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع، كناية عن الرحيل. ويقول الفارسي عند استحسان الأمر: زهازه، فأخذ منه الزهزهة، أي: ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير، والخطاب لغير معين، والحال أن الفتى في مصقلا باد، وهي محلة بجرجان، ويروى بالذال المعجمة، أي: كائن هناك لسقي زروعه. لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان، كان جسمه كأنه هناك، ولقد ترقى في التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى =

أو: وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحي من الله، أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدي وجماعة: «ألقى السمع»، على البناء للمفعول. ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل: ألقى سمعه أو السمع منه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

اللغوب: الإعياء، وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع، قيل: نزلت في اليهود ـ لعنت ـ تكذيبًا لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقىٰ علىٰ العرش، وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود، ومنهم أخذ.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه. وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث؛ فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامدًا ربك، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة، فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ العشاءان. وقيل التهجد ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل النوافل بعد المكتوبات. وعن علي رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: «من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين» (١٤٩٥) وعن

١٤٩٥ ـ روي مرسلًا ومسندًا.
أما المسند فمن حديث أنس وعائشة:
حديث أنس: قال الزيلعي (٣/٣٥٩):
رواه الدارقطني في كتابه غرائب مالك من حديث الحسن بن الليث بن حاجب: ثنى أحمد بن =

= بغيره تشبيهًا بليغًا. ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيهًا بليغًا، فلله دره بليغًا.

ابن عباس رضي الله عنهما: الوتر بعد العشاء. والأدبار: جمع دبر. وقرئ: «وأدبار» من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. ومعناه: ووقت انقضاء السجود، كقولهم: آتيك خفوق النجم ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ يعني واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه، كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل:/ ٢/ ١٩٦أ «يا معاذًا اسمع ما أقول لك»، ثم حدّثه بعد ذلك (١٤٩٦). فإن قلت: بم انتصب اليوم؟ قلت: بما دلّ عليه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور. ويوم يسمعون: بدل من ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ و﴿ٱلْمُنَادِ﴾ إسرافيل ينفخ في الصور وينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً، وهي

= سليمان الأسدي قال: قرأت على مالك بن أنس عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «من صلى المغرب ثم صلى بعدها ركعتين قبل أن يتكلم بشيء كتبتا في عليين فإن صلى أربعًا كان كالمعقب غزوة بعد غزوة فإن صلى اثنتي عشرة ركعة بني له في الجنة قصر من ياقوت فيه من الشجر ونور الثمر ما لا يحصيه إلا رب العالمين».

قال الدارقطني: هذا حديث موضوع على مالك ومن دونه في الإسناد ضعفاء» ا. هـ.

وحديث عائشة: رواه ابن شاهين في الترغيب (١/ ١٣٠) رقم (٧٤) باب فضل صلاة المغرب والصلاة بعدها، من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ما من صلاة أحب إلى الله عز وجل من صلاة المغرب بها يفتح العبد ليله ويختم بها نهاره ـ لم يحطها عن مسافر ولا مقيم، من صلاها وصلى بعدها ركعتين من غير أن يكلم جليسًا ـ كتبت في عليين أو رفعت في عليين ـ شك محمد بن عون ـ فإن صلاها وصلى بعدها أربعًا، من غير أن يكلم جليسًا ـ بنى الله عز وجل له قصرين مكللين بالدر والياقوت بينهما من الجنات ما لا يعلم علمه إلا هو وإن صلاها وصلى بعدها ستًا من غير أن يكلم جليسًا غفر له ذنوب أربعين عامًا».

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية عبدالعزيز بن عمر: سمعت مكحولاً يقول: بلغني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبتا ـ أو قال: رفعتا ـ في عليين» هذا مرسل. وقد روي موصولاً عن أنس عن عائشة ـ رضي الله عنهما ـ

أما حديث أنس فرواه الدارقطني في غرائب مالك، من رواية أحمد بن سليمان الأسدي عنه عن الزهري عن أنس به وأتم منه. وقال: هذا موضوع على مالك. وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين في الترغيب ـ وفي إسناده جعفر بن جميع. انتهى.

وأما المرسل: فرواه عبدالرزاق في مصنفه (٣/ ٧٠) رقم (٤٨٣٣)، وعزاه الزيلعي (٣/ ٣٦٠) لابن أبي شيبة.

من طريق عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز قال: سمعت مكحولاً يقول: بلغني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبتا»، أو قال: «رفعتا في عليين».

١٤٩٦ ـ بيض له الزيلعي (٣/ ٣٦١) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.

وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: أيتها العظام البالية، و﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾ النفخة الثانية ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة، والمراد به البعث والحشر للجزاء.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾﴾

وقرئ: «تشقق» وتشقق بإدغام التاء في الشين، وتشقق على البناء للمفعول، وتنشق ﴿سِرَاعٗاۚ﴾ حال من المجرور ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿بِجَبَّارٖۖ﴾ كقوله تعالى: ﴿بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت داع وباعث[1]. وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم. ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه، أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصرّ على الكفر.

عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة ق هوّن الله عليه تارات[2] الموت وسكراته» (١٤٩٧).

١٤٩٧ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ انتهى.

---

(١) قوله: «إنما أنت داع وباعث» أي: تبعث الناس على الإيمان. (ع)

(٢) قوله: «هون الله عليه تارات الموت» في الصحاح: فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة، أي: مرة بعد مرة. (ع)

سورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقرئ بإدغام التاء في الذال ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢)﴾ السحاب، لأنها تحمل المطر. وقرئ: «وقرًا» بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملاً ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)﴾ الفلك. ومعنى (يسرًا): جريا ذا يسر، أي ذا سهولة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾ الملائكة، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد: تتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوّاء فقال: ما الذاريات ذروا؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرًا؟ قال السحاب. قال: فالجاريات يسرًا؟ قال: الفلك. قال فالمقسمات أمرًا؟ قال: الملائكة (١٤٩٨) وكذا عن ابن عباس

١٤٩٨ ـ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا. هـ.
ورواه عبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤١)، وابن جرير في تفسيره (١١/ ٤٤٢) رقم (٣٢٠١٦). وروى البزار في مسنده رقم (٢٢٥٩ ـ كشف) حدثنا إبراهيم بن هانىء ثنا سعيد بن سلام العطار ثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «الذاريات ذروا» قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله عليه وسلم ـ يقوله ما قلته قال: فأخبرني عن: «الحاملات وقرًا» قال: هي السحاب. . فذكر حديثًا طويلاً.
وعزاه الزيلعي (٣/ ٣٦٦) لابن مردويه في تفسيره، من حديث عبدالله بن موسى: عن ابن أبي سبرة به سندًا ومتنًا، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الحاكم والطبري وغيرهما من رواية أبي الطفيل قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله =

(١٤٩٩). وعن الحسن (المقسمات) السحاب، يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة، ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشىء السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جريًا سهلًا، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب. فإن قلت: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلت: أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأمّا على الثاني، فلأنها تبتدىء بالهبوب[1]، فتذروا التراب والحصباء، فتنقل السحاب، فتجري في الجوّ باسطة له فتقسم المطر ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود: البعث. ووعد صادق: كعيشة راضية. والدين: الجزاء. والواقع: الحاصل.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

﴿ٱلْحُبُكِ﴾ الطرائق، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسره. قال زهير [من البسيط]:

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ... رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[2] / ٢/١٩٦ب

= عنه ـ على المنبر فذكره، وزاد فيه: قال: «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفرًا؟ قال: هم منافقو قريش»، وفي الباب عن عمر مرفوعًا أخرجه البزار، وفيه قصة منبع، وقال ابن أبي سبرة: لين الحديث، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث ا.هـ. ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبي سبرة أيضًا. انتهى.

١٤٩٩ ـ رواه الطبري في التفسير (١١/٤٤٢) رقم (٣٢٠٣٣) حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: ـ ثنى عمي قال: ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله «فالحاملات وقرًا» قال: السحاب قوله: «فالمقسمات أمرًا». قال: الملائكة» ا. هـ.

---

(١) قوله: «فلأنها تبتدىء بالهبوب» لعله: فإنها. (ع)

(٢)
حتى استغاثت بماء لا رشاء له ... من الأباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح خريق لضاحي مائه حبك
كما استغاث بسيء فزُّ غيطلة ... خاف العيون ولم ينظر به الحشك

لزهير: يصف قطاة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له، أي: لا حبل يستقي به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح، أي: في الأمكنة المتسعة المستوية؛ فإن أراد من الماء مكانه؛ فمن بيانية، في حافاته أي جوانبه البرك جمع بركة، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم، أي: النبات الذي لا ساق له. وروي بعميم النجم، أي: طويله، تنسجه: أي تثنيه تثنيًا منتظمًا كالنسج، فهو استعارة مصرحة. والخريق ـ بالقاف ـ: الباردة والشديدة السير. والضاحي: الظاهر. والحبك: الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح. جمع حباك أو حبيكة. =

والدرع محبوكة؛ لأنّ حلقها مطرّق طرائق. ويقال: إنّ خلقه السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي. وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوك المعاقم[1]؛ أي محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حباك، كمثال ومثل. أو حبيكة، كطريقة وطرق. وقرئ: «الحبك» بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ قولهم في الرسول: ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر وأساطير الأوّلين. وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة: منكم مصدّق ومكذب، ومقرّ ومنكر ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ الضمير للقرآن وللرسول، أي: يصرف عنه، من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه[2] وأعظم؛ كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله، أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين: أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكّ، ومنهم جاحد. ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر: وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله [من السريع]:

يَـنْـهَـوْنَ عَـنْ أَكْـلٍ وَعَـنْ شُـرْبِ ....[3]

= والسيء بالفتح وبالكسر: اللبن في طرف الثدي. والفز: ولد البقرة الوحشية. والغيطلة: الشجر الملتف؛ فإضافة الفز إليها لأنه فيها. وقيل: هي البقرة الوحشية. والعيون هنا: رقباء الصيد وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكًا وحشوكًا: امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة، أي: لم ينتظر به امتلاء الدرة، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة.
ينظر: ديوانه ص ١٧٦، ولسان العرب (نسج)، (خرق)، (حبك)، (نجم)، وجمهرة اللغة ص ٢٨٣، وأساس البلاغة (حبك)، وتاج العروس (نسج)، (حبك)، (نجم)، وبلا نسبة في المخصّص ١٤٩/٩.

(١) قوله: «فرس محبوك المعاقم» في الصحاح: المعاقم من الخيل: المفاصل، فالراسغ عند الحافر معقم، والركبة معقم، والعرقوب معقم. اهـ. (ع)

(٢) قال محمود: «يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه... إلخ» قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغني عن قولك من صرف، لأنه بمجرده كالتكرار للأول، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارًا، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، فكأنك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(٣) يـنـهـون عـن أكـل وعـن شـرب   مـثـل الـمـهـا يـرتـعـن فـي خـصـب =

أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك، على البناء للفاعل. أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أنّ الحيّ كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم. وعن زيد بن عليّ: يأفك عنه من أفك، أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضًا: يأفك عنه من أفك؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ: «يؤفن عنه من أفن» أي: يحرمه من حرم، من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى: لعن وقبح. والخرّاصون: الكذابون المقدرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: «قتل الخراصين» أي: قتل الله ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ فيقولون: «أيان يوم الدين» أي متى يوم الجزاء؟ وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة. فإن قلت: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان؟ قلت: معناه: أيان وقوع يوم الدين. فإن قلت: فيم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت: بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع يوم هم على النار يفتنون، ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة. فإن قلت: فما محله مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمر الذي هو يقع؛ ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون ويعذبون. ومنه الفتين: وهي الحرّة؛ لأن حجارتها كأنها محرقة ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ في محل الحال، أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنتكم؛ أي: ذوقوا هذا العذاب.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟

= يقال: نهي الجمل فهو ناه، إذا فرط في السمن. والمها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية. ويقال: أخصب المكان فهو مخصب، وأخصبه الله. وخصب خصبًا، كتعب تعبًا، وعلم علمًا: إذا كثر كلأه ونباته. يصف أضيافًا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلأ، فالخصب في الأصل: مصدر سمي به الكلأ.

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾﴾

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به، يعني أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها ويرضاها ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم، وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿مَا﴾ مزيدة. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلاً ظرفًا، ولك أن تجعله صفة للمصدر، أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلاً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة؛ على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بـ «قليلاً» على الفاعلية[(١)]. وفيه مبالغات لفظ الهجوع، وهو الفرار من النوم[(٢)]. قال [من السريع]:

قَـدْ حَـصَّـتِ الْـبَـيْـضَـةُ رَأْسِـي فَـمَـا أَطْـعَـمُ نَـوْمًـا غَـيْـرَ تَـهْـجَـاعِ[(٣)]

---

(١) ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلاً ظرف منتصب بيهجعون، أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بقليلاً على الفاعلية» قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل (ما) مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع، لأنه فاعله. وقوله: (من الليل) بيانًا للقليل ولا بيانًا له، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه، ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل، كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون (من الليل) بيانًا للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج. وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفيًا وقليلاً منصوب بيهجعون على تقدير: كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه. قلت: وفيه خلل من حيث المعنى، فإن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود. ثم قال: وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا سحروا شرعوا في الاستغفار. كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. قال: وقوله: (هم) معناه: هم الأحقاء بالاستغفار دون المصرين. قال: وفي الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم. قال: وقوله: (قليلاً) وقوله: (من الليل) لأنه وقت السبات. قال: ومنها زيادة ما في بعض الوجوه. قلت: وفي عدها من المبالغة نظر؛ فإنها تؤكد الهجوع وتحققه، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل.

(٢) قوله: «وهو الفرار من النوم» في الصحاح: الفرار بالكسر: النوم القليل اهـ. (ع)

(٣) قـد حـصـت الـبـيـضـة رأسـي فـمـا أطـعـم نـومًـا غـيـر تـهـجـاع
أسـعـى عـلـى جـل بـنـي مـالـك كـل امـرىء فـي شـأنـه سـاع

لقيس بن الأسلت. وحصت: أهلكت أو حلقت، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب، أي حلقت شعر رأسي من دوام لبسها للحرب. وشبه النوم بالمطعوم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية، وأطعم: أي أتناول تخييل لذلك والتهجاع: التغافل قليلاً لطرد النوم؛ فالاستثناء منقطع. =

وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ﴿مَا﴾ المؤكد لذلك: وصفهم/ ١٩٧/٢أ بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقوله: ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرّين، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه. فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً، ويحيونه كله؟ قلت: لا، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. تقول: زيدًا لم أضرب، ولا تقول: زيدًا ما ضربت: السائل: الذي يستجدي ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الذي يحسب غنيًا فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان واللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان» قالوا: فما هو؟ قال: «الذي لا يجد ولا يتصدق عليه» (١٥٠٠) وقيل: الذي لا ينمى له مال. وقيل: المحارف[(١)] الذي لا يكاد يكسب.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها كما قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [طه: ٥٣] وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزأة: فمن سهل وجبل وبر وبحر. وقطع

١٥٠٠ ـ رواه البخاري (٤/ ١٠٤) كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: «لا يسألون الناس إلحافًا» الحديث (١٤٧٩) ومسلم (٤/ ١٣٩) كتاب الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، الحديث (١٠٣٩).
وأبو داود (١/ ٥١٣) كتاب الزكاة، باب: من يعطي من الصدقة وحد الغنى، الحديث (١٦٣١).
والنسائي (٥/ ٨٥) كتاب الزكاة، باب: تفسير المسكين، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. انتهى.

= وجلهم: مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم. وروي: على حبل بني مالك، وعليه فشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية، أي: أسعى في شأني متمسكًا بعهدهم، وعلى الأول فقوله: «كل امرىء في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم، وأنه شأنه.

ينظر: ديوانه ص ٧٨، ولسان العرب (حصص)، (هجع)، وتهذيب اللغة، وجمهرة اللغة ص ٩٨، ومجمل اللغة ٢/ ١٤، وديوان الأدب ٣/ ١٢٦، وتاج العروس (حصص)، ٢٢/ ٣٨٤ (هجع)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٣٦، وبلا نسبة في كتاب العين ٣/ ١٤، ومقاييس اللغة ٢/ ١٣، والمخصّص ١/ ٧٠ وأساس البلاغة (هجع).

(١) قوله: «وقيل المحارف» في الصحاح: رجل محارف، بفتح الراء: أي محدود محروم، خلاف قولك: مبارك اهـ. (ع)

متجاورات: من صلبة ورخوة، وعذاة[1] وسبخة؛ وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدّواب المنبثة في برّها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال: من الوحشي والإنسي والهوام، وغير ذلك ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وإيقانًا إلى إيقانهم ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني. فإنه إذا جسا[2] شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ هو المطر؛ لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج وكل عين دائمة منه. وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة: هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد: أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدّر مكتوب في السماء. قرئ: «مثل ما» بالرفع صفة للحق، أي حق مثل نطقكم، وبالنصب على: إنه لحق حقًا مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحًا لإضافته إلى غير متمكن. وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق، كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما إنك ههنا. وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ؛ أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

---

(١) قوله: «وعذاة» في الصحاح «العذاة»: الأرض الطيبة التربة، والجمع عذوات. (ع)
(٢) قوله: «إذا جسا شيء منها» في الصحاح: جست اليد وغيرها جسوًا وجساء: يبست اهـ. (ع)

الرحمٰن. فقال: اتل عليّ، فتلوت ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفتّ فإذا انا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: فوربّ السماء والأرض إنه لحق، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؛ قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه/ ٢/ ١٩٧ب، وكانوا اثني عشر ملكًا. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفًا؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك. وإكرامهم: أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القِرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر ﴿سَلَامًا﴾ مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلامًا، وأمّا ﴿سَلَامٌ﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضًا من إكرامه لهم. وقرئا مرفوعين. وقرئ: «سلاما» قال سلما. والسلم: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قومًا من الخزر[1] أو رأى لهم حالاً وشكلاً خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم، كأنه قال: أنتم قوم

---

(١) قوله: «قومًا من الخزر» في الصحاح: الخزر: جيل من الناس. والأخزر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده الصحاح. (ع)

منكرون، فعرّفوني من أنتم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفي أمره[١]، وأن يبادره بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم: البقر ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾. والهمزة في ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للإنكار: أنكر عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه[٢] فظن أنهم يريدون به سوءًا. وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمّه ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم: نبيّ، والمبشر به إسحاق، وهو أكثر الأقاويل وأصحها؛ لأن الصفة صفة سارّة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلها. وعن مجاهد: هو إسماعيل ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ في صيحة، من: صر الجندب، وصرّ القلم والباب، ومحله النصب على الحال، أي: فجاءت صارّة. قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء، وقيل: فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها[٣] ﴿فَصَكَّتۡ﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عَجُوزٌ﴾ أنا عجوز، فكيف ألد ﴿كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين. وروي أنّ جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا

---

(١) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره... إلخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها: إذا غمسها فرويت سمنًا. قلت: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٢) قوله: «لأنهم لم يتحرموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة»: ما لا يحل انتهاكه، وقد تحرم بصحبته اهـ. وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

(٣) قوله: «رنتها» في الصحاح الرنة» الصوت: يقال: رنت المرأة رنينًا وأرنت أيضًا: صاحت. (ع)

﴿خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم وما طلبكم ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد: السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجرّ، حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة، من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب. وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين، كما سماهم عادين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم: حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم. الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للقرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح. قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله ﴿ءَايَةً﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطف على ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ أو على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى: وجعلنا في موسى آية/ ٢/١٩٨أ؛ كقوله [من الرجز]:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنًـا وَمَـاءً بَـارِدا .... [1]

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فازورّ، وأعرض، كقوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾ [فصلت: ٥١] وقيل: فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه. وقرئ: «بركنه»، بضم الكاف ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه من كفره وعناده، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه. فإن قلت: كيف وصف نبيّ الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]؟ قلت: موجبات اللوم تختلف على حسب اختلافهما تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك. واختلف

(١) تقدم.

فيها: فعن علي رضي الله عنه: النكباء (١٥٠١). وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب. الرميم (١٥٠٢): كل ما رم أي بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: «الصعقة» وهي المرّة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرَّتهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز من دفعه ﴿مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمَ﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح وتقوّيه قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأنّ ما قبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿بِأَيْدٍ﴾ بقوّة. والأيد والآد. القوّة. وقد آد يئيد وهو أيد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ فنعم الماهدون نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى. وعن

١٥٠١ ـ عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٣٩) للفريابي، وابن المنذر.

١٥٠٢ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٦٩) (٣٢٢٢٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٣٩) (٨٤٦) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «الريح العقيم الجنوب».
وعزاه السيوطي في الدر (٦/ ١٣٩) لابن المنذر، وأخرجه أيضًا الطبري (١١/ ٤٦٩) (٣٢٢٢٧) من قول الحارث بن عبدالرحمن.

الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والموت والحياة؛ فعدّد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي إلى طاعته وثوابه[1] من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به شيئًا، وكرّر قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] والمعنى: قل يا محمد: ففرّوا إلى الله.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر، أي مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول ﷺ وتسميته ساحرًا ومجنونًا، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿مَآ أَتَى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتي؛ لأنّ ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت، لكان صحيحًا، على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ الضمير للقول، يعني: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعًا متفقين عليه ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

---

(١) قال محمود: «معنى ففروا إلى الله، أي: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه... إلخ» قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده، فدس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتمل الآية لما ذكر؛ فإن العناية في قوله: (ففروا إلى الله) الفرار إلى عبادة الله فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة للدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري: المأمور؛ في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكرارًا على اختلاف الوعيدين، فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها، ليتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت عنهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيمانًا. وروي أنه لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله. وذكر (١٥٠٣).

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها[١]. فإن قلت: لو كان مريدًا[٢] للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه

١٥٠٣ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٧٥) (٣٢٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) (١٧٥٠) كلاهما من طريق إسماعيل بن علية قال: أخبرنا أيوب عن مجاهد قال: خرج علي معتجرًا ببرد، مشتملاً بخميصة فقال: لما نزلت: «فتول عنهم فما أنت بملوم» أحزننا ذلك. . . .
وأخرجه أيضًا إسحاق بن راهويه، وأحمد بن منيع، والهيثم بن كليب في أسانيدهم، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة كما في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٤١).

---

(١) قال محمود: «إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. . . إلخ» قال أحمد: من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهرًا موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جوابًا؛ فكذلك صنع ههنا، فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره؛ فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم. والله تعالى لا يطلب من عباده رزقًا ولا إطعامًا، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقًا أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقت، وبه نطقت، ولكن الهوى يعمي ويصم؛ فحاصله: وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم وبالله التوفيق.

(٢) قوله: «لو كان مريدًا للعبادة» قد يقال: لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدها من جميعهم. وقوله: «مع كونه مريدًا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ / ٢/١٩٨ب ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

يريد: أنّ شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإنّ مُلّاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، فإمّا مجهز في تجارة ليفي ربحا. أو مرتب في فلاحة ليغتلّ أرضًا. أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته. أو محتطب. أو محتش. أو طابخ. أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غنيّ عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد قرئ بالرفع صفة لذو، وبالجر صفة للقوّة على تأويل الاقتدار والمعنى في وصفه بالقوّة والمتانة أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: «الرازق» وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

الذنوب: الدلو العظيمة، وهذا تمثيل، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب. قال [من الرجز]:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ ... فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ[1]

---

(١) إنا إذا شاربنا شريب ... له ذنوب ولنا ذنوب
فإن أبى كان له القليب

الشريب من يشرب معك. والذنوب: الدلو الممتلئة ماء، والنصيب من الماء. والذنابة: مسيل الماء. والقليب البئر لقلب ترابه، يقول: إنا كرام نشاطر شريبنا، فإن لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع. وروي بدل المصراعين الأخيرين:

لنا ذنوب ولكم ذنوب ... فإن أبيتم فلنا القليب

ولعل الصواب: فإن أبى أو فإن أبيتم فلنا؛ لئلا ينكر البيت. والمعنى: نقول لمن يشرب معنا ذلك، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة. والشريب كالعشير: يطلق على الواحد والمتعدد.

ينظر: لسان العرب (ذنب)، وتهذيب اللغة ١٤/٤٣٩، والمخصص ١٧/١٨، وكتاب العين ٨/ ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٦ وتاج العروس (ذنب).

ولما قال عمرو بن شاس [من الطويل]:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ(1)

قال الملك: نعم وأذنبه. والمعنى: فإنّ الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر.

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا (١٥٠٤).

١٥٠٤ ـ تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

---

(١) وأنت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

لشأس أخي علقمة بن عبيدة، يخاطب الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسيرًا عنده. والندوب ـ في الأصل : آثار الجراح بعد برئها. ومن بيانية، أي: آثاره التي هي البؤس والنعمى. أو ابتدائية، أي: الناشئة منهما، لهن بقايا في عدوه. والبؤس: الشدة. والنعمى: الرخاء. والخابط: الذي يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص، ثم قيل لكل طالب: خابط ومختبط. ويجوز أن يكون من قولهم: خبط الشجرة؛ ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال، والخبط تخييل والمعنى أنه شجاع كريم، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشأس من وضع الظاهر موضع المضمر لإظهار المسكنة والاستعطاف. وقيل: إن القائل عمرو بن شأس، فوضع الظاهر في موضعه. ولما سمع الحرث ذلك قال: نعم وأذنبته، وكسا شأسًا ومن معه، وأركبهم وأطلقهم، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب: وهو الدلو الممتلئة.
ينظر: ديوانه ص ٤٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٤٠٠، وشرح المفصل ٤٨/٥، ١٠/ ١٥١، والكتاب ٤/ ٤٧١، ولسان العرب (جنب)، (شأس)، (خبط)، ومجالس ثعلب ص ٩٧ وبلا نسبة في سرّ صناعة الإعراب ص ٢١٩، وشرح المفصل ٤٨/١٠، والممتع في التصريف ص ٣٦١، والمنصف ٢/ ٣٣٢.

سورة الطور

مكية، وهي تسع وأربعون، وقيل: ثمان وأربعون آية
[نزلت بعد السجدة]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ (٥) وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)﴾

﴿وَٱلطُّورِ (١)﴾: الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين. والكتاب المسطور في الرق المنشور، والرق: الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال. قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقيل: هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل: اللوح المحفوظ. وقيل القرآن، ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧)﴾ [الشمس: ٧]. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ (٤)﴾ الضراح[1] في السماء الرابعة. وعمرانه: كثرة غاشيته من الملائكة. وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ (٥)﴾ السماء ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ (٦)﴾ المملوء. وقيل: الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)﴾ [التكوير: ٦] وروي أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارًا تسجر بها نار جهنم. وعن علي رضي الله عنه أنه سأل يهوديًا: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: في البحر. قال عليّ: فما أراه إلا صادقًا، (١٥٠٥) لقوله تعالى ﴿وَٱلْبَحْرِ

١٥٠٥ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٨٢) (٣٢٣٠٩) من طريق ابن علية عن داود عن سعيد بن المسيب قال: قال علي ـ رضي الله عنه ـ لرجل من اليهود أين جهنم؟ فقال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقًا. . . .

=

---

(١) قوله: «والبيت المعمور الضراح في السماء» في الصحاح الضراح» بالضم: بيت في السماء، وهو البيت المعمور. عن ابن عباس. (ع)

ٱلْمَسْجُورِ﴾. ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مطعم: أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أسلمت خوفًا من أن ينزل العذاب (١٥٠٦) ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ تضطرب وتجيء وتذهب. وقيل: المور تحرك في تموّج، وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة[1].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ

= وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٤٠٨/٤) (٩٢٧) من طريق محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم ابن ميسرة عن سعيد بن المسيب عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن يهودي.. قال: «البحر نار الله الكبرى...» ورواه البيهقي في البعث والنشور (ص ٢٦٤ رقم ٤٥٠) من طريقين عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب نحوه.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٤٥/٦ ـ ١٤٦) لابن المنذر وابن أبي حاتم قلت: والقول بأن البحر هو جهنم روي من حديث مرفوع.

أخرجه أحمد (٢٢٣/٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧١/١/١ و٤١٤/٢/٤)، والحاكم (٤/ ٥٩٦)، والبيهقي(٣٣٤/٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٢) من طريق أبي عاصم قال: ثنا عبدالله بن أمية قال: حدثني محمد بن حُيي قال: حدثني صفوان بن يعلى عن أبيه مرفوعًا «البحر هو جهنم...».

وسنده ضعيف لجهالة محمد بن حُيي.

وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري من رواية داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب قال: قال علي لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال. ما أراه إلا صادقًا: (والبحر المسجور)، (وإذا البحار سجرت). انتهى.

١٥٠٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٧١/٣) ـ لم أجده كذلك، وكذلك قال الحافظ ابن حجر وأخرج البخاري في صحيحه (٤٩٤/٢) ـ كتاب الأذان (١٠) ـ باب الجهر في المغرب (٩٩) حديث رقم (٧٦٥)، ومسلم (٤١٧/٢) ـ كتاب الصلاة (٤) باب القراءة في الصبح (٣٥) حديث رقم (١٧٤) وأبو داوود (٢١٤/١ ـ ٢١٥) كتاب الصلاة ـ باب قدر القراءة في المغرب ـ (٨١٠)، والنسائي (١٦٩/٢) ـ كتاب الصلاة ـ باب القراءة في المغرب بالطور ـ (٩٨٧) كلهم من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ بالطور في صلاة المغرب ـ وزاد البخاري في رواية (٥٨٣/٩) (٤٨٥٤)... فلما بلغ هذه الآية: «أم خلقوا من غير شيءأم هم الخالقون...» كاد قلبي أن يطير... وزاد في أخرى (٢٨٠/٦) (٣٠٥٠).. وكان جاء في أساري بدر.

وقال الحافظ ابن حجر:

لم أجده هكذا. والذي جاء في الصحيح «أن ذلك في صلاة المغرب» وأنه قال لما سمع: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ـ إلى آخره: كاد قلبي يطير». انتهى.

---

(١) قوله: «كالداغصة في الركبة» هي العظم المدور الذي يتحرك على رأس الركبة، كما في الصحاح. (ع)

دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

غلب الخوض في الاندفاع في الباطل/ ٢/ ١٩٩أ والكذب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٥]، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩] الدّعّ: الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعًا على وجوههم وزخا في أقفيتهم[1]. وقرأ زيد بن عليّ «يدعون» من الدعاء أي يقال لهم: هلموا إلى النار، وادخلوا النار ﴿دَعًّا﴾ مدعوعين، يقال لهم: هذه النار ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ يعني كنتم تقولون للوحي هذا سحر، أفسحر هذا؟ يريد: أهذا المصداق أيضًا سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عميًا عن الخبر، وهذا تقريع وتهكم ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر محذوف، أي: سواء عليكم الأمران: الصبر وعدمه، فإن قلت: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ قلت: لأنّ الصبر إنما يكون له مزية على الجزع، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في أية جنات وأيّ نعيم، بمعنى الكمال في هذه الصفة. أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة. وقرئ: «فاكهين فكهين وفاكهون»: من نصبه حالاً جعل الظرف مستقرا، ومن رفعه خبرًا جعل الظرف لغوًا، أي: متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؟ قلت: على قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أو على ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على أن تجعل ما مصدرية؛ والمعنى: فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أكلا وشربًا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أو طعامًا وشرابًا هنيئًا، وهو الذي لا تنغيص فيه. ويجوز أن يكون مثله في قوله [من الطويل]:

هَـنِـيـئًـا مَـرِيـئًـا غَـيْـرَ دَاءٍ مُـخَـامِـرٍ ... لِـعَـزَّةَ مِـنْ أَعْـرَاضِـنَـا مَـا ٱسْـتَـحَـلَّـتِ[2]

---

(١) قوله: «وزخا في أقفيتهم» في الصحاح «زخه» أي: دفعه في وهدة اهـ. (ع)

(٢) يكلفها الخنزير شتمي وما بها ... هواني ولكن للمليك استذلت =

أعني: صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعًا به ما استحلت كما يرتفع بالفعل، ، كأنه قيل: هناء عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ ههنا: هناءكم الأكل والشرب. أو هناءكم ما كنتم تعملون؛ أي: جزاء ما كنتم تعملون. والباء مزيدة كما في ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٤٣] والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرئ: بعيس[(١)] عين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرناهم بالحور وبالذين آمنوا، أي: بالرفقاء والجلساء منهم، كقوله تعالى: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فيتمتعون تارة بملاعبة الحور، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّبهم عينه» (١٥٠٧) ثم تلا هذه

١٥٠٧ ـ ورد هذا الحديث مرفوعًا وموقوفًا.
أما المرفوع، فأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٢)، والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٣٩) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٧٢) للبزار في مسنده وابن عدي في الكامل وابن مردويه، والثعلبي في تفسيريهما، كلهم من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن...». =

= هنيئًا مريئًا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

لكثير بن صخر صاحب عزة، كان ينشد أشعاره في حلقة البصرة، فمرت به مع زوجها فقال لها: لتغضبنه أو لأضربنك، فقالت: كذا وكذا بفم الشاعر، فقال ذلك. وقيل: خرجت تطلب سمنًا فصادفها كثير فتحادثا، وسكب من إداوة معه في إنائها حتى بل ثوبها، وأنكر ذلك زوجها، فقصت عليه القصص، فأمرها بشتمه فقال ذلك. والمليك: مالك أمرها. وما بها هواني: أي ليست مريدة له. وهنيًا مريًا: صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله، وما استحلت: مرفوع محلا بأحدهما على التنازع، وغير نصب على الحال. ومن أعراضنا بيان لما بعده. والهنيء والمريء: الذي لا تنغيص فيه، المحمود للعاقبة، والمخامر: المخالط، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية. وهنيًا مريًا: تخييل. ويجوز أن التجوز فيهما على طريق التصريحية.
ينظر: ديوانه ص ١٠٠، وكتاب العين ٤/ ٢٦٤، ومقاييس اللغة ٢/ ٢١٦، والأغاني ٩/ ٣٨، وأمالي القالي ٢/ ١٠٩، وتزيين الأسواق ١/ ١٢٢، وتهذيب اللغة ٧/ ٣٧٦.

(١) قوله: «وقرئ بعيس» في الصحاح: العيس ـ بالكسر ـ: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة، واحدها: أعيس، والأنثى: عيساء، ويقال: هي كرائم الإبل اهـ ولعله هنا استعارة للنساء. (ع)

الآية. فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، ومزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم. ثم قال: ﴿بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم، لنتمَّ سرورهم ونكمل نعيمهم. فإن قلت: ما معنى تنكير الإيمان؟ قلت: معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة. ويجوز أن يراد: إيمان الذرية الداني المحل، كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم. وقرئ: وأتبعتهم ذريتهم، واتبعتهم ذريتهم. وذرياتهم: وقرئ: «ذرياتهم» بكسر الذال. ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ وما نقصناهم. يعني: وفرنا

= وقيس بن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي ضعفه جماعة ووثقه آخرون، قلت: وهو إلى الضعف أقرب.. فقال يحيى بن معين، ليس حديثه بشيء، وقال مرة: ضعيف الحديث لا يُساوي شيئًا، وقال أبو زرعة: فيه لين، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال في موضع آخر: متروك الحديث، وقال البخاري، قال علي: كان وكيع يضعفه راجع تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٥، ٣٨) ت (٤٩٠٣) وقال الحافظ في التقريب (٢/ ١٢٨) صدوق تفسير لماكبر أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به قلت: ومع ضعفه فقد خالف جبلين من جبال الحفظ، أوقفا هذا الحديث على ابن عباس هما شعبة وسفيان الثوري:

* الموقوف

أما رواية شعبة فأخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨) (٣٢٣٣٨)، (٣٢٣٤٢).

وأما رواية سفيان وهو الثوري:

فأخرجها ابن جرير أيضًا في تفسيره (١١/ ٤٨٨)، وعبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ١١٧) وعن البيهقي في كتابه الاعتقاد (ص ٨٩ و٩٠) من طرق عن الثوري عن عمرو ابن مرّة به.

وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٧) ـ في رواية المرفوع ـ رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف.

قلت: وللحديث شاهد آخر.

أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٠) (١٢٢٤٨) والصغير (١/ ٢٢٩) من طريق محمد بن عبدالرحمن بن غزوان ثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه... وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٧) وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقال الحافظ:

أخرجه البزار وابن عدي، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والثعلبي من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا. قال البزار تفرد قيس برفعه. ورواه الثوري موقوفًا ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد والطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفًا. انتهى.

عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل معناه: وما نقصناهم من ثوابهم شيئًا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرئ: «ألتناهم» وهو من بابين: من ألت يألت، ومن ألات يليت، كأمات يميت. وآلتناهم، من آلت يؤلت، كآمن يؤمن. ولتناهم، من لات يليت. وولتناهم، من ولت يلت. ومعناهنّ واحد ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي مرهون، كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها، وإلا أوبقها ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم ﴿كَأۡسٗا﴾ خمرًا ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين/ ٢/ ١٩٩ب في الدنيا على الشراب في سفههم وعربدتهم، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة، وهم حكماء علماء. وقرئ: «لا لغو فيها ولا تأثيم» ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ في الصدف، لأنه رطبًا أحسن وأصفى. أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١٥٠٨). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه: لبيك لبيك» (١٥٠٩).

١٥٠٨ ـ أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤٨)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٢) (٣٢٣٧٠) كلاهما من طريق معمر عن قتادة في قوله: «كأنهم لؤلؤ مكنون» قال بلغني أنه قيل: يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف المخدوم»... فذكر الحديث وأخرجه الطبري أيضًا (٣٢٣٦٩) من طريق سعيد عن قتادة به.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٧٣) للثعلبي عن الحسن مرسلاً.
وقال الحافظ:
أخرجه عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلاً.

١٥٠٩ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٧٣) للثعلبي في تفسيره من طريق وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة...» وذكره الديلمي في الفردوس (١/ ٢٦٧) (٨٣٠) بلفظ المصنف وأخرج الترمذي (٤/ ٦٩٥) ـ كتاب صفة الجنة (٣٩) ـ باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢) من طريق رشدين بن سعد حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان =

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضًا عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند الله ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله. وقرئ: «ووقانا» بالتشديد ﴿عَذَابَ﴾ عذاب النار ووهجها ولفحها. والسموم: الريح الحارّة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه، يعنون في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب. وقرئ: «أنه» بالفتح، بمعنى: لأنه.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ فأثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض لأنّ الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوّة ورجاحة العقل أحد هذين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قرئ: «يتربص به ريب المنون»، على البناء للمفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال [من الكامل]:

= وسبعون زوجة...».

وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

قال الحافظ:

أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبدالعزيز البصري عن يوسف بن أبي طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه.

وقيل: المنون الموت، وهو في الأصل فعول؛ من منه إذا قطعه؛ لأن الموت قطوع؛ ولذلك سميت شعوب قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم وألبابهم. ومنه قولهم: أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهُم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قلت: هو مجاز لأدائها إلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧] وقرئ: «بل هم قوم طاغون» ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن، مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه، وما محمد إلا واحد من العرب. وقرئ «بحديث مثله» على الإضافة، والضمير لرسول الله ﷺ، ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرًا عليه، فليأتوا بحديث ذلك المثل: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ أم أحدثوا وقدّروا التقدير الذي عليه فطرتهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ من غير مقدّر ﴿أَمْ هُمُ﴾ الذي خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون، لا يوقنون. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب؟ وقيل: أخلقوا من غير أب وأم؟ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوّة من شاؤوا. أو: أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة؟ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الغالبون، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم؟ وقرئ «المصيطرون» بالصاد ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما

---

(١) أمن المنون وريبه أتوجع؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأبي ذويب مطلع مرثية بنيه، والاستفهام للإنكار. وريب المنون: ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر. والمنون: الموت، كالمنية؛ لأنه مقدر، فهو من مني إذا قدر. وقوله: «والدهر... إلخ» جملة حالية. ويقال: أعتبه، إذا قبل عتابه وأزال شكواه؛ فشبه الدهر بإنسان مسيء على طريق المكنية، وإسناد الإعتاب تخييل. والجزع: شدة الحزن.

ينظر: إنباه الرواة ١/ ٢٨٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٢٠، وسمط اللآلي ص ٤٤٩، وشرح أشعار الهذليين ١/ ٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٠٥، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٦٢، ولسان العرب ١٣/ ٤١٥، ٤١٦ (منن)، والمقاصد النحوية ٣/ ٤٩٣.

يزعمون؟ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدّق استماع مستمعهم/ ٢/ ٢٠٠أ. المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه، أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم[(١)] فزهدهم ذلك في اتباعك؟ ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث، وإن بعثنا لم نعذب[(٢)] ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم. وذلك أنهم قتلوا يوم بدر. أو المغلوبون في الكيد، من كايدته فكدته.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] يريد: أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب. وقرئ: «حتى يلقوا» ويلقوا ﴿يُصْعَقُونَ﴾ يموتون. وقرئ: «يصعقون». يقال. صعقه فصعق، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن. لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون يوم القيامة: وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد الله: دون ذلك تقريبًا.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مثل، أي: بحيث نراك ونكلؤك. وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقرئ: «بأعينا»، بالإدغام ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت. وقيل: من منامك ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ: «وأدبار»، بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت، والمراد الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه، ومن الليل: صلاة

---

(١) قوله: «فدحهم فزهدهم» أي: أثقلهم وبهظهم. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «وإن بعثنا لم نعذب» لعله: لا نعذب. (ع)

العشاءين، وأدبار النجوم: صلاة الفجر.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته» (١٥١٠).

١٥١٠ ـ تقدم ـ برقم (٣٤٦)

قال الحافظ:

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

سورة النجم

مكية [إلا آية ٣٢ فمدنية] وآياتها ٦٢ وقيل ٦١ آية
[نزلت بعد الإخلاص]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

(النجم): الثريا، وهو اسم غالب لها. قال [من مجزوء الرمل المخزوم]:

إِذَا طَـلَـعَ الـنَّـجْـمُ عِـشَـاءَ   إبْـتَـغَـى الـرَّاعِـي كِـسَـاءَ[١]

أو جنس النجوم. قال [من الطويل]:

فَـبَـاتَـتْ تَـعُـدُّ الـنَّـجْـمَ فِـي مُـسْـتَـحِـيـرَةٍ   ....[٢]

---

(١) هذا تقوله العرب عند الشتاء، وتقول عند الصيف: طلع النجم غدية. وابتغى الراعي شكية.
والنجم: اسم غالب على الثريا؛ قيل: إنها تخفى في السنة أربعين يومًا يسترها ضوء الشمس، وتظهر عند دخول الشتاء عشاءًا، وعند دخول الصيف صباحًا، والكساء: ثوب سابغ. والغدية: تصغير غدوة: وهي أول النهار. والشكية: تصغير شكوة، وهي قربة صغيرة جرداء؛ لأنه في الشتاء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد، وفي الصيف يطلب قربة يشرب منها لكثرة الحر؛ والأول كناية عن دخول البرد، والثاني كناية عن دخول الحر.
ينظر: البحر (٨/٥٧)، واللسان «بيع»، والدر المصون (٦/٢٠٣).

(٢)
فقد علموا أني وفيت لربها   فراح على عنس بأخرى يقودها
قريت الكلابي الذي يبتغي القرى   وأمك إذ يحدى إلينا قعودها
فباتت تعد النجم في مستحيرة   سريع بأيدي الآكلين جمودها
فلما سقيناها العكيس تملأت   مذاخرها وارفض منها وريدها
ولما قضت من ذي الإناء لبانة   أرادت إلينا حاجة لا نريدها =

يريد النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة. أو النجم الذي يرجم به إذا هوى: إذا انقضّ. أو النجم من نجوم القرآن، وقد نزل منجمًا في عشرين سنة، إذا هوى: إذا نزل. أو النبات إذا هوى: إذا سقط على الأرض. وعن عروة بن الزبير: أنّ عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام، فقال: لآتينّ محمدًا فلأوذينه؛ فأتاه فقال: يا محمد، هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك، وكان أبو طالب حاضرًا، فوجم[1] لها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة! فرجع عتبة إلى أبيه، فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم؛ وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم، حتى ضرب عتبة فقتله (١٥١١). وقال حسان [من السريع]:

١٥١١ ـ أخرجه الحاكم من مستدركه (٢/٥٣٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٣٨) كلاهما من طريق =

= للراعي النميري من بني قطن بن ربيعة: نزل به أضياف من بني كلاب وقد غابت إبله، فنحر لهم ناقة من ركابهم، فلما أصبح أقبلت عليه إبله، فأعطى صاحب الناقة مثلها، وأعطاه ثنية زيادة عليها، فذمه خنزر بن أرقم من بني بدر بن ربيعة على ذبحها، فأجابه الراعي بقصيدة منها ذلك. والعنس: الناقة الصلبة. وأمك: عطف على الكلابي. ويحدى: مبني للمجهول، أي: يساق بالدنناء له. والقعود ـ كصبور ـ: البكر من الإبل؛ لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره. وروي: إذ يحدى إليك، بدل إلينا. ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف؛ فباتت أمك تعد النجم، أي: تحسب صور النجوم، أو تحسب فقاقع المرق في الجفنة؛ فاستعار لها النجم على سبيل التصريحية. أو تحسب الثريا؛ لأن النجم اسم غالب عليها، وهي سبعة نجوم: ترى صورتها في ليالي الشتاء. وقيل: المراد بالعد هنا: الظن، أي باتت تظنها فيها. والمستحيرة: المتحيرة بامتلائها من المرق. ويروى: مستجرة لأنها تجر الناس للأكل منها والعكس: المرق الممزوج باللبن الحليب. وتملأت: امتلأت. ويروى: تمدحت، بالدال المهملة، أي: اتسعت من الشبع. ويروى بالمعجمة، أي: اصطكت واضطربت. والمذاخر: مواضع الذخائر: والمراد بها المعدة والأمعاء. ويروى: خواصرها، أي: جوانبها. وارفض: رشح وترشرش وارتعد ونفر، ويروى: وازداد رشحا وريدها. أي: باتت تنظر النجوم في جفنة كثيرة المرق والدسم، سريع جمود دسمها على أيدي الآكلين من برد الشتاء، حتى إذا امتلأت بطنها ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة، أي: حاجة من صاحب الإناء وهو المرق واللبن: طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها؛ لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداه بإلى، ويجوز أنها بمعنى من، كما أوضحناه في آخر حرف الباء.
ينظر: ديوانه ص ٩٢، ولسان العرب (نجم)، وتاج العروس (نجم)، والمعاني الكبير ص ٣٧٥، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٨٥، وبلا نسبة في لسان العرب (نجم)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٢٧، والكامل ص ٧٩٥.

(١) قوله: «فوجم لها» أي اشتد حزنه. أفاده الصحاح. (ع)

مَــنْ يَــرْجِــعُ الْــعَــامَ إِلَــى أَهْــلِــهِ   فَــمَــا أَكِــيــلُ الــسَّــبْــعِ بِــالــرَّاجِــعِ[1]

= العباس بن الفضل الأزرق، قال: حدثنا الأسود بن شيبان قال حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدعو عليه...».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت، وفي هذا التصحيح نظر؛ فإن عباس بن الفضل وهو أبو عثمان الأزرق.

قال البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥/ ١٧)، ذهب حديثه.

وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٦/ ٢١٣/ ١١٦٧) ذهب حديثه وترك أبو زرعة حديثه ولم يقرأه علينا...

وأورده الحاكم من رواية «العباس بن الفضل الأنصاري» فوهم كما قال الذهبي في الميزان (٢/ ٣٨٦) فالأنصاري غير الأزرق وكلاهما ضعيف.

وقال البيهقي في الدلائل: «عباس بن الفضل وليس بالقوي» لهب بن أبي لهب وأهل المغازي يقولون: عتبة بن أبي لهب وقال بعضهم: عتيبة. أ. هـ.

وأخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن حبار بن الأسود به وساق قصة طويلة وابن إسحاق لم يسمع من عثمان بن عروة، فإسناده منقطع،

وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٣٥) (١٠٦٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) كلاهما من طريق أحمد بن المقدام ثنا زهير بن العلاء العيدي عن ابن أبي عروبة عن قتادة بن دعامة قال: تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عتيبة بن أبي لهب...

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١ ـ ٢٢): رواه الطبراني هكذا مرسلاً، وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف.

وأخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠) عن معمر بن قتادة به مختصرًا،

وأخرجه أيضًا عن معمر عن عبدالله بن طاووس عن أبيه قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أما يخاف أن يسلط الله عليه كلبه»...

وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٥٠٣) (٣٢٤١٨) عن قتادة مرسلاً وبالجملة فالحديث ورد من طرق مرسلة أو مقطوعة اللهم إلا طريق أبي عقرب لكن فيه من قد ضعف... وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٩): وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه:

وقال الحافظ:

أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله. إلا أنه قال: «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة، فمات مكانه» ورواه البيهقي في الدلائل والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه. لكن قال عنبسة: ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضًا. من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه. قال «كان لهب بن أبي لهب» فذكره مختصرًا. وقال البيهقي: هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق. وليس بالقوي. وأهل المغازي يقولونه عتبة أو عتيبة. انتهى.

---

(١) لا يــرفــع الــرحــمــن مــصــروعــكــم   ولا يُــــوَهِّــــنْ قــــوة الــصــــارع
وكــــان فـــيـــه لــكــم عـــبـــرة   لــلــســيــد الــمــتــبــوع والــتــابــع =

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمدًا ﷺ: والخطاب لقريش، وهو جواب القسم، والضلال: نقيض الهدى، والغيّ نقيض الرشد، أي: هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغيّ، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، وإنما هو وحي من عند الله يوحىٰ إليه. ويحتج بهذه الآية/ ٢/ ٢٠٠ب من لا يرى الاجتهاد للأنبياء، ويجاب بأنّ الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيًا لا نطقًا عن الهوى ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ملك شديد قواه، والإضافة غير حقيقية، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، وهو جبريل عليه السلام، ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف[1]، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدّسة، فنفحه بجناحه نفحة فألقاه في أقصى جبل بالهند ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة في عقله[2] ورأيه ومتانة في دينه ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقة دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي؛ وكان ينزل في صورة دحية، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها، فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق.

= مـن يـرجـع العـام إلـى أهـلـه ... فـمـا أكـيـل السـبـع بـالـراجـع
مـن عـاد فـالـلـيـث لـه عـائـد ... أعـظـم بـه مـن خـبـر شـائـع

لحسان بن ثابت. روي عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبي لهب كان تحته بنت رسول الله ﷺ، فذهب إليه وقال: إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال ﷺ: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله، فقال حسان ذلك؛ والفعلان مجزومان بلا الدعائية. ويوهن بالتشديد؛ والمعنى للدعاء على القتيل والدعاء للقاتل. والمصروع: المطروح. والعبرة: الاعتبار أو ما يعتبر به. والتابع عطف على السيد. من يرجع في هذا العام إلى أهله فلن يوجب رجوع غيره؛ لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يتمن أهله رجوعه، لاستحالته وسكون السبع لغة، ثم قال: من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له، وأعظم به: صيغة تعجب، من خبر: تمييز مقترن بمن، شائع: ذائع منتشر.

(١) قوله: «في أوحى من رجعة الطرف» أي: أسرع من الوحي وهو السرعة، يمد ويقصر، كذا في الصحاح. وفيه أيضًا: نفحت الناقة: ضربت برجلها، ونفحه بالسيف، تناوله. (ع)

(٢) قوله: «ذو حصافة في عقله» أي: استحكام، أفاده الصحاح. (ع)

لم أجده هكذا. وفي الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة «أنا أول من سأل رسول الله، فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي رأيته عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطًا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض» وللترمذي وابن حبان «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى. ومرة في أجياد، له ستمائة جناح، وقد سد الأفق».

وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد ﷺ مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء (١٥١٢) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلق عليه في الهواء. ومنه: تدلت الثمرة، ودلى رجليه من السرير. والدوالي: الثمر المعلق. قال [من الطويل]:

تَـدَلَّـى عَـلَـيْـهَـا بَـيْـنَ سِـبٍّ وَخَـيْـطَـةٍ ....[1]

ويقال: هو مثل القرلى: إن رأى خيرًا تدلى، وإن لم يره تولى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عربيتين: والقاب والقيب؛ والقاد والقيد، والقيس: المقدار. وقرأ زيد بن علي: قاد. وقرئ: «قيد» وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح، والسوط، والذراع، والباع، والخطوة، والشبر، والفتر، والأصبع. ومنه: «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين» (١٥١٣). وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قدّه خير من

١٥١٢ ـ قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٥٦)، كتاب التفسير (٦٥)، باب «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» حديث رقم (٤٦١٢) وأطرافه حديث رقم (٤٨٥٥) وكتاب التوحيد (٧٣٨٠)، ومسلم (٢/ ٨ ـ ٩ ـ نووي)، كتاب الإيمان (١) ـ باب معنى قول الله عز وجل: «ولقد رآه نزلة...» حديث رقم (١٧٧/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩)،

والترمذي (٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، كتاب تفسير القرآن (٤٨)، باب «ومن سورة الأنعام». حديث رقم (٣٠٦٨) وباب ومن سورة النجم (٣٢٧٨)، والنسائي في التفسير (٢/ ١٧٥) رقم (٤٢٨)... كلهم من طريق عامر الشعبي عن مسروق أن عائشة قالت: يا أبا عائشة ثلاث من قال بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية....

وقال الحافظ:

لم أجده. هكذا. وذكر المرتين، تقدم في الذي قبله. انتهى.

١٥١٣ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٢٥)، كتاب الصلاة، باب من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة ـ حديث رقم (١٢٧٧)؛ وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩) (٢٦٠)، والحاكم في مستدركه =

---

(١) تـدلى عـلـيـهـا بـيـن سـب وخـيـطـة ... تـدلـي دلـو الـمـائـح الـمـتـشـمـر

يروى لأبي ذؤيب بدل الشطر الثاني: بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها. والسب ـ بالكسر ـ: الحبل، والخمار، والعمامة، والخيطة كذلك الوتد ونحوه: في لغة هذيل. والمائح: مالئ الدلو من أسفل البئر. والماتح ـ بالتاء ـ: المستقي، يصف جاني العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل؛ لأنه يؤنث أيضًا، أي: نزل متمسكًا بحبل مشدود في وتد، كتدلي دلو المالئ النشيط. والجرداء: فرس قليلة الشعر. والوكف: النطع. وكبا الجواد يكبو: سقط على وجهه. وغراب الدابة: أعلى ظهرها، أي: كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها.

ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ٥٣، ولسان العرب (سبب)، (جرد)، (دعس)، (خيط)، (وكف)، وديوان الأدب ٣/ ٢٠٧، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٤، وتاج العروس (سبب)، (دعس)، (خيط)، وتهذيب اللغة ٢/ ٧٥، ١٠/ ٣٩٤، ١٢/ ٣١٣، وللهذلي في مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٤، ٣/ ٦٤، ومجمل اللغة ٣/ ٥٨، وبلا نسبة في المخصّص ٤/ ١٠٢، ٩/ ١٧٢، ومجمل اللغة ٢/ ٢٣٠.

الدنيا وما فيها» (١٥١٤) والقدّ: السوط. ويقال: بينهما خطوات يسيرة. وقال [من الطويل]:

. . . .   وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيمَةَ أَصْبُعَا[1]

= (١/ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢).

كلهم من طريق أبي توبة الربيع بن نافع ثنا محمد بن المهاجر، عن العباس بن سالم عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخفى. . . وفيه قلت: أي الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر فصل ما شئت، فإن الصلاة مشهودة مكتوبة، حتى تصلي الصبح، ثم أقصر حتى تطلع الشمس، فترتفع قيد رمح أو رمحين. . . .» ورواية أبي داود مختصرة.

وقال الحاكم: قد خرج مسلم بعض هذه الألفاظ من حديث النضر بن محمد الجرشي عن عكرمة ابن عمار عن شداد بن عبدالله عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة وحديث العباس بن سالم هذا أشفى وأتم من حديث عكرمة بن عمار، أ. هـ.

والحديث أخرجه أحمد (٤/ ١١٢، ١١٤)، والترمذي (٥/ ٥٦٩)، كتاب الدعوات (٤٩) حديث رقم (٣٥٧٩)، والنسائي (١/ ٩١ ـ ٢٧٩) وعبد بن حميد (٢٩٧) من طرق عن عمرو بن عبسة به والروايات مطولة ومختصرة وله شاهد من حديث أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف عن أبيه قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر، ثم الصلاة مقبولة حتى تصلي الفجر، ثم لا صلاة حتى تكون الشمس قيد رمح أو رمحين. . .».

أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤) (٢٧٩)،

وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٤٦): رواه الطبراني، وأبو سلمة لم يسمع من أبيه، وبقية رجاله حديثهم حسن.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٠) لإسحاق بن راهويه في مسنده من طريق جرير عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كعب بن مرة الأسلمي قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي الليل الأخير. . . ثم لا صلاة حتى تكون الشمس قيد رمح أو رمحين. . .».

وقال الحافظ:

أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة في حديث طويل ورواه إسحاق والدارقطني من حديث كعب بن مرة نحوه في حديث، ورواه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن عوف مختصرًا. انتهى.

١٥١٤ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٩٢)، كتاب الجهاد والسير (٥٦)، باب الحور العين وصفتهن (٦) (٢٧٩٦)، والترمذي (٥/ ١٨١)، كتاب فضائل الجهاد، (١٦٥١)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٣) مختصرًا.

وقال الحافظ:

أخرجه البخاري من طريق حميد عن أنس أتم من هذا. انتهى.

---

(١) فأدرك إبقاء العراوة ظلعها   وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

للكَلْحَبَة، وهو لقب لعبد الله بن هبيرة. وقيل: جرير بن هبيرة. وقيل: هبيرة بن عبد مناف. وقيل: هو للأسود بن يعفر. وقيل: لرؤبة وليس بشيء. والإبقاء: ما تبقيه الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد. والعراوة كجرادة. وقيل: بالكسر اسم فرسه. والظلع ـ بالفتح ـ: غمز في المشية من وجع الرجل، أي: أدرك الظلع ما أبقته الفرس فلم تقدر على بذله، والحال أنها جعلتني قريبًا من =

فإن قلت: كيف تقدير قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؟ قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين[1]، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله:

.... وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

أي: ذا مقدار مسافة أصبع ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر، لأنه لا يلبس؛ كقوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥]. ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى[2] إليه: قيل أوحي إليه «إنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ﴿مَا كَذَبَ﴾ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذبًا، لأنه عرفه، يعني: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أنّ ما رآه حق وقرئ: «ما كذب» أي صدّقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة[3]، كأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه. وقرئ: «أفتمرونه» أفتغلبونه في المراء، من ماريته فمريته، ولما فيه من معنى الغلبة عدّى بعلى، كما تقول: غلبته على كذا: وقيل: أفتمرونه: أفتجحدونه. وأنشدوا [من البسيط]:

لَئِنْ هَجَوْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ ... لَقَدْ مَرَيْتَ أَخًا مَا كَانَ يَمْرِيكَا[4]

= عدوي حزيمة بمهملة مفتوحة فمعجمة مكسورة: رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه. وقيل: قبيلته وليس بذاك. ويروى: فأدرك إرقال العراوة. والإرقال: رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه. وقيل: قبيلته وليس بذاك. ويروى: فأدرك إرقال العراوة. والإرقال: الإسراع في السير، أي: أبطل إسراعها العرج؛ ولا بد من تأويل قوله: جعلتني أصبعًا أي: جعلتني ذا مسافة أصبع. أو جعلت مسافتي مقدار أصبع.

ينظر: خزانة الأدب ٤/ ٤٠١، وشرح اختيارات المفضّل ص ١٤٦، ولسان العرب (حرم)، (بقي)، وتاج العروس (حرم)، (بقي)، وللأسود بن يعفر في ملحق ديوانه ص ٦٨، وشرح المفصل ١/ ٣١، وللأسود أو للكلحبة في المقاصد النحوية ٣/ ٤٤٢، ولرؤبة في مغني اللبيب ٢/ ٢٦٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/ ٣٢٥.

(١) قال محمود: «تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره» قال أحمد: وقد قال بعضهم: إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة؛ لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وتري قوسيهما» قال أحمد: وفيه ميل لقوله: (أو أدنى).

(٢) قال محمود: «هذا تفخيم للوحي الذي أوحى الله إليه» قال أحمد: التفخيم لما فيه من الإبهام، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان، وهو كقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

(٣) قوله: «من مرى الناقة» في الصحاح: مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها لتدر. (ع)

(٤) يقول لصاحبه:

وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته، وتعديته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى من النزول، نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة، لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل، فكانت في حكمها، أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه، فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج. قيل: في سدرة المنتهى: هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش: ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها. والمنتهى: بمعنى موضع الانتهاء، أو الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ الجنة التي يصير إليها المتقون: عن الحسن. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقرأ علي وابن الزبير وجماعة «جنة المأوى» أي ستره بظلاله ودخله فيه. وعن عائشة: أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فأجنه الله ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾/٢/٢٠١أ تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله: أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله ﷺ: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله» (١٥١٥). وعنه عليه السلام: يغشاها رفرف من طير خضر (١٥١٦). وعن ابن مسعود وغيره: يغشاها فراش من ذهب (١٥١٧) ﴿مَا زَاغَ﴾ بصُر رسول الله ﷺ

١٥١٥ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/٥١٨) (٣٢٥١٩) حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «إذ يغشى السدرة... قيل: يا رسول الله، أي شيء رأيت؟...»
وفيه: «ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله».
وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ضعيف كما في التقريب (١/ ٤٨٠) والحديث معضل وقال الحافظ:
أخرجه الطبري من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: قيل له: يا رسول الله، أي شيء رأيت يغشى تلك الشجرة؟ فذكره وأتم منه، وعبدالرحمن ضعيف وهذا معضل. انتهى.

١٥١٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨١): غريب
وقال ابن حجر، لم أجده.

١٥١٧ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨١ و٣٨٢) لإسحاق بن راهويه في مسندة. =

= لئن ذممت أخا صدق ومكرمة، يعني: نفسه. ويقال: مرى الناقة، أي: حلبها. ومنه الممارة. كأن كلا من المتجادلين يمري ما عند صاحبه. ومنه: فقد مريت أخا صدق، أي: غلبته في الجدال وأنفذت ما عنده، لأن من حلب الناقة يتركها يابسة الضرع؛ أو جحدت حقه كأنك أخذته منه، أو تسببت في إخراج ما عنده، فيذمك كما ذممته. ما كان يمريك، أي: ما كان يفعل بك كذلك.
ينظر: البحر (٨/ ١٥٩)، الدر المصون (٦/ ٢٠٦).

﴿وما طغىٰ﴾ أي أثبت ما رآه إثباتا مستقيمًا صحيحًا من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزه، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى: وما جاوز ما أمر برؤيته ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ الآيات التي هي كبراها وعظماها[1]، يعني: حين رقي به إلى السماء فأري عجائب الملكوت.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ﴾ أصنام كانت لهم، وهي مؤنثات؛ فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش، وهي فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة. أو يلتوون عليها[2]: أي يطوفون. وقرئ «اللات» بالتشديد. وزعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالسويق ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت

= وقال الحافظ: أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه. انتهى.

(١) قال محمود: «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التي... إلخ» قال أحمد: ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه، لا مفعولاً به، ويكون المرئي محذوفًا لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى أمورًا عظامًا لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، وهذا ـ والله أعلم ـ أولى من الأول، لأن فيه تفخيمًا لآيات الله الكبرى، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، وفيه بعد؛ فإن آيات الله تعالى لا يحيط أحد علمًا بجملتها. فإن قال: عام أريد به خاص، فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرناه والله أعلم.

(٢) قال محمود: «اشتقاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا... إلخ» قال أحمد: الأخرى تأنيث آخر، ولا شك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجودي؛ إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي، بخلاف آخر وآخرة؛ على وزن فاعل وفاعلة؛ فإن إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير. ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر، على وزن الأفعل، وجمادى الأخرى: إلى ربيع الآخر، على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي، لأن الأفعل والفعل من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ـ رحمه الله تعالى ـ قد حرره آخر مدته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر، مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية، والله أعلم.

السويق بالطائف، وكانوا يعكفون على قبره، فجعلوه وثنًا، والعزّى كانت لغطفان وهي سمرة، وأصلها تأنيث الأعزّ، وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول [من الرجز]:

يَا عُزَّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكْ ... إنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكْ[1]

ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال عليه السلامَ: تلك العزّى ولن تعبد أبدًا (١٥١٨).

١٥١٨ ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١١٠ ـ ١١١)، (٧/ ٢٧٨) بسنده عن محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعبدالرحمن بن أبي الزناد وجماعة فذكر سرايا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنها سرية خالد بن الوليد، وأخرجه أيضًا في ترجمة خالد بن الوليد من طريق محمد بن عمر الواقدي. . . .

وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤)، كتاب التفسير (١١٥٤٧).

والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٧٧)،

وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص ٤٠٦)، باب قصة هدم بيت العزى كلهم من طريق محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي طفيل قال: لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة بعث خالد بن الوليد. . .

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٧٩) رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف. قلت: كذا وقع في المجمع «المطبوع» يحيى بن المنذر وهو خطأ، والصواب علي بن المنذر،

فرواه أبو نعيم في الدلائل كما تقدم من طريق الطبراني، ثنا الحسين بن إسحاق قال: ثنا علي بن المنذر قال: ثنا محمد بن فضيل به، وكذا رواه النسائي عن علي بن المنذر حدثنا محمد بن فضيل به.

«وعلي بن المنذر» هو ابن زيد الأودي أبو الحسن الكوفي. . .

قال أبو حاتم: محله الصدق، وقال النسائي، شيعي محض الثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٤٤): صدوق يتشيع.

وتابعه أبو كريب محمد بن العلاء عند البيهقي في الدلائل (٥/ ٧٧).

قلت وإسناد هذا الحديث حسن فرجاله كلهم موصوفون بالصدق إلا أنهم فيهم تشيع.

والحديث عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٤) لأبي يعلى الموصلي في مسنده ـ ولم أجده فلعله من المفقود، والله المستعان.

وعزاه أيضًا للواقدي في كتاب المغازي، وابن مردويه في تفسيره.

=

---

(١) لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ. وعز: مرخم عزى.
وترخيمه شاذ؛ لأنه ليس رباعيًا ولا مؤنثًا بالهاء، وهي شجرة كانت تعبدها الجاهلية، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة، فقال لها ذلك البيت. وقيل: ضربها بالفأس حتى قطعها وقتل الجنية.
وكفرانك: نصب بمحذوف وجوبًا، كسبحان، أي: أكفر كفرانًا بك، لا أنزه تنزيهًا لك؛ فهما مصدران مغنيان عن اللفظ بفعليهما. والإهانة: الإذلال.
ينظر: لسان العرب (عزز)، وتاج العروس (عزز) والمخصص (١٥/ ١٩٠).

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لثقيف. وقرئ: «ومناءة» وكأنها سميت مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها، أي: تراق، ومناءة مفعلة من النوء، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركًا بها. و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ذمّ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم. ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم للات والعزّى. كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات، فقيل لهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ويجوز أن يراد: أنّ اللات والعزّى ومناة إناث، وقد جعلتموهنّ لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادًا لله وتسمونهنّ آلهة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة، من ضازه يضيزه إذا ضامه، والأصل: ضوزى. ففعل بها ما فعل ببيض؛ لتسلم الياء. وقد قرئ: «ضئزى» من ضأزه بالهمز. وضيز: بفتح الضاد ﴿هِىَ﴾ ضمير الأصنام، أي: ما هي ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات، لأنكم تدّعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] أو ضمير الأسماء وهي قولهم، اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم، ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به. ومعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سميتم بها، يقال: سميته زيدًا، وسميته بزيد ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ وقرئ بالتاء ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق، وأنّ آلهتهم شفعاؤهم، وما تشتهيه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

= وقال الحافظ:
أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها، وكانت بنخلة عليها سادن فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره، ورواه الواقدي في المغازي والأزرقي في التاريخ من طريقه عن عبدالله بن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمرو الهذلي قال: «قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة فذكر القصة وفيها: فبعث خالد بن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة. وكذا ذكره ابن سعد في الطبقات في السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل قال: «لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ـ بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ـ وكانت بها العزى فأتاها خالد، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات». انتهى.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: ليس للإنسان ما تمنى، والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة، وهو تمنّ على الله في غاية البعد، وقيل: هو قولهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة «لأوتينّ مالاً وولدا» وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﷺ فللّه الآخرة والأولى أي هو مالكهما، فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك/ ٢/ ٢٠١ب أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئًا قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ لأنهم إذا قالوا: الملائكة بنات الله، فقد سموا كل واحد منهم بنتًا وهي تسمية الأنثى ﴿بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بذلك وبما يقولون(٢). وفي قراءة أبيّ: «بها»، أي: بالملائكة. أو التسمية ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ يعني: إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم ﴿فَأَعْرِضْ﴾ عن دعوة من رأيته معرضًا عن ذكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا، ولا تتهالك على إسلامه، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتعبها، فإنك لا تهدي من أحببت، وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله، إنّ ربك هو أعلم بالضالّ والمهتدي، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء.

---

(١) قوله: «بعبدتهم» لعله لعبدتهم، كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله: «وبما يقولون» لعله أو بما يقولون. (ع)

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

قرئ: «ليجزي» ويجزى، بالياء والنون فيهما. ومعناه: أنّ الله ـ عزّ وجل ـ إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض: وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء. و﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة. أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من الإثم؛ لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر: الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة. وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ مافحش من الكبائر، كأنه قال: والفواحش منها خاصة: وقرئ: «كبير الإثم» أي: النوع الكبير منه وقيل: هو الشرك بالله. واللمم: ما قلّ وصغر. ومنه: اللمم المس من الجنون، واللوثة منه. وألمّ بالمكان إذا قلّ فيه لبثه. وألمّ بالطعام: قلّ منه أكله؛ ومنه [من الطويل]:

لِـقَـاءُ أَخِـلاَّءِ الـصَّـفَـاءِ لِـمَـامُ(١) ....

والمراد الصغائر من الذنوب، ولا يخلو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ من أن يكون استثناء منقطعًا أو صفة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ **[الأنبياء: ٢٢]** كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم، وآلهة غير الله: وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة، والغمزة،

---

(١) لـقـاء أخـلاء الـصـفـاء لـمـام وكـل وصـال الـغـانـيـات ذمـام

أي: لقاء الأحباب الذين صفت مودتهم لمام. أي: قليل فهو فعال من الإلمام وهو الزيادة بلا تلبث ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات بجمالهن عن التحلي بالحلى أو المخدرات المقيمات في بيوتهن، من غنى بالمكان كرضي: أقام به، ذمام أي شيء قليل من حقوق الحرمة والذمة. وإطلاقه على ذلك مجاز، وحقيقته: الحرمة والذمة والمعاهدة والعهد الذي يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد، فهو إما مفاعلة من الذمة، وإما اسم آلة: كالحزام والوثاق، وقد يستعمل صفة لبئر قليلة الماء، ويستعمل جمع ذمة. والمعنى أن رؤية الأحباب قليلة إما حقيقة في العادة، وإما ادعاء واستقلالاً لها. ورؤية غيرهم كثيرة. وفيه معنى التحزن. ويجوز أن يقرأ: الدمام بالمهملة، وهو ما يطلى به الوجه ليحسن، والمعنى: أن وصالهن مجرد تمويه لا حقيقة له، والمعنى على التشبيه.
ينظر: البحر (٨/ ١٥٥)، الدر المصون (٦/ ٢١٢).

والقبلة، وعن السدّي: الخطرة من الذنب، وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا ولا عذابًا، وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر[1]، والكبائر بالتوبة ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم الله الزكيّ منكم والتقي أوّلاً وآخرًا قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فنزلت: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرّة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤)﴾

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ قطع عطيته وأمسك، وأصله: من إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كدية: وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه: أجبل الحافر، ثم استعير فقيل: أجبل الشاعر إذا أفحم. روي: أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح ـ وهو أخوه من الرضاعة ـ: يوشك أن لا يبقىٰ لك شيء، فقال عثمان: إن لي ذنوبًا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله ـ تعالى ـ وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فنزلت. ومعنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾ ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ فهو يعلم أن ما قاله له أخوه من احتمال أوزاره/ ٢ /٢٠٢أ حق ﴿وَفَّىٰٓ﴾ قرئ مخففًا ومشدّدًا، والتشديد مبالغة في الوفاء. أو بمعنى: وفر وأتم، كقوله

---

(١) قوله: «يكفر الصغائر باجتناب الكبائر» هذا عند المعتزلة، وعند أهل السنة بذلك. أو بمجرد الفضل. وكذا ما بعده. (ع)

تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوّة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهزيل بن شرحبيل[1]: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده؛ فأوّل من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب: عهد أن لا يسأل مخلوقًا، فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال. أمّا إليكما فلا. وعن النبي ﷺ: وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار (١٥١٩)، وهي صلاة الضحى. وروي: ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٥٢٠) [الروم: ١٧، ١٨]

١٥١٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٣٣) (٣٢٦١٨).
والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٥٤)، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، والثعلبي في تفاسيرهم كلهم من طريق جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه تلا هذه الآية: «وإبراهيم الذي وفى» ثم قال: «أتدري ما الذي وفى. . .».
وجعفر بن الزبير هو الحنفي الباهلي قال الحافظ في التقريب (١/ ١٣٠) متروك الحديث وكان صالحًا في نفسه.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٦٨) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والشيرازي في الألقاب والديلمي وقال: سنده ضعيف.
وقال الحافظ:
أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا به وأتم منه. انتهى.
١٥٢٠ ـ أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٣٩)، والطبراني في «معجمه الكبير» (٢٠/ ١٩٢) (٤٢٧)، كلاهما من طريق ابن لهيعة عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ألا أخبركم. . . .».
قلت: وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء، فابن لهيعة وزبان كلاهما ضعيف، وسهل بن معاذ بن أنس الجهني قال الحافظ في التقريب (١/ ٣٣٧): لا بأس به، إلا في روايات زبان عنه.
وتابع ابن لهيعة رشدين بن سعد عند الطبري في تفسيره (١١/ ٥٣٣) (٣٢٦١٧) ورشدين بن سعد، وهو أبو الحجاج المصري قال الحافظ في التقريب (١/ ٣٥١): ضعيف رجح أبو حاتم عليه ابن لهيعة. أ. هـ.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٤) لابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة ولابن مردويه والثعلبي وابن أبي حاتم.
وقال الحافظ:
=

---

(١) قوله: «وعن الهزيل بن شرحبيل» لعله: الهذيل. (ع)

وقيل: وفىٰ سهام الإسلام: وهي ثلاثون: عشرة في التوبة ﴿التَّٰئِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وعشرة في المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ وقرئ: «في صحف»، بالتخفيف ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أن مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه لا تزر، والضمير ضمير الشأن، ومحل أن وما بعدها: الجر بدلاً من ما في صحف موسى. أو الرفع على: هو أن لا تزر، كأن قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم، فقيل: أن لا تزر ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلا سعيه. فإن قلت: أما صحّ في الأخبار: الصدقة عن الميت، والحج عنه، وله الإضعاف؟ قلت: فيه جوابان، أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنيًا على سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمنًا صالحًا وكذلك الإضعاف - كأن سعي غيره كأنه سعي نفسه، لكونه تابعًا له وقائمًا بقيامه. والثاني؛ أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ ثم يجزى العبد سعيه، يقال: أجزاه الله عمله وجزاه على عمله، بحذف الجار وإيصال الفعل. ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه، كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ④②﴾ قرئ بالفتح على معنى: أن هذا كله في الصحف، وبالكسر على الابتداء، وكذلك ما بعده. والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء، أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]. ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق قوّتي الضحك والبكاء[1] ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تدفق في الرحم، يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من مني الماني، أي قدر المقدّر: قرئ: النشأة والنشاءة بالمد. وقال: (عليه) لأنها واجبة[2] عليه في الحكمة[3]، ليجازى

= أخرجه أحمد والطبراني وابن السني والطبري، وابن أبي حاتم من رواية ابن لهيعة عن زياد عن زبان عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به. انتهى.

---

(١) قال محمود: «أي خلق قوتي الضحك والبكاء» قال أحمد: وخلق أيضًا فعلي الضحك والبكاء على قواعد السنة، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه، والله الموفق.

(٢) قال محمود: «إنما قال عليه لأنها واجبة عليه... إلخ» قال أحمد: هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة للصلاح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب، تعالى الله عن ذلك. ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفي فيها كلمة محتملة؛ هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى؛ وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي. وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي هو الأصل فيه والسند، والله أعلم.

(٣) قوله: «لأنها واجبة عليه في الحكمة» هذا عند المعتزلة لا عند أهل السنة. (ع)

على الإحسان والإساءة ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ مرزم الجوزاء[1]: وهي التي تطلع وراءها، وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور. وكانت خزاعة تعبدها، سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: أبو كبشة، تشبيهًا له به لمخالفته إياهم في دينهم[2] (١٥٢١)، يريد: أنه رب معبودهم هذا. عاد الأولى: قوم هود، وعاد الأخرى: إرم. وقيل: الأولى القدماء لأنهم أوّل الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف. وقرئ: «عادا لولى. وعاد لولى، بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف (وثمودا) وقرئ: وثمود ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[3] لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وما أثر فيهم دعاؤه[4] قريبًا من ألف سنة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط، يقال: أفكه فائتفك: وقرئ «والمؤتفكات» ﴿أَهْوَىٰ﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ تهويل وتعظيم لما صبّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ تتشكك، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعمًا ونقمًا وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي إنذار من جنس الإنذارات

١٥٢١ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٥) ـ كأنه وهم إنما يقولون له: ابن أبي كبشة.
قلت وجاء ذلك في حديث أبي سفيان الطويل ـ وتقدم تخريجه ـ.
وقال الحافظ:
هذا وهم، والمعروف أنهم كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال: لقد أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر. يعني هرقل. انتهى.

---

(١) قوله: «مرزم الجوزاء» في الصحاح «المرزمان»: مرزما الشعريين، وهما نجمان: أحدهما في الشعرى، والآخر في الذراع اهـ. (ع)
(٢) هذا وهم، والمعروف أنهم كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال: لقد أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر؛ يعني هرقل.
(٣) قوله: «وقرئ وثمود أظلم وأطغى» يفيد أن قراءة التنوين أشهر. (ع)
(٤) قوله: «وما أثر فيهم دعاؤه» أي دعاؤه إياهم إلى الإسلام. (ع)

الأولى/ ٢/ ٢٠٢ب التي أنذر بها من قبلكم. أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأوّلين، وقال: الأولى على تأويل الجماعة ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ قربت الموصوفة بالقرب من قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ نفس ﴿كَاشِفَةٌ﴾ أي مبينة متى تقوم، كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو ليس لها نفس كاشفة، أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، غير أنه لا يكشفها. أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف: كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله ﷺ: أنه لم ير ضاحكًا بعد نزولها (١٥٢٢). وقرئ: تعجبون تضحكون، بغير واو ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ شامخون مبرطمون[1]. وقيل: لاهون لاعبون. وقال بعضهم لجاريته: اسمدي لنا، أي غني لنا ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ ولا تعبدوا الآلهة.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمد وجحد به بمكة» (١٥٢٣).

١٥٢٢ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٥) لأحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل، ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ قال الحافظ ابن حجر: بإسناد ضعيف أ. هـ.
وقال الحافظ:
أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف. انتهى.
١٥٢٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ:
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

---

(١) قوله: «شامخون مبرطمون» في الصحاح «البرطمة» الانتفاخ من الغضب اهـ. وفيه «السامد»: رافع رأسه تكبرًا، واللاهي، والمعنى، والقائم، والساكت، والحزين الخاشع، واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادًا: أي ورم غضبًا. (ع)

سورة القمر

مكية [إلا الآيات ٤٤ و٤٥ و٤٦ فمدنية]

وآياتها ٥٥ [نزلت بعد الطارق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝﴾

انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشق القمر مرتين (١٥٢٤). وكذا عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ، قال ابن عباس: انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت[1]

١٥٢٤ ـ ورد انشقاق القمر عن جماعة من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم أنس بن مالك، وابن مسعود، وابن عمر، وجبير بن مطعم، وابن عباس.
ـ حديث أنس بن مالك:
أخرجه البخاري (٦/ ٧٣٠) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٧) وفي (٧/ ٢٢١) كتاب مناقب الأنصار: باب انشقاق القمر حديث (٣٨٦٨) وفي (٨/ ٤٨٤) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٨٦٧، ٤٨٦٨)، ومسلم (٤/ ٢١٥٩) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٤٦/ ٢٨٠٢) والترمذي (٥/ ٣٩٧) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٦)، وأحمد (٣/ ٢٧٥، ٢٧٨)، وأبو داود الطيالسي (٢/ ١٢٣ منحة) رقم (٢٤٤٩)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) رقم (٣٢٦٨٨ ـ ٣٢٦٩٣) وأبو يعلى (٥/ ٣٠٦) رقم (٢٩٢٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٣٠٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) من طرق عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين».
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

=

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل، من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وفي الصحيحين عنه: «انشق القمر على زمان رسول الله ﷺ».

. . . .

- - - - - - - - - - - - - - -

= ـ حديث عبدالله بن مسعود:
أخرجه البخاري (٦/ ٧٣٠) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٦) وفي (٧/ ٢٢١) كتاب مناقب الأنصار: باب انشقاق القمر حديث (٣٨٦٩) و(٣٨٧١) وفي (٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٧٦٤، ٤٨٦٥) ومسلم (٤/ ٢١٥٨ ـ ٢١٥٩) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب انشقاق القمر حديث (٤٣، ٤٤، ٤٥/ ٢٨٠٠) والترمذي (٥/ ٣٩٨) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٧) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٥) رقم (٣٢٦٩٤، ٣٢٦٩٥) والحاكم (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٦٥) كلهم من طريق أبي معمر عن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اشهدوا.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما اتفقا على حديث أبي معمر عن عبدالله بن مسعود مختصرًا وهذا حديث لا نستغني فيه عن متابعة الصحابة بعضهم لبعض لمغايظة أهل الإلحاد فإنه أول آيات الشريعة أ. هـ.
وللحديث طرق أخرى عن ابن مسعود.
فأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧١) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٥) رقم (٣٢٦٩٨) من طريق الأسود عن ابن مسعود وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة وبهذا اللفظ.
ووافقه الذهبي
وهذا الطريق ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل».
وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٥) رقم (٣٢٦٩٩) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص ٢٠٢) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٦٦) من طريق أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧٦) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه.
ـ حديث ابن عمر:
أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٩) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٢٨٠١) والترمذي (٥/ ٣٩٨) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٨) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٥) رقم (٣٢٦٩٦) والحاكم (٢/ ٤٧٢) وأبو نعيم في «الدلائل» (ص ٢٠١) والبيهقي (٢/ ٢٦٧) كلهم من طريق شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر بمثل حديث ابن مسعود المتفق على صحته.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
ـ حديث جبير بن مطعم:
أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩٨) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٩) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٦) رقم (٣٢٧٠٥) من طريق حصين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم. =

(١٥٢٥). وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر[١] (١٥٢٦). وعن بعض الناس: أن معناه ينشق يوم القيامة. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ يردّه،

= وقال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا الحديث عن حصين عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده جبير بن مطعم نحوه أ. هـ.

قلت: والطريق الذي أشار إليه الترمذي رحمه الله أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٨).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور»(٦/ ١٧٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وأبي نعيم في «الدلائل».

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه البخاري (٦/ ٧٣٠) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٨) وفي (٨/ ٤٨٤) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٨٦٦) ومسلم (٤/ ٢١٥٩) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٤٨/ ٢٨٠٣) والحاكم (٢/ ٤٧٢) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٦) رقم (٣٢٧٠٧) من طريق عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس قال: انشق القمر في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

تنبيهات

(١) صحح الحاكم رحمه الله حديث ابن عمر وابن عباس على شرط الشيخين وهذا منه وهم رحمه الله فحديث ابن عمر قد أخرجه مسلم وحديث ابن عباس قد اتفق الشيخان على إخراجه.

(٢) عزا السيوطي رحمه الله حديث أنس بن مالك وجبير بن مطعم إلى أبي نعيم في «الدلائل» ولم أجد حديث واحد منهما عنده بعد البحث والتحري.

(٣) الحديث من هذه الطرق يبلغ حد التواتر على شرط بعض العلماء.

وقال الحافظ: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

١٥٢٥ ـ ينظر الحديث السابق وقال الحافظ:

أخرجه أبو نعيم في الدلائل، من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وفي الصحيحين عنه: «انشق القمر على زمان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ». انتهى

١٥٢٦ ـ ينظر حديث (١٥٢٤)

وقال الحافظ:

أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: «ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين» وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه: «بينما نحن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنى إذا انفلق القمر فلقتين، وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال «اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم. وعن جبير بن معطم. عن الحاكم في المستدرك، وعند أحمد أيضًا. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: «ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين»، وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذا انفلق القمر فلقتين، وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال: اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم. وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرك، وعن أحمد أيضًا.

وكفى به رادًا، وفي قراءة حذيفة «وقد انشق القمر» أي: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم (١٥٢٧). مستمر: دائم مطرد، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله، قيل فيه: قد استمرّ. لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات، قالوا: هذا سحر مستمرّ. وقيل: مستمرّ قويّ محكم، من قولهم: استمر مريره[١]. وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته، أي: مستبشع عندنا، مرّ على لهواتنا، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر[٢]. وقيل: مستمرّ مارّ، ذاهب يزول ولا يبقى، تمنية لأنفسهم وتعليلاً. وقرئ: وإن يروا ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ: بفتح القاف، يعني «كل أمر ذو مستقرّ» أي: ذو استقرار. أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبي جعفر؛ «مستقر» بكسر القاف والجرّ عطفًا على الساعة، أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجار أو موضع ازدجار. والمعنى: هو في نفسه موضع

١٥٢٧ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٩)
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ:
أخرجه الحاكم والطبراني وأبو نعيم من رواية ابن عُلية عن عطاء بن السائب عن ابن عبدالرحمن بهذا وأتم منه ورواه عبدالرزاق من وجه آخر عن عطاء وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء. انتهى.

---

(١) قوله: «استمر مريره» في الصحاح «المرير»: الغريمة وما لطف وطال واشتد فتله من الحبال. (ع)
(٢) قوله: «كما يساغ المر الممقر» في الصحاح مقر الشيء وأمقر، أي: صار مرًا. (ع)

الازدجار ومظنة له، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: هو أسوة. وقرئ: «مزَّجر» بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاي فيها ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ بدل من ما. أو على: هو حكمة. وقرئ بالنصب حالاً من ما. فإن قلت: إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب «حكمة» حالاً، فكيف تعمل إن كانت موصوفة؟ وهو الظاهر. قلت: تخصصها الصفة؛ فيحسن نصب الحال عنها ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي أو إنكار. وما منصوبة، أي: فأيّ غناء تغني النذر ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم. نصب ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بيخرجون، أو بإضمار اذكر. وقرئ: بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها، والداعي إسرافيل أو جبريل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: «نكر» بالتخفيف؛ ونكر بمعنى أنكر/ ٢/ ٢٠٣أ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر، كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرى: «خاشعة» على: تخشع أبصارهم. وخشعًا، على: يخشعن أبصارهم، وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث، وهم طيء. ويجوز أن يكون في ﴿خُشَّعًا﴾ ضميرهم، وتقع ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ بدلاً عنه. وقرئ؛ خشع أبصارهم، على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله [من البسيط]:

.... وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ[1]

وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ: يخرجون من الأجداث؛ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموّج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد، وكالدبا[2] منتشر في كل مكان لكثرته ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم. قال [من الطويل]:

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى ... وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ[3]

---

(١) إن الذي كنت أرجو فضل نائله ... وجدته حاضراه الجود والكرم
يقول: إن الذي كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه ـ وجدته مصاحبًا للجود والكرم. وهما مبتدأ خبره حاضراه، والجملة محلها نصب مفعول ثان، وحضورهما: كناية عن قيامهما به.

(٢) قوله: «كالجراد وكالدبا»، في الصحاح «الدبا» الجراد قبل أن يطير، والواحدة دباة. (ع)

(٣) الكلام على حذف حرف الاستفهام الإنكاري، أي: أيتخذني عبدًا هذا الرجل، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه، وهو قوله: ونمر بن سعد مطيع لي ومهطع، أي: منتظر أمري ليمتثله، أو مسرع إلى امتثاله، وأظهر في مقام الإضمار تعجبًا منه واستخفافًا بشأنه، ونمر: بسكون الميم.
ينظر: لسان العرب (عبد)، (نمر)، (هطع)، وديوان الأدب ٢/ ٣١٢، ومقاييس اللغة ٤/ ٢٠٦، وكتاب العين ١/ ١٠١، ٢/ ٤٨، وأساس البلاغة (عبد)، (هطع)، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٥، وتاج =

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحًا. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾[1]؟ قلت: معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيبًا على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأسًا كذبوا نوحًا؛ لأنه من جملة الرسل ﴿مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وقيل: هو من جملة قيلهم، أي: قالوا هو مجنون، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه. قرئ: أني، بمعنى: فدعا بأني مغلوب، وإني: على إرادة القول، فدعا فقال: إني مغلوب[2] غلبني قومي، فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَانْتَصِرْ﴾ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طمّ عليه الأمروبلغ السيل الزُّبا[3]، فقد روي: أنّ الواحد من أمّته كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشيًا عليه. فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا

= العروس (نمر)، (هطع).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة كذبوا بعد قوله: كذبت قبلهم قوم نوح... إلخ» قال أحمد: قد تقدم كلامه على قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وأجاب عنه بجوابين: أحدهما متعذر ههنا، والآخر: ممكن وهو أن ذلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر ـ بمحمد عليه الصلاة والسلام ـ، وقد مضى لي جوابان: أحدهما: يمكن إجراؤه هنا، وحاصله منع ورود السؤال؛ لأن الأول مطلق والثاني مقيد؛ فليس تكرارًا. وهو كقوله في هذه السورة: (فتعاطى فعقر) فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن ذكره من جهة عمومه، ثم من ناحية خصوصه إسهابًا، وهو بمثابة ذكره مرتين، وجواب آخر هنا: وهو أن المكذب أولاً محذوف دل عليه ذكر نوح، فكأنه قال: كذبت قوم نوح نوحًا، ثم جاء بتكذيبهم ثانيًا مضافًا إلى قوله: (عبدنا) فوصف نوحًا بخصوص العبودية، وأضافه إليه إضافة تشريف؛ فالتكذيب المخبر عنه ثانيًا أبشع عليهم من المذكور أولاً لتلك اللمحة، والله أعلم.

(٢) قوله: «فدعا فقال: إني مغلوب» لعله: أي فدعا فقال. (ع)

(٣) قوله: «وبلغ السيل الربا» لعله جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض كالرابية. أفاده الصحاح؛ لكن فيه في حرف الزاي: والزبية الرابية لا يعلوها الماء. وفي المثل: قد بلغ السيل الزبى. والزبية: حفرة تحفر للأسد في موضع عال لأجل صيده. اهـ ملخصًا. (ع)

يعلمون. وقرئ: ففتحنا مخففًا ومشدّدًا، وكذلك وفجرنا ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ منصبّ في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يومًا ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ يعني مياه السماء والأرض. وقرئ: «الماءان»، أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي. ونحوه قولك: عندي تمران، تريد: ضربان من التمر: برني ومعقلي. قال [من الطويل]:

لَنَا إِبِلَانِ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمُ ....[1]

وقرأ الحسن «الماوان»، بقلب الهمزة واوًا، كقولهم: علباوان ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. وقيل: على حال جاءت مقدّرة مستوية: وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتودي مؤداها. بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه [من الخفيف]:

.... وَلَكِـ ـنَ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ[2]

أراد: ولكن قميصي درع، وكذلك [من الطويل]:

---

(١) لنا إبلان فيهما ما علمتم فعن أيهما ما شئتم فتنكبوا؟

يقول: لنا قطيعان من الإبل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء، فاحملوا ما شئتم منهما على مناكبكم، أي: خذوه وافصلوه عن الباقي. أو المعنى: اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أردتموه منهما في مناكب الأرض، فإننا حماته. وأيهما: بالسكون لغة في أي المشددة. وما شئتم: بدل منه. ويجوز أن «ما» زائدة، أي: ففي أيهما شئتم فانصرفوا في مناكب الأرض وطرقها مبعدين عنهما. ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به، أو مفعول مطلق مقدم على عامله، والفاء الثانية تكرير للأولى. ويجوز أنها إشارة إلى ما في المعمول من معنى الشرط، أي: فإما عن أيهما، أو فإما ما شئتم فتنكبوا، أي: تجنبوا.

وهو لشعبة بن قمير في شرح شواهد الإيضاح ص ٥٦١، ولعوف بن عطيّة في الأصمعيّات ص ١٦٧ (بتغيير القافية، ففيه «فسالما» مكان «فتنكبوا»)، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٧/ ٥٦٤، ٥٨٠، وشرح المفصل ٤/ ١٥٤، ولسان العرب (نكب).

(٢) مفرشي صهوة الحصان ولكنـ ـنَ قميصي مسرودة من حديد

الصهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس. يقول: مفرشي ظهر حصاني. وقميصي: درع من حديد متتابعة النسج، يعني أنه ليس من أهل التنعم، بل من أهل البدو والغزو. والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم، مبالغة في المدح.

البيت للمتنبي، ينظر: ديوانه ١/ ٦٣، الدر المصون (٦/ ٢٢٧).

.... وَلَـوْ فِـي عُـيُـونِ الـنَّـازِيَـاتِ بِـأَكْـرُعِ[1]

أراد: ولو في عيون الجراد. ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين، لم يصح، وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدسر: جمع دسار: وهو المسمار، فعال من دسره إذا دفعه؛ لأنه يدسر به منفذه ﴿جَزَآءً﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده، أي فعلنا ذلك جزاء، ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وهو نوح ـ عليه السلام ـ، وجعله مكفورًا لأنّ النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح ـ عليه السلام ـ نعمة مكفورة، ومن هذا المعنى ما يحكى أنّ رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حمدت الله عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة: كفر، أي جزاء للكافرين. وقرأ الحسن «جزاء»، بالكسر: أي مجازاة. الضمير في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ للسفينة. أو للفعلة، أي: جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً،/ ٢/ ٢٠٣ب حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والمدّكر: المعتبر. وقرئ: «مذتكر» على الأصل. ومذكر، بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها. وهذا نحو: مذجر. والنذر: جمع نذير وهو الإنذار ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للادكار والاتعاظ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن﴾ متعظ. وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه. ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر، من يسر ناقته للسفر: إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو: إذا أسرجه وألجمه. قال [من الطويل]:

وَقُـمْـتُ إِلَـيْـهِ بِـالـلِّـجَـامِ مُـيَـسَّـرًا ... هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ[2]

---

(١) وإني لأستوفي حقوقي جاهدًا ... ولو في عيون النازيات بأكرع

يقول: ولا بد من الاجتهاد في تخليص حقوقي وأخذها، ولو كانت في أخفى مكان وأبعده كعيون الجراد النازيات الواثبات بأكرع، أي أرجل دقيقة جمع كراع: فحذف الموصوف وكنى عنه بالنازيات صفته لجريانها مجرى الاسم. وقيل: المعنى لا بد من أخذ إبلي ولو كانت هزالاً جدًا بحيث ترى في عيون الجراد لصغرها، أي: ولو كانت كأنها كذلك.
ينظر: الدر المصون (٦/ ٢٢٧).

(٢) أرى أم سهل لا تزال تفجع ... تلوم وما أدري علام توجع
تلوم على أن أمنح الورد لقحة ... وما تستوي والورد ساعة تفزع
إذا هي قامت حاسرًا مشمعلة ... نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع
وقمت إليه باللجام ميسرًا ... هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

للأعرج المعنى الخارجي. وتفجع وتوجع: أصلها بتاءين حذفت إحداهما تخفيفًا. وعلام: استفهام عن علة التوجع. وأمنح: أعطى والورد: اسم فرسه. واللقحة: اللبن الحليب. والحاسر: العريانة =

ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظرًا ولا يحفظونها ظاهرًا كما القرآن.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَنُذُرِ﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله. أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ في يوم شؤم. وقرئ: «في يوم نحس» كقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾. [فصلت: ١٦]. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم. أو استمر عليهم جميعًا كبيرهم وصغيرهم، حتى لم يبق منهم نسمة، وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور. ويجوز أن يريد بالمستمر: الشديد المرارة والبشاعة ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض[1]. يتدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتًا وهم جثث طوال عظام، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، منقعر: منقلع، عن مغارسه. وقيل: شبهوا بأعجاز النخل، لأنّ الريح كانت تقطع رءوسهم فتبقى أجسادًا بلا رءوس. وذكر صفة ﴿نَخْلٍ﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث، كما قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

= الوجه. والمشمعلة: السريعة الجري. والنخيب: الخالية المجوفة. والمراد: التي ذهب عقلها ورأسها، ما يقنع: أي ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها. وقوله: «الورد الأول» مفعول به، والثاني مفعول معه: هذا حال أم سهل. وأما حال مهره، فبينها في قوله: وقمت إليه مهيئًا ومعدًا له باللجام. أو مسهلًا له به، دلالة على أنه كان صعبًا لولا اللجام. وهنالك إشارة إلى مكان الحرب، أو إلى زمانها، يجزيني: أي يعطيني جزاء صنعي معه، وشبهه بمن تصح منه المجازاة على طريق المكنية، وصنعه: هو سقيه اللبن.

ينظر: البحر المحيط (٨/ ١٧٨)، الدر المصون (٦/ ٢٢٨).

(١) قوله: «آخذين أيديهم بأيدي بعض» عبارة النسفي: آخذين بعضهم بأيدي بعض. (ع)

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ وقرئ: «أبشر منا واحد»، على الابتداء. «ونتبعه» خبره، والأوّل أوجه للاستفهام. كأن يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق، وسعر: ونيران، جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال [من الطويل]:

كَأَنَّ بِهَا سُعْرًا إِذَا الْعِيسُ هَزَّهَا ذَمِيلٌ وَإِرْخَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ[1]

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرًا منهم واحدًا؟ قلت: قالوا أبشرًا: إنكارًا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة[2]، وقالوا: ﴿مِّنَّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا: ﴿وَاحِدًا﴾ إنكارًا لأن تتبع الأمّة رجلًا واحدًا. أو أرادوا واحدًا من أفنائهم[3] ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم: ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة ﴿أَشِرٌ﴾ بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أصالح أم من كذبه. وقرئ: «ستعلمون» بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبًا لهم. أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر، بضم الشين، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر، وهو الأبلغ في الشرارة. والأخير والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض، وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة[4] كما سألوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحانًا لهم وابتلاء ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال: بينهم، تغليبًا للعقلاء «محتضر» محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف

---

(١) السعر: الجنون، والمسعور: المجنون والذي ضربته السموم. يقول: كأن بناقتي جنون لقوة سيرها؛ فالعيس: جمع عيساء وهي النوق البيض، حركها ذميل وإرخاء: وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلي من باب الإسناد للسبب؛ وإن أريد بالهز التسيير فيكون من الإسناد للمصدر. كجد جده؛ لكن المسند هنا من المتعدي، والمسند إليه من اللازم.

(٢) قوله: «أعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأهل السنة يفضلون البشر على الملك. (ع)

(٣) قوله: «واحدًا من أفنائهم» وفي الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو. اهـ، ولم يذكر له واحدًا. (ع)

(٤) قوله: «ومخرجوها من الهضبة» في الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض. (ع)

أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقيل فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صيحة جبريل. والهشيم؛ الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة وما/ ٢٠٤/٢أ يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار، أي: الحظيرة.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿حَاصِبًا﴾ ريحا تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿بِسَحَرٍ﴾ بقطع من الليل، وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه، وأنشد [من الرجز]:

مَـرَّتْ بِـأَعْـلَـى الـسَّـحَـرَيْـنِ تَـذْأَلُ[1]

وصرف لأنه نكرة. ويقال: لقيته سحر: إذا لقيته في سحر يومه ﴿نِّعْمَةً﴾ إنعامًا، مفعول له ﴿مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ـ عليه السلام ـ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ فكذبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾ متشاكين ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روي أنهم لما عالجوا باب لوط ـ عليه السلام ـ ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] فصفقهم جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه صفقة فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلت لهم: ذوقوا على ألسنة الملائكة ﴿بُكْرَةً﴾ أوّل النهار وباكره، كقوله: مشرقين، ومصبحين. وقرأ زيد بن ـ علي رضي الله عنهما ـ: «بكرة»، غير منصرفة، وتقول: أتيته بكرة وغدوة بالتنوين. إذا أردت التنكير، وبغيره إذا عرّفت وقصدت

---

(١) يا سائلي إن كنت عنها تسأل ... مرت بأعلى السحرين تذأل

يقول: يا من تسألني إن كنت تسألني عن الحمر الوحشية لا غير، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذي قبل انصداع الفجر. والأدنى: هو الذي عند انصداعه، أي مرت في السحر الأول تذأل بالهمز، أي: تسرع في المشي من ذأل كمنع: إذا مشى في خفة. ومنه: ذؤالة الذئب، وبين تسأل وتذأل الجناس المضارع.

ينظر: لسان العرب (سحر)، (ذأل)، وتهذيب الغة ٢٩٣/٤، وتاج العروس (سحر)، (ذأل)، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٧، والمخصص ٤٧/٩، وكتاب العين ١٣٦/٣، ١٩٨/٨.

بكرة نهارك وغدوته ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟ قلت: فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأوّلين ادّكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن[1] تارات؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: ١٣] عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمٰن، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: ١٥] عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب. مصورّة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿النُّذُرُ﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. أو جمع نذير وهو الإنذار ﴿بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ الكفار المعدودين: قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، أي أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا. أو أقلّ كفرًا وعنادًا يعني: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شرّ منهم ﴿أَمْ﴾ أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ في الكتب المتقدّمة. أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنًا من عذاب الله، فأمنتم بتلك البراءة ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام. وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر، فتقدّم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: أيّ جمع يهزم، فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع» عرف تأويلها (١٥٢٨) ﴿وَيُوَلُّونَ

١٥٢٨ ـ ١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/٢٥٩)، وابن جرير الطبري (١١/٥٦٧) (٣٢٨٢٣) كلاهما من طريق معمر عن أيوب قال: لا أعلمه إلا عن عكرمة أن عمر قال لما نزلت: «سيهزم =

---

(١) قوله: «ويقعقع لهم الشن» القربة الخلق، كذا في الصحاح. (ع)

﴿ٱلدُّبُرَ﴾ أي الأدبار كما قال [من الوافر]:

كُـلُـوا فِـي بَـعْـضِ بَـطْـنِـكُـمُ تَـعِـفُّـوا ....[1]

وقرئ: «الأدبار» ﴿أَدْهَىٰ﴾ أشدّ وأفظع. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه ﴿وَأَمَرُّ﴾ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرئ: «سنهزم الجمع».

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ في هلاك ونيران. أو في ضلال عن الحق في الدنيا، ونيران في الآخرة ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد مسّ الحمى وذاق طعم الضرب؛ لأنّ النار إذا أصابتهم بحرّها ولفحتهم بإيلامها، فكأنها تمسهم مسًّا بذلك، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذي ويؤلم. وذوقوا: على إرادة القول. و«سقر»: علم لجهنم. من سقرته النار وصقرته إذا لوّحته. قال ذو الرمّة [من الطويل]:

إِذَا ذَابَـتِ الـشَّـمْـسُ اتـقـى صَـقَـرَاتِـهَـا ... بِـأَفْـنَـانِ مَـرْبُـوعِ الـصَّـرِيـمَـةِ مُـعْـبِـلِ[2]

= الجمع»...

قلت: وهذا إسناد منقطع، فإن عكرمة لم يسمع من عمر
لكن للحديث شاهد من حديث ابن عباس.
أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٨) كتاب المغازي (٦٤) ـ حديث رقم (٣٩٥٣) وأحمد في مسنده (١/ ٣٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٤٨) (١١٩٧٦) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر» وحديث عمر عزاه الهيثمي في المجمع (٦/ ٨١) للطبراني في الأوسط وقال فيه محمد بن إسماعيل الأنصاري ولم أعرفه.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٨٤) لابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
وقال الحافظ:
أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر ـ فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق، والطبري، وابن أبي حاتم، ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً. انتهى.

---

(١) تقدم.
(٢) لذي الرمة يصف بقر الوحش، يقال: ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل اللعاب، وصقر الصخرة بالمصقر: ضربها بالمعول ليكسرها. وصقرته الشمس: إذا ضربته فغيرت =

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر[1] وقرئ: «كل شيء» بالرفع. والقدر والقدر: التقدير. وقرئ بهما، أي: خلقنا كل شيء مقدّرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة. أو مقدّرًا مكتوبًا في اللوح. معلومًا قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أراد قوله كن، يعني أنه إذا/ ٢/ ٢٠٤ب أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾

= لونه. وصقرة الشمس: اشتداد وقعها على الأرض. والأفنان، جمع فنن وهو مجتمع الورق الملتف المتكاثف في الغصن. والمربوع: الذي أصابه مطر الربيع. والصريمة: الرملة المتصرمة من الرمال. والمعبل: كثير الورق مفتوله. يقول: إذا اشتد حر الشمس توقى شدائده بأغصان شجر سقاه الربيع في هذا الموضع من الرمال. والمعبل: كثير الورق. ومعبل: بدل من مربوع، كأنه جامد. ويجوز أنه نعت له، على أن إضافته من إضافة الوصف إلى الظرف، فلا تفيده التعريف، فيصح وصفه بالنكرة.

ينظر: ديوانه ص ١٤٥٨، ولسان العرب (ذوب)، (صقر)، (ربع)، (عبل)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٧٥، ٤٠٩، ٨/ ٣٦٥، ١٥/ ٢١، وتاج العروس (ذوب)، (صقر)، (عبل)، وأساس البلاغة (ذوب)، وكتاب العين ٥/ ٦٠، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٦٦، ومقاييس اللغة ٢/ ٣١٤، ٣/ ٢٩٧.

(١) قال محمود: «منصوب بمضمر يفسره الظاهر» قال أحمد: كان قياس ما مهده النحاة: اختيار رفع (كل) لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة، ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر، مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعني: الأمر، والنهي... إلى آخرها، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعًا لسر لطيف يعين اختيار النصب: وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي: (خلقناه) صفة لشيء، ورفع قوله: (بقدر) خبرًا عن كل شيء المقيد بالصفة، ويحصل الكلام على تقدير: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فأفهم ذلك أن مخلوقًا ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في الرفع من نقصان المعنى ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تامًا واضحًا كفلق الصبح، لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله، فيقولون: هذا لله بزعمهم، وهذا لنا: فغرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح إلى الشقاء، وينقل قراءتها بالرفع؛ فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية. مع أنها هي الأولى في العربية، لولا ما ذكرناه، أيجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظًا ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا؟ وهو المخير فيما يحكم به، فإلى الله ترجع الأمور.

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور في اللوح.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

«ونهر» وأنهار، اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء. ونهَر: جمع نهر، كأسد وأسد ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضيّ. وقرئ: «في مقاعد صدق» ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ مقرّبين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كل غب[1] بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر» (١٥٢٩).

١٥٢٩ ـ تقدم برقم (٣٤٦)

وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أُبي بن كعب. انتهى.

---

(١) قوله: «في كل غب بعثه الله» في الصحاح «الغب»: أن ترد الإبل الماء يومًا وتدعه يومًا. والغب في الزيارة: قال الحسن: في كل أسبوع. (ع)